

المركز القومي للترجمة



نوبل في الأدب
1981



إلياس كانتى

الجماهير والسلطة

ترجمة : محمد أبو رحمة
مراجعة : عبد الحميد مرزوق

فكر

3107

المكتبة

الجماهير والسلطة

تأليف: إلياس كانتى

ترجمة: محمد أبو رحمة

مراجعة: عبد الحميد مرزوق

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف : 02 - 284432157 - 002
www.mahrousaeg.com
e.mail : info@mahrousaeg.com
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

تأسس في أكتوبر 2006
تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران

- الجماهير والسلطة
- إلياس كانتي
- محمد أبو رحمة
- عبد الحميد مرزوق

.....

- العدد: 3107
- الطبعة الأولى: 2018
- اللغة: الألمانية
- رقم الإيداع: 14536
- التقييم الدولي: 0-725--313--977-978

هذه ترجمة كتاب:

Massw und Macht
Von: Elias Canetti
© Claassen Verlag Berlin 1960
© Elias Cenetti Erben Zürich 1994
Published by Kind Prmission of Carl Hanser Verlag MÜnchen

.....

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
ومركز المحرسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الجماهير والسلطة

تأليف: إلياس كانتى

ترجمة: محمد أبو رحمة
مراجعة: عبد الحميد مرزوق



فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كانتى، هنتر إلياس ١٩٠٥-١٩٩٤
الجماهير والسلطة / تأليف: إلياس كانتى؛
ترجمة: محمد أبو رحمة، مراجعة: عبد الحميد مرزوق. ط1.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، 2018.
606 ص؛ 17 × 24

تدمك 0-725-313-977-978

1 - الأنثروبولوجيا الاجتماعية

2 - السلطة الاجتماعية

أ- أبورحمة، محمد (مترجم)

ب- مرزوق، عبد الحميد (مراجع)

ج- العنوان

301.2

رقم الإيداع: ١٤٥٣٦ / ٢٠١٨

المحتويات

11	الكتلة
13	تحول رهبة الاحتكاك
15	الكتلة المنفتحة والكتلة المنغلقة
18	التخلص من الكبت
20	نزعة التدمير
23	الانطلاق
26	الشعور بالملاحقة
28	ترويض الكتلة في الأديان العالمية
31	الذعر
34	الكتلة كحلقة
36	سمات الكتلة
39	الإيقاع
44	الركود

50	تباطؤ أو بُعد الهدف
54	الكتلة غير المرئية
61	التقسيم وفقا للانفعالات
63	كتلة التحريض
68	كتلة الفرار
71	كتلة الحظر
74	كتلة الاتجاه المعاكس
79	كتلة الاحتفال
81	الكتلة المزدوجة رجال ونساء.. الأحياء والأموات
87	الكتلة المزدوجة: الحرب
94	بللورات الكتلة
97	رموز الكتلة
115	الحشد والحشود
121	حشد الصيد
124	حشد الحرب
130	حشد المناحة
135	حشد التكاثف
141	التناول
144	الحشد الداخلي والحشد الساكن
147	خصوصية الحشد وثباته عبر التاريخ
150	الحشود فى أساطير أجداد قبائل الـ"أراندا"
155	التشكيلات البشرية عند قبيلة الـ"أراندا"
159	الحشد والدين
161	تحول الحشد
163	الغابة والصيد عند قبيلة "ليله" بـ"كاساي"
168	غنيمة حرب الجيفارو

172	رقصات المطر عند هنود "بوبلو" الحمر
175	عن ديناميكية الحرب: القتل الأول : النصر
179	الإسلام كدين جهاد
182	ديانات المناحة
186	احتفال الشيعة بشهر "المحرم"
196	الكاثوليكية والكتلة
200	النار المقدسة في القدس

209 الكتلة والتاريخ

211	رموز كتلة القوميات
223	ألمانيا ومعاهدة فرساي
228	التضخم والكتلة
234	جوهر النظام البرلماني
237	التوزيع والتكاثر - الاشتراكية والإنتاج
241	تدمير قبائل الـ"أكسوساس" لنفسها

249 أحشاء السُلطة

251	الالتهام والهضم
261	اليد
271	عن سيكولوجية تناول الطعام

277 الباقي على قيد الحياة

279	الباقي على قيد الحياة
281	الباقي على قيد الحياة والحصانة
284	الشغف بالبقاء على قيد الحياة
287	صاحب السُلطة كباقي على قيد الحياة
291	نجاة فلافيوس يوسيفوس

300	نفور أصحاب السلطة من الباقين على قيد الحياة - الحكام وخلفاؤهم
305	صور البقاء على قيد الحياة
311	الباقي على قيد الحياة في عقيدة شعوب الطبيعة
323	الأموات كالأحياء
334	الأوبئة
338	عن شعور المقابر
341	عن الخلود
343	عناصر السُّلطة
345	العنف والسلطة
348	السلطة والسرعة
351	سؤال وجواب
357	السر
364	الحكم والإدانة
367	سلطة العفو. الغفران
369	الأمر
371	الأمر: فرارٌ وغصة
376	ترويض الأمر
378	ارتداد الأثر ورهبة الأمر
380	الأمر الصادر إلى كثيرين
383	توقع الأمر
386	تطلع حجيح عرفات للأمر
388	غصة الأمر والنظام
390	الأمر. الخيل. السهم
394	الإخفاء الديني طائفة الخصيان

398	السلبية وانفصام الشخصية (الشيزوفرينيا)
402	الارتداد
406	تفكك الغصة
409	الأمر والإعدام الجلاء المسرور
411	الأمر والمسئولية

413 التحول

415	الحدس والتحول لدى رجال الأدغال
421	تحولات الفرار الهستيريا والهوس والملاخوليا
428	التكاثر الذاتى وأكل الذات الهيئة المزدوجة للطوطم
440	الكتلة والتحول فى موسيقى المعادن لفرقة ديليريوم
	تريمنس
453	المحاكاة والتظاهر
457	الشخصية والقناع
463	التخلص من التحول
465	محظورات التحول
470	العبودية

473 مظاهر السلطة

475	عن أوضاع الإنسان وما تمثله من أشكال السلطة
484	المايسترو
487	المجد
489	نظام الزمن
492	البلاط
494	العرش المتنامى لقيصر بيزنطة
496	أفكار المصاب بالشلل

503الحكم وجنون العظمة
505	ملوك أفارقة
519	سلطان دلهي محمد طغلق
530	حالة شريبير الجزء الأول
545	حالة شريبير الجزء الثاني
559خاتمة الكتاب
561	تحلل الباقي على قيد الحياة
567	هوامش
588	المراجع

الكتلة

تحول رهبة الاحتكاك

إن أكثر ما يخشاه الإنسان هو الاحتكاك بشيءٍ يجهله، لذا فهو يسعى لرؤية ما يحك جلده، ويبتغى معرفته، أو تصنيفه على أقل تقدير؛ فالإنسان يتفادى ملامسة كل ما هو غريب عنه، ففي أثناء الليل أو في أي مكانٍ يسوده الظلام، قد يتحول الفزع من الاحتكاك بشيءٍ على غير المتوقع إلى حالةٍ من الذعر؛ فما يرتديه الإنسان من ملابس لا يمكن أن يوفر له في حد ذاته الأمان بدرجة كافية، فليس هناك أسهل من تمزيق الملابس، وليس هناك أسهل من النفاذ إلى لحم المهاجم، وتجريده حتى يكون بلا حماية، عارياً ناعماً.

ما من مسافة صنعها الإنسان حول نفسه إلا وقد فرضتها عليه تلك الرهبة من الاحتكاك، فالناس يحبسون أنفسهم في منازل لا تسمح لأحدٍ بالدخول إليها، حيث يتوافر لهم - وهم بداخلها فقط - شعور بالأمان بدرجةٍ أو بأخرى. أما الخوف من المُقتَحِم فلا يقتصر على الخوف من نيته السرقة فحسب، بل هو أيضاً خوف من قبضة المُقتَحِم المباغتة في الظلام. فمن حينٍ إلى آخر كانت اليد، المتخذة هيئة المخلب، تُستخدم رمزاً لمثل هذه المخاوف. وقد انطوى المعنى المزدوج لكلمة "هجوم" على كثير من هذه الحالات، فمعنى الفعل "يهاجم" يحمل دلالة الاحتكاك البريء والهجوم الخطر على حدٍّ سواء. وشيءٌ من المعنى

الأخير يتلازم مع المعنى الأول (البرىء)، إلا أن كلمة "هجوم" قد اقتضت على المعنى السيئ فقط.

وهذا النفور من التلامس يلزمننا حتى في أثناء وجودنا بين الناس. فقد أملت علينا هذه الرهبة أسلوب حركتنا في الطريق بين كثير من الناس، وكذلك في المطاعم والقطارات والحافلات. حتى إذا اقتربنا كثيراً من آخرين، وكان بوسعنا تأملهم ومعاينتهم بدقة، فإننا نتفادى أى احتكاك بهم قدر الإمكان. فإذا ما فعلنا ذلك يكون هناك شيء ما قد أثار إعجابنا، فنبادر بالاقتراب منهم. أما الاعتذار السريع المعبر عن احتكاك غير متعمد، والقلق انتظاراً لذلك، ورد الفعل الحاد، الذى يكون جسدياً أحياناً - حتى لو لم يحدث ذلك - والنفور والكرهية تجاه من ارتكب ذلك، حتى مع الشك أنه ارتكب ذلك، فإن هذه السلسلة الكاملة من ردود الفعل النفسية تجاه ملامسة الغريب، في حالاتها المتقلبة المتطرفة المستفزة، تثبت أن الأمر هنا يدور حول شيء عميق للغاية ومتيقظ ومربك دائماً، إنه شيء يلزم المرء أبداً إذا ما أقام حدوداً حول نفسه. وهذا النوع من الرهبة يسبب الشعور بالاضطراب حتى في أثناء النوم، حينما يكون المرء غير قادرٍ على الدفاع عن نفسه.

إنها الكتلة وحدها، هى التى يمكن أن تُخلَّص المرء من رهبة الاحتكاك. فهى الحالة الوحيدة التى تنقلب فيها هذه الرهبة إلى نقيضها. إنها الكتلة الكثيفة التى يحتاجها المرء من أجل ذلك، التى يضغط فيها جسدٌ على آخر، وهى كثيفةٌ فى صيغتها الروحية أيضاً حتى إن المرء لا يلحظ من هو الذى يضغط على الآخر. فإذا ما سلَّم المرء أمره للكتلة فإنه لا يخشى ملامستها. وفى حالتها المثالية تسود المساواة بين الجميع، فلا يوجد هناك اختلافٌ حتى فى النوع، فمن يضغط على الآخر يكون مثله كذلك، فهو يشعر به كما يشعر بذاته. وكل ما يحدث يكون كأنه حدث داخل جسدٍ واحد. وربما كان هذا واحداً من الأسباب التى تفضى إلى سعى الكتلة إلى هذا التماسك الشديد؛ فهى لا تبغى إلا الخلاص التام من رهبة التلامس الفردى. فكلما ازدادت قوة ضغط الناس لبعضهم البعض تنامى شعورهم بالاطمئنان، وتلاشى الخوف بينهم. ويُعد تحول رهبة الاحتكاك هذا واحداً من خصائص الكتلة. فالارتياح الذى يسودها يتخذ بعداً مؤثراً على كثافة الكتلة الكبرى، وهو ما سوف نعالجه فى سياقٍ آخر.

الكتلة المنفتحة والكتلة المنغلقة

إن الكتلة بدورها ما هى إلا ظاهرة مليئة بالأسرار لا تقل عما نعرفه عن الظواهر الكونية التى تحدث فجأة من دون توقع. فقد يتجمع نفرٌ قليلٌ من الناس، خمسة أو عشرة أو اثنا عشر، ليس أكثر، ولم يكن هناك بعد شئٌ مُعلنٌ ولا شئٌ متوقَّع، وفجأةً يغص المكان بالناس ويتدفق إليهم آخرون من كل ناحية، كأن الطرق قد صارت باتجاه واحد. وكثيرٌ من هؤلاء لا يدرون بما حدث، ولا يملكون إجابةً على من يسألهم، إلا أنهم يكونون في عجلةٍ من أمرهم حتى يصلوا هناك، حيث تكون الأغلبية. إنه قرار مصيرى فى حركتهم التى تختلف بحق عن التعبير عن أى فضولٍ اعتادوا عليه فى حياتهم. ويذهب البعض إلى القول بأن الحركة لأى منهم لا تتم إلا بمشاركة الآخرين، وهذا أمر لا يتم من جانب واحد؛ حيث إن أمامهم هدفًا، وهو هناك قبل أن يجدوا التعبير عنه، فالهدف هو البقعة الأكثر ازدحامًا- أى الموضوع الذى يتجمع معظم الناس فيه.

لعلنا يجب علينا أن نذكر بعض الأشياء عن هذا الشكل المتطرف للكتلة العفوية، فهى هناك حيث نشأت، فى مهدها الحقيقى، وهى ليست على هذا النحو من العفوية كما تبدو للعيان، فهى توجد بالفعل فى أى مكانٍ آخر غير

هذا الذى يتخذ منه الخمسة أو العشرة أو الاثنا عشر شخصاً منطلقاً لهم، وما إن تنشأ حتى تسعى إلى أن يتكون منها عددٌ أكبر. فالإلحاح فى النمو هو أول وأسمى صفات الكتلة، فهى تريد احتواء كل من تستطيع الوصول إليه، فكل من يبدو على هيئة إنسانية يمكن أن ينضم إليها. إن الكتلة الطبيعية هى الكتلة المفتوحة، لم توضع حدوداً لنموها على الإطلاق، ولا تعترف بالمنازل والأبواب والأقفال، وترتاب مما يُغلق فى وجهها، وعليها أن نفهم كلمة "منفتحة" فى هذا المقام بكل ما تحويه الكلمة من معانٍ، فهى موجودةٌ فى كل مكانٍ وفى كل اتجاهٍ. والكتلة المفتوحة تظل موجودةً ما دامت فى طور النمو، ويبدأ انهيارها حالما تتوقف عن النمو. إنها كما نشأت فجأةً تفتت على النحو ذاته، وهى فى هذا الشكل العفوى تكون كياناً حساساً، فانفتاحها الذى يتيح لها النمو هو الخطر الذى يهددها فى الوقت ذاته، ولا يفارقها الإحساس بالانهيار، فهو دائمٌ حتى بداخلها، وهى تحاول الإفلات منه من خلال النمو السريع، وهى تستقبل كل شىء بقدر إمكانها.. ولكن، ولأنها تستقبل كل شىء، فإنها لا بد أن تنهار.

وأما الكتلة المغلقة فهى على النقيض من الكتلة المفتوحة التى تبغى نمواً بلا نهاية والموجودة فى كل مكان، وتسعى للحصول على اهتمام كوني. فالكتلة المغلقة فى غنى عن النمو ولا تهتم إلا بوجودها. وأول ما يلفت الانتباه إليها هو الحدود. فالكتلة المغلقة مستقرة، وهى تخلق لنفسها مكانها الذى توجد داخل حدوده، فالمكان الذى تشغله يكون خاصاً بها، وهو ما يمكن مقارنته بالوعاء الذى يُصب فيه سائلٌ، فيكون معروفًا قدر السائل الذى يستوعبه. أما مداخل المكان فهى معدودة فلا يمكن أن يصل إليها المرء كيفما شاء. فاحترام الحدود قائمٌ. وقد تكون هذه الحدود من الأحجار، أى من مبنى حجرى صلب، وربما يحتاج الأمر إلى تصريح قبولٍ خاص. وربما يتطلب الأمر دفع رسوم دخول، فإذا امتلأ المكان بكثافةٍ كافيةٍ فإنه لا يُسمح بالدخول بعد ذلك، حتى إذا طُفح المكان بمن فيه فإن بقاء الكتلة الكثيفة فى المكان المغلق يظل هو القضية الأساسية، ومن يوجد خارجها لا ينتمى إليها بالفعل. والحدود تمنع النمو غير المنتظم، لكنها تصعب وترجئ التفتت، فما يُضحى به من فرص النمو تكسبه الكتلة فى استمرارها. وهى محميةٌ من التأثير الخارجى الذى يمكن أن ينطوى على عداءٍ ومخاطر، لكنها، على نحوٍ خاصٍ تماماً، تضع التكرار فى حساباتها، فمن خلال فرصة تكرار التجمع تغطى الكتلة كل مرةٍ على تفككها، فمكانها فى انتظارها،

وهو هناك رهن إرادتها. وما دام هو هناك فإنها سوف تتجمع على النحو نفسه. فالمكان خاصٌ بها حتى إن كان في فترة انحسار، حتى إن كان المكان خاليًا فهو يبشر بزمن المد.

التخلص من الكبت

إن التخلص من الكبت هو أهم حدثٍ يجرى في إطار الكتلة، فقبله لا يكون هناك وجودٌ حقيقى للكتلة. فالتخلص من الكبت هو ما يجعلها حقيقةً. إنه اللحظة التى يتخلص فيها كل من ينتمون إلى الكتلة من كل الفروق بينهم ويشعرون بالمساواة. ومن بين هذه الفوارق نعرف تلك الفروق القائمة، الواضحة تمامًا، مثل فارق المكانة والمستوى والملكية. وكان الناس، كأفراد، يدركون هذه الفروق دائمًا، وهى عبءٌ ثقيل يرغمهم عنوةً على التفرق. ففى موضعٍ آمن بعينه يقيم الإنسان، باذلاً قصارى جهده على درء كل ما يدنو منه. وهو هناك مثل طاحونة هواءٍ مشرفة على سهلٍ مترامى الأطراف، هناك يقبع معبراً عن وجوده، قلقاً، ولا يكون هناك شئٌ، حتى الطاحونة التالية. فكل الحياة التى يعرفها قامت على مساحةٍ فاصلة، فمنزله الذى يغلقه على نفسه وعلى ما يملكه، والمنصب الذى يتقلده، والمركز الذى يطمح إليه، كل ذلك يفضى إلى خلق مسافاتٍ فاصلة، وإلى ترسيخها وزيادة حجمها. وحرية أية حركة مؤثرة للانتقال من موقعٍ إلى آخر تكون مغلوطةً، فالحركة والحركة المضادة تتلاشيان كأنهما تسربتا في رمال الصحراء. فلا يستطيع أحدٌ الاقتراب من الآخر، ولا يستطيع أحدٌ الصعود إلى موقعٍ الآخر. فالنظم الهرمية الراسخة في كل مجالات الحياة لا تسمح لأحدٍ بمس الأعلى،

أو تدعه، كما يبدو، يهبط للأدنى. والتوازن بين هذه الفوارق يبدو مختلفًا في بعض المجتمعات. ففي بعضها يركز الفارق على المنشأ، وفي البعض الآخر يقوم على الوظيفة أو الأملاك. والأمر هنا لا يدور حول توصيف هذا النظام الطبقي، لكن جوهر الأمر أن هذا النظام موجود في كل مكان واستقر في وعى البشر فصار هو الأمر الحاسم في السلوك نحو الآخرين. ورضا البعض بالوجود في نظام طبقي على درجة أعلى من الآخرين لا يعد عوضًا عن فقدان حرية الحركة. فالإنسان يظل في موقعه المنفصل جامدًا متجهماً، مثقلًا بهذه الأعباء، فلا يغادر موقعه، ناسيًا أنه هو من وضعها، ويشتاق إلى التحرر منها. لكن كيف يستطيع التحرر وحده؟ فمهما فعل في سبيل ذلك وأصر عليه فإنه سيكون هناك آخرون ممن يفسدون جهوده، فما دام هؤلاء متشبثين بمواقعهم المنفصلة فإنه لا يمكنه الاقتراب منهم على الإطلاق. فقط الجميع معًا يستطيعون التحرر من مواقعهم المنفصلة، وهذا بالضبط هو ما يحدث في الكتلة. فمن خلال عملية التخلص من الكبت يتم التخلص من الفوارق ليشعر الجميع بالمساواة. وفي هذه الكثافة، حيث لا يكاد يوجد مكانٌ بين الناس لأن كل جسدٍ يضغط على الآخر، يكون اقتراب كلٍ منهم من الآخر كاقترابه من نفسه، ما يولد شعورًا هائلًا بالارتياح. ومن أجل هذه اللحظة السعيدة، إذ لم يعد يشعر أحد بأنه أفضل من الآخر، يتحول الناس إلى كتلة. وفي هذه اللحظة، لحظة التخلص من الكبت المنشودة والسعيدة، يكمن الخطر. فهي تحمل مرض الوهم الأساسي، فالناس الذين يشعرون فجأة بأنهم متساوون سيدركون أنهم لم يحققوا حقًا المساواة الدائمة. فهم يعودون إلى مساكنهم المستقلة ليرقدوا في فراشهم وينامون، وهم يحتفظون بما يملكون ولا يتنازلون عن مكانتهم، ولا يهجرون ذويهم، ولا يفرون من عائلاتهم. فقط في حالة الإيمان الحقيقية يتحلل الناس من ارتباطاتهم القديمة ليعقدوا أخرى جديدة. ومثل هذه الروابط أصفها أنا ببللورات الكتلة التي لا تقبل، طبقًا لطبيعتها، سوى عددٍ محدود من الأعضاء، وتؤمن وجودها من خلال قواعد قاسية. وسوف نتناول وظيفتها فيما بعد بإسهاب. إلا أن عقد الكتلة ينفطر وهي تشعر بأنها ستنهار، وهي تخشى الانهيار، وهي لا تستطيع الاستمرار في الوجود إلا باستمرار عملية التخلص من الكبت بأن ينضم إليها أناسٌ جدد. فنمو الكتلة فقط هو الذى يمنع المنتمين إليها من عودتهم إلى أعبائهم الشخصية.

نزعة التدمير

يدور الحديث غالبًا عن نزوع الكتلة للتدمير وهو أول ما يلفت النظر إليها. وما لا يمكن إنكاره هو حدوث ذلك في بلاد وثقافات مختلفة، وقد عرفنا هذه النزعة واستهجنها البعض، لكن أحدًا لم يفسرها. الكتلة تفضل تدمير المنازل والأدوات. فلما كان الأمر يدور غالبًا حول ما هو قابل للكسر، مثل النوافذ والمرايا والأواني والصور والأوعية، فإن الرأي يميل إلى الاعتقاد بأن هذه القابلية للكسر هو ما يغري الكتلة بالتدمير. ومن الصحيح، يقينًا، أن صخب التدمير، كصوت تحطيم الأواني وصلصلة النوافذ، يساهم على نحو كبير في الفرح بذلك. إنها صيحات الحياة القوية لمخلوقٍ جديد. صرخات مولودٍ جديد. ولما كان من اليسير إثارة ذلك فإن نزعتها تتصاعد، ليصرخ الكل في وجه الجميع ويكون صخب الصلصلة هو التعبير عن استحسان الأمر. ويبدو أن الاحتياج الخاص لهذا النوع من الصخب ينشأ مع بداية الأحداث، لأنه لم يكن هناك شيء قد تكون بعد من كل هذه الأمور الكثيرة للغاية، أو لأنه لم يكن قد حدث شيء على الإطلاق، فيأتي الصخب كوعدٍ بالدعم الذي يأمله المرء. وهو فألٌ مبشر بأعمالٍ مقبلة. ولكن قد يكون من الخطأ أن نعتقد بأن سهولة التحطيم هو الأمر الحاسم في ذلك. فقد كان هناك

من اصطدم بتمثيل من أحجار قاسية فلم يهدأ إلا بعد أن قام بتشويهها ومحو ملامحها. فقد حطم المسيحيون رؤوس وأذرع الآلهة الأغريقية. كما أنزل المصلحون والثائرون تمثيل القديسين، وقد أنزلوها أحياناً من أماكن مرتفعة كانت تمثل خطراً على الحياة. وغالباً ما كان الحجر الذي حاول المرء تحطيمه صلباً إلى حد أنه اكتفى بتحقيق نصف الهدف. وقد كان تحطيم التماثيل المعبرة عن شيء ما هو تحطيم لنظام هرمي لم يعد معترفاً به. فالمرء يتعدى على الفوارق العامة الراسخة المرئية للجميع والسائدة في كل مكان. وكانت صلابتها تعبيراً عن الاستمرار الذي كان يُعتقد أنه من زمن بعيد، أو منذ الأزل، قائم وغير قابل للزعزعة، وكان الاقتراب منها بنية عدوانية من المحال، فها هي الآن قد سقطت وصارت حطاماً. هكذا يكون التخلص من الكبت قد اكتمل بهذا الحدث، إلا أن ذلك لا يصل دائماً إلى هذا المدى. فهذا النوع من التدمير المألوف الذي تحدثنا عنه منذ البداية لا يُعتبر إلا هجوماً على كل الحدود. فالنوافذ والأبواب من خصائص المساكن، وهى أكثر أجزاء حدودها الخارجية حساسية، فإذا كُسِرت النوافذ والأبواب يكون المنزل قد فقد خصوصيته، فيستطيع كل إنسان الدخول إليه كيفما يشاء، فلا شيء ولا أحد بالداخل صار آمناً. وكما يعتقد البعض فإن الناس يلوذون بهذه المنازل لكي ينأوا بأنفسهم عن الكتلة، عن أعدائهم. ولكن ها قد تحطم ما كان يفصل بينهم وصار لا شيء بينهم وبين الكتلة، فيكون بوسعهم الخروج والالتحاق بها. كما يستطيع المرء استدعاءهم. لكن الأمر ما زال ينطوى على أكثر من ذلك، فالإنسان الفرد يكون لديه إحساس بأنه تجاوز حدود شخصه في الكتلة، فيشعر بالارتياح بعد إزالة كل الحواجز التى ترده إلى شخصه لينغلق على نفسه. وبإلغاء الحواجز يشعر بنفسه حراً ويصير اجتياز هذه الحدود بمثابة حريته. فما يجرى عليه يجب أن يجرى على الآخرين، وهو يتوقع منهم الشيء نفسه أيضاً. فما يغريه بوعاء من الفخار لا شيء غير أنه اعتبره حدوداً، وما يجذبه إلى منزل ما هو الأبواب المغلقة. والأعراف والطقوس، وكل ما يمثل فوارق، يراها بمثابة تهديد له لا يطيقه. ويسعى المرء إلى إعادة توجيه الكتلة المفتتة، إلى هذه الأشكال الراسخة في كل مكان، فهي تمقت سجونها المستقبلية والتى كانت دائماً سجناً لها. فكل شيء يبدو للكتلة المجردة كسجن الباستيل. أما أكثر وسائل التدمير إثارة للانتباه فهي النار. فهي مرئية من مسافة بعيدة وتجذب الآخرين إليها. وهى تدمر على نحوٍ طاع. فلا شيء يعود إلى ما كان عليه بعد حريق النار. فالكتلة

التي تشعل النار تعتقد أنه لا سبيل لمقاومتها. فالجميع سوف ينطلق نحوها بينما هي آخذة في الانتشار، وكل أعدائها سوف تقضى عليهم. فهي كما سئري فيما بعد أقوى رمزٍ يعبر عن الكتلة، وهو يتلاشى مثلها بعد تدمير كل شيء.

الانطلاق

إن الكتلة المفتحة هي الكتلة التي تترك الباب مفتوحًا أمام إلحاحها الطبيعي في النمو. والكتلة المفتحة لا تملك شعورًا أو تصورًا واضحًا عما سيصير إليه حجمها. فهي لا تلوذ بمبنى تعرفه ويكون عليها أن تملأه. فلم يوضع لها معيارٌ، وهي تبغى النمو إلى ما لا نهاية. أما ما تحتاجه من أجل ذلك فهو المزيد والمزيد من الناس. وفي هذه الحال المجردة تكون الكتلة أكثر لفتًا للانتباه، إلا أنها تحتفظ بشيءٍ غير مألوف، لم يُنظر له بعين الاعتبار لما كانت عليه دائماً من حالة تفتتٍ وعدم اكتمال. ولعل أمر النظر إليها بالجدية التي تستحقها لم يكن مستحيلاً لولا الزيادة الهائلة لعدد السكان في كل مكان، والنمو السريع للمدن الذي يعد من سمات عصرنا الحديث. أما كتلة الماضي المنغلقة، التي سنذكرها فيما بعد، فقد تحولت كلها إلى مؤسساتٍ مألوفة. والحالة الخاصة التي عاشها أعضاؤها غالبًا تبدو أمرًا طبيعيًا، فقد كان اجتماع الناس دائمًا من أجل غرضٍ معين، سواء كان دينيًا أو احتفائيًا أو حربيًا. فيبدو أن الغرض يبرر الحالة. فمن شهد عظةً ما، كان يؤمن يقينًا بأن الأمر بالنسبة له يتوقف على العظة فحسب، وكان سيدهش، بل ربما يغضب، لو أن أحدهم أخبره بأن العدد الكبير من المستمعين هو الذي يمنحه ارتياحاً نفسيًا أكثر من العظة نفسها. فكل طقوس وشعائر وقواعد مثل هذه المؤسسات كانت تغفل في الأساس فكرة

مواجهة الكتلة، فكنيسة أمنة غاصة بالمؤمنين لهى أفضل من عالم بأسره غير آمن. فالزيارة المنتظمة للكنيسة، والتكرار المعتاد والدقيق لطقوس بعينها، توفر للكتلة شيئاً يشبه تجربتهم في ترويض ذواتهم. وأداء هذه الفرائض في أوقات محددة يعد عوضاً عن احتياجات أكثر إلحاحاً. وربما كانت مثل هذه المؤسسات ستشعر بالاكتمال لو أن عدد البشرية ظل على ما هو عليه تقريباً. لكن عدد الناس بالمدن كان يتزايد باطراد، وتكاثر عدد السكان في القرون الأخيرة بسرعة مطردة، وبذلك توافرت كل المغريات لتكوين كتلة جديدة كبيرة. ولم يكن هناك شئ، حتى القيادة الأكثر خبرة ودقة، ليحول دون ذلك في مثل هذه الظروف.

كانت كل الاحتجاجات ضد الشعائرية الموروثة التى أخبر عنها تاريخ الدين موجهةً ضد تحجيم الكتلة التى أرادت أن تشعر بعودة نموها أخيراً. ولنتذكر "عظة الجبل" بالعهد الجديد وقد دارت في الخلاء وكان بوسع الآلاف الاستماع إليها. وقد كانت موجهةً بلا شك ضد الممارسة المحدودة لطقوس الهيكل الرسمى. ولنتذكر توجه المسيحية بقيادة "بولس" للانطلاق من حدود شعب القبيلة اليهودى لتصير عقيدةً كونية للبشر كافة. ولنتذكر احتقار البوذية لنظام الفئات الاجتماعية حينذاك في الهند. والتاريخ الوجدانى للديانات العالمية - كل على حدة - ثرى بأحداثٍ تحمل الدلالة المماثلة. فدائماً ما كان الهيكل والطوائف الاجتماعية والكنيسة في رباط وترابط إلى أبعد الحدود. وقد أدت الحروب الصليبية إلى تكوين كتلة بحجم لم يكن مبنى كنيسةٍ بالعالم حينذاك ليتحملها. وقد تحول سكان مدن كاملة فيما بعد إلى مشاهدين لممارسات الجلادين، ثم صاروا بعد ذلك ينتقلون من مدينةٍ لأخرى. وقد كُون "ويسلى" في القرن الثامن عشر حركته اعتماداً على عظاته في الخلاء. وكان قد أدرك تماماً أهمية كتلة مستمعيه الهائلة، فكان أحياناً يسجل في مذكراته عدد من استمع إليه ذات مرة. فالانطلاق من أماكن تأدية الفروض المغلقة كان يعنى كل مرة أن الكتلة تنشد استعادة رغبتها القديمة في النمو المفاجئ السريع وغير المحدود. ولهذا فإن ما أصفه بالفوران هو ذلك الانتقال المفاجئ من كتلة مغلقة إلى كتلة أخرى مفتوحة. وهذا الحدث يتكرر غالباً، إلا أنه لا ينبغي أن نقصره على المكان. وغالباً ما يبدو الأمر كأن كتلة ما تنال من مكانٍ ما، كانت تنعم فيه بالحماية، إلى ميدانٍ وطرق مدينةٍ ما، حيث تجذب إليها كل شئ وتتعرض لكل شئ قد يحدث لها. إلا أن الأكثر أهميةً من هذا الحدث الخارجى هو الحدث الداخلى الذى يتسق معه، أى

عدم الرضا بمحدودية عدد المشاركين، والإرادة المفاجئة في جذب آخرين، والإصرار الملتصق لضمهم جميعاً. ومنذ الثورة الفرنسية اتخذت هذه الفورات شكلاً ما نعتبره هو الشكل الحديث، ربما لأن الكتلة قد تحررت على نحو كبير من فحوى الأديان التقليدية، حتى إننا صرنا نراها مجردة من الناحية البيولوجية، متخلية عن تعاليمها وأهدافها كانت قد تحصنت بها في الماضي. وقد اتخذ تاريخ المئة والخمسين عاماً الماضية منعطفاً حاداً نحو التكاثر السريع لمثل هذه الفورات، حتى إنها شملت الحروب فصارت كتلة حربية. فلم تعد الكتلة تكتفى بالشروط الدينية وبالوعود، فهي تنشد أن تعيش بنفسها الشعور الأعظم بقوة حيويتها ووجودها. وقد استغلت في سبيل هذا الغرض مراراً ما أتيح أمامها من حالات ومطالب اجتماعية. ومن المهم أن نعرف أن الكتلة لا تشعر أبداً بالشعب. فما دام هناك فردٌ واحد لم ينضم إليها فإن شهيتها تظل مفتوحة. وإن كان احتفاظها بهذه الشهية بعد احتوائها لكل البشر أمراً لا يستطيع أحد التحقق منه فإنه أمرٌ واردٌ للغاية، ومحاولاتها في استمرار وجودها تنطوي على شيء من الإحساس بالعجز. أما السبيل الوحيد الذي يتيح أمامها فرص البقاء فهو تكوين كتلة مزدوجة. فكلما ازدادت قوةً وعزماً ظلت فرصة هذه الكتلة المتنافسة في البقاء حية قائمة.

الشعور بالملاحقة

إن أكثر ملامح حياة الكتلة وضوحًا هو ما نستطيع أن نصفه بالشعور بالملاحقة. وهو إحساسٌ مُستنفر ضد كل ما قد يكون عدوًا محتملاً يستطيع فعل ما يشاء، وقد يكون فعله فظًا أو مجاملاً، وقد يكون مشاركًا بإيجاب أو غير مبالٍ، شديدًا أو لينًا، فكأن كل شيء ينبثق من إرادةٍ شريرةٍ مستحكمة أو فكرةٍ خبيثةٍ ضد الكتلة، أى نيةٍ مبيتةٍ لتدميرها على نحوٍ مباشر أو مخادع. ومن أجل تفسير هذا الشعور بالملاحقة والعداء علينا أن ننطلق مرةً أخرى من الحقيقة الأساسية بأن الكتلة تنشُد التكوين والنمو السريع. ومن الصعب وضع تصورٍ معقولٍ عن القوة ووضوح الرؤية اللتين تنتشر بهما. فما دامت الكتلة شعرت أنها ما زالت في طور النمو، في حالات الثورة مثلاً التى تبدأ بكتلة صغيرة متأججة، فإنها ترى أن كل شيء يضعها داخل حدودٍ ضيقةٍ ويقف في طريق نموها. فهى يمكن تشتيتها من خلال الشرطة، إلا أن ذلك لا يكون إلا أثرًا مؤقتًا فقط، كمن وضع يده في عشش دبابير. إلا أنه يمكن مهاجمتها كذلك من الداخل عندما تواجه بالمطالب التى أدت إلى تكوينها، فينسحب منها من هو الأكثر ضعفًا، أما الآخرون الذين كانوا سينضمون إليها فإنهم يرجعون من منتصف الطريق. فالهجوم الخارجى على هذه الكتلة لا يزيد لها إلا قوةً. فشتاتها

الجسدى يعود للالتحام على نحوٍ أقوى مما كان عليه. وأما الهجوم من الداخل فهو خطرٌ حقًا. فثمة أضرار ما حقق بعض المكاسب يتفتت بشكلٍ ملحوظ. والهجوم من الداخل تدفعه رغباتٌ فردية، وهو ما تراه الكتلة كرشوة، "كفعلٍ غير أخلاقى"، لأنه يناقض مبادئها الأساسية الواضحة والنقية. فكل من انتمى إلى مثل هذه الكتلة يحمل داخله خائنًا صغيرًا ينشد الطعام والشراب والحب وراحة البال. وما دام هذا يعتبر تحقيق هذه المتطلبات أمرًا ثانويًا ولم يبالغ في شأنها فإن الكتلة توافق على ذلك، وما إن يصرح بذلك علنًا حتى تبدأ الكتلة في كراهيته والخوف منه، بعد أن تكون أدركت أنه لى إغراءات العدو. فالكتلة تكون دائمًا كأنها قلعةٌ محاصرة، لكنها محاصرةٌ على نحوٍ مزدوج، فعدوُّ لها أمام الأسوار وعدوُّ لها كامنٌ بين صفوفها. وهى تجذب دائمًا في أثناء الصراع أنصارًا أكثر، فأمام كل الأبواب يتجمع أصدقاؤها الجدد ويقرعونها بعنفٍ للسماح لهم بالدخول، وفي لحظات مواتية يرحب بهذا الطلب. لكن هؤلاء يتسلقون الأسوار أيضًا، وتغص المدينة بمزيدٍ ومزيدٍ من المناضلين، إلا أن كلاً منهم يكون قد أتى معه بخائنٍ صغير غير مرئى يتوارى على أسرع نحوٍ بين الصفوف. أما الحصار فهو قائمٌ على محاولة القبض على المتسللين. وأهمية الأسوار لدى العدو بالخارج أعظم من أهميتها لدى المحاصرين داخلها. فالمحاصرون هم من يقومون دائمًا ببنائها والارتفاع بها، ويحاولون تقديم الرشوة للنازحين، فإن لم يستطيعوا منع هؤلاء مطلقًا فإنهم يهتمون بأن يحصد الخائن الصغير المصاحب لهؤلاء عدواة كافية وهو فى سبيله إلى المدينة. إن شعور الكتلة بالملاحقة ليس غير هذا الشعور بالتهديد المزودج. فالأسوار الخارجية تزيد من ضغطها، بينما يكون الهدم بين صفوفها على نحوٍ أشد. فأما ممارسات العدو فصريحةٌ وواضحة، فهو يزيد فى بناء الأسوار، لكن هذه الممارسات تكون مستترّةً وخبيثةً بين الصفوف، لكن هذه هى حال هذه الصور التى تعرض فقط جزءًا من الحقيقة، فالمتدفقون من الخارج، قاصدين دخول المدينة، لا يُعتبرون أنصارًا جددًا ومَدَدًا ودعمًا فحسب، بل هم بمثابة غذاء للكتلة أيضًا. والكتلة التى لا تنمو تكون فى حالة صوم، وهناك وسائل لمواصلة الصوم هذا، فقد طورت الأديان فى ذلك تجربةً رائدةً كبيرة. ولسوف نعرض مدى نجاح الأديان العالمية فى الحفاظ على كتلتها، من دون حتى أن تنميها على نحوٍ حادٍ وقوى.

ترويض الكتلة فى الأديان العالمية

تغير الأديان الراسخة ذات الطابع الكونى نبرة دعايتها على نحو سريع. فى بادىء الأمر تكون حريصةً على الوصول إلى الجميع وضمهم إليها، أى إلى جميع من يمكن الوصول إليهم وضمهم إليها. أما الكتلة التى تداعب خيالها فهى كتلة كونية. فالأمر يتوقف على كل نفسٍ، فعلى كل نفسٍ أن تنضم إليها. أما الصراع الذى يتحتم عليها النجاح فيه فيفضى تدريجيًا إلى نوعٍ من الاحترام الخفى نحو الخصوم الذين لديهم مؤسساتٌ قائمة بالفعل. وهى تدرك مدى صعوبة الحفاظ على كيانها. فالمؤسسات التى تمنحها التضامن والاستمرار تبدو لها أكثر أهمية. فمؤسسات الخصوم تدفعها إلى فعل كل شىء حتى تؤسس مثلها، فإذا ما وفقت إلى هذا تصير هذه المؤسسات هى الشىء الرئيس. والأهمية الذاتية للمؤسسات، التى تمثل حياة خاصة فى حد ذاتها، تقوم تدريجيًا بترويض قوى الدعاية الأولى، فالكنائس تُشيد على نحوٍ يوفر لها استيعاب المؤمنين الموجودين بالفعل، ولا تشرع فى التوسع فى بنائها إلا بقدر من التحفظ والتروى، بشرط أن يكون هناك احتياجٌ حقيقى لذلك. فهناك توجهٌ قوى نحو تأليف بين قلوب المؤمنين الموجودين فى

وحدات منفصلة، ونظرا لزيادة عددهم تحديداً فيكون النزوع إلى التفتت كبيراً، وخطراً تجب مواجهته دائماً.

هناك شعور بسوء النية تجاه الكتلة يجرى في عروق الأديان الكونية التاريخية مجرى الدم على نحو ما، فما تملكه من موروثات وما تنطوى عليه طبائعها من التزام يجعلها تتعرف على كيفية تناميها فجأةً ومن دون توقع. وقصص التراث عن دخول الكتلة الأديان تراها ضرباً من المعجزات - وهى كذلك. وفي حركات الارتداد الدينى التى تخشاها الكنيسة وتلاحقها يتوجه هذا النوع من المعجزات ضدها، والجراح التى لحقت بجسدها أليمة لا تنسى. فكل من غوها السريع فى عصورها المبكرة والارتداد عنها فيما بعد - والذى لا يقل سرعة - يحفظان ارتباط الأديان نحو الكتلة على قيد الحياة. فما تتمناه هو النقيض من أمانى هذا القطيع المطيع. فمن المألوف اعتبار المؤمنين خرافاً يُتَنى على طاعتها. والأديان تستغنى عن توجه الكتلة الأساسى صوب النمو السريع وتكتفى بافتراض مؤقت من مساواة بين المؤمنين، المساواة التى لن تنفذها بحذافيرها، وتكتفى كذلك بكثافة محددة يُحافظ عليها داخل حدود معتدلة كما تحافظ على اتجاه قوى. وهى تؤثر وضع الهدف على مدى بعيد للغاية، فى العالم الآخر، الذى لا يصل إليه المرء فى الحال، ما دام حيّاً. ولذا يكون على المرء بذل جهدٍ عظيم وإظهار الخضوع حتى يستحق ذلك. وشيئاً فشيئاً يصير الاتجاه هو الأهم. وكلما كان الهدف بعيداً تكون هناك فرصة فى الاستمرار. فيحل محل المبدأ اللازم للنمو شيءٌ مختلفٌ تماماً، هو التكرار. ففى أماكن بعينها ومواعيد محددة يتم جمع المؤمنين ليتم وضعهم فى حالة كتلة أكثر اعتدالاً، وهى حالة مؤثرة دون خطر، ويعتادها هؤلاء. أما الشعور بوحدهم فينالونه على جرعات. وعلى صحة هذه الجرعات يتوقف استمرار وجود الكنيسة. فإذا ما اعتاد الناس هذه التجربة المكررة والمحددة بدقة صاروا غير قادرين على الاستغناء عنها، فيتعلقون بذلك تعلقهم بالغذاء أو غيره مما يحقق وجودهم. فإذا حُرمت عقيدتهم فجأةً أو تعرضوا لاضطهادٍ دينى مرسوم من الدولة فإن ذلك لا يمر من دون تبعات. فاضطراب ببيان كتلتهم المتوازن بدقة لا بد أن يؤدى إلى إطلاق كتلة مفتوحة تحتوى على كل السمات الأساسية التى نعرفها. فهى تنتشر بسرعة وتحقق بديلاً أو تراضياً للمساواة الحقيقية، وتحصد لنفسها كثافةً جديدة وأكثر كثيفاً. وهى تتنازل عن الهدف البعيد صعب المنال فى هذه اللحظة. وهو الهدف الذى

تأسست عليه، لتضع هدفها "هنا"، أى فى محيط حياتها المباشر الواضح. فكل الأديان التى تم حظرها فجأةً تثأر لنفسها من خلال مسلك دنيوى. وتتحول ماهية عقيدتها تمامًا إلى انطلاق عنيف واسع وغير متوقع من دون وعي بطبيعة هذا التغيير. وهى تعتقد أنه عقيدتها القديمة، وترى أنها لا تتمسك إلا بمعتقداتها المتجذرة للغاية، إلا أنها فى حقيقة الأمر تكون قد صارت عقيدةً مختلفة تمامًا، لها شعور الكتلة المنفتحة الحاد والفردى، وهى الكتلة التى تكونها حينئذٍ ولا تريد الخروج عليها بأى ثمن.

الذعر

إذا دب ذعرٌ في مسرحٍ ما، كما لوحظ في الغالب، فإن ذلك يعنى تفتتًا للكتلة. فكلما ازداد ارتباط الناس ببعضهم من خلال العرض المسرحي، وكلما ازداد شكل المسرح تماسكًا، أى التماسك الظاهري للناس، كان التفتت أكثر حدة. وقد لا يؤدي العرض المسرحي وحده إلى نشأة كتلة حقيقية. فغالبًا ما يشعر الجمهور بعدم الانبهار لكنه يظل معًا بسبب وجوده بالمكان فقط. أما هذا الذي لم ينجزه العرض المسرحي فإن اندلاع النار ينجزه على الفور. فخطرها على البشر لا يقل عن خطرها على الحيوان. فالنار أقوى وأقدم رموز الكتلة. ونشوب النار يدفع فجأةً بشعور الجمهور الجماعي، المتوافر لديه دائمًا، إلى أقصى مداه. فمن خلال خطرٍ جماعي واضح ينشأ لدى الجميع خوفٌ جماعي. ولوقتٍ قصير يتكون جمهور حقيقي. ولو لم يكن الناس بمسرحٍ ما لكان فرارهم الجماعي كفرار قطيع حيواناتٍ تهدده الخطر. وكانت الحركة المتسقة ستيسر إمكانية الفرار. ومثل هذا الخوف الجماعي النشاط هو تجربةٌ جماعية كبيرة لجميع الحيوانات التي تعيش في إطار قطيع وتستطيع النجاة بأنفسها معًا مثل العداء الماهر. وعلى النقيض من ذلك، أى بالمسرح، فإن الكتلة تضطر إلى تفتتٍ هو الأكثر عنفًا. فالأبواب لا تسمح إلا لواحدٍ أو نفرٍ قليل بالخروج في وقت واحد، لتتحول طاقة الهروب

تلقائياً إلى طاقة دفع للخلف. والمقاعد لا تسمح إلا بمرور فردٍ واحد فقط، وكلّ منفصل تماماً عن الآخر، فكلّ يجلس وحده، وكلّ ينهض وحده، فكلّ مقعده. أما بعد المسافة عن أقرب الأبواب فيكون مختلفاً. وقد تأسس المسرح المألوف على ثبات مجلس الجمهور، فلم يترك له سوى حرية حركة اليد والصوت، أما حرية السيقان فقد قيّدت إلى أقصى حدّ. وهكذا يكون قرار الفرار المفاجئ الذى أصدرته النار قد وُوجه في الحال باستحالة الحركة الجماعية. أما الباب الذى يضطر كل فردٍ إلى الخروج منه، وهو الباب الذى يراه ويرى نفسه فيه، فيكون منفصلاً بحدّة عن كل الباقيين، فهو إطار الصورة الذى سرعان ما يسيطر عليه. وهكذا تضطر الكتلة، في أقصى حالاتها، إلى التفتت بالقوة. ويتجلى الانقلاب في أقصى صورة له في التوجهات الفردية: فالناس يتدافعون ويضربون ويدهسون بعنفٍ في كل اتجاه. وكلما ازداد صراع المرء في سبيل حياته الشخصية ازداد وضوح هذا الصراع ضد الآخرين الذين يعيقون حركته في كل اتجاه، فهم هنا يماثلون المقاعد والأسوار الفاصلة والأبواب مغلقة، مع فارق أنهم أن كلاً منهم يتوجه ضد الآخر. فهذا يدفع ذاك إلى هنا وهناك، حيثما تراءى له أو حيثما تم الدفع به، وليس هناك استثناءً لنساءً أو أطفال أو كبار السن، فلا فرق بين هؤلاء وبين الرجال. وهذه هى إحدى سمات مفهوم الكتلة التى يتساوى فيها الجميع. وبينما يفقد المرء شعوره بالكتلة فإنه يبقى محاطاً بها تماماً. فالمرء يخرج عنها ويسعى للإفلات منها بعد تعرض الجميع للخطر. ولأنه ما زال محشوراً هناك جسدياً فإنه مضطراً إلى العمل ضد الكتلة. أما الاستسلام لها في هذا الوقت فيعنى نهايته، فهى نفسها صارت مهددةً بالانهيار. وفي مثل هذه اللحظة لا يكون في وسعه التأكيد على خصوصيته، وهو إذا ما دفع وضرب يكون قد استنفّر دفعاً وضرباً. فإن زاد في ذلك تلقى المزيد منه وازداد شعوره بنفسه وضوحاً، وازداد وضوح حدوده الشخصية التى عاد إليها ثانيةً. ومن الغريب أن نلاحظ هذا المدى الذى تتمثله الكتلة من سمات النار التى تتصارع داخلها، فهى تنشأ من جراء رؤية غير متوقعة للهيب ما أو من جراء صيحة: "حريق"، فتكون الكتلة بمثابة النار التى يحاول الفرد النجاة منها، ويكون هؤلاء من يحاول دفعهم عنه بمثابة المواد المشتعلة، واحتكاكهم به يكون عملاً عدائياً ترتعد منه كل فرائصه، وكل من يقف في الطريق يصاب بعدوى روح النار العدائية العامة، فطريقتها في الانتشار، والتفافها التدريجى حول أحدهم حتى تحاصره تماماً في النهاية، تُماثل

إلى حدٍّ بعيدٍ مسلك الكتلة التي يحدق خطرها بأحدهم من كل جانب، فحركتها غير المحسوبة، واندفاع ذراعٍ ما أو قبضةٍ ما أو ساقٍ ما تكون ألسنة النار التي تستطيع الاندلاع فجأةً وفي كل مكان. فالنار، كحريق غابة أو غابات الاستبس، هي كتل عدائية تبث شعورًا جارفًا في كل إنسان. أما النار كرمز للكتلة فإنها تكون قد نفذت إلى داخل روح الفرد فتجعل من ذلك جزءًا لا يتجزأ ولا يتغير. فأما ذاك الدهس الشديد وغير المبالي فوق الناس الذي يحدث غالبًا في أثناء حالات الذعر، ويبدو بلا معنى، فهو ليس سوى خروج لهب النار. والذعر، كحالةٍ من حالات التفقت، يمكن تجاهله بأن يعزز المرء من الحالة الأولى للخوف الجماعي الموحد. ففي كنيسةٍ ما تعرضت للتهديد يتم استدعاء ذلك، فيصلي الناس في إطار خوفٍ جماعي إلى إلهٍ جماعي هو من بيده إخماد النار بمعجزة.

الكتلة كحلقة

إن الكتلة المنغلقة على نفسها انغلاقًا ثنائيًا هي تلك التى نراها بالحلبة. ولا يخلو الأمر من قيمةٍ إن وضعناها على هذه الهيئة الغريبة موضع البحث. فالحلبة منعزلةٌ عن الخارج ويمكن رؤيتها على مدى بعيد عادةً، فموقعها بالمدينة والمكان الذى تشغله معروفان عامةً. فالمرء يشعر بها أينما كانت، حتى إذا لم تخطر بباله، كما أن الصياح ينطلق منها إلى مدى بعيد. فإن كانت بلا سقفٍ فإن بعض ما يجرى فيها تعرف به المدينة المحيطة بها. لكن مهما كانت هذه الأخبار مثيرةً فإن التدفق إلى الحلبة لا يكون ممكنًا فعدد مقاعدها محدودٌ، وقد وُضع حدٌ لكثافتها، كما صُمِّمت المقاعد على نحو يحد من تزاحم الناس، فيشعر هؤلاء بالراحة هناك وتتوافر لهم إمكانية مشاهدة جيدة، كلٌ من مكانه، فلا يزعج أى منهم الآخر. ونحو الخارج، أى تجاه المدينة، فإن الحلبة تظهر جدارًا خاليًا من الحياة. وفي الداخل يقوم جدارٌ آخر من البشر بعدما أعطى كل هؤلاء ظهريهم للمدينة وتحرروا من نسيج المدينة ومن جدرانها وطرقها. وهم لا يبالون بما يجرى فى المدينة طوال وجودهم بالحلبة، ففيها يتحررون من علاقاتهم وأعرافهم وعاداتهم. وقد تم تأمين وجودهم بعددهم الغفير لوقتٍ محدود، كما وُعدوا بالإثارة فى إطار شروطٍ صارمةٍ للغاية. فعلى الكتلة أن تتخلص من الكبت

إلى الداخل، وقد رُتبت الصفوف أعلى بعضها البعض حتى يُتاح للجميع رؤية ما يجرى. إلا أن نتيجة ذلك هو جلوس الكتلة مواجهةً بعضها البعض. فكل فرد يواجه ألف فردٍ ورأس. فما دام هو هناك يكون الجميع هناك أيضًا، ودافعه للإثارة هو دافع الآخرين أيضًا، وهذا هو ما يراه. وهؤلاء يجلسون على مسافة ما منه وتختفى التفاصيل التى تميز عادةً بينهم وتجعلهم فرادى، فيغلب شبه عام بين الجميع الذين يتشابه مسلكهم كذلك، وهو يرى فيهم ما يراه فى نفسه ويزداد انفعالهم مثل انفعاله. وهذه الكتلة التى تعد نفسها على هذا النحو للمشاهدة لا يمكن فصلها فى أى موضع. فالحلقة التى يكوّنونها تكون مغلقةً لا تدع شيئًا يفلت منها. فالحلقة المكونة من وجوه مفتحة متراصة أعلى بعضها البعض تمتلك شيئًا متجانسًا خاصًا يشمل ويحتوى كل ما يجرى أسفله. وليس هناك من يبغي التحرر من الكل، وليس بينهم من يسعى للمغادرة. وكل ثغرة فى هذه الحلقة يكون بوسعها التذكير بالتفتت الذى يحدثه تفرق السبل فيما بعد. إلا أن تفرق السبل هذا لا يحدث هنا، فهذه الكتلة مغلقةً نحو الخارج وفى داخلها، أى انغلاق مزدوج.

سمات الكتلة

قبل الإقبال على محاولة لتقسيم الكتلة فإنه من المناسب أن نقدم موجزاً قصيراً لصفاتها الأساسية. وهنا يمكن ذكر الملامح الأربعة التالية:

1. إن الكتلة تسعى دائماً إلى النمو. والطبيعة نفسها لم تضع حدوداً لهذا النمو. وحيثما يتم اصطناع مثل هذه الحدود - أى في كل المؤسسات - من أجل الحفاظ على الكتلة المنغلقة، فإن الخروج منها يكون متاحاً دائماً، وهو ما يحدث أيضاً من حينٍ لآخر. أما المؤسسة التى تستطيع إعاقة نمو الكتلة وهى آمنة تماماً فلا وجود لها على الإطلاق.

2. سيادة المساواة داخل الكتلة، وهى مطلقةٌ وغير قابلةٍ للجدل، ولا تضع الكتلة هذه المساواة موضع الشك، فهى ذات أهمية أساسية، حتى إنه يمكن للمرء قياس حالة الكتلة تقريباً بحالة المساواة المطلقة. فالرأس هو رأس والذراع هى ذراعٌ ولا أهمية للفرق بينهما. وفى سبيل هذه المساواة يسعى المرء إلى الكتلة ويغض الطرف عما يحول دون ذلك. وكل المطالبات بالعدالة، وكل نظريات المساواة، تستمد طاقتها فى نهاية المطاف من تجربة المساواة هذه التى يدرکها كل فردٍ بالكتلة على طريقته الخاصة.

3. إشار الكتلة للكثافة، على أنها لا تبالغ في ذلك، فلا ينبغي أن ينفذ شيء إليها أو يسقط شيء من بينها، بل يجب أن يكون كل شيء هو الكتلة ذاتها بقدر الإمكان. أما شعورها الأعظم بالكثافة فيتملكها في لحظة التخلص من الكبت، وسوف تتاح إمكانية تحديد وقياس هذه الكثافة على نحو أوضح.

4. احتياج الكتلة إلى اتجاه. فهي في حركةٍ وتتحرك نحو شيء ما. فالاتجاه الجامع لكل المنتمين للجمهور هو الداعم للشعور بالمساواة. أما الهدف الموجود خارج كل فردٍ، ويجمع كل الأفراد، هو الذي يقضى على الأهداف الشخصية غير المتساوية، التي تؤدي إلى موت للجمهور. ويرتبط وجود الكتلة بالاتجاه، والخوف من التفتت الذي ينشط داخلها دائماً ليسر توجيهها إلى أي هدفٍ. والكتلة موجودةٌ ما دام هناك هدفٌ لم يتحقق. لكن هناك بداخلها يكمن اتجاه حركةٍ غامض يفضي بها إلى أشكال علوية جديدة، ولا يمكن في الغالب التكهّن بطبيعة هذه الأشكال الجديدة.

إن كلاً من هذه السمات الأربع التي عرفناها يمكن توافرها بنسبٍ مختلفة. وتقسيم الكتلة يختلف باختلاف نظرنا إلى كل سمةٍ من هذه السمات. فقد ذكرنا الكتلة المنفتحة والكتلة المغلقة، كما أوضحنا أيضاً أن هذا التقسيم ينسحب على نمو الكتلة. فما دام لم يُعرقل نمو الكتلة فإنها تظل كتلة منفتحة، وما إن يوضع حدٌ لنموها تصبح كتلة مغلقة. وهناك فرقٌ آخر يمكن أن يطرأ، وهو فرقٌ بين الكتلة الإيقاعية وبين الأخرى الراكدة، وهو ينطوي على السمتين الرئيسيتين التاليتين، أي المساواة والكثافة، أي على كليهما معاً. أما الكتلة الراكدة فهي تحيا على عملية التخلص من الكبت. وهي تشعر به يقيناً وتؤجله، فهي تتطلع إلى فترة تكثيفٍ طويلةٍ نسبياً من أجل التأهب للحظة التخلص من الكبت، ويمكننا القول بأنها تتدفأ بفترة تكثيفها، وتحفظ اتجاه التخلص من الكبت قدر إمكانها. كما أن عملية التكتل الجماهيري لا تبدأ عندها بالمساواة، بل بالتكثيف. فهنا تصوير المساواة هي الهدف الرئيس للكتلة التي تصب فيه في النهاية. وكل صيحةٍ جماعية وكل تصريح جماعي يعبران عن هذه المساواة تعبيراً فعالاً. وعلى النقيض من هذا تماماً فإن المساواة والكثافة تجتمعان منذ البداية لدى الكتلة الإيقاعية. فكل شيء هنا يرتبط بالحركة، وكل استنفار جسدي يكون محدداً مسبقاً، ويمتد كل ذلك إلى الرقص. فمن خلال التباعد والتقارب ثانية يبدأ تكوين الكثافة عن وعيٍ.

أما المساواة فتكشف عن نفسها صراحةً. ومن خلال مقدمات الكثافة والمساواة يتم استنفار شعور الكتلة بالإبداع، فتنشأ هذه الاشكال الإيقاعية بسرعة، ولا يجعل بنهايتها إلا الإرهاق الجسدى فقط. أما المصطلح المزدوج التالى، أى الخاص بالحشد السريع والبطيء فإنه ينطوى فقط على نوع هدف الكتلة. إن الكتلة اللافتة للانتباه التى يدور الحديث عنها عادةً، والتى تكون جزءاً أساسياً من حياتنا الحديثة، هى الكتلة السياسية والرياضية والعسكرية التى نراها كل يوم، فتعتبر كلها كتل سريعة، وهى تختلف تمامًا عن الكتلة الدينية الغيبية أو كتلة الحجيج، فهذه الكتلة يكمن فى المدى البعيد والطريق الطويل إليه، وهو ما يؤجل التكوين الحقيقى للكتلة الذى يمتد إلى بلدٍ بعيد أو إلى ملكوت السماء. ونحن لا نرى حقاً من هذه الكتلة البطيئة سوى الروافد فقط. فالأوضاع الأخيرة التى تطمح إليها غير مرئية، وليس بوسع من هم ليسوا بمؤمنين الوصول إليها. والكتلة البطيئة تتجمع ببطء وترى استمرارها فى الأمد البعيد. وكل هذه الأشكال التى ملّحنا إليها فقط بحاجة إلى تأملٍ أكثر دقةً.

الإيقاع

إن إيقاع الأقدام هو أساس الإيقاع. فكل إنسان، شاء ذلك أم أبى، ينتج صوتًا إيقاعيًا عندما يمشى. ولأنه يمضى على ساقين فإنه يضرب بكليهما بالتبادل. وهو يمضى للأمام فقط عندما يشق طريقه من حينٍ لآخر. والقدمان لا تضغطان أبدًا بنفس القدر من القوة، فقد يكون الفرق بينهما كبيرًا أو صغيرًا حسب وضع الشخص أو مزاجه الشخصى. فبوسع المرء المِضى بسرعة أو ببطء، كما يمكنه الركض أو القفز أو التوقف فجأة. ودائمًا ما سمع الإنسان وقع أقدام الآخرين وهو يقينًا ينتبه إليها على نحوٍ أهم من خطى نفسه. وللحيوانات كذلك طريقة سيرٍ معهودة. وقد كان للكثير منها إيقاعاتٌ أكثر ثراءً ووقعًا من إيقاعات الإنسان. فالحيوانات ذات الحوافر تفر في قطعان بإيقاعٍ يماثل قرع الطبول المدوية. وتعتبر أقدم معارف الإنسان معرفته بالحيوانات المحيطة به والمهددة له والتي كان يحاول اقتناصها، وقد تعرف إليها من خلال إيقاع حركتها. أما أقدم كتابة تعلم قراءتها فكانت نوعًا من "النوتة" الموسيقية التى كانت موجودةً دائمًا، وهى تطبع نفسها بنفسها على الأرض الرخوة، فلما قرأها الإنسان ربط بينها وبين صوت نشأتها. وقد ظهر الكثير من آثار الأقدام هذه معًا فى مجموعاتٍ كبيرة تجاور بعضها البعض على نحوٍ مكثف. أما البشر الذين عاشوا فى البدء

في مجموعاتٍ صغيرة فقد استطاعوا، بالتأمل المتروى لمثل هذه الآثار، أن يدركوا بأنفسهم التناقض بين عددهم الضئيل والعدد الهائل لبعض القطعان. فقد كانوا جوعى ويبحثون دائماً عن فريسة، وكلما زادت الغنائم كان ذلك أفضل لهم. لكنهم شاءوا أيضاً زيادة أعدادهم نفسها. وكان شعور الإنسان نحو التكاثر قوياً، ولا مناص من فهم ذلك مما شاء الناس وصفه بتعبيرٍ قاصر، أى "بالاندفاع إلى التكاثر". فلقد شاء البشر في هذا الموضوع المحدد وفي هذه اللحظة أن يكونوا أكثر عدداً. وقد أخذ العدد الكبير للقطيع الذى يعملون على اقتناصه وعددهم الذى يأملون زيادته يُدَوَّى داخلهم على نحوٍ خاص، وقد بثوا في التعبير عن هذه الحالة بعينها انفعالاً جماعياً، وهو ما أُطلق عليه أنا وصف الكتلة الإيقاعية أو المهتزة.

أما الوسيلة الأولى في ذلك فكانت هى الأقدام، فحيثما يمضى كثيرون كان يمضى معهم آخرون بخطى تنتظم مع خطى أخرى في تكرارٍ سريع لتعطى انطباعاً خادعاً بعددٍ أكبر من الناس، وهم لا يغادرون مكانهم بل يتشبثون بالمكان نفسه راقصين ولا يكون لخطاهم وقع صدى، بل كانت تكرر نفسها، وتظل عبر فترةٍ طويلة على نفس القدر من ارتفاع الصوت والحيوية. فهم يعوضون من خلال التكثيف ما يفتقرون إليه من عدد. وإذا ما كان دبيبهم أكثر قوةً فإن ذلك يعطى انطباعاً بعددٍ أكبر. وهم يمارسون على كل البشر القريبين منهم قوة جذبٍ لا تراجع ما داموا لم يتوقفوا عن الرقص. وكل كائن يقع في مجال سمع إيقاعهم ينضم إليهم ويبقى منضماً داخل جماعتهم. وقد كان من طبائع الأمور أن ينضم إليهم دائماً آخرون. لكن لما لم يعد هناك أحدٌ من هؤلاء فإنه تعين عليهم أن يخرجوا ذلك من داخلهم، من عددهم المحدود، الذى يعطى انطباعاً خادعاً بزيادة عددهم. وهم يتحركون كأن عددهم يتزايد، فيزداد انفعالهم ليتصاعد إلى هوس. لكن كيف يعوضون ما لم يستطيعوا اكتسابه كعددٍ متزايد؟ هنا يكون مهماً أن يفعل كل منهم الشيء نفسه، فكلٌ منهم يدب بقدمين، ويؤدى كلٌ منهم ذلك على النحو نفسه، فكلٌ منهم يؤرجح ذراعين وكلٌ منهم يحرك رأسه فيصير عدد أعضاء الجسد هو العدد المشترك. فكل ما يتحرك في جسد الإنسان يكتسب عدده الخاص، كل ساق، كل ذراعٍ قائمةٌ بذاتها، فيتم استثارة كل عضو على حدة من أجل التعويض، فهذه الأعضاء قريبةٌ من بعضها البعض للغاية، وغالباً ما يرتاح كلٌ منها على الآخر. وعلى قدر قيمة مساواتها تأتى قيمة كثافتها،

فتصير الكثافة والمساواة شيئاً واحداً. وفي النهاية يكون الرقص، أمام فردٍ ما، بخمسين رأساً ومئة ساقٍ ومئة ذراعٍ تعمل على نفس المنوال ولنفس الغرض. وهؤلاء يشعرون في أوج انفعالهم بأنهم حقاً شخصٌ واحد ولا يفت في عضدهم إلا الإرهاق البدني. وكل الكتل الراقصة لديها شيء مشابه - بفضل الإيقاع الكامن داخلها. والتقير الذي يستعرض هنا هذا النوع من الرقص يعود تاريخه إلى الثلث الأول من القرن التاسع عشر. وهو يدور حول رقصة "هاكا"⁽¹⁾ الماوري بجزيرة نيوزيلندا والتي ترجع جذورها إلى رقصة حربية.

ينتظم الماوري في صفٍ طويل لأربعة رجالٍ خلف بعضهم. وهذه الرقصة المسماة "هاكا" لا بد أن تبث الفزع والخوف في كل من شاهدها للمرة الأولى. وقد كان المجتمع كله قد اختلط ببعضه البعض، رجالاً ونساءً وأطفالاً وعبداً، من دون اعتبارٍ لطبقاتهم الاجتماعية. أما الرجال فكانوا جميعاً عرايا تماماً فيما عدا حقبة علقوها حول بطنهم. وكان الجميع مسلحين ببنادق أو حراپٍ ثبتوها على أطراف رماحهم وعصيهم. كما شاركت الفتيات وكذلك نساء الزعيم في الرقص بصدرٍ عارية. وكان لا بد من الالتزام الصارم بإيقاع الغناء المصاحب للرقص. أما قدرتهم على الحركة فكانت تثير الدهشة. وفجأةً إذا بهم يقفزون من الأرض عالياً بشكل عمودي في وقتٍ واحد، وبدقة، كأن إرادةً واحدة قد بُعثت في الراقصين جميعاً معاً. وفي لحظةٍ واحدة صاروا يلوحون بأسلحتهم ويقلصون ملامح وجوههم. وبشعورهم الطويلة التي كان يتمتع بها غالبية الرجال والنساء صاروا يشبهون جيشاً مرعباً من الأساطير الإغريقية. فإذا ما هبطوا دبوا بأقدامهم الأرض في وقت واحدٍ بصوت عالٍ. وكانوا غالباً ما يكررون هذا القفز على نحوٍ أسرع وكانت ملامحهم تنقبض بقدر ما تطيقه عضلات وجه الإنسان. وكانت كل إمضاءٍ تنتقل من كل المشاركين في موعدها الدقيق، فإذا ما قطب أحدهم الوجه على نحوٍ صارم للغاية كان الجميع يحاكونه على الفور. وكانت أعينهم تزوغ من وقتٍ لآخر، وأحياناً لم يكن يُرى بياض العين التي تبدو كأنها ستسقط من محجرها في أية لحظة. وكانوا يطبقون الفم حتى الأذنين ويمدون جميعاً ألسنةً طويلة تماماً خارج الفم في وقتٍ واحد. ولن يكون بوسع أي أوروبي مجاراتهم في ذلك، فقد أهّلوا لذلك من خلال تدريبٍ مسبقٍ طويل. هكذا تبدو وجوههم في هيئة مفزعة، وكان غض البصر عنهم يريح الأعصاب. وقد كان كل عضوٍ من أعضاء جسدكم في حالة نشاطٍ مستقلة، الأصابع وأصابع القدمين والأعين والألسنة، كذلك

الأذرع والسيقان. وسرعان ما أخذوا يدقون بأيادٍ منبسطة على الناحية اليسرى من صدورهم ثم على أفخاذهم. أما دَوَى غنائهم فكان يَصُم الآذان، فقد شارك في الرقص ما يربو على ثلاثمئة وخمسين فردًا. هكذا يستطيع المرء تصور مدى أثر هذه الرقصة في أوقات الحرب ومدى رفعها للروح المعنوية ومدى تأجيج نفور الطرفين من بعضهما البعض. فإدارة العيون وإخراج اللسان هما بمثابة إشارات للعناد والتحدى. ورغم أن الحرب عامةً تعتبر شأنًا خاصًا بالرجال، أي الأحرار منهم، كانوا يسمحون للجميع بالمشاركة في انفعال رقصة الـ"هاكا". فالكثلة هنا لا تعرف النوع أو العمر أو الطبقة الاجتماعية، فالجميع ينشطون على قدم المساواة. أما ما يميز هدف هذه الرقصة عن أهداف رقصات أخرى مشابهة فهو تفرع المساواة. ويكون ذلك كأن كل جسد يتفرع بكل أجزائه منفردةً وليس فقط بالأذرع والسيقان، لأن الحال تكون في الغالب هكذا، بل إن أصابع القدم وأصابع اليد والألسنة والعيون تؤدي الشيء نفسه في اللحظة نفسها، وسرعان ما تؤدي العين العمل نفسه متساويةً في ذلك مع أصغر أعضاء جسد الناس، ودائمًا ما يُستعرض هذا في أداءٍ ترتفع حدته. إن مشهد ثلاثمئة وخمسين فردًا وهم يقفزون كثيرًا ليخرجوا ألسنتهم معًا ويديرون أعينهم معًا لا بد أن يعطى انطباعًا بالتوحد. أما الكثافة فليست كثافة الناس فحسب بل هي كثافة أعضاء جسدهم المستقلة أيضًا. وقد نذهب إلى الرأي بأنه حتى لو لم تكن هذه الأجساد والألسنة لبشرٍ فكانت سوف تتوحد وتناضل. وإيقاع الـ"هاكا" هو الذي يُفَعِّل قيم المساواة هذه، كلاً على حدة، وتصادعها معًا أمرٌ لا يمكن مقاومته. وكل شيء يحدث شريطة أن يكون مرئيًا. فالعدو يشاهد ذلك وهو ما يؤدي بالـ"هاكا" إلى تركيز التهديد الجماعي. فبعد أن نشأ الرقص صار إلى ما هو أكثر من ذلك، فكان التدريب عليه يبدأ من الصغر متخذًا أشكالًا كثيرة مختلفة. وهو عرضٌ يتم تقديمه في كل المناسبات الممكنة. كما تُعد رقصة الـ"هاكا" بمثابة ترحيب بالزائرين. ويعود الفضل في التقرير الذي عرضناه إلى واحدةٍ من هذه المناسبات. فعندما تلتقى قوةٌ صديقة بقوةٍ أخرى فإنهما يحييان بعضهما البعض برقصة الـ"هاكا"، وفي أثناء ذلك يؤخذ الأمر على محملٍ من الجدية إلى حد أن يخشى المشاهد حسن النية من نشوب معركةٍ في أية لحظة. وفي الشعائر الجنائزية لأحد الزعماء الكبار، وبعد كل مراحل المناحة الحارة، وتشويه المرء لجسده الذي يعتبر تقليدًا لدى الماوري، وبعد وجبة طعامٍ احتفائية دسمة، إذا بالجميع يقفزون فجأةً ويمسكون بأسلحتهم

ليشكلوا فرقة الـ"هاكا". ومن خلال هذه الرقصة التي يستطيع الجميع المشاركة فيها تشعر القبيلة أنها كتلة. وهم يستخدمون الرقص متى شعروا بالحاجة إلى أن يكونوا كتلاً، فيبدون أمام الآخرين هكذا. وعندما يصل الرقص إلى الكمال الإيقاعى يكون قد حقق الهدف يقيئاً. وكان للـ"هاكا" الفضل في أن وحدة الكتلة لم تُهدد من داخلها قط.

الركود

إن الكتلة الراكدة هي كتلة تزاومت بكثافةٍ، وكم قمت حركة حرة بالفعل، إلا أن ذلك كان بالنسبة لها ضرباً من الخيال. وتتسم حالتها بشيء من السلبية، فالكتلة الراكدة تنتظر. فهي تنتظر أن يُعرض أمامها رأس ضحيةٍ ما، أو تُلقَى على مسامعها كلمةٌ ما، أو تشاهد صراعاً ما. فالأمر هنا يرتبط ارتباطاً تاماً بصفةٍ خاصةٍ بالكثافة. فالضغط الذي يشعر به الناس من كل جانبٍ قد يصلح معياراً لقياس قوة الكيان الذي صاروا هم جزءاً منه، وكلما ازداد تدفق الناس معاً صار الضغط أعظم. فالأقدام لا تجد موطئاً والأذرع تصير متشابكةً وملتحمةً، ولا يبقى حراً سوى الرأس من أجل الرؤية ومن أجل السمع. وتمنح الأجساد بعضها البعض مزيداً من الانفعال على نحوٍ مباشر. وفي كل مكانٍ يكون المرء قد شارك بجسده أناساً آخرين في آنٍ واحد، وهو يدرك أن هؤلاء عديدون، إلا أن ارتباطهم معاً على هذا النحو المكثف يجعله يشعر بأنهم واحدٌ. وهذا النوع من الكثافة يستمر لوقتٍ طويل ويكون تأثيره الثابت محدود المدى، وهو غير متبلور، وغير خاضع لإيقاعٍ مألوف تم التدريب عليه. ولفترةٍ طويلة لا يحدث شيء، إلا أن الرغبة في الفعل تتراكم وتتصاعد لتنتقل في النهاية على نحوٍ أكثر حدةً. وقد لا تشير مثابرة الكتلة الدهشة إذا لم ندرك بحق أهمية هذا الشعور بالكثافة بالنسبة

لها. فكلما ازدادت كثافة الكتلة ازداد جذبها لأناسٍ جدد. ويقاس حجمها بقدر كثافتها. فالكثافة في الواقع هي الحافز لنمو مطرد. والكتلة الأكثر كثافةً هي التي تنمو على أسرع وجه. ويأتى الركود قبل التخلص من الكبت كغرض لهذه الكثافة. فكلما طال أمد الركود شعرت هي بكثافتها وأظهرتها. ويعتبر أفراد الكتلة فترة الركود فترة تخزين يتخلون فيها عن الأسلحة والغصات التي تجهزوا بها لمواجهة الآخرين على نحوٍ جيد. فإذا مس بعضهم البعض الآخر لم يشعر بالضيق. فالحبضات لم تعد قبضات. فالناس لا يخشون بعضهم البعض. وقبل أن يمضى المرء إلى أى اتجاهٍ شاء فإنه يريد الاطمئنان بأن الناس سيظلون معاً. إنه النمو الجماعى الذى يريد المرء الاطمئنان إليه، الكتلة الراكدة لم تكن قد اطمأنت بعد إلى وحدتها ولذلك تظل ساكنةً لأطول وقت ممكن. إلا أن لهذا الصبر حدوداً. فالتخلص من الكبت في نهاية المطاف أمرٌ لا مفر منه، فمن دونه لا يمكن الزعم بوجود الكتلة في الواقع، فصوت الكتلة هو تلك الصرخة التي كانت مألوفة لدى عمليات الإعدام العلنية، أو هي الصيحة التي نعرفها اليوم في المباريات الرياضية. أما تلقائيتها فعلى جانبٍ كبيرٍ من الأهمية. والصيحات المُدرّبة والمكررة في فتراتٍ زمنية منتظمة لا تكون إشارةً عن إعلان حيوية الكتلة، وقد تفضى إلى ذلك، لكنها تكون ظاهرةً، وهو ما تؤدى إليه تحركات إحدى فرق الجيش المدربة. وعلى النقيض تكون الصيحة التلقائية غير المقررة مسبقاً، الصادرة عن الكتلة، صادقةً ويكون أثرها هائلاً، كما أنها تستطيع التعبير عن كل الانفعالات من كل نوع. وغالباً ما يكون نوع الانفعال على درجةٍ كبيرةٍ من الأهمية. فالأمر هنا يرتبط بقوتها واختلاف نوعها وبالحرية الناتجة عنها. فهذه هي التي تمنح الكتلة مجالها الروحى، إلا أنها يمكن أن تكون مركزةً على نحوٍ عنيفٍ حتى إنها تمزق الكتلة في الحال. فعمليات الإعدام العلنية كان لها هذا التأثير. فبوسع المرء قتل الضحية الواحدة نفسها مرةً واحدة فقط. فإذا ما ارتبط الأمر بشخصٍ كان يُعتبر دوماً شخصاً محصناً فإنه يظل هناك شكٌ في إمكانية إعدامه حتى اللحظة الأخيرة. والشك الناشئ هنا عن هذه الحالة يضخم ركود الكتلة الطبيعى. وبذلك يكون تأثير مشهد الرأس المُجترز أكثر حسماً وحدةً. أما الصيحة التالية لذلك فتكون رهيبَةً، إلا أنها تكون آخر صيحةٍ لهذه الكتلة المحددة تماماً. وهكذا يمكن القول بأن الكتلة، على حالها هذه، تتميز بتوقع الركود إلى أقصى حد، تدفع الثمن مقابل ذلك، ويكون الثمن هو موتها الفورى. أما مبارياتنا الرياضية

الحديثه فهى أكثر اتساقًا مع الغرض، فالمشاهدون يستطيعون الجلوس وتكون
منابرتهم باديةً للعيان، ولديهم حرية الدب بأقدامهم، وهم باقون مع ذلك في
البقعة نفسها، ولهم حرية التصفيق بأيديهم، كما تم تحديد وقتٍ معين مسبقًا
للمباراة، ومن غير المفترض عمومًا أن يُختصر الوقت. وطوال هذا الوقت، على
الأقل، يظل الناس معًا يقينًا. وفي أثناء هذا الوقت يمكن أن يحدث أى شىء. فالمرء
لا يستطيع أن يعرف مسبقًا أنه سوف يُحرز هدفًا، أو متى ومن أى طرفٍ.
وبجوار هذه الأحداث الرئيسة المنتظرة تجرى هناك أحداثٌ أخرى تؤدى إلى
فورة صاخبة، فغالبًا ما تُسمع أصواتٌ في أثناء أحداثٍ مختلفة. أما التفتت
النهائى، أى التفرق، فينتزع الوقت المحدد مسبقًا شيئًا من شخصيته المؤلمة، إضافةً
إلى فرصة المنهزم في الثأر. وهكذا لا تكون هذه الحال قد انتهت للأبد. وبوسع
هذه الكتلة أن تتسع بالفعل، فهى تتزاحم في البداية عند الأبواب ثم تظل راكدةً
على المقاعد وتتصايح كما شاءت إذا حانت لحظة مناسبة لذلك. وحتى بعد
انقضاء الأمر كله فهى تأمل فرصة مناسبة في المستقبل. أما الكتلة الراكدة الأكثر
سلبية فتتكون في المسارح. وأما الحالة المثالية فهى أن يؤدى المرء دوره أمام صالةٍ
غاصة بالجمهور. ويكون عدد المشاهدين المنشود محددًا من البداية. وهؤلاء
يتجمعون من تلقاء أنفسهم. وباستثناء التزاحم القليل أمام شباك الحجز فإن
هؤلاء يشقون طريقهم إلى القاعة منفصلين ويمضون إلى مقاعدهم. فكل شىء كان
قد تم تحديده، من الرواية التى سيتم عرضها، والممثلين الذين سيؤدون أدوارهم،
وموعد البدء، حتى المشاهدين على مقاعدهم. أما من يأتون متأخرين فيُستقبلون
بشئٍ من الشعور العدائى. ومثل قطيعٍ ملتزم بالنظام يجلس الناس هناك في
سكونٍ وصبر بلا حدود. إلا أن كلاً منهم يعى وجوده المنفصل على خير وجه،
فقد دفع الثمن وأخذ يلاحظ من يجلس بجواره بدقة، وقبل البدء يتأمل بهدوءٍ
صفوف الرءوس المجتمعة، فهى توقظ فيه شعورًا طيبًا بالكثافة وإن لم يكن
شعورًا مفرطًا في الإلحاح. أما المساواة بين المشاهدين فلا تنشأ بالفعل إلا عند
تقبلهم جميعًا الشئ نفسه الصادر إليهم من المسرح. لكن ردود فعلهم التلقائية
نحو ذلك تكون محدودةً، فحتى التصفيق له وقته المحدد. وفي معظم الأحوال لا
يصفق المرء بالفعل إلا عندما ينبغى عليه التصفيق. ومن خلال قوة التصفيق
وحدها يمكن إدراك الحجم الذى بلغته الكتلة، فهو المعيار الوحيد لذلك، وهو ما
يقوم الممثلون أنفسهم بتقييمه. وقد بلغ الركود في المسرح شأواً بعيداً ليصير

عرفًا إلى حد أن المرء يشعر به ظاهراً، أى كضغطٍ خارجي بسيط لا يمس الناس على نحوٍ عميق ولا يكاد يمنحهم الشعور بالوحدة الداخلية والانتماء. لكن لا ينبغي أن ننسى مبلغ حجم وجماعية التوقع الذي يجلسون به هناك، ومدى استمرار هذا التوقع في أثناء العرض كله. ومن النادر أن يغادروا المسرح قبل الختام، حتى لو خاب أملهم فإنهم يصمدون. لكن هذا لا يعنى أنهم متماسكون إلى هذا الحد. أما التناقض القائم بين سكون المشاهدين وبين ارتفاع صوت آلةٍ ما فيكون أكثر لفتًا للانتباه في أثناء حفلات الموسيقى. فهنا يدور كل شيء حول الهدوء التام، فأية حركةٍ تُقابَل بالرفض ويُمْنَع أى صوت. وفي أثناء عزف الموسيقى التى يقوم جزءٌ كبير منها على الإيقاع فإنه لا يجوز أن يُشعَّر بأثر الإيقاع على المستمعين. أما الانفعالات الناتجة عن الموسيقى فتكون في حالة تبدلٍ مستمرة، فهى من النوع الأكثر تنوعًا وتكثيفًا. ومن المستبعد ألا يشعر بها معظم الحاضرين وألا يشعر بها المرء في الحال. إلا أن ردود الفعل الظاهرة نحو ذلك تبقى محظورة، فالناس يجلسون بلا حراكٍ كأنهم قد قرروا ألا يسمعوا شيئًا. ومن الواضح أن الأمر هنا كان يستدعى تربيةً فنيةً طويلة في سبيل تحقيق الركود وهو أمر اعتدنا على نتائجه. فالرؤية الزهية، توضح قلة الظواهر الثقافية التى تدهشنا، كما يدهشنا جمهور الحفلات الموسيقية. فمن يخضع لتأثير الموسيقى بنحوٍ طبيعي يصير مسلكه مختلفًا تمامًا. أما من لم يسمع موسيقى مطلقًا فقد يقع في أعظم حالات الإثارة إذا عايش ذلك. فعندما سمع أهالى "تسمانيا" القدماء نشيد المارسييز عندما عزفه البحارة عند وصولهم هناك إذا بهم يعربون عن رضائهم بالالتفاف بأجسادهم على نحو خاص، وبإشارات عجيبة، حتى إن البحارة لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك. وكانت النشوة قد أذهلت شابًا فشد شعره وهرش رأسه بكلتا يديه مطلقًا صيحاتٍ عالية مكررة. وقد احتفظت حفلاتنا الموسيقية بجزءٍ باقٍ بئس من التحرر الجسدى، فالتصفيق استحسانًا يُعَد بمثابة عرفانًا للعازفين، وهو صخب فوضوى قصير مقابل ذلك المنظم جيدًا طويل المدى. فإن لم يكن هناك تصفيقٌ مطلقًا فإن الناس يتفرقون بسكون كما كانوا يجلسون. فهكذا يشعر المرء باستغراقٍ تام في جو من التبتل الدينى الذى استمد منه الحفل الموسيقى سكونه الأصيل. أما الوقوف الجماعى بين يدى الله فهو مرانٌ منتشر في بعض الأديان. وهو يتميز بنفس ملامح الركود المعروف عن الكتلة الدنيوية. وهو ما يمكن أن يؤدي إلى عمليات فرزٍ مفاجئة وعنيفة. وربما كان

الأكثر إثارة للإعجاب هو حالة "الوقوف على عرفات" ⁽²⁾ الشهيرة التى تمثل أوج فريضة الحج إلى مكة. ففي يوم بعينه حددته الشعائر يجتمع من ستمئة ألف إلى سبعمئة ألف حاج في وادى عرفات الواقع على بعد بضع ساعات من مكة. هناك يجتمعون في حلقات واسعة حول "جبل الرحمة"، وهو تل مقفر يرتفع وسط هذا الوادى. ونحو الساعة الثانية بعد الظهر، عندما تصل درجة حرارة الجو إلى أقصى معدلاتها، ينتظم الحجاج ليظلوا واقفين هناك حتى غروب الشمس، وقد حلقوا رءوسهم وارتدوا جميعاً نفس رداء الحج الأبيض. وفي حالة من التوتر المشوّق ينصتون إلى كلمات الواعظ الذى يخاطبهم فوق التل. أما عظته فهى بمثابة تسبيح متصل لله. فيرد هؤلاء بعبارة يكررونها ألف مرة: "لبيك اللهم لبيك! لبيك اللهم لبيك!" وينشج البعض انفعالاً، بينما يضرب البعض صدره كما يُغشى على البعض جراء الحرارة الشديدة. لكن جوهر الأمر يكمن في صمودهم بالوادى المقدس طوال هذه الساعات الطويلة الحارة. أما إشارة الانطلاق فلا تصدر إلا مع غروب الشمس. وأما الأحداث الأخرى التى تعتبر أكثر غموضاً في الشعائر الدينية فسوف نتناولها ونفسرها في سياق آخر. لكن ما يهمنا هنا ليس إلا لحظة الركود الممتدة لساعات. فهناك مئات الألوف من البشر في حالة انفعال مطرد يتم حجزهم في وادى عرفات ولا يسمح لهم مهما حدث أن يتركوا هذا الوقوف بين يدي الله. فهم قد بدأوا معاً، ومعاً يتلقون إشارة الانطلاق. والعظة تؤجج حماسهم وهم يؤججون الحماس داخلهم بالصياح، والعبارة التى يرددونها تحتوى على لفظ المولى وهو ما يعاود التردد. أما الشمس التى تنسل من الموضع ببطء فتغرق كل شيء في النور الباهر نفسه، في التوهج نفسه، وهو ما قد نصفه بتجسيد الركود. وكل درجات الجمود والسكون تتوافر في الكتلة الدينية. لكن أعلى درجات السلبية التى تستطيع بلوغها على الإطلاق فهى التى تُفرض بالقوة على الكتلة من الخارج. ففي معركة ما يهاجم فريقان من الكتل بعضهما البعض وكل منهما يريد أن يكون أقوى من الآخر. وبصيحات القتال يحاول أحد الفريقين، مثل عدوها، البرهنة على أنه هو الأقوى بالفعل. أما هدف المعركة فهو إرغام العدو على التزام الصمت. فإن تم قهر جميع الخصوم يكون صوتهم، أى أصواتهم المجتمعة في صوت واحد، قد أُسكِت للأبد. وهو الصوت الذى كان يعتبر تهديداً يخشاه الطرف الآخر عن حق. فالكتلة الأكثر سكوتاً هى كتلة الموقى المعادين، فكلما كان خطر هؤلاء قد ازداد كان الطرف الآخر يأمل، بنفس

القدر، رؤية هؤلاء بلا حراك في كوم واحد معًا. إنه نزوعٌ شخصي لمعايشة هؤلاء على هذا النحو من العجز فوق كومٍ من الموتى. فهم من كانوا كـ"كوم" قد هاجموا طرفًا آخر، وكـ"كوم" كانوا قد صرخوا في وجه طرفٍ آخر. وهذه الكتلة المرغمة على الصمت لم يتصور البعض في عصورٍ مبكرة أنها فقدت حياتها على الإطلاق. فقد افترض المرء أن هؤلاء سوف يواصلون الحياة بطريقتهم بموضعٍ آخر، وهى في جوهرها يجب أن تكون حياةً مشابهة لتلك التى عرفها المرء نفسه عنهم. وهؤلاء الأعداء الراقدون جثثًا هنا يمثلون للمراقب حالةً قصوى لكتلة راکدة. إلا أن هذا التصور قد أدركه الأطراد أيضًا، فبدلاً من الأعداء القتلى صار الأمر يشمل كل الموتى الراقدين في أراضٍ مشتركة ويصرون هناك على العودة إلى الحياة. وكل من يموت ويدفن يصير بمثابة زيادة لأعدادهم. فكل من عاش ذات يومٍ سوف ينضم إليهم ليتكاثر عددهم إلا ما لا نهاية. أما الأرض التى تربط بينهم فهى كثافتهم، ما يولد شعورًا بأنهم قريبون من بعضهم البعض للغاية، حتى لو رقد كل منهم وحده على حدة. ولزمنٍ طويل لا نهاية له يظلون راقدين على هذا النحو حتى يوم القيامة. أما حياتهم فتظل راکدةً حتى لحظة البعث، وهى اللحظة التى توافق لحظة مثولهم أمام الله الذى سيحاسبهم. وبين هذه وتلك لا يوجد شيء، فهم يرقدون هناك ككتلة ليبعثوا ككتلة، وليس هناك دليلٌ على واقعية وأهمية الكتلة أروع من تطور هذا التصور عن البعث ويوم الحساب.

تباطؤ أو بُعد الهدف

من خصائص الكتلة البطيئة هو بُعد الهدف. فالمرء يتحرك بإصرارٍ عظيم نحو هدفٍ ما. وهو هدفٌ لا يمكن زحزحته. وفي أثناء المسير يظل الناس معًا على أية حال. أما السبيل فطويل وأما العوائق فغير معروفة والمخاطر تنذر بالتهديد من كل جانب. وحتى الوصول إلى الهدف يكون "التخلص من الكبت" غير مسموح به. وتتخذ الكتلة البطيئة شكل القطار، وقد تكون، منذ البداية، قد تكونت من جميع المنتمين إليها، مثل حالة خروج بنى إسرائيل من مصر، وكان هدفهم هو أرض الميعاد. وقد ظلوا كتلةً جماهيرية ما داموا آمنوا بهذا الهدف. أما قصة رحلتهم فهي قصة هذا الإيمان. وكانت الصعاب غالبًا كبيرةً إلى حد أنهم بدأوا في التشكك، فهم يجوعون ويعطشون، وما إن تدمروا حتى كان التفتت يهددهم. ومرارًا وتكرارًا كان الرجل الذى يقودهم حريصًا على ترسيخ إيمانهم، وكان يفلح في ذلك من حينٍ لآخر. ولو لم يحدث ذلك كان سيفوز الأعداء، الذين كانوا يشعرون بتهديدهم. إن قصة الارتحال الممتدة لأربعين عامًا تتضمن أشكالًا فردية من كتلة ذات طبيعة سريعة وحادة. وسوف نتناول شيئًا عنها في الموضع المناسب. إلا أنها جميعًا تنضوى تحت التصور الشامل عن كتلةٍ جماهيرية واحدة بطيئة تتحرك صوب هدفها المنشود، أى الأرض التى وُعدوا بها. وقد تقدم العمر

بكبارهم وماتوا ليولد صغارٌ ويصبحوا كبارًا. لكن حتى بعد تبدل الأفراد كلهم فإن القطار ككل يظل هو نفسه ولم تنضم إليه أية مجموعاتٍ جديدة. فمنذ البداية كان مقررًا من هو الذى ينتمى إلى هؤلاء وله الحق فى أرض الميعاد. ولما لم يكن بوسع هذه الكتلة أن تنمو طفرةً فقد ظل لديها سؤال أساسى: ماذا تفعل حتى لا تتفتت؟ أما الشكل الثانى للكتلة فيمكن مقارنته بالأحرى بنظام النهر. وهو يبدأ بجداول صغيرة تنضم شيئًا فشيئًا إلى بعضها البعض متدفقةً إلى النهر الذى نشأ وتصب فيه أنهارٌ أخرى من كل جانب. فإذا توافرت أرضٌ كافية فإن هذا كله يصير تيارًا هدفه هو البحر. وربما تكون رحلة الحج السنوية إلى مكة هى المثل الأكثر تعبيرًا عن هذا الشكل من الكتلة البطيئة. فمن أقاصى أرجاء العالم الإسلامى ترحل قوافل الحجيج جميعها نحو مكة. وربما يبدأ بعضها قوافل صغيرة، وهناك غيرها يمنحها أمراءٌ هائلةً عظيمة من البريق، فتصير من البداية فخورةً بالبلاد التى تنتسب إليها. لكنها جميعًا تلتقى فى أثناء رحلتها بقوافل أخرى لها الهدف نفسه. وبهذا تتنامى أكثر فأكثر وتصير قرب هدفها تياراتٍ قوية. ومن خصائص أحوال مثل هذا الحجيج هو بقاء مجالٍ فسيح لتجارب حياتية معتادة ليس لها أدنى علاقة بمعنى رحلة الحج على الإطلاق. فغالبًا ما يعيش المرء يومه المكرر مصارعًا الكثير من المخاطر. وأغلبية هؤلاء فقراء يسعون لتوفير الغذاء والماء. وحياة هؤلاء الناس التى تدور أحداثها فى الغربة هى حياة غريبة تتبدل أحوالها دائمًا وتواجه مخاطر أكثر بكثير من تلك فى وطنها، وهى ليست على الإطلاق مخاطر ترتبط بأسلوب الحج. وهكذا يظل هؤلاء الحجيج إلى مدى بعيد فرادى يعيشون حياتهم منفصلين عن الآخرين مثل البشر فى كل مكان. ولكنهم ما داموا ظلوا متمسكين بهدفيهم، وهى حال الغالبية منهم، فإنهم يظلون كذلك دومًا أجزاء من كتلة بطيئة. ومهما كان مَسلك هؤلاء نحوها فإنها تظل باقية، وسوف تظل باقيةً حتى تبلغ هدفها. أما ثالث أشكال الكتلة البطيئة فإن المرء يجدها أمامه فى تلك الأشكال المرتبة بهدفٍ غير مرئى ولا يمكن بلوغه فى هذه الحياة. إنها الحياة الآخرة التى يتطلع إليها الأبرار الذين استحقوا مكانًا فيها. إنه هدف صريح من حق المؤمنين وحدهم. وهم يرونه واضحًا جليًا، ولا يضطرون إلى الاكتفاء مقابل ذلك برمزٍ زائف. فالحياة تشبه سبيل الحجاج إلى هناك. ويقف الموت بينهم وبين الحياة الأخرى. والسبيل ليس واضح التفاصيل ومن الصعب تحديد معالمه العامة. فالكثيرون يضلون ويضيعون فيه. لكن الأمل

في الحياة الآخرة يصبح حياة المؤمن إلى حد أن يكون لنا الحق في الحديث عن كتلة بطيئة ينتمى إليها جميع أنصار عقيدة ما. ولما كانوا لا يعرفون بعضهم البعض، ويعيشون متناثرين بمدن كثيرة، يكون غموض هذه الكتلة هو المثير للانتباه على نحو خاص. ولكنها كيف تبدو من الداخل؟ وما الذي يميزها غالبًا عن أشكال الكتلة السريعة؟

وقد أخفقت الكتلة البطيئة في تحقيق التخلص من الكبت، ويمكننا القول بأن هذا أهم ميزاتها، وبذلك يمكن الحديث أيضًا عن كتلة مكبوتة بدلاً من كتلة جماهيرية بطيئة. إلا أنه يُفضل الصفة الأولى لأنه لا يمكن الاستغناء تمامًا عن التخلص من الكبت. ففي التصور عن الحالة النهائية يظل التخلص من الكبت ضمن ما تحتويه الكتلة، إلا أنه قد تم إرجاؤه إلى نقطة بعيدة. فحيث يكون الهدف يكون التخلص من الكبت أيضًا. وتظل هناك دائمًا رؤية قوية عنه، وبقينه يكون في النهاية. ففي الكتلة البطيئة يهدف المرء إلى تأجيل الحدث الذي يؤدي على مدى بعيد إلى التخلص من الكبت. وقد قامت الأديان الكبيرة بتطوير مقدرّة فريدة في مسألة الإرجاء هذه. فاهتمامها ينصب على الاحتفاظ بأنصارها الذين اكتسبتهم. ومن أجل الاحتفاظ بهم واكتساب آخرين جدد كان عليها أن تجمع هؤلاء من حين لآخر. وعندما كان الأمر يصل إلى حالة شديدة من تفرغ شحنت كان يتحتم عليها تكرار ذلك لكي تتفوق على شدة التخلص من الكبت هنا على سابقتها. وكان لا بد من التكرار المنتظم إذا ما خشي فقدان وحدة المؤمنين. أما ما يحدث في مثل هذا الاجتماع الديني الذي يدور في كتلة إيقاعية فإنه لا يمكن السيطرة على مسافات شاسعة. فمشكلة الأديان الكونية الأساسية هي السيطرة على المؤمنين بها في قطاعات شاسعة من الأرض. ولا تتحقق هذه السيطرة إلا من خلال إبطاء متعمد لأحداث الكتلة. فالأهداف بعيدة المدى تكتسب الأهمية. أما الأهداف قصيرة المدى فأهميتها تتناقص على نحو مطرد لتبدو في النهاية بلا قيمة. فالتخلص من الكبت الديني قصير الأجل. أما ما أُرجئ إلى الآخرة فله الدوام.

والهدف والتخلص من الكبت يلتقيان على هذا النحو، إلا أن الهدف يكون محصنًا لأن أرض الميعاد هنا على الأرض يمكن أن يحتلها الأعداء ويدمروها، ويمكن أن يُطرد الشعب الذي وُعد بها. فقد احتل القرامطة مكة ونهبوها وأخذوا معهم

الحجر الأسود الموجود بالكعبة. فلم يعد بوسع الناس الحج إلى هناك لسنواتٍ طوال. لكن الحياة الآخرة بأبرارها بعيدةٌ عن كل أعمال التدمير من هذا النوع، فهي تحيا على الإيمان وحده، ولا يمكن تهديدها إلا من خلال ذلك. وقد بدأ تفتت كتلة المسيحية البطيئة في تلك اللحظة التي بدأ فيها الإيمان ينحل من فكرة الحياة الآخرة.

الكتلة غير المرئية

حيثما يوجد بشرٌ في كل أرجاء الأرض ينشأ تصورٌ عن موتى غير مرئيين. وهو ما يمكن اعتباره أقدم تصور لدى البشرية. فلا توجد يقيناً جماعةً أو قبيلةً أو شعبٌ لم يكن لديه أفكار غزيرة عن موته. فقد بلغ الإنسان حد الجنون الفكرى في هؤلاء الموتى وكانوا على أهمية خاصة بالنسبة له، كما كان تأثيرهم على الأحياء جزءاً جوهرياً من هذه الحياة نفسها.

فالمرء يتذكرهم جميعاً كأنهم ما زالوا معه، ويميل إلى افتراض أمورٍ كثيرة في عالمهم. فأهالى "بيشوانا"⁽³⁾ القدامى، مثلهم مثل غيرهم من جميع سكان جنوب إفريقيا الأصليين، يؤمنون بأن الفضاء كله مسكونٌ تماماً بأرواح أسلافهم، فقد غصت الأرض والسماء والجو بالأرواح التى تستطيع، كما تشاء، ممارسة أعمال خبيثة ضد الأحياء. أما قبائل "البولوئى" على نهر الكونغو⁽⁴⁾ فيعتقدون أنهم محاطون بالأرواح التى تلحق بهم الأذى فى أى وقت، فتحاول إيذاءهم فى كل ساعة من ساعات النهار والليل. والأنهار والجداول مملوءةٌ بأرواح أسلافهم، وكذلك غصت الغابة والأدغال تماماً بالأرواح. أما المرتحلون براً أو عبر الماء إذا ما داهمهم الليل فإنهم قد يواجهون خطرهما. وليس هناك من لديه ما يكفى من الشجاعة حتى يعبر ليلاً الغابة التى تفصل بين قريةٍ وأخرى. ولا تستطيع

إمكانية الحصول على مكافأة عظيمة أن تُغرى أحدًا بذلك. أما الإجابة على ذلك فكانت: "هناك بالغابة أرواحٌ أكثر مما ينبغي". ومن المؤلف أن يعتقد المرء أن الأموات يسكنون معًا بلدًا بعيدًا تحت الأرض أو على جزيرةٍ أو في دارٍ سماوية. وتقول أغنية لقبايل "بيجماين" بالجابون⁽⁵⁾: "أُوصِدَت بوابات جهنم. أرواح الموتى تتزاحم إلى هناك أفواجًا مثل سرب الذباب الذى يرقص مساءً. سرب ذباب يرقص مساءً فى دجى الليل عندما تختفى الشمس. سرب من ذباب: تنشر خشخشة أوراقٍ ميتة فى عاصفة تعوى".

إلا أنه ليس كافيًا أن يزداد عدد الموتى حتى يسود شعورٌ بكثافتها. وهم أيضًا يتحركون ويقصدون الإتيان بأفعالٍ جماعية وهم يظلون غير مرئيين للبشر العاديين. لكن هناك أناسًا بقدراتٍ خاصة، وهم الأطباء السحرة⁽⁶⁾، يستطيعون التفاهم مع الأرواح من خلال السحر وإخضاعهم فيصيرون خدماً لهم، ويعتقد الـ"تشوكتش" بسييريا⁽⁷⁾ بأنه: "لدى الطبيب الساحر الماهر كتائب كاملة من الأرواح المعاونة. فإذا ما استدعاها جميعًا فإنها تأتى فى جماعاتٍ كبيرة، حتى إنها تكون كجدار أحاط من كل جانب بخيمة النوم التى تستخدم بها تعويذة السحر". ويقوم الأطباء السحرة بنقل ما يرونه. وبصوتٍ يرتعش من الحركة ينادى الطبيب الساحر خلال كوخ الجليد: "قد غص فضاء السماء بكائناتٍ عارية ترحل خلال الهواء، بشر، رجالٌ عراة، نساءٌ عاريات يرحلون إلى هناك وينفثون عاصفةً وموجات جليد، ألا تسمعونها تثر؟ إنها تهدر مثل خفق جناح طائرٍ كبير فوق فى الهواء. إنه خوف الرجال العراة. إنه فرار البشر العراة. إن أرواح الهواء تنفث عواصف. إن أرواح الهواء تدفع الجليد الغائر إلى الأرض".

إن هذا الرؤية الرائعة للأرواح العارية قد نشأت بين أهل الإسكيمو. وبعض الشعوب تتصور موتاهها أو عددًا معينًا منهم على أنهم جيشٌ مقاتل. ولدى الـ"كلتن" بالمرتفعات الإسكتلندية يعرف جيش الموتى⁽⁸⁾ باسمٍ خاص هو "سلواف" وتعنى هذه الكلمة بالإنجليزية "spirit multitude" أى "أرواح - بأعداد كبيرة". ويطير جيش الأرواح فى السحب الكبيرة - مثل غيمٍ أبيض على وجه الأرض - صعودًا وهبوطًا. ودائمًا ما تعود إلى مواضع خطاياها الأرضية، وهى تقتل بنبالها المسمومة، التى لا تخطئ الهدف، قطعًا وكلابًا ونعاج وأبقار البشر. وهى تخوض حروبًا فى الهواء مثل التى يخوضها الناس على الأرض. وفى ليالٍ صحوة يغمرها

الصقيع يستطيع المرء رؤيتها وسماعها وكيف تتقدم جيوشها تجاه بعضها البعض وتنسحب، لتتقدم ثانيةً. وبعد معركةٍ ما يصبغ دمها الصخور والأحجار باللون الأحمر. أما كلمة "giram" فتعنى "صرخة" أو نداء، وكلمة "سلواف - جيرام" كانت هى صرخة معركة الموتى. وقد اشتق منها فيما بعد كلمة "slogan": فالدلالة على صيحات القتال لجماهيرنا الحديثة نشأت عن جيوش موتى الجبال. وهناك شعبان من الشمال يسكنان بعيداً عن بعضهما البعض، الـ"لابن" فى أوروبا، وهنود "الأسكا الحمر" المعروفون بالـ "تلينكى" لديهمما التصور نفسه عن "نور الشمال" كمعركة⁽⁹⁾. فأما الـ"كولتا لابن" فيعتقدون أنهم رأوا فى نور الشمال من سقطوا فى الحروب، وهم ما زالوا يقاتلون بعضهم البعض فى الهواء كأرواح⁽¹⁰⁾. أما الـ"لابن" الروس فيرون فى نور الشمال أرواح القتلى، فهم يسكنون فى بيتٍ حيث يجتمعون أحياناً وهناك يتطاعنون حتى الموت حتى تمتلئ الأرض بالدماء، ويُبلِّغ نور الشمال بأن أرواح القتلى قد بدأت معركتها. ويعتقد الـ"تلينكى" فى الأسكا بأن كل من ماتوا ببلادهم ولم يسقطوا فى الحروب يذهبون فقط إلى العالم السفلى. إنهم فقط المحاربون البواسل، الذين قتلوا فى الحروب، الذين يكونون فى السماء التى تنفتح من حينٍ لآخر لتستقبل أرواحاً جديدة. أما الكهان فيظهرون دائماً كمحاربين مدججين بالسلاح. وتبدو أرواح القتلى هذه غالباً كنور الشمال، تحديداً مثل شعلات نور الشمال التى تبدو للعيان كسهامٍ أو حزمٍ تتحرك هنا وهناك، ويمر بعضها ببعض أحياناً أو تتبادل مواقعها وهو ما يذكّر بأسلوب الـ"تلينكى" فى الحرب. ويعتقد المرء أن نور شمال قويًا يعلن عن إهراق دمٍ عظيم لأن المحاربين الموتى يأملون رفاقاً جددًا. وطبقاً لمعتقدات الـ"جرمان" فإنه يوجد عددٌ هائل من المحاربين معاً فى "فالهاال"، فكل الرجال القتلى منذ نشأة العالم يصلون إلى "فالهاال" ويستمر عددهم فى التزايد لأن الحرب لم تضع أوزارها. ولما كانوا يسرفون فى الطعام والشراب فإن الغذاء والشراب يتجدد على نحوٍ أبدي. وكل صباحٍ يمسون بأسلحتهم ويخرجون للقتال. وهم يتظاهرون بقتل بعضهم البعض، لكن القتلى يعودون للحياة ثانيةً لأن الموت لم يكن موتاً حقيقياً. ومن خلال 640 بوابةٍ يدخلون إلى "فالهاال" ثانيةً فى طوابير يضم كل منها 800 رجلٍ. إلا أنها لا يوجد هناك فقط أرواح الموتى التى يتصورها المرء فى تلك المجموعات غير المرئية على أنها من الأحياء المألوفين، ففى نصٍ قديم لليهود يُذكر: "على المرء أن يدرك وأن يلاحظ أنه لا يوجد فضاءٌ شاغر بين السماء والأرض بل إن كل

شيء ممتلئ بالأسراب والجماعات، بعضها طاهرٌ ومترع بالغفران والمساملة. لكن هناك جزءًا من المخلوقات غير الطاهرة وهي ضارّةٌ ومعذّبةٌ وجميعها يطير في الهواء، بعضها يبغى السلام وبعضها يبحث عن الحرب وبعضها يسبب الخير وبعضها يسبب الشر وبعضها يجلب الحياة وبعضها يجلب الموت". وفي دين الفرس القدامى تُكوّن الأشباح جيشًا خاصًا يكون تحت إمرتها⁽¹¹⁾. وعن عدد هذه الأشباح الذي لا حصر له يوجد في كتابهم المقدس "زند - افرستا" العبارة التالية: "آلاف وآلاف مؤلفة من الأشباح وعشرات الألوف وعشرات الألوف المؤلفة لراهبات بلا حصر".

وقد كان لمسيحية القرون الوسطى أفكارٌ جادة عن عدد الشياطين. ففي "الحوار عن عجائب قيصر فون هايسترباخ" ذُكر كيف أنهم طغوا ذات مرة على جوقة إحدى الكنائس بكثافة إلى حد التشويش على إنشاد القسس⁽¹²⁾. وكان هؤلاء قد بدأوا المزمور الثالث "أيها السيد كم كثيرون هم أعدائي". فكان أن طار الشياطين من طرفٍ للجوقة إلى طرفها الآخر، واختلطوا بالقسس الذين لم يعودوا يدركون إطلاقًا ماذا يغنون فارتبكوا، وصار كل طرفٍ يحاول مغالبة الطرف الآخر. فإذا ما اجتمع هذا العدد الكبير من الشياطين بمكانٍ واحدٍ ليفسد صلاةً واحدة للرب، فكم يكون عددهم إذن في الأرض كلها! وكان من رأى قيصر أن الإنجيل يشهد أن كتيبةً منهم تلبس إنسانًا واحدًا. وقد قال كاهنٌ ممتعض لإحدى قريباته الجالسة إليه وهو على فراش الاحتضار: "أترين تلك الشونة الكبيرة المواجهة لنا؟ فأسفل سطحها يوجد كثيرٌ من عيدان القش اجتمعت الآن حولى كشياطين". فهناك كانوا يتربصون بروحه لإنزال العقاب بها. إلا أنهم كانوا يبحثون كذلك عن حظهم على سرير موت الورعين. وفي أثناء جنازة راهبةٍ خيرةٍ كان اجتمع حولها شياطين أكثر من الأوراق على الشجر بغابةٍ كبيرة. وحول قسٍ محتضر كانوا أكثر من رمال شواطئ البحر. ويعود فضل الحصول على هذه المعلومات إلى شيطانٍ كان حاضرًا هناك بشخصه وتجاذب أحد الفرسان معه أطراف الحديث، فكان أن نشأ بينهما سؤالٌ وجواب، ولم يكشف الشيطان عن خيبة أمله في المجهودات الفاشلة، واعترف بأنه كان جالسًا على أحد أضلاع الصليب عند موت المسيح.

وقد رأى البعض أن اقتحام هذه الشياطين كان رهيبًا بقدر عددهم الرهيب، وعندما أغمض الأب ريشلام، رئيس دير سيسترن، عينيه رآهم حوله في كثافة

الغبار. وقد ذكر تقديرات أكثر دقةً عن عددهم ومن بينها تقديران معروفان لدى لكن بينهما فرقًا شاسعًا، فالأول يبلغ 44.635.569. أما الثاني فيبلغ أحد عشر بليونًا. وعلى نقيضٍ حاد وطبيعي من ذلك نشأ التصور عن الملائكة والأبرار. فهناك يخيم الهدوء التام. فلم يعد هناك من يسعى إلى شيء بعد أن حقق هدفه. لكنهم أيضًا تجمعوا، أسراب جيش السماء، "عددٌ لا حصر له من الملائكة والبطارقة والأنبياء والرسل والشهداء ومؤمنين وبررة آخرين"⁽¹³⁾. وهم يقفون في دوائر واسعةٍ حول عرش سيدهم، كما يتوجه رعايا البلاط إلى ملكهم، كتفًا إلى كتف، ففى قربه تنشأ سعادتهم، وهم في حضرته دومًا ولا يغادرونه إلا بالقدر القليل نفسه الذى يفارق أحدهم الآخر. وقد انصهروا في مشهده وأخذوا يسبحونه. إنه الأمر الوحيد الذى يؤدونه وهم يؤدون ذلك معًا.

إن روح المؤمنين مفعمةٌ بمثل هذه التصورات عن الكتلة غير المرئية سواء كان هؤلاء موقى أو شياطين أو قديسين فإن المرء يتصورهم في أسرابٍ كبيرة كثيفة. ويمكن القول إن الدين يبدأ بهذه الكتلة غير المرئية. التى ربما تشلكت من مجموعات مختلفة. وقد حرص كل دين على وضع توازن خاص فيما بين هذه المجموعات. إن تقسيم الأديان حسب أسلوبها في استغلال كتلتها غير المرئية يكون ممكنًا ومأمولًا للغاية. والأديان الكبرى التى ندرك أنها قد صار لها اعتبار عام تثبت من خلال ذلك اطمئنانا ووضوح مستقلين. فمخاوف وآمال البشر ترتبط بالكتلة غير المرئية التى تحفظها الأديان على قيد الحياة من خلال المواعظ. فهؤلاء غير المرئيين هم بمثابة الدم للعقيدة فما إن يتراجع هؤلاء حتى تصاب العقيدة بالوهن. وبينما هذه تموت تدريجيًا فإن جماعاتٍ أخرى تحل محل المتراجعين.

ورغم أننا لم نتناول مثل هذه النوعية من الكتلة بعد، فإننا نعتقد أنها قد تكون أهم أصناف الكتل. فهى الوحيدة التى يعتبرها الإنسان المعاصر طبيعيةً رغم عدم رؤيتها: فهى الجيل التالى. وقد يتجاهل أى إنسان رؤيتها لجيلين وربما لثلاثة، إلا أن وجودها برمته ملك المستقبل. فعدد نسلها غير المحدود لا يتاح لأحد رؤيته. وهناك يقين من حتمية تكاثرها في البداية شيئًا فشيئًا، ثم تزايد بسرعةٍ مطردة. وقبائل وشعوب بأكملها ترجع أصلها إلى جد أعلى، وطبقًا لما وُعد به هذا الجد يبدو للعيان كما كان نسله الذى تمناه رائعًا، بل كثيرًا،

كثيرون مثل نجوم السماء ومثل الرمل على شاطئ البحر. وفي "شى - كينج"، كتاب الأناشيد التراثي عند الصينيين، توجد قصيدة شعر يُقَارَن فيها النسل بأسراب الجراد: "تقول أجنحة الجراد ذات الأزيز: (اندفع، اندفع! فليكن أبناؤك وأحفادك جيشًا لا حصر له!) تقول أجنحة الجراد ذات الأزيز: (اربط، اربط! حيث أبناؤك وأحفادك يتعاقبون في سلسلة بلا نهاية!) يقول الجراد، ضاربًا بحناحيه: (فليكن أبناؤك وأحفادك في وحدة واحدة دائمًا!)"⁽¹⁴⁾.

إنه العدد الغفير إذن، والتعاقب المتواصل، أى هذا النوع من الكثافة العابر للزمن - إضافة إلى الوحدة، هى الأمنيات الثلاثة للنسل، كما ذكرناها هنا. أما سرب الجراد، كرمز لجمهور من النسل، فيستوعب الانتباه على نحو خاص، فالجراد هنا لا يُعتَبَر حشراتٍ ضارة، وإنما هو نموذجٌ مثالى لقوة رغبتها في التكاثر. وأما الشعور نحو النسل فما زال قائمًا حتى اليوم كما كان دائمًا. لكن التصور الشخصى عن كثافة النسل يتبدل لينتقل إلى البشرية في المستقبل. ورغم أن معظمنا اعتبر جيوش الموتى خرافةً بلا معنى، فإنه يعتبر سعيًا نبيلًا ومفيدًا عندما نشعر مسبقًا بكتلة جماهيرية لجيلٍ لم يولد بعد، والرغبة الأكيدة في ذلك، وإعداد حياةٍ أفضل وأكثر عدلاً من أجلهم. كما أن الشعور بالخوف العام نحو مستقبل الأرض هو شعورٌ بالغ الأهمية تجاه من لم يولد بعد. وقد يكون شعورنا بالنفور من تشوهمهم ومن فكرة ما سيبدون عليه عندما نخوض حروبنا بأسلوبها الجديد، لهو شعورٌ أعظم من كل مخاوفنا الخاصة بنا نحو القضاء على مثل هذه الحروب أو القضاء على فكرة خوض الحرب نفسها.

فإذا ما فكرنا في مصير الكتلة غير المرئية التى تناولناها بالحديث، فإنه يمكننا القول بأن بعضًا منها قد اختفى إلى حدٍّ كبير، وبعضها اختفى تمامًا، وإلى تلك الأخيرة ينتمى الشياطين الذين لم يعودوا يظهرون في هيئتهم المعهودة، رغم كثرة عددهم في الماضي، إلا أنهم تركوا آثارًا خلفهم. وقد دلت بعض الشهادات العجيبة على صغر حجمهم، وهى شهادات من عصر قيصر فون هايمستر باخ، الذى كان عصر ازدهارهم. ومنذ ذاك الحين تنازلوا عن كل الملامح التى تُدْكَر بالهيئة الإنسانية بعد أن صاروا أصغر حجمًا بكثير، إلا أنهم ظهروا على هيئتهم المتغيرة هذه في مجموعاتٍ كبيرة مرةً أخرى في القرن التاسع عشر كجراثيم. لكن هجومهم لم يعد موجّهًا ضد الروح بل ضد جسد الإنسان، الذى كان يمكن أن

يتهددوه بخطرٍ عظيم. وكان هناك نفرٌ قليل للغاية من الناس الذين رأوا هؤلاء بالفعل من خلال الميكروسكوب. أما كل من سمعوا بهم فكانوا على وعيٍ دائم بوجودهم، فبذلوا ما في وسعهم حتى لا يحتكوا بهم، أو يأتوا أى فعلٍ غريب رغم عدم رؤيتهم لهم. فقد نقلوا بلا ريب عن الشياطين خطورتهم وكثافة عددهم الهائل في مكانٍ ضيقٍ للغاية. فهناك كتلة غير مرئية كانت موجودةً دائماً إلا أننا لم نتعرف عليها إلا بعد توافر الميكروسكوب- وهى الحيوان المنوى. مثلاً مليون من هذه الحيوانات المنوية الصغيرة تسلك طريقها معاً، وهى فيما بينها متساوية، وهى معاً تكون الكثافة الأكبر، وأمامها جميعاً هدفاً، ويُقضى عليها جميعاً في الطريق فيما عدا واحدٍ منها، وحيدٍ من بينها. وقد يقال إنها ليست بشراً فلا يجوز ذكرها هنا ككتلة جماهيرية بالمعنى المحدد، إلا أن هذا الاعتراض لا يصيب جوهر الأمر، فكل واحدٍ من هذه الحيوانات المنوية الصغيرة يحمل معه كل ما سوف يبقى من الأسلاف، أى أنه هو السلف. وهو ما يعتبر مفاجأةً هائلة، أى وجودهم هنا ثانيةً فيما بين وجودٍ إنسانى وآخر في هيئةٍ مختلفة تماماً، فوجدَ كلُّ منهما في مخلوق صغير غير مرئى، مخلوق في عددٍ بلا حصر.

التقسيم وفقا للانفعالات

إن الكتلة التى تعرفنا عليها مترعة بالانفعالات الأكثر اختلافاً، إلا أن نوع هذه الانفعالات لم يذكر تقريباً. فالهدف الأول لهذه الدراسة كان مكرساً لتقسيم الكتل طبقاً لمبادئ الشكل. وعما إذا كانت الكتلة منفتحة أو منغلقة، سريعة أم بطيئة، غير مرئية أو مرئية، فإن ذلك لا يصرح إلا بالقليل عن فحواها وعما تشعر به. أما الآن فإنه لا يمكن على أية حال فهم هذا المحتوى فهماً خالصاً، فقد تعرفنا بالفعل على الأحوال التى تتكون فيها الكتلة المخترقة بسلسلة كاملة من المؤثرات المتتابعة بسرعة. فالناس يستطيعون قضاء الساعة تلو الأخرى فى المسرح وتكون التجارب التى تجمعهم هناك مختلفة في أنواعها أشد الاختلاف. أما فى الحفل الموسيقى فيكون شعورهم أكثر تحرراً منه فى المسرح. وما نود أن نقوله هنا هو أن هذه الحالات تصل إلى أقصى درجاتها فى التنوع. إلا أن هذه الأحوال مفتعلة، فتراؤها هو منتج نهائى لثقافات أعلى وأكثر تعقيداً. وتأثيرها تأثير معقول، فالأطراف ترتفع ببعضها البعض، فهذه المؤسسات تهدف فى العموم إلى الحد من حالة الشغف التى يشعر الناس أنهم أسرى لها. أما الأشكال الانفعالية الرئيسة فإنها تواصل زحفها الكبير للخلف. فقد ظهرت فى زمن باكر للغاية، وتاريخها قديم قدم البشرية نفسها، بل إن شكلين من هذه الأشكال هما الأكثر قدمًا. وكل

واحدٍ منها يتميز بصبغة متفردة واحدة، ويسيطر عليها شغفٌ رئيس وحيد. فإذا ما ظفر المرء بنظرةٍ واضحة عنها فيكون من المحال أن يخلط بينها مرةً أخرى. وفيما يلي سنعرض التمييز بين خمسة أنواعٍ من الكتل طبقاً لفحواها الانفعالي. فكتلة التحريض والفرار هما الأقدم من بين هذه الكتل، وهما تظهران بين الحيوان بنفس قدر ظهورهما بين البشر. وربما كانتا تقتربان من حينٍ لآخر من مثالهما الحيواني في أثناء تكوينهما بين البشر فرادى. أما كتلة الحظر والارتداد والاحتفال فهي كتلة خاصة بالبشر. ولم يكن هناك مفرٌ من وصف هذه الأنواع الخمسة الرئيسة وقد يفضى شرحها إلى معارف ذات أبعاد هائلة.

كتلة التحريض

إن الدافع لتكوين كتلة التحريض هو هدفٌ يمكن الوصول إليه بسرعة. وهو هدفٌ معروف ومحددٌ بدقة لدى الكتل. كما أنه أيضًا قريب. إنها تهدف إلى القتل. وهى على علمٍ بمن تبغى قتله. وتمضى بإصرارٍ لا مثيل له نحو هدفها. ومن المحال أن يتم خداعها في هذا الشأن فيكفى الإعلان عن هذا الهدف ويكفى ذكر المقصود قتله لتتكون الكتلة. إن التركيز على القتل هو نوعٌ خاص لا يفوق كثافته أى نوع آخر. فالكل يريد المشاركة في ذلك والكل يريد أن يسدد ضربته. وحتى يتمكن من تسديد هذه الضربة يزاحم الجميع للوصول إلى أقرب نقطةٍ من الضحية، فإن لم يصب هو، رأى ما أصاب الآخرين. فكل الأذرع تمتد كأنها لمخلوقٍ واحد فقط. لكن الذراع التى تصيب هى التى تحصد أهميةً وثقلًا أعظم.

إن الهدف هو كل شيء. والضحية هى الهدف، إلا أنها أيضًا هى نقطة الكثافة العظمى، فعمل الكل يتوحد فيها. وهكذا يجتمع كلٌ من الهدف والكثافة معًا. وهناك سببٌ مهمٌ لنمو كتلة التحريض السريع وهو عدم خطورة ما تقوم به. إنه عملٌ بلا مخاطر. فالتفوق العظيم في جانب الكتلة. أما الضحية فلا تستطيع فعل شيء ضد الكتلة، فليس بوسعها إلا الفرار، إن لم تكن مقيدةً، ولا يمكنها المقاومة فهى ليست سوى ضحيةٍ مستسلمة، دمها مهدرٌ، وبعد أن تقرر مصيرها

فإن أحدًا لا يخشى عقابًا من جراء قتلها. فالقتل المباح يحل محل كل عمليات القتل المحظورة والتي يخشى من عقاب شديد على تنفيذها. إن قتلًا مباحًا ومنشودًا يشارك فيه آخرون كثيرون لهو أمرٌ لا تستطيع غالبية الناس مقاومته. وعلينا أن نضيف إلى ذلك أن التهديد بالقتل الذي يواجهه الناس جميعًا، والذي يمارس دائمًا بأساليب غير مباشرة، حتى لو لم يظهر باستمرار للعيان، هو تهديدٌ يجعل من قتل الآخرين احتياجًا، ليصير هذا الاحتياج هو الدافع لتكوين كتلة التحريض. إنه عملٌ يسيرٌ للغاية ويجرى بسرعةٍ إلى حد أن المرء يتعجل تنفيذه. وتتعجل وترفع واطمئنان هذه الكتلة هو أمرٌ ينطوى على شيء رهيب. إنه انفعال العميان الذين اعتقدوا أنهم يبصرون فصاروا أكثر عمىً. فالكتلة لن تقبل على الضحية والإعدام من أجل الخلاص فجأةً ولأبد من كل هؤلاء الذين تكونت هي منهم، لكن ما يحدث لها في الواقع هو النقيض من ذلك، فمن خلال الإعدام، أى بعد تنفيذه، تشعر هي بالموت أكثر مما سبق. فهي تتفتت وتتبعثر في نوع من أنواع الفرار. فإن كانت قيمة الضحية أعظم كان خوف الكتلة أكبر، وهي لا تستطيع البقاء معًا إلا إذا تعاقبت بسرعةٍ سلسلةٍ من نفس الأحداث. وكتلة التحريض كتلة قديمة للغاية. وهي تعود إلى الوحدة الديناميكية الأكثر قدمًا التي عرفها الإنسان، أى حشد الصيد. ولسوف نتناول فيما بعد على نحوٍ أدق تلك الحزم الصغيرة التي تختلف عن الكتلة كثيرًا. لكننا نتناول هنا بعض الحالات العامة فقط التي تمثل دافعًا لتكوين كتلة التحريض. فمن بين أنواع القتل التي تحكم بها جماعةٌ أو شعبٌ على أفرادٍ يمكننا تمييز شكلين أساسيين، الأول هو النبذ، فيتم إقصاء الفرد ليُسَلَّم دون حمايةٍ لحيواناتٍ مفترسة، أو يترك ليموت جوعًا، فتقطع كل علاقةٍ له بهؤلاء الذين كان ينتمى إليهم سابقًا، فلا يجوز لهم استضافته أو تقديم الطعام له، فهذا أمرٌ يندس كل من تعامل معه، كما يكون قد حكم على نفسه بالإدانة. والعزلة التامة هي أقصى عقاب. فانفصال الفرد عن جماعته هو عذابٌ لا ينجو منه سوى القليل خاصةً بين الجماعات البدائية. وهناك نوعٌ غريب من الإقصاء وهو تسليم الفرد إلى الأعداء، فيكون ذلك شعورًا مروّعًا ومهيئًا للغاية، كأنه موتٌ مضاعفٌ، خاصةً إذا ارتبط ذلك برجلٍ لم يقع في الأسر في أثناء القتال. أما الشكل الآخر فهو القتل الجماعى. وهنا يقاد المدان إلى ساحةٍ ما ليتم رجمه، فيشارك الجميع في القتل، فإذا أصابت أحجار الجميع المذنب انهار، فلم يكن هناك جلاذ كُلف بذلك، بل كانت الجماعة كلها تقتل

وكانت الأحجار متوافرةً أمام الجماعة، فهي وجبة غذاء قرارهم وفعلهم. وحتى بعد اندثار عملية الرجم ظلت هذه النزعة إلى القتل الجماعى باقيةً. ويمكن مقارنة ذلك بالقتل حرقًا، فهنا تكون النار في خدمة الجماعة التى كانت تشوق لقتل المُدان، فتُحيط النار بالضحية من كل جانبٍ، من كل مكان. وهنا يمكن القول بأنه قد قبض عليه وتم قتله.

والأديان المؤمنة بالجحيم تضيف إلى ذلك أمرًا آخر، فالقتل الجماعى بالنار - التى ترمز للكتلة - يربط بين فكرة الإقصاء بالنار وبين فكرة التسليم لأعداء النار. فلهب نار جهنم يتصاعد من الأرض ليحرق الكافرين جزاءً وفاً، وهو ما يتم أيضًا من خلال رمى الضحية بالنبال أو قتل المُدان رميًا بالرصاص من خلال فرقة الإعدام. فكل أشكال الإعدام العلنى مرتبطةٌ بالممارسة القديمة للقتل الجماعى. أما الجلاد الحقيقى فهو الكتلة التى تتجمع حول شعور التعطش للدم. وهى تستحسن العرض العلنى ويدفعها التشوق إلى التدفق معًا من مسافاتٍ بعيدة حتى تشارك فى المشاهدة من البداية للنهاية. وهى تسعى لتحقيق ذلك وتكره أن تفلت الضحية. وقد أصاب خبر إدانة المسيح قلب الحدث: "أصلبوه!". هكذا كانت صيحة. فقد كانت هى المؤثرة بالفعل. وهى التى كانت فى عصورٍ أخرى على استعداد لفعل كل شيء، بل ورجم المسيح كذلك، وهى تؤيد المحاكمة التى تدور عادةً أمام مجموعةٍ محدودة من الناس، كمثلة للجماعة الكبيرة، التى تحضر بعد ذلك عملية الإعدام. أما الحكم الصادر باسم القانون فيبدو مجردًا وغير حقيقى لكنه يصير حقيقًا عندما يتم تنفيذه أمام الجماعة. فمن أجلها صدر الحكم حقًا. والمقصود بعلانية الحكم هو التكتل. وكانت عمليات الإعدام بالعصور الوسطى تنفذ على نحو ما من الفخامة، فتمضى ببطءٍ قدر الإمكان، ويتوجه الضحية إلى المشاهدين بحديثٍ تحذيرى مؤثر، فهو مهمومٌ بمصيرهم، فيحذرهم من أن يفعلوا ما فعله هو. فيستعرض أمامهم ما جرّته عليه مثل هذه الحياة. أما هم فيستشعرون من اهتمامه بأنه ينافقهم نفاقًا غير قليل، وقد يُمنَح الرضا الأخير بأن يوجد بينهم كواحدٍ متساوٍ معهم، خيرٌ مثلهم قضى حياته السابقة بينهم وتبرأ منها. إن ندم الآثمين أو الكافرين فى مواجهة الموت الذى بذل من أجله رجال الدين قصارى جهدهم ينطوى على معنى آخر، إلى جانب هذه النية المعلنة لإنقاذ الروح، وهو أن يجعل كتلة التحريض تدرك أنها

كتلة احتفال بمستقبلها ليشعر كل فرد بصحة عقيدته، فيؤمن بما ينتظره من ثواب في العالم الآخر.

أما في عصور الثورة فكان يتم التعجيل بعمليات الإعدام. وقد تباهى سامسون، قاطع الرؤوس بباريس، بأن مساعديه لم يحتاجوا لأكثر من دقيقة لكل شخص. فروح الكتلة المحمومة الغالبة على مثل هذه المراحل ترجع إلى عمليات الإعدام السريعة المتعاقبة بلا حصر. كما تهتم الكتلة بأن يعرض قاطع الرؤوس رأس القتل أمامها. وهذه، وليست غيرها، هي لحظة التخلص من الكبت. ومهما كان شأن صاحب هذه الرأس فإنه صار حينئذ مجرداً من منصبه. وفي اللحظة القصيرة عندما يحملق في الكتلة فإنه يكون رأساً مثل رؤوس الآخرين جميعاً. ذلك الرأس الذي كان لملك، يكون قد تساوى مع غيره من خلال عملية التجريد التي تتم بسرعة البرق أمام أعين الجميع. أما الكتلة التي تتكون هنا من رؤوس محمقة فإنها تحصل على شعورها بالمساواة في تلك اللحظة، لأن هذا الرأس يحملق أيضاً تجاهها. وكلما كان من تم إعدامه أعظم مكانة، وكلما كانت المسافة التي فصلت بينه وبين الكتلة أكثر اتساعاً، كان انفعال الكتلة بتحررها من الكبت أشد قوة. فإن كان ملكاً، أو من أصحاب سلطة كسلطة الملك، فإن الرضا بالارتداد يلعب أيضاً دوراً مؤثراً في ذلك. فالحق في عدالة دامية، الذي كان هذا قد تمتع به طويلاً، تمت ممارسته ضده حينئذ. فمن كان يأمر سابقاً بقتلهم، قاموا بقتله. ولا تبغى المبالغة في تقييم هذا الارتداد، فهناك نوع من الكتل يتكون من الارتداد وحده فقط.

أما أثر الرأس المرفوع أمام الجميع فلم يبلغ مضناه مطلقاً في لحظة التخلص من الكبت. ففي لحظة تعرف الكتلة على الرأس صاحب القوة الهائلة كأحد أفرادها، وفي لحظة سقوط صاحب هذا الرأس أمامهم، ولم يعد مثلهم، فقد رأى كل واحد منهم فيه نفسه، وصار الجميع على هذا النحو متساوين. فالرأس المجتزأ صار بمثابة التهديد، وهم قد نظروا بمثل هذا الاشتها في عينه الميته، حتى إنهم لم يستطيعوا التحرر منه، حتى جاءت هذه اللحظة. ولما كان الرأس منتمياً إلى الكتلة فإن موته صارت هي الأخرى في عداد الموتي، فتبدأ في التلاشي على نحو مريض مروع محفوف بالغموض والأسرار. إنه نوع من الفرار منه، تتشتت فيه حينئذ الكتلة.

إن تفتت كتلة التحريض التى نالت ضحيتها، يكون سريعاً للغاية، وهى حقيقةً يدركها أصحاب السلطة المهددون بالخطر، فهم يلقون إلى الكتلة بضحيةٍ ما لى يوقفوا نموها. وقد أمروا بكثيرٍ من عمليات الإعدام السياسية من أجل هذا الغرض فقط. وعلى الجانب الآخر لا يكون الطرف المؤيد، المتشدد غالباً، على وعيٍ كافٍ بأن تحقيق هدف الكتلة بالإعدام العلنى لعدوٍ هو خطرٌ يُسبب لهذا الطرف ضرراً أعظم مما يسببه الطرف المعادى. فقد يحدث لهذا (الطرف) أن تضل كتلة أنصاره الطريق بعد إحدى عمليات الإعدام هذه، فلا تستعيد قوتها السابقة لفترةٍ طويلة أو لا تستعيدها على الإطلاق. وسوف نتناول أسباباً أخرى لهذا التحول عندما يتطرق الحديث إلى الحشد، وخاصةً حشد المناحة.

إن التأفف من المشاركة الجماعية فى القتل هو أمرٌ حديث العهد للغاية، كما أنه لم يؤخذ على محمل الجد. فحتى فى أيامنا هذه يشارك كل فردٍ فى عمليات الإعدام العلنية- من خلال مطالعة الصحيفة. إنه أمر ينطوى على كثير من الراحة، مثل كل شىء. فالمرء يجلس على راحته ليتوقف عندها من بين مئات التفاصيل التى تثير اهتمامه، ولا يستحسن المرء ذلك إلا عندما يكون الأمر كله قد انقضى، فلا يعكر متعته أدنى إحساسٍ بالذنب، فهو ليس مسئولاً عن شىء، ليس مسئولاً عن الحكم وليس مسئولاً عن الشاهد أو أقواله، أو حتى الصحيفة التى نشرت التقرير. لكن معرفتنا بذلك الآن قد زادت عما كانت عليه فى العصور السابقة، حينما كان المرء يضطر للسير والوقوف لساعاتٍ طويلة وفى النهاية لا يرى سوى القليل. أما جمهور الصحف فقد تم الحفاظ على وجودهم كجمهور تحريض أكثر اعتدالاً، بل أقل إحساساً بالمسئولية لابتعادها عن مجرى الأحداث. وقد نقول إنه قد تم الحفاظ عليها كشكل أكثر احتقاراً وأكثر رسوخاً فى الوقت نفسه. ونظراً لأنها ليست بحاجة مطلقاً إلى التجمع فإن مآلها التلاشى والانهياء، وكنوع من التغيير يتكرر الحدث بالجريدة كل يوم.

كتلة الفرار

تتكون كتلة الفرار من خلال التهديد. ومن خصائصها أن كل شيء يفر وأن كل شيء يمضي معها. والخطر الذي يتهدد الفرد هو ذاته الخطر الذي يتهدد الجميع. وهذا الخطر ينصب على موضع معين ولا يفرق بين هذا وذاك، فقد يهدد سكان مدينة ما أو يهدد الجميع أو المنتمين لعقيدة ما أو جميع من يتحدثون لغة واحدة، فيفر الناس معًا. وعلى هذا النحو يكون الهروب الجماعي أفضل. أما الدافع فهو واحد، فطاقة هذا تدعم طاقة ذاك، والناس يدفعون بعضهم البعض في الاتجاه نفسه. وما دام الناس معًا فإنهم يشعرون بتقاسم الخطر. وهناك تصورٌ موغل في القدم بأن الخطر سوف يضرب موضعًا ما بعينه. فإذا انقض العـدو على أحدهم فإن جميع الآخرين يستطيعون الفرار في أثناء ذلك. وسبل الفرار مفتوحة، ولأنها ممتدة بطبيعتها فيكون من المستبعد أن الخطر سيهاجم الجميع في آن واحد، وبين هذه الكثرة لا يخطر ببال أحد أنه سيكون هو الضحية. ولما كان تحرك الجمع واحدًا يسعى للنجاة فإن بلوغها يسيطر على الحواس كافة.

إن قوة الاتجاه (هو) هي أكثر ما يلفت الانتباه في فرار الكتلة حتى إنه يمكن القول بأن الكتلة قد صارت نحو اتجاه واحد فحسب، وهو الفرار من الخطر. ولما كان الأمر لا يتعلق إلا بهدف واحد هو النجاة في هذا الاتجاه لا

غيره فإن المسافات التى كانت تباعد بين الناس قد تتلاشى، لتتلاقى هناك فجأة مخلوقات متميزة ومتناقضة لم تكن تقترب من بعضها البعض قط. فالفرار لا يذيب كل الفروق بينهم فحسب بل يلغى المسافات أيضًا. وهكذا تكون كتلة الفرار هى الأكثر شمولاً من بين كل أشكال الكتل. أما الصورة الفريدة التى تظهر عليها فلا تتأثر بمشاركة الجميع المطلقة فحسب بل إنها تضطرب لتفاوت السرعة بين الناس فى أثناء فرارهم، فمن بينهم الشباب والشيوخ والأقوياء والضعفاء. وسيفساء هذه الصورة قد تضلل المتأمل الواقف خارجها. فجأة - وقياساً على قوة التوجه - تفقد الصورة أهميتها تمامًا، وتتضاعف طاقة الفرار ما دام اعترف كل مشارك فيه بالآخرين، فهو بوسعه أن يدفعهم إلى الأمام، إلا أنه فى لحظة ما تتبدل ماهية الكتلة تمامًا، فتنحول إلى النقيض حينما لا يفكر كلٌ إلا فى ذاته، فلا يرى فيمن حوله سوى عائقٍ، فينتج عن ذلك دُعرٌ، هو صراع الفرد وحده مع الجميع الذين يعترضون سبيله. وغالبًا ما يصل الأمر إلى انقلابٍ حينما يضطرب اتجاه الفرار، فيكفى قطع الطريق أمام الكتلة لتنتقل إلى وجهةٍ أخرى، فإن تكرر قطع الطريق أمامها، فإنها سرعان ما تحتار إلى أى ناحيةٍ تتجه، فتضل الاتجاه، وعلى هذا النحو تتبدل كثافتها. أما الخطر الذى كان له أثرٌ سارٌّ وموحدٌ فإنه يجعل من البعض عدوًّا للآخر، ليحاول كلُّ النجاة بنفسه. إن "فرار الكتلة" هو على النقيض من "الدعر"، فهو يستنفر قوة الكتلة من تماسكها، ما دامت لم تدع مجالاً لشيءٍ يفرقها وما دامت تمسكت بثباتها تيارًا قويًا لا يتفتت، وما دام الخوف الملاحق لها فى إطار الاحتمال. وفرار الكتلة يتميز بحالةٍ من الشعور المتسامى عندما تبلغ حد الحركة. إنه الشعور المتسامى بالحركة الجماعية، فليس هناك من يتهدهد الخطر بقدرٍ أقل من الآخر. ورغم أن كل فرد يفر راجلاً أو راكبًا ليلوذ بمكانٍ آمن فإنه يكون له فى النهاية مكانه المعترف به والذى يتمسك به وسط اضطرابٍ شامل. وفى أثناء الهروب الذى قد يستمر أيامًا أو أسابيع فإن البعض يتراجع سواء كانت قوته قد خذلت أو أن العدو قد أصابه. وكل من يسقط يصير حافزًا للآخر للتقدم إلى الأمام. فالمصير الذى لقيه هذا كان قد استثنى ذاك. أما المصاب فهو ضحيةٌ كان قد داهمه الخطر. ومهما كانت أهمية هذا المشارك فى الفرار لأحدهم شخصيًا فقد ازدادت أهميته مع سقوطه، حيث إن حالته تمنح من شعر بالتعب قوةً جديدة، فقد كان ذاك أضعف منهم وقد استهدفه الخطر. أما العزلة التى صار إليها ورأوها فيه لوقتٍ قصيرٍ فإنها تعزز

من قيمة تماسكهم. وليس بوسعنا التأكيد بما فيه الكفاية على أهمية من سقط بالنسبة لاستمرار الفرار. والنهاية الطبيعية للفرار هى الوصول إلى الهدف، وفي حالة الأمان تتفكك الكتلة ثانيةً، كما يمكن أن يكون مصدر الخطر قد تلاشى لتعلن الهدنة بعد تلاشى تهديد الخطر للمدينة التى فر الناس منها، فيعود كل على حدة مثلما فروا معًا وينفصل كل شئ ثانيةً كما كان فيما قبل. إلا أن هناك حالة أخرى يمكن وصفها بتسرب الفرار فى الرمال، فالهدف تجاوز قدرة الوصول إليه والمحيط كان معاديًا وقد جاع الناس وأصابهم الضعف والذبول، وبدلاً من نفر قليل سقط المئات والآلاف، فيتسرخ هذا الانهيار الفيزيقي، وتسعى الحركة الأولى إلى ما لا نهاية، ويظل الناس يزحفون إلى الأمام حتى لو تلاشت كل فرصة للنجاة. فكتلة الفرار هى الأكثر صلابةً من بين أشكال الكتل كافةً، فحتى آخر لحظةٍ يظل معًا آخر من تبقى من الفارين. ولا يعوزنا ضرب الأمثلة على فرار الكتلة فقد صار عصرنا غنيًا بها مرةً أخرى، فإلى ما قبل تجربة الحرب العالمية الأخيرة كان علينا تذكر مصير جيش نابليون العظيم فى أثناء انسحابه من روسيا، وهى الحالة الأكثر وضوحًا، فكان تكوين هذا الجيش من أناسٍ مختلفى الألسن والأعراق، وكان الشتاء الرهيب، وتلك المسافة الهائلة التى كان على الغالبية قطعها على الأقدام. هذا الانسحاب الذى تحتم عليه أن يتخذ شكل فرارٍ جماعى هو معروفٌ بكل تفاصيله. أما هروب مدينةٍ عالميةٍ بمثل هذه الأبعاد فقد عايشناها للمرة الأولى عندما اقترب الألمان من باريس عام 1940، فلم يستغرق "الخروج" الشهير وقتاً طويلاً، إلا أن كثافة وحجم هذه الحركة كانا قد جعلتا الفرنسيين يعتبرونها الذكرى الجماعية المركزية للحرب الأخيرة. ولسنا بصدد تكديس أمثلةٍ من التاريخ الحديث، فهى ما زالت ماثلةً فى ذاكرة الجميع. وقد يكون مهمًا أن نؤكد على أن فرار الكتلة كان دائماً أمراً معروفاً للبشر حتى عندما كانوا يعيشون فى جماعاتٍ صغيرة. وقبل أن يتحقق ذلك، ونظراً لقلّة عددهم، فإن فرار الكتلة كان قد لعب دوراً مهمًا فى تصوراتهم. ولنتذكّر تلك الرواية لأحد الكهان بالإسكيمو: "لقد غص الفضاء بكائناتٍ عارية كانت تسرى عبر الأثير، أناسٌ، رجال عرايا، نساء عاريات، يصعدون إلى هناك وينفثون عاصفةً وأمواج جليدٍ فهلا سمعتم أزيزهم. إنها تخطط كضرب أجنحة الطيور الكبرى هناك فى الهواء، إنه خوف أناسٍ عرايا. إنه فرار أناسٍ عرايا".

كتلة الحظر

هناك نوعٌ خاص من الكتلة يتكون من جراء فرض الحظر. فهناك كثيرون ما عادوا يرغبون مع تجمعهم معًا فعل ما كانوا يفعلونه وهم فرادى حتى تلك اللحظة. فالحظر يقع فجأةً، وهم يفرضونه على أنفسهم فجأةً. وقد يكون حظرًا قديمًا كان قد طواه النسيان أو هو حظرٌ يُستدعى من حينٍ لآخر، وقد يكون جديدًا تمامًا. وفي كل الأحوال يبدو أنه قد رسخ بأعظم قوته وصار له قوة نفاذ القانون. إلا أن الأمر الحاسم فيه هو ماهيته السلبية. وهو لا يصدر عن الخارج وإن بدا على النقيض من ذلك. فهو دائمًا ما ينشأ عن حاجة من يسرى عليهم هم بالفعل. وما أن يُعلن الحظر حتى تشرع الكتل في تكوين نفسها، فيمتنع الجميع عن فعل ما كان العالم الخارجى يتوقعه منهم، فما كانوا يفعلونه حتى تلك اللحظة دون حرج كبير كأنه طبيعىٌ ميسور فإنهم فجأةً لا يفعلونه على أى وجه. ويتبدى انتماؤهم لبعضهم البعض من خلال تحديد امتناعهم. أما سلبية الحظر فهو أمرٌ تشارك فيه الكتلة منذ لحظة مولدها، ويظل هذا هو ملمحها الأساسى طالما كانت موجودة. وهنا يمكننا الحديث عن كتلة سلبية. أما الصلابة، فتصنعها الكتلة بنفسها، فالحظر هو "حدٌ" و"سدٌ" لا يستطيع شئ تجاوزه، ولا يستطيع أى شئ اختراقه، فكلٌ يراقب الآخر ليرى إن كان سيظل جزءًا من السد. ومن يتراجع فيتجاوز الحظر فإن الآخرين يكرهونه. أما أفضل مثال عن الكتلة

السلبية وكتلة الحظر في عصرنا فهو الإضراب. فقد اعتاد العمال على أداء عملهم بانتظام في مواعيد بعينها. فهناك أعمالٌ مختلفة تمامًا ينبغي إنجازها. فأحدهم يقوم بعمل هذا ليعمل الآخر شيئًا مختلفًا تمامًا. ولكنهم يجيئون في موعدٍ واحد، وفي وقتٍ واحد يغادرون مكان عملهم، وفي لحظة الدخول والخروج المشتركة هذه فإنهم يُعتبرون متساوين. وتؤدي الأغلبية عملها بأيديها، وهم متقاربون في مسألةٍ أخرى فيما يخص حقيقة أجورهم، إلا أن الأجر يختلف حسب ما ينجزونه. وهكذا لا تكون مساواتهم ذات بعدٍ كبير. وهذه وحدها لا تكفى لتكوين جمهور، إلا أنه عندما يتحول الأمر إلى الإضراب فإن العمال يلتزمون بالمساواة، أى الامتناع عن مواصلة العمل. وهذا الامتناع يمتلك على الإنسان كيانه. فحظر العمل يخلق روحًا حادةً وعنيدة، ولحظة التوقف هى لحظة عظيمة تمجدها أهازيج العمال. وكثيرٌ من الأمور تساهم في الشعور بالارتياح الذى يبدأ به العمال إضرابهم. أما حالة مساواتهم الوهمية التى يحدثهم المرء عنها والتى لن تستمر في الواقع عند عودتهم لعملهم فإنها تصير فجأةً مساواةً حقيقية. ففى أثناء العمل يلتزمون بأداء كل الأعمال المختلفة اختلافًا تامًا، وهم خاضعون لكل ما يملى عليهم، فإذا امتنعوا عن العمل يكون الأمر كأنهم جميعًا نفضوا أيديهم من ذلك في اللحظة نفسها، كأنهم يستخدمون كل قوتهم لعدم العودة للعمل ثانيةً، غير مباليين بما قد يعاينيه ذووهم من جوع. فالامتناع عن العمل يساوى بين العمال. وقياسًا بتأثير هذه اللحظة يكون مطلبهم الواضح أقل أثرًا. وقد يكون هدف الإضراب هو رفع الأجور وهو يقينًا ما يشعرون بتوحدهم في هذا الهدف، لكن ذلك وحده لا يكفى لتكوين جمهور. وامتناعهم عن العمل يكون له أثر العدوى على الآخرين فما يمتنعون عنه يتقاسمه المجتمع كله. والإضراب الذى ينتشر من خلال التعاطف يمثل عائقًا لآخرين لم يفكروا في الإضراب وأرادوا مواصلة مهامهم المعتادة. ومعنى الإضراب هو ألا يفعل أحدٌ شيئًا. وكلما نجحوا في مقصدهم هذا كانت فرصة نجاح الإضراب أكبر. ومن المهم أن يتمسك الكل بشعار الحظر في أثناء الإضراب الحقيقى. ثم يتطور الأمر تلقائيًا إلى تكوين منظومة من الكتل نفسها تمارس مهمة الدولة بوعي تام بمدى وجودها القصير ولا تعمل إلا بقوانين قليلة فقط، لكن هذه القوانين يتم الالتزام بها بصرامةٍ شديدة. فتقوم نقاط حراسةٍ بمراقبة مداخل المكان الذى يتخذ منه الحدث منطلقًا له، فمكان العمل نفسه هو بقعةٌ محظورة. والحظر الذى يمثل عبئًا عليهم، يخرجهم عن رتابة حياتهم

اليومية ويمنحهم شرفًا خاصًا. أما المسؤولية التي يتحملونها تجاه هذا فإنها تجعل منه شرفًا جماعيًا، فيعملون من هذا المنطلق على حمايته بعد أن صار معناه أكثر سمواً. أما سكون حركته فينطوى على قدسية ما، فمن يدنو منه يتم اختبار نواياه، فمن يأتي بنوايا معادية، من يريد العمل، فإنه يعتبر عدوًا أو خائنًا. أما المنظومة فتهتم بتوزيع عادل للمواد الغذائية أو الأموال. فالمواد المتوافرة لا بد أن تكفى لفترة طويلة، ومن المهم أن يحصل كل بالتساوي على القدر القليل فلا يخطر ببال من هو أقوى أن يحصل على قدر أكبر، حتى الشره منهم سيلتزم بالقناعة. ولما كان عادةً ألا يتوافر سوى القليل للغاية فإن عمل المنظومة تحديداً يدور في العلن ملتزمًا بالشفافية. فهذا السلوك في التوزيع يساهم في تباهى الكتل بمساواتها. وهو أمرٌ جاد للغاية وجديرٌ بالاحترام لمثل هذه المنظومة. ولا مناص من التفكير في الوعي بالمسؤولية وشرف مثل هذا الشكل الناشئ تلقائيًا من قلبها إذا ما تذكرنا وحشية ونزعة التدمير لدى الكتلة. ولذا كان علينا تأمل كتلة الحظر لأنها تظهر ملامح مختلفة تمامًا، بل تحديداً متعارضة مع تلك. فإذا ما اتخذت الأمور مسارًا سيئًا وصار للنقص أبعادٌ يصعب تحملها، أى عندما تشعر الكتلة بالهجوم عليها أو محاصرتها فإن الكتلة السلبية تنزع إلى التحول إلى كتلةٍ إيجابية نشطة. أما المضربون، الذين حظروا على أنفسهم نشاطهم المعتاد فجأةً، فما إن يشعروا أن توحدهم في المقاومة صار مهددًا حتى ينزعوا إلى التدمير، وبالأحرى يكون التدمير في المجال الخاص لنشاطهم المعتاد. وهنا يأتي تفعيل أهم واجبات المنظومة فعلها الحفاظ على نقاء ماهية جمهور الحظر والحيولة دون أى عملٍ فردي نشط، وعليها أن تقر في اللحظة المناسبة بتعليق الحظر الذي تدين له الكتلة بوجودها. فإذا ما اتفقت رؤيتها مع مشاعر الكتلة فإنه يكون عليها اتخاذ قرار بحل نفسها أى بتراجعها عن الحظر.

كتلة الاتجاه المعاكس

"عزيزى، صديقى الطيب، كانت الذئاب تلتهم دائماً الحُمْلان، فهل ستلتهم الحُمْلان الذئاب هذه المرة؟"

دُونت هذه العبارة فى خطابٍ أرسلته مدام "جوليان" إلى ابنها فى أثناء الثورة الفرنسية⁽¹⁵⁾. والرسالة تنطوى على صياغةٍ موجزةٍ لجوهر التحول إلى الاتجاه المعاكس. فقد عاش القليل من الذئاب حتى تلك اللحظة على الكثير من الحُمْلان، وأن الآوان حينئذٍ كى تجابه الحُمْلان الكثيرة الذئاب القليلة. ونحن نعرف أن الحُمْلان لا تأكل اللحم. لكن أهمية العبارة تتبدى تحديداً فى عدم منطقيتها الظاهرية. فالثورات هى الوقت المناسب للتحول إلى الاتجاه المعاكس. فمن ظلوا مضطهدين لأمدٍ طويلٍ للغاية ظهرت لهم فجأةً أسنانٌ. وعليهم تجاوز ما مروا بها من تجاربٍ مريرة. والتحول إلى الاتجاه المعاكس يشترط مجتمعاً طبقياً، فالفروق بين طبقاتٍ بعينها، حيث يكون للبعض حقوقٌ أكثر من البعض الآخر، لا بد أن تظل موجودةً لفترةٍ ما، ولا بد أن تضطر الناس للشعور بها فى حياتهم اليومية لأمدٍ طويلٍ قبل أن تنشأ الحاجة للتحول إلى الاتجاه المعاكس. فالجماعة الأعلى يكون لها الحق فى إصدار الأوامر إلى الجماعة الأدنى، سواء جاءت هذه الجماعة عن طريق الاحتلال، فصارت متحكمةً فى شئون أهل البلاد، أو أنها نشأت من تراكم الأحداث فى الداخل.

ويترك كل أمرٍ خلفه غصةً محرجةً في نفس المرغم على تنفيذ هذا الأمر. ولسوف نتعرف على نحوٍ أكثر دقةً على طبيعة هذه الغصات غير القابلة للبقاء. فمن تصدر إليهم أوامر كثيرة ويصيرون مترعين بمثل هذه الغصات فإنهم يشعرون بالحاجة قوياً للخلاص منها ويصلون إلى التحرر منها عن طريقين، فبوسعهم نقل الأوامر الصادرة إليهم من أعلى إلى من هم أسفل، ومن أجل ذلك فلا بد من وجود من هم أدنى ويكون لدى أولئك استعداداً لتلقى ذلك من هؤلاء، لكنهم يستطيعون أيضاً الانتقام من أولئك بنفس ما عانوه ممن هم أعلى واختزنوه. فأما الشخص الفرد، ضعيفاً وعاجزاً كما هو حاله، فمن النادر أن تتوافر له هذه الفرصة. أما إذا التقى كثيرون في كتلة جماهيرية فإنهم قد يفلحون فيما فشلوا فيه فرادى. فهم معاً يستطيعون مجابهة هؤلاء من كانوا يأمرونهم إلى ذلك الحين. وتتجلى الحالة الثورية كموقفٍ لمثل هذا التحول إلى الاتجاه المعاكس، لكن الكتلة التي تخلصت في الأساس من كبتها النفسى على نحو تحرر جماعى من غصات الأوامر فيمكن وصفها بكتلة التحول إلى الاتجاه المعاكس.

ولنا أن ننظر إلى الهجوم على "الباستيل" على أنه هو بدء الثورة الفرنسية التي كانت قد بدأت مبكرة بحمام دمٍ للأناب. ففي مايو 1789 كان قد اجتمع مجلس القيادة في فرساي وتشاور حول إلغاء قوانين الاقطاع التي تضمنت أيضاً حق النبلاء في القنص. وفي العاشر من يونيو أى قبل شهرٍ من الهجوم على الباستيل كان "كامى دمولين"، النائب المشارك في المشاورات، قد كتب تقريراً في رسالة إلى أبيه: "إن البريتونيين قاموا بتنفيذ بعض بنود احتجاجاتهم - مؤقتاً- فهم يقتلون الحمايم وحيوانات القنص. وقد قام خمسون شاباً للتو هنا في محيطنا بعملٍ لا مثيل له بالقضاء على الأرانب والأرانب الصغيرة. أى أنهم قاموا أمام أعين الحراس بقتل من أربعة إلى خمسة آلاف حيوانٍ برى في سهل سان جيرمان"⁽¹⁶⁾.

إن الحُمْلان تتجه أولاً إلى الأرانب قبل أن تتجاسر على الذئاب. فقبل الارتداد الموجه ضد من هم أعلى فإن المرء يتوجه صوب من هو أقل أذى، أى الحيوانات التي يمكن صيدها. أما الحدث الحقيقى فكان هو يوم الباستيل، فقد قامت المدينة كلها بتسليح نفسها. وكان التمرد موجهاً ضد قانون العدالة الملكية. وقد تجسد ذلك في الهجوم على المباني واكتساحها وتم تحرير السجناء الذين يستطيعون الانضمام إلى الكتلة. أما المحافظ الذى كان مسئولاً عن الدفاع

عن الباستيل ومعاونوه فقد تم إعدامهم، كما عُلق اللصوص كذلك على أعمدة الإضاءة وتمت تسوية الباستيل بالأرض، فقد هُدم حجرًا حجرًا. فالعدالة بكلتا عنصريها، أى الحكم بالموت والإعفاء، قد انتقلت إلى أيدي الشعب. وبهذا كان التحول المعاكس إلى هذا الحين قد اكتمل. فثمة كتلة من هذا النوع تتكون في ظل ظروفٍ متميزة للغاية، فقد تكون بمثابة تمرد العبيد على الأسياد أو جنودٍ على ضباط أو الملونين ضد البيض الذين استوطنوا بينهم، فدائمًا ما عاش هؤلاء زمنًا مريعًا تحت أمر الآخرين، ودائمًا ما يكون أعمال المتمردين ناتجةً عن غصاتهم. ويستغرق الأمر دائمًا مدةً طويلة حتى يستطيعوا الإقدام على هذا العمل. وكثير مما نراه من مظاهر الثورات يدور بالفعل في كتلة التحريض. فيتم ملاحظة أناسٍ فرادى، فإذا ما ألقى القبض عليهم يقوم الجميع بقتلهم فيما يشبه المحاكمة أو أيضًا من دون إدانة. إلا أنه لا مفر من نشوء الثورات على هذا النحو. وهو ما لم يحدث قط مع كتلة التحريض التى تصل إلى نهايتها على أسرع وجه. فإذا ما بدأت عملية التحول إلى الاتجاه المعاكس فإنها تواصل طريقها، فكلّ يحاول الوصول إلى موضعٍ يتيح له التخلص من غصته وكلّ يحمل الكثير منها. إن كتلة التحول إلى الاتجاه المعاكس هى عمليةٌ تشمل المجتمع كله، وربما يصادفها النجاح في البداية. وعلى هذا النحو تمضى ببطءٍ وصعوبةٍ إلى نهايتها. وبقدر السرعة التى تنتهى بها كتلة التحريض الموجودة على السطح في كثيرٍ من الحركات القصيرة المتتابة، فإنه يكون قدر البطء الذى يحدث التحول إلى الاتجاه المعاكس من العمق. ولكن قد يصير التحول إلى الاتجاه المعاكس أكثر بطئًا بسبب الوعد في العالم الآخر "فالأخرون يصبحون الأولين". وبين هذه الصيغة وتلك يكون الموت. ففي العالم الآخر سوف يحيا المرء مرةً أخرى، فمن كان أكثر فقرًا ولم يقترف إثمًا هو من سينتقل في الأغلب إلى الجانب الآخر ليواصل حياته إنسانًا جديدًا في حالةٍ أفضل، ويوعد المؤمن بالتححرر من غصاته. لكن لم يُذكر شيء أكثر دقةً عن هذا التحرر. وعندما يلتقى الجميع فيما بعد، في اليوم الآخر، فإنه لا يشار إلى الكتلة كأساس للارتداد. وتعتبر فكرة البعث مركزًا لهذا النوع من الوعود. وقد ذكرت الأنجيل حالاتٍ من إعادة الحياة على يد المسيح. أما حجيج البعث الشهير بالـ "ريفيفال" في بلاد الأنجلوساكسون فقد استغل أثر الموت وإعادة الحياة بسبل شتى⁽¹⁷⁾. فكانت جموع المذنبين قد هُددت بعقوبة الجحيم الأكثر ترويعًا ليقع هؤلاء أسرى لحالةٍ من الخوف لا نظير لها. فهم قد رأوا بحيرةً

من النار والكبريت مفتوحةً أمامهم، ورأوا يد الله المهيمن الذي يعمل على إلقائهم في قاع الجحيم المروع. وكما جاء على لسان واحدٍ من أولئك الوعاظ أن الأثر القوي للسعير سوف يزداد من خلال التمزيق البشع للوجه ورعد الصوت. ومن أجل سماع مثل هذه العظة كان يتدفق إلى هناك أناسٌ من كل الأرجاء من مسافات تبلغ 40 و50 و100 ميل. فيسافر رجالٌ بعائلاتهم في عرباتٍ مغطاة وقد جهزوا أنفسهم بفراشٍ وغذاءٍ لعدة أيام. ونحو العام 1800 كانت الحالة المحمومة لمثل هذه التجمعات قد سادت جزءاً من ولاية كنتاكي.

فكانت هذه اللقاءات تنعقد في الخلاء، فلم يكن هناك في تلك الولايات مبنى يستوعب مثل هذه الكتل الهائلة. ففي أغسطس عام 1801 تجمع 20.000 إنسان في لقاء بكان ريدج وبعد مئة عام لم تكن ذكرى ما حدث في كنتاكي قد محيت⁽¹⁸⁾. فقد أثار الوعاظ فزع المستمعين إلى حد أن هؤلاء تساقطوا وظلوا راقدين كالموتى. وقد كانت هي أوامر الرب التي هُددوا بها ففروا من هذه الأوامر محاولين النجاة عبر هذا النوع من التظاهر بالموت. وقد كان ذلك هي عين نية الواعظ المعلنة والمتعمدة في أن يسقط هؤلاء. وقد بدا الأمر كأنه في ساحة وغى، فعلى اليمين واليسار تساقطت صفوفٌ كاملة على الأرض. أما مقارنة ذلك بساحة وغى فكان الوعاظ أنفسهم هم من قالوا بذلك. وقد بدا لهم أنه لا مناص من هذا الفزع الأخير والأقصى من أجل عودة الأخلاق. وكان نجاح العظة يقاس بعدد من سقطوا. وقد جاء في تقريرٍ بكتابٍ لشاهد عيانٍ عما جرى بدقة بأنه في أثناء هذا اللقاء، الذي استمر عدة أيام، قد تساقط على الأرض ثلاثة آلاف إنسانٍ بلا حول، أى ما يعادل سدس الحاضرين تقريباً. وقد تم نقل كل المتساقطين إلى قاعاتٍ جانبية مفتوحة، ولم يمر أى وقت إلا وكانت الأرض مغطاةً بالراقدين من البشر. فكثيرون، كثيرون رقدوا بلا حراك لساعاتٍ طويلة فاقدين القدرة على الحركة والنطق، وكانوا أحياناً ما يستردون وعيهم للحظاتٍ قليلة ليطلقوا صرخةً نافذةً بتهيدةٍ عميقة، أو ليقروا في دعاءٍ حماسي بالرحمة بأنهم على قيد الحياة. وكان بعضهم يدق بكعبيه على الأرض بينما يصرخ آخرون في عذابٍ مميت ويطيحون بأنفسهم مثل السمك الذي خرج من الماء حيّاً. وكان البعض يتدحرج فوق الأرض لساعاتٍ طويلة. وكان هناك البعض الذي قفز فجأةً إلى منصة الوعاظ أو على الأرائك ليلقوا بأنفسهم إلى الغابة صائحين: "لقد ضعنّا! ضعنّا!" وحين يفيق المتساقطون يكونون قد صاروا أناساً آخرين، فكانوا ينهضون

وهم يصيحون: "الخلاص!"; إنهم قد "ولدوا من جديد" وصار بوسعهم بدء حياة طيبة طاهرة بعد أن ودعوا حياتهم الآثمة السابقة. إلا أن العودة للإيمان لم تكن صادقة إلا إذا سبقها نوع من الموت⁽¹⁹⁾.

وقد كان لظواهر أقل تطرفاً نفس التأثير. فقد انفجر تجمع كامل في البكاء. و(قد) أصيب كثيرون بحالة حالة تشنج لا تقاوم. وبدأت مجموعة، مكونة غالباً من أربعة أو خمسة أفراد، في النباح مثل الكلاب. وبعد بضع سنوات عندما اتخذ الانفعال شكلاً أقل وطأة غلب "الضحك المقدس"⁽²⁰⁾ في البداية على بعض الأفراد ثم على جماعة كاملة. لكن كل ما حدث كان قد حدث في الكتل، ولا نكاد نعرف صوراً من الانفعال أكثر منها حدة. والتحول إلى الاتجاه المعاكس الذى نقصده هنا مختلف عن هذا الذى يحدث في الثورات. فالأمر يدور حول علاقة الناس بالتحاليم الإلهية التى كانوا يخالفونها حتى ذلك الحين فصاروا الآن يواجهون الخوف من عقابها. إن هذا الخوف الذى صعد الواعظ بسبل شتى دفعهم إلى حالة من فقدان الوعى فتظاهروا بالموت مثلما يفعل الحيوان في أثناء الفرار. إلا أن خوفهم كان عظيماً إلى أن أفقدهم وعيهم، فإذا ما استردوا وعيهم أعلنوا استعدادهم للتسليم بأوامر ونواهي الرب. ولهذا كان الخوف المتنامى لأقصى درجة يسبق العقاب مباشرة. والأمر هنا كان بمثابة عملية ترويض، فالمرء يدع نفسه للترويض على يد الواعظ ليصير خادماً مطيعاً للرب. وكما أشرنا آنفاً، فإن الحدث يكون على النقيض التام من ذلك بالنسبة للبعض في أثناء ثورة ما. فهناك يدور الأمر حول التحرر من الغصات التى شُحِنَ بها المرء تدريجياً في أثناء خضوع طويل المدى للسلطة، بينما يرتبط الأمر هنا بخضوع حى لتحاليم الرب من أجل الاستعداد - طواعية - لقبول كل الغصات التى يمكن أن تغرس في البعض. ويشترك كلا الحدثين فقط في حقيقة ارتداد ما. والمشهد الروحاني لهذا الحدث يماثل حال الكتلة.

كتلة الاحتفال

هناك نوعٌ خامس من الكتل أطلق عليه تعريف كتلة "الاحتفال". ففي احتفال ما يوجد الكثيرون بمكانٍ محدود. وهؤلاء الكثيرون الذين يتحركون في هذا الموضع بعينه يمكن أن يشاركوا جميعًا في ذلك. فثمار إنتاج أى مجتمع يتم عرضها في أكوامٍ كبيرة، فيرقد هناك صفٌّ من مئة خنزيرٍ موثقة القيد. وقد أُعد الشراب المفضل في أوانٍ ضخمة في انتظار الشاربين، وهو ما يتوافر بما يتجاوز الاستهلاك. وفي سبيل ذلك يتدفق الناس عليه دائمًا. وما دام هناك شيء فإنهم ينهلون منه. ويتوافد إلى المكان فيض من النساء، جئن من أجل الرجال، وفيض من الرجال من أجل النساء. فليس هناك ما أو من يُنذر بخطرٍ، وليس هناك ما يدفع إلى الفرار. إنها حياةٌ ومتعةٌ مضمونةٌ في أثناء الحفل. وقد تم إلغاء المحظورات والتمييز، وصار التقارب غير المألوف مسموحًا به ومتاحًا. والأجواء هناك مريحةٌ للفرد وليست من أجل التخلص من الكبت، وليس هناك هدفًا واحدًا يسعى الجميع للوصول إليه. فالحفل هو الهدف، وهو ما تحقق. أما الكثافة فكبيرةٌ، وأما المساواة فهي في معظمها مساواةٌ خاضعة للإرادة وللمتعة. والناس يتحركون فيما بينهم وليس مع بعضهم البعض. وأما الأشياء المكسدة هناك فهي جزءٌ أساسي من الكثافة، أى بذرتها، التى تم جمعها، فإذا اجتمعت كلها فإن الناس يجتمعون حولها. وقد يستغرق الأمر سنواتٍ حتى يتوافر كل شيء، فقد

يعانى المرء من حرمانٍ طويل من أجل هذه الوفرة قصيرة المدى، لكنه يعيش في انتظار هذه اللحظة ويستدعيها واعياً بالهدف. ومن لا يرون بعضهم البعض إلا نادراً فيتم استقبالهم بحفاوة في جماعات، ومن ثم فإن وصول المجموعات الفردية يكون ملحوظاً بقوة، وتعم الفرحة أرجاء المكان. ومما يساهم في هذه الحالة هو الشعور بأن هذه المتعة الجماعية ستكون دافعاً لإقامة الكثير من مثل هذا الحفل في المستقبل. والرقصات الشعائرية والعروض المثيرة تُدْكر بمناسباتٍ من نفس النوع كانت تقام في العصور المبكرة. وهذه الاحتفالات تنطوى على تلك التقاليد القديمة، فهل يتذكر المرء في أثناء ذلك مؤسسى هذه الحفلات الأوائل، أى أول من ابتدعوا كل هذه المتع التى يسعد بها (المرء) الإنسان، أى هؤلاء الأجداد الذين صاروا، في مجتمعاتٍ جامدة لاحقة، بمثابة الرعاية لهذه الحفلات. وعلى كل فإن تكرار مثل هذه المناسبات في المستقبل تبدو للبعض مضمونةً. فالحفلات تستدعى بعضها البعض، ومن خلال كثافة الأشياء والبشر تتنامى الحياة⁽²¹⁾.

الكتلة المزدوجة

رجال ونساء.. الأحياء والأموات

إن الفرصة الأكثر ضمانًا - وغالبًا ما تكون الوحيدة - لحفاظ كتلة جماهيرية على نفسها تشترط وجود كتلة جماهيرية أخرى مرتبطة بها. وسواء كان لقاء الكتلتين في مباراةٍ مشتركة وتنافسية، أو أنهما يهددان بعضهما البعض على نحوٍ خطير، فإن ثمة رؤية أو تصور قوى لكتلة ثانية لا يسمح للكتلة الأولى بالتفتت. فبينما تجتمع السيقان بكثافةٍ على ناحية، تكون الأعين قد وُجِّهت نحو الأعين المواجهة لها، وبينما تتحرك الأذرع هنا بإيقاعٍ جماعي فإن الأذان تنتظر سماع الصرخة من الجانب الآخر. إن الإنسان يلتحم بذويه في تقارب فيزيقي ويتفاعل معهم في حميمية وانسيابية طبيعية كأنهم وحدة واحدة. وكل لون من ألوان الفضول والتوقع في هذه اللحظات، أو كل مشاعر الخوف تكون موجهة إلى حشدٍ آخر من البشر تم فصله عن الحشد الآخر بمسافة واضحة. إن من يراهم من الناحية المواجهة له فإن المشهد يسحره ومن لم يرههم فإنه يستطيع سماع أصواتهم، وكل ما يفعله هذا الجمع يرتبط بفعل أو نية الجمع الآخر. فالمواجهة تؤثر على الاصطفاف، والمواجهة التي تستدعي انتباه الطرفين هي التي تغير نوع التركيز داخل كل جماعة. فما لم يكن الآخرون قد تفرقوا فإن هؤلاء يضطرون

للبقاء معًا. فعلاقة الشد والجذب بين كلا الجمعين يتبدى تأثيرها على أفراد المجموعة ذاتها. فإذا ما دار الأمر حول علاقة شد وجذب في مباراة شعائرية فإن الضغط يتبدى ليظهر كشيء مثل العورة، فيجمع المرء كل قواه حتى لا يتعري فريقه بفعل الفريق الآخر. أما إذا أُنذر الخصم بتهديد خطر فإن الضغط يتحول إلى درعٍ لدفاعٍ صلبٍ موحد.

وعلى كل حال فإن ثمة كتلةً بشرية ما تحفظ الأخرى على قيد الحياة شريطة تساوى الاثنتين تقريبًا في الحجم والتركيز. وفي سبيل البقاء ككتلة واحدة يتحتم عدم الشعور بأن تفوق الخصم قد جاوز الحد، أو على الأقل عدم الظن بأن تفوقه قد تجاوز الحد. وحيثما ينتشر الشعور بعدم الثبات في المواجهة فإن أفراد الكتلة يلوذون بالفرار الجماعي من أجل النجاة. فإذا بدا ذلك أمرًا ميثوسًا منه فإن الكتلة تتفتت في ذعرٍ، فيلتمس كلٌ لنفسه سبيل الفرار. لكن هذه الحالة ليست هى موضع اهتمامنا هنا. وفي سبيل تكوين "نظام-كتلتين"، إن جاز لنا هذا التعبير، فلا بد من توافر الشعور بمساواةٍ نسبية للقوة على كلا الجانبين.

فإذا شئنا فهم نشأة هذا النظام يتحتم علينا الانطلاق من ثلاثة تناقضاتٍ رئيسة وهى موجودةٌ في كل مكانٍ يوجد فيه بشرٌ، وكل مجتمعٍ معروف لدينا كان واعيًا بوجودها. أما التناقض الأول، وهو الأكثر إثارةً للانتباه، فهو التناقض بين الرجال والنساء. وأما الثانى فهو القائم بين الأحياء والموتى. وثالث تلك التناقضات هو ما يقتصر عليه تقريبًا حديث الناس اليوم إذا ما ذكر مواجهة مجموعتين بين بعضهما البعض وهو التناقض بين الصديق والعدو. فإذا ما نظرنا إلى التناقض الأول بين الرجال والنساء فإننا ندرك مباشرةً علاقة هذا التناقض بتكوين كتلٍ خاصة، فالرجال والنساء يعيشون معًا في إطار أسرة، وقد ينزعون إلى نشاطاتٍ مختلفة، ولكننا لا نستطيع التصور بأنهم يقفون في مواجهة كل منهما للآخر في كتلتين منفصلتين مستنفرتين. فلنرجع إلى تقارير عن علاقاتٍ حياتية مبكرة كي نحصل على صورةٍ أخرى عن شكل هذا التناقض. فقد كان الشاب الفرنسى البروتستانتى الهوجونوتى "جان دى لرى" شاهد عيانٍ لحفلٍ كبير لقبيلة "توبينامبو"⁽²²⁾ في البرازيل في العام 1557: "صدر إلينا الأمر بالبقاء بالبيت حيث كان النساء. ولم نكن قد عرفنا على الإطلاق ما سوف يفعلونه. وهنا ارتفعت همهمةٌ خفيفةٌ للغاية للغاية بالبيت حيث كان الرجال. وهذا البيت يقع على بعد أقل

من ثلاثين خطوةً عنا وعن بيت النساء، فسمع ذلك كغممة صلوات. فما كادت النساء اللائي كان عددهن نحو المئتين يسمعن ذلك حتى وثبن جميعاً لأعلى وقد شحذن آذانهن وتلاحمن في كوامٍ معاً. وبعد ذلك بقليل رفع الرجال أصواتهم، فسمعنا بوضوح ما ينشدونه جميعاً معاً، كما كان يتكرر من حينٍ لآخر هتاف لبث حماسهم: (هيه، هيه، هيه!) فاعترتنا دهشةٌ تامةٌ عندما قامت النساء بالرد عليهم ليطلقن نفس الهتاف: (هيه، هيه، هيه!) ولأكثر من ربع الساعة كن ينتحبن ويصرخن بصوتٍ عالٍ على نحوٍ لم نعرف معه كيف نتجواب معهم. وفي أثناء النحيب كن يقفزن بعنفٍ شديدٍ في الهواء لترتجف صدورهن ويحيط الزبد بأفواههن كما سقط بعضهن على الأرض فاقدت الوعي كأنهن يعانين صرع السقوط. فبدأ لي كأن الشيطان تلبسهن فتملكهن السحر تماماً. وعلى مقربةٍ منا سمعنا حركة وصخب الأطفال الذين كانوا بإمكان خاص بهم. ورغم أنني عايشة لنصف عام حيواناتٍ متوحشةً وصارت لي خبرةٌ بها فأني لا أنكر أن الفزع من ذلك قد تملكني تماماً، وقد سألت نفسي عن نهاية هذا الأمر وتمنيت العودة إلى قلعتنا".

انتهى "سبت الساحرات" أخيراً ليلوذا الأطفال بالصمت، ليسمع "جان دي لري" الرجال في ترنيمٍ جماعيٍّ رائعٍ إلى حد أنه لم يتمالك نفسه لمطالعة منظرهم، فحاولت النساء منعه من ذلك فهن يعرفن الحظر الذي يمنعهن من الذهاب إلى الرجال، إلا أنه أفلح في التسلل إلى هناك ولم يحدث شيء له، وحضر الحفل مع اثنين آخرين من الفرنسيين. كان إذن الرجال منفصلين تماماً عن النساء على نحوٍ صارمٍ في بيتين مختلفين، ولم يستطيعوا رؤية بعضهم البعض. إلا أن مجموعةً كانت تصيح السمع لصخب المجموعة الأخرى لتطلق الهتافات نفسها، وقد تفاقمت فيما بينها حالة انفعالٍ جماعيٍّ في كلا المجموعتين. أما الأحداث الحقيقية فكانت تدور لدى جماعة الرجال، إلا أن النساء شاركن في تأجيح الجمهور. ومن الجدير بالملاحظة أنه بعد سماعهن لأول صوتٍ صادرٍ عن الرجال تلاحمن في كوامٍ مكثف، وصرن يرددن من حينٍ لآخر وعلى نحوٍ أكثر عنفاً تلك الهتافات العنيفة التي سمعناها من هناك. وكان الخوف قد ملأ قلوبهن لأنهن كن حبيسات فلم يسمح لهن بالخروج على أية حال. ولأنهن كن يجهلن ما يدور عند الرجال فقد اكتسب انفعالهن صبغةً من لونٍ خاص، إذ أخذن يقفزن إلى أعلى كأنهن يرمين إلى الخارج. وكانت ملامحهن الهستيرية، التي لحظها الزائر، هي ما عبرت

عن إعاقة الفرار الجماعي. فلقد كان التوجه الطبيعي للنساء هو أن يهربن إلى الرجال، لكن لما كان هناك حظر صارم على ذلك فإنهن قد هربن في مكانهن على نحو أو آخر. وكانت مشاعر "جان در لري" نفسه جديرة بالملاحظة، فقد شارك النساء مشاعر الانفعال إلا أنه لم يكن بوسع الانضمام إلى كتلتهم، فهو غريب، وهو رجل، وهو موجود بينهن إلا أنه منفصل عنهن، فخشي أن يصبح ضحية لهذه الكتلة. أما مشاركة النساء على طريقتهم فكانت على قدر ما من الأهمية، وهو ما يظهره موضع آخر بالتقرير، فسحرة القبيلة أو كما يسميهم "جان دي لري": "كاريابن" قد حظروا على النساء بأقصى حد من الصرامة أن يغادرن بيتهن، إلا أنهم أمروهن بالانتباه لغناء الرجال، فتأثير النساء المجتمعات على جماعة الرجال يمكن أن يكون ذا أهمية حتى وإن كانت مسافة بعيدة تفصل بينهم. وفي سبيل نجاح حملات حربية يكون على النساء أحياناً المساهمة بنصيتهن في ذلك. وسوف يلي ثلاثة أمثلة، أحدها من آسيا والثاني من أمريكا والأخير من إفريقيا، أي من شعوب لم يكن بينها أية علاقة أو أي تأثير على بعضها البعض على وجه اليقين. فلدى قبيلة الـ "كافير" الهندوسية⁽²³⁾ تؤدي النساء رقصة الحرب في أثناء غياب الرجال في حملة، وعلى هذا النحو يقمن ببث القوة والشجاعة في المحاربين، وبذلك يصعدن من حرصهم حتى لا يفاجئهم عدو لئيم. ولدى الـ "جيفارو" بجنوب أمريكا تتجمع نساؤهم ليلة بليلة في بيت بعينه ليؤديين رقصة خاصة وهن يحملن شخايل من المحار حول أجسادهن وينشدن أغاني سحرية⁽²⁴⁾. ولهذا الرقص الجريء قوته الخاصة، فهو يحمي آباءهن وأوزاجهن وأبناءهن من حراب ورمصاص العدو. والرقص يدفع العدو إلى الاطمئنان فلا يلحظ الخطر إلا بعد فوات الآوان وهو يحول بينه وبين الثأر لهزيمته. أما الـ "ميراري" فهي رقصة قديمة بمدغشقر⁽²⁵⁾ لا يجوز أدائها إلا في لحظة النزال. فإذا ما أعلن عن معركة ما فإنه يتم إخبار النساء بواسطة الرسل فيحللن شعورهن ويبدأن الرقص، فيتصلن على هذا النحو بالرجال. وعندما توجه الألمان عام 1914 إلى باريس قامت النساء في "تانا ناريف" بأداء رقصة الـ "ميراري" من أجل حماية الجنود الفرنسيين. وقد بدا تأثير ذلك رغم بعد المسافة. وفي جميع أرجاء الأرض تقام حفلات يؤدي فيها الرجال والنساء الرقص في مجموعات منفصلة، إلا أنهم يرون بعضهم البعض. وهم يرقصون عادة في مواجهة بعضهم البعض. وليس هناك ضرورة لوصف ذلك، فهو معروف للعامة. وقد اقتصر عمداً على بعض

الحالات المتطرفة، كان ما لفت الانتباه إليها هو الفصل بين المجموعتين وبعد المسافة بينهما وكذلك قدر انفعال المشاركين فيها. ونحن نتحدث هنا بالفعل عن الكتلة المزدوجة ذات الجذور العميقة. حيث تكون روح كلا فريقى الكتلة في حالة توافق. فانفعال هذه يشجع رضا ونمو تلك الأخرى. فالرجال والنساء ينتمون إلى شعب واحد ويرتبط كل منهما بالآخر. ففي أساطير الأمازون، التى لم تقتصر مطلقاً على العصر الإغريقى القديم، ظهرت أمثلة منها لدن السكان الأوائل بأمريكا الجنوبية. حيث كانت النساء قد انفصلت للأبد عن الرجال وكن يقمن بشن حروب ضدهم مثلما يفعل شعبٌ ضد شعبٍ آخر.

لكن قبل تناول الحرب التى كمن فيها الجوهر الخطر الذى لا مفر منه وهو ما يتجلى في الكتلة المزدوجة في أقوى صورة لها، فإنه يكون من المناسب أن نلقى نظرةً على التناقض الموغل في القدم بين الأحياء والأموات. فرغم كل ما يجرى حول المحتضرين والموتى كان هناك تصورٌ مهم بوجود عددٍ كبير من الأرواح النشطة على الجانب الآخر، وهم من سوف يلتحق بهم المحتضر في نهاية المطاف. أما الطرف الحى فإنه لا يشاء التنازل عن قريبه المحتضر، ف خسارته تؤدى إلى ضعفهم. فإن حدث ذلك لرجلٍ في عنفوان سنوات عمره فإن ذلك يسبب ألماً شديداً لذويه فيدفعون ذلك عن أنفسهم قدر إمكانهم، لكنهم يدركون أن مقاومتهم لن تجدى كثيراً، فكتلة الجانب الآخر أكبر وأقوى، وهو سوف ينضم إليها، وكل ما يفعلونه تدركه القوة المتفوقة على الجانب الآخر. وهكذا كان لا بد من تجنب أى فعلٍ يستفز هؤلاء الذين بوسعهم التأثير على الأحياء ويمكنهم إيذاؤهم في كل مكان. وتعتبر بعض الشعوب كتلة الأموات احتياطياً يُنتزع منه أرواح المواليد الجدد، فهؤلاء يحددون إن كانت النساء سيرزقن بأبناء. وأحياناً ما تمر الأرواح سحاباً تجلب الأمطار، فهى التى تستطيع منع هذا المطر عن النبات والحيوان أى ما يتغذى عليه الإنسان. وبوسعهم انتزاع ضحايا جدد من بين الأحياء. فأما الميت الذى لا يتنازل عنه ذووه إلا بعد مقاومةٍ عنيدة فإنه يهدأ روعه بعد انتمائه لذاك الجيش الهائل على الجانب الآخر. هكذا يكون الموت صراعاً بين عدوين مختلفين في القوة. وأما الصراخ الذى يطلقه المرء، والجراح التى يلحقها بنفسه أسفاً ويأساً فقد تكون تعبيراً متعمداً عن هذا الصراع، فلا يظن الميت أنه قد تم الاستغناء عنه بسهولة، لكن كان هناك صراع حوله وهو صراعٌ شخصي تماماً دار حوله هذا الميت. وهو صراعٌ ينتهى دائماً بالهزيمة مهما بُذل في

أثنائه من بسالة. فمنذ البداية يحاول المرء الفرار من العدو الذى لا يواجهه فى الحقيقة أملاً فى الخلاص منه من خلال صراع يعرف بصراع التقهقر، حيث يكون الصراع خداعاً وتقليداً للمحتضر الذى سرعان ما يتأهب لزيادة صفوف العدو. وعلى الميت الذى ينتقل إلى الجانب الآخر أن يتمتع بروح طيبة نحو ذويه أو يكون غير ضارٍ بهم على الأقل.

فإذا ما حل هناك ناقماً فإنه يكون قد مد العدو القوى بغنيمة جديدة وخطيرة. إن الأمر الجوهرى فى هذا النوع من الصراع بين الأموات والأحياء حول شخصٍ حتى لا تحكمه قاعدة ثابتة، فالمرء لا يدرك موعد وقوع حدثٍ ما مرةً أخرى، فربما لا يقع شيء لفترةٍ طويلة، ولكن لا يمكن الركون إلى ذلك، فكل هجوم جديد يحدث فجأةً من خصم غير متوقع ومن دون إعلان للحرب، فقد تؤدى حالة وفاةٍ واحدة إلى نهاية كل شيء. إلا أن هذه الحال قد تستمر لفترةٍ طويلة فى حالات الوباء وتفشى الأمراض على سبيل المثال. فالمرء يكون فى حالة انتظار لا تنتهى. ولسوف نتناول فيما بعد العلاقة بين الأحياء والأموات، فما يهمنا هنا فقط هو تأمل كليهما ككتلةٍ مزدوجة يرتبط كل من طرفيها بالآخر على نحوٍ دائم. أما الشكل الثالث للكتلة المزدوجة فهو كتلة الحرب المزدوجة وهى تلك التى تعتبر الأهم لنا اليوم. وقد اجتهد البعض كثيراً بعد التجارب التى مررنا بها فى هذا القرن من أجل فهمها وسبر أغوارها.

الكتلة المزدوجة: الحرب

يدور الأمر في الحروب حول القتل، "صفوف الأعداء تم محوها". فالأمر يدور حول القتل أكوامًا، فيجب قتل كثيرٍ من الأعداء قدر الإمكان، فينبغى تحويل الكتلة الخطرة من خصوم الأحياء إلى كومٍ من الموتى. فالمنتصر هو من قتل عددًا أكبر من الأعداء. إنها كتلة الجيران المتنامية التى يواجهها المرء في الحرب، فنموها بحد ذاته هو ما يثير الخوف. أما التهديد الذى ينطوى عليه نموها فهو ما ينتج الكتلة المعادية الأخرى التى تلح على الحرب. وفى أثناء خوض الحرب يسعى المرء إلى التفوق، أى يكون الطرف الأكثر عددًا فى الساحة وأن يستغل كل نقاط ضعف الخصم قبل أن يرتفع عدده. وتفصيل خوض الحرب هو الصورة العاكسة لكل ما يجرى. فالمرء يسعى إلى أن يكون الجمهور الأكبر من الأحياء، وأن يكون الكوم الأكبر من الموتى على جانب الخصوم. وفى هذا السباق للكتل النامية يكمن السبب الجوهرى، بل السبب الأعظم للحروب. وبوسع البعض أن يتخذ من البعض عبيدًا بدلاً من الموتى، نساءً وأطفالاً، أى هؤلاء الذين يخدمون زيادة عدد الكتلة الشخصية. إلا أن الحرب لا تكون حربًا إلا إذا استهدفت - بالمقام الأول - كومًا من الموتى المعادين. وكل الألفاظ ذات الصلة الوثيقة بالأحداث الحربية فى اللغات القديمة والحديثة تعبر عن هذه العلاقة بدقة. فيذكر الناس "المعارك الدموية" و"المذابح" و"الهزيمة" و"تصبغ شلالات الدم النهر باللون الأحمر" و"تم

القضاء على العدو حتى آخر رجل"، وليس هناك دافعٌ للاعتذار عن ذلك. إلا أنه من المهم أن نشير إلى الإقرار بكوم الموتى كوحدة، وقد عرف في بعض اللغات من خلال كلمات بعينها: فالكلمة الألمانية "Walstatt" أى ساحة المعركة تحتوى على اسم القبيلة القديمة "وال" wal وهو ما يعنى "من بقوا في ساحة المعركة"، أما "فالر" valr في لغة الشمال القديمة فتعنى "الجثث في ساحة المعركة"، و"فالهاال" valhall لا تعنى سوى "سكن المحاربين القتلى"، ومن اللفظ الألماني القديم "wal" جاءت كلمة "woul" وهى تعنى الهزيمة. وفي الأنجلوسكسونية تعنى كلمة "wol" الطاعون والوباء، فإن دارت هذه الكلمات حول "الذين بقوا في ساحة المعركة" أو "الهزيمة" أو "الطاعون والوباء" فهى كلها معًا بمثابة تصورٍ عن كومٍ من الأموات، وهو ليس تصورًا "جرمانيًا" فحسب، بل هو منتشرٌ في كل مكان. وفي رؤيةٍ للنبي إرميا ظهرت الأرض كلها كساحةٍ من جثث متحللة، وسوف يصير قتلى الرب في الوقت نفسه راقيدين من طرف الأرض حتى طرفها الآخر، ولن يبيكيهم أحدٌ ولن يرتفعوا ولن يُدفنوا، بل كُتِبَ عليهم البقاء راقيدين في الساحة لا قيمة لهم⁽²⁶⁾.

وكان النبي "محمد" يهتم اهتمامًا عظيمًا بكوم القتلى إلى حد أنه وجه إليهم نوعًا من عظة الانتصار فبعد موقعة "بدر"، وهى أول نصرٍ كبيرٍ على أعدائه من أهل مكة، قام بإلقاء قتلى أعدائه في جبٍ ما، ولم يكن من بينهم سوى رجلٍ واحد دفن تحت الأرض والأحجار، لأنه كان انتفخ داخل درعه إلى حد أنه لم يستطع أحد انتزاع درعه عنه، فبقى هو وحيدًا فترك راقدًا. فلما صار الآخرون في الجب وقف محمد هناك وصاح: "أى يا رجال القليب ألم تروا ربكم أتم وعده؟ ها قد رأيت وعد ربى حقًا" فقال أصحابه: "أى يا رسول الله! إنهم حقًا جثث!" فرد محمد: "إنكم تعرفون حقًا أن وعد الله حق"⁽²⁷⁾. وهكذا جُمع هؤلاء الذين أبوا فيما قبل سماع دعوته، وفي الجب كانوا قد حُفظوا جيدًا بجوار بعضهم البعض بكثافة. وإنى لا أجد مثالاً أكثر وضوحًا من هذا المثال على البقاء على قيد الحياة والمهاجرة المكثفة التى ينسبها أحدهم إلى كوم أعدائه الموتى. فهم لم يعد بوسعهم تهديد أحد ولكن بوسع البعض تهديدهم. فكل إهانةٍ يمكن ارتكابها ضدهم دون عقابٍ، فإن كانوا سيُشعرون بذلك أم لا فإن البعض يفترض وجود هذا الشعور ليعزز من انتصاره. وقد وضعوا معًا في الجب على نحوٍ لا يستطيع معه أحدُ الحراك، فإن نهض أحدهم فلن يجد حوله سوى موتى، ولسوف يفزع من رفاقه. أما العالم الذى قد يعود إليه فسيكون عالمًا من الموتى، وهو يتكون

ممن كانوا الأقرب إليه. ومن بين شعوب العصور القديمة كان المصريون شعباً غير محارب، فقد وجهوا طاقة إمبراطوريتهم لبناء الأهرامات على نحو أفضل من شن الحروب، لكنهم في أثناء ذلك كانوا أحياناً يقومون بحملاتٍ حربية. فكان الملك "بيبي" قد عين "أوني"، القاضي الكبير، قائداً لحملةٍ ضد البدو. وقد قام أوني نفسه بتدوين النص التالي على جدران مقبرته:

"مضى هذا الجيش المظفر محطماً بلاد البدو

مضى هذا الجيش المظفر مدمراً بلاد البدو

مضى هذا الجيش المظفر فأسقط قلاعهم

مضى هذا الجيش المظفر مخرباً ثمار أشجار

مضى هذا الجيش المظفر ملقياً النار على قراهم

مضى هذا الجيش المظفر فذبح أكثر من عشرات الآلاف من جنودهم

مضى هذا الجيش المظفر وعاد بأعدادٍ غفيرة من أسراهم"⁽²⁸⁾

وكان التعبير عن الدمار قد بلغ أقصى مدى له في الفقرة التي تسجل قتل عشرات الآلاف من الأعداء. وقد تطور هذا الأمر إبان حكم الدولة الحديثة، وإن لم يستمر طويلاً، ليصير سياسةً هجوميةً منظمّةً للمصريين. فقد قاد رمسيس الثانى حروباً طويلةً ضد الحيثيين. وفي قصيدة مديح له ذُكر التالي: "من يدهم أرض الحيثيين فيجعلها كوماً من الجثث فإنه يماثل (سخت) عندما تتعطش إلى الطاعون"⁽²⁹⁾. فتروى الأسطورة عن الربّة سخت، التي لها رأس لبؤة، أنها دبّرت حمام دم رهييباً للبشرية المتمردة. وقد ظلت سخت ربّةً للحروب والمذابح. أما شاعر قصيدة المديح فقد ربط تصويره عن كوم جثث الحيثيين بصورة ضحايا الوباء، وهى علاقةٌ لم تعد جديدةً علينا. وفي روايته الشهيرة عن معركة قادش التي شنّها ضد الحيثيين يحكى رمسيس الثانى كيف تم عزله عن جنوده وكيف كسب وحده المعركة بقوةٍ وبسالة تفوقان قوة البشر. أما رجاله "فقد وجدوا كل الشعوب التي اخترقت صفوفها مذبحين غارقين في دمائهم، وكذلك كانت حال أفضل مقاتلى الحيثيين وأبناء أخوة أميرهم. وقد تركت ساحة قادش بيضاء ولم يستطع أحدٌ وطء أرضها لكثرة قتلاهم"⁽³⁰⁾.

لقد كانت "كثرة" الجثث وثيابهم البيضاء التى كسى لونها أرض الساحة هى العبارة الأكثر تعبيراً عن بشاعة ووضوح نتيجة معركة. لكن هذه النتيجة لم يرها سوى المحاربين. فلما كانت رحى المعركة قد دارت فى موضع بعيد كان الشعب فى أرض الوطن ينشد كذلك الحصول على شئ من كوم قتلى الأعداء. ولما كان الملك يتمتع بالخيال ويعرف السبيل إلى إرضاء شعبه فإن مرنبتاح، ابن رمسيس الثانى، روى كيف أنه كسب معركة عظيمة ضد الليبيين، فقد استولى المصريون على معسكراتهم كاملةً بكل كنوزها وأسروا أهل أمير الليبيين. وبعد سلب المعسكرات تم إحراقها وأضافوا إلى ما غنموه 9376 أسيراً. إلا أن ذلك لم يكن كافياً لى يرهن الملك لشعبه فى أرض الوطن على عدد القتلى، فقام الجنود ببتز أعضاء القتلى التناسلية فإذا ما كان هؤلاء مختونين¹ كان الجنود (المصريون) يكتفون بقطع الأيدى ليحملوا هذه الغنيمة فوق ظهور الحمير⁽³¹⁾. وكان على رمسيس الثالث أن يحارب هؤلاء الليبيين مرةً أخرى فيما بعد. وكان عدد رموز الغنائم فى هذه الموقعة يدور حول 12535 قطعة ومن الواضح أن هذه "الحمولة" المروعة لم تكن سوى الكوم المختزل لقتلى الأعداء الذى يمكن نقله ليراه الشعب كله. فكان كل قتيل قد ساهم بجزء من جسده من أجل الكوم. ومن المهم أن يتساوى جميعهم كرموز غنائم⁽³²⁾. وهناك شعوبٌ أخرى كانت تستهدف الرأس. فقد حدد الآشوريون مكافأةً مقابل كل رأس من رؤوس الأعداء، فكان على الجندي أن يحاول الحصول على أكبر قدرٍ منها. ويروى فى نقش من عهد الملك آشور بانبيال كيف يقف الكتبة فى خيامهم الكبيرة وهم يحصون عدد الرؤوس المجتزة ليحمل كل جندي ما حصده من رؤوسٍ إلى هناك ويلقى بها فوق كومٍ جماعى ويعطى بياناً باسمه وفرفته ثم يقفل عائداً. وكان ملوك آشور شغفٌ بأكوام الرؤوس هذه، فإن كانوا بين جنودهم فإنهم يستعرضون توريد رموز الغنائم ويقومون بأنفسهم بتوزيع المكافآت على الجنود، فإن غابوا عن ذلك المشهد كانوا يأمرن بإرسال كوم الرؤوس كله إليهم، فإن استحال ذلك كانوا يكتفون برؤوس قادة الأعداء⁽³³⁾. هكذا يكون الهدف المباشر للحرب قد اتضح تماماً لذا كانت إضافة أمثلةٍ أخرى عن ذلك أمراً غير ضرورى. فالتاريخ زاخرٌ بذلك بالفعل. ويتولد الانطباع لدينا بأن أحداث التاريخ لا تدور تقريباً إلا حول ذلك. وهو لا يذكر أحداثاً أخرى إلا نادراً.

1 كان الختان عادةً مصرية قديمة انتقلت إلى بعض الشعوب الأخرى لذا حرص الجنود هنا على تأكيد هوية الخصم (المترجم)

فإذا ما تأملنا الطرفين المتحاربين رأينا أن الحرب تقدم صورة كتلتين مزدوجتين مشتابكتين. فجيّش كبير إلى حدّ ما يضع نصب عينيه هدف تحقيق كوم كبير من قتلى الأعداء قدر الإمكان وهو ما يسرى على الطرف الآخر بالقدر نفسه. أما التشابك فينتج عن انتماء كل مشارك في الحرب إلى كتلتين في آن واحد. ففي إطار معسكره هو يكون منتمياً إلى المقاتلين الأحياء، ومن وجهة نظر خصمه يكون منتمياً إلى عدد الموقى المنتشود والكبير. ومن أجل الحفاظ على أجواء الحرب فلا بد من التأكيد من حينٍ لآخر على مدى قوته هو نفسه، أى عدد أفراد جيشه هو من ناحيةٍ وعدد قتلى الأعداء من ناحيةٍ أخرى. وقد تميزت التقارير الحربية منذ أقدم العصور بهذه الإحصائية المزدوجة، أى إحصاء عدد مقاتلى هذا الطرف وعدد قتلى العدو. وكثيراً ما يميل المرء إلى المبالغة، خاصةً بالنسبة لعدد قتلى الأعداء. أما في أثناء الحرب فإن المرء لا يعترف بكثرة عدد الأحياء من الأعداء، حتى لو عرف ذلك فإنه يسكت عنه، ويحاول الخروج من هذا الموقف السيئ من خلال إعادة توزيع القوات المقاتلة. وكما لاحظنا سابقاً فإن المرء يفعل كل شيء في سبيل التفوق في الحال من خلال إعادة توزيع بسيط لفرق الجيش. أما الخسارة الذاتية لعدد الرجال فلا تُذكر إلا بعد الحرب. ودافع الكتلة لحماية حالها من التفتت، هو الذى يمد أجل الحرب واستمرارها حتى لو كانت قد خُسرت منذ أمدٍ بعيد. وأحياناً ما يتأجج هذا الشعور إلى حد إغفال الفناء الجماعى البادى للعيان حتى لا يتم الاعتراف بالهزيمة ويكون بذلك قد سعى إلى انهيار الكتلة المنتمى إليها. لكن كيف تتكون الكتلة الحربية؟ وما هذا الذى يفضى من لحظةٍ لأخرى إلى هذا التماسك العجيب؟ وما هذا الذى يؤدى بالناس فجأةً إلى المغامرة بكل هذا القدر أو بكل شيء؟ إن هذا الحدث ما زال غامضاً ما يضطرنا إلى الاقتراب منه بشيءٍ من الحذر. إنه حدثٌ عجيب تماماً حينما يقرر المرء أنه مهددٌ بخطر الفناء الفيزيقي، وهو يعلن عن الخطر صراحةً أمام الجميع: "إننى مستعدٌ للموت". هكذا يصرح المرء وهو يخفى رغبته في أثناء ذلك: "لأننى أسعى إلى قتل هذا أو ذاك". وفي الواقع يكون التشديد على العبارة الثانية: "إننى أسعى لقتل هذا أو ذاك وبذلك يمكن أن أموت قتيلاً" إلا أن العبارة الأولى وحدها التى يقر بها المرء لنفسه تكون من أجل بدء الحرب، من أجل خوض الحرب، من أجل غرس فكرة القتال في نفوس رجال معسكره هو. فإذا ما كان هذا هو البادئ بالهجوم فعلاً أم لا فإنه يكون هو الذى يسعى

دائمًا لخلق الافتراض أنه مهددٌ. ويكمن التهديد في منح المرء نفسه رخصة قتل أحدٍ ما، وكل شخصٍ بحد ذاته يكون واقعًا تحت التهديد ذاته. فالتهديد هو الذى يساوى بين الجميع لأنه يستهدف الجميع. ومن هذه اللحظة تحديدًا، وهى لحظةٌ يتقاسمها الجميع، أى لحظة إعلان الحرب، يمكن أن يحدث الشيء نفسه للجميع. وإذا ما حاول الفرد النجاة من التدمير الفيزيقي فأسرع بالاحتماء بالمجتمع فإنه يكون كمن استغاث من الرمضاء بالنار. فالتهديد الرهيب يحيق بكل من ينتمى إلى مجتمع بعينه. فيقال لألف نفسٍ، كل على حدة: "لسوف تموت"، على أن يكون ذلك فى اللحظة نفسها. فيتجمع هؤلاء معًا لمواجهة خطر الموت، ويسعون بسرعة إلى جذب من يتعرض للتهديد نفسه ليلتقوا في جمعٍ كثيف، ويضطرون للدفاع في اتجاهٍ مشترك. وسرعان ما يلتقى المستهدفون على كل الجانبين عادةً سواء كان ذلك على أرض الواقع أو فى التصور والشعور. ونشوب الحرب هو فى المقام الأول عبارة عن نشأة كتلتين. فحالمًا تتكون هذه الكتل يكون هدفها هو الحفاظ على نفسها كروح وفعل. والاستغناء عن ذلك يكون بمثابة الاستغناء عن الحياة نفسها. ودائمًا ما تتعامل الكتلة الحربية مع كل ما هو خارجها على أنه "الموت". فالفرد الذى ظل حيًا بعد حروبٍ كثيرة يسلم قياده للوهم ذاته إذا ما خاض حربًا جديدة. والموت الذى يهدد فى الواقع كل فرد يُنظر إليه على أنه حكمٌ على الجميع حتى ينشط الجميع لمواجهة، وهناك على نحوٍ أو آخر فتراتٌ معلنة للموت يهدد فى أثنائها جماعةٌ بعينها على نحوٍ متعسف "إنه يهدد الآن جميع الفرنسيين" أو "إنه يهدد الآن جميع الألمان". أما النشوة التى يستقبل بها الناس مثل هذا الإعلان فلها جذورها فى إحساس الفرد بالخوف من الموت الذى لا يرغب أحدٌ مواجهته منفردًا، لكن أمره يكون أسهل إذا ما واجهه اثنان، أى إذا ما حاول اثنان من الأعداء قتل كل منهما الآخر. لكنه لا يكون هو الموت نفسه إذا ما واجهه ألف شخص معًا. فأسوأ ما يمكن أن يحدث للناس فى حربٍ ما، وهو أن يقضى عليهم جميعًا، يكون هو ما ينقذهم من الموت فرادى وهو أخشى ما يخشونه. إلا أن أنهم لا يظنون مطلقًا أن هذا الأسوأ سوف يحدث لهم، فهم يعتقدون فى إمكانية تحويل هذا الخطر الجماعى الموجه إليهم ليصدروه إلى العدو، وما عليهم إلا أن يسبقوه فى تنفيذه ولا يترددون لحظةً فى عملية القتل. فالعدو يأتى كأنه يسعى لمصيره، فهو من أصدر الحكم أولًا فقال: "سوف تموتون!" فحق عليه ما تمناه لغيره. ودائمًا ما يكون العدو هو

البادئ بذلك، فإن لم يكن هو المبادر إلى ذلك يكون هو من خطط له، فإن لم يكن قد فكر في ذلك فإنه سرعان ما يتبادر ذلك إلى ذهنه. وتمنى الموت أمرٌ يتوافر بالفعل في كل مكان ولا يضطر المرء إلى سبر أغوار الناس ليعرف ذلك. أما التوتر الشديد العجيب والذي لا يمكن إغفاله والذي يوحد كل العمليات الحربية فله سببان، فالمرء يريد أن يكون له السبق وأن ينشط داخل الكتلة. ومن دون هذا الأخير لا تكون لدى المرء أية فرصةٍ مطلقًا في النجاح في السبق. وما دامت الحرب مستمرة يكون على الناس البقاء كجمهور. وتنتهى الحرب عندما تنتهى الكتلة. وفرصة البقاء على قيد الحياة لفترةٍ ما توفرها الحرب للكتلة، ككتلة تساهم في الحرب - كما يهوى الناس- مساهمةً كبيرةً للغاية. ومن الواضح أن كثافتها واستمرارها في العصور الحديثة يرتبطان بالكتل المزدوجة الأكبر حجمًا، وهو ما توفره روح الحرب.

بللورات الكتلة

إن ما أعنيه ببلورات الكتلة هو عبارة عن مجموعاتٍ بشرية صغيرة وصلبة، لها حدود ثابتة وتتسم بالاستمرارية بدرجة كبيرة، وهذا من شأنه أن يعمل على تفكيك الكتلة. ومن المهم أن تكون هذه المجموعات مرئيةً بحيث يمكن احتواؤها بنظرةٍ واحدة. وهى تعتمد على "وحدتها" على نحوٍ أعظم من حجمها، كما يجب الوثوق بأدائها وإدراك الهدف من وجودها. فالشك في مهمتها يفرغها من كل معانيها، لهذا من الأفضل أن تظل دائماً على ما هى عليه ولا ينبغى استبدالها بشيء آخر، إذ إن تماثل شكل ملابسها ومكان أدائها المحدد يعودان بالنفع عليها.

إن بللورة الكتلة تتسم بالثبات والاستمرارية، حيث إنها لا تغير حجمها أبداً. أما المنتمون إليها فلا بد أن يكونوا مدربين على أدائها أو فكرتها، ويمكنهم تقسيم المهام فيما بينهم على نحو يشبه أفراد الفرقة الموسيقية، ولكن من المهم أن يظهروا كوحدةٍ كلية مترابطة الأجزاء. فمن يراهم أو يعايشهم لا بد أن يشعر أولاً بأنهم لن يتفرقوا أبداً، إذ لا يُعتد بحياتهم خارج نطاق البلورة، وحتى إذا ارتبط الأمر بأداء وظيفةٍ ما، فلا ينبغى التفكير مطلقاً في وجودهم الشخصى، تماماً مثل وظيفة العازفين في الفرقة الموسيقية، إنهم الأوركسترا. وفي حالاتٍ أخرى نراهم مرتدين زياً موحداً معاً، فهم على هذا النحو الجمعى دائماً. إنهم أناس آخرون

تماما إذا ما خلعوا ملابسهم الموحد. ويمكن اعتبار الرهبان والجنود أهم أشكال هذا النوع، فهنا يعبر الزى عن ارتباط المنتمين للبلورة، حتى وإن ظهوروا فرادى فإن علينا أن نفكر دائماً في تلك الوحدة الوثيقة التي ينتمون إليها، أى الدير أو الفرقة العسكرية.

إن وضوح البلورة وعزلتها وثباتها تبرز على نحو هائل في خضم الأحداث المثيرة داخل الكتلة ذاتها. أما النمو السريع الذى يستحيل التحكم فيه وخطر التفتت -وكلاهما يضاف على الكتلة ما تتسم به من قلقلة وتوتر - فإن أثرهما يتلاشى داخل إطار البلورة. فالبلورة تترفع عنهما حتى في أقصى درجات الانفعال. ومهما كانت نوعية الكتلة التى منحتها البلورة الحافز، ومهما كان مدى انصهارها الظاهري معها، فإن البلورة لا تفقد سماتها المميزة، فهي تتجمع بعد تفتتها على الفور.

إن الكتلة المنغلقة لا تختلف عن البلورة في محيطها الأكبر فحسب، بل إنها تمتلك أيضاً إحساساً بنفسها بأنها أكثر تلقائيةً، ولا يمكن أن تسمح لنفسها بأى تقسيمٍ خطر يهددها في أداء وظائفها، وهى لا تكاد تشارك البلورة في الواقع إلا في محدوديتها وتكرارها المنتظم، إذ إن كل ما في البلورة له حد، فكل فرد ينتمى إليها ينشأ في إطار حدى. وعلى الجانب الآخر فإن للكتلة المنغلقة حدوداً تتخذ شكل وحجم ببيان تتجمع فيه. وداخل هذه الحدود، حيث يصطدم كل من انتمى إليها بالآخرين، تبقى هذه الكتلة في حالة مرنة. وهكذا يمكن حدوث مفاجآت وسلوكٍ متغير غير متوقع طوال الوقت. وتستطيع هى كذلك في صيغتها المحدودة أن تبلغ درجةً من الكثافة والتركيز تؤدى إلى انفجارها. وعلى الناحية الأخرى تكون بلورة الكتلة ساكنةً تماماً، فهي ملتزمةٌ بنشاطها وواعيةٌ تماماً بكل قولٍ أو فعلٍ.

إن استمرار بلورة الكتلة التاريخي أمرٌ يثير الدهشة. ورغم تكوين أشكالٍ جديدة باستمرار فإن الأشكال القديمة تظل موجودةً بإصرار إلى جانب الأشكال الجديدة، وقد تتوارى مؤقتاً في الخلف وتفقد بعض حدتها ورسوخها، وتكون الكتل التى انتمت إلى هذه الأشكال قد انقرضت أو تم قهرها تماماً وتستمر البللورات في الحياة وحدها كمجموعاتٍ محايدة دون أن يكون لها تأثيرٌ خارجي. فهناك مجموعاتٌ صغيرة من الجماعات الدينية تظل موجودةً في البلاد التى

تكون قد بدلت عقيدتها تمامًا. وقيئًا تحين اللحظة التي تنشأ الحاجة إليها فيها، مثلما توجد كتلٌ من نوعٍ جديدٍ قد تتوافق مع انفعالاتها وإثارتها. فكل المجموعات المتجمدة من هذا النوع يمكن، فيمكن إحيائها من جديد وتنشيطها مرةً أخرى بشيء من التغيير الطفيف في شكلها كبلورة كتلة. فلا يكاد يوجد انقلابٌ سياسى قوى إلا وتذكر مثل هذه المجموعات القديمة القوية المهجورة، فيعود إليها ويصقلها ويستخدمها على نحوٍ من القوة يجعلها تبدو كمجموعاتٍ جديدةٍ تمامًا ذات نشاطٍ خطر. وسوف نرى فيما بعد كيف تعمل بللورات الكتلة، كلٌ منها على حدة، وأثرها في حشد الكتلة، وهو أمر لا يتبدى إلا في الحالات الواضحة. فالبلورات تتنوع أشكالها وهو ما يفضى إلى كتل مختلفة تمامًا. ولسوف يتعرف القارئ، من دون أن يشعر بذلك تقريبًا، على سلسلةٍ منها خلال هذه الدراسة.

رموز الكتلة

إن كل الوحدات الجماعية التي لا تتكون من بشر وتظهر ككتلة أطلق عليها وصف "رموز الكتلة". ومن هذه الوحدات: البذرة والغابة والمطر والرياح والرمل والبحر والنار. وكل من هذه الظواهر تنطوي على سماتٍ جوهرية للكتل. ورغم أنها لا تتكون من بشر فإنها تُذكر بالكتلة. وهي تبدو للناس في الأسطورة والحلم والحديث والأغنية. ولا بد من أن نشير هنا إلى وجوب عزل هذه الرموز عن البللورات على نحوٍ حاد لا لبس فيه. فبلورات الكتلة تقدم نفسها كجماعةٍ من البشر تلفت الانتباه من خلال تماسكها ووحدتها وتعاش كوحدةٍ، لكنها تتكون من أناسٍ نشطين بالفعل، جنود أو رهبان أو فرقة موسيقية كاملة. أما رموز الكتلة فهي على النقيض من ذلك، فهي لا تكون بشرًا ونشعر بها ككتلة جماهيرية. وقد تبدو معالجتها للوهلة الأولى غير متسقةٍ مع المادة، ولكننا سوف نرى أنه من الممكن تقريب الكتلة الجماهيرية نفسها على نحوٍ جديد ومثمر. إنه ضوءٌ طبيعي يُسلط على الكتلة من خلال تأمل رموزها. ولن يكون من الذكاء إن أغلقنا الباب أمام هذا الضوء.

ليس هناك بدٌّ من أن نقول مبدئيًا عن النار إنها تتساوى في كل مكان، سواء كانت واسعة الانتشار أم محدودةً أو نشبت هنا أو هناك أو أنها استمرت لوقتٍ طويل أو قصير، فنحن نتصور أن لديها دائمًا شيئًا متساويًا مستقلًا عن حالاتها. فصورة النار تمثل لدينا حريقًا قويًا ومحددًا وغير قابلٍ للإطفاء، فالنار تمتد إلى ما حولها كأنها حاملةٌ للعدوى. وهى لا تعرف الشبع، وعنقها الذى تنشب به في الغابات وغابات الاستبس ومدن كاملة هو من ضمن خصائصها الأكثر إثارة للعجب. وقبل أن تنشب تكون الشجرة واقفةً بجوار الشجرة والمنازل بجوار المنازل، كل شيء منفصلٌ عن الآخر، كلٌّ مفردٌ قائم بذاته، لكن النار تربط بين كل ما هو منفصلٌ عن الآخر في أقصر وقت. فالمواد المنعزلة والمختلفة تنصهر كلها في اللهب نفسه، وهى تتساوى إلى حد أنها تختفى تمامًا، منازل ومخلوقات، كلٌّ تمسك به النار فهى حاملةٌ عدوى. والاستسلام أمام لسع النار يصيبنا كل مرةً بالدهشة. وكلما انطوى شيء ما على حياةٍ داخله تكون قدرته على الدفاع ضعيفةً. فالمواد الخالية من الحياة فقط هى التى تواجه النار التى لا يعرف نهماها المستعر أية حدود، فهى تريد احتواء كل شيء، فهى لا تشبع أبدًا. وتستطيع النار أن تنشب في كل مكان، فهى مفاجئة. ولا أحد يدهش لنشوب نارٍ هنا أو هناك، فالمرء يتوقع النار في أى مكان. إلا أن فجائيتها تكون مثيرةً للعجب دائمًا، وهو ما يحثنا على البحث عن الأسباب. ولأن ذلك لا يمكن الاستدلال عليه غالبًا فإنه يساهم في بث شعورٍ بالرهبة يكون مرتبطًا بالتصور عن النار، فهى لها حضورٌ قوى غامض ويمكن رؤيتها في أى وقتٍ وأى مكان. والنار متعددة الوجوه، ولذلك فالإنسان يدرك أن النار تتواجد بأماكن كثيرةٍ بلا حصر، وهى أيضا في حالاتها الفردية متعددة الوجوه! إذ إننا نتحدث عن اللهب أو السعير، وعن السنة النار. ففي كتاب الهندوسى المقدس تُعرّف النار بأنها "Agni" أى الملتهبة⁽³⁴⁾. إن النار مدمرةٌ ويمكن مكافحتها والسيطرة عليها وإطفائها. وهى لها خصمٌ أساسى، هو الماء الذى يواجهها في هيئة أنهارٍ وأمطار. وهذا الخصم كان موجودا دائمًا، وبكل خصائصه المتنوعة يكون ندًا للنار، حتى إنه يُضرب المثل بعدائهما: "كالنار والماء"، وهو تعبيرٌ عن عداٍ هو الأكثر تطرفًا والأكثر رفضًا للتصالح. وفي التصورات القديمة عن نهاية العالم يكون هذا أو تلك هو المنتصر. ف"الطوفان" يقضى على كل مظاهر الحياة في الماء، و"حريق الدنيا" يدمر العالم من خلال النار. وأحيانًا

ما يظهر كلاهما متصالحًا في الأسطورة نفسها. إلا أن الإنسان قد تعلم في حياته الدينيّة كيف يسيطر على النار، فإن لم يكن بوسعه إلقاء الماء على النار من حين لآخر، فإنه قد استطاع الاحتفاظ بالنار منقسمة. فهو يحتجزها في الأفران والمدافئ، وهو يقترب منها كما يقترب من الحيوان حين يكون في قدرته أن يدعه يموت جوعًا أو يخنقه. ولعلنا بذلك نكون قد لمحنا إلى آخر الخصائص الهامة للنار، فالتعامل معها يكون على أنها كائنٌ حيٌّ نشط يمكن أن ينطفئ. وإذا قمنا بخنقها هنا كليفةٍ فإنها تواصل حياتها في مواضع أخرى.

وإذ كنا قد أوجزنا هذه الملامح المنفردة للنار، تظهر أماننا على أثر ذلك صورةً مفاجئة لها، فهي الشيء نفسه في كل مكان، وهي تنتشر بسرعة، وهي حاملةٌ للعدوى، وهي لا تشبع، وهي تستطيع النشوب في كل مكان، وهي مفاجئةٌ للغاية، وهي متنوعةٌ، وهي مدمرة، ولها عدو، وهي تنطفئ، وهي تبدو كأنها تحيا وتُعامل على هذا النحو. كل هذه السمات هي صفات الكتلة، ويصعب وضع موجزٍ أدق لخصائصها، لذا كان علينا اقتفاء أثرها للنهاية. إن الكتلة تشبه بعضها البعض في كل مكان، وهي في جوهرها هي عين ذاتها في أكثر العصور التاريخية والحضارات اختلافًا، وبين البشر من كل الأعراق واللغة والتربية. فإذا نشأت الكتلة انتشرت بأقصى قوة. وقليلون هم من يستطيعون التصدي لعدواها، فهي تسعى لمواصلة النماء، ولا تعرف أية حدود من داخلها. إنها تستطيع أن تنشأ في أي مكانٍ حيث يجتمع الناس معًا، (وتعتبر) كما تُعد تلقائيتها وفجائيتها أمرًا مخيفًا. وهي مختلفة الوجوه إلا أنها ترتبط ببعضها البعض، وهي تتألف من أناس لا حصر لهم، (وهؤلاء لن) ولا يُعرف عددهم على وجه الدقة. كما أن الكتلة يمكن أن تكون مدمرةً، وهي تُخمَد وتروّض، وهي تبحث عن عدو، وهي تتلاشى فجأةً مثلما نشأت فجأةً، وغالبًا على نحوٍ غير واضح. وهي بطبيعة الحال لها حياتها الخاصة القلقة العنيفة. وقد أدى هذا التشابه بين النار والكتلة إلى الربط فيما بينهما بدرجة حميمة، إذ ينغمر كل منهما في الآخر وخلق كل منهما في خدمة الآخر. ومن بين رموز الكتلة التي أثرت دائمًا في تاريخ الإنسانية كانت النار واحدةً من أهم الرموز وأكثرها تقلبًا. ومن الضروري أن نتناول شيئًا عن هذه العلاقات بين النار والكتلة.

إن من بين الملامح الخطيرة للكتلة الجماهيرية التي تبرز مرارًا وتكرارًا وأكثر ما يسترعى الانتباه هو نزوعها لإشعال النار. ولهذه النزعة جذورٌ مهمة في حريق الغابات. فالغابة، التي هي من أقدم رموز الكتلة، يُشعل ناراها غالبًا بنو البشر من أجل تشييد مستوطنات لهم. وهناك سببٌ كافٍ لأن نفترض أن البشر قد تعلموا التعامل مع النار من خلال إحراق الغابات. وهناك ارتباطٌ كاشف بين الغابة والنار منذ فجر التاريخ، فقد حلت الحقول فيما بعد محل المواضع المحترقة بالغابة، وحين أراد الإنسان التوسع في الحقول اضطر إلى تجريف الغابة من حينٍ لآخر.

أما الحيوانات فكانت تهرب من الغابة المحترقة فقد كان الخوف الجماعى أمرًا طبيعيًا. ويمكننا القول بأن ذلك كان رد الفعل الأزلَى للحيوانات تجاه الحرائق الكبيرة. وكان ذلك ذات يومٍ هو رد فعل الإنسان كذلك. إلا أن الإنسان سيطر على النار حتى حملها في يده ولم يعد يخشاها. وقد طغت سطوته الجديدة على خوفه القديم بعد أن دخل كلاهما في تحالفٍ مدهش. إن الكتلة التي فرت من النار في الماضى تشعر بانجذابها إليها الآن على أشد نحو. فنحن نعرف الأثر السحري للنار على الإنسان بكل أجناسه. فالبشر لم يكتفوا بالأفران والمدافئ التي تحتفظ بها كل جماعة سكنية لنفسها على نحوٍ خاص، لكنهم أرادوا ناراَ مرئية يتحلقون حولها ويستطيعون كلهم التجمع حولها. فهناك تجارب عجيبة لخوف الكتلة القديم يدفعها للإسراع إلى مسرح الحريق إذا كان فقط كبيرًا بما فيه الكفاية. فهناك يشعرون بشيءٍ من الحرارة المضيئة التي وحدث بينهم فيما مضى. وفي أوقات السلم كان عليهم الاستغناء عن هذه التجربة غالبًا. ومن بين أقوى غرائز الكتلة إثـر تكونها هو وجود النار بنفسها وامتلاكها لجاذبيتها من أجل نموها الشخصى. وما زال هناك بعض الآثار الباقية الصغيرة لهذه العلاقة القديمة المهمة يحملها المرء معه في حقيبه أينما ذهب: علبة أعواد الثقاب، وهى تمثل، بتساوٍ بديع، غابةً من سيقان منفردة زُودَ كُلُّ منها برأسٍ مشتعل. ويستطيع المرء إشعال العديد منها أو كلها معًا. وهكذا يشعل حريقًا مصطنعًا بالغابة لكنه لا يفعل ذلك عادةً لأن هذا الشكل المُختَزَل لمثل هذا الحدث سوف يخضم منه كل شيء من مجده القديم. إلا أن جاذبية النار تستطيع أن تذهب إلى مدى أبعد لا يقتصر على ركض الناس نحوها ليتحلقوا حولها، فهناك عاداتٌ قديمة ساوى فيها الناس أنفسهم بالنار. ومن أروع الأمثلة على ذلك هو رقصة النار لدى قبيلة الـ"نافايو"

في "نيو مكسيكو"⁽³⁵⁾ التى تقوم بإشعال نارٍ عظيمة ليرقصوا حولها طوال الليل، وفيما بين غروب الشمس وشروقها يقدم هؤلاء أحد عشر فصلاً تمثيليًا محددة. فما إن يغيب قرص الشمس حتى يأخذ منظمو الحفل في الرقص العنيف في بقعة جرداء، وهم شبه عرايا، ملطخين بالألوان، تاركين شعورهم الطويلة حرةً تتطاير حولهم، حاملين عيدانًا للرقص مزدانةً أطرافها بريش. وفي وثباتٍ عنيفة يقتربون من ألسنة اللهب العالية. وهؤلاء الهنود الحمر يرقصون بتحفظٍ عشوائى، فهم يتكورون بعض الشيء ويحبون بعض الشيء. وفي الواقع تكون النار حاميةً إلى حد أن يضطر الممثلون إلى الانحناء على الأرض حتى يقتربوا بما يكفى من النار، وهم يهدفون إلى وضع ريش أطراف عيدان رقصهم في النار رافعين قرصًا يصور الشمس. وحول هذا القرص يواصلون رقصهم العنيف. وفي كل مرةٍ ينخفض القرص ويرتفع ثانيةً تبدأ رقصةٌ جديدة. وعند شروق الشمس تكون الطقوس المقدسة قد شارفت على نهايتها ليمضى رجالٌ طلوا أنفسهم باللون الأبيض أولاً ويشعلون أجزاءً من لحاء الشجر فوق الجذوة المحتضرة، ثم يتفافزون ثانيةً بعنف حول النار ويقذفون على جسداهم كله بالشعلات والدخان واللهب وهم يرقصون بالفعل وسط الجمار. واعتمادهم الطلاء الأبيض يعود لاعتقادهم أنه يحميهم من الإصابة بحروق. إنهم يرقصون النار نفسها. إنهم يتحولون إلى نارٍ وحركاتهم هى من لهبٍ. أما ما يحملونه في أيديهم ويشعلونه فإنه يجعلهم يبدو كأنهم يشتعلون. وفي الختام ينثرون من الرماد المتوهج ومضات الشعلات الأخيرة حتى تشرق الشمس التى تتسلم النار منهم، فهى الشمس التى تسلموا منها النار عند غروبها. هكذا تكون النار هنا كتلة حية. ومثل أولئك الهنود الحمر هناك آخرون يصيرون في أثناء الرقص "جاموسًا". أما هؤلاء فيؤدون دور النار في أثناء الرقص، وتصير النار الحية بالنسبة للأجيال التالية هى النار التى تحول إليها أفراد الـ"نافايو" وقد صارت رمز كتلةٍ مجردًا. ومن الممكن التوصل إلى كتلة بعينها تغذى "رمز كتلة" معروف لدينا. والمرء هنا لا يتوجه فقط إلى التكاثر، فنزعة البشر إلى أن يصيروا نارًا كانت أيضًا نزعةً قوية في الثقافات المتأخرة الأكثر تعقيدًا. فالمدن المحاصرة التى لم يعد لديها أمل في النجاة كانت تقوم في الغالب بإحراق نفسها. كما كان الملوك وبلاطهم المملكي المحاصر يشعلون النار في أنفسهم بعد يأسهم من في النجاة. وهناك أمثلة على ذلك من حضارات البحر المتوسط القديمة، وهو ما عرفه الهنود والصينيون بالقدر نفسه. أما العصور الوسطى التى انتشر في أثناءها

الإيمان بنار الجحيم فإنها اكتفت بإحراق أفراد من المهترقين بدلاً من إحراق كل الجمهور المجتمع. فهي ترسل على نحو ما ممثلين عنها إلى الجحيم وترى أنهم بالفعل يحترقون. إن تحليل الأهمية التي اكتسبتها النار في ديانات مختلفة سوف سيكون أمراً عظيم الأهمية. إلا أن التحليل لن يكون مفيداً لو لم يكن شاملاً ولذلك وجب إرجاؤه لما بعد. لكن يجدر بنا أن نتناول هنا أهمية إشعال النار الوجداني بالنسبة للفرد الذي يقوم هو بذلك ويكون منعزلاً بالفعل ولا ينتمى إلى أية دائرة لعقائد دينية أو سياسية. ويستعرض "كرابلين"⁽³⁶⁾ حالة امرأة وحيدة متقدمة في العمر قامت بإشعال عشرين حريقاً في أثناء حياتها. كان أولها وهى ما زالت طفلة. وقد وُجّه إليها الاتهام ست مرات بإشعال النيران وقضت ما يربو على أربعة وعشرين عاماً من حياتها في السجون. "قلو أن هذا أو ذاك احترق" هكذا كانت تفكر فقد كانت فكرة راسخة لديها تحديداً عندما يكون في حقيبتها أعواد ثقاب، فإن ذلك كان يدفعها، كقوة غير مرئية، فما كان ما يهمها هو مشاهدة النار. لكنها كانت تعترف بسعادة بل وإسهاب. ولا بد أن تكون قد عاشت النار في وقتٍ باكر كمادة إغراء للبشر. وربما كان الالتفاف حول النار هو أول انطباعٍ لديها عن الكتلة. فالنار بوسعها أن تكون مماثلةً للكتلة نفسها. فادعائها واتهام نفسها يغذى شعورها بأنها صارت محط نظر الجميع وهذا هو ما تريده. فهي نفسها تصير ناراً ينظر الناس إليها. وهكذا تكون علاقتها بإشعال الحريق شخصيةً مزدوجة خرجت من النار. فهي في كل الأعين في وقتٍ واحد وهى توحد بين هذه الأعين قسراً، فماضيها الذى سبق ذلك والذى عزلها مبكراً حرّمها من أية فرصةٍ للانضمام إلى كتلةٍ ما، بل حتى في أثناء فترة سجنها الأبدى. فإذا ما انتهى حدث الحريق وهددتها الكتلة بأن تنفض عنها فإنها تبقى على قيد الحياة بأن تتحول هى نفسها فجأةً إلى نار. وهو ما يحدث بطريقةٍ بسيطة للغاية بأن تعترف بإشعال النار. وكلما كانت روايتها أكثر إسهاباً وكان لديها ما هو أكثر لتقوله طال النظر إليها، وطالت المدة في بقائها هى نفسها ناراً. إن مثل هذه الحالات ليست نادرةً كما نظن حتى عندما لا تكون على هذا الحد من التطرف، وهى تقدم من منظور الفرد المنعزل دليلاً دامغاً على العلاقة بين الكتلة والنار.

البحر

إن البحر متعددٌ، فهو في حركةٍ، ومرتبطة ارتباطاً مكثفًا. أما تعدده فهو موجاته، فهي التي تفعل ذلك وهذه لا يمكن إحصاؤها، ومن يوجد في البحر يكون محاطًا بها من كل جانب. وتساوى حركتها لا يستبعد اختلاف الحجم فيما بينها. وهي لا تعرف الهدوء أبدًا والرياح التي تأتيها من خارجها هي التي تحدد اتجاهها. فهي تندفع هنا وهناك طبقًا لأوامرها. واضطراب الأمواج الشديد يعبر كذلك عن شيء يشعر به الإنسان بالفعل في كتلة أية جماهير، ففي علاقة الفرد المرنة بالآخرين يشعر كأنه هم، وكأن المرء لم يعد له حدودٌ خاصة به. إنها تبعيةٌ لا يمكن الفكك منها، وشعورٌ بالقوة والعنفوان يمنحه الجميع معًا للفرد. أما هذا النوع الخاص من الارتباط فلا يعرفه البشر، كما أن البحر لا يفصح عنه وإنما يعبر عنه. وبخلاف الأمواج فهناك الكثير من سمات البحر، هي القطرات، إلا أنها منعزلة، فهي ليست سوى قطرات. وعندما لا ترتبط فيما بينها فإن صغر حجمها وفرديتها يدلان على انعدام أثرها، فهي تكاد تكون لا شيء. وهي توقظ شعورًا بالتعاطف لدى المتأمل لها. فالإنسان يغوص بيده في الماء ثم يرفعها متأملًا القطرات التي تنساب فرادى ضعيفةً. إن التعاطف الذي يشعر به الإنسان نحوها يجعلها كأنها بشرٌ قانطون منبوذون. ولا يعتد بالقطرات مرةً أخرى إلا إذا فقد الإنسان قدرته على إحصاء عددها عندما تكون قد اندمجت جميعها تمامًا. وللبحر صوتٌ متغير للغاية يسمعه الإنسان، بل هو يعزف آلاف الأصوات. والإنسان يؤمن بكثيرٍ من قدرات الصوت. وأما أكثر ما يثير الإعجاب في هذا الصوت فهو صلابته. فالبحر لا ينام أبدًا. فالإنسان يسمعه دائمًا ليل نهار عبر أعوامٍ وعقود من السنين. والإنسان يعرف أنه يُسمَع من قرونٍ في عنفوانه، وفي تمرده يذكر بمخلوقٍ واحد يقتسم معه هذه السمات في مثل شموليتها، وهي الكتلة. ولكنه أيضًا يمتلك الاستمرارية التي تفتقدها هي. فهو لا يتسرب ولا يختفى بين الحين والآخر، فهو هنا دائمًا، فأمنية البقاء في الوجود، التي تعد أكبر أمانى الكتلة والتي تتبدد دائمًا، يقدمها هو كأمنية تم تحقيقها بالفعل. فالبحر هو الشامل الجامع غير القابل للامتلاء. فكل الأنهار والتيارات يمكن أن تصب في البحر فيزداد حجمه من خلال ذلك بالفعل. وهو لا يتغير فالإنسان يشعر دائمًا بأنه هو البحر نفسه. وهو كبيرٌ على النحو الذي يستطيع أن يكون به مثالًا للكتلة التي تريد دائمًا أن تصير أكبر حجمًا. فعلى هذا القدر من الحجم تريد

أن تصبح الكتلة مثل البحر، ومن أجل الوصول إلى ذلك فإنها تجذب مزيداً من الناس. وفي كلمة "المحيط" يكون البحر قد وصل إلى شيء كالسمو. فالمحيط كوني، إنه هو الذي يمتد إلى كل مكان والذي يمتد إلى كل بلد، وهو الذي تسبح عليه الأرض طبقاً للتصور القديم. فإن لم يكن البحر غير قابل للامتلاء فإن الكتلة لن يكون لديها تصور عن عدم شبعها هي. وقد لا تستطيع أن تكون واعية للغاية بداخلها، بدافعها العميق والغامض إلى جذب البشر أكثر فأكثر. أما المحيط الذي تراه بالطبع فإنه يعطيها حقاً أسطورياً في إلحاحها الذي لا يقهر في الكونية. ورغم أن البحر متقلب في انفعالاته فهو يستطيع أن يهدأ ويهدد ويمكن أن ينطلق في عواصف، لكنه هو دائماً هنا. والإنسان يعرف أين يكون، فموقعه صريح لا يمكن حجبها، وليس لديه ما ينشأ دفعةً واحدة من فراغ، فهو يفتقر إلى سرية وفجائية النار وهي تقفز في وجوهنا كأنها نشأت من عدم، كحيوانٍ كاسر. وعلى هذا يتوقع ظهورها بأي مكان. أما البحر فالإنسان يتوقع وجوده هناك حيث عرف ذلك على وجه اليقين، ورغم ذلك لا يمكننا القول بأنه خالٍ من الأسرار، فسره لا يكمن في فجائيته، وإنما في فحواه. إنها حياة الكتلة الجماهيرية المكثفة المفعم هو بها، وهي من خصائص البحر. وهكذا تزداد روعة هذا الكيان سموًا من خلال التفكير في فحواه. إنها كل النباتات وكل الحيوانات التي يحتويها بكميات هائلة. وليس للبحر حدودٌ داخلية، وهو غير مُقسَّم شعوبًا ومناطق، وهو يمتلك لغةً واحدة في كل مكان، وليس هناك على نحوٍ أو آخر إنسانٌ يستطيع الامتناع عنه. إنه شامل إلى حد أنه لا يتناسب مع واحدةٍ من الكتل المعروفة لدينا. لكنه هو مثال الإنسانية المكتفية بذاتها التي يصب فيها كل شيء والتي تحتوى كل شيء.

المطر

في كل مكان يشعر الإنسان بالمطر قبل هطوله كوحدةٍ خاصةً هناك، حيث يكون نادرًا. فهو يجيء كسحابةٍ فيغطي السماء أولاً ليظلم الجو قبل أن تمطر السماء ليغطي اللون الرمادي كل شيء. ومن تلك اللحظة، بعد التيقن من قدوم المطر، قد يتولد لدى الإنسان وعيٌ متوحد أكثر من الحدث نفسه. فالإنسان يعلق آمالاً كثيرة على انهماره، وقد تتعلق حياته بسقوط المطر. فلما كانت

تلبية النداء ليست ممكنة دائماً فقد استعان الإنسان بالسحر. فهناك وسائط عديدة ومختلفة لإغرائه. ويسقط المطر في قطرات كثيرة يراها الناس، كما يرون، على نحو خاص، اتجاهها. وفي كل اللغات يقال: "إنه يسقط"، والإنسان يرى في المطر خطوطاً كثيرة متوازية. ومن خلال عدد القطرات المنهمرة تبرز وحدة اتجاهها. ولا يوجد اتجاه يترك لدى الإنسان انطباعاً أعظم من اتجاه السقوط. فكل الاتجاهات الأخرى، مقارنةً بالسقوط، تعتبر ثانويةً ومشتقة منه. فالسقوط هو أكثر ما يخشاه الإنسان منذ القدم. وهو أول شيءٍ تسلح الإنسان لمواجهته، كما عرف كيف يحمي نفسه من ذلك، والفشل في ذلك بعد بلوغ سن بعينها يُعتبر خطراً أو باعثاً على السخرية. أما المطر فهو على نقيض الإنسان، فهو يجب أن يسقط. وليس هناك ما يسقط على هذا النحو من التكرار والتنوع مثل المطر. وقد يقلل عدد القطرات شيئاً ما من ثقل وقسوة السقوط. فالناس يسمعونها ترتطم، وهو ما يمثل صخباً لطيفاً، ويشعرون بها على جلودهم وهو أيضاً شعورٌ لطيف. وقد لا يكون من المهم أن تشارك على الأقل ثلاث حواسٍ في معايشة المطر: البصر والسمع والشعور. وكل هذه الحواس تتلقاه كشيءٍ متنوع. أما الحماية منه فهي أمرٌ يسير، فهو نادراً ما يمثل تهديداً خطراً على الإنسان. والإنسان يشعر بارتطام القطرات على أنها نوعٌ واحد. وتوازي الخطوط وتشابه الصخب ونفس الشعور بالبلل، الذي تستدعيه كل قطرةٍ على الجلد، كل ذلك من شأنه التأكيد على تساوى القطرات. ويمكن للمطر أن يكون أكثر أو أقل عنفاً، فكتافته تتبدل، وعدد قطراته يخضع لتقلباتٍ كبيرة. ولا مناص من توقع زيادته المستمرة، بل إن الإنسان يدرك أن له نهاية. وهذه النهاية تعنى أن قطراته سوف تتسرب في الأرض دون أثر. ومهما صار المطر رمزاً للكتلة فإنه لا يمثل حالة أوضح وأكثر اطراداً من الحالة التي تمثلها النار. فالدوام ليس من سماته. ولا يملك شيئاً من عدم نضوب البحر إلا أحياناً فقط. إن المطر هو الكتلة في لحظة تخلصها من الكبت، وهو يدل على تفتتها أيضاً. فالسحب التي ينشأ عنها قد استحالت مطراً. ولعدم قدرتها على البقاء معاً فإن القطرات تتساقط، ويظل الأمر غير واضحٍ إن كانت ستتجمع ثانيةً وكيف.

النهر

إن أكثر ما يثير الانتباه في النهر هو اتجاهه. فهو يتحرك بين ضفافي هادئة، يظل مروره بينها مرئيًا دائمًا. وعدم سكون كتلة مائه المتتابة بلا توقف، ما دام النهر نهرًا، على الإطلاق وحسم الاتجاه كله حتى لو تبدلت بعض التفاصيل، والإصرار على الاتجاه نحو البحر والتغذى على أنهار أخرى أصغر حجمًا - كل هذا له طبيعة كتلة جماهيرية لا سبيل لإنكارها- وقد أصبح النهر كذلك رمزًا لها ولكنه لا يصل إلى حد الكتلة المطلق. فالحدود الملزمة لا تساع عرضه لا تمكنه من الازدياد على نحو متصل أو غير متوقع، وهذا ما يجعل النهر كرمز للكتلة يحتفظ بشيء مؤقت. فهو هنا من أجل المواكب. أما الناس الذين يشاهدون تلك المواكب على جانبي الطرقات فيكونون مثل الأشجار على الضفة، فالثابت يحتوى السائل. والتظاهر في المدن الكبيرة يتخذ شخصيةً مشابهة للنهر. فمن أحياء مختلفة تنثال الروافد حتى يتكون التيار الرئيسي بالفعل. فالأنهار على نحو خاص هي رمز للزمن الذي تتكون في أثنائه الكتل، أى أنه الزمن الذي لم تكن حققت فيه بعد ما كانت تسعى للوصول إليه. والنهر يفتقر إلى انتشار النار وكونية البحر، لكنه يصل إلى الذروة في اتجاهه. ولما كان الاتجاه في اندفاع مطرد فإن هذا يعنى أنه كان موجودًا منذ البدء على نحو ما. ويبدو اتجاه النهر كأنه معين لا ينضب. وهو ما قد نعتبره أكثر أهمية من هدفه. إن النهر هو الكتلة في زهوها، هو الكتلة التى تمثل نفسها. كما يمثل وجوب رؤيته أساسًا لا يقل أهمية عن الاتجاه. ومن دون ضفافي لا يكون هناك نهر، واصطفاف النباتات على ضفافه يماثل اصطفاف الإنسان. وقد نقول بأن للنهر وجهًا يسعى للظهور. فكل الأشكال الشبيهة بالنهر كالمواكب والتظاهرات تظهر وجهها بأقصى قدر ممكن. فهي تمتد قدر ما تستطيع، وهي تستعرض ذلك أمام من يشاهدونها بأقصى قدر. وهي تريد اكتساب الإعجاب أو الرهبة. أما هدفها المباشر فليس مهمًا بالفعل، وإنما المهم هو قدر بعد المسافة الذى يفصلها عن الهدف، أى طول الطرقات التى على امتدادها. وليس من الضرورة أن تكون كثافة المشاركين عالية، فكثافة المشاهدين أعظم. كما ينشأ نوع خاص من الكثافة بين المشاركين والمشاهدين، فهي تشبه ما يسمى بـ"تقارب المحبين"، بين مخلوقين طويلين يحتضن أحدهما الآخر بروية ورفق. أما النمو فينتج عن المنبع من خلال روافد محددة بدقة. وتساوى قطرات الماء في النهر أمرٌ بديهى إلا أنه يحمل كل ما

هو مختلف. وما يحمله مقارنةً بمكانته يكون أهم وأكثر تحديدًا من بعض ما يحمله البحر والذي يختفى على سطحه الهائل. فإن لخصنا كل هذا فإننا نستطيع القول بأن النهر يعتبر رمزًا للكتلة في إطار حدود بعينها، وهو مختلفٌ عن النار والبحر والغابة والبذرة، فهو رمزٌ لحالةٍ ما زالت تحت السيطرة تسبق مرحلتى الانطلاق والتخلص من الكبت اللتين يكون تهديدهما أكبر من حقيقتهما، فالنهر رمزٌ للكتلة البطيئة.

الغابة

الغابة فوق الإنسان. فقد تكون منغلقةً، ومما فيها كل أنواع العشب. وقد يبذل المرء جهدًا للدخول إليها ومجهودًا أكبر للتقدم داخلها. أما كثافتها الحقيقية التى تميزها حقًا فهى أوراقها التى هى أعلى. إنها أوراق جذوع مفردة تتشابك مع بعضها البعض مشيدةً سقفًا مرتبطًا ببعضه البعض. إنه هو الورق الذى يمنع الضوء والذى يلقي بظل الغابة الكبير الجماعى.

والإنسان بانتصاب قامته يكون مثل الشجرة فى اصطافاه مع غيرها من الأشجار، لكنها أكبر منه كثيرًا، ويكون عليه التطلع إليها. ولا يوجد محيط الإنسان ظاهرةً طبيعية أخرى تكون دائمًا فوقه وقريبةً منه وعلى مثل هذا التنوع. فالسحب تنقشع، والمطر يتسرب فى الأرض، والنجوم بعيدة. فليس هناك من كل هذه الظواهر المتنوعة المؤثرة من علٍ ما يقارن بقرب الغابة الدائم. ففيها يمكن الوصول إلى قمة الأشجار، ويتسلقها الإنسان، ويجنى ثمارها، وقد عاش الإنسان أعلاها. أما الاتجاه الذى يجذب نظر الإنسان، هو اتجاه خاص بتغيرها، فالغابة تنمو دائمًا إلى أعلى. ومساواة جذوعها هى فى حقيقة الأمر مساواةً للاتجاه، فمن يوجد مرةً بالغابة يشعر بالألفة. فهو ليس على قمته حيثما تواصل نموها وهو ليس بالموضع الذى تصل فيه كثافتها أقصى درجاتها. وهذه الكثافة تحديدًا تمثل حمايته، والحماية تأتى من علٍ.

هكذا صارت الغابة مثالاً للتبتل، فهى ترغم الإنسان على التطلع ممتنًا لحمايته العلوية. إن التطلع إلى كثيرٍ من الجذوع يصبح هو "التطلع" على إطلاقه. والغابة هى التى أسست للشعور الكنسى، أى المثول بين يدى الله فى ظل أساطين وأعمدة. وتجليها الأكثر مساواةً والأكثر كمالاً هو ما تبدى فى قباب الكاتدرائية،

أى تضافر كل الجذوع في وحدةٍ أعلى غير قابلة للانقسام. وهناك عنصرٌ آخر من عناصر الغابة لا يقل أهميةً، وهو عدم قابليتها للتحرك عن مكانها، فكل جذع بحد ذاته يضرب بجذوره في ثبات في باطن الأرض ولا يتراجع أمام أى تهديد من الخارج. أما صلابتها فمطلقةٌ، فهي لا تنحرف عن مكانها، حيث من الممكن قطع أشجارها، ولكن لا يمكن تحريكها. وعلى هذا صارت رمزًا للجيش المنتظم، جيش لا يولى الأدبار تحت أى ظرفٍ، جيش يتهاوى حتى آخر رجلٍ قبل أن يتنازل عن موطنٍ قدم من الأرض.

البذرة

إن البذرة، على نحوٍ أو آخر، هى غابةٌ مصغرة. فهي تنمو حيث كانت الغابة في الماضي، لكنها لن تصل إلى ارتفاعها، وهى خاضعةٌ لسلطة الإنسان وعمله فهو من يبذر ويحصد، وهى مرنةٌ مثل العشب المعرض لكل آثار الرياح. وفي إطار قواعد عتيقةٍ يقوم الإنسان بعمله حتى تنمو البذور، وكل السنابل تنحنى معًا أمام حركة الرياح، فينحنى الحقل كله فجأةً، وفي أثناء العواصف يسقط تمامًا ليظل راقدًا طويلًا على هذه الحال، إلا أنه يمتلك قدرةً غامضة على الانتصاب مرةً أخرى، فإذا لم يتعرض لدمارٍ شامل فإن الحقل كله ينتصب فجأةً مرةً أخرى. أما السنابل فهي مثل الرءوس المثلثة فهي تنحنى لأحدهم أو تتحول عنه حسبما يهب الريح. والبذرة عادةً تكون أقل ارتفاعًا من الإنسان إلا أنه يظل دائمًا هو سيد البذور حتى لو صارت هذه أعلى من رأسه فهو يحصدها معًا، كما نمت معًا، وكما تم بذرها معًا، وحتى العشب الذى لا يفيد الإنسان يظل معًا. ولكن إلى أى مدى يجمع المصير المشترك بين البذور التى تم بذرها وحصادها وحملها ودرسها وتخزينها، فما دامت تنمو فإنها تظل بجذورٍ ثابتة وهى لا تستطيع الابتعاد عن العيدان الأخرى، فكل ما يحدث دائمًا يحدث لكل العيدان. فهي موجودةٌ هنا بكثافة، وارتفاعها لا يختلف ارتفاع عن البشر، فهي في مجموعها تعطى انطباعًا بالمساواة في الارتفاع. أما إيقاعها، إذا ما حركتها الريح، فيبدو مثل الرقص البسيط. إن تساوى البشر في مواجهة الموت تجسده صورة سقوط الحبوب، إلا في حالة سقوطها في وقتٍ واحد، ليزدَّ ذلك بموتٍ محدد، أى الموت الجماعى

في المعركة، حيث يتم "حصد" أرواح صفوفٍ كاملة. فالحقل يماثل ميدان¹ المعركة. إن مرونة الانحناء تصير خضوعًا، فهي مثل جمعٍ من رعايا مخلصين لا تخطر المقاومة ببالهم، فهم يقفون هناك في طاعةٍ تنطوى على شيء من خوفٍ ما، على استعداد لتلقى كل الأوامر، حتى إذا جاءهم العدو دُهِسُوا بلا رحمة.

إن أصل البذرة التي تخرج من كوم، أي من البذور، لهو أمرٌ مهم ذو دلالةٍ، مثله مثل أكوام الحبوب التي تُجمَع فيها في النهاية، سواء كانت تحمل سبع سنابل أو مئة سنبل، فإن الأكوام التي تُجمَع فيها تكون قد تكاثرت على نحو أكبر من تلك التي جاءت هي منها. فإذا ما نمت وظلت معًا تكون قد تكاثرت. وفي هذا التكاثر تكمن بركتها.

الريح

مع تبدل قوة الريح يتبدل صوتها، إذ يمكنها أن تنشج أو تعوى بصوت خافت أو مرتفع. ويصدر عن الريح كل أنواع الأصوات إلا قليلًا. وعليه فإن أثرها كشئٍ حى، بعد وقتٍ طويل من فقدان ظواهر طبيعية أخرى حيويتها بالنسبة للإنسان. وبخلاف صوتها فإن اتجاهها هو الأكثر لفتًا للانتباه. ومن المهم معرفة من أين أتت، كي تُسمى به. فإذا حاصرت الريح الإنسان من كل مكان فإن الضربات التي يتلقاها منها تترك آثارها في جسده، فيشعر أنه مستسلم لها كليَّةً، وأحيط به، فهو في مهب الريح، يتقلب في عاصفتها ويطيح بكل شيءٍ يمسه.

إننا لا نرى الريح، لكن الحركة التي تدفع بها إلى السحاب وأوراق الشجر والأعشاب تجعلها ظاهرة، وتلك الظاهرة متعددة الوجوه. ففي أناشيد الـ"فيدا"⁽³⁷⁾ تظهر آلهة العواصف الـ"ماروتس" دائمًا في شكلٍ جماعي، فهناك منها ثلاثة أضعاف السبعة أو ثلاثة أضعاف الستين، وهم إخوة في العمر نفسه، يسكنون المكان نفسه، كما ولدوا بالمكان نفسه. وأما ما يصدر عنهم من صخب فهو الرعد أو أزيز الريح، وكل منهما يزلزل الجبال ويسقط الأشجار ويلتهم الغابات مثل أفيالٍ وحشية. وغالبا ما يُطلق عليهما لقب المغنين، أو غناء الريح. إنهما قويان

1 في الأصل: حقل المعركة (المترجم)

غاضبان مروعان مثل الأسود، لكنهما يتسمان باليقظة والحيوية ولهو الأطفال أو صغار الأبقار.

إن المساواة الموهلة في القدم بين النفس والريح تبرهن على مدى تركيز الإنسان في استشعاره الريح، لأن لها كثافة التنفس، لكن عدم رؤيتها تحديداً هي التي تجعلها تتماثل مع الكتل غير المرئية، وبهذا تتساوى مع الأرواح التي تأتي عاتيةً مثل العاصفة والجيش الكاسر، فهي أرواحٌ في سبيلها إلى الفرار التي عبر عنها كاهن الإسكيمو. فالرايات ما هي إلا ريح مرئية صنعناها بأيدينا، فهي مثل قطع جذاذ اقتطعت من السحاب، لكنها أكثر منها قرباً واختلافاً، وهي ثابتة لا يتغير شكلها، وهي تلفت الانتباه بالفعل من خلال حركتها. والشعوب تستغل الريح لرفع راياتها لتعلن امتلاكها للهواء فوق أراضيها.

الرمل

من بين صفات الرمل المهمة في هذا السياق يمكن هنا إبراز صفتين هامتين للغاية وهما صغر الحجم، وتساوي أجزائه. وهذه هي الصفة الوحيدة لأننا نشعر بحبات الرمل بأنها متساوية من خلال صغر حجمها فقط. أما الصفة الثانية فهي لانهائية الرمل، وهي ما لا يمكن أن تدركها الأبصار، فهو هناك دائماً أكثر مما تستطيع العين احتواءه، فإن ظهر في أكوام صغيرة فإننا لا ننتبه إليه، وهو يسترعى الانتباه حيثما يصعب حصر كميته، مثل الرمال على شاطئ البحر أو في الصحراء. أما الحركة غير المنقطعة للرمل فينتج عنها أنه يوجد تقريباً في الوسط بين رموز الكتلة السائلة ورموزها الصلبة. وهو يكون أمواجاً مثل البحر ويمكن أن يتبخر ليتحول إلى سحب. أما الغبار فهو رملٌ أكثر دقةً. والتهديد هو أحد ملامحه المهمة، أي تهديد الرمل للإنسان الفرد كشيءٍ عدواني هجومي. والصحراء متسقة الشكل ذات الحجم الهائل والخالية من الحياة تواجه الإنسان بقوة لا يكاد يصمد أمامها. فهي تتكون من جزئياتٍ متساوية لا تحصى. وهي تخنقه مثل البحر، لكن على نحوٍ أكثر خبثاً لأن ذلك يستغرق وقتاً أطول.

وقد اكتسب الإنسان خبرةً من خلال علاقته برمل الصحراء فاستخدم بعض أساليبه في القضاء على أسراب كبيرة من أعداءٍ صغيرة الحجم، وذلك بعد أن رأى تماثل قضاء الرمل على كل شيء مع الخراب الذي يسببه الجراد. فالإنسان الذي

يزرع النبات يخشى الجراد مثل خشيته للرمل، فما يتركه خلفه لا يكون سوى صحراء. ومما يثير العجب هو إمكانية الرمل أن يكون رمزاً للنسل. وهناك حقيقة شهيرة بالكتاب المقدس تبرهن على مدى أهمية أمانة التكاثر الهائل. والمعنى هنا لا يقتصر على الكفاءة وحدها، بل يعنى أن المرء يبنى نفسه بمجموعة كبيرة من أبناء أقوياء مستقيمين، لكن من أجل مستقبل مستمر عبر الأجيال، فإن الأمر يدور هنا حول عدد أكبر وليس حول مجموعات أو أسراب. وهنا تكون الأمانة (المرء هي كتلة) كثرة النسل. ومن بين الكتل التي عرفها الإنسان كانت كتلة الرمل هي أكبر كتلة غير محصورة العدد ولا يمكن إحصاؤها. أما مدى ضالة قيمة ما يتمناه الفرد من النسل فإننا نراه في رمز مشابه لادن الصينيين، فهم يساوون بين النسل وبين أسراب الجراد. وتكون نوعية عدوها وتماسكها واستمرارها أمراً ملزماً للنسل. وهناك رمز آخر يستخدمه الكتاب المقدس للنسل وهو النجوم. وهنا يتعلق الأمر بعددها الذي لا يحصى ولا يرتبط بنوعية فرادى النجوم الرائعة. وإنما المهم هنا هو بقاؤها وأنها لا تذبل وأنها دائمة.

الكومة

لقد قام الإنسان بجمع كل الأكوام التي ألقى بها شيئاً ما. فوحدة الكومة التي تتألف من ثمار أو حبوب ما هي إلا نتاج نشاط ما. فقد عملت أياد كثيرة على الحصاد أو القطف، وهذان مرتبطان بزمن محدد من العام له أهمية قاطعة، وهوما استنبط منه أقدم تقويم للسنة. كما نظمت الأعياد التي يحتفل فيها الناس بفرحتهم بالأكوام التي أنجزوا جمعها. وهم يعرضونها فخورين بها. وغالباً ما تقام هذه الأعياد حول هذه الأكوام. أما ما تم جمعه فهو ذو طبيعة من نوع واحد، أي نوع محدد من الثمار أو نوع محدد من الحبوب، وهو مكس على نحو مكثف بقدر الإمكان مع بعضه البعض. وكلما كان تكثيفه أكثر كان ذلك أفضل، لأن الكثير منه يكون في متناول اليد فلا يضطر المرء لجلبه من مكان آخر بعيد. وحجم الكوم أمر مهم، فهو من دواعي فخر الناس. فعندما يزداد الحجم بما فيه الكفاية فإنه سيكفى الجميع أو يكفى لفترة طويلة. وما إن يعتاد الإنسان على الأخذ من الأكوام فإن حجمها يتناقص. وأحب شيء هو تذكر السنوات التي جلبت أكثر البركات ثراءً. وما إن عرف الإنسان الحوليات حتى قام

بتدوينها. على أن أسعد السنوات والمحاصيل تتنافس مع بعضها البعض من سنة لأخرى ومن مكان لآخر، سواء كانت خاصةً بجماعةٍ أو أفراد فإن هذه الأكوام تكون نموذجية وتضمن الأمان لهم. وفي واقع الأمر فإنه يتم استهلاكها مرةً أخرى على نحوٍ مفاجئٍ تمامًا في حالاتٍ معينة في بعض الأماكن، أو تستهلك على نحوٍ بطيءٍ أحيانًا حسب الحاجة. فاستمرارها محدودٌ ونقصانها، كما تصوره الإنسان، يكمن فيها من البداية. أما جمعها مرةً أخرى فيخضع لإيقاع الفصل السنوي أو فصل المطر. وكل أنواع الحصاد هو تكديسٌ إيقاعي، وهذا الإيقاع هو الذي يحدد إقامة الأعياد.

كومة الأحجار

ورغم ما سبق ذكره فإن هناك أكوامٌ أخرى مختلفة تمامًا، وهى لا تنطوى على لذة أو متعة تذكر. فالأحجار يتم تكديسها لأنه من الصعب تفكيكها ثانيةً من بعضها البعض. ويقوم الإنسان بوضع قواعد بنائها لتستمر لأمد بعيد كنوع من التخليد. وهى لا ينبغي أن تتناقض أبدًا، فعلیها أن تبقى على ما هى عليه. والأحجار لا مكان لنزهة لها في أية معدة بشرية، وليس على الدوام يقيم بداخلها الإنسان. وفي أقدم شكل من أشكالها كان كل حجر على حدة مخصص لكل واحد من بنى البشر ساهم به في تكديس أكوام منه، ثم تنامى فيما بعد حجم ووزن مكوناته، وصار لا يقدر عليه إلا جمع من البشر مع بعضهم البعض، ومهما كان تصورنا عن مثل هذه الأكوام فإنها تنطوى على جهدٍ جهيدٍ لسبلٍ وعرةٍ لا حصر لها. وغالبًا ما يمثل إنجازها لغزًا، فكلما قل فهمنا لسر وجودها، وكلما تباعدت المسافات بيننا وبين أصول وجودها وطالت المسالك للوصول إليها، زاد تصورنا لعدد البشر المشاركين في التشييد بالأحجار، وتفاقم الانطباع الذى تركته في نفوس كل البشر الذين جاءوا بعد ذلك. فأولئك يهيمنون بخيالهم في مدى الجهد الإيقاعي الذى بُذل لكثير منها، ولم يتبق منه سوى هذا التذكار غير القابل للتدمير.

الكنز

والكنز كذلك مثل كل الأكوام التى تم جمعها، إلا أنه -على النقيض من الثمار والمحاصيل- يتكون من وحداتٍ لا سبيل للتمتع بها وغير قابلة للفناء. أما الأمر المهم فى ذلك فهو القيمة الخاصة بهذه الوحدات، وليس أكثر من ثقة ما تبقى على دوام هذه القيمة كقيلة بالإغراء لتكوين الكنز. إن الكنز ما هو إلا كومة ينبغي أن تبقى على حالها وتنمو دون إزعاج. فإن كان ملكًا لأحد الأقوياء فإن ذلك يغرى أقوياء آخرين على سرقة. فالمكانة التى يوفرها لملكه تجعله فى خطر. وقد نشبت حروبٌ ونزاعات مسلحة حول الكنوز، وكان فى مقدور البعض أن يعيش حياة أطول بأصغر كنز لديه. ولذلك نشأت ضرورة الاحتفاظ به سرًا. وعلى هذا نجد أن ما ينطوى عليه الكنز من خصوصية يكمن فى التوتر القائم بين البريق الذى ينشره والسرية التى تحميه. وفى الكنز تجلت الرغبة فى طفرة العدد فى أوضح صورها. فكل عمليات رصد العدد التى استهدفت نتائج مطردة عن الماشية أو البشر، على سبيل المثال، لا تستطيع أن تصل إلى نفس قيمة وحدات المعداد من الكنز. فصورة المالك الذى يُحصى ما بكنزه سرًا قد ترسخت فى وعى الإنسان بعمق لا يقل عن الأمل فى اكتشاف الكنز فجأة، حيث إنه مخبأ على نحو جيد بحيث لا يكون ملكًا لأحدٍ ويظل منسيًا فى مخبئه. وقد استبد هذا الطمع المفاجئ فى الكنوز بجيوشٍ غاية فى التنظيم، فتقطعت أوصالها، وبسببها أيضًا انقلبت انتصاراتٌ كثيرة إلى النقيض. وقد وصف لنا بلوتارخ فى حياة "بومباي"⁽³⁸⁾ تحول جيشٍ إلى كومة من مقابر الكنوز قبل خوض كل معركة: "ما إن رسا بومباي بأسطوله عند كارتاجو حتى انضم إليه من صفوف الأعداد سبعة آلاف رجل. وكان هو نفسه قد جاء بست فرقٍ كاملة إلى إفريقية. وهنا وقع له حادثٌ مضحك، فقد عثر بعض الجنود على ما يقارب الكنز. فحصلوا على مبالغ ضخمة من المال. فلما (اشتهر) ذاع الأمر، ظن كل الجنود الآخرين أن هذه الناحية لا بد أن تكون مليئةً بكنوزٍ كان أهالى كارتاجو قد دفنوها آنذاك بعد نكبتهم. فلم يعد بومباي قادرًا أن يحسم أمرًا لأيامٍ طويلة مع جنوده الذين لم يكن همهم سوى التنقيب عن الكنز. فصار يتجول ضاحكًا وهو يشاهد آلافًا (كثيرة) من البشر وهى تنقب وتحث الأرض. وفى نهاية المطاف يسوا من الأمر ودعوا بومباي لقيادتهم أينما شاء بعدما عوقبوا بما فيه الكفاية على حماقتهم".

إلا أنه إضافة إلى تلك الأكوام الخفية الساحرة توجد أكوام أخرى يتم تكديسها علناً، مثل الضريبة الطوعية على أمل أنها ستكون بعد ذلك من نصيب واحد فقط أو قلة من الناس، وإلى هذه تنتمي كل أنواع "الرهان" فهو تكديس سريع للكنوز. فالمرء يعرف أنه بعد الإعلان عن "الرهان" سوف يتم تسليمها لسعيد الحظ. وكلما قل عدد هؤلاء الذين سيؤول إليهم ذلك في النهاية كان تعاظم الكنز وكانت جاذبيته أقوى. إن الطمع الذي يربط الناس بمثل هذه الحالات يشترط ثقة مطلقة في "وحدة" الكنز. ويصعب على المرء وضع تصور مبالغاً فيه عن قوة هذه الثقة. فالإنسان يضع نفسه على قدم المساواة مع وحدة ماله. والارتياح في ذلك يكون بمثابة الإهانة له، واهتزازه يصيبه باهتزاز ثقته في نفسه، وخفض قيمة وحدة ماله يصيب الإنسان نفسه، فتخفيض قيمته هو أيضاً. فإذا ما زادت وتيرة هذه العملية، وبلغ الأمر حد التضخم، اجتمع البشر ممن خُفِّضَت قيمتهم في شكل يكون علينا مساواته برمته بكتل الفرار. فكلما زادت خسارة الناس ازداد توحد مصيرهم. وإذا استحوذ الذعر على فرادى كثيرين كانوا قادرين على إنقاذ شيء ما لأنفسهم، فإن الأمر يتحول إلى فرار جماعي لدى كل الآخرين الذين تساوا في حرمانهم من أموالهم. وتبعات هذه الظاهرة التي كان لها مدى غير محدد تاريخية في هذا القرن (العشرين) وسيتم معالجتها في فصل خاص بها.

الحشد والحشود

كانت كل من بلورات الكتلة والجماهير، بالمعنى الحديث للكلمة، قد نشأت عن وحدةٍ أكثر قدمًا واجتمعتا فيها. وهذه الوحدة الأقدم هي ما نسميه بالحشد أو التجمهر. ففي جماعاتٍ صغيرة متنقلة وضيئلة العدد، تتكون من عشرة إلى عشرين رجلاً، كان الحشد هو الصورة المعبرة عن الانفعال الجماعى التى نراها فى كل مكان. ومما يميز طبيعة الحشد هو أنه ليس بمقدوره التنامى. فلا يوجد فى أى مكان بشرٌ بإمكانهم الانضمام إلى هذه الجماعة المتجمهرة. فالحشد أو التجمهر يتكون من مجموعة رجالٍ غاضبين تكون أعظم أمانيتهم هو ازدياد عددهم. وكل ما يقومون به يكون فعلاً جماعياً، سواء فى خروجهم للصيد أو الحرب، وهم يرون أنه كان من الأفضل لهم أن يكون عددهم أكبر. والمجموعة المكونة من أعضاء قليلين إلى هذا الحد تعتبر كل فردٍ ينضم إليها هو نموُّ لها، واضحٌ ومهم ولا غنى عنه. فالقوة التى يضيفها هذا إليها تماثل 10/1 أو 20/1 لمجموع قوتها. والمكانة التى يحتلها يحترمها الجميع، حيث إنه يمثل بالفعل إضافةً إلى إجمالى أسرة المجموعة، وهذه مكانةٌ (ما لن يستطيع بلوغها) يصعب أن يبلغها أحدٌ منا اليوم.

وفى الحشد الذى يتشكل من حينٍ لآخر من الجماعة وتظهر شعورها بأنها "وحدة" على أقوى وجه، لا يشعر الفرد مطلقاً فى إطارها بالضياح كليةً، مثلما

يشعر الإنسان الحديث اليوم في أية كتلة جماهيرية أيًا كانت. ودائمًا ما يقف على حافة الحشد من حينٍ لآخر في أحوالها المتبدلة وفي رقصاتها وحملاتها، ثم ينتقل إلى داخلها ليعود إلى الحافة على الفور، ثم إلى داخلها في الحال. فإذا كونت مجموعة الحشد حلقةً حول نارٍ لها يكون لكل فردٍ جأراً عن يمينه أو عن يساره، إلا أن ظهره يكون عاريًا، أي أنه يكون قد سُلم للوحوش. فالكثافة داخل الحشد تنطوي على خداعٍ ما، فقد يتلاحم أفرادها ويؤدون حركاتٍ إيقاعية موروثة على أنهم كثيرون، لكنهم ليسوا هكذا، فهم قليلون، وما ينقصهم من كثافةٍ حقيقية يعوضونها من خلال المبالغة.

ومن السمات الأربع الجوهرية للكتلة، كما عرفناها، هناك اثنتان منها في الحشد يكون وجودهما تخيلياً وعلى غير الحقيقة، وهذا يعنى أن هناك تمثيلاً لاستدعائهما وتمثيلهما بإصرار شديد، وفي المقابل تكون الصفتان الأخريان حاضرتين في الواقع على نحوٍ أكثر قوة. فالنمو والكثافة يتم تمثيلهما. أما المساواة وتحديد الهدف فحاضرتان. وأول ما يلفت الانتباه في الحشد هو وضوح اتجاهه. إلا أن المساواة تتجلى في هوس الجميع بالهدف نفسه، فهم مهووسون مثلاً بمشهد حيوانٍ ما يريدون قتله.

والحشد محدود على أكثر من وجهٍ، ليس فقط بقلّة عدد المنتمين إليه نسبياً، أي عشرة أفراد أو ربما عشرين أو أكثر من ذلك في النادر، فهم يعرفون بعضهم البعض جيداً لأنهم عاشوا معاً دائماً، وتعلم كل منهم تقدير الآخر على أفضل وجهٍ في أثناء أنشطةٍ مشتركة كثيرة. والحشد لا يتنامى على نحوٍ غير متوقع إلا نادراً، إذ إنه يتكون من أعدادٍ قليلة من البشر يعيشون في مثل هذه الظروف، مبعثرين للغاية. ورغم أنه يتكون من معارف فقط فإنه متفوق في إحدى النقاط الخاصة بالكتلة التي تتسم بالقدرة على التنامى إلى ما لا نهاية. لو حدث أيضاً أن تفرق الحشد جراء ظروفٍ معاكسة فإن أعضائه يتلاقون من جديد، حيث إنه يحافظ دائماً على استمرارية كيانه، وهذه الاستمرارية مكفولة ما دام المنتمون لهذا الحشد على قيد الحياة. ولعل الحشد يشرع في تطوير قواعد وطقوس محددةٍ يجب عليه تنفيذها، فالأمر يقوم على وجود ثقة فيما بين أعضائه، فهم يعرفون هدفهم ولا يسمحون بإغوائهم نحو وجهةٍ أخرى. ومثل هذه الإغراءات (نادرة) لا قيمة ولا وزن لها بحيث يمكن أن تشيخهم عن عادةٍ لهم.

ومهما تضخم حجم الحشد فإن نموه الكمي يحدث بتفاهيم متبادل بين المشاركين. فثمة حشد يتكون من مجموعة ثانية يمكن أن يصطدم بالأولى، وإن لم يتطور الأمر إلى صراع فيما بينهما، فمن المحتمل أن يجتمعا على أنشطة عابرة. إلا أن كلاً منهما يحتفظ دائماً بوعيه المستقل الذي قد يختفى في حمية الفعل المشترك لفترة ليست طويلة. لكنه يظهر مرةً أخرى عند توزيع المناصب الرفيعة أو في طقوس أخرى على كل حال. والشعور بالكتلة (بالجماهير) نفسها يظل أقوى من شعور الفرد عندما لا يشارك مجموعة حشده. إن شعور الكمي للحشد يكون حاسماً في إطار مستوى معين من الحياة الإنسانية الجماعية، ولا يمكن لأي شيء أن يزعه.

إن مفهوم الوحدة في الحشد هنا يتناقض عن كل ما تتصف به أي وحدات أخرى مثل القبيلة والعشيرة والعائلة. فتلك المفاهيم السوسيولوجية المعروفة، مهما كانت مهمة، إلا أنها ساكنة لا حراك بها. وفي المقابل نجد الحشد وحدة لحركة ومظهرها يتجلى واضحاً في فعل ملموس. ويتحتم على كل من شاء البحث في أصول سلوك الكتل الجماهيرية أن ينطلق من هذا المفهوم. فالحشد هو أقدم أشكال الكتل الجماهيرية وأكثرها تحديداً بين البشر. وقد كانت هناك بالفعل قبل أن توجد الكتل البشرية بمعناها الحديث. وهي تتبدى في أنواع مختلفة يمكن التعرف عليها جميعاً بسهولة. فقد كان نشاطها منذ عشرات الألوف من السنين على نحوٍ من كثافة جعلها تؤثر في كل مكان. وكذلك في عصرنا، المختلف تماماً في شكله عما سبقه، ما زال هناك بعض الأشكال حيةً ترجع جذورها إليها مباشرةً.

وقد ظهر الحشد منذ الأزل في أربعة أشكالٍ أو وظائف مختلفة كانت تتمتع بالمرونة، وهي تتداخل مع بعضها البعض بسهولة. لكنه من الواجب تحديد الاختلاف فيما بينها قبل كل شيء، فأكثر أنواع الحشد طبيعيةً وأصالَةً كان حشد الصيد، إذ يُشتق منه مفهومنا عن الحشد. فهو يتشكل في كل مكان يرتبط فيه الأمر بحيوانٍ خطر أو قوى لا يستطيع الفرد وحده اقتناصه إلا بمشقة. وهو ينشأ أيضاً حينما تلوح غنيمة على نحوٍ جماعي، ولا يرغب مغتنيها في ترك فرصة الفوز بها بقدر ما يمكن. فحجم الحيوان القليل، سواء كان حوتاً أو فيلاً، وإن ظفر به أشخاص فرادي، فإن الأمر ينتهي إلى أن الفوز بالغنيمة يصير حقاً مشتركاً

لكثيرين يقتسمونها معًا. هنا تنتقل حشد الصيد إلى حالة التقسيم التى تحتل الصورة وحدها أحيانًا. إلا أن الحالتين ترتبطان ببعضهما البعض على نحو وثيق ويجب دراستهما معًا، فمادة كليهما هى الغنيمة، وهى وحدها من دون غيرها، ومسلكتها ونوعها، سواء كانت حيةً أو ميتة، التى تحدد بدقة سلوك الحشد الذى تكون على أثر وجوده.

أما الشكل الثانى الذى يشارك حشد الصيد بعض سماته ويرتبط به من خلال جسور كثيرة فهو حشد الحرب، إذ إنه يتطلب حشدًا آخر من بشر يوجه إليهم الصراع ويشعرون بمعنى الحشد، وإن لم يتشكل بعد حتى هذه اللحظة. إن فى أقدم صور الحشد نجده ينتهى به الأمر إلى ضحية واحدة كان لا بد الثأر منها. وتكون على صلة قريبة بحشد الصيد فى مسألة تحديد هوية القتل. أما الشكل الثالث فهو حشد المناحة وهو يتكون إثر اختطاف الموت لعضو من الجماعة. فالمجموعة الصغيرة التى تعتبر أى خسارة أمرًا لا يمكن تعويضه نجد أن مثل هذه الظروف توحيدها فى شكل حشد. وقد يكون الأمر بالنسبة لها بمثابة استعادة المحتضر والحصول على الكثير من قوته الحيوية قدر استطاعتها قبل أن يفارقها للأبد. وقد تسعى إلى تهدئة روع روحه حتى لا تناصب الأحياء العدا. وعلى أية حال فإن هذا الفعل يعد بمثابة الضرورة، فلا يكون هناك من بين هؤلاء من يستغنى عن ذلك على الإطلاق. أما الشكل الرابع فهو ما ألخصه من ظواهر عديدة يجمعها، رغم كل اختلافاتها، شىء مشترك هو: نية التكاثر. فحشود التكاثر تتكون لأن المجموعة نفسها تسعى إلى زيادة عددها أو زيادة المخلوقات المرتبطة بها، حيوانات كانت أم نباتات. وهى غالبًا ما تقدم نفسها على هيئة راقصين يعلقون أهمية على معنى أسطوري محدد. وهؤلاء معروفون فى كل مكان يعيش فيه الناس معًا. ودائمًا ما يشعرون أنهم غير قانعين بحجم جمهورهم. وهى بذلك تكون إحدى السمات الجوهرية للكتلة الحديثة، أى إلحاحها فى زيادة حجمها قد ظهرت إذن فى عصر باكر للغاية فى تلك الحشود التى لا تستطيع النمو فؤًا ذاتيًا على الإطلاق، فتضطر إلى اللجوء إلى شعائر وطقوس محددة. ومهما كان رأيًا فى فاعلية ذلك فإنه علينا تذكر أنها قد أفضت بالفعل على مدار الزمان إلى تكوين كتل أكبر.

إن دراسة هذه الأشكال الأربعة المختلفة، كل على حدة، من شأنه أن يؤدي إلى نتائج مفاجئة. فهذه الأشكال تميل إلى التداخل فيما بينها. وليس هناك ما هو أسرع تعاقبًا من تحول نوع من الحشود إلى نوع آخر. والنزوع إلى كتلة جماهيرية أكبر حجمًا يكمن بالفعل في هذه الأشكال الصغيرة التي تبدو أكثر تماسكًا. أما تحولها فيكون غالبًا دافعًا لظواهر دينية من نوع خاص. ولسوف نعرض مدى إمكان تحول حشود الصيد إلى حشود مناحة، وكيف كوّنت أساطيرها وثقافتها من أجل الحدث. فالنائحون ينكرون أنهم كانوا صيادين، والضحية التي يكونها هي هنا من أجل أن يتبرأوا من إثم إراقة دمها بالصيد. أما اختيار تعبير "حشد" لهذا الشكل الأكثر قدمًا وتحديدًا للكتلة فلأنه يذكّر بأنها تدين في نشأتها لدى الإنسان بالفضل إلى النموذج الحيواني، أي قطيع الحيوانات في أثناء قصصها الجماعية. فالذئاب التي يعرفها الإنسان جيدًا وقام بتربيتها لتصير كلابًا على مدار آلاف السنين كانت قد أثرت فيه بالفعل في زمن باكر، وقد ظهرت كحيوان أسطوري لدى شعوب كثيرة كانت تتنكر في شكل ذئب لتسطو على آخرين وتمزقهم. وتلك الأساطير الأولى عن أطفال قامت الذئاب بتربيتهم. كل هذا وبعض أمور أخرى تبهن على مدى قرب الذئب من الإنسان. وحشد (حزمة) الصيد الذي نفهمه الآن على أنه قطيع من الكلاب تم ترويضها على الصيد الجماعي هو الأثر الباقي من تلك الصلة القديمة. ولقد تعلم البشر من الذئاب، فمن أجل أداء بعض الرقصات كان يتم تدريب البعض على أن يكون ذئبًا. ومن طبائع الأمور أنه كانت هناك حيوانات أخرى ساهمت في تكوين قدرات مماثلة لدى شعوب الصيد. وأنا أستخدم تعبير "حشد" للبشر بدلًا من الحيوانات لأنه يصف على خير وجه جماعية الحركة السريعة والهدف الواضح أمام العيون. فـ"الحشد" يبتغى غنيمة، يبتغى دمها وقتلها، فيسعى خلفها بسرعة دون أن تلوى على شيء من أجل الوصول إليها بالحيلة والمثابرة. وهي تجدد نشاطها من خلال نباح جماعي. ولا ينبغي التقليل من أهمية هذا الصخب الذي يجمع أصوات الحيوانات المفردة، فهو يمكن أن يتراجع ثم يرتفع مرة أخرى، لكنه لا ينبغي إساءة فهمه، فهو ينطوى على نية الهجوم. أما الضحية التي تم الفوز بها وقتلها فيقوم الجميع بافتراسها. فقد استقرت العادة على حصول كل مشارك على نصيب من القتل. فهناك مبادئ حتى لدى "حشود" التقسيم الحيوانية، وهذا التعبير ينطبق أيضًا على بقية الأشكال الثلاثة الأساسية المذكورة رغم عدم توافر النموذج

الحيوانى لدى هذه الأشكال، كما أننى لم أعثر على كلمة أفضل من وضوح وتوجه وكثافة هذه الأحداث. وتاريخها كذلك يبرر استخدام هذا المعنى فقد اشتقت من اللاتينية الوسطى "Movia" وهى تعنى "الحركة" أما الكلمة الفرنسية القديمة "Meute" التى نشأت عنها فلها معنى مزدوج، فقد تعنى "العصيان والتمرد" أو "حملة صيد" كذلك. وما زال المعنى الإنسانى يحتل المكانة الأولى. والكلمة القديمة تحدد بدقة ما يجب فهمه من ذلك. وهذا المعنى المزدوج هو ما يهمنا كذلك. فالاستخدام المحدود للكلمة بمعنى "حشد الصيد" فإنه لم يطرأ إلا فى زمن متأخر للغاية، ولم يعرف فى الألمانية إلا فى منتصف القرن الثامن عشر، بينما كلمات مثل "متمرد" و"منشق" و"تمرد"، المشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة، فإنها لم تظهر إلا نحو عام 1500.

حشد الصيد

يتحرك حشد الصيد بكل السبل نحو شيء حتى يسعى لقتله ليلتهمه بعد ذلك. وهكذا يكون هدفه الأقرب هو القتل. أما أهم وسائله فهي الملاحقة والحصار. وقد وضع نصب أعينه حيوانًا وحيدًا كبيرًا بعد أن لاذ الكثير من هذه الحيوانات بالفرار الجماعى. إن الفريسة تكون دائمًا في حركة فيقوم الصياد بملاحقتها ليتوقف الأمر على سرعة حركة الحشد، فعليه أن يركض أفضل من الوحش لكي يرهقه، فإن ارتبط الأمر بحيوانات كثيرة تم النجاح في حصارها، فالهروب الجماعى ينقلب إلى ذعر، فيحاول كل من الحيوانات المطاردة على حدة أن ينجو من حلقة أعدائه معتمدًا على نفسه. وتمتد عملية القنص إلى مدى واسع متبدل. وفي حالة قنص حيوان بمفرده يكون الحشد موجودا ما دام الحيوان دافع عن جلده. ويتصاعد الانفعال في أثناء القنص متمثلا في نداءات قناص على قناص آخر، مستنفرة التعطش إلى الدم. أما التركيز على هدف واحد فيكون تركيزًا جماعيًا، إذا كان الهدف في حركة دائمة فيختفى عن الأنظار ليعاود الظهور ثانية وغالبًا ما يفقده الصياد فيبحث عنه ولا يدعه يفلت من نيته القاتلة ويحفظه في حالة خوفٍ مميت. فكل وضع الهدف نفسه نصب عينيه، وكل يتوجه إلى الهدف نفسه. أما المسافة بين الحشد وهدفه فضيق تدريجيًا، وبالتالي تضيق على الجميع. والقنص ينطوى على خفقان قلب قاتلٍ مشترك، وهو يستمر طويلاً

فوق أرضٍ متبدلة، ويزداد عنفًا كلما دنا المرء من الحيوان، فإذا ما لحق به وحانت لحظة إصابته تسنح فرصة القتل لكل منهم ليحاول كل منهم ذلك، فيمكن لكل الحراب والنبال أن تتركز على مخلوقٍ واحد، فهي بمثابة استمرار لنظرات الاشتهااء في أثناء القنص.

هكذا تكون لكل حالةٍ من هذا النوع نهايته الطبيعية. وبقدر حدة ووضوح الهدف المحدد يكون قدر حدة وفجائية تغير الحشد كذلك حال لحاقه به، فيترجع الحماس في لحظة القتل ويقف الجميع فجأةً بلا حراك حول الضحية القليلة وتتكون حلقةٌ من الحاضرين لينالوا شيئاً من الفريسة، وقد ينشبون أسنانهم مثل الذئاب في الوحش. إلا أن التهام حشد الذئاب للحم الحى يرجئه الإنسان للحظةٍ فيما بعد، ليجرى التقسيم دون نزاع وطبقاً لقواعد محددة. فإذا ما كانت الغنيمة كبيرةً أو متعددة وإذا كان حشد كامل قام بالقنص فإن تقسيم الغنيمة بين أفرادهِ يُعتبر أمراً لا مفر منه. أما عملية التقسيم⁽³⁹⁾ التى تبدأ حينئذ فتكون على نقيض تام من عملية تكوين الحشد، فحينئذٍ يطلب كل فرد شيئاً لنفسه ويطمح إلى نيل الكثير قدر الإمكان. فإن لم يكن التقسيم منظماً بدقة متبعاً قانوناً سارياً منذ القدم يقوم على تنفيذه رجال محنكون فإنه قد ينتهى بلا شك إلى القتل أو العراك القاتل. ويعتبر قانون التقسيم أقدم القوانين. وهناك صيغتان لذلك طبقاً للأولى يقتصر التقسيم على دائرة الصيادين وحدهم، وطبقاً للآخرى ينضم إلى هؤلاء أيضاً النساء وأولئك الرجال من غير المشاركين في حشد القنص. أما القائم على التقسيم الذى يكون عليه مراعاة تنفيذه بدقة فلا يجنى أية منفعة من وراء مهمته، وقد يتنازل هذا عن كل شيء لدواعى التعفف، كما يحدث لدى بعض أهل الإسكيمو بعد عمليات صيد الحيتان. وقد يتطرق الشعور بجماعية الغنيمة إلى مدى بعيد للغاية، فقد اعتادت قبيلة الـ"كورياكن" بسiberia أن يقوم القناص المثلالي بدعوة الجميع لنيل نصيبهم من غنيمته ليكتفى هو بما تبقى منهم.

وقانون التقسيم معقدٌ ومتنوع بالفعل، فالجزء الأفضل من الفريسة لا يكون دائماً من نصيب من وجه إليها الضربة القاتلة، فأحياناً ما يكون صاحب الحق في هذا هو أول من رأى الحيوان الكاسر، إلا أن من شاهد عملية القتل عن بعد فقط يكون له الحق كذلك في جزءٍ من الفريسة. وفي هذه الحالة يعتبر

المشاهدون شركاء في عملية القنص، فهم شاركوا في المسؤولية عنها فيتمتعون بشمارها. وإني أذكر هذه الأمثلة المتطرفة، وليس تلك القوانين المألوفة، من أجل توضيح مدى قوة شعور الوحدة الذي يبعثه حشد القنص. ومهما كان انتظام عملية التقسيم فإن كلا الحدثين الحاسمين يُعتبر ضماناً لقتل الفريسة.

حشد الحرب

إن الفرق الجوهرى بين حشد الحرب وحشد القنص قائمٌ في الطبيعة المزدوجة لحشد الحرب. فما دامت قوةٌ منفعة قامت بملاحقة رجلٍ واحد من أجل عقابه فإن الأمر إذ ذاك يدور حول شكلٍ ونوعٍ ما من حشد القنص. فإذا ما كان هذا الرجل عضوًا بجماعةٍ أخرى تأبى تسليمه فإنه سرعان ما يقف حشد في مواجهة حشدٍ. ولا يكون الفارق بين الأعداء كبيرًا، فهم بشرٌ، رجالٌ، محاربون. والصورة المبكرة عن خوض الحرب هى أن يكون هذان الفريقان قريبين إلى حدٍ يتطلب جهدًا للتمييز بينهما، فهما يملكان الأسلوب نفسه لمهاجمة بعضهما البعض، وتسليحهما يكون واحدًا تقريبًا. وعلى الجانبين تنطلق هتافاتٌ عنيفة منذرة بالخطر. ولدى كل طرفٍ النية نفسها ضد الآخر. أما حشد القنص -على نقيض ذلك- فله جانبٌ واحد، فالحيوانات التى تُهاجم لا تحاول محاصرة البشر أو اقتناصهم، فهى تلوذ بالفرار، حتى إن قامت بالدفاع أحيانًا عن نفسها فإنها تفعل ذلك في اللحظة التى يريد فيها المرء قتلها. وفي الغالب لا يكون لديها القدرة للدفاع عن نفسها ضد البشر.

أما الأمر الحاسم، ذو السمة المميزة لحشد الحرب، فهو وجود حشدين تتوافر لدى كل منهما النية نفسها ضد الأخرى. فالقسمة على اثنين تكون ضرورةً،

والحد الفاصل بينهما يكون مطلقاً ما دام الأمر يتعلق بحالة الحرب. ومن أجل إدراك حقيقة ذلك، أى ما ينويه كل طرفٍ ضد الآخر فإنه يكفى قراءة التقرير التالى، وهو عن قصة حملةٍ حربيةٍ لقبيلة من أمريكا الجنوبية تدعى "تاولييانج" ضد أعدائها من قبيلة "بيشاوكو"⁽⁴⁰⁾، والتقرير منقول حرفياً عن رجل من قبيلة "تاولييانج" ويتضمن كل ما يجب معرفته عن أقدم حشد للحرب. أما الراوى فكان مقتنعاً وسعيداً تماماً بالمعركة وهو يصفها من داخلها من وجهة نظره وفي نوع من التجرد الذى هو حقيقى ومرعب، ومن الصعب العثور على مثيل له.

"في البدء كانت هناك صداقة بين التاولييانج والبيشاوكو. ثم حدث بينهما نزاع بسبب النساء، فقتل في البداية البيشاوكو بعض أفراد التاولييانج كانوا هاجموهم في الغابة، ثم قتلوا شاباً وفتاة من التاولييانج وامرأة، ثم ثلاثة في الغابة. وهكذا كانت البيشاوكو قد شاءت الخلاص من كل قبيلة التاولييانج شيئاً فشيئاً. وهنا جمع مانيكوزا قائد التاولييانج الحربى كل أفراد قبيلته. وكان للتاولييانج ثلاثة زعماء: مانيكوزا زعيم القبيلة واثان من مساعديه، كان أحدهما قصير القامة بدينًا، لكنه كان رجلاً شجاعاً للغاية، وكان الآخر أخاه. ثم كان هناك أيضاً الزعيم العجوز والد مانيكوزا. ومن بين رجاله كان هناك رجلٌ قصير وشجاع للغاية من قبيلة أريكونا المجاورة. وكان أن أمر مانيكوزا بتجهيز كتلة مخمرة من الكاشيرى، خمس قصعاتٍ من القرع ملأته. ثم أمر بصناعة ستة زوارق. وكان البيشاوكو يسكنون الجبال، وقد أخذ التاولييانج امرأتين معهم، وكان عليهما إضرام النار في المنازل. ثم أبحروا إلى هناك. ولست أدري في أى نهر. ولم يأكلوا شيئاً، لا فلفلاً ولا أسماكاً كبيرة ولا حيوانات صيدٍ، فلم يتناولوا سوى أسماك صغيرة حتى نهاية الحرب. وقد أخذوا معهم شيئاً من ألوان وجيراً أبيض ليطلوا أنفسهم بها. فلما وصلوا إلى مشارف سكن البيشاوكو أرسل مانيكوزا خمسة رجالٍ إلى مسكن البيشاوكو للاستطلاع إن كانوا جميعاً هناك. وقد كانوا جميعاً هناك، وكان بيتاً كبيراً به أناس كثيرون محاطاً بسورٍ من الشجر الشائك، فعاد المستطلعون وأخبروا الزعيم بذلك، وهنا نفخ العجوز والزعماء الثلاثة سحراً في كتلة الكاشيرى المخمرة وألقوا سحرهم أيضاً على الألوان والجير الأبيض والمقامع الحربية، ولم يكن لدى الكبار سوى الأقواس والنبال بنصالها الحديدية، ولم يكن معهم أسحلة نارية. أما الآخرون فكان لديهم بنادق وعيدان من الصفيح، وكان مع كل منهم جوال من الصفيح وست صناديق من المسحوق. وقد ألقى السحر على كل هذه الأشياء

أيضاً ثم طلوا أنفسهم بخطوطٍ حمراء وبيضاء: بدءاً من الجبهة خطاً أحمر أعلى، وخطاً أبيض أسفل بطول الوجه كله. ورسوموا على الصدر ثلاثة خطوطٍ بالتبادل من الأعلى باللون الأحمر ومن أسفل باللون الأبيض. وفعلوا الشيء نفسه على الزنديين حتى يستطيع المحاربون التعرف على بعضهم البعض. وقامت النساء بطلاء أنفسهن على نفس النحو. ثم أمر مانيكوزا بسكب ماءٍ على الكاشيري. وكان المستطعمون قد أخبروا عن وجود أناسٍ كثيرين في البيوت. وقد كان هناك بيتٌ كبير وثلاثة أخرى قائمة على جانبيه. أما البيشاوكو فكانوا أكثر عدداً بكثير من التاوليبانج الذين كانوا خمسة عشر رجلاً فقط إضافة إلى الرجل من قبيلة الماريكونا. ثم كان أن احتسوا كاشيري، كلٌ منهم قصعة ملآنة، شربوا كثيراً من الكاشيري ليمدهم بالشجاعة. وعقب ذلك قال مانيكوزا: (على هذا الرجل إطلاق النار أولاً! وعندما يقوم بشحن بندقيته ثانيةً يقوم الآخر بإطلاق النار واحداً تلو الآخر!) ثم قام بتوزيع رجاله على ثلاثة أقسام، كلٌ منها يضم خمسة رجالٍ في حلقة واسعة حول المنزل، وقال: (لا تطلقوا طلقةً واحدة بلا فائدة! فإذا سقط رجلٌ دعوه راقداً وأطلقوا النار على الذى ما زال واقفاً). ثم تقدموا في ثلاثة أقسام منفصلة والنساء خلفهم بقصعات القرع مليئة بالشراب. فلما بلغوا حدود السافانا قال مانيكوزا: (ماذا علينا فعله الآن؟ إنهم أناسٌ كثيرون للغاية فعسى يكون من الأفضل أن نعود لجلب رجال أكثر!) وهنا قال رجل الأريكونا: (كلا، إلى الأمام، فإني عندما أندفع بين كثير من الناس لا أجد من أقتله!) -وقد يعنى هذا: هؤلاء الناس الكثيرون لا يكفون طلقاءي لأننى أقتل بسرعةٍ شديدة- فرد مانيكوزا: (إلى الأمام! إلى الأمام!) مطالباً الجميع بذلك. فكان أن اقتربوا من البيت وكان الوقت ليلاً وكان بالبيت في هذه الأثناء طبيبٌ ساحر، كان يلقي بتعاويذه على مريض، فقال هذا: (هناك أناسٌ قادمون) محذراً ساكنى البيت. وهنا قال رب الدار، زعيم البيشاوكو: (دعهم يأتون! فإني أعلم من هم! إنه مانيكوزا! إلا أنه لن يعود من هنا!) فحذر الطبيب الساحر ثانيةً وقال: (إن الناس صاروا بالفعل هنا!) فقال الزعيم: (إنه هو مانيكوزا. إنه لن يعود، ولسوف ينهى حياته هنا!) هنا كان مانيكوزا قد قطع النبات المتسلق الذى يربط سور الشجر الشائك لتندفع كلتا المرأتين، فقامت إحدهما بإضرام النار بالبيت الأول عند المدخل والأخرى عند المخرج. وقد كان بالبيت أناسٌ كثيرون للغاية. ثم انسحبت كلتا المرأتين ثانيةً خارج سياج الشجر الشائك، فنشبت النار بالمنزل. وتسلق

رجلٌ عجوز إلى أعلى ليطفى النيران، وهنا خرج أناسٌ كثيرون من البيت وأخذوا يطلقون نيرانًا كثيفة من بنادقهم لكن من دون هدف لأنهم لم يروا أحدًا، وقد فعلوا ذلك من أجل بث الذعر في نفوس الأعداء. وأراد زعيم التاوليبانج إصابة أحد أفراد البيشاوكو بالسهم إلا أنه أخطأه، وكان رجل البيشاوكو في حفرة بالأرض، وعندما وضع العجوز السهم الثانى أصابه البيشاوكو ببندقيته فأرداه قتيلاً، ورأى مانيكوزا أن أباه قد مات. وهنا أطلق المحاربون ناراٌ كثيفة وقاموا بحصار البيت حصارًا تامًا، فلم يعد للبيشاوكو أى منفذ يهربون منه. وهنا اقتحم المكان أحد محاربى التاوليبانج ويدعى (إوانا) وتبعه أحد مساعدى الزعيم وخلفه أخوه ثم مانيكوزا، وخلفه رجل الأريكونا، وظل الباقون بالخارج ليقتلوا البيشاوكو الذين يلجأون للفرار، واندفع الخمسة الآخرون إلى وسط الأعداء وقتلوه بمقامعهم، وأطلق البيشاوكو النار عليهم إلا أنهم لم يصيبوا أحدًا منهم. وهنا قتل مانيكوزا زعيم البيشاوكو وقتل مساعد الزعيم مساعد زعيم البيشاوكو، كما قام أخوه ورجل الأريكونا بقتل الآخرين بسرعةٍ ولم يفر سوى فتاتين كانتا ما زالتا تعيشان عند مجرى النهر الأعلى وكانتا متزوجتين من قبيلة التاوليبانج. أما الآخرون فقد قُتلوا جميعًا. وبكى الأطفال فألقوا بكل الأطفال إثر ذلك فى النار. وكان واحد من البيشاوكو قد بقى بين الأموات على قيد الحياة وقد لطح جسده تمامًا بالدم وقرق بين الموتى ليوحى إلى الأعداء أنه ميت. وهنا أمسك التاوليبانج بمن سقط من البيشاوكو الواحد تلو الآخر وشطروهم بمدينة الغابة إلى قسمين، فلما وجدوا الرجل حيًا أمسكوا به وقتلوه ثم أخذوا زعيم البيشاوكو القليل وربطوه بذراعيه المشدودتين إلى أعلى فى شجرة وأخذوا يطلقون عليه ما تبقى لديهم من ذخيرة إلى أن مزقوه إربًا. وفى أعقاب ذلك أمسكوا بامرأة ميتة ليقوم مانيكوزا بفتح عضوها التناسلى بأصابعه على اتساعه وخاطب إوانا: (انظر هنا، إنه مناسب لك للنفاذ فيه).

يبدأ النزاع حول نساء، فيقتل فرادى من الناس، ولم يلحظ ذلك إلا بعد أن قام الآخرون بالقتل. ومنذ تلك اللحظة يسود اعتقادٌ راسخ بأن الأعداء يريدون القضاء على قبيلة التاولييانج كلها. أما الزعيم فكان يعرف رجاله فاستدعاهم حينذاك، ولتحرى الدقة لم يكن هؤلاء كثيرين، كانوا ستة عشر رجلاً من بينهم رجلٌ من قبيلة مجاورة. وكان كلٌ منهم يعرف دور رفيقه في أثناء الحرب وقد فُرضَ عليهم صومٌ قاس، فلم يُسمح لأحدٍ إلا بتناول أسماكٍ صغيرةٍ بائسة. وقد أُعد من الكتلة المخمرة شراباً قوياً لينهلوا منه قبل النزال فيمنحهم الشجاعة، كما طلبوا أنفسهم بألوان كنوعٍ من الزى الجماعى حتى يتعرف المحاربون على بعضهم البعض. وقد اعتُبر كل شيء عتاداً حربياً، وتحديداً الأسلحة التى أُلقي عليها السحر، وهكذا يكون قد أضفى عليها قوةً سحرية لتحل عليها البركة. فما إن وصلوا إلى مقربة من مستوطنة الأعداء حتى أرسلوا فريق استطلاع ليتأكدوا من أن الجميع هناك. وقد كان الجميع هناك. وكان الأمل أن يكون جميع هؤلاء هناك ليقضى عليهم جميعاً في آن واحد. وهناك كان بيت كبير غاصاً بأناسٍ كثيرين للغاية، ما مثل قوة خطيرة لتفوقهم في العدد. وهو ما دفع الستة عشر لتناول الشراب ليمدهم بالشجاعة. وكان أن أعطى الزعيم تعليماته، تماماً كما يفعل الضابط، إلا أنه عندما وصل إلى قرب منزل الأعداء استشعر مسئوليته عن ذلك فقال: (إنهم أناس كثيرون للغاية) وساوره التردد: فهل يعودون لجلب المدد؟ إلا أنه كان من بين محاربيه رجلٌ لا يجد ما يكفيه من الأعداء ليقتلهم، فبثت عزيمته الثقة في الزعيم الذى أصدر الأمر: (إلى الأمام!).

كان الليل قد حل، لكن الناس بالبيت كانوا يقظين، فهناك كان ساحرٌ يقوم على علاج أحد المرضى. وكان الجميع قد التفوا حول الاثنين. أما الساحر الذى كان يشعر بريئة أكثر من الآخرين وكان مسيطراً على كل حواسه، فقد استشعر الخطر فقال: (هناك أناسٌ قادمون) وسرعان ما أعقب ذلك بقوله: (ها قد صار الناس هنا) إلا أن الزعيم بالبيت كان يدرك سر الأمر على نحوٍ دقيق، فهو لديه عدوٌّ على يقينٍ من عدائه، لكنه موقن أيضاً أن عدوه لم يأتِ إلا ليلقى حتفه هنا، إنه لن يعود من هنا، إن ختام حياته سيكون هنا. ولقد كان عمى هذا الذى سيُقضى عليه جديراً بالملاحظة، بقدر تردد ذاك الذى سيشن الهجوم. فأما المتهدد فلم يفعل شيئاً لتحل به النكبة. وسرعان ما يحترق البيت الذى أضرمت النساء النار فيه ليندفع مَنْ بداخله إلى الخارج، فلم يستطيعوا رؤية من أطلق

النار عليهم من جوف الظلام. وقد صاروا أهدافاً مرئية ليندفع الأعداء مقتحمين، وأخذوا يضربونهم بالمقامع. وقد انتهت قصة انهيارهم بعبارة قليلة. ولم يكن الهدف هنا هو النزال بل الدمار. فأما الأطفال الباكون فقد ألقى بهم في النار. وأما القتلى فقد مرقوا إرباً الواحد تلو الآخر. وقد شاطرهم المصير نفسه رجل بقي على قيد الحياة فلطخ نفسه بالدماء ورقد بين الموتى أملاً في النجاة. وأما الزعيم القتيل فقد شدوا وثاقه إلى شجرة وأخذوا يطلقون عليه النار حتى سقط ممزقاً. وكان تدنيس امرأة هو أوج الفزع. وقد أتت النار على كل شيء. وأما النفر القليل من ساكني المنازل الصغيرة المجاورة الذين نجوا بالفرار إلى الجبال فإنهم ما زالوا يعيشون هناك كقتلة متربصين".

إن استعراض (حزمة) حشد الحرب هذا لا يكاد يتسع لإضافة شيء. فمن بين تقارير بلا حصر تتشابه معه كان هو التقرير الأكثر واقعيةً في تجرده. فهو لا ينطوي على شيء مقحم، ولم يقم الراوى بتصحيح أو تجميل أى شيء. فأما الستة عشر الذين شنوا الهجوم فلم يعودوا بأية غنائم ولم يفوزوا بشيء ما بانتصارهم. فهم لم يتركوا امرأة أو طفلاً على قيد الحياة، فقد كان هدفهم هو تدمير الحشد المعادى فلا يبقى هناك أى شيء يُذكر، أى شيء منهم، بكل معنى الكلمة. وقد تم استعراض شهوة ما فعله هؤلاء أنفسهم، أما الآخرون فكانوا وما زالوا القتلة.

حشد المناحة

إن أروع استعراض عرفته عن (حزمة) حشد المناحة يرجع إلى قبيلة "وارامونجا" بوسط أستراليا.⁽⁴¹⁾

"فقبل أن يلفظ الرجل المعذب آخر أنفاسه كان قد بدأ النواح وإلحاق الجروح المتعمد. فما إن أُعلن عن دنو الأجل حتى ركض رجالٌ بأقصى سرعتهم إلى المكان. أما بعض النساء اللاتي تجمعن من كل الأرجاء فقد ألقين بأنفسهن ليرقدن فوق جسد الرجل المحتضر. بينما كانت أخريات يقفن على مقربةٍ أو يركعن ويضربن رؤوسهن بقمم العيدان الحادة فيسيل الدم على وجوههن، وهن يطلقن في الوقت نفسه عويل نواحٍ لا ينقطع. وقام كثيرٌ من الرجال الذين اقتحموا المكان بإلقاء أنفسهم بعشوائية وحشية فوق الرجل الراقد. فما كان من النساء إلا أن نهضن ليفسحن المكان لهن، فلم يظهر في نهاية الأمر سوى كتلةٍ متحلقة من أجسادٍ عارية. وفجأةً اقتحم المكان رجلٌ وهو يصيح صياحاً مدوياً ملوحاً بـمـدية من حجر ليحدث قطعاً بالمـدية في فخذه، وسط عضلاته، حتى إنه لم يعد يقوى على الوقوف ليسقط على كتلة الأجساد المتحلقة، فقامت أمه ونساؤه وأخواته بسحبه من الكوم المكسد ووضعن أفواههن على جروحه المفتوحة، بينما كان يرقد هو منهكاً بلا حولٍ أو قوة. وشيئاً فشيئاً انسلت الأجساد الداكنة

لتتيح رؤية المريض الشقى الذى كان مادةً، أو بالأحرى ضحيةً لهذا الاستعراض حسن الطوية المفعم بمشاعر الود والحزن. فإن كان قد أصيب بمرضٍ قبل ذلك فإن حالته الآن صارت أكثر سوءًا، وبعدما تركه أصدقاؤه صار واضحًا أنه لن يبقى طويلًا على قيد الحياة. وتواصل البكاء والنواح. وغربت الشمس ليغمر الظلام المخيم ويموت الرجل فى المساء نفسه. وهنا يدوى عويل النواح على نحو أعظم مما سبق. رجالٌ ونساءٌ رُوعوا من الحزن وأخذوا يتساقطون هنا وهناك وهم يلحقون بأنفسهم جروحًا بالمدى والعصى المدببة بينما كانت النساء يضربن رءوسهن بالمقارع. ولم يبقَ أحدٌ بنفسه عن الجروح أو الضربات. وبعد ساعةٍ كان موكب الجنائز يشق طريقه فى الظلام على نور شعلات. وقد حُمِلت الجثة إلى أحد الأدغال على بعد ميلٍ تقريبًا لتوضع هناك على محفةٍ من فروع الأشجار فوق شجرة مطاطٍ صغيرة. وعندما أشرق صباح اليوم التالى لم يكن بالمخيم، حيث مات الرجل، أى أثر يُلاحظ من مستوطنةٍ سكنها بشرٌ بعد أن قام جميع الناس بنقل أكواخهم البائسة إلى مكانٍ على بُعدٍ ما. أما موضع واقعة الموت فقد هُجِر تمامًا، فلم يكن هناك من يتمنى لقاء روح المتوفى التى تحوم يقينًا بالقرب من المكان ولا مواجهة روح الرجل الحى الذى تسبب فى هذا الموت من خلال السحر الخبيث، فهو سوف يأتى يقينًا فى هيئة حيوانٍ إلى موقع جريمته ليتمتع بالنصر. وفى المخيم الجديد كان رجالٌ قد تمددوا، حسب طول قامتهم، على الأرض بجراحٍ مفتوحة كانوا قد ألحقوها بأيديهم فى أفخاذهم، وقد أقروا بذنبهم نحو المتوفى وسوف يحملون إلى آخر أيامهم الندوب العميقة فى أفخاذهم كرمزٍ للكرامة. وقد أُحصى عدد جراح أحدهم فكان لا يقل عن ثلاثة وعشرين جرحًا، كان أحدثها بنفسه بمرور الوقت. فى أثناء ذلك كانت النساء قد استأنفت ثانيةً مناحتها التى كان منوطًا بهن أداؤها. فكان أربعون أو خمسون منهن موزعاتٍ على مجموعاتٍ من خمس أو ست نساء، كن قد عقدن أذرعهن وأخذن يكيّن ويولولن على نحوٍ من الهوس، بينما كان بعضهن اللائى يعتبرن أكثر قربًا من المتوفى يضربن رءوسهن بعيدانٍ مدببة. أما الأرامل فكن يذهبن إلى أبعد من ذلك، فكن ينكأن جراح رءوسهن بعصىٍ متوهجة حمراء من النار.

من هذا الوصف الذى ينضم إلى الكثير مثله، يتضح أن الأمر يدور حول الانفعال نفسه. وهناك بعض النوايا تلعب دورًا فى هذا الحدث. وهو ما سوف نتعرض له. إلا أن جوهر الأمر كان الانفعال الذى هو بمثابة حالةٍ يؤدى فيها

الجميع المناحة معًا. إن عنف المناحة واستمرارها، واستثنائها في اليوم التالى بالمخيم الجديد، والإيقاع المدهش الذى تتنامى فيه وتبدأ من جديد حتى بعد الإعياء التام، كل هذه كانت أدلة كافية على أن الأمر يدور أولاً حول انفعال المناحة الجماعية. وبعد تعرفنا على هذه الحالة الوحيدة التى تميز مواطنى أستراليا سوف نلمس سبب الإشارة إلى هذه المناحة على أنه (حزمة) حشد مناحة، ولماذا يبدو وصفها بكتلة مناحة شيئاً غير مألوف.

يبدأ كل شيء بخبر دنو الأجل ليفزع الرجال بأقصى سرعة إلى هناك ليجدوا النساء قد سبقنهم. أما أقرب الأقرباء فيرقدون معًا في جمع فوق المريض. ومن الأمور الهامة أن المناحة لا تبدأ بعد حدوث الموت وإنما فور ظهور اليأس من المريض. فما إن يظن أولئك أن المريض سيموت فإنهم لا يستطيعون منع أنفسهم عن المناحة. فتبدأ الحزمة، وقد تربصت بفرصتها، فلا تدع ضحيتها تفلت منها. والقوة الرهيبة التى تلقى بها بنفسها على هدفها هى التى تحدد مصير هذا الهدف. فلا نكاد نقبل افتراض أن صاحب مرض عضال يخضع لهذه المعاملة فيتعافى من خلالها، بل إنه يكاد يختنق من عويل البشر الصاخب. ونستطيع افتراض أنه يختنق في بعض الأحوال حقًا، وبذا يتم التعجيل بوفاته على أية حال.

إن دعوتنا المألوفة بأن ندع إنسانًا يموت في هدوء قد لا يفهمها أولئك الناس مطلقًا في أثناء انفعالهم. فماذا يعنى هذا الجمع الذى يتكدس فوقه هذا الزحام المضطرب من الأجساد التى تصارع صراحةً للاقتراب منه قدر الإمكان؟ فيقال إن هؤلاء النساء اللاتى كن يرقدن هناك في البداية قد نهضن ليفسحن مكانًا للرجال كأن هؤلاء أو بعضهم على أية حال الحق في الوجود على أقرب موضع منه. ومهما كانت التفسيرات التى يقول بها مواطنو هذه المنطقة لتبرير تكوين هذا الجمع المتداخل، فإن ما يحدث بالفعل هو أن كوم الأجساد يستوعب المحتضر داخله على نحو تام. والاقتراب الفيزيقي للمنتمين للحشد، أى كثافته، لا يمكن دفعه بعيدًا عن المحتضر. فهم يكونون معه كومة واحدة، فهو ما زال ينتمى إليهم وهم يحتفظون به بينهم، ولما كان لا يستطيع النهوض ليقف بينهم فإنهم يرقدون إليه. وكل من يعتقد أن له الحق فيه فإنه يصارع من أجل الانضمام إلى الجمع الذى يكون هو مركزه، ويكون الأمر كأنهم يريدون الموت معه، فالجروح

التي يلحقونها بأنفسهم، وإلقاؤهم بأنفسهم على الجمع أو في أي مكان آخر، وانهيار من جرحوا أنفسهم، كل ذلك يوضح مدى جديتهم في هذا الشأن. وربما يكون صحيحاً أيضاً أن نقول بأنهم ييغون أن يتساووا معه، ولكنهم في واقع الأمر لا يشاءون الانتحار. أما الذي ينبغى أن يظل موجوداً فهو الجمع الذي ينتمى هو إليه، وهم يساهمون في ذلك من خلال مسلكهم. وفي هذا التساوى بالمحتضر ينشأ جوهر حشد المناحة، ما لم يكن الموت قد حدث. لكن بنفس القدر يكون إبعاد المييت، حالما يموت، هو إحدى سماتها. فالتحول من هوس الاحتفاظ بالمحتضر والتشبث به إلى إبعاد المييت وعزله هو ما يسبب الانفعال. ففي الليلة نفسها يتم الخلاص منه بسرعة ويتم محو كل أثر لوجوده: أدواته وكوخه وأي شيء كان يخصه، حتى المخيم الذي عاش فيه مع آخرين يتم اقتلاعه وإحراقه. وهكذا فجأة يكون التوجه ضده قد بلغ أقصى حد له، فهو قد صار خطراً عندما هجرهم، فقد يشعر بالحسد تجاه الأحياء فيثأر منهم لموته، فكل إشارات ميل مشاعرهم نحوه، وكذلك تلاحمهم الجسدى لم تستطع الاحتفاظ به فيحول السخط المييت إلى عدو، بوسعه بمئة حيلة وخديعة أن ينسل بينهم. وعلى نفس القدر يحتاجون هم وسائل حماية لأنفسهم ضده. وفي المخيم الجديد تتواصل المناحة، فالانفعال الذي يمنح الجماعة الشعور القوى بوحدتها، لا يتم الاستغناء عنه في الحال، فهم يحتاجون هذا الشعور حينذاك أكثر من أي وقت مضى بعد أن صاروا في خطر. فالمرء يستعرض الألم بأن يواصل جرح نفسه ويبدو الأمر كأنه حرب، لكن ما قد يلحقه العدو بشخص ما فإن هذا يفعله بنفسه، فالرجل الذي يحمل في جسده ثلاثاً وعشرين ندبةً من هذه الجروح يعتبر ذلك من آيات الشرف، كأنها لحقت به في الحرب. ولا بد أن نتساءل عما إذا كان هذا هو السبب الوحيد للجروح الخطرة التي يلحقها الناس بأنفسهم في مثل هذه المناسبات. ويبدو أن النساء يمضين إلى مدى أبعد من الرجال وهن يظهرن على أية حال مثابرةً أعظم في أثناء المناحة. وفي تشويه الجسد يكمن غضبٌ كبير، غضبٌ لقلّة الحيلة أمام الموت، وهو ما يبدو كأن المرء ييغى عقاب نفسه على الموت. وقد نذهب إلى أن الفرد يشاء استعراض خسارة الجماعة كلها على جسده هو. إلا أن التدمير يشمل أيضاً الموطن مهما كان بائساً وهو ما يذكرنا بنزوع الكتلة للتدمير، كما عرفناه وأوضحناه وفي موضع آخر. ومن خلال تدمير كل المفردات، الذي تنتهى إليه الحزمة، فإنها تظل كذلك باقيةً لوقتٍ أطول. أما

ما يزداد حدةً فهو انفصال الحشد عن الزمن الذي عرفت فيه النكبة الخطرة وعانت منها ليبدأ كل شيء من جديد، بل إنه يبدأ بحالة انفعالٍ جماعى قوية. ومن المهم في النهاية أن نحدد كلا التوجهين اللذين يُعتَبَران أساساً لمسار لحشد المناحة. أما الأول فهو الحركة العنيفة تجاه المحتضر وتكوين كوم مزدوج المعنى حول الرجل الذى يقف في منتصف الطريق بين الحياة والموت. أما الحركة الثانية فهي الفرار الخائف من الميت، منه هو، ومن كل ما يكون قد لامسه.

حشد التكاثر

مهما كانت متابعتنا لحياة شعبٍ من شعوب الطبيعة، فإننا نصطدم في كل مكان في الحال بكثافة أحداث حياة هذا الشعب، وهى أحداث حشود الصيد والحرب والمناحة. أما مسار أنواع الحشود الثلاثة هذه فواضح، فهى تمتلك كل ما هو أساسى. فما إن يتراجع هذا أو ذاك من الأشكال إلى الخلف فإن بقايا منه تظل عادةً هناك لتبرهن على وجوده وأهميته في الماضى. أما الشكل الأكثر تعقيداً فنراه في حشد التكاثر، لأنها هى قوة الدفع الحقيقية لانتشار الإنسان. فهى التى جعلته يسود الأرض وأفضت إلى تطوراتٍ حضارية تزداد ثراءً دائماً. ولم يدرك أثرها الفعال قط كاملاً لأن مفهوم "التناسل" كان قد شوه الحدث الخاص بـ "التكاثر" وجعله غامضاً، وهو من البداية الأولى لا يفهم إلا في إطار التأثير المشترك مع أحداث التحول. ففي العصور المبكرة حينما كان البشر يتحركون بأعدادٍ قليلة في مناطق تكون غالباً مهجورةً كانوا يواجهون حيواناتٍ تفوقهم عدداً، وهذه قد لا تكون كلها عدائيةً، فأغلبها لا يمثل خطراً على الإنسان على الإطلاق، لكن الكثير منها يظهر في أعدادٍ هائلة، سواء كانت هذه قطعاناً من الوعول أو الجاموس أو الأسماك أو الجراد أو النحل أو النمل، فإن عدد البشر مقارنةً بعددها يبدو عدداً ضئيلاً. فمواليد الإنسان قليلة، وتأتى فرادى، وتستغرق وقتاً طويلاً حتى تصل. إن الطموح إلى الأكثر، إلى عددٍ أكبر من الناس الذين ينتمى المرء إليهم،

كان يقينا طموحًا عميقًا وملحًا، وظل هذا الطموح يتنامى بلا انقطاع. وفي كل مناسبة يتكون فيها حشد ما كان لا بد من أن يقوى الدافع لزيادة عدد أكبر من البشر. (فحزمة) فحشد الصيد الأكثر عددًا يستطيع حصار حيوانات برية أكثر. ولم يكن بوسع الإنسان الاطمئنان دائمًا إلى الحيوانات البرية، فجأةً كان الكثير منها هناك، فكلما كان عدد الصيادين أكثر كانت الغنيمة أكبر. وفي حالة الحرب يتغى المرء أن يكون أكثر قوةً من الجماعة المعادية. فقد كان الناس على وعي دائم بخطر ضالة عددهم. وكان كل موت يتكبذونه بمثابة خسارة فادحة تمامًا، خاصةً إذا ارتبط ذلك برجلٍ محنك أو نشط، فقد كان ذلك يمثل إحدى نقاط الضعف، إلا أن الحيوانات كذلك، التى تمثل خطرًا عليهم، كانت تعيش أيضًا فرادى أو في مجموعاتٍ صغيرة، وقد كان الإنسان مثل هذه حيوانًا مفترسًا لم يشأ قط أن يعيش وحيدًا. فقد ابتغى العيش في الجماعات التى كانت كبيرةً مثل تلك التى يعيش فيها الذئاب القانعة بذلك، أما هو فلا. وذلك لأنه في الحقبة الزمنية الهائلة، في أثناء ما كان يعيش في جماعاتٍ صغيرة، ومن خلال التحول فإنه التهم كل الحيوانات التى عرفها على نحوٍ ما، ولم يصبح إنسانًا حقًا إلا بعد تأهله لهذا التحول، فقد كان ذلك هو موهبته المتفردة ورغبته. ففى تحولاته المبكرة إلى حيواناتٍ أخرى كان يمثل ويرقص بعض الأنواع التى تظهر في عددٍ أكبر، وكلما ازداد تمثيله لهذه المخلوقات كملاً ازداد إحساسه كثافةً بعظم عددها. فقد أدرك أهمية كثرة العدد، كما ظل على وعيه المتجدد بتشرذمه كإنسانٍ في جماعاتٍ صغيرة. ولا يمكن أن يرقى شكٌ إلى أن الإنسان حالما صار "هو" ذات مرة، صار ينشد ازدياد عدده. وكانت كل ألوان عقيدته وأساطيره وتقاليده وشعائره مفعمةً بهذه الأمنية، والأمثلة على ذلك كثيرة، وسوف نتعرف على بعض منها في إطار هذا البحث. فلما كان هدف التكاثر مرتكزًا على القوة الأساسية كان علينا إبراز التكوين المركب لحشد التكاثر في بداية هذا الفصل. وبشيءٍ من التدبر سوف يتضح سبب ظهور هذا الحشد في أشكالٍ كثيرة مختلفة للغاية، وعلينا البحث عنها في أى مكانٍ فهى تظهر حيثما نتوقعها بالطبع، لكن لديها أيضًا أوكارها السرية فتكون فجأةً هناك في آخر موضع يحتمل ظهورها فيه. ولأن الإنسان كان بدايةً يفكر في تكاثره المرتبط بتكاثر المخلوقات الأخرى فقد كان طموحه إلى التكاثر يُحمّله على كل ما يحيط به، وبقدر ما كان يُدفع إلى زيادة حجم جماعته من خلال عددٍ كافٍ من الأبناء كان ينشد أكثر من الحيوان البرى والثمار، أى

قطعاناً أكثر وغلاباً أكثر، وكل ما كان يتغذى عليه. وحتى ينمو ويتكاثر عدده كان لا بد من توافر كل ما يحتاجه لحياته. وحينما كان المطر نادراً كان يركز على استدعاء المطر. فالماء هو أكثر ما تحتاجه كل المخلوقات مثله هو نفسه. وهكذا اجتمعت شعائر المطر والتكاثر معاً في أرجاء كثيرة من الأرض، فسواء رقص الناس بأنفسهم من أجل المطر مثلما يفعل هنود الـ"بوبلو" الحمر، أو تحلقوا عطاشي حول ساحرهم الذى ينزل عليهم المطر، كان صيغة الحشد في كل مثل هذه الحالات هى الصيغة الخاصة بحشد التكاثر. ومن أجل إدراك العلاقة الوثيقة القائمة بين التكاثر والتحول كان لا بد من الاطلاع على طقوس الأستراليين⁽⁴²⁾ وهى طقوس تناولها العديد من الباحثين على مدار ما يربو على نصف قرن على نحو هو الأكثر دقة. فالأجداد الذين تدور حولهم أساطير الأستراليين الأولى كانوا كائنات ذات قيمة نفيسة. وهم مخلوقات مزدوجة، جزء منها حيوان وجزء منها إنسان، أو على الأصح كانوا كليهما. وهم من وضعوا الطقوس التى يقوم الناس بأدائها تلبيةً لأمر الأجداد. ومما يسترعى الانتباه أن كلاً منهم قد ربط الإنسان بنوع معين من الحيوان أو النبات. وعلى هذا كان الجد الكنغرو، كنغرو وإنساناً في آن واحد، والجد "أمو" هو إنسان و"أمو". ولم يحدث قط أن قُدِّمَ اثنان من الحيوانات المختلفة في "واحد" من الأجداد. فالإنسان موجود دائماً، أى أنه كان النصف على نحو ما. أما النصف الآخر فهو حيوانٌ محدد. ولكن ليس بوسعنا الإصرار على نحوٍ أو آخر بأن كليهما كان موجوداً في وقت واحد، أى في هيئة واحدة، فسمات كل منهما نشعر بها سماتٍ مختلطة على أكثر الوجوه بساطةً. فمن الواضح أن هؤلاء الأجداد لا يمثلون شيئاً آخر غير نتائج التحولات. والإنسان الذى نجح مراراً بالشعور أنه كنغرو وأن يتخذ هيئته يصير إلى طوطم- كنغرو. وكان هذا التحول المحدد، الذى مورس كثيراً واستُخدِم كثيراً، قد حصل على ماهية الإنجاز الذى دونته الأساطير التى مثلت درامياً، وصار ينتقل من جيلٍ إلى جيل.

إن جد حيوانات الكنغرو التى عاشت حول الناس هناك، قد صار في الوقت نفسه جد تلك الجماعة البشرية الذين يسمون أنفسهم كنغرو. أما التحول الذى ساهم في البداية في هذا النسل المزدوج فكان يتم تمثيله في المناسبات الجماعية. فيقوم رجلٌ أو اثنان بتمثيل الكنغرو. أما الآخرون فكانوا - كمشاهدين - يشاركون في التحول الموروث. وفي عروضٍ لاحقة استطاعوا أن يرقصوا الكنغرو الذى كان جدهم.

إن السعى إلى هذا التحول، والأهمية التى اكتسبها بمرور الزمن، وقيمتها النفيسة بالنسبة لأجيالٍ جديدة من البشر، قد تبدى فى قداسة الطقوس التى كان يتم ممارستها. وقد صار التحول الموفق والراسخ نوعًا من الهبة تتم رعايتها مثل الثروة اللغوية التى تتكون منها لغة ما، أو الثروة الأخرى من المواد التى نعتبرها ماديةً ونشعر بها هكذا مثل الأسلحة والحلى وبعض أجهزة مقدسة بعينها. إن هذا التحول الذى حرص الناس على الحفاظ عليه كتراث وكطوطم، والذى يرمز إلى صلة قرْبى بشر بعينهم بحيوانات الكنغرو، كان يعنى أيضًا ارتباطًا بعددها وهو عددٌ كان يفوق دائمًا عدد البشر، وكان ازديادها مأمولًا وارتبط بنمو عدد الإنسان. فإن تكاثر عددها كان يتكاثر هو أيضًا. فقد تماهى تكاثر حيوان الطوطم مع تكاثره.

إن قوة هذه العلاقة بين التحول والتكاثر لا يمكن إذن تقديرها، فهما يُمضيان معًا كتفًا إلى كتف.

فما إن يترسخ تحولٌ ما، وصار بشكله المحدد تقليدًا معترفًا به، فإنه يضمن تكاثر كلا المخلوقين اللذين صارا غير قابلين للانفصال، فصارا واحدًا. وقد كان الإنسان دائمًا أحد هذين المخلوقين. ففى كل طوطم يضمن لنفسه التكاثر الذى لحيوانٍ آخر، والقبيلة التى تتكون من طوطمات كثيرة تكون قد حازت تكاثر هذه جميعًا. أما العدد الأكبر من الطوطمات الأسترالية فكان من الحيوانات وإن وُجد بينها نباتٌ أيضًا. ولما كان الأمر يرتبط بالنباتات التى يتغذى عليها الإنسان فإننا لم نُدْهَش كثيرًا للطقوس الخاصة بتكاثرها. فقد بدا طبيعيًا أن يتوجه الإنسان إلى ثمار البرقوق والجوز، فصار ينشد الكثير منها، وكذلك بعض المخلوقات التى نعتبرها نحن حشراتٍ ويعتبرها الأستراليون طعامًا شهيقًا، مثل بعض اليرقات والنمل الأبيض وجراد أبى النطاط التى ظهرت كطوطم. فماذا سنقول إن التقينا أناسًا يعتبرون العقارب والقمل والذباب أو البعوض طوطمات لهم، فإنه من الأفضل ألا نتحدث عن ذلك بمعنى الكلمة الفج، فهذه المخلوقات يعتبرها الأستراليون ابتلاءً لهم كما نعتبرها نحن أيضًا كذلك، ولم يجذبهم إليها سوى العدد الهائل لهذه الكائنات. فإذا ما وثِّق صلة قرابة معها لم يكن هدفه من وراء ذلك سوى حرصه على ضمان هذا العدد لنفسه، فالرجل الذى ينتسب إلى "طوطم - بعوضة" يريد أن يكون أهله بكثرة عدد البعوض. وإنى لا أبغى ختام هذه الإشارة العابرة والموجزة إلى الشخصيات المزدوجة الأسترالية دون ذكر

نوع آخر من طوطمات لديهم. ولسوف ندهش للقائمة التالية وهى معروفة للقارئ بالفعل، فمن بين طوطماتهم هناك السحب والمطر والرياح والعشب والحطب والنار والبحر والرمل والنجوم. إنها قائمة رموز الكتل الطبيعية التى شرحناها بإسهاب، وليس هناك دليل على قدمها وأهميتها أفضل من وجودها بين طوطمات الأستراليين. وقد نخطئ إن افترضنا أن حزم التكاثر فى كل مكان مرتبطة بالطوطمات وأنها تمنح نفسها دائماً كثيراً من الوقت بقدر ما كان لدى الأستراليين. فقد كان هناك ممارسات من نوع أكثر بساطة وأكثر كثافة ترتبط بالجاذبية الفورية المباشرة للحيوانات المنشودة، وهى تشتت توافر قطعان كبيرة. فهناك تقرير يعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر عن "رقص الجاموس" الشهير لدى الـ"ماندا"⁽⁴³⁾ إحدى قبائل الهنود الحمر بأمريكا الشمالية: "يتجمع الجاموس أحياناً فى كتل هائلة ليهيم فى كل الاتجاهات خلال البلاد، من الشرق للغرب ومن الشمال للجنوب، إلى مسافات بعيدة حسب هواها. فجأة لا يجد أفراد الماندا شيئاً يأكلونه على الإطلاق. ولما كانت القبيلة صغيرة مقارنة بالأعداد الأكثر قوة، التى يلاحقونها لقتلها، فإن القبيلة لم تجرؤ على الإفراط فى الابتعاد عن موطنها. وهكذا قد تصل بها الحال إلى حد المجاعة. وفى مثل هذه الأزمات يقوم كل رجل منهم بإحضار قنائه من الخيمة، وهو قناع احتفظ به تأهباً لمثل هذه الحالة، وهو جلد رأس جاموس بقرونه. ويبدأ رقص الجاموس بعبارة (الجاموس قادم)، وهو ما ينبغى أى يغوى القطيع، فيغير اتجاهه ليقبل على قرية الماندا. ويُنظم الرقص فى مكان عام بوسط القرية ويشارك فيه عشرة أو خمسة عشر فرداً من الماندا، وكل منهم يضع على رأسه رأس جاموس بالقرون ممسكاً بالقوس بيده أو بالرمح وهو ما يفضل فى قتل الجاموس. وينتج عن الرقص دائماً الأثر المنشود، والرقص لا يتوقف بل يتواصل ليل نهار حتى "يأتى الجاموس" فتُقرع الطبول وتُهمز الشخايل وتُنشد الأغاني وتنطلق الصيحات بلا انقطاع. وعلى جانب يقف المشاهدون بأقنعة على الرؤوس وأسلحة باليد مستعدين لأن يحل أحدهم محل من يتعب ويغادر الحلقة. وفى أثناء هذا الانفعال العام يقف مستطلعون على التلال فى محيط القرية، فإن هم لاحظوا اقتراب الجاموس أعطوا إشارة متفقاً عليها، فتظهر فى الحال بالقرية وتفهمها القبيلة كلها. ومثل هذه الرقصات تستمر لأسبوعين أو ثلاثة حتى حلول اللحظة السعيدة حينما يظهر الجاموس، وهى لا تبوء بالفشل أبداً، ويُنسب إليها مجيء الجاموس. وعادة ما يتعلق بالقناع

شريطٌ من الجلد بطول الحيوان كله وبه الذيل متدليًا على ظهر الراقص ويجره على الأرض. ومن يتعب يبلغ عن ذلك بأن ينحنى تمامًا إلى الأمام مقتربًا بجسده من الأرض ثم يصوب واحدًا آخر القوس نحوه ليصيبه بسهمٍ ثلم، فيسقط أرضًا مثل الجاموس، فيمسك به المحيطون ويسحبونه من كعبيه خارج الحلقة وهم يولوحون بمداهم فوقه. وبعد أن يقوموا بأداء حركات السلخ والتمزيق يدعونه يمضى ليحتل آخر مكانه في الحال ليرقص هذا في الحلقة بالقناع فوق الرأس. وهكذا يمكن بسهولة الحفاظ على مواصلة الرقص ليل نهار حتى يتحقق الأثر المنشود ويأتى الجاموس. ويقوم الراقصون بأداء دور الجاموس والصيادين في آن واحد، ففي تنكرهم يكونون جاموسًا لكن القوس والرمح يميزهم بأنهم صيادون. وما دام أحدهم يرقص فإنه يعتبر جاموسًا ويسلك مسلك الجاموس، فإذا ما حل به التعب صار جاموسًا مُتعبًا فلا يُسمح له بمغادرة القطيع قبل أن يُقتل، فيسقط من سهمٍ أصابه وليس من التعب. فيقوم الصيادون بحمله بعيدًا أو يقطعونه وهو الذى كان فى البداية "قطيعًا" فانتهى به الأمر إلى فريسة. إن فكرة أن حزمة ما تستطيع بالرقص العنيف المتصل أن تجذب قطيع الجاموس الحقيقى تشترط بعض الأمور. فأفراد الماندا يدركون بالخبرة أن الكتلة تنمو وتجذب إلى دائرتها كل ما يوجد بالقرب منها من نفس نوعها. فمهما كانت كثرة الجاموس فإنه ينضم إليه عددٌ أكبر. لكنهم يعرفون أيضًا أن الاستنفار يزيد من كثافة الحزمة. وترتبط قوتها بعنف حركتها الإيقاعية وما ينقصها عددًا تستطيع الحزمة تعويضه من خلال العنف. أما الجاموس، الذى يعرفون مظهره وحركته حق المعرفة، فهو مثل الإنسان كذلك، فهو يحب الرقص وينجذب إلى الاحتفالية من خلال أعدائه المتنكرين. فأما الرقص فهو متصل لأنه ينبغى أن يؤثر عن بعد، فالجاموس الذى يشعر عن بعد بالرقص كقوة جذب الحزمة يستسلم لذلك ما دام رقصًا جادًا. فإذا تراجع الرقص فإنه يكون قد صار حزمة غير صحيحة. فيمكن للجاموس، الذى ربما يكون ما زال بعيدًا، أن يتوجه إلى مكان آخر، فهناك بمواضع أخرى قطعانٌ تستطيع تغيير وجهة الجاموس، فيكون على الراقصين أن يصيروا أقوى جاذبية. فهم، كحشد تكاثر لا يتهاون فى انفعاله لحظة واحدة، يكونون أقوى من أى قطيع غير متماسك، فيجذبون هذا بلا مقاومة.

التناول¹

يُعتبر التناول المشترك للطعام حدثًا تكاثريًا من نوعٍ خاص. فطبقًا لنظام ما يُسلم لكل مشاركٍ قطعةً من الحيوان الذبيح، فيأكل هؤلاء معًا ما كانوا حصلوا عليه معًا، فتحل أجزاءً من الحيوان نفسه في جسد الحشد كله. فشيءٌ من هذا الجسد يحل فيهم جميعًا. فهم يمسكون ويقضمون ويلوكون ويتلعون الشيء نفسه، وكل من أكل من ذلك صار مرتبطًا بالآخرين من خلال هذا الحيوان بعد أن حل بهم جميعًا. وشعيرة الالتهام الجماعي هذه هي ما تُعرف بـ"التناول"، وهو يتخذ معنى خاصًا به، فهو يجب أن يجرى على نحو يُشعر الحيوان المأْكول بالتكريم، فهذا سيعود ويحيا بكثيرٍ من إخوته، لذا لا تُحطَّم عظامه بل يُحتَفَظ بها بعناية. فإذا ما أدى المرء كل شيء على وجهه الصحيح، كما ينبغي، فإن العظام تكتسى مرةً أخرى باللحم، فينهض الحيوان ليتم اصطياده ثانيةً. فإذا ما أخطأ المرء وشعر الحيوان بالإهانة فإنه ينسحب، ويهرب مع كل إخوته، فلا يرى المرء أحدًا منها بعد ذلك، ليجوع الناس. وفي أثناء أعيادٍ معينة يتخيل المرء

1 التناول: يعرف بسر الشكر وهو شعيرة كنسية يتناول خلالها المسيحي شيئاً من خبز وشيئاً من خمر، على أن يؤمن المتناول أن ما أكله وما شربه ليس سوى جسد المسيح ودمه. ومن خلال هذا السر يمنح المرء الحياة الأبدية. (المترجم).

أن الحيوان الذى يأكل منه موجود بشخصه، وعلى هذا النحو كانت تتعامل بعض شعوب سيبيريا مع الدب كضيفٍ فى أثناء التهام هذا الدب، فهم يُكرِّمون هذا الضيف بأن يضعوا أمامه أفضل قطعة من جسده، وهم يجيدون مخاطبته بعباراتٍ احتفاليةٍ مُقنعةٍ ويرجونه التوسط لهم لدى إخوته، فإن أدركوا كسب وده فإنهم يقبلون فرحين على الصيد. ومثل هذه التناولات يمكن أن تفضى إلى زيادة حجم (حزمة) حشد الصيد، فالنساء وكل الرجال الآخرين، ممن لم يشاركوا فى القنص، يشاركون فى ذلك، ويمكن أن يقتصروا على مجموعةٍ صغيرةٍ تتناسب مع مجموعة الصيادين نفسها. وما دام الحدث الداخلى مرتبطاً بماهية الحزمة فإنه يظل هو نفسه، فينتقل حشد الصيد إلى حشد التكاثر. وقد نجحت عملية صيد ما وأكل المرء من غنيمتها إلا أنه يظل فى لحظة التناول الاحتفالية هذا مترعاً بتصور كل أعمال الصيد القادمة. فالصورة غير المرئية لكثلة هذه الحيوانات، التى ينشدها المرء، تداعب خيال كل من يشارك فى الوجبة ويكون حريصاً على أن يجعلها حقيقةً جلية.

وقد تم الحفاظ على هذا التناول المبكر للصيادين حيثما كان الأمر يدور حول آمال تكاثر لنوع آخر تماماً. وقد يكون هؤلاء فلاحين، اعتمدوا على تكاثر حبوبهم أو غذائهم اليومى، فهم يحتفلون ويطعمون معاً من جسد حيوان، مثلاً كان يحدث فى العصور القديمة حينما كانوا صيادين فقط. وفى الأديان الكبرى كان للتناول دورٌ جديد، وهو فكرة تكاثر المؤمنين. فإذا استمر التناول قائماً، وظل يؤدَّى على النحو الصحيح، فإن العقيدة سوف تنتشر على نحوٍ أوسع وسوف يزداد عدد المؤمنين بها باطراد. أما الأهمية الكبرى، كما نعرف، فكانت للوعد بالبعث والقيامة. والحيوان الذى يأكل منه الصيادون سوف يبعث ليتم اقتناصه ثانيةً. وهذا الاستدعاء للبعث يصير هدفاً أساسياً فى التناولات العليا، لكن بدلاً من الحيوان فإن جسد الإله هو الذى يؤكل ويتخذ المؤمنون من بعثه بعثاً لهم. وسوف نتحدث عن عنصر التناول هذا عند معالجة أديان المناحة. أما ما يهمنا هنا فهو انتقال حشد الصيد إلى حشد تكاثر، فنوعٌ محدد من تناول الطعام يضمن تكاثر الغذاء، وهو ما قُدِّم فى البداية جسداً حياً. وهنا يتجلى التوجه للحفاظ على المادة الروحية الثمينة للحشد بأن يبدلها المرء إلى شئ جديد. ومهما كانت "المادة" - وإن كان هذا التعبير هنا محل تساؤل - فإنه يتم بذل كل جهدٍ حتى لا تتحلل وتفنى. والصلة بين تناول الطعام وبين تكاثر

الغذاء يمكن أن تكون صلةً مباشرة حتى من دون عنصر البعث والقيامة. ولنتأمل معجزة تناول الطعام في العهد الجديد حينما أشبعت خمسة أرغفة وسمكتان آلافًا كثيرة من الجوع.

الحشد الداخلى والحشد الساكن

يمكن للأشكال الأربعة الرئيسية للحشود أن تتجمع على عدة وجوه. كما يمكننا أن نميز بين الحشد الداخلى والحشد الخارجى. أما الحشد الخارجى فهو الأكثر لفتًا للانتباه، وبذلك يمكننا معرفة ملامح طبيعته على نحو أسهل، حيث إنه يتجه صوب هدفٍ يقع فى الخارج، وهو يمتد على طريقٍ طويل، وحركته مقارنةً بحركات الحياة العادية تكون حركةً مطردة. وكلُّ من حشد الصيد وحشد الحرب هما من الحشود الخارجية. فالحيوان البرى الذى يتم قنصه لا بد من العثور عليه ثم مداهمته، والعدو الذى لا بد من محاربته يجب البحث عنه. فالنشاط الحقيقى للحشد الخارجى يستمر مهما كان الانفعال الذى يتحقق من خلال رقص القنص أو الحرب فى الحال. أما الحشد الداخلى فينتوى على عنصر التركيز، فهو يتكون حول ميتٍ ينبغي دفنه. أما توجهه فهو الاحتفاظ بالشئ وليس الحصول عليه. فالمناحة على الميت تشدد بكل السبل على مدى انتماء هذا الشخص إلى هؤلاء الذين التفوا حول جثته. أما هو فعليه أن يشق طريقه الطويل وحيداً، وهو طريقٌ خطرٌ مروع، حتى يلحق بالموثق الآخرين الذين ينتظرونه ويقبلونه بينهم. ولما كان الميت لا يدعمه يحتفظون به فإنهم يحاولون

على نحوٍ ما إدماجه فيهم. أما الذين ينوحون عليه فإنهم، بوصفهم حشداً، يمثلون ما يشبه الجسد الخاص الذى لا يغادره ولا يبتعد عنه إلا بشق الأنفس. ويعتبر حشد التكاثر أيضاً حشد داخلى، فهو مجموعةٌ من الراقصين يجب أن تتشكل متحلقةً من الخارج حول بذرةٍ لم يكن قد ظهر منها شيء، على أن ينضم إلى أفرادها أناسٌ آخرون، أو حيواناتٌ أخرى إلى تلك التى يسعى المرء لقنصها أو تربيتها، أو تنضم ثمار أكثر إلى تلك التى يتم حصدها. ويكون الشعور السائد هو الإيمان بانضمام كل شيء إلى ما هو موجود بالفعل، أى إلى تلك الوحدات المرئية التى يقدرها المرء على نحوٍ عظيم. فهذا الآخر موجودٌ بموضعٍ ما، وعلى المرء فقط أن يجذبه إليه. وينزع الإنسان إلى إقامة الطقوس هناك حيث يظن بوجود عددٍ كبير من تلك الكائنات غير المرئية. وقد رأينا فى طقس "التناول" هذا الانتقال المهم من حشد خارجى إلى حشد داخلى. فالحشد يتحول إلى داخلها من خلال التهام حيوانٍ ما قُتل فى أثناء القنص ومن خلال الوعى الاحتفالى بأن شيئاً منه سوف ينتقل إلى داخل كل المشاركين حالما أكلوا منه، فيكون بوسعها فى هذه الحال توقع بعثه وكذلك تكاثره بالمقام الأول.

والنوع الآخر للتقسيم يقوم على التمييز بين الحشد الساكن وحشد الصخب، ويكفى ذكر مدى صخب المناحة، فهى تفقد معناها إن لم تلفت النظر بشدة. وما إن يصل الصخب إلى منتهاه، فلا يُسمع أو يخبو على نحوٍ آخر يكون شملٌ حشد المناحة قد تفرق ومضى كلٌ إلى حال سبيله. فالصخب ملازمٌ لطبيعة الصيد والحرب. فإذا تطلبت الخديعة السكون للحظةٍ يصل الحدث ذروته فى المقابل على نحوٍ أكثر صخباً. فمن سمات اللحظات الحاسمة فى حدث الصيد هو نباح الكلاب وصيحات الصيادين التى تؤجج الانفعال والتعطش للدم. ولكن فى الحرب كانت الوحشية وتهديد العدو أمراً لا غنى عنه منذ القدم. فقد استمرت صيحات القتال وصخب المعارك عبر التاريخ. ومن دون دوى الانفجارات لا تنتهى الحرب اليوم كذلك.

أما الحشد الساكن فهو من حشود التوقع والانتظار، إذ إنه يتحلى بالصبر، صبراً لافتاً لانتباه الجموع، وهو ما يتجلى فى كل مكانٍ حيثما يكون هدف الحشد الذى لا يتحقق من خلال الانقضاض السريع والمستنفر. وربما تكون كلمة "ساكنة" هنا وصفاً مراوفاً بعض الشيء، أما دلالة "حشد الانتظار" فوصفٌ أكثر وضوحاً

لأن كل الممارسات الممكنة مثل الأغاني والتعاويذ والضحية يمكن أن تعرف هذا النوع من الحشود. ويضاف إليها استهداف شيء بعيد لا يمكن أن يكون قريباً في هذه الحال.

إنه هذا النوع من التوقع والسكون فهو الذى ورد ذكره بالأديان الأخروية. وعلى هذا النحو نرى بشراً يقضون حياتهم آملين في حياة أفضل في العالم الآخر. لكن "التناول" يظل هو المثل الأكثر وضوحاً عن الحشد الساكن. فحدث الاندماج يتطلب سكوناً مركزاً وصبراً، فالرهبة من كل معاني التقديس التى تسكن نفس الإنسان تتطلب مسلكاً هادئاً وكرماً لفترةٍ من الزمن.

خصوصية الحشد وثباته عبر التاريخ

إننا نعرف المتوفى الذى نبيه. أما من له الحق فى الانضمام إلى حشد المناحة فهم من كانوا على صلةٍ قريبةٍ به أو يعرفون قدره. فالألم يزداد بقدر صلة القربى. فمن هو أكثر قرباً من المتوفى يكون نواحه أكثر صخباً. وتحتل الأم قمة المناحة، فهى التى خرج المتوفى من رحمها. أما الغرباء فلا يحزن أحدٌ عليهم. فحشد المناحة لا يتكون أصلاً إلا من أجل أحدٍ بعينه.

لكن هذه "الخصوصية" - ارتباطاً بموضوعها - هى التى تميز كل ألوان الحشد، فلا يعرف كل من ينضم إلى حشدٍ ما بعضهم البعض معرفةً جيدةً فحسب، بل إنهم يعرفون أيضاً هدفهم منه. فإن هم خاضوا حرباً ما فلا بد أن يكونوا على معرفةٍ جيدةٍ بعدوهم. وحزن أعضاء حشد المناحة ينصب على ميتٍ يعرفونه جيداً، وهم فى طقوس التكاثر يعرفون بدقةٍ ما ينبغى عليه التكاثر.

وللحشد خصوصية مخيفة غير قابلة للتغيير، إلا أن هذه الخصوصية تنطوى كذلك على عنصر الحميمية والألفة، إذ لا يمكن إغفال وجود شعور ما من حنان ومحبة مميزة فى نفوس الصيادين البدائيين تجاه غنيمتهم. كما أن تلك الألفة

الرقيقة هو شعورٌ طبيعي في حالتى حشد المناحة والتكاثر، بل أحياناً ما يحرص العدو نفسه على اكتسابه لهذا الشعور بالثقة بمجرد فقدان الشعور بالخوف منه.

إن الأهداف التى ينطوى عليها الحشد فى حد ذاته تظل دائماً كما هى. وأما إمكانية التكرار التى تفضى إلى اللانهاية، من حيث تلاؤمها مع كل مجريات حياة الإنسان، فهى أيضاً سمةٌ تميز حشود الإنسان. فثمة خصوصية وتكرار يقودان فى هذا الإطار إلى نشأة أشكال هائلة للثبات والاستمرارية. إن هذه الاستمرارية هى الحقيقة التى تكون طوع الإنسان وتحت تصرفه دوماً، وهى ما تيسر إمكانية استخدامها فى المجتمعات المدنية الأكثر تعقيداً، فكان يتم استخدامها مراراً وتكراراً كبلورة كتلة، إذا ما تطلب الأمر استدعاء كتلة على وجه السرعة.

لكن هناك أيضاً الكثير من الموروثات البالية فى حياة مجتمعاتنا الحديثة تتجلى فى هيئة حشود. فالحنين إلى وجودٍ بسيط أو طبيعى، وإلى التخلص من الضغوط القهرية والالتزامات المتزايدة لعصرنا هذا، ينطوى أيضاً على هذا المضمون: إنها الرغبة نحو حياة فى حشود "منعزلة". فرحلةٌ لصيد الثعالب فى إنجلترا أو رحلةٌ بحرية بالمحيط فى زوارق صغيرة وطاقم قليل العدد أو بيأتٍ جماعى فى ديرٍ ما أو رحلةٌ استكشافية لبلادٍ مجهولة، بل والحلم بحياةٍ مع عددٍ قليل من الناس فى طبيعةٍ رومانسية حيثما يتكاثر كل شئ، على نحوٍ ما، ذاتياً من دون أدنى جهد من جانب الإنسان - كل هذه الحالات الموروثة مجتمعة هى تصور لعددٍ قليلٍ من الناس فى إقامة علاقةٍ من الثقة والحميمية بين بعضهم البعض، ويتشاركون فى إطار مشروع واضح وصريح لخصوصية كبرى، أو تخطيط محدد نظامٍ كبير أو انعزالى.

وحتى اليوم لا نزال نرى أمام أعيننا شكلاً سافراً من أشكال الحشود، وهو يتجلى فى كل تطبيق فعليٍّ لقانون الإعدام من دون محاكمة عادلة. والكلمة مثل الأمر نفسه، فالأمر مرتبطٌ بإلغاء العدالة التى لا تعتبر المدان شيئاً ذا قيمة، فينبغى عليه أن يموت كحيوان من دون الأخذ بأية اعتبارات من تلك المألوفة لدى البشر، فاختلفه فى المظهر والمسلك والفجوة بينه وبينهم الناشئة عن شعور القتل هو ما ييسر لهم معاملته كحيوان. وكلما طال ابتعاده عنهم بالهروب تأججت شهوتهم فى التحول إلى حشد، فرجلٌ بكامل قوته، رجلٌ يستطيع الركض

بقوة، يمنحهم الفرصة للقنص الذى تملكهم الرغبة فيه، والذى هو طبقًا لطبيعته لا يمكن أن يتكرر كثيرًا. وندرة فرصة هذا الصيد هى ما تؤجج مشاعر الإثارة لديهم. أما الغلظة التى يستبيحونها فى أثناء هذا العمل فىمكن تفسيرها بأنه ليس فى مقدورهم التهامه. فربما تصوروا أنهم بشر لأنهم لم ينشبوا أسنانهم فى لحمه.

إن الإدانة ذات الطبيعة الجنسية التى ينشأ عنها غالبًا هذا النوع من الحشد تجعل من الضحية كائنًا خطرًا. فالمرء يتخيل جرمته الحقيقية أو المزعومة. فارتباط الرجل الأسود بامرأة بيضاء، أى تصور تقاربهما الجسدى، هو الأمر الذى يؤكد على اختلافهما فى أعين المنتقمين، فالمرأة تصير أكثر بياضًا، مثلما يصبح لون الرجل دائمًا أكثر سوادًا، وهى فى نظرهم بريئةٌ لأنه بوصفه رجلاً أقوى منها. فإن كانت قد ارتضت ذلك فلا بد أن قوته الفائقة هى التى خدعتها. وفكرة التفوق هذه هى ما تتجاوز طاقة تحملهم، وهى ما ترغمهم على التوحد ضدها. فالرجل، كحيوانٍ كاسر، كان قد انقض على امرأة، فكان لا بد من التحريض ضده وقتله بيد الجماعة، وهم يرون فى قتله أمرًا مباحًا يملأهم بالرضا.

الحشود فى أساطير أجداد قبائل الـ"أراندا"

ترى ما هو تصور سكان أستراليا الأصليين عن شكل الحشد؟ هناك أسطورتان لأجداد قبيلة الـ"أراندا" تعطيان صورة واضحة عن ذلك. فتدور الأولى حول "أونجوتنيكا" وهو كنغرو شهير من الزمن الباكر الأسطورى.⁽⁴⁴⁾ أما الرواية التالية فتحكى عن تجاربه مع الكلاب البرية:

"لم يكن قد أتم نموه حيواناً صغيراً ليتجه إلى الهجرة. وبعد أن ارتحل لثلاثة أميال تقريباً كان قد وصل سهلاً مفتوحاً، حيث رأى هناك حزمة من كلاب برية كانت ترقد ملتصقةً بأمتها، فأخذ يقفز حولها ليرى الكلاب البرية. وهنا لاحظته هى وشرعت فى مطاردته، فقفز بأسرع ما أمكنه مبتعداً، إلا أنها أمسكت به فى سهل آخر فمزقت جسده وأكلت كبده أولاً، ثم سلخت جلده وألقت به جانباً ونزعت كل لحمه عن عظمه. وما إن انتهت من ذلك حتى رقدت مرةً أخرى. إلا أن أونجوتنيكا لم يكن قد قُضى عليه تماماً فقد تبقى جلده وعظمه. وأمام أعين مطارديه جاء جلده ووضعه نفسه على عظامه، فنهض مرةً أخرى وركض مبتعداً، فتعقبته الكلاب وأمسكت به هذه المرة عند تل أوليما. و(أوليما) يعنى (الكبد)، وقد سمي كذلك لأن الكلاب هذه المرة لم تأكل الكبد وإنما ألقت به

ليصير تلاً معتمًا، وهو ما صار اسمًا لهذا المكان. وما حدث قبل ذلك حدث الآن مرةً أخرى. فقد ركض حتى وصل بولونيا، وهى كلمةٌ تطلق على صخبٍ خاص تصدره الخفافيش الصغيرة. وقد دار أونجونتيكا حول هذا الموضع وأصدر هذا الصوت الصخب لكي يسخر من الكلاب التى أمسكت به مرةً أخرى ومزقته. إلا أنه صار كاملاً ثانيةً ما أثار دهشةً كبيرةً لمطارديه، وركض حتى أونديارا والكلاب وراءه. وما إن وصل إلى ثقب ماءٍ حتى أمسكت به والتهمته وقطعت ذيله، ودفنوه هناك حيث يوجد إلى اليوم في هيئة حجرٍ، وهو يدعى شورينجا، أى ذيل الكنغرو. وفي أثناء طقوس التكاثر يتم إخراجهم من مدفنه وعرضه وحكه بعناية.

لقد قام حشد الكلاب باصطياد الكنغرو أربع مراتٍ، فيقتل ويُمزق ويتم التهامه. أما في المرات الثلاث الأولى فلم يُمس جلده وعظمه، وما دامت هذه سليمةً كان بوسعه القيام ثانيةً. وقد نما جسده بعد ذلك لتصطاده الكلاب ثانيةً. وهكذا يكون قد تم التهام الحيوان نفسه أربع مراتٍ. فأما اللحم الذى أكل فإنه يعود للظهور فجأةً، فصار من كنغرو واحدٍ أربعة حيواناتٍ، إلا أنها كانت دائماً الحيوان نفسه، كما كان الصيد هو نفسه أيضاً، فلم يتغير سوى موضعه. وقد صارت مواضع هذه الأحداث الرائعة علماً خالداً على الطبيعة. وأما المقتول فلم يستسلم ليعاود الحياة ثانيةً ويسخر من الحشد الذى وقع أسير الدهشة. لكنه هو أيضاً لم يتراجع فكان عليه قتل فريسته حتى لو كان قد أكلها. إن إصرار الحشد وتكراره لفعلها لا يمكن أن يُدرك على نحوٍ أوضح وأبسط من ذلك. أما تحقيق التكاثر فقد حدث هنا من خلال نوعٍ من البعث، فالحيوان لم يكن بالغاً ولم ينبج أبناءً، لكنه في مقابل ذلك ضاعف نفسه أربع مرات. فالتكاثر والتناسل كما نرى ليس شيئاً واحداً. فقد تم البعث من الجلد والعظم أمام أعين المطاردين فأغراهم بالصيد. أما الذيل، الذى دُفن، فقد ظل باقياً كحجرٍ، كعلمٍ على هذه المعجزة وشاهدٍ عليها. وانتقلت قوة ذلك البعث بأربعة أضعافٍ إلى هذا الحجر. فإذا ما تعامل معه المرء على نحوٍ سليم، مثلما يحدث في الطقوس، فإنه يساعد دائماً على التكاثر.

أما الأسطورة الثانية فتبدأ بمحاولة اقتناص رجلٍ لكنغرو كبير وقوى⁽⁴⁵⁾. فبعد أن رآه شاء قتله والتهامه، فاقتفى أثره لمسافاتٍ بعيدة. فكانت عملية صيدٍ طويلة المدى. وقد أقام كلٌ منهما في أماكن كثيرة على بعدٍ محدد بين بعضهما البعض.

وفي كل مكانٍ كان يُمكث فيه الحيوان كان يترك أثراً في طبيعة هذا المكان. ففى موضعٍ ما سُمِع صوت صخبٍ فنهض على ساقيه الخلفيتين، وما زال هناك حجرٌ بارتفاعٍ ثمانية أمتارٍ يمثل هذا الوضع إلى اليوم. وفيما بعد قام بحفر ثقبٍ في الأرض لِيبحث عن الماء وما زال ثقب الأرض هذا موجوداً كذلك. لكن في نهاية الأمر حل إرهابٌ مضنٍ بالحيوان فرقد. وقد التقى الصياد بعددٍ من الرجال ينتمون مثله إلى الطوطم نفسه. لكنهم كانوا من جماعةٍ أخرى أقل شأناً. فكان أن سأل هؤلاء الصياد: هل لديك رماحٌ كبيرة؟ فأجاب: كلا، بل صغيرةً فقط، فهل لديكم رماحٌ كبيرة؟ فقالوا: كلا، بل صغيرة فقط. وهنا قال الصياد: فلتلقوا برماحكم إلى الأرض. فقالوا: حسناً ولتلق أنت برماحك إلى الأرض. فألقى بالرماح إلى الأرض ليهاجم الرجال الحيوان متوحدين. ولم يكن الصياد الأول يحتفظ إلا بدرعٍ وحجره المقدس شورينجا بيده.

كان الكنغرو قوياً للغاية فدفع الرجال بعيداً عنه. وهنا قفزوا جميعاً على الحيوان ليقع الصياد بين (كوم) رهط الآخرين ليموت دهباً بالأقدام. وبدا أن الكنغرو كذلك قد مات. فقام هؤلاء بدفن الصياد مع درعه والشورينجا وأخذوا معهم جسد الحيوان إلى أونديارا. إلا أنه لم يكن قد مات بالفعل، لكنه مات بعد ذلك ليوضع في كهفٍ ولم يؤكل. وهناك حيث كان جسد الحيوان نشأت قاعدة حجر في الكهف. وبعد موته حلت روحه في هذا الحجر. وسرعان ما مات الرجال بعد ذلك أيضاً وحلت روحهم في بركةٍ بجوار ذلك مباشرةً. وتذكر المراجع أن جماعاتٍ غفيرة من الكنغرو جاءت في أزمانٍ لاحقة إلى الكهف ونزلوا هناك إلى باطن الأرض، فحلت أرواحها أيضاً في الحجر".

لقد انتقل الصيد الفردي هنا إلى صيدٍ لجماعةٍ كاملةٍ تهاجم الحيوان من دون سلاح. تشاء دفنه تحت (كوم) رهط من الرجال، ليخنقه ثقل الصيادين المتوحدين، إلا أنه كان قوياً للغاية فدافع عن نفسه، ما صعب الأمر على الرجال. وفي حمى الصراع وقع الصياد الأول نفسه تحت (الكوم) الرهط، وبدلاً من الكنغرو مات هو دهباً بالأقدام. فقام الآخرون بدفنه مع الدرع وحجره المقدس شورينجا.

إن قصة (حزمة) حشد الصيد التى استهدفت حيواناً بعينه، ومن خلال الخطأ قتلت الصياد الأسمى بدلاً من الحيوان هى قصةٌ منتشرة في أرجاء الأرض، وقد انتهت إلى مناحيةٍ على الميت. وهكذا تحول (حزمة) حشد الصيد إلى حشد

مناحة. إن هذا التحول هو أساس كثير من الأديان المهمة ذات الانتشار الواسع. وهنا كذلك في أسطورة الـ"أراندا" هذه يُذكر دفن الضحية، وقد دفن معها الدرع وحجر شورينجا. أما ذكر شورينجا، الذي يعتبر مقدسًا، فإنه يمنح الحدث صفة الاحتفالية. أما الحيوان نفسه الذى مات لاحقًا فقد دُفِن في مكان آخر وصار كهفه مركزًا لحيوانات الكنغرو. فقد أتى الكثير منها في أثناء مراحل أخرى إلى الصخرة نفسها ليحلوا داخلها. أما الـ"أونديارا" وهو اسم المكان فقد صار موضعًا مقدسًا يحتفل فيه المنتمون لطوطم الكنغرو بطقوسهم. وهم يخدمون تكاثر هذا الحيوان. وما داموا يتقدمون على الطريق الصحيح فإنه سوف يتوافر بالموضع المجاور ما يكفى من حيوانات الكنغرو.

ومن غرائب الأمور أن يتلازم في هذه الأسطورة حدثان أساسيان متخذين السمة الدينية. أما الأول فينطوى، كما ذكر، على تحول حشد الصيد إلى حشد مناحة. أما الثانى الذى يُصعد من حدة وتيرة الأحداث فهو يصور تحول حشد الصيد إلى حشد تكاثر. ويعتبر الأستراليون الحدث الثانى أكثر أهمية بكثير، فهو يعتبر عن حق بمثابة القلب لعقيدتهم. أما تلازم الحدثين فإنه يؤيد النظرية الرئيسة لهذه المحاولة. فكل من الأنواع الأربعة الأساسية موجودة منذ البداية وفي كل موضع يوجد به الإنسان. وهكذا تتوافر دائمًا إمكانية كل تحول من حشد إلى آخر. وحسب النبذة المؤكدة لهذا التحول أو ذاك تنشأ الأشكال الأساسية الدينية المختلفة. وأنا أميز ديانات المناحة عن ديانات التكاثر بوصفهما المجموعتين الأكثر أهمية. لكن هناك، كما سيتضح، ديانات الصيد وديانات الحرب. وآثار الأحداث الحربية متوافرة حتى في الأساطير السابقة. فحدث الرماح الذى دار بين الصياد الأول وبين مجموعة الرجال التى التقاها، يُظهر إمكان حدوث قتال. إلا أنهم تراجعوا عن النزال عندما ألقوا كل حراهم إلى الأرض في الحال. وبعد ذلك هاجموا الكنغرو متوحدين. وهنا نجد أنفسنا في مواجهة النقطة الثانية والتى تتبدى في هذه الأسطورة على نحوٍ يسترعى الانتباه، أى رهط الرجال الذى ألقى بنفسه على الكنغرو، وهم كتلة مترابطة من أجساد بشرية تخنق الحيوان. وغالبًا ما يذكر الأستراليون هذا الكوم من الأجساد البشرية، وهو ما يترأى للمرء في أثناء شعائرتهم. ففي لحظة بعينها في أثناء طقوس ختان الصبية الصغار فإن الشخص المرشح ليرقد على الأرض ليرقد فوقه عدد من الرجال فيكون عليه تحمل ثقلهم جميعًا⁽⁴⁶⁾. وفي طقوس بعض القبائل يقوم كوم من الرجال بإلقاء

نفسهم فوق المحتضر ويضغطون عليه بشدة من كل جانب. وهذه الحال التي نعرفنا عليها بالفعل هي حالة مهمة للغاية، فهي تستعرض حدث الانتقال إلى كوم المحتضرين والموتى، الذى يُذكر كثيراً في هذا الكتاب. وفي الفصل التالى سوف نعالج بعض حالات التكتلات البشرية الأسترالية المكثفة. وقد نكتفى هنا بإبداء ملاحظة أن رهط الأحياء المكثف على نحو متعمد وعنيف لا يقل أهمية عن رهط الموتى. فإن بدا لنا رهط الموتى أكثر قرباً فإن ذلك يرجع إلى أنه قد اتخذ ابعاداً هائلة على مر التاريخ. وهكذا كان لا بد من أن تبدو لنا أعداد الموتى الغفيرة هي الأقرب لنا. لكن رهط الأحياء معروفٌ كذلك بالقدر نفسه: فليس هناك شيء آخر في نواة الكتلة الجماهيرية.

التشكيلات البشرية عند قبيلة الـ"أراندا"

لقد أخذنا أسطورتى الأجداد اللتين تعرفنا عليهما من كتاب "سبنسر وجلين" عن قبيلة أراندا (المعروفة بالـ"أروناتا") وقد حُصِّص الجزء الأعظم من هذا المؤلف الشهير لوصف احتفالاتها وطقوسها التى يصعب علينا وضع مفهوم معقول عن تنوعها⁽⁴⁷⁾. وما يسترعى الانتباه هنا بشدة هو ثراء التشكيلات الفيزيائية التى يكوّنها المشاركون فى أثناء أداء الطقوس. وهناك بعض من هذه التشكيلات معروفة لدينا تمامًا لأنها احتفظت بأهميتها حتى يومنا هذا، وبعض منها طريف لغرابته الشديدة. وسوف نذكر عددًا محدودًا منها. فـ"مارش الإوزة" يظهر غالبًا فى كل الفرائض السرية التى يتم أدائها فى صمتٍ، فيتطلب مارش الإوزة أن يخرج الرجال لإحضار أحجارهم المقدسة "الشورينجا" التى يُحتَفَظ بها مخبوءةً فى كهوف أو مواضع أخرى. وربما يمضون نحو الساعة حتى يصلوا إلى هدفهم هذا. أما الشبان الصغار الذين يصطحبون هذه الحملات فلا يسمح لهم بطرح الأسئلة. وأما الرجل العجوز الذى يخضع هؤلاء لقيادته فإنه يستخدم لغة الإشارة إذا شاء شرح بعض أشكال الموضوع ذى الصلة بأساطير الأجداد. وفى طقوسهم الخاصة يظهر عددٌ قليل من الممثلين الذين تجهزوا فى هيئة أجداد طوطم ويؤدون دورهم. وفى

أحوال كثيرة يكون هؤلاء اثنين أو ثلاثة، وغالبًا ما يكون واحدًا فقط. أما الشباب فيشكلون دائرةً ليرقصوا حولها مطلقين في أثناء ذلك بعض الصيحات. وهذا السعى في حلقةٍ هو أحد التشكيلات الغالبة التي يتم ذكرها مرارًا. وفي مناسبةٍ أخرى في أثناء طقوس "أنجورا"، وهى الحدث الأهم والأكثر احتفاءً في حياة القبيلة فإن الشباب يصطفون طابورًا عند تلٍ ويتمددون على الأرض، ويظلون هكذا صامتين لساعاتٍ طويلة. وهذا الرقود المصطف يتكرر غالبًا، وقد يستمر في المرة الواحدة لثمانى ساعاتٍ، من التاسعة مساءً حتى الخامسة فجرًا. وهناك تشكيلٌ أكثر روعةً، حيث يتقارب الرجال في جمعٍ غفير على نحوٍ مكثف تمامًا، ويقف الكبار في الوسط ويلتف الشباب حولهم. إن هذا التشكيل الأسطواني الشكل الذى يضغط فيه كل المشاركون أنفسهم إلى بعضهم البعض على نحوٍ مكثف يقوم بالدوران حول نفسه ساعتين كاملتين وهم يرقصون بينما لا يتوقف الغناء في أثناء ذلك، ثم يجلسون جميعًا بنفس الترتيب بينما يظل الكوم متماسكًا على ما كان عليه في أثناء وقوفه ليواصل الرجال الغناء ربما لساعتين أخريين مرةً أخرى. وأحيانًا ما يقف الرجال في صفين متواجهين وهم يغنون. ومن أجل الطقوس الحاسم الذى يختتم فصل الـ "أنجورا" الشعائرى يتشكل الشباب على شكل مربع ويذهبون بصحبة الكبار إلى الجانب الآخر من حوض النهر حيث ينتظرهم النساء والأطفال. وهذا الطقوس ثرىً بالتفاصيل للغاية. وتبعًا للترتيب الذى وضعناه الذى يهتم بالتشكيلات فقط فإننا نذكر هذا الرهط على الأرض الذى يتكون من كل الرجال معًا. أما الأجداد الثلاثة والذين يحملون شكلًا مقدسًا للغاية يمثل جرابًا يحتوى على أطفال الزمن المبكر، فإنهم يقعون أولاً ويغطون بأجسادهم هذا الشكل الذى لا يسمح فى الواقع للنساء والأطفال برؤيته. ثم يندفع كل الرجال الآخرين وأغلبهم من الشباب، والذى أقيم هذا الطقوس تكريمًا لهم، إلى الرجال الثلاثة ليرقد الجميع معًا من دون حراكٍ على الأرض، فلا يمكن التعرف مطلقًا إلا على رؤوس الكبار الثلاثة التى ترتفع من بين الرهط ويظلوا راقدين هكذا لبضع دقائق، ثم يحاولون جميعًا النهوض والإفلات. ويظهر هذا التشكيل فى مناسباتٍ أخرى، إلا أن هذه المناسبة هى أعظم وأهم مناسبةً ذكرها المراقبون. أما فى أثناء "تجارب النار" فيرقد الشباب أعلى فروع أوراق حارة، لكنها بالطبع ليس فوق بعضها البعض. وتتخذ أحداث "تجارب النار" أشكالًا مختلفة وتجرى إحداها غالبًا على هذا النحو، فيمضى الشباب إلى بقعةٍ على الجانب الآخر من

حوض النهر حيث تنتظرهم النساء في مجموعتين لتندفع النساء نحوهم وهن يطرن الشباب بوابلٍ من الفروع المتقدة. وفي مناسبةٍ أخرى يقف الصف الطويل من الشباب في مواجهة صفٍ من النساء والأطفال وترقص النساء، ويطيح الرجال بكل قوتهم بفروعٍ متوهجة فوق رؤوسهم.

وفي طقس الختان تتكون طاولةٌ من ستة رجالٍ يرقدون على الأرض، ويرقد الصبي المرشح فوقهم لتجرى له الجراحة على هذا الوضع. وقد ذُكر في فصلٍ سابق الرقود فوق الصبي المنتمى إلى الطقس نفسه. فإن بحثنا عن مغزى في هذه التشكيلات فقد نقول التالي: يعبر "مارش الإوزة" عن الترحال، وهو ما لا يمكن إغفال قيمته في تقاليد القبيلة على الإطلاق، ففي الغالب يكون الأجداد قد رحلوا إلى باطن الأرض، فيبدو الأمر كأنه ينبغي على واحدٍ من الشباب أن يقتفى أثر الأجداد بنفس الأداء. أما صمتهم فينطوى على توفير السبل والأهداف المقدسة. والسعى في دائرة أو الرقص في حلقةٍ يبدوان ترسيخاً لماهية العروض التي تقوم في وسطها. فالمرء يقوم بحماية هؤلاء من كل الغرباء خارج الدائرة وتكون مكافأتهم هي التشجيع والتكريم والإشادة بهم. أما الرقود في صفٍ فيمكن أن يكون تمثيلاً للموت، ويظل الصبي على هذا الوضع صامتاً تماماً، فلا يحركون ساكناً لساعاتٍ طويلة ثم يقفزون فجأةً ليعودوا مرةً أخرى إلى الحياة. وأما الصقان اللذان وقفوا متواجهين ليهاجم بعضهما البعض فإنهما يعبران عن الانقسام إلى حشدين معادين، بينما يستطيع الجنس الآخر أن يحل محل الحشد المعادي.

أما الشكل المربع فيبدو هنا بالفعل كشكلٍ للحماية من كل جانب ويشترط أن يتحرك المرء في محيطٍ معادٍ، وهو ما عُرف جيداً بما يكفي في التاريخ المتأخر. ويتبقى الآن الشكلان الأكثر كثافةً بالفعل، وأولهما الأسطوانة الراقصة التي تغص بالناس تماماً، ويكون (الكوم) الرهط المضطرب راقداً على الأرض. أما ثانيهما الأسطوانة التي تظل ترقص فتعتبر الحالة الحادة لإيقاع الكتلة الجماهيرية، وهي التي تكون مكثفةً ومنغلقةً للغاية قدر الإمكان، حتى لا يبقى بالمكان أحدٌ آخر غير هؤلاء المنتمين لها. أما رهط الأرض فإنه يقوم على حماية سرٍ نفيس، وهو يعبر عن رغبة المرء في بذل قصارى جهده لإخفاء شيء ما والاحتفاظ به. ومثل هذا الرهط يحتوى شخصاً محتضراً ويمنحه بذلك تكريماً أخيراً قبل موته مباشرةً، فعلى هذا النحو يكون قدره البالغ لذويه، وفي إحاطتهم به تذكرة واعظة برهط الموتى هذا.

الحشد والدين

تحول الحشد

إن كل أشكال الحشد التى تم عرضها تمتلك نزعة الانتقال من إحداها إلى الأخرى، وبقدر استمرار تكرارها يكون قدر تماثلها في تجليها ثانية. فهى في مسارها المتفرد المستقل تمتلك دائماً شيئاً من المرونة. وينتج عن وصولها لهدفها، الساعية إليه، تغيير حتمى في صيغتها. فالصيد الجماعى، العائد عليها بفائدة ما، يفضى إلى التقسيم. وباستثناء بعض الحالات لانتصارات "خالصة"، حيث يدور الأمر بشأنها حول ذبح الأعداء في عمليات النهب فحسب - فإن المناحة تنتهى بإقصاء الميit، فحالما يحل هناك، حيث يشاء له، وحالما يشعر المرء بالأمان من ناحيته، فإن الانفعال يتراجع ليتفرق الشمل. إلا أن العلاقة بالميت لا تنتهى عند هذا الحد. فالمفترض أنه يواصل حياته بمكان ما، ويود المرء استعادته إلى عالم الأحياء من أجل الحصول على عونه ونصحه. فحشد المناحة يتألف مرةً أخرى على نحو ما من خلال استدعاء لموتاهم، إلا أن الهدف من مسلكها هنا يكون على نقيض الهدف الأصلي. فعلى نحو ما يتم استدعاء الميit، الذى استُبعد سابقاً، إلى ذويه مرةً أخرى، فـ"رقص الجاموس" لقبيلة الماندا ينتهى بوصول الجاموس. أما حشد التكاثر الذى أحرز النجاح فإنه يتحول إلى حفلٍ للتقسيم.

وكل شكل من أشكال الحشد، كما نرى، له سلبيةٌ يتحول إليها. ولكن إلى جانب التغيير إلى السلبية، الذى يبدو طبيعياً، توجد حركةٌ من نوعٍ مختلف تماماً: تحول حشود مختلفة إلى بعضها البعض. ومثل هذه الحالة نراها في أسطورة السلف لدى قبائل الأراندا، حيث يقوم رجالٌ كثيرون بدهس كنعرو قوى حتى الموت. وفي أثناء ذلك يسقط أول الصيادين ضحيةً لرفاقه ليتم دفنه في حفاوة. هنا تنقلب (حزمة) حشد الصيد إلى حشد مناحة - وقد تناولنا بالفعل بإسهاب معنى التناول، حيث تتحول حشد الصيد إلى حشد تكاثر - وهناك تحول آخر يقف على مشارف الحرب: حين يُقتل رجلٌ فينوح عليه أفراد قبيلته ثم يكونون من أنفسهم فرقةً تخرج من أجل الثأر من العدو، فتتحول من حشد مناحةٍ إلى حشد حرب.

إن تحول الحشد هو عمليةٌ لافتة للانتباه، وهى منتشرة في كل مكانٍ ويمكن دراستها في مجالات الأنشطة الإنسانية المختلفة، فمن دون المعرفة الدقيقة يكون من المحال فهم بعض الأحداث الاجتماعية مهما كان نوعها. فبعض هذه التحولات تنشأ عن علاقاتٍ أوسع تم تحديدها ووصلت إلى المعنى الخاص بها وصارت طقساً دينياً. ويقوم المرء بتمثيلها بدقة على نفس المنوال، فهى المحتوى الحقيقى، هى جوهر كل عقيدةٍ مهمة. ومن خلال ديناميكية الحشد وأسلوبه الخاص في انتقاله من لون إلى آخر سيتضح لنا صعود نجم الأديان العالمية.

سوف نستعرض فيما بعد قليلاً من أشكال اجتماعية أو دينية على صلةٍ بالحشود. وسوف نرى أن هناك ديانات صيد وديانات حروب وديانات تكاثر وديانات مناحة. فلدى قبائل "ليله" بالكونغو البلجيكية يتخذ الصيد - رغم فرصه الضئيلة - موقع القلب من الحياة الاجتماعية. أما قبائل الـ"جيفارو" بالإكوادور، فتعيش من أجل الحرب فحسب. وأما قبائل "بوبلو" بجنوب الولايات المتحدة فتتميز بإهمال الصيد والحرب وإغفال عجيب للمناحة، فهى تعيش في سبيل التكاثر السلمى. وفي سبيل فهم ديانات المناحة التى غطت وجه الأرض وسيطرت عليها، فإننا نتوجه إلى المسيحية وواحدٍ من فروع الإسلام. فاستعراض الاحتفال بشهر "المحرم" الشيعى ينبغى أن يؤكد موضع المناحة المركزى في هذا النوع من الإيمان. أما الفصل الأخير فقد خصصناه لحلول نار "الفصح" المقدسة على كنيسة القيامة على مشارف القدس. إنه حفل القيامة الذى تجتمع فيه المناحة المسيحية بمبررها ومعناها.

الغابة والصيد عند قبيلة "ليله" بـ"كاساي"

من خلال دراسةٍ جديدةٍ عميقةٍ نجحت ماري دوجلاس الباحثة في علم الشعوب في العثور بالفعل على "وحدة" الحياة والدين لأحد الشعوب الإفريقية وهي قبائل "ليله" بكاساي⁽⁴⁸⁾. وكلما طالعنا قسماً من أبحاث هذه الدراسة كان إعجابنا يتزايد بمتابعتها وصراحة فكرها. ولعلنا نقدم لها جزيل الشكر إذ تتبنا ما قالته حرفياً. إن قبيلة "ليله" شعبٌ من 20.000 نسمة يعيش في الكونغو البلجيكية بالقرب من نهر كاساي. وقد أقام قراه على أرضٍ عشبية على شكل مجمعٍ متماسكٍ من عشرين إلى مئة كوخٍ على مسافةٍ غير بعيدةٍ من الغابة. أما غذاؤه الرئيسي فكان الذرة التي يزرعها بالغابة، فكان يجرد من أجلها منطقةً هناك كل عام. وفي المنطقة المجردة نفسها ينمو بعد ذلك نخيل "الرافيا" الذي يُستغل كل شيء فيه، فمن أوراقه الجديدة تُكتسب مادةٌ يقوم الرجال بنسجها عمامة تعرف بعمائم الـ"رافيا". وكل رجال قبيلة "ليله" يتقنون النسج على النقيض من جيرانهم. كما تُستخدم قطعٌ مربعة من نسيج - رافيا - كنوعٍ من النقود. ومن هذا النخيل يُكتسب نبيذٌ فاخر غير مخمر. ورغم النمو الوافر للموز والنخيل على خير وجهٍ في الغابة فإنهم يقومون بزراعتها حول القرية،

كما يزرعون كذلك الفول السوداني. وفيما عدا ذلك فإن كل شيء طيب يأتي من الغابة: الماء وأخشاب الوقود والملح والذرة ونبات المنيهوت والزيت والسمك واللحم. ويكون على كلا الجنسين رجالاً ونساءً، القيام أحياناً ببعض الأعمال في الغابة، إلا أنه يتم استبعاد النساء عن الغابة كل ثالث يوم، على أن يقمن في يوم سابق بإعداد كل المخزون من مواد غذائية وأخشاب الوقود والماء. فالغابة تعتبر لدى الـ"ليله" منطقة رجال.

تحتل الغابة مكانةً فريدة، حيث إن قبيلة "ليله" تذكرها بحماسٍ يكاد يكون رومانسيًا، وغالبًا ما يؤكدون على التناقض بين الغابة والقرية، ففي الأيام الحارة حينما تكون القرية مغبرةً حارة فإنهم يسعدون باللجوء إلى ظل الغابة الرطب. وهم يسعدون بالعمل الذي يربطهم بالغابة. أما العمل في مكان آخر فهو بمثابة وبال، وهم يقولون "الوقت يمر في القرية بطيئًا ويمر سريعًا بالغابة". وهم يتباهون بقدرتهم على العمل طوال اليوم بالغابة من دون الشعور بالجوع، أما بالقرية فهم مضطرون إلى التفكير دائمًا في الطعام. إلا أن الغابة تمثل كذلك منطقة خطر. فكان دخول الغابة محرّمًا على من يكون في حالة حدادٍ أو من رأى حلمًا سيئًا. ومثل هذه الأحلام تُفسّر على أنها بمثابة الإنذار، فمن لا يأخذ حذره من الغابة في اليوم التالي فإنه يصاب هناك بسوء، فقد تسقط شجرة فوق رأسه أو يجرح نفسه بسكينٍ أو يقع من أعلى نخلة، ومن لا يبالي بالتحذير فإن الخطر يهدد شخصه هو فقط. أما المرأة التي تغشى الغابة في الوقت المحظور فإنها تهدد القرية كافة بالخطر.

تتجلى ثلاثة أسبابٍ محددة لعظم مكانة الغابة⁽⁴⁹⁾، فهي مصدر كل شيء طيب وضروري من غذاءٍ وشراب وسكن وكساء. وهي مصدرٌ للطب المقدس. وثالثًا، هي مكان القنص الذي يُعتبر في رأيهم أهم نشاطٍ على الإطلاق. وأهل قبيلة "ليله" يشعرون بنهمٍ حقيقي نحو اللحم. وهم يعتبرون تقديم وجبة طعام من خضار للضيف بمثابة الإهانة. وفي حواراتهم عن المناسبات يسعدون بالتوقف عند كمية ونوع اللحم. ورغم ذلك فإنهم لا يقومون بتربية الأغنام أو الخنازير مثل جيرانهم في الجنوب. فهم ينفرون من تصور تناول لحم حيوانٍ تمت تربيته بالقرية. فالغذاء الطيب كما يقولون يأتي من الغابة حيث يكون نقيًا وصحيًا، مثل الخنزير البري أو الطباء. أما الفئران والكلاب فهي "هاما"، أي

نجسة، وهم يستخدمون الصفة نفسها في التعبير عن الصيد والبول والبراز، كما يُعدون أيضا الأغنام والخنازير غير طاهرة (كذلك)، لأنها تمت تربيتها في القرية، ولا يغيرونهم نهمهم للحم أبداً بأكل ما لم يكتسبوه في الغابة أو عن طريق القنص. وهم يتقنون حقاً فن تربية الكلاب ولا يجدون غصاة في الاحتفاظ بالأغنام إن شاءوا ذلك.

"إن فصل النساء عن الرجال، والغابة عن القرية، وتبعية القرية للغابة وإبعاد النساء عن الغابة، هي عناصر طقوسهم الأهم والمكررة". أما الأرض العشبية الجافة الجذباء فلا تتمتع بأية مكانة، وتُترك دائماً للنساء، وتعتبر منطقة محايدة بين الغابة والقرية. ويؤمن أهل "ليله" بإله خلق الناس والحيوان والأزهار وكل شيء. كما يؤمنون بالأرواح التي يتحدثون عنها بحذر والتي يهربون جانبها، إذ لم يحدث أن تكلمت الأرواح مع بشر قط، ولم يرها البشر قط، فمن رأى روحاً فلا بد أن يصاب بالعمى ويموت من جراء إصابته بالأورام. والأرواح تسكن في عمق الغابة، خاصة في منابع المجارى المائية وهي تنام نهائياً لتعس ليلاً، وهي لا تموت ولا تمرض أبداً وعليها يتوقف حظ الرجال في القنص وخصوبة النساء، وبوسعها ابتلاء قرية بالمرض. وتعتبر خنازير الماء هي أقوى الحيوانات المشحونة بقوة تفوق الإدراك الحسى، وهي ترعى دائماً في برك الينابيع التي تعد أفضل مرتعاً للأرواح. ويعتبر خنزير الماء بالنسبة للأرواح مثل الكلب، فهو يعيش معها ويطيعها مثل طاعة الكلب للصياد. فإذا لم يطع خنزير الماء الأرواح فإنها تعاقبه فتدعه يُقتل على يد إنسان، وهو ما يعتبر مكافأة مُنحت في الوقت نفسه. والأرواح تطلب كل شيء من الناس، أما ما تطلبه على وجه الخصوص هو أن يسود السلام القرية، فتكون رحلة صيد موفقة هي أوضح الإشارات على استتباب كل الأمور بالقرية. إن القدر الضئيل من اللحم الذي يتناوله كل فرد، رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً، بعد ذبح خنزير برى، لا يمكن أن يفسر على أية حال مدى السعادة التي يعبرون عنها في أحاديثهم لأسابيع طويلة بعد ذلك. فالقنص هو نوع من البارومتر الروحاني الذي تراقب القرية كلها صعوده وهبوطه بحذر شديد. ومن اللافت للانتباه مقارنة وصفهم لمولد الأطفال والصيد معاً كأن كلاً منهما هو الوظيفة الملائمة لكل من المرأة والرجل، فقد يقول الرجل "فسدت حال القرية" أو "فشل الصيد، عقمتم النساء، كل شيء يموت" فإذا ما كان راضياً عن الأحوال فقد يعنى ذلك: "قريتنا الآن بخير وغنية فقد قتلنا ثلاثة خنازير

برية وحملت أربع نساءٍ ونحن جميعاً بعافية وأقوياء". أما النشاط الذي يحتل المكانة العليا فهو الصيد الجماعي⁽⁵⁰⁾. فأهمية هذا الأمر هنا ترتبط بالجماعية وليس بعملية الصيد الفردي الشخصية. فالرجال المسلحون بالقوس والنبال يقفون في حلقةٍ حول جزءٍ من الغابة. أما المطاردون ومعهم كلابهم فيقومون باقتفاء أثر الحيوانات البرية. وأما الصبية والرجال المتقدمون في العمر الذين يقدرّون بالكاد على السير فإنهم يحاولون الانضمام إلى قافلة الصيد. أما التقدير الأعلى فيحصل عليه أصحاب الكلاب الذين يواصلون عملهم بلا كللٍ في الأدغال بينما يحثّون بندائهم كلابهم على اليقظة، ويقودونها حتى تقع الحيوانات البرية والمطاردة في مرمى نبال القناصين المثابرين. وهذه هي بالحق أكثر وسائل القنص فاعليّة في الغابة الكثيفة، فهي تعتمد على مفاجأة الحيوان البري وإطلاق النبال بسرعةٍ من مسافةٍ قريبة. أما المدهش في حال شعبٍ ما يظهر مثل هذا التباهي بالقنص فهو الافتقار العام للمهارة الفردية، فالرجل الذي يقصد الغابة لا بد من أن يحمل معه على كل حال قوساً وبعض النبال، إلا أنه يستعملها فقط ضد الطيور والسنجاب ولا يفكر في اصطيد حيوانٍ بري ما دام وحيداً، فهم يجهلون المهارات الخاصة بالقناص الفرد، فهم لا يتقنون الصيد أو محاكاة نداءات الحيوانات، والطعم والمناورة من الأمور الغريبة عليهم. ومن النادر أن يتوغل أحدهم بمفرده في أعماق الغابة فاهتمامهم كله ينصب على القنص الجماعي، فقد يعثر رجلٌ ما في الغابة على قطيعٍ من الخنازير البرية ترعى في مستنقعٍ ما، وقد يتسلل إلى مقربةٍ منها حتى إنه يسمع تردد أنفاسها، لكنه لا يغامر بإطلاق سهمٍ واحد بل ينسحب من هناك على أطراف أصابعه ليستدعي أهل القرية. أما في الأرض العشبية فيكون الصيد مرةً واحدة في العام. وفي أوقات الجفاف، حينما يشتعل العشب، فإن عدة قرى تتحالف من أجل حصار الأرض المشتعلة. فأما الصبية فإنهم يتحسبون لحصولهم على غنيمتهم الأولى، وهناك تنشأ مذبحة رهيبية، وهذه هي المناسبة الوحيدة التي تتكون فيها وحدة صيدٍ من رجال أكثر من قرية، فقنص حيواناتٍ برية لا يقوم به إلا رجال قريةٍ واحدة. وفي النهاية فإن القرية تكون وحدةً سياسية وشعائرية لأنها وحدة صيدٍ، ولذا فإننا لا ندهش إذا اعتبر أهل "ليله" ثقافتهم بالمقام الأول هي ثقافة صيد. فأما تقسيم الحيوان البري فهو ذو أهمية خاصة. وقد تم تنظيم ذلك على نحوٍ صارم بل على نحوٍ يلتزم بروح الدين. وأهل "ليله" ينتظمون في ثلاث مجتمعات ثقافية، يكون لكل

منها الحق في وجبة غذاء بينها تُحرّم على غير المنتمين لها. أما الجماعة الأولى فهي جماعة المنتجين وهي تتكون من كل الرجال الذين أنجبوا طفلاً، فيكون من نصيبهم صدر كل حيوان وكذلك لحم كل صغار الحيوانات، ومن بين هؤلاء المنتجين يوجد من أنجبوا طفلاً ذكراً أو طفلةً أنثى، ومن هؤلاء يُنتخب أعضاء الجماعة الثانية المستبعدون أي الرجال "البانجولين" وهم يسمون هكذا لأنهم لهم الحق وحدهم في لحم "البانجولين" أي الحيوان طيب اللحم. أما الجماعة الثالثة فهي جماعة العرّافين وهؤلاء يحصلون على رأس وأمعاء الخنزير البرى. ولا يمكن ذبح حيوان كبير من دون أن يكون - في تقسيمه - مادة عمل دينى. أما أهم الحيوانات كافةً فهو الخنزير البرى الذى يتم تقسيمه كالتالى: بعد حصول العرافين على الرأس والأمعاء يذهب الصدر إلى المنتجين والأكتاف للرجال الذين حملوه إلى المنزل والرقبة لأصحاب الكلاب، والظهر والفخذ وساقاً أمامية للرجل الذى أصابه بالسهم، والمعدة لمجموعة حدادى القرية الذين صنعوا السهام. إن تشكيل مجتمع الـ"ليله" يقوى نفسه على نحوٍ ما بعد كل صيد، إلا أن انفعال كتلة الصيد يمتد كشعورٍ يُنقل إلى المجتمع كله. ونستطيع القول من دون المساس بحقوق المؤلفة بأن ذلك يعتبر "ديانة صيد" بالمعنى الحقيقى للكلمة، فلم يتم تناول ديانة الصيد على هذا النحو المقنع الموقن. لكننا نكتسب من خلال ذلك أيضاً نظرة عميقة عن تطور الغابة إلى رمز جماعى، فكل شيء ذو قيمة تشمله هذه الغابة، وهم يجمعون منها الأشياء الأكثر قيمةً، فالحيوانات التى هى مادة الصيد تسكن فيها، ولكن هناك أيضاً الأرواح مرهوبة الجانب التى تمنح الناس حيواناتهم.

غنيمة حرب الجيفارو

يعتبر الـ"جيفارو" بالإكوادور اليوم أكثر شعوب جنوب أمريكا كافة ميلًا للحرب⁽⁵¹⁾. ويعتبر استقرار عاداتهم واستعداداتهم للحرب وغنائمهم من الأمور ذات الدلالة الهامة. كما لا يمكننا اعتبارهم قومًا يعانون من زيادة السكان فهم لا يشنون حروبًا من أجل كسب أرض جديدة. أما الرقعة التي يعيشون فوقها فهي على الأحرى أكبر مما يحتاجون. فعلى مسافة أكثر من 60.000 كم² يعيش نحو 20.000 نسمة، وهم لا يعرفون المستوطنات الشاسعة ولا يفضلون الإقامة حتى في القرى، فكل أسرة تعيش بدارٍ خاصة بها وحدها وفيها الأكبر سنًا كزعيمٍ لها. وقد توجد الأسرة التالية على بعد عدة كيلومترات، ولا تربط بينهما أية منظومة سياسية. وفي أوقات السلم يكون لرب الأسرة منفردًا السلطة العليا ولا يأتمر بأمر أحد. وإن لم يجابه الجيفارو بعضهم البعض في مواجهةٍ عدوانيةٍ فإنه قد لا تضطر جماعة منهم إلى مصادفة جماعةٍ أخرى منهم في المناطق الشاسعة لغابتهم البكر. أما الصلة التي تربط بينهم فهي ثأر الدم أو الموت بالفعل. فهم لا يقرون بالموت الطبيعي، فموت إنسانٍ ما يكون من جراء سحر أحد الأعداء عن بعد، ويصير لزامًا على أهله معرفة الجاني ليثأروا من الساحر. هكذا يكون كل موت قتلاً وكل قتلٍ لا بد من الثأر له بقتلٍ مضاد، فإذا ما كان سحر العدو المهدد للحياة قد أتى أثره من مسافة بعيدة لا يكون الثأر الفيزيقي أو الدموي الملزم

ممكناً إلا إذا سعى المرء إليه. فالجيفارو لا يلتقون إلا ليشأر بعضهم من بعض. وإلى حدٍّ ما يعتبر الثأر هو رابطتهم الاجتماعية.

أما الأسرة التى يعيش أفرادها معاً فى بيتٍ واحد فهى تمثل وحدةً متقاربة للغاية، فما يقوم به رجلٌ لا يقوم به وحده، بل بمشاركة رجال أسرته الآخرين. وفى سبيل حملاتٍ أكبر تنطوى على خطرٍ أعظم فإنه يتجمع رجال من عدة منازل تكون الأكثر قرباً نسبياً، ومن أجل هذا الغرض فقط، أى من أجل تكوين حملة جادة للثأر، فإنهم ينتخبون رئيساً لهم ذا خبرةٍ يكون فى الغالب الأكبر سناً، فيخضعون له طوعاً فى أثناء مجريات الحملة. وهكذا يكون حشد الحرب هو الوحدة الحقيقية الديناميكية للجيفارو. وإلى جانب الحملة الساكنة تكون الأهمية للأسرة وحدها. ومن أجل حشد الحرب تقام كل الاحتفالات. فهم يجتمعون معاً قبل أسبوعٍ من الخروج للحرب، ثم يجتمعون فيما بعد فى سلسلة احتفالات ضخمة بعد عودتهم المظفرة من الحملة. وفى نهاية الأمر فإن الحملات الحربية تفضى إلى الدمار، فيُقتل الأعداء كافةً فيما عدا بعض النساء وربما بعض الأطفال الذين يضمهم المرء إلى أسرته نفسها، كما يتم تدمير ما يملكه العدو الذى هو بطبيعة الحال ضئيل، من حيواناتٍ أليفة ومزروعات وبيوت. أما المادة الوحيدة التى يضعونها نصب أعينهم حقاً فهى رأس العدو المجتز الذى يشعرون نحوه بولعٍ خاص، فالهدف الأسمى لكل مقاتل هو العودة إلى داره برأس كهذا على الأقل.

فالرأس يتم إعداده على نحو خاص حتى ينكمش إلى حجم ثمرة البرتقال، ويطلق عليه حينئذ اسم "تسنتسا". أما مالك مثل هذا الرأس فيحصل من خلاله على مكانةٍ خاصة. وبعد مرور بعض الوقت، ربما سنةً أو سنتين، يقام حفلٌ كبير يتخذ محوره المركزى الرأس المعالج بطريقةٍ سليمة ويتم دعوة كل الاصدقاء إلى هذا الحفل حيث يأكلون ويرقصون كثيراً، وكل شئ، أى كل ما يجرى هناك، يحدث طبقاً للشعائر. فهو على وجه اليقين حفلٌ ذو صبغة دينية. فإذا ما دققنا تأملهُ اتضح أن جوهره الحقيقى هو الطموح الى التكاثر والوسائل المحققة لذلك. إلا أنه لا يمكننا هنا تناول تفاصيل استعراضها "كارستن" - بإسهابٍ ما - فى كتابه عن "ثأر الدم، الحرب، احتفالات النصر لدى الجيفارو"، وقد تكفى الإشارة إلى واحدةٍ من أهم رقصاتهم التى يتم فى أثنائها استدعاء كل الحيوانات التى

يصيدونها، كل قطيع على حدة، ليلى ذلك تمثيل العملية الجنسية للإنسان نفسه،
التي تخدم تكاثر أهل القبيلة.

وتعد هذه الرقصة التمهيد الواقعي للحفل الكبير. فالرجال والنساء ينتظمون
في حلقة حول عمود الدار الرئيسي. ويمد كل منهم يده للآخر ليدأوا حركةً
دائرية بطيئة، بينما تعلن تعاويذ السحر أسماء كل الحيوانات التي يحب هؤلاء
أكل لحمها، وينضم إلى ذلك بعض الأدوات التي يستعملها الهندي الأحمر بمنزله
والتي صنعها بنفسه. وبعد ذكر كل اسم من تلك الأسماء يرددون بصوت عالٍ
هادر "هيى!" ويبدأ الرقص بصغيرٍ مدوٍ. أما التعويذة نفسها فتقول: "هيى، هيى،
هيى! / القرد المنتحب، هيى! / الأحمر هيى! / القرد البنى، هيى! / القرد الأسود،
هيى! / قرد الكبوشى، هيى! / القرد الرمادى، هيى! / الخنزير البرى، هيى! / الببغاء
الأخضر، هيى! / ذو الذيل الطويل هيى! / الخنزير الأليف هيى! / السمين هيى! /
ثياب النساء هيى! / الحزام هيى! / السلة هيى!"

وتستغرق هذه التعويذة ساعةً يتمايل الراقصون في أثنائها قليلاً نحو اليمين
وقليلاً نحو اليسار، وفي كل مرة يتوقفون فيها من أجل تغيير اتجاههم يطلقون
صغيراً وصياحاً "تشى، تشى، تشى، تشى" كأنهم يسعون بهذا النداء للحفاظ على
استمرارية التعويذة. وهناك تعويذة أخرى خاصة بالنساء وخصوصيتهن:

"هيى!، هيى!، هيى! / امرأة، هيى! / امرأة، هيى! / مضاجعة هيى! فلتوفر
التسنتسا المضاجعة / تزواج هيى! / تزواج هيى! / امرأة، هيى! / امرأة، هيى! / فليكن
ذلك حقيقياً هيى! / هكذا نفعله هيى! / فليكن جميلاً هيى! / كافياً هيى!". أما
محور هذه التعويذة وكل أنشطة الحفل فهو "تسنتسا"، أى رأس العدو المغتَنَم
المعالج. فروح صاحب الرأس تكون بجواره وهى تمثل أعلى درجات الخطر الذى
يحاولون درءه بكل السبل، وما إن يفلحوا في تسخيرها لخدمتهم فإن ذلك يعود
عليهم بفائدةٍ جمة، فهى التى تجعل الخنازير والدجاج التى بحوزتهم تتكاثر
ومن خلالها يتكاثر نبات المنيهوت، وهى تمنح الجميع البركة التى ينشدونها، أى
التناسل. إلا أن تسخيرها لا يكون أمراً هيناً فهى في البدء تكون مترعةً بروح الثار،
فلا يمكن التنبؤ بما قد تلحقه بإنسانٍ ما، إلا أن عدد الطقوس وتوابعها المستخدمة
في السيطرة عليها هو أمرٌ يثير العجب التام. وأما الحفل الذى يستمر عدة أيام
فإنه ينتهى إلى السيطرة التامة على الرأس وروحه. فإذا ما تأملنا الـ"تسنتسا"، من

منظورنا لتقاليد الحرب المألوفة لدينا، فلا بد من القول بأن هذا الرأس يقوم مقام ما نسميه بالغنيمة. فهؤلاء يخوضون الحرب في سبيل الحصول على الرأس، وهو الغنيمة الوحيدة. لكن رغم ضالة هذه الغنيمة - خاصة عندما تنكمش في نهاية الأمر إلى حجم ثمرة البرتقال - فإنها تنطوي على كل ما ينشده المرء منها. فهذا الرأس يوفر لهم ما يأملونه من كل أوجه التكاثر: تكاثر الحيوان، ونمو النباتات التي يعيشون عليها، ومضاعفة الأدوات التي ينتجونها بأنفسهم، وأخيراً تناسل الأهل أنفسهم. إنها غنيمة على نحو عجيب من الكثافة، ولا يكفي إحرازها بل يتحتم العمل من خلال ممارساتٍ طويلة لجعلها على النحو المراد. وتبلغ هذه الممارسات أوجها في الانفعال الجماعي للحفل خاصة في تعاويذه ورقصاته الوفيرة. ويقوم حفل الـ"تسنتسا" في مجمله على نقل أثر غنيمة التكاثر. فغنيمة الحرب، إن أسعدها الحظ، تنقلب في نهاية المطاف إلى غنيمة "تكاثر الحفل". وانقلاب هذا إلى تلك يعتبر الدينامكية الحقيقية لديانة الجيفارو.

رقصات المطر عند هنود "بوبلو" الحمر

إنها رقصات تكاثر ينبغي أن تفضى إلى هطول المطر، فهي تستدعى المطر من الأرض. فديبب الأقدام يماثل سقوط قطرات المطر. فإذا ما بدأ المطر في الهطول في أثناء الاستعراض فإنهم يواصلون الرقص فيه. فالرقص الذى يمثل المطر ينتقل في النهاية إليه، فتتحول مجموعة من أربعين فرداً تقريباً في حركاتها الإيقاعية إلى مطر .

يعتبر المطر أهم رمز كُتلي (جماهيرى) عند شعوب البوبلو⁽⁵²⁾. كان الرمز مهماً كذلك عند أجدادهم الذين يُحتمل أنهم سكنوا مكاناً آخر، لكن منذ سكنهم بهضبتهم الجافة زادت أهمية المطر على نحوٍ أعظم حتى إنه صبغ طبيعة عقيدتهم كلها. فالذرة التى يعيشون عليها والمطر الذى لولاه ما نمت الذرة كانا بمثابة جوهر كل طقوسهم. أما الوسائل السحرية الكثيرة التى يستخدمونها فى استدرار المطر فإنها تتبلور وتتنامى فى رقصات المطر. وهم يؤكدون على أن هذا الرقصات خالية من العنف، وهو ما يتفق مع طبيعة المطر نفسه. وهو فى تلك السحابة التى يقترن بها بمثابة وحدة، وهى سحابة سامقة، نائية، بضء، بيضاء،

فإذا ما اقتربت بثت في الناس شعورًا رقيقًا، وإذا أفرغت ما فيها وتفتت فإن المطر يصل إلى الناس قطراتٍ متفرقة منعزلة ويصل الأرض، فيتسرب داخلها.

أما الرقص الذى يجذب المطر من خلال التحول إليه فإنه يمثل فرارًا وانهيًا لكتلة، وعلى نحوٍ أعظم من تمثيله لتكوينها. فالراقصون ينشدون سقوط السحابة على ألا تبقى مجتمعةً في السماء بل عليها أن تنهمر. فالسحابة تكون كتلةً رقيقة بقدر ما يرى فيها المرء تماثلاً للأجداد. فالأموات يرجعون في سحاب المطر حاملين معهم البركة. فإذا ما ظهر غمام المطر في السماء فإنهم يقولون لأبنائهم: "انظروا هاهم أجدادكم قادمون". وهم لا يعنون بهذا موق هذه العائلة وإنما الأسلاف بشكل عام. وأما الكهنة الموجودون في اعتكافٍ شعائرى، فيجلسون لثمانية أيام بلا حراك منطوين على أنفسهم أمام هياكلهم وهم يناشدون المطر: "أيّنا كانت مواضعكم بعيدةً فإنكم ستشقون طريقكم وتملأون بالمياه الحية سحابكم الصغيرة التى يدفعها الريح وجذاذ سحاباتكم الرقيقة، ستبعثون لنا بما يمكث لدينا، غيثكم البهى العاشق للأرض هنا في إيتيوانا مقر أبنائنا وأمهاتنا، مقرهم الذى يحمل لنا الحياة، بكمياتٍ وفيرة من المياه سوف تجيئونا جميعكم".⁽⁵³⁾

فما يتمناه المرء هو كميات المياه الوفيرة. لكن هذه الكميات المتجمعة في الغمام تتفتت إلى قطرات. والمعنى الحرفى لرقصات المطر ينطوى على التفتت. إنها كتلةٌ رقيقة تلك التى يتمنونها، وهى ليست حيوانًا خطرًا يجب قتله، وليست عدوًا مقيتًا يجب قتاله، بل هى تتساوى مع كتلة الأجداد المسالمة الخيرة. إن البركة التى تحملها قطرات المطر إلى الأرض تفضى إلى تلك الكتلة الأخرى التى يحيا المرء عليها، أى الذرة. فهى، كبقية المحاصيل، تعنى التجمع فى أكوام. والأمر هنا هو على وجه الدقة بمثابة عملية عكسية، فغمام المطر يتفتت قطرات، لكن كوم المحصول يتجمع معًا، سواء فى الكيزان أو حبوبًا. ومن خلال هذا الغذاء يشتد عود الناس وتخصب النساء. وتتردد فى الصلوات غالبًا كلمة "الأبناء" فإذا ما تحدث الكاهن عن الأحياء من أهل القبيلة ذكر أيضًا كل الصبية والفتيات، أى كل من كان لا يزال طريق الحياة مفتوحًا أمامه. فهؤلاء هم من يمثلون مستقبل القبيلة، والكاهن يراهم على نحوٍ غائم ككل من سيشق طريقه إلى الحياة.

وعلى هذا النحو فإن الكتل الأساسية فى حياة البوبلو هى الأجداد والمطر والذرة والأبناء. وعلى نحوٍ ما يسقط من حساباتهم كل من (حزمتى) حشدى

القنص والحرب من أنواع الحشود الأربعة، كما توجد بقايا عمليات صيد الأرانب، فقد ظل هناك مجموعة من المحاربين، منوطٌ بهم مهمة الشرطة فحسب، وهى لا تتفق إلا قليلاً مع مفهومنا لدور الشرطة. ودور حشد المناحة لديهم دورٌ محدود إلى حدٍ يثير الدهشة التامة. فهم لا يهتمون كثيراً بحالات الموت. وهم يحاولون بقدر الإمكان نسيان الموتى كشخصيات فردية، فبعد أربعة أيام من حدوث الوفاة يحذر الكاهن الأعلى المحزونين بالتوقف عن التفكير في الموتى، فمن مات "قد مات بالفعل من أربع سنوات"، وهو بذلك يدفع بالموت إلى الماضي، ما يؤدى إلى تهدئة الألم. (فحزم) فحشود المناحة إذن لا تمثل للبوبلو شيئاً، لأنهم "يتجنبون" الألم.

أما ما يتبقى لديهم كنوعٍ من أنواع الحشد النشط والثرى فهو حشد التكاثر، وهو ما تقوم عليه المعنى الحرفي الكامل لحياتهم الاجتماعية. ولنا أن نقول إنهم يعيشون من أجل هذا التكاثر فحسب، الذى هو فى نهاية الأمر موجهُ وجهة إيجابية. أما "رأس جانوس" المعروف لدى شعوب كثيرة أخرى: الذى يعنى التكاثر الذاتى من ناحية، وتحجيم تكاثر العدو من ناحية أخرى، فهو أمرٌ غير معروف لديهم. وأما المطر والذرة فقد وضعوا كليهما فى إطار الاعتدال، ولا تدور حياتهم إلا حول أجدادهم وأبنائهم.

عن ديناميكية الحرب: القتيل الأول - النصر

إن ديناميكية الحشود أو الديناميكية الداخلية للحرب تتجلى في جوهرها على هذا النحو: من حشد المناحة على الميتم يتكون حشد الحرب الملتزم بالثأر له. ومن حشد الحرب الظافر يتكون حشد تكاثر النصر. فيكون القتل الأول هو من أصاب الجميع بعدوى الشعور بالخطر. وأهمية هذا القتل الأول لا يمكن تقديرها بالنسبة للحروب، فأصحاب السلطة ممن ينوون شن حربٍ ما، يدركون على وجه اليقين حتمية إيجاد قتيلاً أول أو اختراعه. ولا يرتبط الأمر إلى حدٍّ كبير بأهمية هذا داخل جماعته، إذ إن من الممكن أن يدور حول شخصٍ غير مؤثرٍ على الإطلاق. فأحياناً يتعلق الأمر بشخص مجهول. فالمسألة تتعلق بموته ولا شيء سواه. وعلى المرء أن يؤمن بتحمل العدو مسؤولية ذلك، كما يمكن إغفال كل الأسباب التي أدت إلى موته فيما عدا واحداً، هو أنه تم قتل عضوٍ بالجماعة محسوباً عليها لينشط حشد المناحة الذي ينشأ بسرعة كبلورة كُتلية (جماهيرية)، وهى منفحةٌ إلى حدٍّ ما، فينضم إليها كل من أدى السبب نفسه إلى شعوره بالخطر. وتنقلب عقيدة هذه الكتلة إلى حشد حربٍ. أما الحرب التي تنشب بسبب سقوط قتيلاً أو نفرٍ قليل من القتلى فإنها تنتهى إلى قتل عددٍ عظيم. إلا أن المناحة على هؤلاء

بعد إحراز النصر فإنها تقف على النقيض من سابقتها الأولى، أى باهتة للغاية، فالنصر كعامل حاسم في تحجيم أعداد العدو، إن لم يكن قضي عليه، يقلل من أهمية المناحة على قتلى المنتصرين. فهؤلاء تم الدفع بهم كصفوف أمامية إلى ساحة الموت، فاندفع خلفهم عدد أكبر منهم بكثير من الأعداء، ما حرر الآخرين من الخوف، ومن دون الخوف لما خاض هؤلاء الحرب. لقد انكسر العدو وتلاشى التهديد الذي وحد شمل المنتصرين، وعاد كلٌ ليهتم بشئونه الشخصية. ويوشك حشد الحرب أن يتفتت في أثناء عمليات النهب، وهو ما يماثل ما يحدث لحشد القنص في أثناء عملية التقسيم. فإذا لم يكن هناك شعورٌ عام حقيقى بالخطر تكون فرصة النهب وحدها هى دافع الناس إلى الحرب. وهنا تجب دائماً إتاحة الفرصة لهم، فثمة قائدٌ ميدانى محنك يجد مشقةً في الإقدام على منع رجاله من ذلك. إلا أن خطر التفتت التام للقوات جراء عمليات النهب يكون عظيمًا إلى حد تفكير الإنسان على الدوام في إيجاد وسيلة لإعادة صياغة العقيدة الحربية والقتالية.

أما الوسيلة الأكثر نجاحًا فكانت هى احتفالات النصر. فمواجهة تحجيم عدد العدو بزيادة التكاثر هى في الواقع بمثابة الدافع إلى احتفالات النصر. فيتم جمع أفراد الشعب، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ليظهر المنتصرون على نفس هيتهم التى خاضوا بها الحرب. واستعراضهم هذا أمام الشعب هو ما ينقل إليهم عدوى أجواء الانتصار. ويتواصل ازدياد عدد الناس المندفعين إلى هناك حتى يحضر كل من استطاع مغادرة بيته على نحوٍ أو آخر. ولا يقتصر الاستعراض على المنتصرين أنفسهم فحسب، يشرعون في جلب الكثير معهم، فقد جاءوا متكاثرين، فها هى الغنائم تُعرض أمام أعين الشعب، وهو ما يمثل طفرةً في كل ما يحتاجه هؤلاء ويعرفون قيمته، فكلٌ منهم سوف يصيب شيئاً من هذا، سواء كان من يتولى عملية التقسيم الكبرى على الشعب هو القائد الميدانى أو الملك، وسواء اتخذ ذلك صورة إسراف في المنح أو صورة الوعد بمنافع أخرى. ولا تقتصر الغنائم على الذهب والبضائع فحسب، بل أيضاً ها هم أسرى يقادون إلى هناك ليُظهر عددهم الكبير مدى تحجيم عدد العدو. فأما المجتمعات التى تحافظ إلى حدٍّ ما على رقيها الحضارى فإن الأمر يتوقف عند حد استعراض الأسرى، وأما تلك الأخرى التى نعتبرها بربرية فإنها تطلب المزيد، فهم يريدون مجتمعين معاشة تحجيم عدد العدو بعد تلاشى الشعور بالخطر المباشر. وهكذا يتطور الأمر إلى

عمليات إعدام جماعية للأسرى كما جاء بنصوص تقارير عن احتفالات انتصار كثير من الشعوب المحاربة. وقريباً من هذا كانت قد اتخذت عمليات الإعدام هذه في عاصمة مملكة "داهومي"⁽⁵⁴⁾ أبعاداً خيالية. فهناك كان يقام حفل سنوي يستغرق عدة أيام، يقدم الملك في أثنائه عرضاً مسرحياً دموياً أمام شعبه فيتم اجتزاز رؤوس مئات الأسرى أمام الحاضرين كافة. فها هو الملك قد تصدر منصة وسط عليّة قومه، وها هو الشعب في تجمع حاشد أسفل المنصة وبإشارة من الملك يقوم السيفافون بعملهم ثم يُلقى برؤوس القتلى في كومٍ على أن تتاح رؤية هذه الأكوام للجميع، ثم تجوب المواكب شوارع عُلّق على جانبيها جثث الأعداء عرايا في المشانق. وحتى لا يُجرَح شعور حياء نساء الملك العديديات كانوا يقومون بتشويه الجثث، أي إخصائها. وفي اليوم الأخير للحفل كان البلاط الملكي قد اجتمع ثانيةً على المنصة ليسرف في منح العطايا للشعب، فيلقى بالمحار المستخدم كنفوذٍ على أفراد الشعب الذي يعاني المشقة في سبيل الحصول عليها، ثم يلقى بأعداءٍ مقيدين اجتُزّت رؤوسهم كذلك ليتصارع الشعب على هذه الأجساد، ويسبب لهم التهام هذه الأجساد شيئاً من النشوة، وكلّ يريد انتزاع جزءٍ من العدو القاتل. وهنا يمكن الحديث عن تناول النصر. وبعد البشر يجيء دور توزيع الحيوانات، على أن يبقى الأمر الحاسم في ذلك هو العدو.

وقد وصلتنا تقارير شهود عيان لأوروبيين عن هذه الاحتفالات، وهي تعود إلى القرن الثامن عشر. في هذا الزمن كان هناك ممثلون لأممٍ بيضاء، كان لها محطات تجارية على السواحل، وكانت مادة تجارتهم هي العبيد. وقد جاءوا إلى العاصمة "أبومي" من أجل ابتياع هؤلاء من الملك. وقد باع الملك جزءاً من أسراه إلى الأوروبيين حينذاك، فقد كان يشن الحملات الحربية لهذا الغرض، وهو ما كان يروق للأوروبيين حينذاك، ولم يكن يروقهـم بنفس القدر أن يكونوا شهوداً على المذابح الجماعية، إلا أن حضورهم كان يعتبر لفتةً طيبة نحو البلاط، كما كانوا يحاولون إقناع الملك بأن يبيع لهم الضحايا المقرر إعدامهم - كعبيد- معتبرين أنفسهم أكثر إنسانيةً، إلا أن ذلك كان يفيد صفقاتهم. لكنهم كانوا يعجبون لرؤيتهم الملك وهو يرفض التنازل لهم عن ضحاياه رغم جشعه، وكانوا يغضبون من عناده في أوقاتٍ تتراجع فيها تجارتهم من جراء نقص عددٍ من العبيد، فهم لم يستوعبوا أن الملك مهتمٌ بسلطته أكثر من اهتمامه بما يملك. أما الشعب فقد كان معتاداً على استعراض الضحايا. فمن خلال استعراض تحجيم

الأعداء على هذا النحو يستمد إيمانه بزيادة تكاثره هو. ومن هذا التكاثر تنبع سلطة الملك على نحو مباشر. وكان للمشهد المسرحي أثرٌ ذو طبيعة مزدوجة. فقد كان أكثر الوسائل نجاحًا في إقناع الشعب بتكاثر عدده في عهد الملك والحفاظ عليه في حالة كتلة جماهيرية مستسلمة دينيًا، إلا أنه يحفظ أيضًا استمرار حالة الفرع من أوامره لأنه هو شخصيًا من يصدر الأمر بالإعدام. وكان احتفال النصر هو أكبر المناسبات الرومانية العلنية ففيه يجتمع أهل المدينة كافةً. ومع بلوغ الإمبراطورية أوج قوتها، لم تعد بحاجة إلى غزوات متواصلة، وصار من النصر نفسه مناسبة رسمية تتكرر بتاريخ ثابت في التقويم السنوي. فصار النزال يدور في حلبة المصارعة أمام أعين المجتمعين دون تبعات سياسية، لكن لم يكن من دون مغزى (ليس معنى هو)، إذ إنه يحفظ تحديدًا بحيوية الشعور بالنصر. والرومان، مثلهم مثل المشاهدين، كانوا لا يصارعون بعضهم البعض، لكنهم كانوا يحددون في إطار الكتلة من هو المنتصر ويحتفلون به كاحتفالهم في الأيام الخوالي. فلم يكن يهمهم غير هذا الشعور بالنصر. أما الحروب غير الضرورية فقد فقدت أهميتها في مقابل ذلك.

وهذه الشعوب التاريخية كانت تعتبر الحرب وسيلة للتكاثر من خلال الفوز بغنائم كانت تعيش عليها، أو أسر العبيد الذين كانوا يعملون في خدمتها. وأما أشكال التكاثر الأخرى التي تتطلب المثابرة فكانت غير مقبولة وتُعتبر زائفةً، ليتكون بذلك نوعٌ من الجهاد الديني الرسمي هدفه هو التكاثر على أسرع وجه.

الإسلام كدين جهاد

هناك أربع صور لتجمع المسلمين:

1. هم يجتمعون عدة مراتٍ يوميًا لأداء الصلاة التي ينادى عليها من موضع عالٍ، وهنا يدور الأمر حول مجموعاتٍ صغيرةٍ إيقاعيةٍ يمكن اعتبارها حشد صلاة. وقد فُرض عليها أداء حركات بدقة تتجه نحو مكة. وينمو حجم هذه الحشود مرةً في الأسبوع عند صلاة الجمعة فتصير كتلة.
2. يتجمعون للجهاد ضد الكافرين.
3. يتجمعون في مكة عند الحج الكبير.
4. يتجمعون في الآخرة.

في الإسلام، ككل الديانات، توجد كتلة غير مرئية على جانبٍ عظيم من الأهمية. لكن هنا توجد كتلة مزدوجة غير مرئية تقف في مواجهة بعضها البعض، تكون صيغتها أكثر حدةً من تلك التي بالديانات العالمية الأخرى. فعندما يُنفخ في الصور، يوم القيامة، ينهض الموتى كافةً من قبورهم مسرعين إلى ساحة الحساب كمن صدر له أمرٌ عسكري. وهناك يقفون بين يدي الله في مجموعتين كبيرتين

منفصلتين. فعلى جانب يكون المؤمنون وعلى جانب آخر يقف الكافرون ليحاسب الله كل فردٍ منهم على حدة.

على هذا النحو تتجمع أجيال البشر كافةً، ويظن كل امرئ أنه دُفِن قبل ذلك بيومٍ واحد، غير مدركٍ بمدى الزمن الذى أمضاه بالقبر. فموته لم يكن سوى طيفٍ حلمٍ بلا ذاكرة. إلا أن الجميع يسمعون نفخ الصور "فيأتى الناس أفواجًا". ويذكر القرآن أفواج تلك اللحظة العظيمة وهو التصور الأكثر شمولاً عن الكتلة، وهو تصورٌ لدى كل مسلمٍ مؤمن، فليس بوسع أى إنسانٍ تصور عدد كائنات بشريةٍ أعظم من عدد هؤلاء الذين كانوا ذات يومٍ على قيد الحياة، وقد تزاحموا جميعاً فوق بقعةٍ واحدة. إنها هى الكتلة التى لا يتسنى لها النمو بعد ذلك وهى ذات الكثافة الأعظم، فكل امرئ من هؤلاء يقف بالموضع نفسه أمام وجهه قاضيه. لكن رغم الحجم والكثافة يظل الجمع من البداية إلى النهاية منقسمًا دائماً إلى جماعتين، وكل منهما تعرف يقيناً ما ينتظرها، فهنا الرجاء، وهناك الخوف، كما جاء بالقرآن: ﴿لَمْ يُولَدِ يُؤْمِدْ مُسْفِرَةً﴾ (٣٨) ﴿صَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً﴾ (٣٩) ﴿وَوُجُوهٌُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (٤١) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (٤٢) ^١.

ولما كان الأمر يتعلق بحكمٍ عادلٍ عدلاً مطلقاً - فكل الأعمال دونت ويمكن إثباتها كتاباً - فلا يكون بوسع أى فردٍ إلفلات من جماعة كان هو أحد أفرادها طبقاً للقانون الحق. إن انقسام الكتلة في الإسلام إلى مجموعتين هو أمرٌ لا مناص منه. فالتقسيم هنا يفرق بين مجموعة المؤمنين وبين مجموعة الكافرين. وقد كُتِبَ عليهما الانقسام الدائم بأن تحارب كلٌ منهما الأخرى. ويعتبر الجهاد الدينى فريضةً مقدسة، وعلى هذا النحو يتم تكوين كتلة الآخرة المزدوجة، كذلك في الحياة الدنيا في كل معركة، وإن كانت أقل شمولاً.

وهناك صورةٌ أخرى مغايرة تماماً يضعها المسلم نصب عينيه وهى لا تقل قداسةً، إنها فريضة الحج إلى مكة. والأمر يتعلق هنا بكتلةٍ جماهيرية بطيئة تتكون من خلال تدفقٍ تدريجى من كل البلاد. وقد يمتد هذا لأسابيع أو شهور، بل ولسنوات حسب بعد المسافة من الوطن إلى مكة. ولأداء فريضة الحج لمرةٍ واحدة على الأقل طوال الحياة أثرٌ على حياة الإنسان الدينية كلها، فمن لم يؤد فريضة الحج هذه كأنه لم يعيش حقاً. وعلى نحوٍ ما فإن تجربة الحج تشمل كل

المناطق التي سادتها هذه العقيدة، وتجمعها في المكان الذي خرجت منه. وكتلة الحجيج هذه هي كتلة مسالمة، وهي متفردة، ووجهتها الوحيدة هي الوصول لهدفها. فلم يفرض عليها إخضاع كافرين، وما عليها إلا الوصول إلى موضعها المنشود والوجود هناك. وأن تستوعب مدينة بحجم مكة أفواج الحجيج هذه التي لا حصر لها، لهو أمرٌ يعتبر من المعجزات النادرة تمامًا.

أما الحاج الإسباني (الأندلسي) "ابن جبير"⁽⁵⁵⁾ الذي أقام بمكة في نهاية القرن الثاني عشر وترك لنا وصفًا مسهبًا عن ذلك، فإنه يرى أن أكبر مدينة بالعالم لا تتسع لهذا العدد الغفير من الناس، إلا أن مكة حلت بها بركة التمدد الخاص بالكتلة، فلا بد هنا من مقارنتها بالرحم التي يكبر حجمها أو يصغر وفقًا لحجم الجنين. وأهم لحظات الحج هي لحظة الوقوف بوادي عرفات، حيث يتجمع هناك 700.000 نسمة معًا وما ينقص من هذا العدد تكمله الملائكة الذين يوجدون غير مرئيين بين الناس. فإذا ما انقضت الأيام الحرم يؤذن بالجهاد مرةً أخرى. ويقول أحد أفضل العارفين بالإسلام "إن محمدًا هو نبي الجهاد والحرب"⁽⁵⁶⁾... وكان ما أتاه في إطار مجتمعه العربي بمثابة وصيةٍ لمستقبل أمته: إن الجهاد ضد الكافرين ليس بالمقام الأول هو نشر الدعوة خارج حدود منطقة سلطانها لأنها تحت سلطان الله، فعلى مجاهدي الإسلام أولاً إخضاع الكافرين وليس دعوتهم للإيمان. والقرآن، الكتاب الذي أوحى الله به إلى النبي، لا يدع مجالاً للشك في هذا: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ۚ

ديانات المناحة

لقد صارت ديانات المناحة أحد ملامح وجه الأرض. وقد وصلت في المسيحية إلى نوعٍ من الإقرار العام. ولم يستمر الحشد الذي انتقلت منه هذه الأديان طويلاً. فما الذي منح الأشكال العقائدية المنبثقة عن المناحة رسوخها وتمامها، وما هو الذي وفر لها هذا الصمود الذي اتسمت به عبر آلاف السنين؟ إن الأسطورة التي تتمحور هذه الأديان حولها هي أن إنساناً ما أو إلهاً ما كان قد قُتل ظلماً. إنها دائماً قصة الملاحقة، سواء كان ذلك في أثناء القنص أو المطاردة. كما يمكن ربط ذلك بعملٍ ظالم، فإن كان ذلك قنصاً فإن المصاب لم يكن الهدف المنشود، بل كان أكثر القناصين نبلاً هو من أصيب بدلاً من الحيوان المنشود. وقد يكون على النقيض من ذلك، أي أن الحيوان المطارد هو الذي هاجم القناص وأصابه بجروحٍ قاتلة كما جاء في تراث "أدونيس" و"إيبر" حيث لم يكن من الواجب أن تحدث هذه الوفاة تحديداً، وقد فاق الحزن عليه كل الحدود. وقد يحدث أن تقع ربةٌ ما في غرام ضحيتها وتنوح عليها، كما فعلت "أفروديت" مع "أدونيس"، وفي صيغتها البابلية تسمى هذه الربة "عشتار". أما تمّوز فهو الفتى الجميل الذي مات مبكراً. ولدى "الفريجيين" كانت الربة الأم "كبله" هي التي حزنّت على عشيقها الشاب "أطيس"⁽⁵⁷⁾.

"لقد أسرع بحق، فشدت أسودًا إلى عربتها، واصطحبت رهبانًا جعلتهم أيضًا يسرعون مثلها، فصارت تحوم حول جبل إيدا كله وتنوح على رفيقها أطيس، وكان أن أحدثت إحدى الراهبات جروحًا بذراعيها، وكان هناك آخر يجوس راكضًا في الجبل بشعرٍ متطاير، وثالثٌ ينفخ في البوق، وآخرٌ يقرع الطبول أو يثير صخبًا بضرب صفائح بعضها ببعض. لقد صار جبل إيدا كله في اضطراب وغضب خيالي". وفي مصر كانت هي إيزيس التى فقدت أوزيريس زوجها، فصارت تبحث عنه بلا كليل وجابت أرجاء الأرض مهمومة، فلم تعرف سبيلًا للراحة قبل أن تعثر عليه. وقد أخذت تنوح: "تعال إلى دارك... إني لا أراك، إلا أن قلبي يخاف عليك وعيني تعشقانك، فلتأت إلى من تحبك أيها المبرور. تعال إلى أختك، تعال إلى زوجتك، إلى امرأتك، يا من قد سكن قلبه، تعال إلى ربة دارك. إني أنا أختك، من الأم نفسها، فلا تبتعد عني، فها هم الأرباب والبشر قد يمموا وجوههم نحوك وصاروا يبيكونك معًا... إني أناديك باكيةً لقد سُمع بكائي حتى في السماء، فهلا سمعت صوتي رغم أنني أختك التى أحببتها على الأرض وأنت لم تحب غيري، يا أخى!"⁽⁵⁸⁾.

إلا أنه قد يكون ممكنًا - وهذه حالة متأخرة لم تتحول لأسطورة - أن جماعة من الأهل والتلاميذ يكونه مثلما حدث مع المسيح أو الحسين، حفيد النبی، أى الشهيد لدى الشيعة. وقد تصوروا حالة القنص والملاحقة بكل تفاصيلها. إنها القصة الدقيقة التى يعتبرونها قصة شخصية تمامًا يسيل في أثنائها دائمًا الدم حتى في أكثر الأناشيد إنسانية. حتى في حالة المسيح لم يمر الأمر من دون دمٍ وجراح، فكل ما يرويه نشيد العديد من تفاصيل ينم عن الظلم. وكلما ابتعد المرء عن زمن الأساطير كان الأمر يميل إلى إطالة نشيد العديد ويضاف إليها ملامح إنسانية بلا حصر. فالقنص والملاحقة تشعر بهما الضحية دائمًا وعند موت الضحية يتكون حشد المناحة، لكنه يكون على درجة خاصة، فالمتوفى مات في سبيل هؤلاء الذين ينوحون عليه. لقد كان هو منقذهم، سواء كان قناصهم العظيم، أو أنه صنع بهم معروفًا أعظم قيمة. فها هم يبرزون صنيعه النفيس بكل السبل. وهو تحديدًا الذى ما كان يجب أن يموت. والنائحون عليه لا يقرون بموته، بل هم يريدون استعادته إلى الحياة. ففى استعراض حشد المناحة القديمة - مثل تلك الحالة الأسترالية التى تناولناها - فقد تم التأكيد على أن المناحة تبدأ بالفعل على الميت، فيحاول الأحياء الاحتفاظ به، فيغطونه بأجسادهم ويأخذونه إلى رهطهم

ويضغطون بشدةٍ عليه من كل ناحيةٍ محاولين منعه من فراقهم. وفي الغالب يستدعونه أيضًا بعد ظهور بواذر الموت. ولا تبدأ المرحلة التالية إلا بعد أن يوقنوا تمامًا أنه لن يعود ثانيةً فيطلقونه إلى عالم الموتى. وفي حالة حشد المناحة الذي نتناوله هنا والذي يُقام من أجل ميتٍ عزيز، فإنه تتم إطالة أمد احتضاره بكل السبل، حتى يرجع عن هجران ذويه أو المؤمنين به، وهم هنا نفس الأشخاص. إن المرحلة الأولى، أى الرغبة في الاحتفاظ بالميت، هى المرحلة الحاسمة والتي ينصب عليها الاهتمام بأسره، وهو الوقت الذى يجتمع فيه الكل من كل مكانٍ ويُرحَّب بكل من يشاء النواح على الميت.

وفي هذا الثقافات الدينية ينفث حشد المناحة ويتمدد إلى جمهور ينمو بلا حدود.

وهذا يحدث في أثناء حفل الميت نفسه، فهنا تنشد أغاني العديد الخاصة به. وتنضم مدُنٌ بكاملها إلى هذه الاحتفالات، وغالبًا ما يأتى كذلك أفواج حجيجٍ من أماكن بعيدة. ويحدث انفتاح حشد المناحة أيضًا عبر فتراتٍ زمنية طويلة، ليتكاثر عدد المؤمنين الذى يبدأ بقليلٍ من المقربين الذى يقفون عند المصلوب، الذى يمثل لب المناحة. وفي أول أعياد "العنصرة" كان عدد هؤلاء ستمئة مسيحي تقريبًا. وقد صاروا في عهد الإمبراطور قنسطنطين عشرة ملايين. وقد ظل جوهر الدين على ما كان عليه، فقد ظلت المناحة هى مركزه. فما هو سر انضمام هذا العدد الغفير إلى المناحة؟ وما هو وجه إفادة الناس منها؟ فالأمر نفسه يحدث لكل من ينضم إليها، فحشود الصيد أو التحريض تكفر عن ذنبها لتصير حشد مناحة. وهؤلاء الناس عاشوا حياتهم مطاردين ويواصلون حياتهم على طريقتهم مطاردين. فهم يبحثون عن لحم غريبٍ يمزقونه ويتغذون على آلام المخلوقات الضعيفة. وتنعكس في أعينهم نظرة الضحية المنكسرة. أما ضحيتهم الأخيرة فإنها تحفر نفسها في أنفسهم على نحوٍ لا يمحي.

وقد لا يدرك هؤلاء أن الظلام داخلهم يتغذى على لحم الضحية. إلا أن أطراد نمو الذنب والخوف داخلهم لا يتوقف، وبذا يتحرقون بلا وعيٍ إلى الخلاص، وهو ما يجعلهم ينضمون إلى من مات في سبيلهم. وفي أثناء نواحهم عليه يشعرون أنهم أنفسهم ملاحقون. ومهما كان فعلهم ومهما كان غضبهم فإنهم يكونون في هذه اللحظة قد انتقلوا إلى منطقة الألم. وهو تبدلٌ مفاجئٌ ومتنامٍ يحررهم من

الذنب، وهو أن الموت يصيبهم هم أنفسهم، فإثم ما فعلوه دائماً بآخرين دفع آخرٌ ثمّنه. أما إخلاصهم له وتعلقهم به فيجعلهم يغفلون عن الثأر له، على حد ما يعتقدون. ومن الواضح أن ديانات المناحة لا غنى عنها بالنسبة لغذاء روح البشر ما لم يكن بوسعهم التنازل عن القتل في حشود. ومن بين الديانات التي وصلت إلينا والتي يمكن وضعها موضع تأمل أكثر دقة، المذهب الشيعي المسلم الذي هو الأكثر دلالةً.

وقد يكون من المفيد أن نتناول عقيدة تموز أو أدونيس وعقيدة أوزيريس وعقيدة أطيّس، إلا أن كل هذه تنتمي إلى الماضي، ولم نعرفها إلا من خلال الكتابة المسمارية أو الهيروغليفية أو روايات الكتاب الكلاسيكيين، ورغم قيمة هذه الروايات الفائقة فإنه يبدو أكثر إقناعاً أن نتناول عقيدة ما زالت قائمة حتى الآن باديةً للعيان على نحو واضح. أما المسيحية فهي أهم ديانات المناحة كافةً. وما زال لدينا ما سوف نتناوله عن الصيغة الكاثوليكية لذلك. وهناك لحظات فارقة في المسيحية، وهي لحظات انفعالٍ جماعي واقعي. فبدلاً من استعراض مناحية حقيقية صارت نادرةً فإنه ينبغي تناول لحظاتٍ أخرى مثل "نار البعث" بكنيسة القيامة الواقعة على مشارف القدس. أما المناحة نفسها كحشد حماس ومنفتح على كتلة جماهيرية حقيقية، فمنها حفل "المحرم" الشيعي الذي يمثل أهمية لا مثيل لها.

احتفال الشيعة بشهر "المحرم"

هناك عقيدة مناحة لا يمكن العثور على مثيل لها في التركيز والتطرف، وهي فرقة نشأت بعد انشقاقها عن الإسلام - صاحب عقيدة الجهاد الواضحة الملامح:- إنها عقيدة الشيعة، وهي الدين الرسمي في إيران واليمن والمنتشر على نحو واسع بالهند والعراق. والشيعة يؤمنون بزعيم روحى وديوى لجماعتهم يطلقون عليه "الإمام" الذى تعتبر مكانته أعظم أهمية من مكانة البابا، فهو حامل النور الإلهى وهو معصوم. والمؤمن التابع للإمام هو الوحيد الناجى "من مات دون معرفة إمام عصره الحقيقى مات ميتةً جاهلية" (59).

يرجع نسب الإمام إلى نسل النبى مباشرة، ويعتبر "علِيّ"، صهر محمد وزوج ابنته فاطمة، هو الإمام الأول. وقد عهد النبى إلى "علِيّ" بمعارف خاصة حرم منها أتباعه الآخرين. ويتوارث أفراد أسرته تلك المعرفة كما ولى "علِيّا" صراحةً خليفة له فى الدعوة والإمارة، وهو من خلال وصية النبى صار المختار المستحق للقب "أمير المؤمنين". وقد ورث هذا المنصب ابنا علِيّ -الحسن والحسين- وهما حفيدا النبى. فصار الحسن الإمام الثانى والحسين الثالث. وكل من كان غيرهما ممن تقلدوا إمارة المؤمنين كان مغتصباً للمنصب.

وبعد وفاة محمد كان على تاريخ الإسلام السياسي أن ينشئ أسطورةً حول عليّ وأبنائه. فعليّ لم ينتخب خليفةً بعد وفاة النبي مباشرةً. فقد تقلد هذا المنصب خلال أربعة وعشرين عامًا بعد وفاة محمد ثلاثه من رفاق كفاحه تبعًا. أما "عليّ" فلم يتول الحكم إلا بعد وفاة ثالث هؤلاء، ولم يحكم إلا لفترة وجيزة، فقد اغتيل علي يد خصمٍ متطرفٍ بسيفٍ مسمومٍ في أثناء صلاة الجمعة بالجامع الكبير بالكوفة. وقد ارتضى ابنه البكر الحسن التنازل عن حقوقه مقابل عدة ملايين من الدراهم، لينسحب عائداً إلى مكة حيث مات بعد عدة سنوات.

وقد صارت الآلام حول أخيه الأصغر الحسين هي النواة الحقيقية لعقيدة الشيعة⁽⁶⁰⁾. فقد كان الحسين هو الصورة المناقضة لمسلك الحسن، فعاش بالمدينة، ورغم أنه صار زعيمًا للشيعة بعد وفاة أخيه ظل لمدة طويلة لا يشارك في القلاقل السياسية. لكن بعد وفاة الخليفة الحاكم بدمشق ورغبة ابنه في تولي الخلافة رفض الحسين البيعة له، فأرسل أهل مدينة الكوفة المتمرّدون بالعراق إلى الحسين مطالبين إياه بالقدوم إليهم لكي يبايعوه خليفةً. فإذا جاءهم فلسوف يحصل على كل شيء هو جديرٌ به. فاتخذ الحسين سبيله إليهم مع أسرته نساءً وأطفالاً وجماعة قليلة من أنصاره. وكان طريقًا طويلًا بالصحراء، وعندما اقترب من الكوفة التي كانت خارج نفوذه بالفعل كان حاكمها قد أرسل جيشًا يفوق عدده أنصار الحسين بكثير، ليلتقى به ويطلبه بالاستسلام. فلما أبي قطعوا عليه السبيل إلى الماء وحوصر هو وجماعته في وادي كربلاء. وفي اليوم العاشر من شهر المحرم في العام 680 ميلادية شُنَّ الهجوم على الحسين وآله الذين استبسّلوا في الدفاع عن أنفسهم قبل أن يهزموا، فُقتل معه سبعة وثمانون فردًا من بينهم كل أفراد أسرته وأسرته أخيه. وقد عثر بجثمانه على ثلاثٍ وثلاثين طعنة رمحٍ وأربعٍ وثلاثين طعنة سيفٍ، وأمر قائد القوة المعادية رجاله بالركض فوق جثة الحسين بجيادهم فدهَسَ حفيد النبي في الأرض بسنابك الخيول، وجُزَّ رأسه وأُرسل إلى الخليفة بدمشق لينكت هذا فم الحسين بعصاه، إلا أن عجزًا من أصحاب محمد كان حاضرًا فنهره قائلاً: "ارفع عصاك فقد رأيت فم النبي يقبل هذا الفم".

وقد صارت النكبات التي حلت بنسل محمد الموضوع الأصيل لأدبيات العقيدة الشيعية⁽⁶¹⁾، "أنصار هذه الفرقة الحقيقيون يعرفهم المرء بأجسادهم الضامرة زهّدًا وشفاهم الجافة ظمًا وأعينهم الزائغة من بكاءٍ متصل". فالشيعي

الحقيقى ملاحقٌ وبائس كالأسرة التى يدافع عن حقها ويعانى فى سبيل ذلك. وسرعان ما اعتقد أن ذلك ابتلاء لأسرة النبى وملاحقة يعانى من أجلها.

ومنذ اليوم الحزين بكربلاء بدأ تاريخ هذا النسل كحلقة متصلة من الآلام والكروب. وقد اعتنى مؤرخو الشهداء بتدوين قصتهم شعراً ونثراً فى أدب ثرى، وهو ما يمثل مادة تجمع الشيعة فى الثلث الأول من شهر المحرم الذى يعد اليوم العاشر منه (عاشوراء) الذكرى السنوية لمأساة كربلاء. "إن أيام ذكرانا هى أيام الحزن لتجمعاتنا" هكذا يختتم أمير شيعى نبيل قصيدة ذكر فيها الكثير عن ابتلاء آل النبى. إن البكاء والنواح والحزن على المصير البائس وملاحقة أسرة "على" واستشهادها هو بمثابة الهم الحقيقى للمخلصين الحقيقين. وقد جاء فى قول عربى مأثور: "إن هذا لأكثر أثراً من دموع الشيعة". وقد قال هندى معاصر من أتباع هذه العقيدة: "البكاء على الحسين هو ثواب حياتنا وروحنا فلولاہ لکنّا أكثر خلق الله جحوداً، ولسوف نواصل حزننا على الحسين فى الجنة⁽⁶²⁾... إن الحزن على الحسين هو شعار الإسلام ويستحيل على الشيعى ألا يبكى، فقلبه قبرٌ حى، هو القبر الحقيقى لرأس الشهيد المجتز⁽⁶³⁾".

إن من يتأمل شخصية ومصير الحسين يجدهما يقعان من ناحية الشعور موقع القلب من العقيدة، فهما النبع الرئيس الذى تصدر عنه المعرفة الدينية. وقد كان موته بمثابة تضحية طوعية بالنفس. ومن خلال آلامه يصل الأبرار إلى الجنة. ورغم أن تصور وجود وسيط هو أمر غريب على الإسلام، فإن ذلك قد ساد بين الشيعة منذ وفاة الحسين. كما صار ضريح الحسين بكربلاء أهم مقصد لحج الشيعة منذ زمن باكر، فهناك أربعة آلاف من الملائكة يحيطون بقبر الحسين يبكونه ليل نهار، وهم يستقبلون كل حاج - من أى مكان جاء - على الحدود. ومن يزور هذه المقصورة يحصل على ما يلى: فلن يسقط سقف داره فوقه أبداً. وهو لن يغرق أبداً، ولن يموت حريقاً، ولن تهاجمه حيوانات مفترسة. ومن يؤدى الصلاة فى هذه المقصورة عن إيمان حقيقى فإنه يطول عمره، ويثاب بأجر ألف حجة إلى مكة وألف شهادة وألف يوم صوم وألف رقبة محررة، وفى العام التالى يعجز الشيطان أو الأرواح الشريرة عن إيذائه، فإن مات دفنته الملائكة، وفى يوم البعث يقوم مع أتباع الحسين الذى يُعرف براية بيده، ليقود الإمام حجيجہ على صراطٍ مستقيم إلى الجنة. وطبقاً لنصوص قديمة أخرى فإن كل من

دُفن بضريح أحد الأئمة لن يُسأل يوم البعث مهما كان ذنبه، بل سوف يهرع إلى الجنة كأنه يغادر فراشه وتصافحه الملائكة مهنئةً. ولذا أقام الشيعة المتقدمون في العمر بكر بلاء كي يدركهم الموت هناك. فأما الآخرون ممن سكنوا على مسافة بعيدة من المدينة المقدسة فإنهم أوصوا بدفنهم هناك. وعلى مدار مئات من السنين لم تنقطع قوافل الموتى إلى كربلاء قادمةً من فارس والهند حتى لم تعد المدينة سوى جبانة ضخمة.

والعيد الكبير للشيعة، أينما كانوا، هو أيام شهر المحرم التي عانى فيها الحسين آلأمه⁽⁶⁴⁾. وفي أثناء هذه الأيام العشرة تعيش الأمة الإيرانية كلها في حزن، فيلبس كل من الملك والوزراء والموظفون السود أو ملابس رمادية اللون، ويطوف رعاة البغال والجنود بقمصان مسدلة وصدور عارية، وهو ما يعتبر إشارة واضحة عن الحزن. ففي غرة المحرم الذي يوافق بداية العام يبدأ العيد حيث تروى قصة ابتلاء الحسين من فوق منصات خشبية، فتصور كل تفاصيلها ولا تغفل أية مرحلة ليتأثر المستمعون تأثراً عميقاً، وترتفع صياحاتهم "يا حسين"، "يا حسين" مصحوبةً بأنين ودموع. ومثل هذا النوع من التراتيل تتواصل في أثناء اليوم كله، ويتوالى الوعاز على منصات مختلفة. وفي الأيام التسعة الأولى من المحرم تجوب الشوارع مجموعات من الرجال بصدور عارية أو مطلية باللون الأحمر أو الأسود، وهم يشدون شعورهم ويجرحون أنفسهم بالسيوف ويجرون خلفهم سلاسل ثقيلة، أو يؤدون رقصات عنيفة حتى يصل الأمر إلى صراعات دموية مع أتباع العقائد الأخرى.

ويصل الاحتفال أوجّه في العاشر من المحرم في موكب عظيم يعبر في جوهره عن موكب دفن الحسين. أما مركزه فهو تابوت الحسين الذي يحمله ثمانية رجال ويمضي خلف التابوت نحو ستين رجلاً ملطخين بالدم وهم ينشدون أناشيد متتاليةً ويتبعهم جوادٌ هو حصان جهاد الحسين. وعادةً ما يوجد في النهاية مجموعة من خمسين رجلاً تقريباً وهم يضربون زوجاً من العيذان الخشبية بعضها ببعض على نحوٍ إيقاعي. إن الهوس الذي يتملك كتلة المناحاة في أثناء مثل هذه الاحتفالات لا يمكن تصويره تقريباً. ولسوف نتعرف على ذلك فيما يلي من خلال استعراض من طهران.

إن مشاهد الاحتفال الحقيقية التي صورت آلام الحسين على نحو درامى عاطفى قد تحولت من بدايات القرن التاسع عشر إلى تأسيس وقف ثابت لها. وكان "جوبينيه" الذى أقام بإيران فى الخمسينات لفترة طويلة قد قدم وصفًا مثيرًا لهذه المهرجانات. وقد تبرع الأثرياء لإقامة المسارح الخاصة بها، حيث إن ما يُبذل لهذا الغرض من نفقات تعتبر أعظم ما يمكن تقديمه من أعمال الخير: "فبها يُشيد للمتبرع قصرٌ فى الجنة". وتتسع أكبر المسارح المشيدة لألفى أو ثلاثة آلاف مُشاهد. وقد قُدِّمت فى أصفهان عروضٌ أمام ما يربو على عشرين ألف مشاهد. وكانت الدعوة عامةً، وبوسع الجميع الحضور، من الشحاذ فى أسمااله حتى أغنى الرجال. وقد بدأت العروض فى الخامسة صباحًا، وقبل استعراض الآلام تكون ساعاتٌ عديدة قد انقضت فى المواكب والرقصات والعظات والأهازيج، كما قُدِّمت المشروبات المنعشة فى كل مكان. ويعتبر الموسرون والرجال المرموقون أنه شرفٌ لهم أن يقوموا بأنفسهم على خدمة أفقر المشاهدين. وقد رصد جوبينيه نوعين من هذا التأخى⁽⁶⁵⁾. "رجالٌ وأطفال يمسون بمشاعل خلف رايات سوداء ضخمة، يدخلون المسرح فى موكبٍ ويطوفون به وهم ينشدون". والمرء يستطيع متابعة هذه الفرق ليلاً بسرعة من مسرحٍ إلى آخر، بينما يعدو أطفالٌ أمامها وهم يطلقون بصوتٍ مدوٍ صيحات: "يا حسين! يا أكبر!". ويصطف الإخوة أمام منصات الوعاظ وهم ينشدون على نحوٍ عنيفٍ ووحشى فيجعلون من يدهم اليمنى هيئة المحار ليضربوها بعنفٍ وانتظام أسفل كتفهم الأيسر، فيصدر صوتٌ مكتوم ناتجًا عن ضرب أيادٍ كثيرة فى آن واحد، ليُسَمَعَ لمسافة بعيدة، ليصل إلى الحشد أثره، وسرعان ما تصير الضربات ثقيلةً وبطيئةً مصدرةً إيقاعًا، وسرعان ما تتحول سريعةً متعجلةً لتدب الإثارة فى الحاضرين. ومن النادر ألا يشارك المشاهدون كلهم هؤلاء الإخوة منذ البداية. ويبدأ الإخوة فى الغناء بعد إشارة من قائدهم وهم يضربون أنفسهم متواثبين بأماكنهم مكررين بصوتٍ مقتضب مختنق "حسين! حسين!". وهناك نوعٌ آخر مختلف من الإخوة هم الإخوة الجلادون، وهم يصحبون معهم الدفوف مختلفة الأحجام، وهم عراة الصدور، حفاة، حاسرو الرؤوس، وهم فى بعض الأحيان رجالٌ مسنون، وأحيانًا أخرى أطفالٌ تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، وقد أمسكوا بسلاسل حديدية وإبرٍ مشحوذة، بينما يحمل البعض منهم عيدانًا من خشبٍ وهم يدخلون المسرح فى موكبٍ وينشدون على وتيرةٍ واحدة، تبدأ بطيئةً للغاية ولا يزدون على

كلمتين: "حسين! حسين!"، وتصحبهم الدفوف بضرباتٍ تزداد سرعتها على نحو دائم. أما حاملو العيدان الخشبية فإنهم يقرعون بعضها ببعض بإيقاعٍ منتظم ليشرع الجميع في الرقص ليرافقهم المستمعون بالدق على صدورهم. وبعد حين يأخذ الجلادون في تعذيب أنفسهم بالسلاسل فيبدؤون ذلك ببطءٍ وحرص واضح ثم يفعلون فيشتد الضرب. أما كل من يحملون الإبر فإنهم يخزون أنفسهم في الأذرع والوجنات ليسيل الدم، فتتأوه الجموع مذهولةً، ويتصاعد الانفعال، فيقوم قائد الفرقة بالركض روحاً وجيئةً بين الصفوف مثيراً حماس الضعفاء ممسكاً بأذرع هؤلاء الذين يبالغون في حركتهم. فإذا ما طغى الحماس سككت الموسيقى وتوقف كل شيء. وهكذا يكون من الصعوبة بمكان ألا يتأثر المرء بمثل هذا المشهد، فالمرء يشعر بالمشاركة، بالتعاطف والفرح في الوقت نفسه. وأحياناً ما يُرى جلادون في لحظة توقف الرقص وهم يرفعون أذرعهم بالسلاسل نحو السماء هاتفين بصوتٍ عميق ونظرة قوية مؤمنة للغاية: "يا الله! يا رب!" إلى حد أن تملك الدهشة الكيان على هذا النحو، ويحل بهم الرضا التام وهو ما نستطيع وصفه بجوقة الكرب. وأثره هو أثر بلورة الكتلة. أما الألم الذي يلحقونه بأنفسهم فهو ألم الحسين. فإذا ما قاموا بتمثيل ذلك صار ذلك ألماً للجماعة كلها. ومن خلال الدق على الصدور الذي يستأنفه الجميع تنشأ كتلةٌ إيقاعية من الجماهير بعد أن انتقل إليها أثر المناحة، فقد انتزع الحسين منهم جميعاً وهو لهم جميعاً. لكن ليست بلورة جماعات الإخوة فحسب هي التي تخلق كتلةً مناحةً من بين الموجودين، فالأثر نفسه يكون لفرادى الوعاط وغيرهم. ولنستمع فقط إلى ما عايشه جوبينيه كشاهد عيانٍ لمثل هذه المناسبات⁽⁶⁶⁾: "لقد امتلأ المسرح تماماً في نهاية شهر يونيو حتى شعرنا بالاختناق في المخيم الضخم، فتناولت الجموع المرطبات وصعد الدرويش إلى المسرح ليصدق بنشيد مديح، ليصحه آخرون بالدق على الصدور. لم يكن صوته أخاداً، وقد بدا الرجل مرهقاً، فلم يترك أى انطباع، وبدت الأغاني خابية، وفيما يبدو أنه أحس ذلك فتوقف ونزل عن المسرح ليختفى عن الأنظار ليسود الهدوء مرةً أخرى. وهنا أخذ الكلمة فجأةً جنديٌّ تركي قوى البنيان فارع القامة متحدثاً بصوتٍ كالرعد، وهو يضرب بيديه فوق صدره بضرباتٍ عنيفة بصوتٍ مدو عالٍ. وكان أن قام جنديٌّ تركي آخر بالإنشاد لكن مع فرقة أخرى، وإن كان مرهقاً مثل الأول، وأخذ صوت الدق على صدره يرتفع بانتظام، وخلال خمس وعشرين دقيقةً كانت الكتلة

اللاهثة قد فُتنت بهذين الرجلين لتضرب نفسها ضرباً مبرحاً بعد أن أدار رءوسهم الغناء الرتيب بإيقاعه القوي، وهكذا صاروا يضربون أنفسهم بكل ما أوتوا من قوة. لقد كان صخباً مكتوماً عميقاً منتظماً متواصلًا. إلا أن الجميع لم يكتفوا بذلك، فإذا بزنجي شاب، بدا كأنه حمّالٌ، ينهض من بين الجموع القابعة ملقياً بقبعته، ليبدأ الغناء بأعلى صوت في أثناء ما كان في الوقت نفسه يضرب رأسه الحليق بكلكل قبضتيه. ولما كان يقف على بعد عشر خطوات منى فإنى استطعت متابعة حركاته كافةً، وقد بهت لون شفتيه، وكلما ازداد تغير لونهما ازدادت شدة انفعاله فصرخ وضرب كأنه يطرق على سندان، وواصل ذلك لعشر دقائق تقريبًا. إلا أن الجنديين لم يستطيعا مواصلة ذلك بعد أن غرقا في عرقهما ولم يعد الكورال ينصاع لصوتهما القوي المنضبط، ولم يعد مأخوذًا بهما، فبدأ الاضطراب والتردد فسكتت بعض الأصوات. أما الزنجى الذى بدا فاقداً لأى دعم مادي، فقد أغمض عينيه وتهاوى على جاره منهارًا، ليبدى الجميع شعورًا بالتعاطف معه واحترامًا له، فقام بعضهم بوضع الثلج على رأسه مبللاً شفتيه بالماء، إلا أنه كان قد غُشي عليه، فاستمر ذلك حينًا حتى أفاق، فلما نجح ذلك أخذ هو يشكر كل من ساعده برقة وأدب. وما إن حل الهدوء ثانيةً لفترةٍ وجيزة حتى صعد إلى المنصة رجلٌ بثيابٍ خضراء، ولم تخرج هيئته عن المألوف البتة، فقد بدا كئُجار العطارة بالبازار. وكان أن ألقى هذا الرجل عظةً عن الفردوس، واصفًا رحابته ببلاغة جزلة، فقراءة القرآن فحسب لا تفى ببلوغه، ولا يكفى أداء كل ما أمر به هذا الكتاب الكريم، كما لا يكفى أن تأتوا المسرح للبكاء كما تفعلون كل يوم، بل عليكم فعل كل أمر طيب باسم الحسين، بدافع الحب له، إنه الحسين، وهو أبواب الفردوس، إنه الحسين حامل الدنيا على كاهله، إنه الحسين الذى يكتب لكم النجاة فلتهتفوا: "الحسين! الحسين!"

"حسنًا، والآن مرة أخرى"

"يا حسين! يا حسين!"

"ابتهلوا إلى الله أن يديم عليكم حب الحسين، هيا تضرعوا إلى الله" فترفع الكتلة كلها الأذرع دفعةً واحدةً إلى أعلى صائحةً بصوتٍ كظيم "يا الله، يا رب!"

أما مهرجان الآلام التالى لهذا التمهيد الطويل المثير فإنه يتكون من مسلسلٍ غير متصل من أربعين إلى خمسين مشهدًا، وكل أحداثه يوحى بها الملاك جبريل

إلى النبى أو يراها مسبقًا بمنامه قبل أن تُعرض على المسرح. وكل ما يجرى يشارك فيه المشاهدون إلى حدٍّ ما، فالأمر لا يرتبط بالإثارة الدرامية طبقًا لمفهومنا بل إنه يهدف إلى الجماعية الكاملة. فكل آلام الحسين تم تصويرها بواقعية متناهية، من عذاب عطشه بعد أن قُطع عليه السبيل إلى الماء حتى فترات المعركة، حتى موته. ولم يكن ينشد سوى الأئمة والقديسين والأنبياء والملائكة، أما الآخرون الممقتون مثل الخليفة "يزيد" الذى أمر بقتل الحسين و"شمر" القاتل الذى وجه إليه الطعنة القاتلة فإنهم محرومون من الغناء، فهم يترنمون فقط وقد يحدث أن تغلبهم بشاعة أفعالهم فينفجرون فى البكاء فى أثناء ترديد كلامهم الخبيث. ولا يقابل ذلك أى تشجيع بل بكاءً وأنين وضرب على الرؤوس. ويبلغ انفعال المشاهدين أوجه، فيصل إلى محاولة إعدام الأوغاد، قتلة الحسين. وقرب النهاية يُصوّر مجيء رأس الشهيد المحتز إلى بلاط الخليفة. وفى أثناء الطريق تحدث معجزةٌ تلو الأخرى، فيقوم أسدٌ بانحناء عميق أمام رأس الحسين، ويتوقف الموكب أمام ديرٍ مسيحي، وعندما يرى القس رأس الحسين يصبأ عن دينه ويعلن إسلامه.

إن موت الحسين لم يذهب هباءً، ففى يوم البعث سوف يتسلم هو مفاتيح الفردوس ليقول الله نفسه: إن حق الشفاعة هو للحسين صريحًا، فهو شفيع الجميع برحمتى. أما النبى محمد فيسلم الحسين مفتاح الفردوس قائلاً: "امض وأخرج من النار كل من سفح فى حياته دمعَةً واحدة من أجلك، كل من ناصرَكَ على أى نحو، كل من شدَّ الرحال مرةً إلى ضريحك أو بكاك، كل من قال فيك بيت شعرٍ حزين، فاحمل الكل وامض بالجميع إلى الفردوس"⁽⁶⁷⁾.

إنه لا توجد عقيدةٌ أخرى منحت المناحة كل هذا الزخم، فهى تحصل على أعظم جزاء دينى وتفوق كل الأعمال الطيبة عدة أضعاف. وهكذا يكون بوسعنا هنا الحديث عن عقيدة مناحة. إلا أن هذا النوع من الكتلة لا يصل إلى ذروة التطرف فى المسارح فى أثناء عرض مشاهد الآلام. أما "يوم الدم" بشوارع طهران الذى يشارك فيه نصف مليون إنسان فقد وصفه شاهد عيانٍ على النحو التالى، ولسوف يكون من الصعوبة بمكان أن يُعثر على شهادة أعجب ولا أقوى من هذه⁽⁶⁸⁾:

"كانوا خمسمئة ألف إنسان تملّكهم الجنون وهم يهيلون التراب على رؤوسهم ويضربونها بالأرض فى سبيل الخضوع طواعيةً للشهيد، فينتحرون جماعاتٍ

ويشوهون أنفسهم على نحوٍ دقيق. أما مواكب الطوائف فكانت تتابع واحدًا تلو الآخر، وكانت تتكون من أناسٍ تمسكوا بالقليل من العقل، أى غريزة الإنسان في السيطرة على نفسه، فكان المشاركون فيها يرتدون ثيابًا مألوفة، وقد خيم سكونٌ عميق لدى مرور مئاتٍ من رجال بقمصان بيضاء رافعين وجوههم زاهدين نحو السماء.

وفي المساء كان قد توفي أو سُوه العديد من هؤلاء الرجال. أما القمصان البيضاء والملطخة باللون الأحمر فصارت أكفأًا، ولم تعد هذه الكائنات تنتمي إلى الأرض. وقد تمت حياكة القمصان على نحوٍ بسيط لا يتيح الحركة إلا للعنق والأيدي، فكانت الوجوه وجوه شهداءٍ والأيدي أيدي القتلة. وفي جوٍ تسوده صيحاتٌ مثيرةٌ للحماس وانتشار عدوى الجنون، يُسَلَّم البعض لهؤلاء سيوفًا ليصل انفعالهم إلى حد القتل، فيدورون حول أنفسهم ملوحين فوق الرؤوس بالأسلحة التى سُلِّمت لهم، وقد طغى صراخهم على صياح الكتلة. وحتى يتحملوا آلامهم فإنهم ينزلقون إلى حالةٍ من التنشج، فيمضون بخطى آليةٍ إلى الأمام وإلى الخلف وإلى الجانب من دون نظامٍ واضح، ومع كل خطوة -على الإيقاع- يضربون رؤوسهم بالسيوف المثلثة ليسيل الدم وتتصبغ القمصان باللون الأحمر القرمزى. ويدفع مشهد الدم اضطراب عقولهم إلى قمته. فيتصادم بعض هؤلاء الشهداء المتطوعين ببعضهم بعضًا، فيضربون ما حولهم بالسيوف ويسيل الدم من أفواههم المطبقة. وفي أثناء الهوس يكونون قد قطعوا أوردتهم وشرايينهم ليموتوا في الحال قبل أن يتاح الوقت للشرطة لحملهم إلى الإسعاف التى أُعدت خلف ستار أحد المحال. أما الكتلة التى لا تبالى بضربات الشرطة فإنها تلتف حول هؤلاء، وتستدرجهم إلى موضعٍ آخر بالمدينة حيث يستأنفون هناك حمَّام الدم، ولا يكون هناك من يملك وعيه. وأما الذين لا يرون فى أنفسهم الشجاعة لسفح الدماء فإنهم يقدمون للآخرين مشروب الكولا لتقويتهم. وهم يؤنبونهم بهذه الوسيلة مصحوبَةً باللعنات. ويخلع الشهداء قمصانهم التى يعتبرونها مباركةً ليعطوها لهؤلاء الذين يمضون معهم. أما الآخرون الذين لم ينضموا فى البداية إلى الضحايا المتطوعين فإذا بهم فجأة، فى أثناء الانفعال الجماعى، يشعرون بالتعطش للدم فيطلبون أسلحة ويخلعون ملابسهم ويلحقون بأنفسهم جراحًا حيثما اتفق. وأحيانًا تنشأ ثغرةٌ فى الموكب بعد سقوط أحد المشاركين على الأرض منهكًا، وفى الحال تُسد الثغرة وتلتحم الكتلة (الجماهير) فوق هذا التعس لتركله بالأقدام وتدهسه.

ليس هناك سباق للموت أفضل من يوم حفل عاشوراء، حيث تنفتح أبواب الفردوس الثمانية أمام الصديقين، فيحاول كل الوصول إليه. أما جنود الخدمة المكلفين باستقبال الجرحى والذين يحفظون النظام فيتأثرون بانفعال الكتلة، فيقومون بخلع زيهم الرسمي ويلقون بأنفسهم في حمام الدم. كما يمتلك الجنون الأطفال حتى الصغار منهم، فهناك بجوار نافورة وقفت إحدى الأمهات مثلةً بالفخار محتضنةً بصدرها طفلها الذي كان قد شوه نفسه، بينما أتت أخرى راكضةً وهي تصيح: "لقد خرق ابني عينه". وفي لحظاتٍ قليلة كان هذا قد خرق عينه الأخرى، لينظر الوالدان إلى ذلك بفخر.

الكاثوليكية والكتلة

عند تأملنا للكاثوليكية بنظرة موضوعية فإن ما سيلفت انتباهنا هو البطء والهدوء بعينهما، وهو أمرٌ يرتبط بانتشار واسع. أما شعارها الأساسى بأنها تتسع للجميع فإنه يتجلى فى اسمها، فهي تسعى لضم كل فردٍ إليها، فتقبل الجميع بشروطٍ لا تُعتبر قاسية. وفى ذلك ما جعلها تحتفظ بآخر ما يدل على وجود مساواة من حيث مبدأ اعتناقها، وليس فى حدث القبول نفسه، كما تميزت هذه المساواة عما سواها من أسس النظام الهرمى للكاثوليكية.

وبجانب انتشار الكاثوليكية فإن هدوءها، وهو أعظم قوة جذبٍ للكثيرين، يعود الفضل فيه إلى عمق امتداد الكاثوليكية التاريخى ونفورها من كل الأعمال الجماعية العنيفة. أما عدم ثقتها فى سواد جمهورها فقد ظل سمةً ملازمةً للكاثوليكية من زمنٍ سحيق قد يعود إلى الزمن المبكر لحركات الهرطقة أو أنصار مونتanos الذين أفصحوا عن احتقارهم للأساقفة. فخطورة الفورات المفاجئة والسهولة التى تندفع بها الكتلة وسرعتها وتهورها، وإلغاؤها لأعباء الفوارق تحديداً، وهو ما يعتبره نظام الكنيسة الهرمى مهماً للغاية، كل هذا أدى بالكنيسة فى عصرٍ باكرٍ إلى أن ترى فى الكتلة المنفتحة عدواً رئيساً يجب مواجهته بكل السبل. وبهذا الإدراك الراسخ اصطبغت كل عناصر عقيدتها، وكذلك كل أشكال منظومتها العملية. ولم توجد دولةٌ حتى الآن على وجه الأرض عرفت

كيف تدافع عن نفسها ضد الكتلة بمثل هذه الأساليب المختلفة. أما كل أصحاب السلطة فيبدون بئسين غير أكفاء مقارنةً بالكنيسة، وهذا يرجع إلى تأثير عقيدة الكنيسة المباشر على جموع المؤمنين، فهي تتسم ببطءٍ ورتابة لا يمكن إغفالهما. فحركة الكهنة بزيهم الثقيل الجاسي، وخطواتهم المحسوبة، وألفاظهم المملوطة، تُذكّر على نحوٍ ما بكل سمات مناحة الموتى الواهنة بلا نهاية، والتي شرعت في نشرها بانتظام عبر قرون من الزمان، حتى إنه لم يكذب ببقى شيء من فجائية الموت أو عنف الألم. لقد توقفت عندها الحركة الزمنية للمناحة. كما مارست الكنيسة وسائل عديدة لإعاقة الارتباط بين المؤمنين أنفسهم، فهم لا يعظون بعضهم البعض، فعظة المؤمن البسيط ليس لها أية قدسية، فكل ما يأمله دومًا، وأيا ما وقع على عاتقه من ضغوط يرغب في الخلاص منها، فهو أمرٌ يأتيه من جهة أعلى من دون تقديم أى تفسير أو توضيح له، بل ليس في استطاعته مطلقاً فهمه. فالعظة المقدسة يتم صوغها أولاً ليتناولها كالجرعة، وهى أمرٌ مقدس لصالحه، حتى إن الذنوب شأنٌ من شئون القساوسة يتحتم على المؤمن الاعتراف بها أمامهم. لم يكن الأمر مبعث راحة بالنسبة له حين يبوح بذنوبه لآخرين من عامة المؤمنين، كما لا يحق له أيضاً الاحتفاظ بذلك لنفسه. وفي جميع مشكلاته الأخلاقية الأكثر تعقيداً لا يلجأ المؤمن إلا إلى طبقة الكهنة، مسلماً أمره لهم في سبيل حياةٍ يرضى هو عنها ويسمحون هم له بها.

إن أسلوب تقديم التناول ذاته يفرق بين المؤمنين بدلاً من أن يجمع بينهم. فالمتناول وحده يحصل على كنزٍ ثمين، وهو ينتظره وحده، وينبغى عليه هو وحده أن يكون حريصاً عليه. ومن يتأمل طابور المتناولين سيلحظ يقيناً مدى إنشغال كلٍ منهم بذاته فقط. ومن يأت قبله أو بعده لا يعبأ به، إذ إنه ليس أكثر من شريك له في الحياة العادية، والرابطة بينهما واهية للغاية. فالتناول يربط المتناول بالكنيسة، وهى غير مرئية وذات تأثير واسع المدى، وهى تقصيه عن الحاضرين. والمتناولون لا يشعرون فيما بينهم بأنهم جسدٌ واحد إلا بقدر ضئيل، كأنهم مجموعة من بشر عثرت على كنزٍ وشرعوا في اقتسامه. وفي مثل هذا الحدث، الذى يمثل للعقيدة أهميةً مركزية، فإن الكنيسة تفصح عن حذرهما فيما يمكن أن يذكر بالكتلة الجماهيرية. فتقوم بإضعاف الجماعية والتهوين من شأنهم بين الحاضرين، وتحل محل ذلك جماعيةً غامضة غير ملموسة، جماعيةً مهيمنة لا يحتاجها المؤمن بالضرورة، وهى التى لا ترفع الحدود بينها وبين المؤمن ما

دام على قيد الحياة. أما الكتلة المسموح بها والتي تشير إليها الكاثوليكية دائماً، أى كتلة الملائكة والأبرار، فإنها لا توجد في العالم الآخر فقط، وصارت من خلال "بعدها" مسالمةً وبعيدةً عن نشر العدوى، بل إنها تنطوى أيضاً على الدعة والهدوء النموذجيين. فالمرء لا يتصور أنه بوسع الأبرار فعل الكثير، فوداعتهم تذكّر بمسألة المشاركين بالموكب الدينى. فهم يمشون ببطءٍ ويغنون ويسبّحون وقد غمرتهم الغبطة. وهم يمارسون ذلك على نحو متشابه، كما لا يمكن إنكار المصير المشترك الذى يجمعهم. ولم تكن هناك محاولة قط لإخفاء أو التشكيك فى المساواة الكبيرة التى يتسم بها مسلك حياتهم. فهم كثيرون وقريبون من بعضهم البعض ومفعمون بنفس السكينة، لكن ذلك أيضاً يكشف عن ملامح كتلتهم الوحيدة، وهى كتلة تتنامى ببطءٍ إلى حد أنه لا يمكن ملاحظته. ولم يذكر عددها المتنامى قط. وهى لا تملك أيضاً اتجاهًا ما، وحالتها هى حالة نهائية. فمجمع أعضائها غير قابلٍ للتغيير. وهى لا تسعى إلى أى شىء، فليس هناك ما تنتظره. وبقيناُ إنها شكلٌ أكثر هدوءًا ومسالمةً من أشكال الكتل التى يمكن تصورها. وقد نتصورها من هذا المنطلق كجوقة تشدو بأغانٍ عذبة رتيبة تخدم الاصطفاء، بعد أداء كل الفروض، فى إطار زمنٍ لا ينتهى. فإن لم تكن الأبدية هى أصعب أهداف الساعين للخلاص، فإنه من الصعب إدراك ما تمثله عملية الجذب من أهمية لكتلة الأبرار. وهو ما يسعى إليه الأبرار على الأرض، إلا أن ما تريد الكنيسة الكشف عنه فإنه يتم عرضه ببطء. وتعد المواكب الدينية تعبيرًا مناسبًا عن ذلك. فينبغى أن يراها أكبر قدر ممكن من الناس، ويقتفون أثرها فى حركة كأنها تدافع بطىء. وهى تختزل داخلها المؤمنين عندما تمر بهم ببطءٍ تام من دون أن تحثهم على حركةٍ أسرع، ولا يسمح إلا بالركوع المبتهل أو الانضمام إلى صفوفٍ خاصة بنهاية الموكب، من دون أن يفكروا أو يتمنوا الاندماج فى الموكب، فالموكب يقدم دائماً نموذجًا لنظام الكنيسة الهرمى. فكلُّ يرفل فى عباته فى كرامةٍ تامة متصورًا أن الجميع يرونه ويعتبرونه فى كل مرة على هذه الحال. وهو ينتظر مباركة من له حق الغفران له. والحق أن أسلوب الانضمام هذا يمنع المتفرجين من الاقتراب من حالةٍ مشابهة لحالة التكتل. لتظل حالة اختلاف المستويات مهيمنة. وهو ما يستبعد أى مساواة أو توحيد بينهم. فالمتفرج البالغ لن يرى نفسه راهبًا أو أسقفًا أبدا. فهما يظلان منفصلين عنه للأبد ويраهما هو أعلى درجة منه. لكن كلما ازداد إيمانه زاد ميله إلى إثبات تقديس هؤلاء الذين هم

أكثر سموًا وتقديسًا منه. وهذا هو ما يهدف إليه الموكب بالضبط وليس أكثر، فهو يهدف إلى تقديس جماعى من قبل المؤمنين. ولا ينشد أكثر من جماعية يمكن أن تفضى إلى هبات أو أعمالٍ انفعالية لا يمكن السيطرة عليها. لكن حتى التقديس نفسه مقسمٌ إلى درجاتٍ، فعلى امتداد الموكب يرتفع من درجةٍ لدرجة، وهى درجاتٌ معروفة ومتوقعة، درجاتٌ مستقرة لا تعرف أى وازع للفجائية، فهى ترتفع بهدوء وإصرار مثل الفيضان لتصل مستواها الأعلى لتعاود التراجع ثانيةً.

أما أهمية كل أشكال التنظيم للكنيسة فإنها لا تدهشنا بما تملكه من عدد وفير من بلورات الكتل الجماهيرية. وربما لا يمكننا دراسة وظيفتها على هذا النحو الجيد مثل هنا، على ألا ننسى أنها هى أيضاً تخدم التوجه العام للكنيسة الذى يمنع من وجود تشكيلات جماهيرية أو بالأحرى يبطئ من سرعتها. وتنتسب إلى هذه البلورات الأديرة والجمعيات الدينية. وهى تشمل المسيحيين الخلاء الذين يعيشون فى طاعة وفقر وطهارة. وهم المنوط بهم خدمة الآخرين الكثيرين الذين ينتمون إلى المسيحية لكنهم لا يعيشون كمسيحيين، والذين يجب أن يروا أمامهم هؤلاء المسيحيين الحقيقيين. وكان زيهم هو الوسيلة الأهم لذلك. فهو يعنى هجر الأسرة والخلاص من الارتباط بها. فالكنيسة لا تسمح لنفسها بالتحفظ المتسامى ونفورها من الكتل المنفتحة وتحريم تكوينها. فهناك أوقات كان الأعداء يهاجمون من الخارج أو يتخذ الانهيار معدلاً سريعاً حتى لا يمكن مكافحته إلا بوسائل التصدى للأوبئة. فى مثل هذه الأوقات ترى الكنيسة نفسها مضطرة إلى أن تواجه الكتل الجماهيرية المعادية بكتل تابعة لها. فيصير الرهبان نشطاء يسبحون فى البلاد ليدعوا الناس إلى التفاعل الإيجابى، هؤلاء الناس الذين كانوا يتجنبونهم عادةً. وقد كانت الحروب الصليبية أفضل مثالٍ على تكوين الكنيسة لكتلة جمهور خاص بها.

النار المقدسة فى القدس

إن الاحتفال اليونانى بأسبوع الفصح بالقدس يبلغ أوجه فى حدثٍ من نوعٍ غير مألوف على الإطلاق. ففى سبت الفصح تنزل على كنيسة القيامة النار المقدسة من السماء إلى الأرض. وهناك يكون قد اجتمع آلاف الحجيج من سائر العالم ليشعلوا شموعهم من لهب النار بعد انطلاقها مباشرةً من قبل المُخلَّص. والنار فى حد ذاتها لا تمثل خطرًا ما، فالمؤمنون يعتقدون أنها لن تمسهم بسوء، إلا أن الوصول إلى هذه النار يكلف بعض الحجيج حياتهم. وكان "ستانلى" الذى صار فيما بعد عميد وستمينستر قد عايش احتفال الفصح بكنيسة القيامة، فى أثناء رحلته إلى هناك عام 1853، وكتب عنه وصفًا مسهبًا⁽⁶⁹⁾:

"تقع المقصورة الموجودة بالقبر المقدس فى قلب الكنيسة. وحول القبر كان قد تجمع المؤمنون بكثافة متلاحمين فى حلقتين كبيرتين، وفُصل بينهما بصفين من الجنود. وقد حافظ جنودٌ أتراك على هذا الشريط الفاصل بين هاتين الحلقتين. أما الزائرون فقد جلسوا فى الشرفات العلوية. كان ذلك صباح سبت الفصح، وقد بدا كل شيء هادئًا حتى هذه اللحظة، فلم يكن هناك ما يشى بالأحداث القادمة. وكان هناك اثنان أو ثلاثة من الحجاج يتشبثون بقوةٍ بحائط مقصورة القبر. وفى وقت الظهيرة اقتحم جمعٌ مضطرب من المسيحيين العرب الممر الخالى، وقد ألقوا بأنفسهم فى حلقةٍ تدور بعنف حتى أمسك بهم الجنود. وقد بدا

أن هؤلاء العرب يعتقدون أن النار لن تأتى إذا لم يقوموا قبل ذلك بالطواف حول القبر عدة مرات. وخلال ساعتين كاملتين استمرت هذه القفزات الفرحة حول القبر، وفجأةً يجرى عشرون أو ثلاثون أو خمسون رجلاً ممسكين ببعض البعض ليرفعوا أحدهم إلى أعلى على أكتافهم أو رؤوسهم، ثم يندفعون إلى الأمام حتى يقفز هذا إلى أسفل ليتبعه واحدٌ آخر، وكان بعضهم يرتدى عباءةً صوفيةً وبعضهم شبه عارٍ. وكان عادةً ما يتقدم أحدهم كمرشدٍ ليصفق بيديه فيصفقون هم أيضاً ويطلقون صيحات ولولةٍ عنيفة: (ها هو قبر عيسى المسيح، فليحفظ الله السلطان، لقد خلّصنا عيسى المسيح). وما بدأ بمجموعةٍ صغيرةٍ سرعان ما يتنامى حتى يمتلئ الشريط الدائرى بين الجنود بهؤلاء الأشخاص الجامحين وهم يتسابقون كدوامةٍ، كسيلٍ جارف. وشيئاً فشيئاً يتراجع الهوس أو يتلاشى. ثم يتم إفساح الطريق ليدنو من الكنيسة اليونانية موكبٌ طويل برايات مطرزةٍ ليطوف حول القبر. ومن هذه اللحظة يسود الاضطراب الذى كان قد اقتصر قبل ذلك على الراكضين والراقصين. أما المجموعتان الكبيرتان من الحجيج فقد ظلتا مكانهما، يفصل بينهما الجنود، إلا أن الجميع ينفكون معاً في سلسلةٍ عنيفةٍ من هتافاتٍ تتخللها من حينٍ لآخر أناشيد الموكب التى تبدو غريبةً للغاية. ويطوف الموكب حول القبر ثلاث مرات. وفي المرة الثالثة يتوحد كلا صفى الجنود في المؤخرة. وبحركةٍ واسعةٍ تأخذ الكتلة الجماهيرية في التأرجح هنا وهناك إيذاناً بدنو قمة الإثارة في هذا اليوم. وكان وجود الأتراك الكفار - حسبما يعتقد البعض - يعيق نزول النار، وقد حانت لحظة طردهم من الكنيسة. أما هم فقد استسلموا للطرد لتعم الكنيسة فوزى هى من سمات المعارك ونشوة الانتصار. ومن كل الأنحاء يهجم الجمهور على القوات التى تندفع إلى الركن الجنوب الشرقى من الكنيسة ليتعطل الموكب، بينما الرايات تخفق ملوحةً. وفي فوج صغير لكن متماسك يظهر "أسقف بتر" وهو أسقف النار لهذه المرة ونائب البطريك، والناس يدفعونه بسرعةٍ إلى مقصورة القبر، لتغلق الأبواب خلفه، وتسبح الكنيسة في هذه اللحظة في بحرٍ من الرؤوس هادرةً صاخبةً، فيما عدا بقعةٍ وحيدة بقيت شاغرةً، فعلى شمال المقصورة، باتجاه جدار الكنيسة الذى كان يفضى إلى ممر ضيق، كانت هناك كوةٌ، وعند الكوة نفسها كان يقف كاهنٌ ليلتلف النار. وعلى جانبى الممر، على مرمى البصر، كانت مئات الأذرع الحاسرة قد امتدت كفروع غابةٍ زلزلتها عاصفةٌ هوجاء. وفي العصور الأولى الأكثر جرأةً كانت تظهر في هذه اللحظة

حمامةً فوق قبة المقصورة لتجعل نزول الروح القدس مرثياً. لكننا الآن لم نعد نراها. إلا أن الإيمان بنزول الروح ما زال موجوداً. فإذا ما عرفنا ذلك فإننا نتفهم تمامًا هذا الانفعال المتفاقم للحظات التالية. فقد بدت داخل الفتحة شعلة لهب متألقة كأنها انبعثت من أخشاب تحترق. ورغم إقرار كل يوناني وإع بأن الأسقف قد أشعلها داخل المقصورة فإن الحجاج كافة يؤمنون بأنها نور حلول الله على القبر المقدس. وفي هذه اللحظة يغيم كل شيء في الانفعال الشامل الذي ساد الكنيسة، فيستحيل رؤية الملامح والأحداث. شيئاً فشيئاً وببطءٍ تتمدد النار من يد ليد، ومن شمعةٍ لشمعة بين الجمع الرهيب، لتنتشر بالمبنى في النهاية نار آلاف الشموع الموقدة من صالةٍ لأخرى وفي كل مكان أسفل ذلك. وتكون هذه هي اللحظة التي يُحمل فيها الأسقف أو البطريك على الأكتاف فاقداً الوعي تقريباً، ليعطى الانطباع بأنه واقعٌ في مجد الله المهيمن، وها هو قد عاد للتو من حضرته المباشرة. وفي هذه الأثناء ينتفض تيارٌ كبير محاولاً الإفلات من دخان الحرارة الخانقة وأيضاً من أجل نقل الشموع الموقدة إلى شوارع ومنازل القدس، فيندفع الناس للخروج من باب الكنيسة الوحيد، ويكون التدافع أحياناً حاداً إلى حد وقوع حوادث، كما جرى عام 1834 عندما دفع المئات من الناس حياتهم ثمناً لذلك. ولفترةٍ وجيزة يظل الحجاج يركضون هنا وهناك وهم يعرضون وجوههم وصدورهم للنار ليبرهنوا على أنها لا تصيبهم بسوء كما يعتقدون. إلا أن هذه السعادة الغامرة تنتهى بتقسيم هذه النار. لكن تراجع الهوس السريع والتام ليس هو أقل فصول هذا العرض إثارةً. فالانفعال الغاضب صباحاً يناقض على نحوٍ غريب هدوء المساء العميق حينما تكون الكنيسة قد غصت بالحجاج ثانيةً وسادها هذه المرة سباتٌ عميق، فهم يتمسكون على هذا النحو بصلاة منتصف الليل".

كان هناك شاهد عيانٍ على الكارثة الكبيرة لعام 1834، هو الإنجليزي "روبرت كورزون"⁽⁷⁰⁾. أما تقريره عن الكارثة فكان بمثابة المشهد المروع، وهو ما نعرض نقاطه الأساسية فيما يلي. كان كورزون قد ذهب مع أصدقاءٍ له إلى كنيسة القيامة لمشاهدة موكب اليونانيين. وقد بدت كل نافذةٍ وكل ركنٍ وكل أصغر مكانٍ حيث تجد قدم أي كائنٍ حي موضعاً لها، بدا كل ذلك مسدوداً تمامًا بالناس فيما عدا الشرفة التي حُجزت من أجل إبراهيم باشا، حاكم القدس

التركي، وضيوفه من الإنجليز وفيما يبدو كان بالقدس سبعة عشر ألف حاج جاءوا جميعًا تقريبًا لرؤية النار المقدسة.

وفي الصباح التالي قام بعض الجنود بإفساح طريقٍ وسط الجمع من أجل إبراهيم باشا الذي استقبل بموكب ما من ذلك الجمهور المجنون ليأخذ مكانه بالشرفة، وبدأ انفعال الناس العنيف يزداد شيئًا فشيئًا بعد أن ظلوا ليلةً كاملةً واقفين بين مثل هذه الكتلة، ما أصابهم بالإجهاد. فلما دنا وقت عرض النار لم يتمالكوا أنفسهم من الفرحة فازداد انفعالهم. وفي الساعة الواحدة تقريبًا خرج موكبٌ بديع من مقصورة اليونانيين وهم يطوفون بالبطريك ثلاث مرات حول القبر، ليخلع قميصه المطرز بالفضة ويدخل القبر وتغلق الأبواب خلفه. وهنا بلغ انفعال الحجاج أوجه، فعلا صراخهم، وترنحت كتلة الناس الكثيفة كحقل غلالٍ في مهب الريح. ومن كوة صغيرة مستديرة بموضعٍ بالقبر تم تسليم النار المقدسة.

أما الرجل الذي دفع المبلغ الأعلى لينال هذا الشرف فقد قاده قوةً من الجنود إلى هذا المكان. وللحظةٍ ساد الصمت، ثم ظهر ضوءٌ من القبر ليستلم الحاج المحظوظ النار المقدسة من البطريك الموجود بالداخل، وهى عبارة عن حزمة شموع دقيقة تم إشعالها ووضعت داخل إطار حديدي حتى لا تتخاطفها الجموع فتنتطفئ. ففي اللحظة نفسها تكون معركةٌ صاخبةٌ قد نشبت وسادت بعد أن يغمر الحماس الجميع للوصول إلى النور المقدس. فمنهم من يحاول إشعال شمعته فيطفئ في أثناء ذلك شمعة جاره. وقد كان ذلك هو الطقس كاملاً، فلم تكن هناك عظةٌ ولا صلاة، اللهم إلا قليلاً من الإنشاد في أثناء الموكب. وسرعان ما رأينا تنامى الأنوار في كل اتجاه بعد أن أشعل كل فردٍ شمعته من الشعلة المقدسة، بالمقاصير والشرفات وبكل ركن وأينما كان ذلك ممكناً لاستعراض شمعته، فبدأ كل شيء غارقاً من بحرٍ من نور. وفي أثناء الهوس كان الناس يقومون بتعريض وجوههم وأيديهم وصدورهم لحزمة الشمع المشتعل ليتطهروا من ذنوبهم. وسرعان ما غطت غمامةٌ داكنة من دخان الشموع المكان كافةً، وقد رأيتُه يتصاعد في سحبٍ كبيرة من كوةٍ علوية بوسط الكاتدرائية ناشراً رائحةً بشعة. وقد عُشى على ثلاثة أشخاصٍ بائسين من جراء الحرارة والهواء الرديء ليسقطوا من الشرفة العلوية فوق رءوس الناس أسفلها ممزقين. كما توفيت

امرأة أرمنية شقية تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا وهى جالسة على مقعدها، متأثرة بالحرارة والعطش والإعياء. وفي النهاية وبعد أن رأينا كل شيء يمكن رؤيته نهض إبراهيم باشا ليمضى، فقام حراسه الكثيرون بإفساح الطريق أمامه عنوةً وسط كتلة كثيفة من البشر غصت بهم الكنيسة. ولما كانت الكتلة هذه هائلة فقد أثرنا الانتظار بعض الشيء لنسلك معًا جميعًا بعد ذلك طريق عودتنا إلى ديرنا. فمضيت أنا أولاً وخلفى رفاقى بعدما أفسح لنا الجنود طريقًا عبر الكنيسة. وهناك، حيث وقف تمثال العذراء المقدسة في أثناء صلب المسيح، رأيت عديدًا من الناس راكدين فوق بعضهم البعض في كل مكان حول هذا القسم من الكنيسة. وحاولت قدر إمكاني المرور بينهم متجهًا نحو الباب، إلا أنني وجدتهم قد التحموا على نحوٍ كثيف حتى إننى وطئت بالفعل كومة كبيرة من الأجساد. وهنا قفز إلى ذهني أن كل هؤلاء أموات، فلم ألحظ ذلك في البداية بعد اعتقادي أنهم قد أزهقوا فقط من شدة الطقوس فرقدوا هنا ليلتقطوا أنفاسهم. لكننى عندما وصلت إلى الجمع الغفير نظرت إليهم فلحظت ذاك التعبير الحاد القاسى الذى لا يمكن إساءة فهمه، وقد تغير لون بعضهم إلى اللون الأسود القاتم من جراء الاختناق. وفي موضع آخر كان آخرون غارقين في الدم وقد غطتهم بقايا مخ وأمعاء من مزقهم دهس الكتلة الجماهيرية، فلم يعد بهذا الموضع من الكنيسة جموع حية. ولكن على مسافة قريبة عند الركن المواجه للمدخل الرئيسى كان الناس ما زالوا يتدافعون مذعورين إلى الأمام. وكان كلٌ يبذل قصارى جهده كي ينجو بنفسه. أما الحراس الخارج فقد راعهم اندفاع الناس، فظنوا أن المسيحيين ييغون الهجوم عليهم، وسرعان ما استحالت هذه الفوضى إلى معركة، فقتل الجنود ببنادقهم كثيرًا من مساكين أشقياء كانوا على وشك الانهيار، كما لطخت الجدران بالدم وأجزاء من مخ الرجال الذين سقطوا كالثيران بعدما أُطلق عليهم رصاص بنادق الجنود، فقد كان كلٌ يحاول الدفاع عن نفسه أو النجاة بنفسه، وكل من سقط جراء اللكمات كان الآخرون يدهسونه حتى الموت. على هذا النحو من العنف واليأس نشب صراعٌ بعد أن بدأ الحجاج المذعورون والمروءعون يتجهون في نهاية الأمر للقضاء على الآخرين بدلاً من النجاة بأنفسهم. وما إن أدركت الخطر حتى هتفت بأصحابي للعودة، وهو ما فعلوه أيضًا. أما أنا فكان التزامم قد دفعنى إلى مقربة من الباب حيث كان الجميع يصارعون في سبيل البقاء على قيد الحياة. وهناك رأيت الموت المحقق بأم عيني، فبذلت قصارى جهدى من أجل

العودة، إلا أن أحد ضباط الباشا، عرفت من نجوم على كتفه أنه عقيدٌ، كان قد أخذ حذره مثلي، فحاول أيضًا العودة، فأمسك بردائي وسحبني فوق جسد رجل عجوز كان يلفظ آخر أنفاسه، وقد احتضنني الضابط، وبشجاعة اليأس صارعنا معًا بين محتضرين وأموات. وظللت أصارع مع الرجل هذا حتى أسقطته، ثم نجحت في الوقوف على قدمي ثانيةً. بعد ذلك عرفت أنه لم ينهض مرةً أخرى، وقد نهضت للحظةٍ بين اللكمات لأقف فوق سطح غير مريح من أجساد ميتة من الجموع الكثيفة التي تزاхمت في هذا الموضع الضيق من الكنيسة. وقد وقفنا جميعًا للحظةٍ بلا حراك وفجأةً اهتز الجمع ودوت صرخة لتفتح الكتلة الجماهيرية لأجد نفسي وسط صفٍ من رجال واقفين بينما وقف صفٌ آخر أمامي. وكان الجميع ممتنعين شاحبين بثياب ممزقة ملطخةً بالدم. هناك وقفت وأخذنا نحدق ببعضنا البعض، وفجأةً داهمنا شعور انفعالي مفاجئ بعد صرخة تردد صداها في قاعات كنيسة القيامة الممتدة ليصطدم كلا الصفيين الخصمين ببعضهما البعض، وسرعان ما وجدتني أ جذب وأجر رجلاً شبه عارٍ كانت ساقاه ملطختين بالدماء، فتراجعت الكتلة مرةً أخرى. وفي أثناء الصراع اليأس والقتال المرير أخذت أشق طريقى مرةً أخرى إلى داخل الكنيسة، حيث عثرت هناك على رفاقي ونجحنا في الوصول إلى مقصورة الكاثوليك، ومن هناك إلى الغرفة التي خصصها الرهبان من أجل إقامتنا. وعند مدخل المقصورة كان علينا الانتصار في صراعٍ محتدم مع مجموعةٍ أكبر من الحجاج حاولت الدخول معنا. وقد حمدت الله على نجاتي التي وُفقت إليها بالكاد. أما الموق فكانوا يرقدون في كل مكان أكوامًا، وقد رأيت أربعمئة من هؤلاء البائسين موتى وأحياء، مكدسين متداخلين. وفي بعض المواضع ارتفعت هذه الأكوام إلى ما يربو على خمسة أقدام. وكان إبراهيم باشا قد غادر الكنيسة قبلنا بدقائق قليلة بعد أن أفلت بحياته بشق الأنفس. وكانت الجموع قد حاصرتَه من كل جانب وقد هاجمه البعض ولم يصل إلى الفناء الخارجى إلا بعدما بذل أتباعه قصارى جهدهم، حتى إن العديد منهم قُتل في أثناء ذلك. وقد عُشى عليه أكثر من مرةٍ في أثناء هذا الصراع، فكان على رجاله أن يشقوا له طريقًا بين كتلة الحجيج بسيوفهم المشهورة. ولما وصل إلى الخارج أصدر أمره بإبعاد الجثث وحث رجاله على حمل جسد من يبدو على قيد الحياة من بين أكوام الموق. وبعد الكارثة الرهيبة بكنيسة القيامة المقدسة بدا جيش الحجيج كأن الذعر تملكه، فحاول الجميع الفرار من المدينة

على أسرع وجهٍ وقد ذاعت شائعةٌ بانتشار الطاعون، فقمنا مع آخرين بتنظيم رحلةٍ لرحيلنا".

من أجل إدراك ما حدث لا بد لنا من أن نفرق بين مسارٍ منتظمٍ لعيد الفصح وبين هذا الذعر لعام 1834 الذي كان "كورزون" شاهداً عليه. إنه عيد القيامة وقد تحول حشد المناحة الذي تكون حول موت المسيح وحول قبره إلى حشد انتصار. فالقيامة هي الانتصار، وهو ما يحتفل به. أما النار فقد لعبت هنا دور الرمز لكتلة الانتصار، وهو رمز يجب أن يصل إلى كل فرد حتى تشارك روحه في هذا البعث. فيجب أن يصير كل فردٍ، على نحوٍ أو آخر، هذه النار نفسها الناشئة عن الروح القدس. وهكذا يفهم معنى أن كلا منهم يشعل شمعته منها. ومن الكنيسة يحمل كل منهم النار الغالية إلى داره. أما طريقة الخداع التي أشعلت بها النار فهي محيرة. والأمر الجوهري هنا يتمثل في تحول حشد المناحة إلى حشد انتصار. فالناس يشاركون في موت المخلص بأن يجتمعوا حول قبره، إلا أنهم بإشعالهم شمعة من نار الفصح المنطلقة من قبره فإنهم يكونون قد شاركوا أيضاً في البعث. ومن الجميل والمهم أيضاً تضاعف الأنوار، كما لو أن الآلاف من الأنوار نشأت عن "نورٍ واحد" فجأةً. وكتلة هذه الأنوار هي كتلة هؤلاء الجماهير الذين سوف يحيون، وهي كتلة تنشأ بسرعةٍ رهيبة على النحو السريع الذي تنتشر به النار. إن النار هي أفضل رمزٍ لفجائية وسرعة تكوين كتلة، لكن قبل أن يصل الأمر إلى هذا الحد، قبل أن تظهر النار بالفعل، يكون لا بد من النضال في سبيل ذلك، فكان لا بد من طرد جنود الأتراك الكافرين الموجودين بالكنيسة، فما داموا موجودين هناك فلن تستطيع النار الظهور، وانسحاب هؤلاء يعتبر من طقوس الاحتفال. أما لحظة ذلك فتحين بعد موكب الأشراف اليونانيين. وقد تحرك الأتراك صوب باب الخروج، إلا أن المؤمنين اندفعوا خلفهم كأنهم يطردونهم، ليسود الاضطراب في الكنيسة فجأةً كأنه معركة ونشوة انتصار.

أما الطقس فيبدأ بكتلتين جماهيريتين متعطلتين يفصل الجنود بينهما، وتتحرك حشود إيقاعية من عرب مسيحيين بين الكتلتين لتبث فيهما الحماس. ويكون لهذه الحشود المتطرفة العنيفة أثر بلورات الكتلة، فتتشر عدوى انفعالهم بين هؤلاء المتمسكين بانتظار النار. ثم ينشط موكب الأشراف، وهو كتلة بطيئة

إلا أنها في هذه الحالة تصل إلى هدفها على نحوٍ أسرع لم تعهده من قبل. ويكون الشاهد الحى على ذلك هو البطريقك شبه فاقد الوعى الذى يُحمَل ويُطاف به بعد إشعال النار.

أما ذعر عام 1834 بتبعاته الرهيبة فقد نشأ عن عنصر النضال الذى هو أحد عناصر الطقس. ومخاطر ذعرٍ ناشئ عن نار بمكانٍ مغلق تكون دائماً كبيرة، لكن قوته ازدادت هنا من جراء التناقض بين الكافرين الموجودين من البداية بالكنيسة وبين المؤمنين الذين أرادوا طردهم. وقد جاء وصف "كورزون" ثرياً بلامح تفسر سبب هذا الذعر، ففي لحظةٍ من لحظاته الكثيرة الفارغة من المعنى والمتناقضة يجد نفسه فجأةً في صفٍ من رجال يواجهه صف آخر معادٍ، ومن دون تحديد للتابعين لهذا الصف أو الآخر إذا بهما يتصارعان معاً صراع حياة أو موت. كما ذكر (كورزون) أكواماً من الجثث تُدهَس ويحاول البعض العبور فوقها للنجاة بنفسه، وها قد صارت كنيسة القيامة ساحة قتال بعد أن صار أمواتٌ وأحياء مكدسين معاً في جموع غفيرة ليتحول البعث إلى نقيضه، إلى اندحارٍ شامل. وكان تصوّر لجمعٍ آخر أكبر من موقى، أى إشاعة الطاعون، قد سيطر على الحجاج ليهرب الجميع من مدينة القبر المقدس.

الكتلة والتاريخ

رموز كتلة القوميات

لقد وقعت معظم المحاولات الرامية إلى دحر القوميات في خطأ جوهري. إذ إن كل ما كان يبتغيه المرء لا يزيد على تحديد ماهية ودلالة "القومية" في حد ذاتها. قالوا: إن الأمة هي هذه، أو إن الأمة هي تلك. وقد ساد اعتقاد أن الأمر يرتبط بالعثور على المفهوم السليم، فإذا ما عُثر عليه أمكن تطبيقه على الأمم كافة على حد سواء. فكان الاستدلال يعتمد على اللغة أو الإقليم الجغرافي أو الأدب المكتوب والتاريخ ونظام الحكم، وعلى ما يسمى بالشعور الوطني. إلا أن الاستثناءات كانت دائماً أهم من القاعدة، ودائماً ما كان يتضح لهم أنهم قد أمسكوا مصادفةً بخيط حقيقى من نسيج ثوب مهلهل، وسرعان ما يفلت منهم بسهولة، ليعودوا كما بدأوا.

وبجانب هذه الوسيلة التى تبدو موضوعيةً كانت هناك وسيلةً أخرى بسيطةً اهتمت بأمةٍ واحدةٍ فقط، أى تلك التى اهتمت تحديداً بالأمة التى تنتمى إليها ولم تهتم بغيرها. وهذه كانت تتكون من زعم راسخ فى التفوق، ومن رؤى متنبئة بالحجم الشخصى، ومن مزيج خاص من ادعاءات أخلاقية وحيوانية. وفى هذا لا نعتقد أن هذه الأيديولوجيات الوطنية فى الواقع تتساوى جميعاً أيضاً، ولا يساوى بينها سوى شهيتها الملحة ومزاعمها. وقد تنشذ جميعها الهدف نفسه، إلا أنها

تظل مختلفة، فهي تشد زيادة الحجم فتؤسس لذلك بالتكاثر. وكما يبدو فإن كلاً منها على حدة قد وُعدت بالأرض كلها، وسوف تؤول الأرض بالطبع إلى كلٍ منها على حدة. أما كل الآخرين الذين علموا بذلك فقد شعروا بالتهديد، وهم في خوفهم لا يرون سوى التهديد، ولذلك لم ينتبه أحد إلى أن المضمون الواقعي، أي الأيديولوجيات الحقيقية لهذه الأشكال الوطنية، يختلف اختلافاً كبيراً، ولا بد من بذل الجهد لتحديد خصوصية كل أمةٍ بصرف النظر عن مطامحها، ولا بد من رؤية موضوعية صادقة تنبذ المزاعم، ولا بد من أن يندمج المرء في كل منها، كأن قسماً كبيراً من حياته ينتمى إليها، على ألا ينتمى إليها إلى حد الوقوع في أسر إحداها على حساب كل الأخريات.

إن من العبث والغرور أن نتحدث عن الأمم قبل تحديد الفروق بينها. فهي تخوض حروباً طويلة ضد بعضها البعض، فيشارك عددٌ كبير من المنتمين لكل أمةٍ بفاعلية في هذه الحروب. وغالباً ما دار الحديث بما يكفي عن سبب حروبها هذه. لكن لأي هدفٍ حاربت بعضها البعض؟ لا أحد يعرف. وهي تحمل اسماً لها، فتقول نحن الفرنسيين، الألمان، الإنجليز، اليابانيين. لكن ما معنى هذه الكلمة داخل الإنسان الذي يعبر بها عن نفسه؟ فما هو اعتقاده، وفيم اختلافه عندما يخوض الحرب كفرنسي أو ألماني أو إنجليزي أو ياباني؟ فالأمر هنا لا يرتبط كثيراً بوجه الاختلاف حقاً. فالبحث في عاداته وتقاليده ونظام حكمه وآدابه يمكن أن يبدو عميقاً إلا أنه يمر مرور الكرام بهذه الوطنية التي هي عقيدته في أثناء خوضه للحرب. هنا ينبغي النظر إلى الأمم على أنها ديانات، فهي لديها التوجه من حينٍ لآخر للوقوع في هذه الحالة. فهناك دافعٌ لذلك على الدوام. ففي الحروب تظهر أهمية الأديان القومية. ومن المتوقع من البداية ألا يرى المنتمى لأمةٍ نفسه "وحيداً"، فما إن يوصف أو يصف هو نفسه بهذا الانتماء حتى يطرأ على صورته شيءٌ أكثر شموليةً، أي تلك الوحدة الأكبر التي يشعر هو نفسه بالارتباط بها. وهذا النوع من الوحدة ليس بلا قيمة، مهما كان ارتباطه بها. فالوحدة الجغرافية لبلده ليست على هذا النحو من البساطة كما تُرى على الخريطة، فهذا ما لا يكتسب له الإنسان العادي، فهو يرى أن الحدود يمكن أن تمتد على ألا تتجاوز المنطقة الفعلية أو الكاملة لبلدٍ ما. وهو لا يفكر كذلك في لغته كما تم تحديدها وجعلها معروفةً في مواجهة لغات الآخرين. وبقيناً توجد هناك كلماتٌ يعرفها جيداً ذات تأثيرٍ عظيم عليه، خاصةً في أزمنة الاضطراب، لكن

ذلك ليس قاموسًا يقف بجانبه مستعدًا لمعاونته في بلوغ الهدف الذى يحارب هو في سبيله. أما تاريخ أمته فيكون على درجة أقل من الأهمية للإنسان العادى، فهو لا يعرف مجرياته الحقيقية، ولا فحوى استمراره، ولا ما كانت عليه الحياة فى الماضى. فهو لا يعرف إلا قليلاً من أسماء هؤلاء الذين عاشوا قبل ذلك. أما الشخصيات واللحظات التى غُرست فى وعيه فهى شىء مختلف تمامًا عما يفهمه المؤرخ المحترف من التاريخ. وأما الوحدة الكبرى التى يشعر بالارتباط بها فهى دائماً الكتلة أو رمز الكتلة. فهذه الوحدة تمتلك دائماً بعض الملامح المحددة لما يميز الكتل أو رموزها، وقد عالجنا كثيراً من مثل هذه الرموز مثل الكثافة والنمو والانفتاح بلا حدود والارتباط المفاجئ أو اللافت للانتباه، كما تناولنا بالحديث كلاً من البحر والغابة والبذرة، ومن نافلة القول أن نكرر هنا صفاتها ووظائفها، وهو ما سوف نراه ثانيةً فى تصور ومشاعر الأمم نفسها. إلا أن هذه الرموز لا تظهر أبداً مجردةً وحدها، فالمنتمى لأمة ما يرى نفسه دائماً - متنكراً على طريقته - فى ارتباط جامد برمز كتلة بعينه، صار أهم شىء لأمته. ففى عودة الرمز المنتظمة، وفى ظهوره عندما تتطلب الحاجة إليه، تكمن استمرارية شعور الأمة فيه، وبه فقط يتغير الوعى الذاتى للأمة، وهو أكثر تغيراً عما يظن ويستطيع المرء أن ينهل منه أملاً ما فى استمرار بقاء البشرية. وفيما يلى سنحاول إلقاء نظرة على قليل من الأمم فيما يخص رموزها. وحتى نكون منصفين فلا بد من أن نعود إلى عشرين عاماً سابقة. فالأمر الذى لا يمكننا التأكيد عليه بما يكفى هو أمرٌ يدور هنا بالطبع حول اختزال ملامح بسيطة وعامةٍ للغاية، لا تكاد تذكر شيئاً عن الإنسان الفرد.

الإنجليز

قد يكون من الحكمة أن نبدأ بتأمل إحدى الأمم التى تعلن عن نفسها بكلماتٍ هادئة، إلا أنها تفصح دائماً بلا ريب عن شعور قومى راسخ، وهى هذه التى نعرفها جميعاً اليوم باسم "إنجلترا". فالجميع يعرفون أهمية البحر للإنجليزى، ولكن ليس من المعروف تقريباً هذه الصلة الصحيحة التى تربط بين فرديته الشهيرة وبين البحر. فالإنجليزى يرى نفسه قبطاناً مع مجموعةٍ صغيرة على متن سفينةٍ يحيط به البحر من كل جانبٍ ومن أسفل، فهو تقريباً

وحيد حتى كقبطان لطاقم، فهو منعزلٌ في كثيرٍ من الأمور. إلا أنه لا بد له من السيطرة على البحر، وهذه الفكرة هي أمرٌ حاسم. فالسفن وحيدة على سطح البحر الهائل مثل الأفراد ممثلين في شخص القبطان، الذي لا تخضع سلطة أوامره المطلقة للنقاش. فالاتجاه الذي يتخذه هو القرار الذي يصدره إلى البحر، وتنفيذه على نحوٍ غير مباشر من خلال الطاقم يغطي على هذا الخداع بأن البحر هو في الواقع الذي عليه إطاعته، فهو يحدد الهدف، والبحر على طريقته الحية يحمله إلى هناك وسط عواصف ومؤثرات مضادة. ويتوقف الأمر على حجم المحيط وعلى من يطاع أكثر، وتكون طاعة الاتجاه أكثر يسرًا إذا كان الهدف هو مستعمرة إنجليزية. وهنا يكون البحر مثل الحصان الذي يعرف طريقه وتكون السفن الأخرى أشبه بفارسان أعيّر لهم البحر لكن لتبحر فقط على نحو أفضل بكثير تحت إمرة سيدها. والبحر واسعٌ إلى حد عدم المبالاة بعدد السفن التي يقودها المرء. أما فيما يخص شخصيته، فعلى أن نأخذ في الاعتبار كم المتغيرات الطاغية الخاضع هو لها. وهو في تحولاته يقدم متغيرات أعظم من كل تلك الكتل الحيوانية التي يرتبط بها الإنسان عادةً، ومدى مسالمة واستقرار الغابات بالنسبة للصيد والحقول بالنسبة للمزارع مقارنةً بالبحر.

فالإنجليزي يعاني كوارثه في البحر، وقتلاه يتصورهم غالبًا بقاع البحر، على هذا النحو يقدم له البحر التحولات والمخاطر. أما حياته فهي تشبه البحر تمامًا، فالرتابة والأمان هما ملامحه الأساسية، فلكل مكانه لا يغادره، مهما كان التحول. وهكذا ينتهي الأمر بأن يمضي المرء إلى البحر وهو مطمئن على موروثه وأملاكه.

الهولنديون

تبدى أهمية رموز الكتلة الوطنية بوضوح شديد في التناقض القائم بين الإنجليز والهولنديين. فالشعبان على صلة قرابة. وتشابه لغتهما وتطور أحوال دينهما كان تقريبًا واحدًا. وكلاهما يسافر بالبحر. وقام كل منهما بتأسيس إمبراطورية بحرية عالمية، كما لا يختلف مصير القبطان الهولندي المبحر في سبيل اكتشافات تجارية عن مصير القبطان الإنجليزي بأية حال. أما الحروب التي خاضوها ضد بعضهم البعض فكانت حروبًا بين أقارب متنافسين. إلا أن هناك فرقًا بينهما، وهو فارقٌ ارتبط برموز كتلهم القومية. فالإنجليز احتلوا جزرهم إلا

أنهم لم ينتزعوا البحر، فالبحر خضع للإنجليزى من خلال سفنه فقط، فالقبطان هو صاحب الأمر على البحر. أما الهولندى فكان لديه الأرض التى سكنها من أجل استغلال البحر فيما بعد. وكانت أرض الهولندى منخفضةً إلى حد أنه اضطر إلى حمايتها من خلال السدود. فالسد يمثل بداية ونهاية حياته القومية. وقد وضعت كتلة الرجال نفسها على قدم المساواة مع السد، فهما يواجهان البحر باتحادهما معًا. فإذا كان بالسد خللٌ ما، فإن البلاد تتعرض للخطر. وفي وقت الخطر يتم فتح السدود ليعيشوا هم آمنين من العدو على جزر اصطناعية. والشعور بوجود جدارٍ إنسانى يصد البحر لا يوجد مثيلٌ له بأى مكانٍ على هذا النحو الكبير مثلما يوجد هنا. فالناس هناك يعيشون آمنين باعتمادهم على السدود. فإذا ما اضطروا إلى تدميرها لصد العدو فإن قوتها تنتقل إلى الرجال الذين يعيدون بناءها مرةً أخرى بعد الحرب. وقد ظل السد ماثلاً في وجدانهم حتى يمكن أن يصبح حقيقةً واقعةً مرةً أخرى. وعلى نحوٍ غريب وواضح يحمل الهولنديون داخلهم حدودهم ضد البحر في أثناء أوقات المخاطر المهددة لهم. أما إذا هوجم الإنجليز في جزرهم فإنهم يلوذون بالبحر، فالرياح تقف معهم ضد أعدائهم. وقد كانوا آمنين في جزرهم، وهو الأمان نفسه الذى يشعر به كل منهم على سفينته. أما الهولندى فيأتيه الخطر دائماً من خلفه وهو الذى لم يخضع البحر لسلطانه قط، ورغم أنه طاف بأرجاء العالم بسفنه الشراعية، فإن البحر يمكن أن ينقلب عليه في وطنه. أجل، ففى سبيل صد هجوم العدو فإنه، فى أقسى الحالات، يضطر إلى أن يفعل بنفسه كل شيء ليدفع ذلك عن نفسه.

الألمان

كان الجيش هو رمز جمهور الألمان الذين اعتبروا الجيش شيئاً أعظم من مجرد جيش، فقد كان الجيش هو الغابة المتحركة. فشعور الألمان الحى بالغابة لا مثيل له فى أى بلدٍ بالعالم الحديث. فجمود وتوازى الأشجار المستقيمة وكثافتها وعددها تغمر صدر الألمانى بفرحٍ عميق غامض، وهو يسعى حتى اليوم إلى الغابة التى عاش فيها أسلافه، ليشعر بتوحده مع الأشجار، فنقاؤها وحدودها الواضحة فيما بينها وتفوق وضعها العمودى تميز هذه الغابة عن الغابات الاستوائية حيث تنمو النباتات المتسلقة متداخلة فى كل اتجاه. ففى الغابة الاستوائية تغيب

الرؤية في الزحام، فهي كتلة غير منتظمةٍ تعمها الفوضى، وتختلف وجوه نموها أشد الاختلاف، ولذا فهي تقصى كل شعورٍ برسوخ القاعدة والتكرار المنتظم.

أما غابة المنطقة المعتدلة فلديها إيقاعها الواضح. فتمتد الرؤية بحذاء الجذوع المرئية، إلى بعدٍ متساوٍ دائماً. أما الشجرة في حد ذاتها فهي أضخم من أى إنسان في حد ذاته، وهى تنمو دائماً مرفوعة الهامة. وصلابتها لديها الكثير مما يتحلى به المحارب من فضيلةٍ، أما لحاؤها الذى يبدو لنا للوهلة الأولى كدروعٍ لأشجار مجتمعة من النوع نفسه، فهو يماثل في الغابة زى الفرقة العسكرية في الجيش، فالجيش والغابة كانا بالنسبة للألماني، من دون أن يتبين هو ذلك، قد التحما معاً على كل الوجوه. فما يراه الآخرون في الجيش قفراً وجدباً يراه الألماني حياة وتألّق الغابة، فهو لا يخشى هناك شيئاً، ويشعر بالأمان كواحدٍ من هؤلاء جميعاً. فهو يتخذ من خشونة واستقامة الأشجار قاعدةً له. فالصبي الذى يترك دار أهله الضيقة كي يحلم ويخلو إلى نفسه كما يظن، فإنه يكون قد عايش هناك انضمامه للجيش مسبقاً. ففي الغابة تقف (الأشجار) بالفعل مستعدة ومخلصة وحقيقية ومستقيمة كما يريد الصبي أن يكون، فهناك تكون الواحدة منها مثل الأخرى، فكل منها تنمو مستقيمةً، إلا أنها تختلف تماماً في ارتفاعها وقوتها. وعلينا ألا نقلل من قيمة أثر هذه الرومانسية المبكرة للغابة على الألماني، فقد عبر عن ذلك في عشراتٍ من الأغاني والقصائد. أما الغابة الواردة بها فكانت تُسمّى غالباً بالألماني. فالإنجليزى يحب أن يرى نفسه على سطح البحر بينما يحب الألماني الإقامة بالغابة. وموجز القول، فإن ما يفصل بين شعورهما القومى يصعب التعبير عنه.

الفرنسيون

أما رمز جمهور الفرنسيين فيعود إلى تاريخٍ حديث، أى إلى ثورتهم. فعيد الحرية يُحتفل به كل عام. وقد صار عيد الفرحة القومى الحقيقى. ففي الرابع عشر من يوليو يستطيع كلُّ أن يراقص الكل بالطرقات. فمن كان يفتقد عادةً قدرًا ما من الحرية والمساواة والإخاء يستطيع أن يبدو في مسلكه ولو لمرةٍ كأنه يتمتع بذلك. فهي الطرقات مزدحمةٌ مثلما حدث في الماضى عندما اقتُحِم الباستيل لتمارس الكتلة العدالة بنفسها، بعد أن ظلت لقرنٍ من الزمن ضحية

قانون الملك. ومما يعد من سمات الشعور الاحتفالي على نحو أعظم هو التذكير بعمليات إعدام هذا العهد، وهى سلسلة متصلة من الانفعال الجماعى فى أقصى مداه. فمن يعترض طريق الكتلة فإنه يسلمها رأسه المدين به للجماهير، وهو ما يفضى إلى الحفاظ على الشعور السامى وتناميه. ولا يملك أى شعب، مهما كان، هذه الحيوية التى لـ"المارسييز"، أى "سلام فرنسا الوطنى" الذى نشأ عن هذا العهد. فانطلاق الحرية كحدث تاريخى يعاود كل سنةٍ وينتظره الناس كل سنةٍ. ويثمر فوائد جمة كرمز جمهور لأمةٍ ما، وهو ما استنفر فيما بعد قوى الدفاع، كسابق عهده. فالجيوش الفرنسية التى احتلت أوروبا هى التى فجرت الثورة بعد أن عثرت على "نابوليونها" ومجدها العسكرى الأعظم. فأما الانتصارات فصارت من حق الثورة، أما قائدها الإمبراطور فقد احتفظ بالهزيمة وحده. إلا أن هناك اعتراضًا ما على هذا المفهوم للثورة كرمزٍ قومى لجمهور الفرنسيين، فهذه الكلمة تبدو غير محددة، فهى لا تملك وضوح القبطان الإنجليزي على متن سفينته ذات الحدود الثابتة، ولا تملك النظام الصارم للجيش الألمانى المحارب، لكن علينا ألا نغفل أن البحر المتحرك لازمٌ لسفينة الإنجليز، وأن الغابة المائجة ملازمةٌ للجيش الألمانى وهذا هو المادة المغذية الجزلة لشعوره، وكذلك فإن الشعور الجماعى للثورة يتجلى فى حركةٍ واضحة ومادةٍ واضحة فى اقتحام الباستيل. ولجيل أو جيلين سابقين كان كل فرنسى يضيف إلى كلمة الثورة صفة "الفرنسية"، وذكرها الأكثر جماهيريةً هى ما تميز كذلك الفرنسيين أمام العالم، فقد كان ذلك من أخص ما تفردوا وظهروا به. ومن هذا المنطلق تكون الثورة الروسية قد أحدثت شرحًا مؤملًا فى شعور الفرنسيين القومى.

السويسريون

هناك دولة لا يستطيع أحد التشكيك فى تماسكها القومى، هى سويسرا. وشعور السويسريين الوطنى هو أقوى من شعور شعوبٍ تتكلم لغةً واحدة. فتعدد اللغات وتنوع "الكانتونات" وبنائها الاجتماعى المختلف وتناقض الديانات التى ما زالت حروبها ماثلةً فى ذاكرة التاريخ، كل هذا لا يستطيع أن يفضى إلى شرحٍ فى وعى السويسريين القومى، فهم يملكون رمز جمهور جماعى، يضعونه نصب

أعينهم طوال الوقت، ولا يمكن زعزعته، ولا يشبه أيًا من رموز تلك الشعوب الأخرى: إنها الجبال.

إن السويسري يرى من كل مكان قمم جباله، ولكن من بعض المواقع تبدو سلسلتها أكثر كمالاً، فشعور السويسري بأنه يرى كل جباله معاً يسبغ على هذه المواقع شيئاً من القدسية. وأحياناً في ليالٍ، لا يكون للمرء أى تأثير عليها، تأخذ الجبال في التألق فتصل بذلك إلى أعلى قدسيتها. أما وعورة مسالكها وصلابتها فيبعثان في السويسري الشعور بالأمان. ففي قممها المنفصلة عالياً يرتبط السويسريون بأسفلها كجسدٍ واحدٍ عملاق فهم الجسد، والجسد هو البلد نفسها. وقد عبّرت خطط الدفاع في أثناء الحربين السابقتين عن هذا التماثل بين الأمة السويسرية وبين سلسلة الألب نفسها على نحوٍ مذهش، فكل المزارع والمدن ومواقع الإنتاج كانت سيتم اجتياحها في حالة اعتداء على البلاد، حتى الجيش كان سيبدأ النضال من الجبال. وكانت سوف تتم التضحية بالأرض والشعب، لكن الجيش على الجبال كان سيواصل تمثيله لسويسرا. وكان رمز جمهور الأمة سيصير للبلد نفسه، فهو سدهم الخاص بهم الذي يملكه السويسريون، ولم يجب عليهم بناؤه أو هدمه كما فعل الهولنديون، ولم يغمره البحر، بل هي جبالهم تقف هناك، وما عليهم سوى إدراك معناها. وهم يرتقونها ويجوبون كل أرجائها. فهي تملك قوة المغناطيس فتجذب من سائر البلدان أناساً يقلدون السويسريين في الإعجاب بجبالهم واستكشافها. أما متسلقو الجبال المنتمون لأمم من أقصى أطراف العالم فهم مثل السويسريين المؤمنين، فجيوشهم المنتشرة في أرجاء العالم، بعد أداء واجبها المحدد وقصير المدى في الجبال سوف تحصل على المكانة الحيوية لسويسرا. ودراسة مدى مساهمة الجبال عملياً في الحفاظ على استقلال سويسرا قد يستحق بذل مجهود أكبر.

الإسبان

مثل الإنجليزى كقبطان، فإن الإسبانى يرى في نفسه مصارع ثيران. لكن بدلاً من البحر الخاضع للقبطان فإن مصارع الثيران يمتلك الجموع المنبهرة به، فالحيوان، الذى ينبغى عليه قتله طبقاً لقواعد فنونه النبيلة، هو هذا الغول الغادر القديم فى الأسطورة. ولا يجوز للمصارع إبداء رهبة ما. فثباته الانفعالى هو كل شئ، فكل حركة يبيديها، مهما صغر شأنها، يراها الآلاف ويحكمون عليها.

إنها هي الحلبة الرومانية التي حافظت على وجودها هنا. إلا أن مصارع الثيران بها صار فارسًا نبيلًا، فهو يظهر كالمحارب الوحيد الذي غيرت العصور الوسطى معناه وتقاليده كما غيرت على نحو خاص مكانته. أما الحيوان الخانع، عبد الإنسان، فإنه يقاوم مرةً أخرى. إلا أن بطل العصور المبكرة الذي خرج ليحارب، ليسيّط على الحيوان فقد صار متأهّبًا باديًا أمام البشرية جمعاء، وهو مؤمنٌ بمهمته، حتى إنه بمقدوره تنفيذ مهمته بكل تفاصيلها في قتل الغول أمام أعين مشاهديه، وهو يعرف قدره بدقة، فخطاه محسوبةٌ وحركاته تعرف ثوابت الرقص، إلا أنه يقتل بالفعل، والآلاف يرون ذلك، ويكررون هذا القتل بانفعالهم. إن إعدام هذا الحيوان البري الذي لم يعد بريًا، فجعل بريًا من أجل تبرير قتله، إن هذا الإعدام والدم والفارس الذي لا تشوبه شائبة هي صورٌ تنعكس على نحو مزدوج في أعين المعجبين. فتارةً يكون هؤلاء هم الفارس الذي قتل الثور، وتارةً يكونون هم أيضًا الجماهير التي تحتفل به. والناس يرتبطون ببعضهم البعض مثل الحلبة، فيكونون مخلوقًا منغلّقًا على نفسه، وفي كل مكان يصادف أعينًا وفي كل مكان يسمع صوتًا واحدًا هو صوت نفسه. هكذا كان الإسباني، الذي يلهث خلف مصارعه، قد اعتاد منذ زمنٍ باكر على مشهد كتلةٍ محددة تمامًا. وهو يعرف ملامحها حق المعرفة. وهي ما زالت حية إلى حد ابتعادها عن كثير من التطورات والأشكال الجديدة التي لا يمكن لبلاد ذات لغةٍ مختلفة تفاديها. إن مصارع الثيران في الحلبة، التي تمثّل له الكثير، يصير أيضًا رمزًا لكتلته القومية. وإذا ما راودت خياله صورةٌ عن جموع من الإسبان فإنها ستكون غالبًا صورة هذا الموضع الذي يجمعهم. فإذا قارنًا فرح الكتلة العارم هذا، يكون فرح الكنيسة بسيطًا ومساميًا، لكنه لم يكن فرحًا دائمًا، فالكنيسة لم تستح من إشعال نار الجحيم على الأرض للمهرطقين، بينما كان ببيان الكتلة بالنسبة للإسباني قد اتخذ توجهًا مختلفًا.

الإيطاليون

إن شعور أمةٍ حديثة بذاتها، وكذلك مسلكها في حربٍ ما، هو أمرٌ يرتبط إلى حدٍّ كبير بإمكانية إقرار رمز (كتلتها) جمهورها القومي. وفي هذا يمثل التاريخ لبعض الشعوب ضربةً موجعة متأخرة بعدما كانت قد انتزعت وحدتها بالقوة. وقد تصلح إيطاليا هنا مثالاً على مدى الصعوبة التي تعترض أمةً ما وهي ترى

مدنها ذات التراث العميق ومدى نكبتها، وحاضرها الذى شاع فيه الاضطراب المتعمد. وقبل أن تحقق إيطاليا وحدتها كانت كل القضايا داخل البشر أكثر وضوحًا، فالجسد الممزق قد يعود للتلاحم ثانيةً ويشعر أنه منظومة واحدة وسليمة، حالما يطرد هذا العدو الحشرة عن نفسه بالقهر الشديد.

فعندما يحتل العدو البلاد لفترة طويلة للغاية تتكون لدى الشعوب تصورات متشابهة، فالعدو يبدو كسرب جرادٍ كثيف العدد، قميئًا كريهًا، يعيش على الأرض الخيرة الطيبة لأبناء الوطن، فإن كانت لديه نية جادة للبقاء فإنه يظهر نزعة تقسيم هذه الأرض، وإضعاف أهل البلاد بأن يوهن ارتباطهم ببعضهم البعض بكل السبل، وهنا تكون الحركة المضادة عبارة عن ارتباط سرى لتطرد الحشرة في سلسلة من اللحظات الموفقة. وهذا هو ما حدث في نهاية المطاف، لتعود إيطاليا إلى وحدتها التى كان غالبًا ما يشترك إليها الكثيرون من أفضل مفكريها بلا جدوى، ولكن اتضح منذ هذه اللحظة أنه لا يجوز السماح لمدينة مثل روما بأن تحيا آمنةً، فمبانى الكتلة من العصور القديمة ظلت هناك "شاغرة". أما المسرح الرومانى المدرج فكان أطلالاً مصونة، يشعر عندها المرء بأنه بلا حقوق، منبؤذ. وعلى النقيض من ذلك كانت روما الثانية، روما "سانت بيتر" قد احتفظت بما يكفى من قوة جاذبيتها. فكانت كاتدرائية سانت بيتر تغص بالحجيج من سائر أنحاء العالم، إلا أن روما الثانية هذه لم تكن مهينة لتكون قطبًا للتمييز القومى على أية حال. فقد ظل توجهها نحو كل البشر بلا تمييز، فمنظومتها كانت قد قامت في عصر لم يكن قد وجد فيه بعد ما يعرف بـ "القوميات" بمعناها الحديث. وهكذا ظل الشعور القومى لإيطاليا الحديثة بين روما الأولى والثانية مصابًا بالشلل. ولم يكن هناك مفر من ذلك، فقد كانت روما موجودةً، فصار الرومان هم إيطاليا. وقد جربت الفاشية حلاً، بدا هو الأبسط، بأن ارتدت الثوب القديم، وهو ما لم يناسبها على الإطلاق، فقد بدا فضفاضًا إلى حد الإفراط. أما الحركات التى نشأت داخلها فكانت عنيفةً إلى حد أنها قطعت كل أوصالها. فأما حركات الـ "فورا" فقد أرادت الخروج من قبورها ثانيةً الواحدة تلو الأخرى، لكنها لم تنسجم مع الرومان. وأما "رابطة العصي" فقد أثارت كراهية هؤلاء الذين ضربوا بالعصى. ولم يكن هناك من يتفاخر بالتهديد أو التأديب. ولحسن الحظ أن باءت بالفشل كل محاولة لفرض رمز جماهيرى قومى مزيف على إيطاليا.

اليهود

ليس هناك شعبٌ يصعبُ فهمه مثل اليهود. فقد انتشروا على وجه الأرض المسكونة كلها بعد فقدانهم لبلدهم الذى نشأوا فيه. وقد اشتهروا بقدرتهم المربية على التكيف. إلا أن تباين درجة تفهمهم كان عظيمًا، فكان منهم الإسبان والهنود والصينيون. وقد حملوا معهم لغاتٍ وثقافاتٍ من بلدٍ لآخر، وحرصوا على الحفاظ عليها كأنهم يمتلكونها. وهناك بعض المخدوعين ممن يبالغون في زعم المساواة فيما بينهم في كل مكان. أما من يعرفهم فإنه سيميل إلى الرأى القائل بأنه يوجد بينهم نماذج مختلفة أكثر بكثير من أى شعبٍ آخر. فقد اتسع الاختلاف الكبير لليهود في المظهر والجوهر، وهو من أكثر الأمور التى يمكن أن تصادفها عجبًا. أما الأسطورة الشائعة بأنه يوجد بينهم أفضل وأساء البشر فهى تعبر عن الحقيقة على نحوٍ ساذج. فهم مختلفون عن الآخرين، لكنهم في الحقيقة - إذا ما وسعنا قول ذلك - أكثر اختلافًا فيما بينهم. ومن المثير للعجب أنهم ما زالوا على الإطلاق موجودين. وهم ليسوا الوحيدين الذين تصادفهم في كل مكان، فيقيًا ينتشر الأرمن بنفس القدر. وهم كذلك ليسوا أقدم الشعوب فتاريخ الصينيين يرجع إلى زمنٍ أكثر قدمًا. ولكنهم هم وحدهم من بين الشعوب القديمة الذين استمروا في الترحال لفترةٍ طويلة، وكانوا هم أكثر من قدر لهم الزمن ليختفوا بلا أثر، إلا أنهم صاروا اليوم أكثر عددًا من أى وقتٍ مضى. وحتى قبل سنوات قليلة لم تكن تجمعهم وحدةٌ إقليمية أو لغوية، فأغلبهم لم يعد يفهم العبرية، فتكلموا بمئة لسان. وقد اعتبر الملايين منهم أن دينهم القديم ليس سوى وعاءٍ فارغ. كما ازداد عدد اليهود المسيحيين شيئًا فشيئًا خاصةً بين أفراد الطبقة المثقفة منهم، وزاد عن ذلك بكثير عدد اللادينيين. وبمنظرةٍ عابرة، انطلاقًا من مفهوم الحفاظ على النفس، تكشف عن أنهم فعلوا ما بوسعهم حتى ينسى الناس أنهم يهود وينسون هم ذلك أيضًا. لكن ما حدث هو أنهم لم يستطيعوا نسيان ذلك. وفي الغالب أنهم لم يسعوا إلى ذلك أيضًا. وعلى المرء أن يسأل نفسه في أى سياق بقى هؤلاء يهودًا، ما الذى يجعلهم يهودًا وما هو آخر شيء جمع بينهم وبين الآخرين على الإطلاق إذا ما قالوا لأنفسهم: نحن يهود. وهذا الأمر الأخير كان قد حدث في بداية تاريخهم وتكرر على نفس القدر من التماثل الهائل في مسار هذا التاريخ: لقد كان ذلك هو الخروج من مصر. فإذا ما استحضرنّا فحوى هذا المشهد القديم لرأيناه شعبًا بأكمله، أحصى عدده، إلا

أنه ظل يرتحل أربعين عامًا في الرمل. وكان أبوهم الأول الأسطوري قد بُشر بنسله "فيتكاثرون كالرمل على ساحل البحر". فها هم جاءوا إلى هناك مرتحلين رملاً آخر بين الرمال. وسمح لهم البحر بالعبور، لكنه أطبق على العدو. أما هدفهم فكان أرض الميعاد التي سينتزعونها بحد السيف.

إن صورة هذا الكم الذي ارتحل لسنوات وسنوات خلال الصحراء صارت رمزاً لكتلة اليهود، وقد ظلت واضحةً ملموسةً للغاية كما كانت في عهدها الماضي. فالشعب يرى نفسه معاً قبل أن يستقر ويتشتت، إنه يرى نفسه في الترحال. وعلى هذه الحال المكثفة تلقى الشعب نواميسه. فقد كان أمامه هدفٌ لم يكن لكتلة أخرى ذات يوم. وتنتظره المغامرة تلو المغامرة، إنه المصير المشترك دائماً. إنها كتلة مجردة لم يتوافر لها في هذه المنطقة إلا بالكاد شيءٌ من هذا التنوع الذي عادةً ما يجمع البشر فرادى في حياة مشتركة. فلم يكن حولهم سوى الرمل الذي هو أكثر الكتل تجرداً. فليس هناك شيءٌ منح هذه القافلة الرحالة شعوراً بالعزلة إلى أقصى حد، أكثر من صورة الرمال. وغالباً ما كان الهدف يتلاشى، ويهدد الانهيار للكتلة، لكن بضربات قوية مختلفة إلى أقصى حد انتبهت وقماصت وترابطت. أما عدد (الناس) البشر بالقافلة - من ستمئة إلى سبعمئة ألفٍ - فإنه لم يكن هو الأكثر غرابةً بالنسبة لمطامح متواضعة في العصور الباكورة، فزمن الارتحال هو على أهمية خاصة، فالذي يتمدد في الكتلة لأربعين عامًا يمكن أن يتمدد فيما بعد لأي فترة زمنية، كقدرٍ محتوم لهذه الفترة الزمنية، كعقابٍ، هو مثل كل عذاب ترحال يجيء فيما بعد.

ألمانيا ومعاهدة فرساي

من أجل تحديد المفاهيم التي سيقَّت هنا لتوضيحها بقدر الإمكان فإنه يجب علينا أن نضيف شيئاً عن بنیان جمهور ألمانيا. ألمانيا التي فاجأت العالم في الثلث الأول من القرن العشرين بمكوناتٍ وتوجهاتٍ من نوعٍ جديدٍ لم يستوعب أحد حدود خطورتها القاتلة، والتي لم يبدأ المرء في حل لغزها على استحياء إلا الآن. فقد كان الجيش، وظل، هو رمز جمهور ألمانيا الموحدة كما تكونت عامي 1870-1871 بعد الحرب الفرنسية، وكان كل ألماني فخوراً بذلك، ولم يكن هناك سوى بضع أفراد ممن استطاعوا النأي بأنفسهم عن الأثر البالغ لهذا الرمز. وكان مفكراً من أنصار ثقافة "نيتشه" الكونية قد دفعته هذه الحرب إلى وضع كتابه الرئيس "الإرادة نحو القوة". فقد كان مشهد كتيبة الفرسان هو المشهد الذي لم ينسه. لم تكن هذه الإشارة بلا جدوى، فهي توضح مدى أهمية الجيش للألمان على نحوٍ عام، ومدى تأثير رمز الكتلة في هؤلاء المتغطرسين الذين صنعوا حدوداً تجاه ما يذكر بالجموع. فعامة المواطنين والفلاحين والعمال والمثقفين والكاثوليك والبروتستانت وأهل بافاريا وبروسيا، كل هؤلاء رأوا في الجيش الصورة المعبرة عن الأمة. وقد تناولنا الجذور العميقة لهذا الرمز ونشأته من الغابة بموضع سابق. فالغابة والجيش يرتبطان بالنسبة للألماني على أوثق نحوٍ، ويعتبر كل منهما رمزاً لجمهور الأمة. وفي هذا السياق يكون كلاهما واحداً والشيء نفسه

تقريبًا. أما وجود الجيش وجودًا واضحًا بجانب تأثيره الرمزي، فكان أمرًا مهمًا للغاية، فالرمز يعيش في تصور البشر ومشاعرهم. وفي حالتنا هذه كان هو المكون للشكل العجيب للغابة - الجيش. أما الجيش على أرض الواقع، أى الذى يؤدى فيه كل شاب ألماني الخدمة العسكرية فإنه يتخذ سمات الكتلة المنغلقة. فالإيمان بالخدمة العسكرية العامة، والإيمان بمعناها العميق، والرغبة منها، يصل إلى مدى أبعد من الأديان التقليدية، فهو يضم الكاثوليك مثل البروتستانت على حد سواء. ومن يخرج عن ذلك لا يكون ألمانيًا. وقد قيل إنه لا يجوز اعتبار الجيوش إلا بالمعنى المحدد للكتلة. إلا أن ذلك كان أمرًا مختلفًا في حالة الألمان، فهو يعيش الجيش على أنه كتلة المنغلقة الأهم. وقد كانت منغلقة لأن من أدى خدمته العسكرية فيها كان من الشباب من مرحلة عمرية بعينها، أما الباقون فكان ذلك بمثابة الوظيفة لهم، أى لم تكن خدمة عامة بالنسبة لهؤلاء. وكان على كل رجل أن يمر بهذه التجربة لتظل حياته على ارتباط وجداني بها. وقد استفادت طبقة النبلاء من الجيش كبلورة كتلة، وكانت تمثل أفضل أقسام سلاح الضباط المستديم، فكانت مثل الأوسمة تمنح بقوانين صارمة، وإن كانت غير مكتوبة، أو مثل فرقة موسيقية متوارثة تعزف بدقة الموسيقى المدربة عليها لتتنقل عدوى الموسيقى إلى الجمهور. فلما نشبت الحرب العالمية الأولى صار الشعب الألماني كافة كتلة جماهيرية واحدة منفتحة، وغالبًا ما كان يُستعرض حماس تلك الأيام. وكان كثيرون بالخارج قد راهنوا على فكرة النازية، وتعجبوا لفشلها الذريع فهم لم يعتقدوا أن هذه النازية تحمل أيضًا بداخلها "الغابة - الجيش" رمزًا لأمتهم، وأنهم أنفسهم قد انتموا إلى كتلة الجيش المنغلقة، وبانتمائهم لهذه الكتلة يكونون قد خضعوا لأمر وأثر بلورة دقيقة وفعالة على نحو نادر، أى بلورة جمهور النبلاء وفئة الضباط. أما انتمائهم لحزب سياسى فلم يشكل مقابل ذلك إلا أهمية ضئيلة. إلا أن تلك الأيام الأولى من شهر أغسطس لعام 1914 كانت كذلك لحظة مولدٍ للنازية. وهناك مقولة لا ريب فيها قالها هتلر عن ذلك، فقد رُوى أنه ركع بعد نشوب الحرب على ركبتيه شكرًا لله. فقد كانت هذه هى تجربته الحاسمة، إنها اللحظة الوحيدة التى كان فيها هو نفسه (كتلة) جمهورًا. وهو لم ينس هذه اللحظة، وقصر مسيرته كلها على إعادة إحياء هذه اللحظة، لكن من الخارج. فكان على ألمانيا أن تصبح على وعي بحافزها الحربى، متفقهً عليه ومتوحدًا فيه، إلا أن هتلر لم يكن ليحقق هدفه قط لو لم تحل معاهدة فرساي جيش الألمان.

فقد أدى إلغاء الخدمة العسكرية العامة الى التفاف الألمان حول كتلتهم الأساسية المنغلقة، فالتدريبات التي حرموا منها وتلقى الأوامر وإبلاغها صارت أمراً عليهم إنجازها ثانيةً بكل السبل. هكذا كان إلغاء الخدمة العسكرية العامة بمثابة ميلاد النازية. فكل كتلة منغلقة تُحل قسراً تستحيل إلى كتلة منفتحة، يتقاسم الجميع ملامحها، فانتقل الحزب إلى الجيش، وهو (حزبٌ) لم توضع له حدود في إطار الأمة، فكل ألماني رجل، امرأة، طفل، جندي، مدني، كان بوسعه أن يصبح نازياً، وهو أمرٌ كان غالباً ما يمثل لهؤلاء أهميةً أعظم إن لم يكونوا جنوداً في السابق، لأنهم يساهمون على هذا النحو في مسلك كانوا عادةً محرومين منه.

وبعزيمة لا مثيل لها اتخذ هتلر من "إملاء- فرساي" شعاراً، كما أن تكراره لم يوهن تأثيره، بل على النقيض فقد تنامي ذلك عبر السنين. فما هو محتمل مضمون هذا الشعار حقاً؟ وما هو الذي أوصله هتلر من خلاله إلى مستمعيه؟ لقد كانت كلمة "فرساي" لا تعني للألماني إلى حدٍّ ما الهزيمة التي لم يقرها قط، بل كانت تعني تحريم الجيش وتحريم تدريب مقدس بعينه. فتصور الحياة من دونه يكون أمراً شاقاً، فقد كان تحريم الجيش مثل تحريم دينٍ ما، هكذا صارت عقيدة الآباء ممنوعةً، فصار إعادة إحيائها فرضاً مقدساً على كل رجل، كما كانت كلمة "فرساي" تنكأ الجرح في كل مرة تُستخدم فيها، وتحافظ عليه دامياً ليوصل النزيف فلا يندمل أبداً. أما بؤادر الشفاء من هذا الجرح فكانت تُستبعد كلما قيلت كلمة "فرساي" بقوة أمام الجموع. وفي هذا السياق لم تكن تُذكر كلمة معاهدة قط، بل كان يقال دائماً "الإملاء". فالإملاء يذكّر بأجواء "الأمر". إنه "أمرٌ" وحيد أصدره أجنبي. إنه أمر العدو ولذا سُمي "إملاءً"، فكان هو الدافع الأساسي لتحريم الأمر العسكري من ألماني إلى ألماني. فمن كان يسمع أو يقرأ كلمة "إملاء فرساي" كان يشعر في أعماق أعماقه بما انتزع منه، أي الجيش الألماني، فبدأ إحيائه هو الهدف الوحيد المنطوي على أهمية حقيقية. فبالجيش يعود كل شيء إلى سابق عهده، فأهمية الجيش كرمز جمهور قومي لم تتزعزع مطلقاً لأن جزءه الأعماق والأقدم كان لا يزال موجوداً لم يُمس، أي الغابة. واختيار كلمة "فرساي" كشعار مركزي كان اختياراً موفقاً للغاية من منظور هتلر للموقف. فهذه الكلمة لم تكن تُذكر فقط بالحدث الأخير الأليم في حياة الألمان القومية - من تحريم الخدمة العسكرية العامة، وإلغاء حق تشكيل الجيش الذي كان يخدم فيه كل

شخصٍ لعدة سنوات، بل إنها كانت تنطوى أيضًا على لحظاتٍ أخرى مهمةٍ وشهيرةٍ في التاريخ الألماني.

ففى فرساي كان "بيسمارك" قد أسس الرايخ الثانى، وبذلك كان إعلان وحدة ألمانيا بعد نصرٍ ساحقٍ فى لحظةٍ شعورٍ متأججٍ وقوةٍ لا تقهر، وقد كان ذلك نصرًا أحرزه الألمان على نابليون الثالث الذى اعتبر نفسه خليفةً لنابليون الأكبر معتمدًا على العظمة الأسطورية لهذا الاسم، فارتفع نجمة كوريتش معنوى له. كما كانت فرساي هى أيضًا المقر الذى شيده لويس الرابع عشر الذى كان من بين كل حكام فرنسا قبل نابليون، هو من أذاق الألمان المذلة الأشد قسوةً. وكان هو الذى ابتلع شتراسبورج، كما دمرت قواته قلعة هايدلبرج، فجاء إعلان القيصر فى فرساي بمثابة نصرٍ متأخرٍ مزدوجٍ على لويس الرابع عشر ونابليون فى آنٍ واحد، وقد أحرزه وحده من دون حليف. وقد كان لذلك أثره على الألمان الذين عاشوا هذه الفترة. وهناك شهاداتٌ كافيةٌ لإثبات صحة ذلك، فاسم هذا القصر (فرساي) كان قد ارتبط بأعظم نصرٍ فى التاريخ الألماني الحديث. وكل مرة كان يذكر فيها هتلر "الإملاء" اللعين كانت تلوح ذكرى ذلك النصر مع هذه الكلمة، لتنتقل إلى المستمعين كوعيدٍ، وكان على الأعداء سماع ذلك كتهديدٍ بالحرب والهزيمة إن كانت لهم آذان يسمعون بها.

ومن دون مبالغةٍ فإن بوسعنا القول إن كل الشعارات المهمة للنازية - باستثناء ما كان يقصد بها اليهود - كانت قد اشتقت من كلمة "إملاء فرساي" مثل: "الرايخ الثالث" و"النصر - الخلاص" وغيرهما. وقد كان جوهر الحركة المكثفة قد تضمنته هذه الكلمة: أى الهزيمة التى لا بد من أن تتحول نصرًا، والجيش المحروم الذى لا بد من إعادة إحيائه أولاً لتحقيق هذا الهدف. وقد ينبغى علينا هنا الانتباه إلى فكرة رمز الحركة، أى: الصليب المعقوف، فقد كان تأثيره مزدوجين، أى تأثير الشكل وتأثير الكلمة، فكلاهما يمثل أملاً هائلاً. فالصليب نفسه اتخذ شكل اثنتين من المشانق الملتوية ليهدد من يراه على نحوٍ ماكر، كأنه يشاء القول: انتظر فسوف تعجب لمن سيُعلّق هنا. وبنفس القدر الذى كان عليه شكل الصليب المعقوف من حركة دائرية كان أسلوب التهديد، فهو يُذكر بأعضاء جسد المصلوب الممزقة التى علقت به، فقد استعارت هذه الكلمة من الصليب المسيحى ملامحه الرهيبة الدموية كما لو كان الصلب أمرًا طيبًا. وهذا الصليب

المنتهى كل ضلعٍ منه بخطاف يذُكرُ بما عرف "بتعليق الصبية" ما يعنى أن كثيراً من الأعداء سيتم أسرهم وقتلهم. وقد يفتح الباب أمام الجنديّة ويتيح الفرصة مرة أخرى لـ "ضرب الكعبين". وعلى كل حال فإنه يربط بين تهديدٍ بعقوبةٍ مروعة وبين مزالق الخطر وتهديد غامض بنظام عسكري.

التضخم والكتلة

إن التضخم هو "حدث - جماهيري" بكل ما تحمله الكلمة من معنى أكثر قربا للواقع ولمفهوم دلالاته المباشر، فالأثر المثير للارتباك الذى يمارسه التضخم على شعوب بلادٍ بكاملها لا يقتصر بأية حالٍ على لحظة التضخم نفسها. وبوسعنا القول إنه لا يوجد في مجتمعاتنا المدنية الحديثة شيء يمكن مقارنته في جسامته بحالات التضخم وأثارها على البشر سوى الحروب والثورات، فالقلاقل التى تسببها ذات طبيعة عميقة إلى حد أن المرء يفضل إخفاءها ونسيانها، بل قد يكون من المخزى أن يُنسب للمال - الذى حدد الإنسان قيمته على نحو مصطنع وغير حقيقى - آثاره في بناء كتلة، وهى آثار تتجاوز ماهية وظيفته الحقيقية بكثير، وتنطوى على شيء مُنافٍ للمنطق ومخزٍ بلا حدود. لكن من الضروري التطرق إلى ذلك لنقول شيئا عن الصفات السيكولوجية للمال نفسه، فالمال يمكن أن يصير رمزا للكتلة، لكنه -على النقيض من رموز عالجنائها هنا - رمز تتأكد عنده على نحو أكثر إلحاحا الوحدات التى تعمل من خلال تكديسها على تكوين جمهور في ظل ظروفٍ ما. فكل قطعة نقود لها حدودٌ فاصلة بدرجة قاطعة ولها وزن خاص بها، ويمكن التعرف عليها من أول نظرة، وهى تنتقل بحرية من يدٍ إلى يد، وتبدل باستمرارٍ جيرانها، وغالبا ما يتم سك رأس حاكمٍ ما عليها، وهى تحمل

اسمه أحياناً، خاصةً إذا كانت قيمتها كبيرةً، فقد كان هناك فرنكات «لويس» وريالات «ماريا تريزا». إننا نتحسس قطعة النقود كأنها شخص محسوس، فاليد التى تقبض عليها تشعر بها فى كل مكان بكل حروفها وسطحها، والشعور المعين المرهف نحو قطعة نقود يمكن منحها لهذا أو ذاك هو شعور إنسانى عام ويساهم فى ملامحها الشخصية. وفى حالةٍ ما فإن قطعة النقود تتفوق على المخلوق الحى، فمادتها المعدنية وصلابتها يضمنان لها وجوداً أبدياً فهى لا يمكن تدميرها إلا بالنار. وقطعة النقود لا ينمو حجمها، فهى تخرج فى شكلها النهائى من دار سك النقود لتظل على ما هى عليه، فلا يجوز لها أن تتغير. وربما كانت مصداقية قطعة النقود هى أهم سماتها، فالأمر يتوقف على مالكة وحده أن يحافظ عليها جيداً فهى لا تفر من تلقاء نفسها مثل حيوان ما، فحمايتها تكون فقط من الآخرين، ولا يجب أن نرتاب فيها، فبوسعنا دائماً استخدامها، وهى ليس لديها رغبات جامحة يحترز المرء منها. كما تدرك كل قطعة نقود حصانتها الذاتية من خلال علاقتها بأخرى لا تساويها فى القيمة. والنظام الهرمى الصارم لقيمة قطع النقود يجعلها أكثر قرباً لحالة الأشخاص، فيمكننا الحديث عن نظام اجتماعى فنوى لقطع النقد، وتكون الفئة فى هذه الحال هى القيمة، فمقابل النقود ذات القيمة المرتفعة (يستطيع المرء) يُمكن الحصول على ما هو أقل منها قيمة، ولكن مقابل تلك ذات القيمة الأقل لا يمكن أبداً الحصول على الأكثر قيمة. إن كوم قطع النقود موجودٌ منذ القدم، ومعروفٌ لدى أغلب الشعوب بأنه الـ"كنز".

فالكنز فى حد ذاته يملك بعض سمات الكتلة، وذلك من خلال الإحساس به كوحدةٍ وكيفية العثور عليه من دون معرفةٍ بالكم الذى يحتويه بالفعل، ويمكن النبش للبحث عن الكنز وفصل كل قطعة نقد عن أخرى، كما هو متوقع على نحوٍ أكبر مما هو عليه. وهو فى الغالب مخبوء ويمكن أن يظهر للنور فجأة. لكن من قضى حياته أملاً فى العثور على كنزٍ، أو من كدسه، لم يتصور أن الكنز سينمو ليفعل ما يمكن أن يؤدى إلى ذلك، وليس هناك شك مطلقاً فى أن بعض من يعيشون من أجل المال فقط ينظرون إلى الكنز على أنه بديلٌ للكتلة الإنسانية. فهناك رواياتٌ كثيرة عن بعض البخلاء يتضمنها هذا الإطار، فهؤلاء هم الاستثمار الخرافى للأساطير، واستمرار لأولئك الذين كانوا فى حراسة وتأمل ورعاية كنزٍ ما هو محور حياتهم الوحيد. وينبغى الإشارة إلى أن هذه العلاقة بقطعة النقد والكنز قد تقادمت بالنسبة للإنسان الحديث بعد استخدام النقود الورقية بكل

مكان، وبعد أن صار الأغنياء يودعون كنزهم بالبنوك على نحو غير مرئي ومجرد. أما أهمية تغطية عملة جيدة بالذهب، أى حقيقة استمرار التمسك بعملية ذهبية لهو برهان على أن الكنز لم يفقد معناه القديم. إن القسم الأعظم من الناس، في البلاد المتقدمة تقنيًا كذلك، ينالون أجرًا طبقًا لساعات عملهم. وهو أمر يركز على نظام نقدي كما هو معروف بكل مكان. وما زال الشعور القديم الملازم للحصول على قطع نقدية، في هيئة أوراق، شعورًا حميمًا لدى كل شخص. واستبدال النقود، كعملية يومية، يعتبر أوسع وأبسط عملية آلية في حياتنا. وهو ما يتعلمه كل طفل مبكرًا قدر الإمكان. لكنه من الصحيح أيضًا أنه، بجانب هذه الآلية القديمة، قد نشأت علاقة حديثة مع المال، فقد نالت وحدة قطع النقد في كل بلد قيمة أكثر تجردًا، وإن لم تعد من خلال ذلك كوحدة. فإذا ما كان لدى قطع النقد، في حد ذاتها، في الماضي شيء من المنظومة الهرمية الصارمة لمجتمع مغلق فإن ما يجرى على النقد الورقي لهو أكثر مما يجرى على سكان مدينة كبيرة. أما الكنز فقد تحول معناه اليوم إلى "المليون" صاحب الشهرة الكونية. وقد عم معنى هذه الكلمة العالم الحديث بأسره، ويمكن أن يشمل أية عملة. والأمر المثير في المليون أنه يمكن الحصول عليه فجأة من خلال براعة المضاربة، وهو أمر يداعب خيال كل من كان طموحه يستهدف المال. فالمليونير يمتلك بعض السمات الأكثر بريقًا، أى تلك التى كانت لملوك الأساطير القديمة. ووصف "المليون" ينسحب على المال والبشر بالقدر نفسه. وهذه الطبيعة المزدوجة للكلمة يمكن متابعتها على نحو جيد في الخطب السياسية. فالرغبة الجامحة في "العدد الطفرة" كان سمة مميزة لخطب هتلر الذى كان يقصد بذلك الملايين الذين يعيشون خارج الرايخ ويجب تحريرهم. وبعد الانتصارات الأولى غير الدموية، السابقة على خوضه للحرب، كان لهتلر ولع خاص بالعدد المتنامى لسكان الرايخ، فبهؤلاء سيواجه الألمان كل من على وجه الأرض، وقد كان هدفه المعلن هو وضعهم جميعًا داخل محيط تأثيره، وكان دائمًا ما يستخدم في إعلان تهديده ورضاه ومطالبه كلمة "المليون". وهناك سياسيون آخرون يستخدمونها في مجال المال. إلا أن استعمال الكلمة قد صار له صدى مدو بلا ريب، فالعدد المجرد لإحصاء سكان البلاد، خاصة المدن العالمية، صار ينطوى على فحوى الكتلة بما لا ينطوى عليه أى عدد آخر اليوم. ولما كان المال ملازمًا لـ "المليون" نفسه فإن الكتلة والمال صارا أكثر تقاربًا مما سبق.

لكن ما الذى يحدث فى التضخم حقًا؟ إن وحدة المال تفقد شخصيتها فى لحظة مفاجئة تمامًا، فتتحول إلى كتلة مطردة من الوحدات، تقل قيمتها باستمرار كلما تضخم حجم الكتلة. فالملايين التى كان المرء يسعى للحصول عليها أصبحت فجأةً بين يديه لكنها لم تعد "ملايين"، وإنما هى "تدعى" هكذا فقط، فيكون الحال كأن عملية الطفرة المفاجئة قد سحبت كل قيمةً من صاحب الطفرة المفاجئة. فإذا ما انزلت العملة مرةً إلى ما يعرف بحركة الفرار فلن يحكمها حدٌ أقصى. وبقدر ما يُمكن الارتفاع بالعدد بقدر ما يمكن توقع انحدار المال إلى أى قاع. وفى هذا الحدث تكمن الرغبة فى نموٍ سريع بلا حدود، وهو ما وصفته بأهم وأوضح السمات النفسية للكتلة. إلا أن هذا النمو السريع يصبح هنا سلبياً، فالمتنامى ينتقل من حالة ضعفٍ إلى حالة أضعف، فإذا كان فى الماضى "مارك" فقد صار الآن 10.000 ثم 100.000، ثم مليوناً. ومساواة الإنسان الفرد بالمارك الذى يملكه تكون من خلال ذلك قد انتهت، بعد أن فقد المارك صلابته وحدوده، وصار ينقلب فى كل لحظةٍ إلى شيءٍ آخر. أما الإنسان الذى كان قد وضع ثقته فيه فى الماضى فإنه لا يستطيع على أية حال أن يشعر بانخفاض قيمة العملة كانخفاض قيمته هو. وهو الذى ظل لزمان طويل متساوياً معها وكانت ثقته بها كثقلته بنفسه. ولا ينزلق إلى التضخم كل ما هو ظاهرياً فحسب، فلم يعد هناك شيء مضمون ولم يعد شيء مستقرًا على حاله لساعةٍ واحدة، فمن خلال التضخم يصير هو نفسه، أى الرجل، أقل قيمةً، فهو نفسه مهما كان شأنه يصير لا شيء، والمليون الذى ما تمناه دائماً يصير لا شيء، بعد أن أصبح فى يد الجميع، لكن كل هذا صار لا شيء بعد أن انقلبت عملية تكوين المليون إلى نقيضها، فقد ضاعت كل مصداقية المال هباءً. ولا شيء يمكن إضافته إلى ذلك بعد أن انخفضت قيمة كل شيء، وبعد أن اختفى كل كنز. ويمكننا أن نصف التضخم بـ "سبت الساحرات" أى يوم إلغاء القيمة، ففيه يمتزج الإنسان بوحدة المال على نحوٍ هو الأكثر عجباً، فكلٌ منهما مرتبطٌ بالآخر، فتكون حال المرء سيئةً كحال المال التى تزداد سوءاً على نحوٍ دائم، وقد صار كلاهما معاً تحت رحمة هذا المال المتردى ليشعرا معاً كذلك أنهما بلا قيمة. هكذا ينتج التضخم حالةً لم تكن مستهدفة على الإطلاق، حالة خطيرة تسبب الفرع لكل من يتصدى للمسئولية ويستطيع رؤية ذلك، أى فقدان القيمة المزدوج الناشئ عن مساواة مزدوجة. فالفرد يشعر بفقدان قيمته لأن الوحدة التى كان يثق بها ويحترمها انزلت إلى الهاوية.

والكتلة الجماهيرية تشعر بفقدان قيمتها لأن "المليون" فقد قيمته. وقد تناولنا استخدام كلمة المليون بمعنى مزدوج ليشمل كلاً من مبلغ المال الضخم وجمع الناس الغفير من سكان المدن الكبيرة الحديثة. كما رأينا تداخل كلا المعنيين، وأن أحدهما يقترب حثيثاً من الآخر. وكل الكتل التى تتكون فى أوقات التضخم - وهو ما يحدث فى الغالب كثيراً - تقع تحت ضغوط المليون الفاقدة للقيمة. وبقدر انخفاض قيمة الفرد يكون انخفاض الجمع. فإذا صعدت أرقام الملايين إلى القمة فإن شعباً كاملاً يتكون من ملايين يصير إلى لا شيء. إن هذا الحدث يجمع أناساً معاً تختلف عادةً مصالحهم المادية، فما يصيب العاملين بالأجر يصيب أصحاب المعاشات. وبين عشية وضحاها قد يفقد أحدهم الكثير أو كل ما أودعه آمناً بالبنك. ويلغى التضخم فروقاً بين الناس بدت أبديةً، كما يجمع أناساً لم يُلِقْ أحدهم للآخر التحية ليضع الجميع فى كتلة تضخم واحدة وحيدة. ولا يمكن لشخص ما أن ينسى هذه الخسارة المفاجئة للقيمة، فهو أمر مؤلم يفوق الوصف، لا يفارقه طوال حياته أينما ذهب. وقد يحدث أن يلقى البعض اللوم فى هذا على البعض الآخر. والكتلة الجماهيرية لا تنسى فقدانها لقيمتها لأن التوجه الطبيعى حينئذٍ يكون نحو العثور على شيءٍ يعتبره المرء أقل منه، شيءٍ يمكن للمرء أن يحتقره كما تم احتقاره هو شخصياً. ولا يكفى أن يقبل المرء هذا الاحتقار على النحو الذى وجدته عليه، ويحتفظ به على المستوى نفسه الذى كان عليه قبل أن يعثر عليه. أما ما يحتاجه المرء فهو عمليةً ديناميكية لخفض القيمة فلا بد من معالجة شيءٍ يزداد انخفاض قيمته حتى يصل بهدف ما إلى الالقيمة التامة، وهنا يكون بوسع المرء أن يلقى به جانباً كأية ورقة، أو يسحقه. وكان هدف هذا التوجه الذى عثر عليه هتلر فى أثناء التضخم فى ألمانيا هو اليهود، فكانوا كأنهم خلقوا من أجل ذلك، فقد كانت صلتهم العريقة بالمال وفهمهم التقليدى لحركته وتغير قيمته وتدفعهم الجماعى على البورصة حيث تفوق مسلكهم على مثالية المسلك العسكرى للألمان، كل هذا وضعهم موضع الشك وأعداء فى وقتٍ طفح بالشكوك والأهواء والروح العدائية ضد المال. فصار اليهودى فرداً سيئاً لأنه فى حالةٍ مالية جيدة بينما كانت أحوال الآخرين غامضة، ولم يعد أحدٌ يريد أن يكون على علاقةٍ بالمال، ولو أن الأمر كان قد ارتبط فى أثناء التضخم بعملية تدهور القيمة بالنسبة للألمان كأفراد فكانوا سيكتفون بكراهية بعض اليهود بعينهم، لكن الحال لم يكن هكذا، فالألمان شعروا فى انهيار ملايينهم

بالإذلال كذلك. أما هتلر الذى كان لديه رؤية واضحة عن ذلك فإنه استهدف اليهود ككل. وفي مسلكه نحو اليهود قام النازى بتكرار عملية التضخم على نحو دقيق، فهو جموا فى البداية كجماعة أشرار خطرين، وكأعداء، ثم تعرضوا لعملية مطردة من الإهانة. ولما لم يكن لديه ما يكفى من مواطنيه اليهود فإنه قام بجمعهم من البلاد التى استولى عليها. وفى نهاية المطاف كان اليهود قد اعتبروا حشرات بالمعنى الحرفى للكلمة ومسموح (يجوز للمرء) القضاء عليهم بالملايين من دون التعرض للمساءلة. وما زلنا حتى يومنا هذا نعجب من تطرف الألمان إلى هذا الحد ليرتكبوا هذه الجريمة بهذا الحجم، سواء من شارك فيها أو من تواطأ على تنفيذها أو من غض الطرف عنها. ولم يكن ممكناً أن يبلغوا هذا المدى لو أنهم لم يتعرضوا قبل ذلك ببضع سنوات لتضخم انخفاض خلاله المارك إلى واحدٍ من المليار من قيمته. لقد كان هو التضخم، محنة الكتلة (الجماهير) التى جرّع الألمان مرارتها لليهود.

جواهر النظام البرلماني

لقد استفاد نظام الحزبين بالبرلمان الحديث من البنيان النفسى للجيش والمقاتلة. وهو ما حدث بالفعل فى أثناء الحرب الأهلية، وإن كان أمراً مكروهاً. فالمرء لا يحبذ قتل مواطنيه. فهناك شعورٌ قبلى يتحرك دائماً ضد الحروب الأهلية الدموية، وعادةً ما يؤدى إلى نهايتها فى أعوامٍ قليلة أو أقل من ذلك. إلا أن الحزبين الموجودين هنا كان عليهما الاستمرار فى التنافس، فهما يتقاتلان من دون إراقة دماء. ولما كان من المفترض أن يكتب النصر فى المواجهات الدموية لصاحب العدد الأكبر فقد كان حرص كل قادة الميدان الأعظم ينصب على القوة فى ساحة نزال حقيقى، أى أن يكون بين أيديهم عددٌ من الأفراد أكبر مما لدى خصومهم. والقائد الناجح هو من يوفق إلى فرض سيادته على مواقع مهمة كثيرة قدر الإمكان، حتى لو كان هو الأضعف بشكل عام. وهدف الاقتراع البرلماني هو الكشف عن قوة كلتا المجموعتين فى وقت ومكان محددين، فلا يكفى أن يكون المرء على معرفة بها من البداية. وقد يكون لأحد الأحزاب 360 نائباً وللآخر 240 نائباً، ويظل التصويت هو الأمر الحاسم حتى اللحظة التى يشتبك فيها المتنافسون بالفعل، وهذا هو ما تبقى من الصدام الدامى الذى يمارسه الخصوم بأساليب متعددة من خلال التهديد والسباب والانفعال الجسدى، وقد يصل الأمر إلى الضرب أو الطرح أرضاً. إلا أن إحصاء الأصوات يكون هو نهاية المعركة ليتم قبول أن 360 رجلاً فازوا

على 240 آخرين. أما كتلة الموق فتظل خارج مسرح الأحداث تمامًا. فالبرلمان لا يسمح بوجود قتلى، وهو ما يتجلى في حصانة العضو بوضوح شديد. والحصانة هي حصانة مزدوجة: خارجيًا في مواجهة الحكومة وأجهزتها، وداخليًا بين الزملاء الأعضاء. والتوجه الأخير لا يعول على أهميته كثيرًا. فليس هناك من يصدق في الواقع أن رأى العدد الأكبر هو الأكثر حصافةً بفضل أكثرية عدده، فما ذلك سوى إرادة في مواجهة إرادة، مثلما يحدث في حرب ما، ويلزم كلاً من هاتين الإرادتين إيمانًا بالحق الشخصي الأكبر وإيمان بالعقلانية الشخصية، وهو ما يمكن توافره بسهولة، بل إنه أمرٌ موجود بحد ذاته.

إن معنى حزب ما يكمن في الحفاظ على يقظة هذه الإرادة وهذا الإيمان. أما الخصم الحاصل على أصواتٍ أقل فلا يستسلم على أية حال، ليس لأنه لم يعد يؤمن فجأةً بحقه وإنما لأنه يقر ببساطة بخسارته، وهو يقر خسارته لأنه لن يضره شيء، فهو لن يُعاقب بأية صورةٍ على موقفٍ عدائي سابق، أما خوفه من فقدان حياته ثمناً لذلك، فكان سيجعل رد فعله مختلفًا. إلا أنه يتحسب لمعارك أخرى، وهي معارك تتكرر بلا حصر، لأنه لن يُقتل في إحداها. إن المساواة بين الأعضاء، أي هذا الذي يجعلهم كتلةً، يكمن في حصانتهم، وبذلك لا يكون هناك فرقٌ بين الحزبين، فالنظام البرلماني يظل قائماً ما دامت هذه الحصانة متوافرةً، ويزول هذا النظام حالما يجلس أحدهم هناك ويسمح لنفسه بتوقع موت عضوٍ ما في هيئة حزبية، فليس هناك ما هو أخطر من رؤية موقٍ بين هؤلاء الأحياء. أما الحرب فهي الحرب لأن حسمها يشترط سقوط قتلى. أما البرلمان فهو برلمان ما دام يستبعد سقوط قتلى. أما الأسلوب الطبيعي الذي يتبعه، على سبيل المثال، البرلمان الإنجليزي، لينأى بنفسه عن الموت وموت أعضائه، حتى من ماتوا خارج البرلمان على نحو سلمى، فقد تجلى في إعادة الانتخابات. ولا يتم تحديد خليفة المتوفى مسبقاً، فلا أحد يحل محله آلياً، لتُستأنف المعركة الانتخابية من جديد بكل تفاصيلها المنتظمة. أما المتوفى فلم يعد له مكانٌ بالبرلمان فليس من حقه التصرف في ميراثه هناك، فلا يوجد أي عضوٍ على فراش الاحتضار يعرف على وجه اليقين من سيخلفه. فالموت بكل آثاره الخطرة مستبعدٌ بالفعل من البرلمان الإنجليزي. وعلى الجانب الآخر من هذا المفهوم للنظام البرلماني يمكن أن يسوق البعض اعتراضاً بأن كل البرلمانات القارية تتكون من أحزابٍ كثيرة كبيرة على أقصى درجة من الاختلاف، وأن هذه الأحزاب لا تشكل إلا في بعض الأحيان كتلتين

كبيرتين متصارعتين، وهذه الحقيقة لا تغير شيئاً في معنى التصويت، فهو بمثابة اللحظة الأساسية دائماً في أى مكان، فهو الذى يحدد ما سوف يحدث، وهو لا يهتم إلا برقمين يلزم الأكبر فيهما جميع الذين شاركوا في التصويت. أما حصانة العضو فتكون سبب نهضة أو سقوط البرلمان في أى مكان، وأما "انتخاب" الأعضاء فيكون مبدئياً على صلة قرابةٍ بمجريات الأحداث بالبرلمان. فإذا ما اعتبر المنتصر هو الأفضل من بين المرشحين فإنه يكون هو من أثبت أنه الأقوى، فالأقوى هو من حصد أغلبية الأصوات، فإن كان أنصاره البالغ عددهم 17.562 سيواجهون كجيش موحد 13.204 من أنصار خصمه، فينبغى ألا يسفر هذا الأمر عن قتلى، وعلى نحوٍ ما لا تكون حصانة المقترعين بقدر أهمية حصانة بطاقة الاقتراع التى يسلمها الناخبون باسم من انتخبوه. والتأثير على الناخبين حتى لحظة تحديدهم لاسمٍ مرشحهم بشكلٍ نهائى، وكتابته أو وضع علامة أمامه، هو أمرٌ مسموحٌ به لحدٍ كبير وبكل الوسائل، فيتعرض المرشح الخصم للسخرية وإظهار الكراهية العامة ضده. وبوسع الناخب أن يصول ويجول في كثيرٍ من المعارك الانتخابية، فمصائرهما المتغيرة تمثل له الإثارة العظمى إذا كان صاحب اتجاهٍ سياسى. إلا أن اللحظة التى يُنتخب فيها بالفعل تكاد تكون لحظةً مقدسة كما تكون صناديق الاقتراع المختومة بالشمع مقدسةً، فهى تلك التى تحتوى على بطاقات الاقتراع وتكون كذلك عملية فرز الأصوات هى أيضاً مقدسة. أم الفرح الاحتفالى في كل هذه الطقوس فينشأ في استبعاد الموت كعامل حسم، فمع كل بطاقة بحد ذاتها يتم إقصاء الموت في اللحظة ذاتها، إلا أن أثر ذلك يتجلى في تسجيل قوة الخصم برقمٍ تسجيلاً أميناً. فأما من يتلاعب بهذه الأرقام أو يقوم بطمسها أو تزيفها يكون قد سمح بعودة الموت من دون أن يدري. أما عشاق الحروب الفرحون بها الذين يسخرون من بطاقة الاقتراع فهم يقرون بذلك بنياتهم الحقيقية الدموية، فبطاقات الاقتراع هى كالعقود، لا تمثل لهم سوى مجرد ورقة لا قيمة لها. ولأنها لم تغرق في الدم فإنها تكون زائفةً. فهؤلاء لا يعتمدون سوى الدم عنصراً حاسماً. وتصويت عضو البرلمان يكون أكثر تركيزاً من تصويت الناخب. واللحظات المتناقضة التى يكون فيها النائب مصوتاً، تقرب المسافة بينه وبين الناخب، لأنه هنا غالباً من أجل التصويت. لكن عدد الناس الذين يشاركونهم النائب في التصويت، يكون أقل بكثير. فالكثافة والخبرة يعوضان بالإثارة ما اكتسبه الناخبون بعددهم الكبير.

التوزيع والتكاثر الاشتراكية والإنتاج

إن إشكالية العدالة قديمة قدم مسألة التوزيع. فحيثما كان البشر يخرجون دائماً معاً للصيد كانت مسألة التوزيع تأتي على أعقابها. فهؤلاء كانوا متوحدين في الحشد، لكنهم اضطروا إلى الانفصال في أثناء التوزيع، فالبشر لم يعرفوا قط المعدة المشتركة التي تمكّن عدداً كبيراً منهم من تناول الطعام كمخلوقٍ واحد. فقاموا بوضع قاعدة "للتناول"، إذ إنه أقرب تصورٍ لوجود معدةٍ مشتركة، وإذا كان ذلك تقارباً قاصراً فإنه كان على أية حال اقتراباً من حالةٍ مثالية بعد أن شعروا هم بالحاجة إلى ذلك. فانعزالية هضم الطعام تعتبر بمثابة الجذر المروع لنبات السُّلطة. فمن يريد أن يأكل وحده كُتِبَ عليه أن يَقْتُل وحده منفرداً. أما من يقتل مع الآخرين فعليه اقتسام الغنيمة معهم أيضاً. وأما الإقرار بهذا التقسيم فهو بمثابة بدء العدالة، وتنظيم هذه المسألة كان أول القوانين. وما زال ذلك هو أهم قانون إلى يومنا هذا، وبقي على حالته هذه غاية كل الحركات لارتباطه بالنشاط الإنساني الجماعي والوجود الإنساني كله.

والعدالة تتطلب أن يكون لدى كل فرد ما يأكله، لكنها تتوقع أيضاً أن يساهم كل فردٍ بنصيبه في اكتساب هذا الغذاء. والأغلبية العظمى من البشر منشغلة

بإنتاج بضاعةٍ من كافة الأنواع، إلا أنها انحرفت في عملية التوزيع فيما بينها. وهذا هو فحوى الاشتراكية في أبسط صيغةٍ لها. ومهما كان تصور الناس عن أسلوب توزيع المنتجات في عالمنا الحديث إلا أن أنصار وخصوم الاشتراكية يتفقون على أسباب هذه المشكلة. وعلى كلا جانبي الخلاف الأيديولوجي - الذى قسم العالم اليوم إلى نصفين كادا يكونان على نفس القدر من القوة - فإنه يتم تشجيع وتحفيز الإنتاج بكل السبل. وسواء أنتج المرء من أجل "البيع" أو أنتج من أجل "التوزيع" فإن عملية "الإنتاج" تلك في حد ذاتها لم تُمس من أى طرف منهما فحسب، فالإنتاج مطلبٌ للجميع. ولا نبالغ إن قلنا إن الإنتاج في أعين الأغلبية اليوم شيءٌ مقدس "لحد العبادة". وقد نتساءل عن نشأة هذا التقديس، وربما كانت هناك لحظة في تاريخ البشرية نعرف من خلالها متى بدأ فرض عقوبة على الإنتاج، وبقليل من التدبر يتضح لنا أنه لا وجود لهذه اللحظة. ففرض عقوبة على الإنتاج يرجع إلى ماضٍ سحيق، إلى حد أن كل محاولة لتحديد تاريخها تاريخياً تبدو غير كافية.

إن غرور الإنتاج يرجع إلى حشد التكاثر، وهناك رغبة لتجاهل هذه العلاقة لأنه لم يعد هناك حشود تكرر نفسها في الواقع لمواجهة التكاثر، بعد أن صارت هناك كتلٌ بشرية هائلة تنمو كل يوم في كل مراكز المدنية. إلا أننا لو تدبرنا أمر أنه لا نهاية متوقعة لوقف هذا التنامي، وانطلاقاً من قاعدة: كلما تزايد عدد البشر تزايد إنتاج البضائع، وأن هناك من بين هذه البضائع أيضاً حيواناتٌ حية ونباتات، وأن وسائل الإنتاج لا تكاد تفرق بين بضاعة حية أو غير حية، فإن علينا أن نعترف بأن حشد التكاثر كان هو الشكل الذى ابتدعته البشرية وكان الأكثر نجاحاً والأكثر فائدة في تبعاته. أما الطقوس التى كانت تستهدف التكاثر فصارت ماكيناتٍ وعملياتٍ تكنولوجية، فكل مصنع صار هو الوحدة التى تخدم نفس المبدأ. أما الجديد فيمكن في الإسراع بالأحداث، فما كان في الماضى يعتبر إنتاجاً ونموً من خلال توقع هطول المطر وزيادة البذور واقتراب قطعان حيوانات القنص ونمو الحيوانات المروضة، قد صار اليوم إنتاجاً مباشراً بحد ذاته. فما هو المرء يضغط على بعض الأزرار ويدير بعض الروافع ليحصل على منتجٍ نهائى كما شاء في ساعاتٍ قليلة، أو أسرع من ذلك.

ومن الجدير بالملاحظة أن العلاقة الصارمة والمتلازمة بين البروليتاريا والإنتاج، التي اكتسبت منذ مئة عام تقريبًا هذه المكانة، قد أعادت بشكل واضح إنتاج التصور القديم المؤسّس على حشد التكاثر. فالعمال هم من يتكاثرون على نحوٍ أسرع ويزداد تكاثرهم عن طريقين، من جهة ينبج هؤلاء أطفالاً أكثر من الآخرين، فهم من خلال نسلهم فقط يصير لديهم شيءٌ كالكتلة، ومن جهةٍ أخرى هم يتكاثرون من خلال ازدياد تدفق أهل الريف على مواقع الإنتاج. إلا أن المعنى المزدوج الدقيق لزيادة العدد كما نعلم يمكن تصنيفه على أنه (حزمة) حشد التكاثر البدائي، وفي مناسبات أعيادهم وشعائرهم يلتقى الناس معًا، وعلى هذا النحو من الوفرة يعكفون على أداء ممارساتٍ تعود عليهم بالنسل الوفير.

وبعد أن تم وضع مصطلح البروليتاريا وصار فعالاً، سادت روح التفاؤل التام للنمو، ولم يخطر ببال أحدٍ للحظةٍ أن عددهم سينخفض وأن حالهم ستتردى، فقد اعتمد الناس على الإنتاج الذي من خلال نموه سوف يزداد عدد البروليتاريا، والإنتاج الذي يصنعونه ينبغي أن يعود عليهم بالفائدة، ولسوف يتنامى الإنتاج والبروليتاريا معًا، إلا أن هذا هو بالضبط الارتباط الوثيق نفسه الذي تجلى في نشاط حشد التكاثر البدائي. فالناس أنفسهم يطمحون إلى ازدياد عددهم، ولذا كان ينبغي كذلك أن يزداد عدد كل ما يعيشون عليه، وهكذا لا يمكن فصل هذا عن ذلك، فهما مرتبطان ببعضهما بقوة إلى حد أنه لا يتضح أى الطرفين يزداد عدده.

ولقد رأينا أن البشر اكتسبوا شعورًا غامرًا نحو التكاثر، من خلال تحولهم إلى تلك الحيوانات التي عاشت دائمًا في أعداد أكبر مع بعضهم البعض. وكأننا نرغب في القول إن البشر تعلموا ذلك بدايةً من هذه الحيوانات، فقد كانوا يرون أمامهم أسرابًا من الأسماك والحشرات وقطعانًا كثيفة من الحيوانات ذات الحوافر، فإذا ما قاموا بتمثيل هذه الحيوانات في رقصاتهم على نحوٍ متقن فإنهم سيصيرون مثلها ويشعرون بنفس مشاعرهما. وإذا ما وفقوا في ترسيخ طوطم من خلال هذه التحولات المحددة بدقة، وأورثوها لنسلهم كشعائر مقدسة، فإنهم (يكونون) على هذا النحو قد توافرت لديهم أيضًا النية في هذا التكاثر الذي يفوق التكاثر البشرى الطبيعي بكثير.

وهذه العلاقة بالضبط هي القائمة اليوم بين الإنسان والإنتاج، فالماكينات تستطيع أن تنتج أكثر مما كانت تحلم به البشرية في الماضي، ومن خلالها تنافست كل أنواع التكاثر على نحو هائل، ولما كان ذلك عامّةً يرتبط بالمواد أكثر من ارتباطه بالمخلوق فقد ازداد اهتمام الإنسان بعددها بأن نَمّا احتياجاته على نحوٍ دائم، فقد زادت هذه الأشياء التي يعلم المرء كيف يستخدمها بأن يتدرب عليها لتنشأ احتياجات جديدة. إن هذا هو عنصر من عناصر الإنتاج، أي تكاثر الأنواع بلا حدود في كل اتجاه، وهو ما يلفت الانتباه في أغلب البلاد الرأسمالية، أما في البلدان التي تهتم على نحو خاص بقيمة البروليتاريا - حيث يمنع تكديس رأس المال في أيدي الأفراد - فتقف هناك مشكلات "التوزيع" العام نظريًا على قدم المساواة بجوار مشكلات التكاثر.

تدمير قبائل الـ"أكسوساس" لنفسها

ذات صباح من شهر مايو عام 1856 مضت فتاة من قبائل الأكسوساس لتجلب ماءً من نهر صغير على مقربة من دارها، وروت أنها عند عودتها رأت عند النهر رجالاً غريبين الأطوار كانوا مختلفين تمامًا عما تقابلهم عادةً. فمضى إلى هناك عمها الذي يدعى "أومهلاكزا" ليرى الغرباء فعثر عليهم بالموضع الذي وصفته الفتاة، وكان أن قال له هؤلاء بأن عليه العودة إلى البيت لتأدية طقوس بعينها، وبعد ذلك عليه أن يذبح ثورًا قريبًا لأرواح الموتى، ثم يعود إليهم في اليوم الرابع، وكان شيء ما بدا في مظهرهم أجبره على إطاعتهم، وقد فعل الرجل ما أمره به. وفي اليوم الرابع عاد ثانية إلى النهر وقد تعجب لرؤية أخيه بينهم وهو الذي كان قد مات قبل عدة سنوات. وهناك عرف للمرة الأولى من وماذا كان هؤلاء، أما هم فقد قالوا إنهم كأعداء أبيين للرجل الأبيض جاءوا من الساحل الآخر للبحر من أجل مساعدة الـ"أكسوساس"، فمن خلال قوتهم التي لا تقهر سيطردون الإنجليز من البلاد. وكان على "أومهلاكزا" أن يقوم بدور الوسيط بينهم وبين زعماء القبيلة، فهو سوف يتلقى منهم تعليمات ليلغها لهؤلاء، لأنه سوف تقع أمور عجيبة بل أكثر عجبًا من كل ما جرى قبل ذلك إذا قبلت المساعدة المقترحة، وقبل كل شيء عليه أن يبلغ الناس بالامتناع عن فنون السحر الذي يمارسونه ضد بعضهم البعض، وعليهم ذبح ماشية سميكة وأكلها. وقد ذاع

نبأ هذا الاتصال بعالم الأرواح بين أفراد الـ"أكسوساس" فكان أن استبشر "كرلى" خيراً وهو زعيم القبيلة الأعظم حتى قيل، من دون دليل على ذلك، إنه هو المدبر الأصلي للخطّة كلها. كما شاع استخدام عبارة "يجب إطاعة أوامر الأرواح" فتذبّح أفضل الماشية وتؤكل. ولما كان قسمٌ من القبيلة يعيش تحت الحماية البريطانية فإن "كرفى" بعث برُسله إلى زعماء هذا القسم ليخبرهم بما حدث ويطلب عونهم. وبدأت القبيلة كلها في الحركة على الفور، وبدأ معظم زعمائها بذبح الماشية، إلا واحداً فقط يُدعى "سانديلا" كان رجلاً حريصاً. وقد أرسل المندوب السامى البريطانى إلى "كرلى" يخبره بأنه بوسعه فعل ما يشاء بمنطقته، أما إذا لم ينته عن تحريض الرعايا البريطانيين على تدمير ممتلكاتهم فإنه سيضطر إلى فرض العقوبة عليه. إلا أن "كرلى" لم يهتم كثيراً بالتهديد فقد كان مقتنعاً بأن أن العقاب قد حان. أما الوحى الذى جاء به (النبى) فقد ازداد انتشاره، وأما الفتاة التى وقفت في قلب النهر بين جموع الناس المؤمنين فقد تلتقت أصواتاً غير أرضية غريبة عند قدميها، وهو ما فسرّه عمها (النبى) بأن هذه أصوات الأرواح تسدى نوائح عن شئون البشر. وكان أن صدر الأمر الأول بذبح الماشية، إلا أن الأرواح لم تشبع، فذبحت ماشية أكثر، إلا أنها لم تكن كافيةً على أية حال. ومن شهرٍ لشهر كان الجنون يزداد ليصيب أضحياتٍ جديدة. وبعد فترة استسلم ساندिला، الزعيم الحريص، بعد تعرضه لضغطٍ شديد من أخيه، وبعد أن رأى بعينه روح اثنين من مستشارى أبيه الموتى وتحدث بنفسه معهما، وقد أصدر أماً لسانديلا بقتل ماشيته إذا لم يشأ أن يلقي حتفه مع الرجل الأبيض. وكان أن صدر أمر النبى الأكبر الذى سيُعتبر تنفيذه هو آخر ما تقوم به الـ"أكسوساس" من استعدادات وبعدها سوف يستحقون مساعدة جيش الأرواح، فلا يجب أن يبقى من كل قطعانهم حيوانٌ واحدٌ على قيد الحياة ولا بد من تدمير كل الغلال التى في المخازن، ولسوف ينعم المطيعون بمستقبلٍ باهر. وفى يومٍ محدد سوف تصعد من الأرض قطعان من آلاف وآلاف من الماشية أجمل من كل تلك التى اضطروا إلى ذبحها، وسوف تغطى المراعى طولاً وعرضاً، كما سوف تنشق أرض الحقول الشاسعة في لحظةٍ عن الذرة البيضاء ناضجة جاهزةً للأكل، وفى ذاك اليوم سوف يُبعث أبطال القبيلة القدامى وعظماء وحكماء الماضى فيشاطرون المؤمنين أفراحهم، وسوف يزول الهم والمرض وكذلك مظاهر الشيخوخة، فليسوف يُمنح الشباب والجمال للموتى المبعوثين من موتهم وللأحياء الضعفاء، ولسوف يلقي

هؤلاء الذين ناهضوا إرادة الأرواح مصيرًا مروّعًا مثلهم مثل من أهملوا تنفيذ أوامرهم، أما اليوم نفسه الذى سيجلب الكثير من السعادة للمؤمنين فسوف يصير وبلاً وهلاكاً للآخرين، وسوف تقع السماء لتدهس المخطفين والبيض. وبلا جدوى بذل مبعوثو ووكلاء الحكومة جهودهم من أجل وقف الأحداث الجنونية، فقد تملك الهوس بالـ"أكسوساس" ولم يتقبلوا أى اعتراض أو مقاومة. أما البيض الذين لم يعدوا آمنين على حياتهم فقد هددوا بالتدخل فى هذا الشأن. وكانت العقيدة المتطرفة قد سيطرت على كل أفراد الـ"أكسوساس"، فرأى بعض قوادهم فى ذلك فرصة جيدة لشن الحرب، وكانوا قد وضعوا نصب أعينهم خطة محددة، وهى تسليح كل أفراد الـ"أكسوساس" ثم الدفع بهم فى حالة من الجوع إلى المستعمرات، وقد بلغت بهم شدة الانفعال إلى حد أنهم لم يروا خطورة هذا الفعل الذى كان كل شيء يحول دون نجاحه. وكان هناك بعض ممن لم يؤمنوا بنبوءات النبى أو نجاح مثل هذه الحرب إلا أنهم قاموا بتدمير كل مخزونهم من الغذاء حتى لم يبق منها شيء، وكان من بين هؤلاء عم الزعيم "كرلى" الذى قال: "إنه أمر الزعيم". وعندما لم يبق شيء للغذاء جلس الرجل العجوز وامراته المفضلة فى موضع شاغر بالقرية وأسلما الروح. حتى كبير مستشارى "كرلى" المعارض للخطة رأى عدم جدوى الجدل، ومع إعلان أن كل ما يملكه صار تحت تصرف الزعيم أعطى أمره بالذبح والتدمير وفر كالمجنون. وقد أراد آلاف الوقوف فى وجه عقيدتهم، فلما أمرهم الزعيم انصاعوا له، وفى الشهور الأولى من عام 1857 سادت حركة غير مألوفة أرجاء البلاد فجهز عددًا كبيرًا من الحظائر الكبيرة لاستقبال الماشية التى سرعان ما جاءت بأعداد غفيرة، كما صُنعت أوان من الجلد لتخزين الألبان التى سرعان ما سوف تسيل كالماء. وقد جاع البعض فى أثناء هذا العمل. وفى الشرق من ميناء النهر كان قد تم تنفيذ أوامر الزعيم حرفيًا. إلا أن يوم البعث كان قد أُرجئ رغم ذلك. وفى منطقة الزعيم حيث بدأ التدمير متأخرًا لم يكن الناس قد انتهوا بعد من الذبح، وقد داهم الجوع بعض أفراد القبيلة بالفعل بينما كان الآخرون يجددون فى تدمير غذائهم. وقد فعلت الحكومة كل شيء من أجل حماية الحدود، فقامت بتقوية كل حامية هناك، كما أرسل كل جندى قادر على الخدمة إلى هناك واستعد سكان المستعمرات لتلقى الصدمة، وبعدما استعد الناس للدفاع قاموا بجمع المخزون من المواد الغذائية من أجل إنقاذ حياة الجائعين. وأخيرًا كان اليوم الموعود قد حل فظل أفراد قبيلة الـ"أكسوساس" متيقظين طوال الليل

وقد استبد بهم القلق الشديد منتظرين رؤية بزوغ الشمس شمسين بلون أحمر كالدم على التلال لتسقط بعدها السموات وتسحق أعدائهم، وقضوا ليلتهم في فرحة غامرة وقد شارفوا على الموت جوعاً، وفي النهاية أشرقت الشمس كعادتها لتنفطر قلوبهم. إلا أنهم لم يفقدوا الأمل، فربما كان المقصود هو ظهيرة هذا اليوم حين تبلغ الشمس أوجها، فلما لم يحدث شيء أملوا في وقت غروبها، إلا أن الشمس غربت وانتهى الأمر كله. فأما المحاربون الذين كان عليهم جميعاً "الهجوم معاً" على المستعمرات فإنهم لم يلتقوا بسبب خطأ غير مفهوم، لكن أوان ذلك قد فات حينئذٍ ولم تلق محاولة إرجاء يوم البعث أى صدى، لينقلب انفعال الفرع لدى الـ "أكسوساس" إلى يأس عميق. وكان عليهم حينئذٍ أن يشقوا طريقهم إلى المستعمرات ليس كمقاتلين وإنما كشحاذين في حالة من الجوع المضنى، وقد أخذ الأخ يقاتل أخاه والأب ابنه من أجل خرقه صغيرة أو قطعة صغيرة من الأواني الجلدية لحفظ اللبن التى كانوا عكفوا على صنعها ذاك اليوم بآمال كبيرة، كما صار مصير كبار السن والضعفاء بيد الشباب، وقد أخذوا يفتشون عن أى نوع من النبات حتى عن جذور الشجر ليأكلوها، أما الذين كانوا على مقربة من ساحل البحر فقد حاولوا أن يقيموا أودهم بالحيوانات القشرية، ولأنهم لم يعتادوا هذا النوع من الغذاء فقد أصيبوا بالدوسنتاريا، وسرعان ما لقوا حتفهم. وفي بعض الأماكن جلست عائلات كاملة معاً لتحضر. وفيما بعد تم العثور تحت شجرة واحدة على خمسة عشر أو عشرين هيكلاً عظيماً معاً وقد كانوا آباء وأمهات ماتوا مع أبنائهم، وتدفق سيل لا ينتهى من مخلوقات جائعة على المستعمرات كان أغلبهم شباب وفتيات وآباء وأمهات أحياء، على ظهورهم أبناء شبه موتى، وقد قبعوا أمام منازل المزارعين يطلبون الطعام بأصوات يقطر منها الأنين.

في أثناء العام 1875 كان عدد سكان القسم البريطانى من بلاد الـ "أكسوساس" قد تراجع من 105.000 إلى 37.000 نسمة بعد أن مات هناك 68.000 إنسان بينما أنقذت حياة الآلاف من خلال مخزون الغلال التى كانت الحكومة قد خزنتها هناك. أما فى القسم المستقل حيث لم يتوافر مخزون من الغلال فقد لقي عددٌ أكبر نسبياً حتفهم. وهكذا كانت قبيلة الـ "أكسوساس" قد انكسرت تماماً.

لم يكن استعراض هذا الحدث بهذا الإسهاب من دون قصد. وقد يساور البعض شكٌ أن هناك من اخترع ذلك، ابتغاء إلقاء الضوء على تعاقب أحداث في الكتلة (الجماهير) ومدى دقتها ومطابقتها للقانون، إلا أن ذلك يرجع بالفعل إلى خمسينات القرن التاسع عشر، أى ليس في ماضٍ بعيد على أية حال، وتقارير شهود العيان عن ذلك متوافرة وبوسع الكل الاطلاع عليها. فإذا ما حاولنا استقراء بعض النقاط الجوهرية من التقرير فإن أول ما يلفت نظرنا هو مدى حيوية موتى الـ"أكسوساس" فهم يشاركون في مصائر الأحياء بالفعل ويجدون الوسائط والسبل للتواصل معهم، ويعدونهم بمدد من الجيش، وهم كجيشٍ، أى ككتلةٍ من المقاتلين الموتى، ينطلقون كجيشٍ للـ"أكسوساس" الأحياء وسوف يصل هذا المدد كأنه مدد من قبيلة أخرى حليفة، لكن في هذه الحال سيكون تحالفًا مع موتى القبيلة نفسها. وعندما يحل اليوم الموعد يصبح الجميع فجأةً على حدٍّ سواء، فكبار السن يعودون شبابًا والمرضى يصبحون أصحاء والمهمومون سعداء ويختلط الأموات بالأحياء. وبداية هذا التوجه للمساواة العامة تنشأ بالفعل مع أول أمرٍ، فعلى الناس التخلي عن فنون السحر التى استخدمها بعضهم ضد بعض، ففوضى نواياهم العدوانية هو أكثر ما يهدد الوحدة والمساواة بين أفراد القبيلة. وفي ذاك اليوم العظيم فإن كتلة القبيلة التى تعانى -وحيدةً- من عجزها عن قهر الأعداء سوف تتكاثر في لمح البصر بكتلة أمواتها الكاملة، وكذلك كان قد تم تحديد الجهة التى ستدقق الكتلة نحوها مسبقًا فإنها سوف تهاجم مستعمرة البيض الذين يقع قسمٌ من البلاد تحت سيادتهم، وبفضل دعم الأرواح ستكون قوتهم لا تقهر. وللأرواح عامةً الأمانى نفسها التى للأحياء، فهم يشتهون أكل اللحم ولذلك فهم يطالبون بأن يُضخّى بالماشية من أجلهم، ومن المفترض أنهم أيضًا يتغذون على الحبوب التى سيتم تدميرها. وقد بدأت الأضحيات على نحوٍ فردى وهو ما يمكن فهمه كعلامة للبر والخشوع. لكن هذا الأمر يتفاقم لأن الموتى يريدون كل شيء. واتجاهات التكاثر التى تكون وجهتها نحو ما يملكه المرء من ماشية وغلل تنقلب لصالح الموتى. إن هذه هى الماشية الذبيحة وهى الحبوب المدمرة هذه هى التى ستتكاثر متحولة إلى ماشية وحبوب للموتى.

إن نزوع الكتلة الديناميكي إلى تكاثرٍ مطرد، دفعةً واحدة وبلا تروٍ للتضحية بكل شيءٍ من أجل الكتلة، هو نزوعٌ موجود دائماً حيثما تتكون كتلةٌ من بشرٍ أحياء، وهذه النزعة يمكن نقلها، فالصيادون ينقلونها إلى حيواناتهم البرية تلك

التي لا يمكن أن يكتفوا بأى عدد منها، وهم يفعلون كل شيء من أجل نمو قطعانهم. ومن خلال مهارتهم العملية في تربية الحيوان تنشأ تدريجيًا بالفعل قطعان كبيرة يتزايد عددها. أما المزارعون فإنهم ينقلون النزعة نفسها إلى منتجات أرضهم الخصبة. فالحبة تصير ثلاثين أو مئة ضعف، والمخزن الذي يجمعونها فيه، وهو مرئى ومثير للإعجاب، هو التعبير الواضح لنجاح عملية التكاثر الطفرة. وقد اجتهد هؤلاء كثيرًا حتى يصير شعور الكتلة المنقول تجاه القطعان والبذور كأنه شعور ذاتي غير منقول فغالبًا ما كانوا يشعرون كأنهم هم وحدهم من فعلوا ذلك. وفي أثناء هذا التدمير الذاتي للـ"أكسوساس" كان كل ما لهم من "توجهات تكاثر" نحو البشر والماشية والغلال قد ارتبط بتصورهم عن الموتى، وفي سبيل ثأرهم من البيض الذين اعتادوا نهب بلادهم وكذلك من أجل الفرصة السانحة للخلاص بعد كل الحروب الخاسرة ضدهم كانت القبيلة بحاجة إلى أمر محدد، هو بعث موتاهم. فإذا ما اطمئنوا إلى ذلك، وإذا بُعث هؤلاء في أفواج غير مرئية، فسوف يكون بمقدورهم خوض الحرب، وستعود إليهم ذرة وماشية الموتى أكثر بكثير مما ضحى به من أجلهم، أى كل ما اجتمع لدى الموتى منذ الأزل من ماشية وذرة، فالماشية الذبيحة والحبوب المدمرة صارت بلورة الكتلة التي سيعلق بها كل الماشية وكل الحبوب هناك. وفي أزمنة أخرى كان المرء سيضحي كذلك بالبشر في سبيل الغرض نفسه. وفي ذاك اليوم الموعد سوف تغص المراعى بقطعان كبيرة جديدة وفي المزارع ستكون الذرة ناضجةً جاهزةً للأكل. وبهذا الفعل كانت كل الآمال قد علقت على عودة الموتى للحياة ومعهم كل أسباب الحياة. وفي سبيل هذا الهدف العظيم ضحى الناس بكل شيء وهو ما سوف يستردونه من ذوبهم بالعالم الآخر الذين عرفوا قدرهم. وكان شقيق النبی ومستشارو الزعيم العجوز الراحل هم من ضمنوا تنفيذ الاتفاقية التي عقدت مع الموتى، أما من عارضها أو تردد في قبولها فقد قامت الكتلة بنزع كل ما يملكه وهو ما هدد وحدتها لذا كان من الأفضل اعتبار هؤلاء من الأعداء فيقضى عليهم معهم.

فإذا ما تأملنا النهاية الكارثية للحدث أى حقيقة عدم حدوث شيء في اليوم الموعد، أى لا حقول ذرة ولا قطعان ماشية ولا ظهور لجيوش موتى، فإنه يمكن القول انطلاقًا من المنظور العقائدى للـ"أكسوساس" إن ذلك كان بمثابة خديعة من تدبير الموتى الذين لم يأخذوا الاتفاقية على محمل الجد، ولم يبالوا مطلقًا بالانتصار على البيض، بل كان كل همهم أن يتكاثروا هم، ومن خلال خدعة زائفة

بادر أفراد القبيلة بنقل ماشيتهم وما يملكون من غلال إلى الموتى، ما نتج عنه جوع الجموع. إذن كان الموتى هم من أحرزوا النصر حتى وإن تم بذلك بأسلوب آخر وفي حرب أخرى، ففى نهاية المطاف كانوا هم قد صاروا الكتلة الأكبر. ومن العناصر المهمة فى مسلك الأكسوساس كان "الأمر"، الذى انطوى على شئٍ منعزل للغاية وظل هناك وحده فعلاً قائماً بذاته. أما الموتى الذين أصدره فكانوا بحاجةٍ إلى وسيطٍ لإبلاغ الأمر، فهم يقرون بنظام الدنيا الهرمى، فعلى النبى التوجه إلى الزعماء، فيحركهم لتلقى أوامر الأرواح. وما إن أعلن "كرلى" الزعيم الأكبر قبول خطة الأرواح حتى مضى كل شئٍ فى المسار المعتاد "للأمر"، فتم إرسال المبعوثين إلى كل عائلات الـ"أكسوساس" وإلى من يعيشون تحت الحماية البريطانية "المزعومة"، وحتى غير المؤمنين الذين رفضوا طويلاً تنفيذ الخطة، وكان من بينهم عم كرلى ومستشاره الأول فإنهم انصاعوا لـ"أمر" الزعيم وأعلنوا ذلك صراحةً مبرراً وحيداً لخضوعهم. فإذا ما نظرنا إلى ذلك من منظور فحوى الأمر فسوف نرى كل شئٍ أكثر غرابةً. فقد كان جوهر الحدث هو ذبح الماشية، أى قتلها، وكلما زاد التأكيد بتكرار هذا الفعل وكلما اتسع تطبيقه على نحوٍ أشمل وأعظم تكتلاً زاد دفع "الأمر" بالحرب قدماً. أما الماشية فكانت ترمز - إن جاز التعبير - طبقاً للأمر للأعداء. فهى ترمز لهم ولماشيتهم، والغلال كذلك التى ستدمر كانت ترمز لغلال الأعداء، فالحرب ستبدأ فى الوطن نفسه كأنها ستدور فى بلاد الأعداء. إلا أن "الأمر" يتطور ثانيةً ليعود إلى أصله لأنه كان أيضاً حكماً بالموت، وهو حكم غريزى بالموت أصدره فصيلٌ ضد فصيل آخر، فكل الحيوانات التى تحت تصرف الإنسان صدر ضدها حكم بالموت، ورغم إرجاء تنفيذه غالباً لوقت طويل فإن أحداً لم يكن ليُغفى منه. وعلى هذا النحو فإن الإنسان يقوم بنقل "موته" الذى يعرفه تماماً إلى حيواناته من دون رادع لذلك. أما فترة الحياة التى يحددها للحيوان فهى تشبه لحد ما فترة حياته هو فيما عدا أنه يعرف موعد أجل الحيوان، وهو يرى موت الحيوان أمراً هيناً خاصةً أنه كان يمتلك الكثير منه، وأخذ الفردى من قطيعه ليزبجها، ويصير كلا هدفه، أى تكاثر قطعانه وقتل الفردى منها التى يحتاجها، هدفاً واحداً بالفعل، ليصير هو هنا كـ"راعٍ" أقوى من أى صياد، فحيواناته مجتمعة بين يديه ولا تفر منه وهو من يحدد فترة حياتها، وهو ليس مرتبطاً بفرصة تجمعه بها وليس مضطراً إلى قتلها فى الحال. فمن قوة الصياد يستمد الراعى نفوذه. أما الأمر الصادر إلى الـ"أكسوساس" فهو

أمرٌ في حد ذاته ، فتنفيذ أمر قتل ماشيتهم لا بد من أن يسبق قتل أعدائهم، كأن كليهما في الأساس واحدٌ: إنهم هم. ولنضع في اعتبارنا أن هذا الأمر بالقتل قد صدر عن الموقى أنفسهم وكأن السُلطة العليا لذلك هى بأيديهم. وفي نهاية المطاف فإنهم قاموا بإرسال كل شيء إليهم بالجانب الآخر. ومن هؤلاء الموقى كان هناك من يصدر الأوامر في الماضي، أى أجيال من الزعماء الذين كانت مكانتهم المتحدة عظيمة، وكانت ستصبح أيضًا عظيمة يقينًا لو أنهم بعثوا فجأة بين الأحياء. لكننا لا نستطيع درء الانطباع بأن نفوذهم زاد من خلال الموت، وإن كانوا لفتوا الانتباه إلى وجودهم من خلال النبى، بل ظهروا له وحادثوه، فقد منحهم ذلك مكانة غير طبيعية إضافةً إلى مكانتهم السابقة، وبذلك تحايلوا على الموت ودبت فيهم الحياة على نحو مثير للدهشة. إن التحايل على الموت، أى الأمل في الإفلات منه أمر ينتمى إلى أقدم توجهات كل أصحاب السلطة وأكثرها صلابة وفي هذا السياق تبرز أهمية تناقل خبر أن الزعيم كرلى عاش سنين كثيرة بعد موت شعبه من الجوع.

أحشاء السُلطة

الالتهام والهضم

لم تخضع سيكولوجية الالتهام والهضم - وكذلك سيكولوجية تناول الطعام على العموم- للدراسة والبحث على نحوٍ وافيٍّ مكتمل الأبعاد، وهو الأمر الذي نعتبر فيه كل شيءٍ بديهياً إلى درجة التطرف. إذ إن هناك كثيراً من الأحداث تنطوي على أسرار وعجائب قد حدثت في هذا الشأن ولم نُعمل التفكير فيها قط. وليس لدينا ما هو أكثر قدمًا من تلك الأشياء التي نتقاسمها مع الحيوانات، وهو أمرٌ لم يعد يلفت نظرنا. فاقتراب مخلوقٍ من آخر، بنيةٍ عدوانيةٍ، يمر بمراحل مختلفة، لكلٍ منها أهمية تراثية خاصة. ولنأخذ على سبيل المثال مسألة "التربص" بالفريسة، تلك الفريسة التي وُضعت في حالة ملاحقةٍ لفترةٍ طويلة قبل أن تنتبه لنوايانا. وقد قمنا بتأملها ومراقبتها وحراستها بشعورٍ مفعم بالرضا والإعجاب، وأخذنا ننظر إليها كـ"لحمٍ" ما زال على قيد الحياة، وكان النظر إليها، كـلحمٍ، على نحوٍ من التركيز والإصرار حتى إنه لم يكن هناك ما يمنعنا من الفوز بها كذلك. وطوال هذا الوقت الذي يحوم فيه المرء حول الفريسة يشعر هو بامتلاكه لها إلى حدٍّ كبير، أي منذ تلك اللحظة التي حددها هو كفريسة وتصور أنه قد التهمها.

ويُعدّ التربص حالة قلقٍ خاصة تستطيع بعدها أن تتجدد تلقائياً، فتكتسب أهميةً خاصة بها وبطول مدتها، وفيما بعد يسلك المرء سلوكاً مستقلاً عن

الفريسة التى كان قد انجذب إليها فى النهاية. ويظل المرء فى حالة تربص غير بريئة عاكفًا على الملاحقة. وكل ما يمارسه من أفعال فى هذا الاتجاه على نحو إيجابى يعايشه سلبيًا بنفس القدر فى ذاته، لكن على نحو يدعمه ذكاؤه الأكثر حدة، وهو ما يعرضه لمخاطر أكبر، ما يجعل من الملاحقة عذابًا أعظم. والإنسان لا يمتلك دائمًا القدرة الكافية للوصول إلى فريسته مباشرةً. فكانت الملاحقة، وما اكتسبته من ثراءٍ فى المعرفة والدقة، هى التى قادت به إلى فكرة الشراك الأكثر تعقيدًا. وكان دائمًا ما يلجأ إلى التحول، وهو موهبةٌ خاصة به، فيتخذ هيئة الحيوان الذى يستهدفه. وقد أوتى من القدرة على ذلك حتى كان الحيوان يصدق. وهذا النوع من التربص نستطيع اعتباره نوعًا من المداهنة، فهو يقول للحيوان: "إننى مثلك، إننى أنت، فهل تأذن لى بأن أكون بجوارك؟". وبعد هذا التقرب والتملق - الذى سنتناوله فى موضعٍ آخر - تجيء اللمسة الأولى، وهى ربما أكثر ما يخشاه المرء، فالأصابع تتحسس ما سوف ينتقل إلى الجسد بسرعة وعلى نحو تام. أما الالتهام بالحواس الأخرى كالسمع والنظر والشم فلا يكون على هذا القدر الكبير من الخطورة، فمثل هذه الحواس تجعل مساحةً بينها وبين الضحية، وما دامت هذه المساحة قائمةً تكون هناك فرصةٌ للإفلات، ويظل الأمر كله غير محسوم، إلا أن التحسس كلامسة يكون مقدمةً للتذوق، فالساحرة فى الأساطير تمد أصابعها لتتحسس إذا ما كانت الضحية سمينَةً بما يكفى.

إن استهداف جسدٍ ما لجسدٍ آخر يصبح واضحًا منذ لحظة اللمس. وفى أعماق تجارب الحياة كانت هذه اللحظة على درجةٍ ما من حسم الأمر. فهى تنطوى على أقدم حالات الفزع، فكانت تداهمنا كثيرًا فى أحلامنا، ولم تكن تجارب حياتنا المدنية سوى اجتهادٍ وحيد فى سبيل تفادى هذه اللحظة. وعلاقة القوى بين من يلمس ومن يلمس هى التى تحدد إذا ما كانت هناك مقاومةٌ ستستمر منذ هذه اللحظة أم أنه سيكون هناك استسلامٌ تام. لكن الأقوى من علاقة القوى هى الصورة التى يتخيلها الملموس عن ذلك، فغالبًا ما يحاول الدفاع عن جلده وهو لا يفعل ما هو أكثر من ذلك ضد قوة تبدو غالبية. وقد تحولت هذه اللمسة النهائية فى حياتنا الاجتماعية إلى ما يعرف بالاعتقال، وهى تلك اللمسة التى يفاجأ بها الإنسان، لأن أية مقاومة تبدو مستحيلةً، خاصةً تلك المقاومة فى المستقبل. فيكفى أن تشعر على كتفك بيد هذا المنوط به عملية الاعتقال حتى تستسلم عادةً قبل أن تتم عملية الانقراض، فيخضع المرء ويسلم قياده ويسلك

مسلك المعتقل. إلا أن الأمر لا يجرى في كل الأحوال على هذا النحو بأن يواجه المرء المراحل التالية بهدوء وثقة.

أما المرحلة التالية بعد الاقتراب فهي الانقضاض، فتصير أصابع اليد مجالاً مجوّفاً تحاول به اليد أن تنبش في جزءٍ من المخلوق الملموس، وهى تؤدى ذلك دون اهتمام بأعضاء الجسد، أى بالعلاقة العضوية للفريسة، فهى لا تبالى في هذه المرحلة إن كانت ستصيب الفريسة بجرح أم لا. لكن لا بد من أن يكون جزء ما من جسد الفريسة قد صار في هذه القبضة كرهنٍ لباقي الجسد. ومجال قبضة اليد هو المجال السابق على مجال الفم والمعدة الذى ستكون فيه الفريسة قد تم التهامها بشكلٍ نهائى. والفم المسلح الذى يقوم بعملية الانقضاض يحل لدى الكثير من الحيوانات محل المخلب أو اليد مباشرة، أما الإنسان فتكون يده التى لا تسمح بالإفلات، هى الصورة الحقيقية المعبرة عن السُلطة: "وقع بين يديه"، "صار في قبضته"، "بين يدي الله"، فمثل هذه التعبيرات متوافرة غالباً في كل اللغات على نحوٍ واسع ومألوف. أما المهم في عملية الانقضاض نفسها فهو الضغط الذى تمارسه اليد، فالأصابع تركز على المعتقل، والمجال الذى أُلقي فيه يضيق. فالهدف هو أن يشعر المعتقل بقبضة اليد كلها وعلى نحوٍ أكثر قوةً، فتنتشر أولاً خفة ونعومة اللمسة ثم تشتد وتكثف في النهاية لتقبض تمامًا على هذا الجزء من الفريسة. وهذا الضغط قد تجاوز مرحلة التمزيق بالمخالب، فقد كان هذا التمزيق يُمارَس في مجتمعات العصور القديمة، إلا أنه اعتبر أمرًا حيوانيًا، أى أداءً حيوانى، وهو ما صار منذ أمدٍ بعيد مهمة الأسنان في حالات الخطر. ويمكن أن يزداد الضغط ليصل إلى حالة الهرس. ومدى خطورة الفريسة هو ما يحدد استمرار الضغط، وإذا ما كان سيصل إلى مرحلة الهرس، فإذا شاء المرء الخروج من الصراع فائزًا، وإذا ما هددته هى أو أثارت غضبه أو أصابته بجرح، هنا يجب أن يشعرها هو بذلك فيضغط على نحوٍ أقوى كأن ذلك كان ضروريًا للتأكيد عليها.

إلا أن هناك ما هو أكثر من الخطورة والغضب وهو "الاحتقار" الذى يدفع المرء نحو السحق، فشيءٌ صغير للغاية لا يكاد يُذكر، كحشرة ما يتم سحقها، لأن المرء لم يعرف ماذا يفعل عادةً بذلك. فاليد الإنسانية لا تستطيع تكوين فراغًا كافيًا لذلك. لكن بصرف النظر عن سعى المرء للتخلص من مخلوقٍ مزعج

وإدراك أنه تخلص منه بالفعل، فإن هذا هو السلوك الذى يسلكه تجاه ذبابةٍ أو برغوث، فهو احتقار نحو مخلوق أعزل تمامًا يعيش فى منظومة حجم وقوة مختلفة عما نحن عليه، ولا يجمع بيننا أى شىء مشترك، وهو ما لا تتحول إليه أبدًا، والذى لا نخشاه حتى لو ظهر على هيئة تكتلات. إن تدمير هذه المخلوقات الصغيرة هى أفعال العنف الوحيدة التى ظلت أيضًا داخلنا ولا تصل دماؤها أبدًا إلى رءوسنا، وهو لا يذكرنا بدمنا ولا ننظر إلى أعينها المنكسرة ولا نأكلها وهى - على الأقل عندنا فى الغرب - لم تندمج قط فى مملكة البشرية المتنامية وإن كانت مؤثرة، وهى على نحوٍ أو آخر مهددة الدم، سواء كانت برغوثًا أو ذبابةً، فإذا ما قلتُ لشخصٍ ما "سوف أسحقك بيدى المجردتين" أكون قد عبرت بذلك عن أسوأ أنواع الازدراء مما يخطر ببال إنسان. إننى أقول تقريبًا: "أنت حشرة"، "أنت لا تساوى شيئًا، وبوسعى أن أفعل بك ما أشاء، ولن تساوى بعد ذلك شيئًا، ولا تعنى لأحدٍ أى شىء، فبوسع أى أحد أن يقضى عليك دون رادع، ولن يلحظ ذلك أحدٌ، فلن ينتبه هو لذلك ولا أنا".

إن أعلى درجات الهرس من خلال الضغط هو السحق الذى لا تقوى عليه اليد، فليونتها لا تمكنها من ذلك، فالسحق يتطلب ثقلًا كبيرًا لآلة ضخمة للغاية، شيئًا صلبًا من أسفل ومن أعلى يتم السحق بينهما، وهنا تقوم الأسنان بما لا تستطيع اليد إنجازه. والإنسان عمومًا لا يفكر فى شىء حتى إذا كان الأمر سيتعلق بالسحق، فمثل هذه العملية تتعلق بفريسة غير عضوية. وسوف تستخدم هذه الكلمة - بالأحرى - إذا ارتبطت بالكوارث الطبيعية عند سقوط صخور ضخمة يمكن أن تسحق مخلوقات أقل حجمًا. ورغم استخدام هذه الكلمة كتعبير مجازى فإنها لا تؤخذ على محمل الجدية التامة، فهى تعبر عن تصور لقوة مدمرة لآلة ما، لا يملكها الإنسان. وهناك شىء عملى فى عملية السحق، فالجسد وحده - كظاهر - لن يكون قادرًا عليها، ويتنازل عن ذلك عن طيب خاطر، أما الأقوى القادر على ذلك فهو القبضة الفولاذية.

ومن العجيب أن تتمتع القبضة بهذه المهابة البالغة. ومهام اليد متعددة إلى حد أننا لا ندهش من التعبيرات اللغوية المرتبطة بها، إلا أن قدسيته ترجع إلى القبضة ذاتها، وهو الفعل المركزى والأكثر احتفائيةً للسلطة. فالقبض كلمة يمكن أن يمتد معناها لأقصى درجة ممكنة، وقد تكون هى الدلالة الأكثر تعبيرًا

عن ذلك، فهي تعبر عن الحالة الكاملة والمنغلقة المرتبطة بالقوة التى لا يكون للمرء أى تأثيرٍ عليها، فمن "قُبض عليه" يكون مقبوضاً عليه بيدٍ عملاقة، وهى قابضةٌ عليه تمامًا، فلا يكون بوسعهِ الدفاع عن نفسه ضدها، حيث إنه لا يستطيع إدراك نواياها، وهو أمر ليس بعيد المنال. ويمكن العثور على الفعل الحاسم للسلطة حيثما كان هذا الفعل منذ القدم هو الأكثر إثارةً للانتباه بين الحيوانات والبشر، أى: "قبض على". فإليه ترجع المكانة الخرافية التى تتمتع بها فصيلة القطط المفترسة من غورٍ وأسود بين البشر، فهذه الحيوانات هى أصحاب القبضة الكبرى، وهى وحدها صاحبة الإبداع فى هذا الشأن، وهى التى احتكرت التربص والقفز وضربة الكف وتمزيق اللحم. كما ساهم فى ترسيخ مكانتها الفذة قوة هذا الفعل وصلابته واليقين الذى يُنفَّذ به والتفوق الأكيد للمنفَّذ، واعتبار كل المخلوقات فريسةً لها. ومهما كان المنظور الذى نتأملها من خلاله فإن أعلى تركيز للقوة كان لدى تلك الحيوانات، وهى فى صورتها هذه تركت لدى الإنسان انطباعًا لا يمحو، فكل الملوك آثروا أن يكونوا أسودًا، وقد كان فعل الانقضاض هو نجاحه الذى أثار إعجاب الإنسان ومدحه. كما استندت البسالة والعظمة فى كل مكان على قوةٍ متفوقة إلى حدٍّ بعيد، فالأسد لا يضطر إلى التحول للحصول على فريسته، فهو يحصل عليها بوصفه هو ذاته، وهو يعلن عن نفسه قبل أن يُقدم على القنص، فهو يزأر ليعرِّف نفسه، وهو الوحيد الذى يفصح عن نواياه فيبلغها بصوتٍ عالٍ لسمعها أى مخلوق، وهذا ينطوى على كبرياءٍ غير قابلةٍ للتحويل إلى شىءٍ آخر، إلا أنه يبيث فرعًا أعظم من خلال ذلك. فالقوة فى جوهرها وفى أوجها تحتقر التحول، فهى تكتفى بنفسها ولا تبغى شىئًا سوى نفسها. وفى هذه الهيئة رآها الإنسان جديرةً بالملاحظة، ومطلقة، وغير مسئولة، وهى ليست من أجل شىءٍ أو أحدٍ هنا، وهى تبلغ أقصى درجات تألقها إذا ما تبدت فقط على هذه الهيئة، وهو أمرٌ ظل قائمًا حتى اليوم، فليس هناك ما يقوى على الحيلولة بينها وبين ظهورها هكذا مرارًا وتكرارًا.

إلا أن هناك عملاً ثانيًا من أعمال السلطة وإن لم يكن له هذا البريق، لكنه يقينًا لا يقل من حيث جوهره. فأحيانًا ما ننسى الانطباع الرائع عن الانقضاض والالتهام، إلا أن هناك شىئًا مهمًا يواكب ذلك. فالأمر يتوقف على ألا نكون فى موضع المنقض عليه. فكل المجالات الشاغرة التى يصنعها صاحب السلطة حول نفسه تخدم هذا التوجه الثانى، حتى أقل هؤلاء شأنًا يحاول إعاقتهم عن

الاقتراب منه. وحيثما ترسخ شكلٌ من أشكال حياة البشر الجماعية كان هذا الشكل يتجلى في مسافاتٍ فاصلة تؤمن البشر من خوفهم الدائم من القبض والانقضاض عليهم. إن التماثل الواضح للغاية بين بعض المجتمعات الحضارية القديمة قد انبثق كذلك عن أبعاد المسافة المستوية التى جعلها الإنسان حول نفسه في كل اتجاه، كما تبدى أمان هذه المجتمعات في هذه المسافة، وهو ما يتضح أيضًا كصورة مجازية. إن صاحب السلطة الذى يرتبط وجود الآخرين بوجوده يسعد بأكثر وأوضح مسافة، وهو في ذلك لا يكون في بهاء الشمس فقط أو ما هو أعظم منها، أى السماء، كالحال لدى الصينيين، فالوصول إليه يكون صعبًا بعد أن شُيِّدت حوله قصورٌ بقاعات تزداد اتساعًا. وكل بوابةٍ وكل بابٍ يتم حراستها حراسةً مشددة لأقصى حد، فيكون من المحال النفاذ إليه رغمًا عنه. أما هو، من موضعه الآمن البعيد، يستطيع الانقضاض على كل من يريد أينما كان. لكن كيف يستطيع الآخرون الانقضاض على هذا المحصن المنعزل، المنفرد؟

إن الاتهام الحقيقى للفريسة يبدأ بالفم الذى ينتهى إليه الطريق الأصلى لكل ما هو قابل للأكل، أى من اليد إلى الفم. إلا أن الاتهام يكون بالفم لدى بعض المخلوقات التى لا يكون لها أيدي تستخدمها في الانقضاض، أى بأسنانها أو بمنقارها. والأسنان هى أوضح أدوات السلطة التى زودت بها بعض الحيوانات والإنسان. فاصطفافها المنتظم وصقلها اللامع لا يمكن مقارنتهما بأي عضو بالجسد يمكن رؤيته في أثناء عمله. وهى ما يمكن وصفها بالنظام الأول على الإطلاق، وهو الذى يتجلى شكله بوضوح وعلى نحوٍ عام، وهو نظامٌ، يكون له تأثير التهديد نحو الخارج، وإن لم يكن مرئيًا دائمًا، لكنه يظهر عندما يفتح الفم، وهو ما يحدث غالبًا. ومادة الأسنان مختلفة عن بقية مادة أعضاء الجسد الظاهرة، ولسوف تثير الإعجاب حتى لو لم يكن بالفم سوى اثنتين منها. فهى مصقولةٌ وصلبة ويمكن ضغط بعضها ببعض من دون أن تتأثر قوتها، وهى تبدو كأحجارٍ مركبة ومصقولة تمامًا. وفي زمنٍ باكرٍ للغاية اتخذ الإنسان من كل أنواع الأحجار سلاحًا وأدواتٍ، لكن الأمر استمر طويلًا حتى عرف كيف يصقلها على نحوٍ جيد وحتى صارت مصقولةً كالأسنان. وربما كانت الأسنان هى النموذج الذى قاد الإنسان إلى تطوير قوة أدواته. فقد استفاد من كثير من أنياب الحيوانات الضخمة منذ القدم. وعرض حياته للخطر من أجل الحصول عليها، كما كمن في ذلك شئ من سلطة الحيوان الذى كان يهدده. وقد علقها على جسده كرموز

انتصار وطلاسم كانت تبث في نفوس الآخرين الفرع الذى كان يشعر به أيضًا تجاههم. أما الندوب التى ألحقتها به فكان يستعرضها على جسده متباهيًا، فقد كانت تعتبر علامات فخر، وقام بتقليدها فيما بعد. وكان أثر أسنان الحيوانات البرية القوية على البشر، ثريًا ومتنوعًا. وطبقًا لماهية الأسنان فقد جاء موقعها بين أداة وبين عضو جسد قابل للكسر، فكان احتمال سقوطها أو كسرها قد جعلها شبيهة بالأداة. وقد انتقلت صلابة الصقل والانتظام، كصفتين ظاهرتين إلى جوهر السلطة، ولا يمكن فصلهما عنها. وهما أول ما يظهر من كل أشكال السلطة. وبدأ ظهورها في أدوات العمل البدائية، لكن مع نمو السلطة تنامت معها صفاتها المبكرة هذه. والانتقال السريع من الحجر إلى المعدن كان الطفرة الكبرى في هذا الاتجاه المتنامى لعملية لصقل. ورغم أن صقل الحجر كان أمرًا جيدًا فإن السيف كان أكثر صقلًا، بدايةً من البرونز، ثم الحديد. وما يجذب ويلفت الانتباه في المعدن حقًا هو أن صقله لا يقارن بمادة أخرى. وقد ازداد هذا الصقل في ماكينات وسيارات عالمنا الحديث فصار صقلًا للمهمة نفسها. واللغة تعبر عن هذا المعنى على أبسط نحو، فنقول: المرء يصقل العمل أو الأداء. وهو يعنى بذلك أنه يسيطر سيطرةً تامة على حدثٍ ما مهما كان شأنه. وقد ازداد التعلق بالصلابة المصقولة في مجالات الحياة الحديثة التى حاول المرء تجنبها في الماضى. وقد كانت معظم المنازل والمرافق يتم تجميلها لتمثال جسد الإنسان وأعضائه. وقد تبدل التجميل لكنه ظل دائمًا موجودًا، فقد أصر المرء على التشبث به حتى بعد أن فقد معناه الرمزي. كما سادت صلابة الصقل اليوم كذلك المنازل وجدرانها وأسوارها والأثاث والأدوات المنزلية، لتتراجع قيمة الزخرفة والحلى، واعتبرا دلالة على فساد الذوق. فإن تكلمنا عن الوضوح والفائدة فإننا في الحقيقة نتباهى بصلابة الصقل والمكانة الغامضة للسلطة التى تكمن فيه. من خلال هذا المثل عن العمارة الحديثة تتجلى صعوبة فصل صلابة الصقل عن النظام، فتاريخهما المشترك قديمٌ قدم الأسنان. وتاريخ صفٍ كامل من الأسنان الأمامية ومساحاتها التى عُززت فيها كانت نموذجًا لأنظمة كثيرة. وهناك مجموعات منتظمة مختلفة، تبدو لنا اليوم بديهيةً، يمكن أن تكون قد انبثقت عن ذلك. فنظام فرق القتال، كما ابتدعها الإنسان، ترتبط بأسطورة الأسنان، فجنود "كادمو" الذين خرجوا من الأرض كانوا قد تم بذرهم كأَسنان تنين. وهناك يقينًا الآن أنظمةٌ أخرى تماثل العشب أو الأشجار الصلبة، إلا أنها لم تكن مثل الأسنان، فلم تكن مباشرةً مثلها ولم ترتبط

مثلها باستقبال الطعام المستمر ولم تكن سهلة الاستخدام مثلها، حيث إن فعالية الأسنان كجهاز للقضم هو الذى دل الإنسان على نظامها القوى. وكان تساقط بعضها والآلام الناتجة عن ذلك هو ما جعله يدرك أهمية هذا النظام. والأسنان هى حرس الفم المسلح.

وهذا المكان الضيق بالفعل صار النموذج الأول لكل السجون، فما يزعج به هناك يُعتبر مفقوداً، وقد زُجَّ بأحياء كثيرين فيها. فعددٌ كبير من الحيوانات يقتل فرائسه فى الفم، بل إن بعضها يموت قبل ذلك. أما ما يذُكر بسمات السجن الأساسية المريحة فهو هذا الاستعداد الذى يُفتح به فم الإنسان أو الحيوان، إن لم يكن مفتوحاً بالفعل من أجل التربص، وكذلك إغلاق الفم إغلاقاً مطبقاً. ولن يجانبنا الصواب إذا افترضنا أن هذا النموذج المتمثل فى فم الحيوان كان له تأثيرٌ غامض على فكرة السجن. فيقيناً لم تكن الحيتان فقط هى التى وجد الإنسان البدائى فى أفواهها مكاناً كافياً. ففى هذا المكان المروع لا يمكن لشيء أن ينمو حتى لو كان لدى المرء فسحةً من الوقت للسكن داخله. إنه مكان أجذب لا تنبت فيه البذور. وعندما استبعد الإنسان الفم والحلقوم فإنه عثر على بديل رمزى لذلك، كان هو السجن.

وفى الماضى، عندما كانت هذه أماكن للتعذيب، فإنها كانت تماثل الفم العدائى فى تفاصيل كثيرة. وما زالت الجحيم تبدو حتى اليوم على هذه الصورة. أما السجون الحقيقية فقد صارت أكثر تزمناً مقارنةً بذلك. فالصلابة المصقولة للأسنان قد سادت العالم، فجدران الزنازين ليست سوى صلابة مصقولة، أما كوة الضوء فصغيرة للغاية. وكانت حرية السجين هى كل مكان خارج نطاق الأسنان المضغوطة التى استبدلت بها الآن جدران زنزانة مقفلة. وأقصى كل الفظائع رآها البعض، ممن عاشوا طويلاً، فى الحلقوم الضيق الذى كان على كل فريسة اجتيازه. وقد انشغل خيال الإنسان بهذه المراحل من الاتهام، فأفواه الوحوش الفاعرة على نحو جامد قد لاحقته فى أحلامه وأساطيره. ورحلاته الاستكشافية داخل حلاقيم الوحوش لم تكن تقل أهميةً عن رحلاته فى البحر، وكانت يقيناً على نفس القدر من الخطورة. وبعضٌ من هؤلاء، ممن لم يكن لديهم أى أمل، تم سحبهم أحياءً من أفواه هذه الوحوش، وحملوا ندوباً من أسنانها طوال حياتهم. إنه طريقٌ طويل هذا الذى تشقه الفريسة داخل الجسد. وفى هذا الطريق كان

يتم امتصاصها ببطء، فكل ما يمكن الانتفاع به منها يتم انتزاعه منها. وما تبقى يكون فضلاتٌ ورائحةٌ كريهة.

إن هذا الحدث الذي يمثل نهاية أية سيطرة حيوانية هو ذو دلالة على جوهر السُّلطة على الإطلاق. فمن يريد حكم بشر فإنه يحاول إذلالهم والاحتياط عليهم والاستيلاء على قدراتهم وحقوقهم، حتى يصيروا أمامه بلا حول ولا قوة، مثل الحيوانات. وهو يستخدمهم مثل الحيوانات، حتى لو لم يفصح لهم عن ذلك، لكنه يدرك في أعماقه تدنى أهميتهم بالنسبة له، بل إنه يصف من يثق بهم - مقارنةً بأولئك - بالنعاج أو الماشية. وهدفه النهائي هو التهامهم وامتصاصهم غير مبالٍ بما يتبقى منهم. وكلما زاد احتقاره لهم كان مسلكه معهم أكثر قسوةً. فإن فقدوا كل قيمتهم تخلص منهم كما يتخلص من فضلاته، ويحرص في أثناء ذلك على ألا يلوثوا هواء منزله. وهو لا يجرو أن يشخص هذا الحدث أمام نفسه بكل مراحل التفصيلية. فإن نزع للتصريحات الجريئة أقر أمام ثقاته بإذلال الناس الذين اصطنعهم لنفسه. ولما كان لا يذبح رعاياه بالسلاخانات ولا يستخدمهم كغذاءٍ حقيقي لجسده فإنه ينكر أنه امتصهم وهضمهم. فهو على النقيض من ذلك، إذ إنه هو من يمنحهم ما يأكلونه.

وهكذا يكون من السهل التغاضي عن جوهر هذا الحدث وهو ما يحدث منذ أن رعى الإنسان حيواناتٍ لم يقتلها لأنها كانت تفيده في مجالات أخرى. لكن بصرف النظر عن صاحب السلطة، الذي استطاع تركيز كل شيء في يده، فإن صلة كل إنسان بفضلاته الشخصية تنتمى إلى مجال السلطة. فليس هناك صلة أقوى من صلة المرء بفضلاته. فالضغط المتواصل الذي يمارس على الفريسة، كطعام، داخل الجسد، وتحللها الذي يبدأ مع الهضم، والتلاشي التام والنهائي لكل الوظائف حينذاك، ثم كل الأشكال التي صنعت وجودها الطبيعي والتقريب أو الدمج مع ذلك، الذي هو موجود بالفعل كجسد للهضم، كل ذلك يُرى يقيناً على أنه الحدث الأكثر مركزيةً وكموناً للسلطة. وهو من الأمور البديهية التلقائية والبعيدة عن الإدراك حتى إننا نغفل عن أهميته.

والإنسان ينزع إلى رؤية الأعيب السلطة المختلفة التي تمارسها في عالمنا، وإن كانت هذه هي آخر مراحلها. ومن بينها مرحلة الهضم التي تستمر ليل نهار. فيتم الإمساك بشيءٍ غريب وتمزيقه إلى أجزاء صغيرة والتهامه ليتمثل في الجسد،

ومن خلال هذا الحدث فقط يحيا الإنسان. فإن هو امتنع عن ذلك يكون قد شارف على نهايته، وهو ما يدركه كل منا تمامًا. ولكن من الواضح أن كل مراحل هذا الحدث، ليس فقط الظاهرة منها وشبه المعروفة، لا بد أن تترك أثرها في النفس. والعتور على ما يماثلها هنا ليس سهلاً، فبعض الآثار المهمة سوف يمكن تتبعها خلال هذه الدراسة. وسوف يتضح أن تلك الآثار هي من أعراض مرض الملانخوليا. إن الفضلات التي تتبقى من كل شيء تكون مشحونةً تمامًا بجرائم القتل. فيمكن التعرف من خلالها على ما قتلناه. إنه مجموع القرائن ضدنا التي تم التهامها وهضمها. إن ذنبنا اليومي المتواصل يصدر رائحةً كريهة ويصرخ إلى السماء. ومن اللافت للانتباه اختلاء الإنسان به بعيداً عن الأعين. ففي مكان خاص يفرغ ما في بطنه. وأكثر اللحظات خصوصية للإنسان هي تلك الخاصة بالإفراز، حيث يكون وحيداً بالفعل مع فضلاته. ومن الواضح أن المرء يستحي من ذلك، إذ إنها نهاية السلسلة الأقدم لحدث السلطة والهضم، الذي يجرى في الخفاء، ولولا هذه النهاية لظل الحدث خفياً.

اليد

يعود الفضل في بدء استخدام الأيدي إلى الحياة على الأشجار. وكان أول ما ميز ذلك هو تفوق إصبع الإبهام، فتكوين الإبهام القوى، والفراغ الأوسع بينه وبين بقية الأصابع، يسمحان باستخدام ما كان للمخالب ذات يوم، أي الإمساك بفروع كاملة. فمواصلة الحركة على الأشجار في كل اتجاه يصير من خلال ذلك أمراً أكثر سهولةً وطبيعيةً.

أما أهمية ما تمثله الأيدي من قيمة فنراه لدى القردة. فهذه الحاسة الأقدم لليد معروفةٌ عامةً ولا يتطرق إليها الشك. أما الأهمية التي لم ندركها على نحوٍ كافٍ فهي الوظائف المختلفة لليد في أثناء التسلق. فاليد لا تفعل مطلقاً الشيء نفسه في الوقت نفسه، فإذا ما امتدت يدٌ إلى فرعٍ جديد تكون الأخرى ما زالت متشبثةً بالفرع القديم. ولهذا التشبث أهميةٌ رئيسة، فهو يحول دون السقوط في أثناء مواصلة الحركة السريعة. ولا ينبغي، بأية حالٍ، لليد التي يتعلق بها الجسد كله أن تترك ما تتعلق به. وهى تكتسب من خلال ذلك صلابةً كبيرة. تلك الصلابة الى يجب تمييزها عن الإمساك بالفريسة. فما إن تصل الذراع إلى الفرع الجديد فإنه يجب إفلات اليد الممسكة بالفرع القديم. فإذا لم يحدث هذا بسرعةٍ شديدة فإن الكائن المتسلق لن يتحرك من مكانه. فكأن الإفلات السريع

إذن بمثابة إضافة جديدة إلى قدراتٍ جديدة لليد. ففي الماضي لم تكن الفريسة لتفلت إلا تحت أقصى ضغط وضد كل ما هو مألوف ومنشود. إن إنجاز فعل التسلق يتكون إذن من مرحلتين متعاقبتين لكل يدٍ على حدة: إمساك، إفلات، وإمساك، إفلات. وذلك رغم أن اليد الأخرى تفعل الشيء نفسه لكن في مرحلة لاحقة. فكلٌ منهما تفعل نقيض ما تفعله الأخرى في اللحظة نفسها. أما الذي يميز القردة عن الحيوانات الأخرى فهو التعاقب السريع لكلتا الحركتين. فيتلاحق الإمساك والإفلات ليمنحا القردة شيئاً من خفة الحركة تُحسَد عليها. حتى القردة العليا التي نزلت من الأشجار إلى الأرض فقد حافظت دائماً على امتلاك تلك القدرة الأساسية على تحريك الأيدي معاً. وهناك تجربةٌ إنسانية واسعة الانتشار تذكّر - في بداية ظهورها - بمثل هذا النوع على نحوٍ شديد الوضوح، وهى المقايضة. وهو أمرٌ يحدث عندما يعطى المرء شيئاً بعينه مقابل ما أخذه. فتقبض إحدى يديه بإصرارٍ على المادة التي تغرى بها الطرف الآخر على المقايضة، بينما تنبسط اليد الأخرى طلباً للمادة الأخرى التي يسعى لتملكها. فما إن تلمس ذلك فإن اليد الأولى تترك ما امتلكته، وليس قبل ذلك، وإلا فإنها سوف تخسر كل شيء. إن هذا اللون الواضح من الغش، أى فقدان شيء ما من دون مقابل، يتساوى مع السقوط من الشجرة، إن قارئاً ذلك بحدث التسلق. ومن أجل الحيلولة دون حدوث ذلك يظل المرء حريصاً على مراقبة كل حركات الطرف الآخر طوال عملية المقايضة. وشهرة وعمق سعادة الإنسان بعملية المقايضة أمرٌ يمكن تفسيره جزئياً كذلك بمواصلة الإنسان لممارسة قدرة أقدم حركاته كمسلك نفسى. ولا يماثل الإنسان القرد في أمرٍ ما إلى اليوم كما يماثله في حدث المقايضة.

لكن لنعد من هذه الرحلة القصيرة إلى زمنٍ أكثر قرباً، أى إلى اليد نفسها وبداياتها. فمن تعلق اليد بفروع الشجر كانت اليد قد تعلمت نوعاً من سلوك الإمساك لم يعد يسرى على تناول الغذاء الأكثر قرباً. فالطريق القصير المفتقر إلى الحركة التبادلية، أى الطريق من اليد إلى الفم، كان قد عفا عليه الزمن من خلال ذلك. فعندما انكسر الفرع نشأت العصا. وبها استطاع المرء دفع أعدائه عن جسده. فخلقت العصا بذلك مساحةً حول الكائن المبكر الذي رآه ربما لا يشبه الإنسان. فمن خلال الشجرة جاءت العصا كسلاح قريب. وقد منحها الإنسان ثقته، فلم يستغن عن العصا قط. فكان المرء يضرب بها، وقام بشحذها ليصنع منها رمحاً، وثناها وربطها، وصنع منها سهاماً. لكن وراء كل هذه التحولات ظلت

العصا دائماً هي ما كانت في البدء، أي أداة لخلق مسافة تبعد اللمس والقبضة التي يخافها الإنسان. فمثلما لم يفقد الوقوف على قدمي كبريائه تماماً فإن العصا لم تتنكر لدورها في أثناء كل أشكال تحولها، فقد احتفظت بصفاتها ممثلة في شكلين مهمين للسلطة، عصا سحرية وكصولجان.

عن مثابرة الأيدي

ترجع كل ممارسات اليد العنيفة إلى العصر القديم. ولم يكن الانقراض العدواني وحده الذي يفاجئ المرء ويروعه. لكن كثيراً من الأحداث المنبثقة عن ذلك تعاقبت فيما بعد مثل الضرب والوخز والدفع والطرح أرضاً وإطلاق النار، التي لم يكن هناك بد من إضافتها إلى ما سبق مهما تنوعت أشكالها المستحدثة وازدادت تقنياتها تعقيداً. وقد تكون سرعتها ودقتها قد نمت على نحو أكبر إلا أن معناها وهدفها ظلّا على عهدهما القديم، وهو ما صار مهمةً للصياد والمحارب إلا أنه لم يضاف شيئاً إلى تألق اليد الإنسانية. ومن أجل وصولها للكمال كانت قد حققت إنجازاً على نحوٍ آخر، تحديداً في كل مجال تنازلت فيه عن القوة وعن الفريسة. فصارت عظمة اليد الحقيقية في مثابرتها. ولقد خلقت أعمال اليد البطيئة الهادئة العالم الذي نعيش فيه. فكان (الفخري) صانع الفخار الذي أتقنت يده تشكيل الصلصال، قد دُكر كخالق في بداية الإنجيل. فكيف اكتسبت الأيدي الصبر؟ وكيف اكتسبت أصابعها حساسية الأنامل؟ لقد كان أقدم الممارسات التي عرفها (المرء) الإنسان، هو حك جلد الرفاق، الأمر الذي أحبته القردة كثيراً. وقد رأى البعض أنها تفتش عن شيء ما. ولأنها كانت أحياناً تعثر على شيء فقد نسب زوراً إلى هذا النشاط غرضٌ عملي قاصر للغاية. ولكنها كانت تفعل ذلك في الواقع بحثاً عن هذا الشعور اللطيف الذي أحست به الأصابع، كلٌّ على حدة، وهو إحساس ارتبط بشعر الفرو. هكذا كانت ممارسات الأصابع هذه هي أول ما عرفه (المرء) الإنسان. ومن خلالها صارت الأصابع أداة دقيقة تدهشنا حتى اليوم.

عن ممارسات أصابع القردة

كان التفتيش المتبادل الدقيق للفرو هو ما لفت انتباه كل متابعي القردة. فكان الفحص الدقيق والتأمل لكل شعرةٍ بحد ذاتها قد أعطى الانطباع بأن القردة تبحث عن حشرات. ويُذكر مسلك الحيوانات بهولاء البشر الذين كانوا يقتفون أثر البراغيث. وغالبًا ما كانت تمضى بيدها إلى فمها، ما يعنى عثورها على شيء. ولما كان هذا يحدث غالبًا وبكثرة بدت البرهنة على مثل هذا التفتيش أمرًا ضروريًا. لقد كان هذا أيضا هو المفهوم العام. ولم يُفسر الحدث على نحو دقيق من علماء الحيوان إلا في العصر الحديث. وقد ورد في كتاب تسوكرمان عن "الحياة الاجتماعية للقردة وإنسان الغابة" ⁽⁷³⁾ استعراضٌ ودراسة ذات صلةٍ عن عادة القردة هذه. وهى دراسةٌ غنية بالدلالات، لذا أقدم ترجمتها كالتالى:

"إن التقاط البراغيث، بصرف النظر عما يقوله علماء الاجتماع، لهو الشكل الأصلي الأول والخاص للتعامل الاجتماعى المألوف بين النسانيس. فالقردة تقضى جزءًا كبيرًا من النهار فى عناية بعضها ببعض، وهو ما يفعله إنسان الغابة بقدر أقل. فيقوم حيوانٌ بفحص فرو رفيقه بحرصٍ بأصابعه ليلتهم كثيرًا مما يجده من المواد الصغيرة المختلطة. فهو يدفع بما عثر عليه إلى فمه بيده تارةً، وتارةً أخرى من خلال القرض مباشرةً، بعد أن يكون قد لعق خصلة الشعر من خلال القرض المباشر بالأسنان. ويتطلب الحدث حركاتٍ متسقة تمامًا، مرتبطًا بالقدرة على التكيف والتقارب. وقد أسىء تفسير هذا السلوك عادةً، على أنه محاولة لاستبعاد القمل. فالواقع يدل على أنه من النادر وجود حشراتٍ بالحيوانات الحبيسة، مثلها مثل التى تعيش حرةً. أما ثمار التفتيش فتكون - كما اتضح عادةً - قشورًا صغيرة انفصلت عن الجلد، وأجزاء صغيرة من البشرة وإفرازاتٍ وأشواكًا وغير ذلك من الأجسام الغريبة. فإن لم تنشغل القردة بشيءٍ آخر فإنها تتجه على الفور إلى التفتيش فى الفرو، فما إن يولّد قرْدٌ ما حتى ينشغل بإغراء الشعر، ويستمر هذا الإغراء مؤثرًا وقويًا فى كل مراحل نموه. وفى حالة افتقاده لرفيقٍ فإن قرْدًا صحيح البدن يبدأ فى تفتيش جلده بنفسه. وقد يقوم اثنان أو ثلاثة من القردة بفحصٍ جماعى لفرو رفيقٍ لها. أما الأخير فإنه عادةً ما يستسلم لذلك، فيما عدا إبداء بعض الحركات التى تيسر الفحص للآخرين. إلا أنه أحيانًا ما ينشغل هو أيضًا فى نفس الوقت بفحص جلد واحدٍ ممن

يقومون بفحص جلده. ولا تقصر القردة عنايتها هذه على النوع الذى تنتمى إليه. فكل ما له شعر، سواء كان كائنًا حيًا أو جمادًا، يمكن أن يغريها بالفحص. فتقوم على الفور بفحص شعر إنسانٍ صديقٍ لها. ويبدو أن لهذا الحدث معنى جنسيًا، ليس فقط بسبب التدليك الخفيف المثير لأعصاب الجلد، بل أيضًا لأنه يكون أحيانًا مصحوبًا بفعلٍ جنسى مباشر. ولهذا السبب، وبسبب تكرار ذلك، قد يكون مسموحًا لنا باعتبار رد فعل الفحص وإغراء الشعر كعناصر تخدم التماسك الاجتماعى لمجموعةٍ بدائية.

بعد قراءة هذا الاستعراض الذى قدمه تسوكرمان نفسه لن تكون هناك مفاجئة أكثر من التفسير الجنسى لهذا الحدث⁽⁷⁴⁾. وهو يذكر أن العديد من القردة تهتم بجلد أحدها فى وقتٍ واحدٍ. ويشدد على أهمية فرو كل نوعٍ بالنسبة لها. وفى فقرات لاحقة بكتابه يختلق اختلافًا بين فحص الجلد وبين الحدث الجنسى. وهنا يذكر هو أن الحيوانات فى وقت الراحة من الجنس، أى عندما تبدى اهتمامًا أقل نحو ذلك، فإنها تتجه إلى القضبان لى تحك شعرها بها. وهو لديه الكثير مما يقال عن أهمية الجلد المبكرة بالنسبة لطفل القردة. فالتجربة الأولى للحواس التى يمر بها القرد هى تجربته مع الشعر. فبعد المولد مباشرة تقوم الأم بضم طفلها إلى صدرها لتتحسس أصابعه وتمسك بشعر جلدها. ويبحث هذا الحيوان طويلاً عن حلمة الضرع حتى يجدها، ولا تساعده الأم فى ذلك.

"فى الشهر الأول يعيش هذا على اللبن فقط، وتحمله الأم معها إلى كل مكان، فإذا جلست الأم فإن الطفل يصر على تشبته بها، فتتعلق أقدامه بشعر بطنها وقد دفن يديه فى جلد صدرها. وإذا ما تجولت فإن طفلها يظل متعلقًا بها هكذا، على نحو ما من التعلق على شكل أنشودة. وعادةً ما يتعلق بها من دون مساعدة ما، لكن أحيانًا ما تحيطه الأم بذراعيها وهى تسعى على ثلاثة أرجل، فإذا جلست احتضنته أحيانًا بذراعيها. والصغير يبدى اهتمامًا بالفرو. وهو يحك جلد الأم. وقد تابعتُ قردًا صغيرًا، بلغ شهرًا واحدًا من عمره، وهو يفتش بيديه بحركاتٍ غريبة فى جلد أبيه الذى كان يجلس بجوار أمه مباشرة. وأحيانًا ما كان الاضطراب يبدو على الأم من جراء الطريقة التى يمسك بها الطفل بجلدها، فتقوم بإبعاد يديه وقدميه عنها. ومسلك الأم المرضعة لا يتغير عندما يموت صغيرها، فهى تظل محتضةً إياه فى صدرها حاملةً إياه معها فى كل مكان. ففى

البداية لا تبعده عنها مواصلة التفتيش في جلده كما كانت تفعل في أثناء حياته. وتقوم بفحص العينين والفم والأذنين. وخلال بضعة أيام نلاحظ تغيراً في سلوكها، فالجسد الذى بدأ في تحلل بسيط صار متدلياً من ذراعها. ولا تضمه إلى صدرها مرة أخرى إلا عند تجوالها. ورغم مواصلتها للعناية به وقرض جلده فإنها غالباً ما تضع الجسد حينذاك على الأرض ليقطع التحلل شوطاً إلى الأمام ويبدأ جفاف الجثة، إلا أن فحصها للجلد والفرو يستمر. ويبدأ تساقط أوصال الجسد الجاف. لنرى غياب ساق أو ذراع، وسرعان ما يصير هذا إلى قطعة من الجلد الجاف، لتقوم الأم بنزع بعض أوصال جسده، ولم نعرف إن كانت تبتلعها. ثم يبدو أنها تنازلت من تلقاء نفسها عما تبقى من أشلاء جافة".

وتؤثر القردة الاحتفاظ بكثير من الجلد والريش. فأنثى صغيرة من قردة البابون بلغت عاماً واحداً من عمرها، خضعت لمتابعة تسوكرمان، كانت تقبض على قط صغير وقتلته وظلت محتفظةً بالجسد طوال النهار بين ذراعيها وهى تمشط جلده، ودافعت عن نفسها بعنفٍ عندما انتزع منها مساءً. وفي حديقة حيوان لندن يمكن متابعة القردة وهى تقوم بفحص ريش العصافير التى قتلتها. وقد ورد أيضاً في أعمال أدبية حالة فأرٍ مقتول وكيف قامت أنثى قردٍ على رعايته على نفس النحو من الاهتمام مثل القردة الصغيرة التى ذُكرت سابقاً.

وقد استنتج تسوكرمان من كل ما استعرضه أن هناك ثلاثة عناصر في مسلك الانفعال الأمومى لا بد من الفصل بينها. ففي العنصرين الأولين تكمن أهمية اجتماعية، أى في الانجذاب القوى نحو الأم الذى يشعر به صغيرها. أما العنصر الثالث فهو رد فعل الرضيع الذى تخفف حركته توتر أعصاب صدر الأم. إن رد الفعل نحو الجلد هو عنصرٌ أساسى في السلوك الاجتماعى على إطلاقه. وأهميته يمكن استنتاجها من خلال مواصلة قردٍ صغير التشبث بفرو أمه بعد موتها. والأمر لديه لا يتعلق بهذا الجسد تحديداً وإنما بجثة كل قردٍ ميت آخر، الذى يتبين فيها أنها تهدئ من روعه إلى حد كبير.

"إن الطبيعة الأصلية للإحساس بالجلد يمكن استنباطها بصعوبة من إمكانية تحديد شخصيتها ومن خلال تنوع حالاتها التى يمكن أن تكون عليها. فالريش والفئران والقطط الصغيرة يمكن أن تكون عامل جذب بنفس القدر. ويرجح أن حدث العناية الاجتماعى الخاص بفحص الجلد يمكن إرجاعه إلى رد فعل طبيعى

نحو الجلد، وأن رد الفعل يظل أحد الروابط الأساسية التى تساعد على التماسك بين القردة".

بعد هذه الاقتباسات الكثيرة من كتابه، فإنه لن يكون هناك من شك في أن المؤلف نفسه لن ينظر بعين الجدية إلى التفسير الجنسى المتخصص عن عناية القردة بالجلد وغيرها. فقد اتضح له أن الفرو يمثل للقردة جاذبية خاصة في مختلف ظروف حياتها. فالمتعة التى يوفرها لها الانشغال بالجلد لا بد من أن تكون من نوع فريد تمامًا، فهي تحصل عليها من الموتى والأحياء ومن فصيلتها ومن الأغراب بنفس القدر. وهذا الأمر لا علاقة له بحجم الحيوان الذى تتم العناية به. فأهمية الصغير للأم تكون بنفس قدر أهمية الأم للصغير. فالمحبون والأصدقاء لديهم نفس الحرص تجاه بعضهم البعض. ويمكن أن تهتم عدة حيوانات بالعناية بفرو واحد مفرد. إن هذه المتعة هى إحدى متع الأصابع. وهى لا يمكن أن تشبع من الشعر. فيمكنها قضاء ساعات وساعات في تمشيط الشعر بأصابعها. إنها الحيوانات نفسها التى صارت حيويتها وقدرتها على القفز مضرب الأمثال.

وطبقًا لنص صينى قديم فإن القردة لا تملك معدة، فهى تهضم غذاءها من خلال قفزها هنا وهناك. وهنا يبدو النقيض لصبرها على هذه العناية هو الأكثر لفتًا للنظر. ففى أثناء ذلك تصبح الأصابع أكثر حساسية، وتنمى أطراف الشعر الكثيرة إحساس لمسٍ خاصًا، حتى إنه يختلف في جوهره اختلافًا تامًا عن الحس اللفظ للقبض والإمساك. وليس بوسعنا تصور وظائف الإنسان المجهولون، وكذلك القردة، قد قاموا بمثل هذه الممارسات لفترات طويلة، فمن دونها لم تكن أصابعنا لتحقيق هذا الإنجاز. فمنذ بداية هذه العناية كانت قد تعلمت الكثير من الممارسات، سواء كان ذلك في البداية بحثًا عن حشرات أو تجارب طفل القردة المبكرة مع شعر ثدى أمه. وكان لمثل هذا الحدث وحدته ومعناه، وهو ما نراه اليوم مكتملاً في كل القردة، فمن دونه لم يكن لنا أن نتعلم التشكيل، أو الحياكة، أو نربت على كتف أحد. فمعه بدأت الحياة الشخصية لليد. ومن دون التوافق الذى كونته الأصابع في أثناء ذلك والذى ترسخ من خلال تفتيش الفرو، ما عرفنا علامات الأشياء، ولا اللغة أيضاً.

الأيدى وميلاد الأشياء

كانت اليد التى نهلت من الماء هى الوعاء الأول. فأصابع كلتا اليدين التى تتداخل فى بعضها البعض هى التى كونت السلة الأولى. ولعل التطور الحافل لكل ألوان أشغال التصفير، بدءاً من قتل الخيوط وحتى أعمال النسيج، كانت بدايته من هذا المنطلق. فقد تولد الشعور بأن الأيدى هى التى قادت تحولات حياتها. وليس كافيًا أن هذا الشكل أو ذاك كان موجوداً بالفعل فى محيط الحياة. فقبل محاولة الإنسان المبكرة لتشكيلها كانت يدها هى التى أدت بالفعل هذا الدور فى البداية. فقشور الثمار الفارغة، كقشور جوز الهند كانت موجودة منذ زمنٍ بعيد، وكان يتم الإلقاء بها جانبًا بلا مبالاة. وكانت الأصابع أولاً بما لديها من قدرة على تشكيل حيز فارغ من أجل النهل من الماء، هى التى صنعت الصحن الأجوف. ولعلنا نتخيل أن وجود الأشياء فى مفهومنا لها كأدوات ذات قيمة فى حياتنا لأننا صنعناها بأنفسنا، يبرهن على آيات رمزية صنعتها الأيدى. ولا بد من لفت الانتباه إلى نقطة محورية بالغة الأهمية، وهى أن نشأة لغة الإشارة إلى الأشياء تعانق مضمونها مع تلك الرغبة فى تكوين شكل لتلك الأدوات ذاتها، وكان هذا قبل أن يشرع الإنسان فى تجريب ذلك على أرض الواقع بزمنٍ بعيد. فما كان يؤديه المرء بيديه صار له شكل بالفعل بعد أن أداه بيديه بدرجة كافية من التمثيل لها. فالكلمات والأدوات صارت إفرارًا لذلك ونتيجةً لتجربة حياتية واحدة، أى تمثيل اليد لها. فكل ما اكتسبه الإنسان فى وجوده وقدراته، وكل ما صنع حضارته لم يكن له وجود إلا بعد أن استوعبته وامتصته حواسه من خلال عمليات تحول. كما لعب الوجه واليدان دور الوسيط الحقيقى لهذا الامتصاص. وقد استمر ازدياد أهمية كل منهما مقارنةً ببقية أعضاء الجسد. أما حياة الأيدى الخاصة بها وفقاً لباكورة أصل هذا المعنى فقد استمرت بوضوح فى لغة الإشارة.

نزعة التدمير لدى القردة والإنسان

نستطيع اعتبار نزعة التدمير لدى القردة والإنسان من ممارسات الصلابة لليد والأصابع. فاستخدام الفروع جعلت القرد المتسلق ويديه على علاقة وثيقة مع المادة التى كانت أكثر صلابة منها. وللتغلب على الفروع كان على القرد أن

يمسك بها، لكنه كان عليه أيضًا أن يعرف كسرهما. كما كان اختبارا للتربة مثل اختبارا للفروع والأغصان، فما كان ينكسر بسهولة، كان أرضًا غير صالحة لحركته. كان اختبار عالم الفروع هذا مواجهةً دائمة مع صلابتها، وظل اختبارها ضرورة، حتى بعد اكتساب خبرة كبيرة في ذلك. أما العصا التي صارت أول سلاح للإنسان فقد مثلت بداية سلسلة أدوات صلبة، بعد أن قارنها الإنسان بيديه، وهو ما فعله مع الأحجار فيما بعد. أما الثمار ولحم الحيوان فكانت رخوةً، وكان الفرو أكثر رخاوةً. ففى حك ولمس الجلد مارس الإنسان حساسية الأصابع، كما وظفت الصلابة في كسر كل شيء. وهكذا وجدت نزعة اليد لتدمير أشياء جديدة لا تتوجه مباشرةً للفريسة والقتل. فقد كان ذلك أسلوبًا آليًا خالصًا، وهو ما استمر في اختراعات الآلات. وقد كمن خطرهما الكبير في مسالمتها. فتجردها من نية القتل أفسح المجال أمامها لممارسة كل الأفعال. فما تمارسه يبدو كأن الأيدي اختصت وحدها بالدقة وقدرة الإنجاز لمنفعتها السلمية. ورغم ارتباط نزعة الأيدي للتدمير بنية القتل الحقيقية، تلك النزعة التي تطورت إلى نظام تدمير آليٍّ معقد، فإن البعض يتذرع بالجزء الآلي لفعل التدمير، وهو ما نعتبره أمرًا بلا معنى وغريبًا، فلم يكن هناك في الواقع من قال بأن كل هذا حدث من تلقاء نفسه. ففى الشأن الخاص والمحدود يعايش كل منا الحدث بنفسه، إذا ما استخدمنا الأصابع بشكل عفوى في كسر أعواد ثقاب أو طوى الأوراق. إن التفرع المتنوع الذى يدلل على هذا الدافع الآلى للتدمير لدى الإنسان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتطور تقنية أدواته. ورغم أنه تعلم السيطرة بالحديد على الحديد، إلا أن اليد ظلت المرجعية الأخيرة لكل شيء. فقد نتجت عن سماتها الخاصة تبعات هائلة. فقد كانت هى التى حددت مصيرنا في مجالات عديدة.

القتلة يظلون الأقوياء دائمًا

لم يكن ليبد بإجمالها فقط هذا الأثر النموذجى والفعال، بل كان ذلك للأصابع أيضًا، كلٌ منها على حدة، خاصةً السبابة المنبسطة، التى كانت قد اكتسبت هذه الأهمية. فالإصبع كان قد تدبب وتسلىح بالظفر (فهو الذى) ما أعطى في البداية شعورًا بالوخز المؤثر. فالخنجر الذى تطور عن الإصبع صار أكثر صلابةً وجدةً. وجاء السهم مزيجًا من الإصبع والطائر، وكان لا بد من أن يكون خفيفًا وطويلاً

ينفذ إلى مدى أعمق، ويستطيع الطيران على نحوٍ أفضل. أما المنقار والشوكة فقد اتخذتا هيئة الإصبع، فصار المنقار خاصًا بالداجنة بينما صارت العصا المدببة رمحًا، فهي الذراع التي انتهت بإصبعٍ وحيد. والتركيز هو الذى جمع بين كل أسلحة هذا النوع فى (على) نقطة واحدة. فبعد أن خز الشوك الصلب الكبير الإنسان قام هذا بسحبه من جسده بأصابعه، فصار الإصبع المؤدى لدور الشوكة ناقلًا للوخز، هو الأصل السيكولوجى لهذا النوع من الأسلحة. فمن كان يوخز صار يخز بإصبعه أو بالأصابع الاصطناعية التى تعلم صناعتها شيئًا فشيئًا. وأدوات الأصابع لا تمنح السلطة قوةً متساوية، كما تختلف قيمة هذه القوة اختلافًا شديدًا. فبعضها يمثل قيمةً ثمينةً فى إطار الحياة الواقعية لجماعة من البشر. أما المكانة الأسمى فقد احتلتها دائماً تلك التى تستهدف القتل. فما يمكن استخدامه فى القتل هو ما يُخشى منه، وأما ما لا يُستخدم فى القتل مباشرةً فيكون مفيداً فقط. وكل أدوات اليد الماثبة لم تُفَضَّ بهذه، التى هى مقتصرة عليها، إلا إلى الخضوع. أما الأخرى التى تخدم القتل فإنها تستحوذ على السلطة.

عن سيكولوجية تناول الطعام

يُعتَبَر كل ما يؤكّل مادةً للسلطة. فالجائع يشعر بفراغٍ داخله. وحتى يقضى على الشعور بالضيق الذي يسببه له هذا الفراغ الداخلي فإنه يملأه بالطعام، وكلما امتلأ كان شعوره أفضل، ليرقد ممتلئاً ثقيلاً مرتاحاً للغاية من كان لديه القدرة الأكبر على التهام الطعام، إنه هو هذا الملتهم الأكبر. وهناك جماعاتٌ بشرية ترى في مثل هذا الملتهم الأعظم زعيماً لها. هؤلاء يوقنون أن شهيته التي تم إرضاؤها بمثابة ضمان لهم ضد المعاناة من الجوع، وهم يعتمدون على بطنه الممتلئ، كأنه جعلهم جميعاً مشاركين في امتلائه. وهنا تبرز بوضوح الصلة بين الهضم والسلطة.

ففى أشكال أخرى للحكم تتراجع قليلاً مكانة الملتهم الجسمانية الأكبر، فلم يعد ضرورياً أن يصير هذا أكثر بدانةً من الآخرين ليصل إلى حجم البرميل. لكنه يأكل وينادم النخبة المختارة من محيطه وما يقدمه إليهم هو ملكٌ له. فإن لم يكن هو الملتهم الأقوى فلا بد من أن يكون ما يختزنه هو الأكبر، فهو يملك معظم الماشية ومعظم الغلال. فهو بوسعه دائماً - عندما يشاء - أن يكون الملتهم الأعظم لكنه ينقل هذا الرضا بالامتلاء إلى بلاطه وإلى من يشاركونه مائدته، ويحتفظ فقط بحقه في أن يكون أول من يتناول أى شيءٍ من الطعام. فهية الملك

كملتهم أعظم لم تتلاش تمامًا. فمن حينٍ لآخر كان واحدًا من هؤلاء الملوك: يخادع بهذه الهيئة أتباعه الفرحين. أما الجماعات صاحبة النفوذ فكانت تنغمس في هذا كجماعات كاملة، ويضرب المثل بالرومان في هذا المجال. فكل سلطة عائلية وطيدة كانت تقوم باستعراض ذلك في الغالب. وفيما بعد حاكها من تسلموا السلطة بعدهم وتفوقوا عليها. وقد تفاقمت إمكانية الإسراف والمقدرة على ذلك في بعض المجتمعات إلى حد أنها رسخت كمجونٍ رسمي لتدمير له طقوسه، وأشهرها كان ما يطلق عليه هنود شمال غرب أمريكا "حفل البولتاتش". فهو يتكون من مجلس احتفالي كبير للجماعة كلها معًا يصل ذروته في سباق التدمير بين الزعماء. فقد كان كل زعيم يتباهى بمقدرته بما يستطيع تدميره من ممتلكاته. فمن دمر القدر الأكبر كان هو الفائز ليحرز المجد الأعظم من بين الجميع. لكن الاتهام الأعظم كان سابقًا على تدمير حياة الحيوان المملوكة لأولئك. فتولد الانطباع بأن هذا التدمير - في أثناء حفل البولتاتش - قد نُقل إلى جزءٍ من الممتلكات التي لا تؤكل. فالزعيم بوسعه أن يتباهى على نحوٍ أعظم عندما يكون لديه ما يأكله ليوفر على نفسه المتاعب الجسدية. وقد يكون من المفيد أن نلقى نظرة على متناولي الطعام بشكلٍ عام ومدى سمو أو تواضع مكانتهم. وهو ما يتبدى في اقتسامهم للطعام. فالطعام الموجود في صحنٍ جماعي هو من نصيبهم جميعًا، فكلٌ منهم يأخذ لنفسه شيئًا من هذا الطعام على أن يتناول الآخرون حظهم من ذلك أيضًا. فالإنسان يحرص على توخي العدل بالأبداً يجوز على حق غيره. وأقوى الصلات هي تلك الصلة الناشئة بين الأكلين، عندما يأكلون من حيوانٍ ما، من جسدٍ كانوا يعرفونه كذلك في أثناء حياته، أو من رغيفٍ خبزٍ واحدٍ. إلا أن الاحتفاء البسيط البادى في مسلكتهم لا يمكن تفسيره من خلال ذلك فقط، فحرصهم يعنى كذلك أنهم لن يأكلوا بعضهم البعض. ورغم أن هناك ضمانًا لذلك بين البشر الذين يعيشون معًا دائمًا في جماعةٍ فإن ذلك لا يتأكد إلا في لحظة تناول الطعام. فالناس يجلسون معًا ويكشرون عن أسنانهم ليأكلوا. وفي هذه اللحظة الحرجة بالذات لا تظهر شهوة أكل الآخر. فالإنسان يحرص على ذاته من أجل ذلك، ويحترم في الآخرين كذلك مسلكتهم المتحفظ الذي يلتزم هو به أيضًا. وبالنسبة للأسرة فإن الرجل يساهم بنصيبه في مسألة الغذاء، بينما تقوم الزوجة بإعداد الطعام له. وينشأ الرباط الأقوى بينهما لتناول الرجل بانتظام الطعام الذي أعدته زوجته. وأكثر العلاقات الأسرية حميميةً تتبدى في أثناء تناول أفرادها

طعامهم معًا. إن الذكرى التى تحتفظ بها العين هى صورة اجتماع الوالدين والأبناء حول مائدة الطعام. فكل شىء يبدو كأنه تمهيدٌ لهذه اللحظة. وكلما تكرر ذلك وانتظم زاد شعور الآكلين - معًا - بالأسرة. والانضمام إلى هذه المائدة يماثل عمليًا الانضمام إلى الأسرة. وربما تكون هنا الفرصة الأفضل لقول شىء عن أساس وقلب هذه المؤسسة، أى الأم.

فالأم هى من تمنح جسدها نفسه كغذاء، فهى من قامت بتغذية الطفل داخلها، ثم قدمت له اللبن فيما بعد، وهذا التوجه يستمر على نحو أقل وطأةً لأعوام كثيرة. وتظل أفكارها، ما دامت أمًا، تدور حول التغذية التى يحتاجها الطفل النامى. وليس من الضرورة أن يكون ابنها، فقد يُنسب إليها ابنٌ غريب عنها، فبوسعها تبنى أحد الأطفال. وهى شغوفة بمنح الطفل الطعام ورؤية أنه يأكل وأن يمثل الطعام شيئًا بالنسبة له. فتموه وزيادة وزنه هما هدفها الثابت. ويبدو سلوكها إثارةً، وهو أيضًا يكون هكذا حتى لو اعتبرها المرء وحدةً منفصلة، إنسانًا بحد ذاتها. لكنها فى الواقع تكون قد صارت لها معدتان وسيطرت على كليهما. فهى تهتم بالمعدة الجديدة، مثل المعدة النامية، أكثر من اهتمامها بمعدتها هى، وهو ما يحدث فى أثناء فترة الحمل. وفى إطار مفهوم الهضم كحدثٍ مركزي للسلطة، كما يتبدى هنا فعلينا إثبات ذلك بالنسبة للأم، إلا أن الأم توزع هذا الحدث على أكثر من جسد. وما يجعل هذا الحدث فى مجمله أكثر وضوحًا وأكثر وعيًا هو حقيقة أن الجسد الجديد، الذى تمده بالغذاء، منفصلٌ عن جسدها. وتكون سلطة الأم على الابن فى مراحل المبكرة سلطةً مطلقة، ليس فقط لأن حياته متعلقة بها، لكن لأنها هى نفسها تشعر بالضغط القوى لممارسة هذه السلطة. وتركيز نشوة السلطة هذه على مخلوق صغير يعطيها شعورًا بالتفوق تصعب رؤيته فى علاقة أخرى عادية بين البشر. إن استمرار هذه السلطة التى انشغلت بها الأم ليل نهار، وعدد التفاصيل الرهيب التى تكونت منها، منحتها كملاً وإحكاماً لا يتوافران لأى نوعٍ آخر من السلطة. فهى لا تقتصر فقط على إصدار الأوامر التى لا يمكن فهمها على الإطلاق. إنها تعنى أن المرء يستطيع الاحتفاظ بكائنٍ ما أسيرًا، حتى وإن كان فى هذه الحال يعمل لمصلحته، فهو، من دون أن يدري، ينقل إلى غيره ما كان قد تلقاه هو نفسه قبل عشرات السنين قسرًا، واحتفظ به كغصة غير قابلة للتدمير، وذلك من أجل نمو شخص ما، وهو ما لا ينجح فيه الحاكم إلا من خلال عملية الترقية المصطنعة. ويعتبر

الابن بالنسبة للأم تجسيداً موحداً لسمات النبات والحيوان. فهو يمنحها التمتع بحقوق سامية يمارسها المرء عادةً كلاً على حدة، فهو يمارسها نحو النبات حينما يدعه ينمو كما يشاء له، أو يمارسها نحو الحيوان الذى أسره وسيطر على حركته. فينمو الطفل تحت رعاية أمه مثل بذرة النبات، ويتحرك وهو مثل حيوان مستأنس يقوم بتنفيذ الحركة التى تسمح له هى بها، وهو يخلصها من بعض غصات الأوامر القديمة التى ينوء بحملها كل مخلوق متحضر، فيصير بخلاف ذلك إنساناً، إنساناً جديداً وكاملاً، يقر دائماً بالعرفان للجماعة التى غذته بذلك. وليس هناك شكل من أشكال السلطة يتمتع بمثل هذه القوة.

وهناك سببٌ مزدوج يجعلنا لا نرى دور الأم هذا، فكل إنسان يحتفظ فى ذاكرته بتراجع هذه السلطة وتقدم حقوق الأب السامية، هذه الحقوق الملفتة، لأن لم تكن على هذا النحو من الأهمية. وتستقر الأسرة على نحوٍ راسخ متين حينما تحرم آخرين من طعامها، ويكون مبررها الطبيعى لاستبعاد الآخرين هم هؤلاء الذين تقوم الأسرة على رعايتهم. وسمو هذا المبرر يتضح لدى الأسر التى من دون أبناء ولا تملك أدنى استعداد لتقاسم طعامها مع آخرين. فالأسرة المكونة من فردين هى أكثر الأشكال ازدياداً أنتجتها البشرية، لكن حتى الأسر التى لديها أبناء، فإنها تجعلنا نشعر غالباً بأنها تستغل الأبناء كمجرد وسيلة دعاية للأنانية الأكثر تجرداً. فالإنسان يدخر من أجل أبنائه ويدع الآخرين يجوعون. وفى الواقع فإن ما يفعله (المرء) الإنسان طوال حياته إنما يفعله من أجل نفسه. وإنسان العصر الحديث يميل إلى تناول طعامه بالمطاعم، مستقلاً بمائدته فى إطار صحبته الصغيرة التى يدفع هو الحساب لها. ولما كان الآخرون بالمطعم يفعلون الشيء نفسه فإن المرء يرتاح فى أثناء تناول الطعام إلى وهم أن الجميع لديهم ما يأكلونه. وهذا الشعور الرهيف لا يستمر طويلاً، فالشبعان يستطيع العثور على جوعى فى أى مكان. والمتناول للطعام يزداد وزناً ويشعر بأنه صار أكثر ثقلًا. وفى هذا يكمن الفخر. وهو لا يستطيع النمو أكثر من ذلك، إلا أن بوسعه أن يزداد وزناً فى الحال وأمام أعين الآخرين. ولهذا السبب يحب هو تناول الطعام معهم ليكون هذا بمثابة سباق الرهان فى الامتلاء. والرضا عن الامتلاء، تكون التخممة هى النقطة الأخيرة التى يسعى المرء للوصول إليها. وحقيقة الأمر أن هناك من يخل من ذلك، فالغنيمة الكبيرة كان يجب استهلاكها بسرعة، فكأن المرء يأكل قدر ما يستطيع ليحمل مخزونه داخل نفسه. أما من يأكل وحده فيكون قد

استغنى عن المكانة التى يحققها بذلك فى أعين الآخرين. فشحذ الأسنان من أجل تناول الطعام، عندما يكون الإنسان بلا صلبة، وحيداً، لا يترك انطباعاً لدى أحد. أما فى إطار جماعة فالمرء يرى كيف يفتح كل فرد فمه، فبينما يستخدم المرء أسنانه يكون قد سمح بذلك للآخرين.

ولا يستحب أن يكون الإنسان بلا صلبة، ففى هذا يكمن شىء من الزهد لا يريد إظهاره. فالتناول الجماعى للطعام هو ما يوفر الفرصة الطبيعية للتباهى بذلك. وقد جرت العادة فى عصرنا الحديث على أن يأكل الإنسان بضم مغلق، وبذلك يكون التهديد الضئيل الكامن فى فتح الفم المعتاد، قد اختزل فى أوهن صوره، إلا أن مسلكنا المسلم هذا ليس قديماً، بعد أن صار الإنسان يأكل بالشوكة والسكين، أى بأداتين يستطيع استخدامهما بسهولة. ولكل احتياجاته الشخصية أمامه، وفى حالاتٍ ما يحملها معه.

وما تعرف بالقضمة فى اللغات الحديثة هى ما يقطعها المرء ويضعها بفمه متحفظاً. أما الضحك فيُعتبر سلوكاً فجاً لأن الإنسان يفتح فمه فتظهر أسنانه فى أثناء ذلك. وقيئاً كان الضحك ينطوى قديماً على فرحة الإنسان بالفريسة أو الطعام الذى بدا له مضموناً. أما الإنسان الذى يسقط فهو يذكر بالحيوان الذى كان يستهدفه وأسقطه بنفسه. فكل سقوطٍ يثير ضحكاً يذكر بعجز من سقط، فبوسع الإنسان إن شاء أن يعامل من سقط كغنيمة. لكن المرء لن يضحك إذا ما انتهت الأحداث السابقة إلى التهامه لغنيمة بال فعل. فهو يضحك عوضاً عن أكله. فالطعام الفالت هو الذى يثير الضحك، وهو الشعور المفاجئ بالتفوق على حد قول هوبز، إلا أنه لم يُضف أن هذا الشعور لا يتصاعد إلى ضحك إلا إذا غابت تبعة هذا التفوق. فمفهوم هوبز لا يصل إلا إلى نصف الحقيقة، فهو لم يتعمق إلى أصلها الحيوانى القديم، ربما لأن الحيوانات لا تضحك، لكن الحيوانات لا تدع أى طعامٍ يفلت منها إذا وصلت إليه وكان لديها رغبة حقيقية فى ذلك. فالإنسان وحده هو الذى تعلم تعويض عملية الالتهام بكاملها من خلال عمل رمزى. فيبدو أن الحركة المنطلقة من الحجاب الحاجز التى يعبر الضحك عنها، التى هى سلسلة من حركات البلع الداخلية للجسد، ليست سوى تعويضٍ مختزل عنها. والضباع هى الوحيدة بين الحيوانات التى تصدر صوتاً يحاكي ضحكنا فى الواقع، وهو ما يمكن أن نصطنعه إذا ما وضعنا أمام الضباع شيئاً من طعام ثم سحبناه

بسرعة قبل أن تتمكن من التقاطه. وليس هناك حاجة للتذكير بأن طعام الضباع في الخلاء يتكون من جيفة، وبوسعنا تصور كيف اختطف كثيرٌ مما تشتت فيه أمام أعينها.

الباقي على قيد الحياة

الباقى على قيد الحياة

إن لحظة البقاء على قيد الحياة هى لحظة القوة، ففيها يحل الرضا محل الفرع من الموت، لأن شخصاً بعينه لم يكن هو من مات، فبينما يظل هذا موجوداً فى الحياة يكون شخصٌ آخر قد سقط. ويبدو الأمر كأنه صراعٌ انتهى، وكأن هذا هو من قضى على الميت بنفسه. ففى صراع البقاء على قيد الحياة يكون كلُّ عدوٍّ للآخر، فتتضاءل كل الآلام قياساً على هذا النصر الجوهرى. لكن من المهم أن الباقى على قيد الحياة يواجه بمفرده واحداً أو العديد من الموتى، فهو يرى نفسه وحيداً وهو يشعر بنفسه وحيداً، فإذا ذُكرت القوة التى منحت هذه اللحظة فإنه لا ينسى أبداً أنها نتجت عن تفرد حده. إن كل هدفٍ للإنسان فى الخلود ينطوى على شىءٍ ما من حب البقاء على قيد الحياة، فهو لا يبغي فقط الوجود هنا، بل إنه يبغي الوجود هنا عندما لا يكون الآخرون موجودين هنا. فكلُّ ينشد العمر الأطول وأن يعرف ذلك، فإذا لم يعد موجوداً هنا فلا بد من أن يعرفه الآخرون باسمه. إن القتل هو أدنى أشكال البقاء على قيد الحياة، فمثلاً قتل الإنسان الحيوان الذى اقترب هو منه فرقد هذا أمامه عاجزاً فيستطيع تمزيق أوصاله وتقسيمه كغنيمةٍ يلهتها هو وذووه، فعلى نفس النحو يبغي الإنسان قتل إنسانٍ يقف فى طريقه ويواجهه ويصمد أمامه كعدوٍ، فهو يريد إسقاطه ليشعر أنه ما زال موجوداً هنا، أما الآخر فلم يعد هنا، إلا أن

هذا الآخر لا ينبغي أن يختفى تمامًا، فحضوره الجسدي كجثة أمر ضروري لهذا الشعور بالنصر، فحينئذٍ يستطيع المرء أن يفعل به ما شاء، بينما الآخر يكون عاجزاً عن أي رد فعل، فهو راقدٌ وسيظل راقداً للأبد، فلن ينهض أبداً ثانية، فيستطيع المرء نزع سلاحه عنه، ويستطيع انتزاع قطعة من جسده والاحتفاظ بها دائماً كرمز للنصر. إن لحظة المواجهة هذه مع المقتول تمد "الباقى على قيد الحياة" بنوعٍ فريد من القوة لا تُقارن بأية قوة أخرى، ولن تتكرر هذه اللحظة التى تستدعى حدوث ذلك ثانية. لأن "الباقى على قيد الحياة" يرى الكثيرين من القتلى. فإن كان فى معركة فإنه سيكون قد رأى كيف سقط حوله آخرون قتلى، وهو من خاض المعركة عن عمدٍ ووعيٍ تامين من أجل الانتصار على الأعداء، وكان هدفه المعلن هو قتل الكثير منهم قدر الإمكان وأنه لن ينتصر إذا لم ينجح فى ذلك. فهو يرى النصر والبقاء على قيد الحياة على قدم المساواة. لكن لا بد من أن يدفع المنتصرون أيضاً ثمن ذلك، فمن بين الموتي يوجد كثيرون من ذويهم، فساحة المعركة هى التى تجمع الصديق بالعدو، وكوم الموتي هو كومٌ مشترك، وأحياناً ما يتطور الأمر على نحوٍ يصعب معه التمييز بين موتى كلا الطرفين، فقد تجمع أشلاءهم مقبرةً جماعية ليقف "الباقى على قيد الحياة" سعيداً محظوظاً فى مواجهة هذا (الكوم) الجمع من الموتي المحيط به. أما الحقيقة الهائلة فهى أنه ما زال محتفظاً بحياته بينما فقدها كثيرٌ من الآخرين الذين كانوا معه، فهما هم الموتي يرقدون عاجزين وهو يقف بينهم على استقامة عوده، كأن لسان حاله يقول إن المعركة نشبت حتى يبقى هو على قيد الحياة، وقد أخطأ الموت ليصيب غيره. ولم يحدث ذلك لأنه تجنب الخطر، فقد واجه الموت وهو وسط رفاقه، أما هم فقد سقطوا، وأما هو فقد عاش وتباهى بذلك. إن هذا الشعور بالتسامى على الموتي يعرفه كل من شارك فى حروبٍ ما. وقد يتوارى ذلك خلف الحزن على الرفاق، فهؤلاء قليلون، أما الموتي فهم كثيرون. فالشعور بالقوة فى مواجهة هؤلاء حياً هو فى جوهره أقوى من أى حزنٍ، وهو شعورٌ بالانتقاء من بين كثيرين كان مصيرهم قدراً محتوماً. وعلى نحوٍ ما يشعر هذا بأنه الأفضل، لا لشيء إلا لأنه ما زال هنا. فهو الذى أثبت جدراته بذلك ولذا بقى حياً، فإذا ما وُفق فى البقاء على قيد الحياة يكون فى الغالب بطلاً. إنه أقوى، فهو ما زال يحمل بداخله حياةً أطول بعد أن اصطفته القوى العليا.

الباقي على قيد الحياة والحصانة

إن جسد الإنسان مجردٌ وقابلٌ للإصابة، وهو معرضٌ لأي هجومٍ بسبب رقة بنيانه، فما يبعدة هو عن جسده بشتى السبل يمكن أن يصيبه عن بعدٍ، فيمكن لسيفٍ أو رمحٍ أو سهمٍ أن يخترق جسده، ورغم أنه اخترع الدرع والسلاح وشيد حول نفسه جدرانًا وقلاعًا، إلا أن ما يفضلُه من كل إجراءات الأمان هو شعوره بالحصانة. وقد حاول الحصول على ذلك بسبيلين مختلفين، وهما على طرفي نقيض تمامًا، ولذلك جاءت نتائجهما مختلفة. وقد حاول أولاً إبعاد الخطر عن نفسه فوضع بينه وبين الخطر مساحةً شاسعة لا يدركها البصر ليحمي نفسه من خلالها، فبذا يكون على نحوٍ ما قد وقى نفسه المخاطر ومنع الخطر، أما السبيل الآخر، وكان بمثابة فخره الدائم وهو ما تذخر به كل مراجع التراث القديم وتمجده، فهو بحثه عن الخطر ومواجهته، وجعله يدنو منه قدر الإمكان وراهن بكل شيءٍ على الحسم. ومن كل المواقف المتاحة انتقى حالة احتمال التعرض للموت ودفع بها إلى أقصى حدٍّ، واتخذ من شخصٍ ما عدوًا وتحداه، وربما كان هذا عدوًا له بالفعل، وربما كان هو الذي اختاره لذلك. ومهما كانت نتيجة ذلك فإن نيته قد اتجهت إلى أقصى حدود الخطر والمبادرة بالحسم. إنه

سبيل الأبطال، فما الذى يريده البطل؟ وإلى ماذا يهدف حقًا؟ إن المجد الذى كللت به كل الشعوب أبطالها هو مجدٌ متين لا يطويه النسيان ما دامت أعمالهم أدت إلى تغيير أو تعاقبت بسرعةٍ كافية. هو مجدٌ يغطى على دوافع هذه الأعمال الخفية والأكثر عمقًا. والبعض يفترض أن هدف هؤلاء كان المجد فقط، لكننى أعتقد أنهم قد اهتموا أساسًا بشيءٍ آخر، أى شعورهم بالحصانة الذى يكتسبونه بسرعةٍ مطردة. فالحالة الجليلة التى يعيشها البطل بعد تجاوزه المخاطر هى حالة "الباقى على قيد الحياة"، فالعدو كان يستهدفه مثلما كان هو يستهدف العدو. وبهذا الهدف المعلن المباشر واجه كل منهما الآخر. فأما العدو فقتل، وأما البطل فلم يصبه شيءٌ فى أثناء النزال، ليلقى بنفسه فى خضم القتال التالى وهو مترعٌ بالحقيقة الهائلة فى بقاءه على قيد الحياة. ولأنه لم يصب بشيءٍ من قبل فإنه لن يصيبه شيءٌ، فمن نصرٍ إلى نصر ومن عدوٍ قتل إلى آخر يشعر هو بأمانٍ أعظم، فتتنامى حصانته، فهى دائمًا أفضل تسليحًا والشعور بها لا يعادله شعورٌ آخر، فإن منع الخطر الذى كمن بعيدًا عنه يكون هو الذى أرجأ الحسم. أما من يواجه الحسم فهو من يبقى بالفعل على قيد الحياة. ومن يواجه ذلك مرةً أخرى، أى من يكسب لحظات البقاء على قيد الحياة، هو هذا الذى يحصل على الشعور بالحصانة، فلا يكون بطلاً إلا إذا حصل عليها، وهو الآن يُقدّم على كل شيءٍ بعدما لم يعد هناك ما يخشاه. وقد تميل إلى أن إعجابنا به يزداد ما دام لديه ما يخشاه، لكن هذا هو مفهوم المتأمل الواقف خارج إطار الحدث، فالشعب يريد بطله محصنًا، لكننا أمام حالةٍ لا ينضب فيها معين أعمال البطل على الإطلاق. فهو قد ينشغل بالصراع مع حزمةٍ كاملة من الأعداء فيهاجمهم رغمًا عن ذلك، على ألا يفلت منهم فحسب بل إنه يقتلهم جميعًا، وبذا يكون قد رسخ كذلك شعوره بالحصانة فى آن واحد. وكان واحدٌ من أقدم رفاق جنكيز خان وأكثرهم إخلاصًا قد سأله: "أنت الحاكم، والناس يدعونك بطلاً، فما هى بشائر الفتح والنصر التى تفتح الطريق أمامك؟" فأجابه جنكيز خان: "قبل أن أرتقى عرش المملكة كنت أركض بجوادى على طريقٍ ما، وهناك صادفت ستة رجال كانوا قد نصبوا لى كمينًا بقصد قتلى فى أثناء عبور أحد الجسور. وعندما اقتربت أشهرت سيفى وهاجمتهم فأمطرونى بوابلٍ من النبال، إلا أن السهام كافةً أخطأت هدفها ولم يمسنى أىٌ منها. أما أنا فقتلتهم جميعًا بسيفى وواصلت سرى سالمًا، وفى طريق العودة مررت بالموضع الذى قتلت فيه الرجال الستة، فإذا بجيادهم

السة تُركت ضالةً بلا صاحب فأخذتها جميعًا إلى داري".⁽⁷⁵⁾ إن هذه الحصانة في
النزال ضد سةٍ من الأعداء في آنٍ واحد رآها جنكير خان بشارةً أكيدة بالفتح
والنصر.

الشغف بالبقاء على قيد الحياة

إن الرضا عن البقاء على قيد الحياة، الذى هو نوعٌ من اللذة، يمكن أن يستحيل ولعًا خطرًا لا يمكن إشباعه. وهو ينمو في أحوالٍ خاصة به. فكلما زاد حجم كوم الموق، بينما وقف أحدهم حيًا بين هؤلاء، وكلما تكررت معاشة هذا لمثل ذلك الكوم، صار الاحتياج للبقاء على قيد الحياة أشد قوةً وإلحاحًا. ومسار حياة الأبطال والمرتزة يرمز إلى نشوء نوعٍ من الإدمان لا يمكن النجاة منه، والتفسير المعتاد لذلك يقول: إن مثل هؤلاء الناس لا يستطيعون التنفس إلا في المخاطر. فالوجود بغير خطرٍ يعتبرونه وجودًا خاملًا تافهًا، فهم لا يستطيعون تذوق حياةٍ سلمية، فلا ينبغى الاستهانة بإغراء الخطر، إلا أننا ننسى أن هؤلاء لا يخوضون المغامرات وحدهم وأن هناك آخرين معهم صرعهم الخطر، فما يحتاجه هؤلاء حقًا ولا يمكنهم الاستغناء عنه هو تجدد الرغبة مرارًا في البقاء على قيد الحياة. إلا أنهم في سبيل تلبية رغبة الخطر لا يواجهون الخطر دائمًا بأنفسهم، فليس هناك من يستطيع وحده قتل أناسٍ بما يكفيه، ففى ساحات القتال يجتمع عددٌ بلا حصرٍ ممن ينشد الهدف نفسه، وعندما يكون هذا قائدهم المسيطر على تحركاتهم، وعندما تكون المعركة هى نتيجة لقرار شخصٍ بمفرده فإنه يستطيع أن ينسب كذلك النتيجة لنفسه، تلك النتيجة التى تحمّل

مسئوليتها عن كل القتلى، فقائد الميدان لا يحمل اسمه الفخرى بلا مقابل، فهو من يصدر الأمر مرسلًا رجاله إلى الموت في مواجهة العدو، فإن انتصر كانت ساحة الموتى كلها من نصيبه، فهؤلاء سقطوا من أجله وأولئك سقطوا لأنهم كانوا ضده، ومن نصر لنصر يبقى هو من بينهم جميعًا على قيد الحياة. أما الانتصارات التي يحتفل بها فهي أدق تعبير عما كان يقصده، وقيمتها تُقاس بعدد القتلى. ويكون النصر هزليًا إذا ما استسلم العدو من دون قتال حقيقى وإذا كان عدد القتلى مجتمعين قليلًا. ويكون الانتصار مجيدًا إذا استبسل العدو في الدفاع عن نفسه وكان انتزاع النصر شاقًا وكان ثمنه عددًا كبيرًا من الضحايا.

"كل أبطال الحروب وقادة الميدان تفوق عليهم يوليوس قيصر⁽⁷⁶⁾ بأنه حقق العدد الأكبر من المعارك وقتل العدد الأكبر من الأعداء. ففي أقل من عشر سنوات خاض خلالها الحرب ضد شعوب الغال، واكتسح ثمانية مدينة وأخضع لسلطانه ثلاثمائة من أجناس الشعوب، وهزم في حروب عديدة ثلاثة ملايين من البشر، فقتل من هؤلاء في أثناء الحرب مليونًا وأسر العدد نفسه". ترجع هذه الشهادة إلى بلوتارخ الذى لا يمكن أن ننسب له غرامه بالحروب أو تعطشه للدماء، وهو واحدٌ من أكثر المفكرين إنسانيةً على مر العصور، لذا اكتسبت هذه الشهادة قيمتها، فهي على نحو بالغ من الاتزان. فقد حارب قيصر ضد ثلاثة ملايين من الأعداء فقتل مليونًا وأسر مليونًا. وقد تفوق عليه فيما بعد قادة المغول وغير المغول. لكن هذه الشهادة من العصر القديم تدل على السذاجة، إذ تنسب كل ما جرى للقائد وحده، فالمدن التى اكتسحت والشعوب التى أخضعت وملايين الأعداء الذين هُزموا وقُتلوا وأسروا، كل هذا يُنسب لقيصر، وهذه ليست سذاجة من بلوتارخ الذى عبر عنها على هذا النحو، إنما هى سذاجة التاريخ، فقد اعتدنا ذلك منذ تقارير حروب ملوك مصر القديمة. وحتى يومنا هذا لا يكاد شئٌ يكون قد تغير من ذلك. هكذابقى قيصر المحظوظ على قيد الحياة من بين أعداء كثيرين. ولا يُعتبر ذكر إحصاء الخسائر الشخصية أمرًا فظًا في هذه الأحوال، فالناس تعرفها لكن الرجل الكبير لا يهتم بها، وهى لم تكن جسيمةً في حروب قيصر مقارنةً بقتلى الأعداء، لكنه على أية حال بقى هو على قيد الحياة من بين بضعة آلاف من الرومان وحلفائهم، فهو لم يخرج من ذلك خالى الوفاض وكانت هذه التوازنات المتباهية تنتقل من جيلٍ لجيل. ففي كل منها كان أبطال الحروب الأشداء راضين عن أنفسهم. أما بقاؤهم على قيد الحياة من

بين الجموع الغفيرة فكان ولعًا دفعوا به إلى حد النزق. وقد بدا حكم التاريخ هو هدفهم حتى قبل أن ينجحوا في تحقيق ذلك. ومن استوعب هذا النوع من البقاء على قيد الحياة على نحو أفضل فقد احتل المكانة الأسمى والأكثر أمانًا. إن هذا النوع من المجد في نهاية المطاف لا يرتبط بالأحرى بالنصر أو الهزيمة بل بالعدد الهائل من الضحايا. وهنا قد نتساءل عن شعور نابليون الحقيقي في أثناء حملته على روسيا.

صاحب السُّلطة كباقي على قيد الحياة

إن من يُبعد الخطر عن جلده بكل السبل يمكن اعتباره نموذجًا لصاحب السُّلطة المصاب بجنون العظمة، فبدلاً من تحديه للخطر ومواجهته، وبدلاً من اضطراره إلى حسم ذلك في معركةٍ ما، وهو حسمٌ قد لا يكون في صالحه، فإنه يبحث عن وسيلةٍ لإبعاد الخطر عنه، وذلك بالحيلة والحكمة. فهو سوف يخلق مساحةً شاغرةً حول نفسه يستطيع من خلالها رؤية وملاحظة دنو الخطر ليتدبر الأمر، وهو يفعل ذلك في محيطه كله، فهو يعي أنه يتعامل مع كثيرين يستطيعون كلهم التوجه ضده في آنٍ واحد، فيظل الخوف من الحصار متيقظاً داخله، فالخطر يحيط به وليس أمامه فقط، بل أعظم الخطر هو ما يأتيه من خلفٍ حيث لا يستطيع الانتباه إليه بالسرعة الكافية، ولهذا كان له عيونٌ في كل مكانٍ حتى لا يفوته أدنى صوت لحركةٍ قد تنطوى على نوايا عدائية. إن الموت هو ما يشمل كل المخاطر بالطبع. لكن المهم هو معرفة السبيل الصحيح لمواجهته. إن السمة الأولى والحاسمة لصاحب السُّلطة هو حقه في الحكم بالحياة أو الموت. وهو لا يسمح لأحدٍ بالوصول إليه، فمن يحمل إليه رسالةً أو من يدنو منه فإنه يتم تفتيشه بحثاً عن أسلحةٍ. وهكذا يُبعد الموت عن نفسه بأسلوبٍ منظم، أما

هو نفسه فبوسعه إصدار الحكم بالموت ويمكنه إصداره متى وكيفما تراءى له. وحكمه بالإعدام يتم تنفيذه دائماً، إنه العلامة المميزة لسلطته، وهو أمرٌ مطلق ما بقى حقه في الحكم بالموت حقاً خالصاً له. ففي الواقع لا يخضع له سوى من يقر له بالحق في قتله. أما التجربة الأخيرة في الطاعة، التي تحسم الأمر، فإنها تبقى كما هي دائماً. وهو يقوم بتربية جنوده على نوعٍ من الاستعداد المزدوج، فهم يُرسلون من أجل قتل أعدائه وهم مستعدون لتلقى الموت من أجله هو، لكن كذلك كل رعاياه الآخرين من غير الجنود يعرفون أنه بوسعه قتلهم في أى وقت. فالفرع الذى ينشره حوله هو حقٌ له، وبهذا الحق يتم تمجيده إلى أقصى حدٍّ حتى يصل ذلك حد عبادته في حالاتٍ متطرفة. فالله نفسه قد أصدر حكمة بالموت على جميع البشر وعلى كل من سيولدون بعدهم، وموعد تنفيذ ذلك يخضع لمشيئته، ولا يخطر ببال أحدٍ الاعتراض عليه، فهذا أمرٌ محال. إلا أن أصحاب السلطة في الدنيا لا يتمتعون بمثل هذا السلطان الإلهي، فهم لا يعيشون للأبد ويعرف رعاياهم أن لحياة هؤلاء نهايةً، بل إن هذه النهاية يمكن التعجيل بها. فالسلطة كذلك تفضي إلى مثل هذه النهاية، ومن يشق عصا الطاعة يكون قد أعلن تصديه للسلطة، كما أنه ليس هناك حاكمٌ يشعر باطمئنانٍ دائمٍ لطاعة شعبه له. فما دام هؤلاء مسلمين له بحقه في قتلهم فإن بوسعه النوم بأمان، أما إذا اعترض أحدهم على حكمه فإنه يكون بذلك قد عرض الحاكم للخطر، وحركة هذا الشعور بالخطر لا تهدأ داخل صاحب السلطة. وفيما بعد، عندما يتطرق الحديث عن طبيعة "الأمر"، سوف يتضح اطراد مخاوفه كلما ازداد تنفيذ أوامره، ولا يمكن أن تسكن شكوكه إلا إذا ضرب لها مثلاً في الواقع، فمن أجل تهدئة هذه الشكوك يقوم بعملية إعدامٍ من دون أن يكون للضحية علاقةٌ كبيرةً بذلك. وهو يحتاج من حينٍ لآخر لعمليات إعدامٍ تتزايد كلما اطردت وتيرة شكوكه. أما أكثر من يأمن جانبهم من رعيته، أى الأكثر كمالاً، فهم من ماتوا في سبيله. فكل عملية إعدامٍ، يكون هو مسئولاً عنها، تمنحه مزيداً من القوة، فعلى هذا النحو يكتسب هو قوة بقاءه على قيد الحياة. وليس بالضرورة أن يكون ضحاياه قد تمردوا عليه في الواقع، لكن كان بوسعهم التمرد عليه، ويتحول خوفه - ربما بأثر رجعى فيما بعد - نحو أعداءٍ حاربوا ضده فأدانهم، فتم قتلهم وبقي هو على قيد الحياة. فأما حقه في إصدار حكمٍ بالموت فيصير سلاحاً بيده مثل أى سلاح، بل إنه أكثر تأثيراً. وغالباً ما رأى حكامٌ برابرة وشرقيون أهميةً كبيرةً في تكديس

مثل هؤلاء الضحايا في أقرب مكانٍ حتى يكونوا أمام أعينهم دائماً. وحتى إذا ما تعارضت التقاليد مع مثل هذا التأكيد كان أصحاب السلطة يحافظون على هذه الفكرة. وقد روى عن الإمبراطور الروماني دوميتيان روايةً غريبةً من هذا النوع. فكانت الوليمة التي ابتدعها ولم تتكرر مرةً أخرى على هذا النحو قد كشفت، على أوسع نطاق، الطبيعة المتجذرة لسلطان مصاب بجنون العظمة⁽⁷⁷⁾: "في مناسبةٍ أخرى كان دوميتيان قد جهز سمرًا لأعرق الشيوخ وأنبل الفرسان على النحو التالي: أعد مكانًا طلي كل شيء فيه باللون الأسود القاتم، السقف والجدران والأرض. وأعد مخيمًا قفرًا باللون نفسه أقيم على أرضٍ عارية. ثم دعا ضيوفه ليلاً دون أتباعهم. وبجوار كل واحدٍ منهم وضع لوحًا على هيئة شاهد قبرٍ حمل اسم الضيف، وأضيف إلى ذلك قنديلٌ صغير كالذي يُعلّق بالمقابر. ثم دخل المكان صبيّةً أقوياء البنية، عرايا، تم طلاؤهم أيضًا باللون الأسود مثل الأشباح، فقاموا بأداء رقصةٍ عند أقدام الضيوف. ثم قُدِّم بعد ذلك للضيوف الطعام الذي يُقدِّم عادةً كأضحياتٍ من أجل أرواح الموتى، وكان كل شيء أسود في صحافٍ من اللون نفسه، فأخذ كل ضيفٍ يرتعد، واستبد به الخوف متوقعًا أن رأسه سوف يُجتزَّز في أية لحظة. وفيما عدا دوميتيان كان الجميع قد أصابهم الخرس، فساد صمتٌ مميت كأن الناس انتقلوا إلى عالم الموتى بالفعل. أما القيصر فصار يتحدث بصوتٍ عالٍ عن الموت والمذابح وفي النهاية أطلق سراحهم. لكنه قبل ذلك كان قد أبعَد عبيدهم الذين كانوا بانتظار هؤلاء في البهو، ثم أمر لضيوفه بعبيدٍ آخرين لا يعرفونهم، ودعاهم للرحيل في عرباتٍ أو محفات. وهكذا كان قد شحَنهم بأكبر قدرٍ من الخوف. فما إن وصل كل ضيفٍ داره ليتنفس الصعداء، حتى كان وصله رسولٌ من القيصر، وبينما كان كلٌّ منهم قد أيقن أن ساعته حانت كان قد أُدْخِلَ إليه ذلك اللوح من الفضة، كما حمل آخرون أشياء مختلفة، من بينها تلك الصحاف من المعدن الثمين التي قُدِّمت لهم في أثناء الوليمة. وفي نهاية المطاف ظهر لدى كل ضيفٍ ذاك الصبي الذي كان قد انتظره كشبح روحه إلا أنه بدا حينئذٍ نظيفًا مزدانًا بالحلى. وهكذا صاروا يتسلمون هدايا بعد أن قضوا ليلتهم في خوف قاتل".

كانت هذه هي "وليمة الجثث" كما أسماها الشعب. فقد كان الرعب المقيم الذي أَسْر به القيصر ضيوفه قد أدى بهم إلى فقدان النطق فلم يتحدث سواه، وكان حديثه عن الموت والقتل، فبدأ الأمر كأنهم موتى وهو الوحيد الباقي على

قيد الحياة. وبهذه الوليمة كان قد وحد كل ضحاياه، الذين كان عليهم أن يعتبروا أنفسهم كذلك. وقد بدا هو متنكرًا في هيئة مضيف إلا أنه في الحقيقة كان "هو الباقي على قيد الحياة" وقد تحدث إلى ضحاياه المتنكرين في هيئة ضيوف، لكن حالة الباقي على قيد الحياة هذه لم تنتج عن تراكمٍ فحسب بل إنها تنامت على نحوٍ ماهر. فرغم أنهم كانوا كالموتى فإنه كان بوسعه دائمًا قتلهم. وقد كانت مسألة البقاء على قيد الحياة قد ملكت عليهم كيانهم، فإذا ما أطلق سراحهم يكون قد عفا عنهم، إلا أنه جعلهم يرتعدون ثانيةً عندما أسلمهم لعبيدٍ غرباء، فعندما وصلوا ديارهم بعث إليهم ثانيةً برسَل موت، فجاء هؤلاء إليهم بهدايا، بل بأكبر هدية، أي حياتهم، فكان بوسعه على نحوٍ أو آخر أن ينقلهم من الحياة إلى الموت ويعيدهم مرةً أخرى إلى الحياة. فتلذذ بهذه اللعبة عدة مرات، فهي التي تمنحه الشعور الأسمى الذي لا يمكن تصور ما هو أعلى منه.

نجاه فلافيوس يوسيفوس

يذكر تاريخ الحرب بين الرومان واليهود - التي نشبت في أثناء فترة شباب دوميتيان - حادثًا يكشف بوضوح تام طبيعة الباقي على قيد الحياة. وكانت قيادة الجانب الروماني بيد فسبسيان والد دوميتيان، وقد حدث في أثناء هذه الحرب أن عسكر فسبسيان قد وصلوا إلى مرتبة القياصرة. وكان اليهود منذ زمنٍ قد تمردوا ضد حكم الرومان. وعندما انفجر تمردهم ضدهم على نحوٍ خطر تم تعيين بعض اليهود كقيادة في أجزاء مختلفة من البلاد. وكان على هؤلاء جمع الناس للحرب، وإعداد المدن لوضع جيد حتى تكون لها فرصة النجاح في الدفاع عن نفسها ضد الفرق الرومانية التي ستصل قريبًا على وجه اليقين.

كان يوسيفوس ما زال شابًا لم يكد يتم الثلاثين من عمره حين تسلم قيادة مقاطعة الخليل، فأبدى حماسًا بالغًا في تنفيذ مهمته. وفي كتابه "تاريخ الحروب اليهودية" وصف العوائق التي كان عليه مجابهتها، أي الفرقة بين المواطنين، والخصوم الذين دبروا مكائد ضده وجمعوا قواتٍ خاصة بهم، وامتناع مدنٍ عن الاعتراف بقيادته أو استقلال أخرى ثانيةً بعد فترةٍ من الزمن. لكنه بجهدٍ مدهش كوّن جيشًا وإن كان مسلحًا تسليحًا سيئًا وأعد قلاعًا لملاقاة الرومان الذين قدموا أيضًا بقيادة فسبسيان ومعه ابنه تيتوس الذي كان في عمر يوسيفوس. وفي روما كان نيرون ما زال قيصرًا. أما فسبسيان فكان قد اكتسب شهرة قائدٍ محنك بعد

تفوقه في ساحات معارك عديدة. فكان أن اقتحم الخليل وحاصر يوسفوس مع جيش اليهود بقلعة جوتاباتا. وقد دافع اليهود ببسالة متناهية وعرف يوسفوس الموهوب كيف يردع كل هجوم، فتكبد الرومان خسائر جسيمة. وقد استمرت المقاومة طيلة سبعة وأربعين يومًا. وفي النهاية نجح الرومان في الاقتحام عن طريق الحيلة - فقد كان الجميع نائمين فلم يلحظوهم إلا مع بزوغ النهار- فحل يأس رهيب باليهود فصاروا ينتحرون في جماعات كبيرة وأفلت يوسفوس. أما مصيره بعد احتلال المدينة فأودَّ عرضه بكلماته هو، لأنه لا يوجد، حسب معرفتي بالآداب العالمية، مثل هذا التقرير عن "باقٍ على قيد الحياة"، فقد قدم يوسفوس بإدراكٍ مذهل وفهمٍ لجوهر "الباقى على قيد الحياة" وصفًا لكل ما قام به للإفلات من ذلك، ولم يمثل صدقه عبثًا عليه لأنه كتب هذه الشهادة بعد أن صار ينعم بالكرم الشديد لدى الرومان⁽⁷⁸⁾:

"بعد سقوط جوتاباتا قام الرومان بالبحث عن عدوهم اللدود بين الأموات وفي أركان كل الملاجئ الخفية بالمدينة، وكان دافعهم إلى ذلك هو شعورهم بالمرارة نحو يوسفوس من ناحية، ومن ناحية أخرى كان اعتقال القائد أملهم المنشود الذى يكاد يكون بمثابة نهاية الحرب، إلا أنه استطاع بعد سقوط المدينة أن يتسلل من بين صفوف الأعداء كأنه حظى بتأييد إلهي ليقفز إلى جب عميق كان يمتد إلى جوار كهف واسع لا يمكن رؤيته من أعلى. وفي هذا المخبأ صادف أربعين رجلًا من عليّة قومه كانوا قد تجهزوا بمؤونة تكفيهم عدة أيام. ولما كان الأعداء قد احتلوا الموضع المحيط كله فإنه كان يختبئ نهارًا ليصعد ليلاً متوخيًا سبيل الفرار مستطلعًا نقاط الحراسة. فلما كانت الحراسة مشددةً بسببه على المكان من كل جانب حتى لا يفكر في الهروب سرًا فإنه كان يعود ثانيةً إلى الكهف. وقد واصل استطلاعاه على هذا النحو ليومين وفي اليوم الثالث أفشت سره امرأة تم أسرها بعد إقامتها بالكهف. وفي الحال أرسل فسبسيان اثنين من المفوضين بمهمة وعد يوسفوس بالأمان حال مغادرته للكهف. فمضى إليه المفوضان فخاطباه وضمننا له حياته، إلا أنهما لم يستطيعا إحراز أى نجاح لديه لأنه كان يعرف ما ينتظره من جراء الخسائر المختلفة التى ألحقها بالرومان. ولم تستطع رقة حاشية المفوضين تغيير رأيه عن المصير الذى ينتظره، ولم يستطع هو الفكاك من مخاوفه بأنهم يسعون فقط لإغرائه بالخروج من أجل إعدامه. وفي النهاية أرسل فسبسيان مبعوثًا ثالثًا تمثل في شخص الرسول نيكانور الذى يعرفه يوسفوس جيدًا، بل إنه

كان صديقًا قديمًا له. وقد جاء هذا وشرح تجارب الرومان المعتدلة مع أعدائهم المدحورين، وأعلمه أيضًا أن قادة الجيش لا يكرهونه بقدر ما هم معجبون ببسالته، وأن القائد العام ليس لديه النية على الإطلاق لإعدامه، فقد كان بوسعه تنفيذ هذه العقوبة ضده من دون الاتصال به، بل إنه قد حزم أمره على منحه الحياة كرجلٍ شجاع. إضافة إلى أنه لا يخطر ببال أحد أن يقوم فسبسيان بإرسال صديق يوسيفوس إليه بنية الخداع مستترًا بقناع الصداقة ليحنث بوعده، وبنفس القدر لم يكن له، أي نيكانور، أن يخدع صديقه، إلا أن فشل نيكانور في التوصل إلى حل مع يوسيفوس أثار ذلك حنق الجنود فقرروا قذف النيران داخل الكهف، إلا أن قائدهم منعهم من ذلك لأنه كان يريد الحصول على الرجل حيًا. وبينما كان نيكانور قد أثر فيه وأخذت القوة المعادية تطلق سيلًا من التهديدات انتعشت في ذاكرة يوسيفوس تلك الرؤى العظيمة التي أوحى فيها الله إليه بنكبة اليهود القادمة، وبالمصير الذي سيؤول إليه مستقبل القياصرة الرومان. وكان يوسيفوس يحسن تفسير الأحلام، فهو الكاهن ابن الكاهن الخبير بحكمة الكتب المقدسة، كما كان بوسعه تأويل الإشارات مزدوجة المعنى التي أوحى بها الله. وفي هذه اللحظة تحديدًا حلت به الرحمة الإلهية ليرى بوعيه الباطن تلك الأحلام المفزعة التي داهمته قبل قليل، فتوسل في صمتٍ إلى الله بالدعاء التالي: "إن كنت قدرت انhezam شعب اليهود وأنت خالقهم، وكان كل الفرع من نصيب الرومان، واصطفيتني بكشف الغيب، فها أنا أمد يدي إلى الروم وأبقى على قيد الحياة، فأدعوك لتكون شاهدي بأنني لم أمض إليهم خائنًا وإنما عبدٌ لأمرك". وبعد هذا الدعاء أعطى موافقته لنيكانور، فلما أدرك اليهود الموجودون معه بالمخبا أنَّهُ قرر الاستسلام لوعد الأعداء أحاطوا به في جمعٍ كثيف، وأمطروه باللوم مذكرين إياه بعدد اليهود الذين ماتوا في سبيل الحرية مؤمنين بوعوده لهم، أما هو صاحب الشهرة الواسعة بالإقدام ف يريد الآن الحفاظ على حياته كعبد، وهو من يعرف الكثيرون فطنته يأمل رحمة هؤلاء الذين استبسل في النضال ضدهم، فهل نسي نفسه تمامًا؟ فسوف يبكيه قانون الآباء وسوف يخذل هو الله إن كان أثر الحياة إلى هذا الحد، بعد أن أصابه فوز الروم بالعمى، أما هم فسيظلون متمسكين بكرامة شعبهم وأعلنوا استعدادهم للفناء معه فيقتل كقائد لجيش اليهود طواعية، فإذا أبى مات قسرًا كخائن، وشهروا سيوفهم في وجهه مهددين بقتله إن استسلم للروم فخشاهم يوسيفوس، لكنه رأى في ذلك خيانةً إذا ما مات

قبل إعلان ما كلفه الله به، وتحت وطأة ورطته حاول استخدام مبرراتٍ عاقلة ضدهم، فقد يكون الموت في الحرب أمرًا جميلًا لكن طبقًا لأعراف الحرب يكون ذلك على يد العدو المنتصر، أما أحط دركات الجبن فهي قتل النفس، فقتل النفس يعارض الجوهر الأعرق لكل ما هو حي، وهو في الوقت نفسه إثمٌ يُقترف ضد الله الباري. فالله هو من منح الإنسان الحياة وعلى الإنسان التسليم له بنهايتها، فأما من يقتلون أنفسهم بأيديهم فإن الله يمقتهم وينزل عقابه بنسأهم، فلا يجدر بهم أن ينسبوا إلى الله ما لحق بهم كبشر من مصائب وعليهم ألا يقيموا عثراتٍ في سبيل النجاة إن أتيحت لهم النجاة. فليس عارًا أن يبقوا على قيد الحياة وهم من أثبتوا بسألتهم بأعمالهم بما فيه الكفاية، فإن لقوا الموت فليكن ذلك على يد المنتصرين، أما هو فلم يخطر بباله المضى إلى أعدائه فلا يكون سوى خائن، لكنه يأمل خيانة الروم له لينها بقتلهم إياه رغم وعودهم، ولسوف يعاقبهم الله لحنثهم بالوعد فيكون ذلك عزاءً له أعظم من النصر. هكذا أفرغ يوسيفوس ما في جعبته لإقناع رفاقه بالعدول عن الانتحار، إلا أن اليأس كان قد أصابهم بالصمم تجاه كل الاحتمالات بعد أن وهبوا أنفسهم للموت منذ زمنٍ بعيد، فلم يكن لكلامه إلا مضاعفةً لمرارتهم وقد رموه بالتخاذل وأحدقوا به من كل جانبٍ بسيوفٍ مشهورة، وبدا الجميع على أهبة قتله في الحال. وبدافع الورطة المطردة داخله دعا أحدهم باسمه، مسددًا إلى عيني آخر نظرة القائد، ممسكًا بيد الثالث، وقد غير وجهة نظر الرابع بالرجاء، وهكذا أفلح في كل مرة أن يدفع عن نفسه السيف القاتل. فقد كان مثل الحيوان البري المحاصر الذى يتجه دائمًا نحو هذا الذى يبدى إشارة للهجوم عليه. فلما كانوا هم أنفسهم - في أثناء هذه الورطة الشديدة - ما زالوا يقدرّون مكانة القائد فقد أصيبت أذرعهم بالشلل، فسقطت الخناجر من أيديهم وأغمد كثيرون طواعيةً سيوفهم التى شهروها ضده. ورغم حالة اليأس إلا أن يوسيفوس لم يتخل عن تفوقه بل زاد على ذلك معتمدًا على عناية الله مراهنًا على حياته، فقال لرفاقه ما يلى: "إن كنا قررنا الموت، وتمسكنا بهذا القرار فلنجعل القرعة هى التى تحسم من منا سيقوم بقتل الآخر، فكل من أصابته القرعة قُتل بيد من يعقبه، وهكذا سوف تصيب قرعة الموت الجميع فلا يضطر أحدٌ إلى قتل نفسه لأن ذلك سيكون إثمًا عظيمًا إن نَدِمَ الأخير فجأةً لينجو بحياته بعد موت رفاقه"، فكان أن أعاد هذا الاقتراح الثقة إليهم مرةً أخرى. وبعد إعلان الجميع رضاهم

عن ذلك شارك هو نفسه بالاقتراع. وهكذا صار على من تصيبه القرعة أن يدع طواعيةً أمر قتله لمن يعقبه، وقد أدركوا أن القائد سيموت على هذا النحو بعد أن رأوا أن الموت مع يوسيفوس أفضل من الحياة. وفي نهاية المطاف لم يتبق سوى يوسيفوس من خلال صدفةٍ ربانيةٍ أو رعايةٍ إلهيةٍ ومعه رفيقٌ آخر⁽⁷⁹⁾، ولأن القرعة لم تكن قد أصابته كان هو آخر من سيلطخ الدم يديه بقتل رفيقه، وبذلك استطاع إقناع رفيقه بالاستسلام للرومان، وبذلك يكون قد أنقذ حياته. هكذا خرج يوسيفوس من حربهِ ضد الرومان سالمًا كما خرج من المواجهة مع رفاقه ليقوده بعد ذلك نيكانور إلى فسبسيان. وقد تدفق الناس جميعًا ليشاهدوا قائد اليهود فتزاحمت الجموع حوله وارتفع صياحهم، فسعد البعض بأسره بينما كان بعضٌ آخر يصرخ مهديدًا حينما شق آخرون طريقًا بالقوة كي يروه على نحوٍ أفضل من أقرب موضع، أما من وقفوا بعيدًا فكانوا يصرخون: "الإعدام للعدو" أما الأكثر قربًا فكانوا يتذكرون أعماله متعجبين من تبدل مصيره. ولم يكن من بين الضباط من لم يتأثر بمنظره رغم كل ما كانوا يضمرونه نحوه من مرارة. وعلى وجهٍ خاص كان النبيل "تيتوس"، المكافئ له في العمر، قد غلبه الإعجاب بمثابرة يوسيفوس على النكبة كما تعاطف مع حادثة سنة، فتقرب إلى أبيه بكل ما أوتي من تأثيرٍ عليه، إلا أن فسبسيان وضعه تحت حراسةٍ مشددةٍ للغاية بعدما نوى إرساله إلى نيرون. فلما سمع يوسيفوس بذلك طلب لقاءً مع فسبسيان على انفراد. فأمر القائد العام بخروج كل الحاضرين فيما عدا ابنه وصديقين مقربين، إلا أن يوسيفوس تحدث إليه على هذا النحو: "فسبسيان! إن كنت تظن أنني لست سوى أسيرٍ وقع في يدك فأنت مخطئٌ، فإننى أمثل بين يديك رسولاً أوحى إليه بأمور خطيرةٍ، فعلىَّ، أنا يوسيفوس، إبلاغك أمر الله. وإن لم يكن الأمر كذلك فقد كان علىَّ، أنا العالم بأعراف اليهود، أن أقتل كقائدٍ عسكري، فهلا شئت إرسالى إلى نيرون؟ لماذا؟ فخلفاؤه الذين سوف يسبقونك إلى العرش لن يبقوا طويلاً، فأنت نفسك، فسبسيان، سوف تصير إمبراطوراً قيصرًا وسيخلفك ابنك هذا! فلتحكم قيد أغلالى على نحوٍ أشد واحتفظ بى لما بعد من أجل نفسك، لأنك سوف تصبح قيصرًا ومولى ليس علىَّ فحسب وإنما على اليابسة والماء وكل فصيل البشر. فلتجعل علىَّ أكثر الحراسة شدةً، فإن كنتُ جددتُ باسم الله افتراءً فلتعذمنى على نحوٍ أستحقه!". لم يصدق فسبسيان هذا الكلام بدايةً ونزع إلى اعتباره حيلةً من يوسيفوس يحاول بها إنقاذ حياته، إلا أنه شيئًا فشيئًا أخذ

يؤمن بذلك، فقد أيقظ الله نفسه فيه فكرة العرش، ولمح إليه كذلك بإشاراتٍ عن توليه الحكم في المستقبل كما أدرك أيضًا أن أسيره كان قد تنبأ بأمورٍ أخرى. وكان أحد أصدقاء فسبسيان الذي حضر اللقاء السرى قد عبر عن دهشته من أن يوسيفوس لم يتنبأ بتدمير "جوتاباتا" ولا بوقوعه في الأسر: أما ما يزعمه فقد يكون ربما ثرثرة لا معنى لها لا يبغي من ورائها سوى كسب رضا عدوه، فرد يوسيفوس على ذلك بما قاله لأهل جوتاباتا بأن المدينة سوف تسقط بعد سبعة وأربعين يومًا، أما هو فسيتم أسره حيًا. فكان أن أرسل فسبسيان سرًا من يحصل على معلوماتٍ من الأسرى في هذا الشأن، فلما ثبتت صحة ما قاله يوسيفوس بدأ يؤمن كذلك بنبوءته لشخصه. ورغم أنه أبقى على يوسيفوس بالسجن مصفدًا بالأغلال فإنه خلع عليه رداءً فاخرًا وأشياء ثمينة أخرى، وأعقب ذلك بالمعاملة الحسنة وقد كان الفضل في كل ذلك يعود إلى تيتوس.

ينقسم ما رواه يوسيفوس إلى ثلاثة فصول. ففي مرةٍ كان قد أفلت من مذبحه قلعة جوتاباتا المحتلة، فمن لم ينتحر من المدافعين عن المدينة قتله الرومان وأسروا الآخرين، أما يوسيفوس فقد نجا بالكهف بجوار الجب، وهناك لقي أربعين رجلًا وصفهم هو نفسه بالنبل الذين كانوا جميعًا "باقين على قيد الحياة" مثله وقد تزودوا بمؤونةٍ أملًا في الاختباء هناك بعيدًا عن أعين الرومان حتى يجدوا سبيلًا للفرار. إلا أن مكان يوسيفوس، الذي جدَّ الرومان في أثره، قد أفشت سره امرأةٌ ما لهؤلاء، وبذا انقلب الموقف رأسًا على عقب ليبدأ الفصل الثاني وهو الأكثر إثارةً في التقرير كافة. وهو ما يمكن اعتباره فريدًا من نوعه بفضل صراحة ما شهد به البطل، فقد وعده الرومان بالإبقاء على حياته، فحالما صدق هو ذلك سقط عداؤهم له. وهكذا يكون الأمر هنا في مغزاه الأعمق هو التسليم بصدق الوعد، فكان أن خطر بباله في لحظةٍ مواتية رؤية كانت حذرته من اندحار اليهود، وقد اندحروا على نحوٍ ما فقط بالقلعة التي كان يتولى قيادتها وكان الفوز حليف الرومان، أما الرؤية التي أعلمته بذلك فكانت من الله، وبعون الله أيضًا عرف سبيله إلى الرومان. فاعتمد على الله ليتوجه نحو أعدائه الجدد، أي اليهود ممن كانوا معه بالكهف، وقد شاءوا الإقدام على الانتحار حتى لا يسقطوا في أيدي الرومان. أما هو قائداهم الذي حرضهم على القتال فكان لزامًا عليه أن يكون أول المتقبلين لهذا النوع من النهاية، إلا أنه حزم أمره بالبقاء على قيد الحياة، فحاول إقناعهم وحاول بعشرات الحجج أن

يثنيهم عن رغبتهم في الموت. لكنه لم يصادف نجاحًا ما، فكل ما كان يقول به ضد الموت كان يزيد إصرارهم على قرارهم الأعمى، وسخطهم عليه، الذي شاء التخلص منه، فلم تبق أمامه فرصة للنجاة إلا بقتل بعضهم البعض ليظل هو الأخير، فاستسلم لهم في الظاهر وخطرت له فكرة القرعة. وإذا تأملنا فكرة الاقتراع هذه فإنه سيكون من الصعب ألا نصدق أنها لم تكن خديعةً، وكان هذا هو الموضع الوحيد في رواية يوسفوس الذي ظل غامضًا، فقد نُسبت إلى الله أو الصدفة تلك النهاية العجيبة لهذا الاقتراع على الموت، لكن ذلك يبدو كأنه تُرك للقارئ تخمين مسار الأمر الحقيقي، فما عقب ذلك كان أمرًا مذهلاً، فأمام عينيه ذبح رجاله بعضهم البعض، وهو ما لم يقع دفعةً واحدة، إنما بالتتابع، فبين كل موتٍ كانت تُجرى القرعة ليُقتل كلٌ منهم بيد رفيقه، ليُقتل هذا أيضًا على يد من اختارته القرعة، وكان تأنيب الضمير الذي أحس به يوسفوس تجاه الانتحار لا يسرى فيما يبدو على القتل، وقد تمنى هو الموت لكل واحدٍ منهم على حدة وكلهم جميعًا، ولم يتمن لنفسه سوى الحياة، أما هم فقد رحبوا بالموت آمليين أن قائدهم سيموت معهم، ولم يكن بوسعهم تصور أنه هو الأخير من بين الجميع الذي سوف يبقى، ومن غير المحتمل أن تكون هذه الفكرة قد خطرت لهم قط عندما اقتضى الأمر أن يكون هناك "أخير" كان تحسب هو لذلك، فقال لهم إنه سيكون إنمًا عظيمًا أن يندم آخرهم فجأةً بعد موت رفاقه لينجو بحياته، وكان قد حدد هذا الإثم بدقة، فأقل ما يمكن فعله بعد موت كل الرفاق، سيلتزم هو بفعله. وبحجة انتمائهم إليهم في هذه اللحظة الأخيرة، أى أنه واحدٌ منهم، أرسلهم جميعًا إلى الموت وبذا نجا بحياته. أما هم فلم يعرفوا شعوره وهو يراهم يُقتلون، بعد أن جمعهم مصيرٌ مشترك معتقدين أنه سيشاركهم إياه، إلا أنه كان خارج الجمع ولم يفكر ألا يكون هذا المصير إلا مصيرهم فقط، فماتوا لينجو هو بنفسه. هكذا كانت الخديعة كاملة. إنها خديعة كل القادة، فهم يتظاهرون أنهم يسبقون رجالهم إلى الموت وهم في حقيقة الأمر يسوقونهم إلى الموت. فالحيلة دائمًا كانت الحيلة نفسها. فالقائد يريد البقاء على قيد الحياة وهو يتشدد في ذلك، فإن كان له أعداءً بقى بعدهم على قيد الحياة وكان ذلك أمرًا محمودًا، فإن لم يوجد هؤلاء كان هناك رجاله أنفسهم، وفي كل الأحوال يستغل هو كليهما بالتبادل أو في وقتٍ واحد. وهو يستغل الأعداء صراحةً، فهم أعداءٌ من أجل هذا الغرض. أما رجاله فلا يستطيع استغلالهم إلا على نحوٍ

غير مباشر. وفي كهف يوسفوس تتجلى هذه الحيلة، ففي الخارج يقف الأعداء، وهم المنتصرون، إلا أنهم كانوا حولوا تهديدهم السابق إلى وعد. وفي الداخل وقف الأصدقاء، وكانوا لا يزالون على إيمانهم السابق بقائدهم، هذا الإيمان الذى شحنهم هو نفسه به، وقد امتنعوا عن قبول الوعد الجديد. وبهذا تحول الكهف الذى رأى فيه القائد النجاة إلى خطرٍ عظيم يتهده، فاحتال على أصدقائه الذين خُدعوا فيه وفي أنفسهم، ليسوقهم إلى الموت الجماعى. ومنذ البداية كان ذلك ما جال بخاطره ليصير فى النهاية واقعًا. فقد بقى هو فقط مع رفيقٍ له ولأنه كما قال هو لا يريد أن يلطخ يديه بدم قريبه أقنع رفيقه هذا بأن يسلم نفسه إلى الرومان، فهذا هو "وحده" الذى كان يستطيع إقناعه بالبقاء على قيد الحياة، أما أربعون معًا فهو أمرٌ لم يكن ليقدر عليه. فنجّا كلاهما بالاستسلام للرومان فخرج بهذا سالمًا من الصراع مع رجاله، وكان هذا الانطباع تحديداً هو ما وصل إلى الرومان، أى الشعور الأعلى بحياة شخصه الذى تغذى بالقضاء على رجاله. أما نقل هذه السلطة، المكتسبة حديثًا، إلى فسبسيان فكان الفصل الثالث فى قصة نجاة يوسفوس، وقد تجلى ذلك فى وعد نبوى، فقد كان الرومان على معرفةٍ تامة بإيمان اليهود العميق بالله، فعرفوا أن آخر ما يقدم عليه اليهود هو التجديف باسم الله. وكان يوسفوس يأمل أن يصير فسبسيان قيصرًا بدلاً من نيرون. فنيرون الذى كان سيُرسل إليه لم يكن وعده بالإبقاء على حياته، وعلى أية حال كان فسبسيان هو من أعطاه الكلمة، وهو من كان يعرف أن نيرون الذى اعتاد النوم على صوت عروضٍ موسيقية كان يحتقر فسبسيان الأكبر منه سنًا بكثير، وكان غالبًا ما يعامله بقسوةٍ، فلما اتخذ صعود نجم اليهود بعدًا خطيرًا فى هذه الآونة قام باستدعاء القائد العجوز المحنك، وكان لدى فسبسيان كل مبررٍ للشك فى نيرون لذا كان ترحيبه بالوعد بالسلطة مستقبلاً. وقد يكون يوسفوس قد آمن هو نفسه بهذه البشارة التى نقلها من الله إلى فسبسيان، فهو من جرى التكهّن فى عروقه مجرى الدم، وقد كان يعتبر نفسه نبيًا طيبًا، وبذلك يكون قد جاء الرومان بأمرٍ لم يكونوا يعرفونه وهو الذى لم يأخذ آلهتهم على محمل الجد، وكان يعتبر ما يصدر عنهم خرافةً لكنه كان يدرك أيضًا أن عليه إقناع فسبسيان الذى كان - مثل كل الرومان - يحتقر اليهود ودينهم، بجدية بشارته، وإذ كان هو وحيدًا بين أعدائه، هؤلاء من ألحق بهم أسوأ ما يمكن، هؤلاء من كانوا يلعنونه قبل قليل، فأبدى ثقةً بنفسه وقوةً عبر بها عن نفسه، وإيمانًا بنفسه كان أقوى

من أى إيمانٍ آخر، فكان كل هذا بفضل بقائه على قيد الحياة من بين رجاله، وما نجح به في الكهف نقله إلى فسبسيان بأنه سيبقى حيًا بعد نيرون الأصغر منه بثلاثين عامًا، بل وبعد خلفائه جميعًا الذين لم يقلوا عن ثلاثة. وقد سقط كلُّ منهم -على نحوٍ ما - على يد الآخر، وقد صار فسبسيان قيصرًا رومانيًا.

نفور أصحاب السلطة من الباقين على قيد الحياة الحكام وخلفائهم

كانت لدى محمد طُغلق سلطان "دلهي" خططٌ عديدة فاقت عظمة خطط الإسكندر أو نابليون، وقد كان من بينها أيضًا احتلال الصين باجتياز جبال الهيمالايا. فأعد جيشًا من 100.000 فارس وتحرك الجيش عام 1337 ففُضِيَ عليه تمامًا على نحوٍ مروع في الجبال الشاهقة الارتفاع، ولم يفلح في النجاة سوى عشرة رجالٍ، ليس أكثر، فلما عادوا إلى دلهي بنى القضاء على الجميع تم إعدام هؤلاء الرجال العشرة بأمر السلطان. إن نفور أصحاب السلطة من الناجين هو حالةٌ عامة. فكل ما هو باقٍ في الواقع على قيد الحياة يعتبرونه أمرًا خاصًا بهم وحدهم، فهو مملكتهم الخاصة، بل إنه أغلى ما يملكون. فمن يسمح لنفسه بالنجاة على نحوٍ لافت وفي ظروفٍ خطيرة، خاصةً إذا كان بين كثيرين آخرين، فهو يكون كمن أفسد أعمالهم فيصبون عليه غضبهم. وحيثما نشأ شكلٌ ما من الحكم المطلق، في الشرق الإسلامي على سبيل المثال، فإنه يمكن هنا أن يعلن أصحاب السلطة

صراحةً عن غضبهم على الناجين. أما ذرائعهم التى يبررون بها قضاءهم على هؤلاء، فإنها لا تحجب سوى القليل المجرد من الاضطراب المترعين به.

وبسقوط دلهى قامت مملكة إسلامية أخرى فى "دقان". وكان محمد شاه، أحد سلاطين هذه الأسرة الحاكمة الجديدة، قد اشتبك طوال فترة حكمه فى صراعٍ مرير مع جيرانه من ملوك الهندوس. وذات يوم نجح الهندوس فى الاستيلاء على مدينة "مودكال" المهمة⁽⁸⁰⁾، فذبحوا كل سكانها رجالاً ونساءً وأطفالاً ولم يفلت سوى رجلٍ واحد حمل النبأ إلى عاصمة السلطان. وقد روى أحد المؤرخين عن ذلك فقال: "عندما سمع هذا بذلك غلبه الألم والغضب فأعدم الرسول البائس فى الحال. فمن المحال أن يقوى هو على تحمل وجود شقئ فى حضرته، كان قد رأى مذبحه رفاقه الكثيرين، وبقي هو على قيد الحياة"⁽⁸¹⁾.

هنا، وإلى حدٍّ ما نستطيع الحديث عن ذريعة، فقد يكون من المحتمل أن هذا السلطان لم يعرف حقاً سر عدم احتمالهِ لرؤية الناجى الوحيد. أما الخليفة المصرى "الحاكم بأمر الله"⁽⁸²⁾ الذى حكم قرب العام 1000 فكان واعياً بالأعيب السلطة على نحو أكثر وضوحاً، وتمتع بها على نحوٍ يذكرنا بالقيصر دوميتيان. فقد كان "الحاكم" يحب أن يعس ليلاً متنكراً بكل الأشكال فوق جبلٍ بالقرب من القاهرة. وفى أثناء إحدى جولاته الليلية صادف عشرة رجالٍ مسلحين، عرفوه، فطلبوا منه مالاً فقال لهم: "فلتنقسموا إلى فريقين ينازل كلٌ منهما الآخر ومن يخرج من ذلك فائزاً سوف أهبه المال". فأطاعوه وقاتلوا بشراسة إلى أن قُتل منهم تسعة، أما العاشر الذى تبقى منهم فقد ألقى إليه الحاكم من كمه بكمية كبيرة من قطع النقود، إلا أنه عندما انحنى ليلتقطها أمر الحاكم خدامه بتمزيقه إرباً، وبذلك يكون قد أثبت رؤيةً واضحة فى مسألة البقاء على قيد الحياة. وكان قد تمتع بهذا كنوعٍ من العرض المسرحى، الذى أخرجه هو بنفسه، كما استمتع فى النهاية بالقضاء على من بقى على قيد الحياة. أما العلاقة بين صاحب السلطة وخليفته فهى الأكثر خصوصيةً، فإذا دار الأمر حول أسرةٍ حاكمة، يكون ولى العهد فيها هو ابن السلطان، تكون صعوبة علاقته بابنه صعوبةً مضاعفة. فمن طبائع الأمور أن يبقى الابن حياً بعده، مثل كل ابنٍ، ومن الطبيعى أن يزداد الشغف مبكراً فى صدر الابن، فهو نفسه سوف يصبح صاحب السُلطة، وكلاهما لديه ما يكفى من أسبابٍ لكرهية الآخر. أما خصومتهم فتنتلق من إرهاباتٍ غير

متكافئة. ويتنامى عدم التكافؤ هذا إلى حالة خاصة من الحدة، فأحدهما، من يده السلطة، يدرك أنه سيموت قبل الآخر، بينما الآخر الذى لم يصل للسلطة بعد، فيشعر بالاطمئنان إلى أنه سيظل (بعد أبيه) على قيد الحياة. فأما الأكبر سنًا وهو آخر الناس كافةً من يتمنى الموت، وإلا ما كان حاكمًا، فإن الاشتياق لموته يكون متأججًا. وعلى الجانب الآخر فإنه يتم إرجاء تسلم الأصغر سنًا للسلطة بشتى السبل. إنه صراعٌ لا ينتهي حقًا. والتاريخ عامر بتمرد مثل هؤلاء الأبناء على آبائهم، وبعضهم يفلح فى الإطاحة بأبيه والبعض الآخر ينهزم أمامه، فيعفو عنهم أو يقتلهم. وفى إطار أسرة حاكمة يتوقع الحاكم المطلق أن يصير تمرد الأبناء ضده نوعًا من التقليد، وهو ما يتضح من خلال إلقاء الضوء على تاريخ ملوك المغول بالهند⁽⁸³⁾. فالأمير "سالم" أكبر أبناء الملك "أكبر" كان يتحرق شوقًا لتسلم مقاليد الحكم، وقد حنق على حياة والده المديدة، فقرر اغتصاب ذلك، فابتدع لنفسه اسم أحد الملوك وانتزع حقوق هذا لنفسه. هكذا جاء بتقرير أحد اليسوعيين⁽⁸⁴⁾ المعاصرين ممن كانوا على علاقة وثيقة بالأب والابن، فكانوا يراهنون على كليهما. فكان أن كوّن الأمير سالم بلاطه الشخصى واكترى قتلةً هاجموا أقرب أصدقاء أبيه ومستشاره من الخلف فأردوه قتيلاً. واستمر تمرد الابن طيلة سنوات ثلاث، وفى أثناء هذه الفترة تم التوصل إلى سلام هش. وفى النهاية وُجّه تهديدٌ إلى سالم باستبدال ولى عهدٍ آخر به. وتحت وطأة هذا الضغط قبل الدعوة إلى بلاط أبيه فاستقبل هناك استقبالاً حارًا. ثم كان أن سحب الأب ابنه إلى خدرٍ داخلٍ وقام بلطمه ثم حبسه بالحمام، وأسلمه إلى طبيبٍ وخادمين على أنه مريضٌ نفسيًا، كما منع عنه النبيذ الذى كان مولعًا به. فى هذا الوقت كان الأمير قد بلغ العام السادس والثلاثين من عمره. وبعد بضعة أيام أطلق "أكبر" سراحه ورد إليه اعتباره كولى للعهد. وفى العام التالى مات "أكبر" بالدوسنتاريا، فأشيع أن ابنه قد دس له السم، إلا أن هذا الظن لم يعد اليوم مؤكدًا.

"بعد وفاة أبيه التى تحرق إليها كثيرًا" صار الأمير سالم أخيرًا ملكًا وأطلق على نفسه لقب "جهانجير" وكان "أكبر" قد حكم لخمسٍ وأربعين عامًا. أما مدة حكم جهانجير فكانت اثنتى وعشرين سنةً. وفى مدة حكمه التى تماثل نصف فترة حكم أبيه تقريبًا، مر هو بالتجربة نفسها التى مر بها أبوه. فكان ابنه المقرب لديه شاه جهان، الذى قلده بنفسه منصب ولاية عهده، قد تمرد على

أبيه وشن حرباً ضده لثلاث سنوات. إلا أن شاه جهان انهزم والتمس السلام لدى أبيه، فعفا عنه بشروط قاسية، فقد أرغمه على إرسال ولديه رهينتين إلى البلاط الملكي. أما هو نفسه فقد حرص على ألا تقع عليه عينا أبيه، منتظراً موته. وبعد عامين من إبرام الصلح توفي جهانجير ليصير شاه جهان ملكاً ويحكم ثلاثين عاماً. وما فعله بأبيه فِعْل به، إلا أن حظ ابنه كان أوفر. فكان أورانجسيب، أصغر ولديه اللذين كانا رهينتين ذات يوم ببلاط جديهما، هو من ثار على أبيه وأخيه الأكبر. وكانت "حرب الخلافة" الشهيرة التي نشبت حينذاك ووصفها شهود عيان أوروبيون قد انتهت بانتصار أورانجسيب، فأعدم أخاه واحتفظ بأبيه أسيراً لثمانية أعوام حتى مات، وبعد انتصاره نصب أورانجسيب نفسه ملكاً وحكم لمدة نصف قرن. أما ابنه المقرب فكان صبره قد نفذ قبل ذلك بكثير، فتمرد على الأب. إلا أن الأب كان أوسع حيلةً من الابن، فأشعل الخلاف بين خلفائه، ما اضطر الابن إلى الفرار إلى بلاد فارس، فمات قبل أبيه في المنفى.

وإذا ما تأملنا تاريخ الأسرات الحاكمة في إمبراطورية المغول سنرى أمامنا صورةً نمطية مدهشة. وقد استمر عصر ازدهارها مئة وخمسين عاماً، وفي أثناء هذه الفترة لم يحكم سوى أربعة ملوك، الابن بعد أبيه، كان كل منهم صلباً طويل العمر، وتعلق بكل نياط قلبه بالسلطة، فجاءت فترات حكمهم طويلة على نحو لافت للانتباه. فقد حكم "أكبر" 45 سنة وابنه 22 عاماً وحفيده 30 سنة وابن حفيده 50 عاماً. ومنذ حكم أكبر فإن أيّاً من الأبناء لم يحتمل فترة الانتظار، وكل من صار منهم فيما بعد ملكاً كان قد تمرد كأمر ضد أبيه. ولقد لقيت حركات العصيان هذه نهايات مختلفة، فقد انهزم كل من جهانجير وشاه جهان وعفا عنهما والداهما. أما أورانجسيب فقد أخذ أباه أسيراً وعزله. فأما ابنه نفسه، فيما بعد، فقد مات في المنفى بعد فشله. وموت أورانجسيب انتهى حكم مملكة المغول. وفي أثناء فترة حكم هذه الأسرة كان كل ابن قد تمرد على أبيه وخاض كل أب حرباً ضد ابنه. إن الشعور بالسلطة الأكثر تطرفاً ينشأ حينما يريد الحاكم ألا يكون له أي ابن. وأفضل شهادة على ذلك هي حالة "شاك" الذي حكم وأسس أمة الـ"زولو" بجنوب إفريقيا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر⁽⁸⁵⁾. وقد كان قائداً حريصاً عظيمًا حتى إنه قورن بنابليون وهو يكاد يكون صاحب السلطة الوحيد الأكثر تجرداً على مر الزمان. فقد رفض الزواج حتى لا يكون له وريث شرعى، حتى أمه التي كانت تلقى منه معاملةً على أفضل وجه، فإن رجاءها

الملّح لم يستطع إثناءه عن رأيه. وكان كل أملها أن يكون لها حفيدٌ إلا أنه تمسك برأيه. وكان حريمه يتكون من مئات النساء اللاتي بلغ عددهن في نهاية الأمر 1200 امرأة. أما لقبهن الرسمي فكان: "الأخوات". وكان قد حظر عليهن الحمل أو أن يلدن طفلاً، كما وُضعت تحت رقابة صارمة. وكانت من تُضبطُ منهن حاملاً تُعاقب بالموت. وقد قتل شاكا بيده ابن إحدى هؤلاء النساء، كان طفلاً أُخفى أمره عنه. وكان يُتقن فنون المعاشرة حتى يبقى الأمر تحت سيطرته مؤقتاً بآلا تحمل منه امرأة. وعلى هذا النحو تخلص من حالة الخوف من أن يكون له ابنٌ يشتد عوده - وقد قُتل وهو في الحادية والأربعين من عمره على يد اثنين من إخوته. فإن جاز لنا الانتقال من أصحاب السلطة في الدنيا إلى أصحاب السلطة الإلهية فإننا نذكر هنا رب "محمد" الذي له الحكم وحده لا يشاركه فيه أى رب. فهو منذ الأزل وحيدٌ في عليائه، ولم يضطر إلى منازعة أرباب ثانويين ذوى شأن، كما حدث بدايةً لرب العهد القديم. والقرآن يُشدد مراراً على أنه لم يولد ولم يلد أيضاً.

أما جدل المقارنة بالمسيحية والتي تتجلى في ذلك إنما تنبثق من الشعور بوحداية سلطانه وعدم قابليته للشرك. وعلى النقيض من ذلك هناك حُكامٌ شرقيون لهم مئات من الأبناء الذين يكون عليهم أولاً التنازع فيها بينهم عمن يصير بالفعل ولياً للعهد. وقد نفترض أن الوعي بالعداء فيما بينهم يقلل إلى حدٍّ ما من شعور الأب بالمرارة نحو خلافة أى منهم. وسوف نخرج بالحديث عن المعنى الأعمق للخلافة وهدفها وفائدتها في سياقٍ آخر. أما ما ينبغي علينا ملاحظته هنا أن أصحاب السلطة وخلفاءهم يقفون على طرفي نقيض، في علاقة عداءٍ من نوعٍ خاص، وهو عداءٌ لا مناص من اطراده مع ازدياد حتمى لقوة هذا الشغف بالسلطة والشغف بالبقاء على قيد الحياة.

صور البقاء على قيد الحياة

إن تأمل صور البقاء على قيد الحياة هو أمرٌ لا غنى عنه. فهناك الكثير من هذه الصور التي لا ينبغي أن ندع إحداها خارج نطاق اهتمامنا. فالحدث السابق لكل حدثٍ غيره في حياة الإنسان، ويفوقه أهميةً، أي حدث التلقيح، هو حدثٌ لم يُنظر إليه بعد كعنصرٍ من عناصر "البقاء على قيد الحياة". فنحن نعرف الكثير أو تقريباً "كل شيء" منذ لحظة اختراق خلية الحيوان المنوي لخلية البويضة، لكننا لا نكاد نتذكر أن هناك عددًا من الخلايا لا تصل غالبًا إلى هدفها عند التلقيح، رغم أنها شاركت بكثافةٍ في الحدث عمومًا. وهي ليست خلايا منوية تشق طريقها منفردةً إلى البويضة، بل هي نحو مئتي مليون، وهي تنطلق في دفقةٍ واحدةٍ معًا وتتحرك في تزامٍ مكثف نحو الهدف، إن عددها إذن لهائل. ولأنها جميعًا تنشأ عن الانقسام فإنها تتساوى فيما بينها. فأما كثافتها فلا يمكن بالكاد أن تزداد، وكلها لها الهدف الواحد نفسه، وعلينا أن نتذكر أن هذه الملامح الأربعة هي أيضًا التي تميز السمات الجوهرية للكتل. ولا يبقى سوى أن نؤكد أن كتلةً ما، تتكون من خلايا منويةٍ لا يمكن أن تماثل كتلةً من بشر، ولكن كان هناك تطابقٌ أو أكثر من مجرد تطابق بين كلتا الظاهرتين بلا شك. أما كل الخلايا المنوية هذه فتتعرض للدمار سواء في أثناء طريقها إلى الهدف، أو أنها صارت فيما

بعد على مقربةٍ منه. فخليّةٌ واحدة فقط هى التى تنفذ إلى البويضة، وهى ما يمكن اعتبارها بالفعل الوحيدة الباقية، فيمكن القول بأنها القائد، وقد وفقت إلى ما يأمله كل قائدٍ على نحوٍ صريح أو خفى، فقد نجحت في النجاة من بين تلك التى قادتها. ومن خلال هذه الناجية من بين مئتى مليون ينشأ الإنسان.

ومن هذه الصورة الأساسية، حتى وإن لم تكن قط جديرةً بالاعتبار، تنتقل إلى صورةٍ أخرى أكثر قربًا. ففي الفصول السابقة تناولنا على نحوٍ خاص مسألة القتل، فالمرء يقف ضد عدوٍ، ضد عدوٍ مفرد، متعرضًا للقتل أو للسطو المفاجئ أو الصراع المزدوج وضد حشدٍ يشعر المرء بحصاره له، أو في النهاية ضد كتلةٍ جماهيرية كاملة. وهنا لا يكون المرء وحده فهو يلقي بنفسه إلى المعركة مع رفاقه، إلا أنه (المرء) يشعر بالبقاء على قيد الحياة على نحوٍ أعظم من رفيقه بالجماعة ما دام أعلى منه منزلةً. أما القائد فهو الذى يفوز، فإذا ما سقط كثيرٌ من رجال هذا القائد فإن الكوم يكون مزيحًا من صديق وعدوٍ لتنتقل المعركة إلى حالةٍ "محايدة" من الوباء، وهنا يقترب القتل من "الموت"، تحديدًا في الحالة الأكثر ترويعًا أى في حالات الوباء والكوارث الطبيعية. فهنا ينجو المرء بحياته من بين كل هؤلاء المهددين بالموت، أصدقاءً وأعداءً في آنٍ واحد، وتتلشى العلاقات كافةً، فحالة موتٍ عامة يمكن أن تفضى إلى عدم معرفة شخص من يتم دفنه. أما الذى يميز ذلك على نحوٍ كبير فهو القصص المكرر دائمًا عن بشرٍ عادوا للحياة ثانيةً من بين الأموات، أى من وسط جموع هؤلاء، فهم يستيقظون من بين الموتى، ومثل هؤلاء الناس ينزعون إلى الحفاظ على سلامتهم أو يكونون على نحو ما "أبطال الطاعون".

أما الرضا الأكثر اعتدالاً وقبولاً فينتج عن حالات الموت الفردية للبشر. والأمر هنا يدور حول الأقارب والأصدقاء فليس هناك قاتلٌ أو من يشعر أنه سيهاجم، ولا يمكن للمرء أن يضيف إلى ذلك شيئًا إلا أنه يتوقع الموت للآخرين، فالأحدث سنًا يظلون على قيد الحياة بعد موت الأكبر منهم سنًا كما في حالة الابن والأب. فالابن يرى في موت أبيه أمرًا طبيعيًا ويقتضى الواجب به إلى الإسراع إلى فراش احتضار أبيه ليغمض عينيه ثم يحمله إلى القبر. وفي أثناء هذه الشعائر التى قد تمتد لأيام يكون الأب راقدًا أمامه هناك ميتًا. فهذا هو من كان يصدر أوامره إليه وكاد يكون الوحيد الذى حوّل له هذا الشأن، ها هو الآن لا ينطق، بل إنه

مستسلم لما يجرى من عبثٍ بجسده. ومن يأمر بذلك هو هذا الابن الذى كان تحت رحمة سلطانه. وهنا يتجلى الرضا عن البقاء على قيد الحياة، وهو ناتجٌ عن علاقة الاثنين، كلٍ بالآخر، فكان أحدهما لسنين طويلةً ضعيفًا وعاجزًا وواقفًا تحت سيطرة الآخر تمامًا، وها هو الآخر المهيم فى الماضى قد سقط وتلاشى أثره وصارت أوصاله الميته رهن إرادة ذاك الآخر. وكل ما خلفه الأب يقوى الابن، فالميراث هو غنيمته وبوسعه أن يفعل بذلك كل ما لم يفعله الأب. فإن كان الأب حريصًا مدبرًا فيمكن لابنه أن يكون مبذرًا، وإن كان هذا ذكيًا فيمكن للابن أن يكون أحمق، كأنه قانونٌ جديدٌ أُعلن سريانه فى تلك اللحظة. إنها فجوةٌ هائلة، لا يمكن تجاوزها ويعود الفضل فى ظهورها إلى "البقاء على قيد الحياة"، وهى أكثر سمات الشخصية أصالةً وألفةً وهى المعبرة عن البقاء على قيد الحياة.

أما الصراع حول البقاء على قيد الحياة بين من هم فى مرحلةٍ عمرية واحدة، أى أبناء جيلٍ واحد، فهو أمرٌ مختلف تمامًا، فالتوجه إلى البقاء على قيد الحياة هنا يكون مستترًا خلف صور خصومةٍ أقل وطأةً لأنها تدور فى إطار جماعة أقران. وتختزل مجموعة أفرادٍ من أعمارٍ متقاربة فى فئةٍ عمرية. وفى إطار قواعد محددةٍ منظمة فى الغالب لاختبارات قاسية مروعة يصعد صغار السن من فئةٍ إلى فئةٍ تالية أعلى، وفى أثناء مثل هذه الاختبارات يمكن أن يُقضى على المنافس قضاءً مبرمًا، إلا أن هذا لا يكون سوى استثناء. أما الكبار الباقون على قيد الحياة بعد انقضاء عددٍ محدد من السنين فإنهم يتمتعون بمكانةٍ ساميةٍ للغاية بين ما يعرف بـ "شعوب الطبيعة"، وهى تلك التى يموت أبناؤها عادةً فى سنٍ صغيرة. فالمخاطر تتهددهم والأمراض تصيبهم على نحوٍ أعظم مما نتعرض له نحن. وبلوغ عمرٍ بعينه يراه هؤلاء إنجازًا يعتبر فى حد ذاته مكافأة. وهذا لا يرجع إلى أنهم صاروا كبارًا اكتسبوا معرفةً وخبرة من تجارب مروا بها بل هو يرجع إلى أنهم أثبتوا جدارةً فى استمرارهم فى الوجود. فلا بد من أن الحظ حالهم حتى فازوا بالنجاة من عمليات الصيد والحروب والنكبات. وهذه المخاطر هى التى ترتقى بمكانتهم. أما انتصاراتهم على الأعداء فإنهم يثبتونها من خلال رموز النصر. وأما استمرار وجودهم كعضوٍ فى الجماعة - التى لم يكن المنتمون لها قط عددًا كبيرًا - فهو أمرٌ يقدره هؤلاء على نحوٍ خاص. فرغم أنهم عايشوا مناسباتٍ عديدة للنواح فإنهم ما زالوا هنا، فموت أقرانهم من نفس جيلهم يساهم فى سمو مكانتهم. وقد لا يكون هذا التقييم واضحًا فى أذهان أعضاء هذه الجماعة

كوضوح قيمة الانتصار على العدو، إلا أن هناك أمرًا لا يتطرق إليهم الشك فيه، فالإنجاز الأكثر أهمية والأعظم وضوحًا كان هو البقاء على قيد الحياة. فلا يحسب للكبار أنهم هنا بل يحسب لهم أنهم "ما زالوا" هنا، ويكون بوسعهم كما يشاءون اتخاذ الفتيات الصغيرات بينما يضطر الصغار أحيانًا إلى الرضا بنسوة متقدمات في العمر، ويُخوّل للكبار أمر اختيار مقصد الترحال وخوض الحرب ضد من أو التحالف مع من. فإذا ما تطرق الحديث في إطار هذه العلاقات الحياتية إلى "الحكم" فإن "هؤلاء الكبار" هم من يناط بهم "الحكم" معًا. إن تُمْنَى "العمر الطويل" - وهو ما يلعب دورًا كبيرًا في أغلب الحضارات - يعنى في حقيقة الأمر أن المرء يتمنى البقاء حيًا بعد وفاة أقران جيله، وهو يعرف أن كثيرين يموتون مبكرين، لكنه يتمنى لنفسه مصيرًا آخر. وهو يستثنى نفسه دون رفاقه بتضرعه للآلهة من أجل طول العمر، رغم أنه لا يذكر ذلك في صلاته، لكنه يتصور أنه سيكون أطول عمرًا من الآخرين. أما ظاهرة طول العمر "السليمة" فيجسدها الجد الأعلى الذى يستطيع أن يطالع الكثير من نسل أبنائه. والمرء لا يتصور أبًا أعلى آخر بجواره كأن جيلًا جديدًا من نسله قد بدأ معه. وما دام أحفاده وأبناؤهم على قيد الحياة فإنه لا يضيره إذا سبقه إلى الموت بعض أبنائه، بل إن ذلك يساهم في رفعة مكانته، فحياته كانت أكثر صلابة من حياتهم، وفي دائرة من هم الأكبر سنًا فإنه لا يبقى في النهاية إلا واحد منهم فقط يكون بطبيعة الحال من هو أكبرهم سنًا. ويتحدد القرن من الزمان حسب مدة سنين حياته. والأمر هنا يستحق أن نتوقف عنده قليلًا. فمدة "القرن" لدى الـ "أرتوريين"⁽⁸⁶⁾ تتغير أحيانًا وتطول أحيانًا، ويجب تحديد مدته كل مرة. ففي كل جيل يكون هناك من هو أكبر سنًا من الآخرين، فإذا مات هذا الأكبر سنًا بعد أن عاش بعد الجميع فإن الآلهة تعطى إشارة بعينها لتحديد مدة القرن من لحظة موته. فإذا مات الباقي على قيد الحياة عن مئة وعشرة أعوام تكون مدن القرن مئة وعشرة أعوام، وإذا مات عن مئة وخمسة أعوام فإن مدته تُحسب على الزمن الدنيوى أقصر، أى على مئة وخمسة أعوام. فالباقي على قيد الحياة يكون هو القرن، فسنوات حياته هى التى تحدد مدة القرن. ولكل مدينة وكل شعب مدة زمنية محددة مسبقًا، وقد حدد الشعب عشرة من هذه القرون، فإذا ما استمر الباقي على قيد الحياة من كل جيل لفترة أطول فإن الأمة كلها تصبح أطول عمرًا.

إن هذه العلاقة لافتة للانتباه، فهي فريدة من نوعها كمؤسسة دينية، فالبقاء على قيد الحياة لمدة زمنية هو الصورة الوحيدة التى يبقى فيها الشخص مرثياً، فأما الناس الذين ظلوا هنا لفترة طويلة سابقة على شخص ما فإنه لا يعرفهم، ولا يمكن أن يكون قد قتلهم أو تمنى موتهم أو انتظره. فهو يعرف أنهم كانوا هناك عندما لم يعد لهم وجود هناك. ومن خلال إدراك المرء حال هؤلاء فإن إعادته إياهم إلى الحياة (على نحو) أمر بسيط للغاية، وغالبًا يكون في شكل بلا معنى. وربما كان ما يعود عليهم هنا من فائدة أعظم مما يعود عليه هو. إلا أنه من الواضح أن هؤلاء ساهموا في الشعور الشخصى للباقي على قيد الحياة. وهكذا بقى على قيد الحياة هؤلاء الأجداد الذين لم تتعرف عليهم بأنفسنا، بل بقى كذلك على قيد الحياة كل البشر السابقين.

إن تجربة الحالة الأخيرة كانت في المدافن. وهى حالة تتماهى مع حالة البقاء على قيد الحياة في أثناء انتشار الوباء، فبدلاً من الطاعون كان وباء الموت هذا على إطلاقه، ليشمل موتى من أزمنة مختلفة في مكان واحد. ويمكن أن ينهض الاعتراض بأن هذه الدراسة لم تعالج شيئاً آخر مختلفاً عن المفهوم القديم لدفاع الحفاظ على النفس الذى كان معروفاً دائماً. لكن هل يتساوى هذا مع ذاك حقاً؟ هل هما الشيء نفسه؟ وما هو تصورنا عن الأثر الفعال لغريزة الحفاظ على النفس؟ ولذلك فإن هذا المفهوم يبدو لى غير مناسب لأنه يجعل الإنسان الفرد وحيداً. فقد يكون التشديد مرةً على "النفس"، لكن الأهم تكون الكلمة الأخرى، وهى "الحفاظ"، وهنا يبدو المعنى مزدوجاً، فتارةً يعنى اضطراب الكل "إلى تناول الطعام" ليبقى على قيد الحياة، وتارةً يعنى "دفاعه عن نفسه" ضد أى هجوم مهما كان نوعه، وعلى نحو ما كان ينظر إلى المخلوق على أنه تمثال ضخم ينظر أمامه في جمود، فهو يتناول طعامه بيدٍ ويدفع العدو عن نفسه باليد الأخرى. وهو في الأساس مخلوقٌ مسالم فإذا ما تُرك وشأنه فإنه سيلتهم حفنةً من الأعشاب ولن يؤذى أحداً قيد أملة. فهل هناك تصورٌ لا يوافق الإنسان أخطر من هذا وأكثر منه تضليلاً وسخفاً؟ فالإنسان يأكل حقاً لكنه لا يأكل نفس ما تأكله بقرة، وهو لا يُساق كذلك إلى المراعى، وأسلوبه في الحصول على فريسة هو أسلوبٌ خبيثٌ ودموى وعنيد، وهو هنا لا يعرف السلبية وهو لا يدفع الأعداء عن نفسه بهوادة بل هو يهاجمهم عن بعد. أما السلاح الذى يستخدمه في الهجوم فهو أكثر تطوراً من السلاح الذى يستخدمه في الدفاع. فالإنسان يريد أن

يحفظ نفسه مع وجود أشياء أخرى يسعى للحصول عليها في آنٍ واحد. فالإنسان يسعى للقتل حتى يبقى حيًّا بعد الآخرين وهو لا يريد أن يموت حتى لا يعيش الآخرون بعده. فإذا ما استطاع المرء جمع هذا بذاك لـ "الحفاظ على النفس" فإنه يكون قد حقق معنى هذا التعبير. لكن ما لا يمكن فهمه هو سر تمسك أحدهم على هذا النحو بمفاهيم تقريبية بينما يفهم الآخر شيئًا أكثر. إن كل صور البقاء على قيد الحياة التي تم إحصاؤها قديمةً للغاية، وهو ما سوف نراه لدى الشعوب المعروفة بشعوب الطبيعة، كالتالي.

الباقي على قيد الحياة في عقيدة شعوب الطبيعة

يفسّر مفهوم الـ"مانا" في "بحر الجنوب" بأنه نوعٌ من قوةٍ فوق الطبيعة وغير شخصية، أي هي التي يمكن أن تنتقل من إنسانٍ لآخر، وهو أمرٌ يدعو للطموح، فهي يُمكن أن تمنح كل فردٍ ثراءً أعظم، فالمقاتل الشجاع يمكن أن يكتسبها وهو في ذلك لا يدين بالفضل لخبرته القتالية أو قوته البدنية وإنما هي الـ"مانا" التي انتقلت إليه من عدوه المقهور، وهذا هو ما حدث في جزر الـ"ماركيوزا"⁽⁸⁷⁾ فإن أحد أفراد القبيلة استطاع أن يصير القائد العسكري من خلال بسالته الشخصية. فمن المفترض أن المقاتل يحمل في داخله "مانا" كل من قتلهم. وبقدر استبساله تنمو الـ"مانا" الخاصة به. لكن في تصور أهل البلاد كانت بسالته ناتجةً عن الـ"مانا" وليست هي المسببة لها. فمع كل قتلٍ ينجح فيه تنمو أيضًا "مانا" رمحه. فبعد نزالٍ بين رجلين كان المنتصر يتخذ اسم عدوه المقهور، وكان هذا إشارةً إلى أن قوة العدو قد صارت ملكًا له. ومن أجل التهام "مانا" الخصم مباشرةً فإنه كان يأكل من لحمه، ومن أجل أن يؤمن لنفسه هذا التفوق في القوة في معركةٍ ما وأن يضمن لنفسه شهادةً شخصية من خلال امانا المغتصبة، فإنه يحمل من

ضمن عتاده الحربى أى جزء متبقى من جسد العدو المقهور، كإحدى عظامه أو يد جافة وأحياناً ما يصل ذلك إلى حد جمجمة كاملة.

إن أثر النصر فى "الباقى على قيد الحياة" لا يمكن فهمه على نحوٍ أوضح من ذلك، فهو من قتل الآخر فصار أقوى، وتنامى الـ"مانا" يمهده بالقدرة على تحقيق نصر جديد. إنها نوعٌ من البركة انتزعها من العدو ولا يمكنه الحصول عليها إلا إذا مات هذا. فالوجود الفيزيقي للعدو حيّاً أو ميتاً أمرٌ لا مفر منه فلا بد من القتال ولا بد من القتل، فكل شيء يتوقف على الأداء الشخصى للقتل. إن أجزاء الجثة، سهولة الاستعمال التى استولى عليها المنتصر لنفسه والتى التهمها والتى يعلقها على جسده، تذكّره دائماً بتنامى قوته، فيها يصير أقوى، وبها يثير الفزع. فإذا تحداه عدوّ جديد ارتجف أمامه ورأى مصيره الرهيب أمام عينيه. وهناك علاقةٌ بين القاتل والمقهور أكثر شخصانيةً، بل ومفيدة، تتبدى فى عقيدة قبائل "مورنجين" فى بلاد "أرنابم" الأسترالية⁽⁸⁸⁾. فروح القتيل تحل بجسد القاتل وتمنحه قوةً مضاعفة ليصير بالفعل أكبر حجماً، ومما يسترعى النظر أن هذا المكسب يغرى الشباب بالمشاركة فى الحرب فيبحث كلٌّ عن عدوّ ليستولى على قوته إلا أن هدفه لا يتحقق إلا عندما يقتل ليلاً، فالنهار يتيح للضحية رؤية قاتله، فيتمنى قتله إلى حدٍّ يمنعه من الحلول بجسده، وقد تم وصف هذا الحلول بدقة، فهى عمليةٌ عجيبية تجعلنا نستعرض قسماً كبيراً منها هنا: إذا قَتَلَ أحدهم رجلاً فى أثناء الحرب فإنه يرجع إلى بيته فلا يتناول طعاماً مطهياً حتى تغذيه روح القتيل ويكون بوسعه "سماع" قدومها لأن قناة الرمح ما زالت عالقةً فى نصلها الحجرى الذى عُزِرَ فى القتيل الذى يزحف على الأرض ويتخبط فى الدغل والأشجار ويحدث ضجيجاً فى أثناء سيره. فإذا ما صارت الروح على مسافةٍ قريبة للغاية سمع القاتل أصواتاً صادرة عن جرح القتيل، فيمسك بالرمح لينزع وينحى نصله ويضع نهاية القناة هذه بين أصبع قدمه الكبير والتالى له، ويسند نهاية القناة الأخرى بكتفه لتدخل الروح حينئذٍ فى الفجوة التى نُزِعَ منها لتشق طريقها إلى داخل ساق القاتل ثم إلى جسده بعد ذلك. وهى ماضيةٌ فى طريقها مثل النملة لتدخل المعدة وتغلقها فيشعر القاتل بالغثيان وترتفع درجة حرارة بطنه فيدلك معدته، ويهتف عالياً باسم هذا الرجل فيشفيه هذا ليشعر باسترداد عافيته، لأن الروح فارقت المعدة ووصلت القلب، وما إن تصل القلب يكون أثر ذلك كأن دم الميت انتقل حينئذٍ إلى القاتل. وتصير الحال كأن الرجل قبل أن يموت قد منح

دمه للآخر الذى سوف يقتله. أما القاتل الذى صار حينئذٍ أكبر حجمًا واكتسب قوةً خاصة فإنه يكتسب قوة الحياة كلها التى كانت للميت ذات يوم، فإن حلم قالت له الروح بأن غذاءه لديها، وتحدد له الوجهة ليعثر عليه فتقول: "هناك، تحت، عند النهر سوف تجد الكثير من الكنجرو". أو "في تلك الشجرة العتيقة على الجانب الآخر هناك عشٌ للنحل". أو "عند كثيب الرمل مباشرةً هناك دروع سلحفاة كبيرة وسوف تجد بيضًا كثيرًا على الشاطئ". فيطيع القاتل، لينسل بعد برهة قصيرة من المخيم ليخرج إلى الدغل حيث يلقي روح الميت فيفزع القاتل ويصيح: "من هذا؟ هل هناك أحدٌ ما؟" ويتوجه ليجد هناك كنجرو، وهو حيوانٌ صغير غير مألوف فيتأمله ويفهم مغزى ذلك: إنه موجودٌ هناك في هذا الموضع، تحديدًا حيث سمع تحركات الروح، فيأخذ عرقًا من إبطه ويمسح به ذراعه ويرفع رمحه ويهتف عاليًا باسم الميت ويصيب الحيوان فيموت في الحال، إلا أنه - في أثناء موته - يزداد حجمه للغاية، فيحاول أن يرفعه إلا أنه يجد ذلك مستحيلًا لأنه صار ضخماً للغاية، فيترك الفريسة راقدةً ليعود إلى المخيم ليخبر أصدقائه بذلك ويقول: "لقد قتلت للتو روح الرجل الميت، فلا تخبروا أحدًا بذلك حتى لا يغضب مرةً أخرى". ويعود معه أقرب أصدقائه وأقاربه ليساعده في سلخ الحيوان ويجهزونه للطعام، فلما شقوا بدنه وجدوا في كل مكان دهناً وهو ما يعتبر الأطيب مذاقًا. وفي البداية يضعون قطعًا صغيرة للغاية على النار ويتذوق المرء منها بحرص فدائمًا ما يكون مذاق اللحم غير طيب، ثم يُطهى الحيوان كله وتؤكل أجزاؤه التى تعتبر أكثر قيمةً ثم يُحمَل الباقي إلى المخيم الرئيس فينظر إليه الرجال الكبار: إنه حيوان هائل الحجم. ويقفون محيطين به ليسأل أحدهم: "أين قتلته؟"، "هنا فوق عند النهر". فالكبار يعرفون جيدًا أنه ليس فريسةً عادية لأن بها دهناً في كل مكان. وبعد برهة قصيرة يسأل أحد الكبار: "هل رأيت هناك بالدغل روحًا بعينها؟" فيكذب الشاب قائلاً: "كلا". فيتذوق الكبار اللحم فيجدون مذاقه مختلفًا فهو ليس كنجرو مألوفًا، فيهز الكبار رءوسهم مؤكدين وهم يلوكون بالسنتهم: "لقد رأيت أنت بالفعل روح الميت!" وهنا يستدعى الباقي على قيد الحياة قوة العدو ودمه فلا يتضخم هو فحسب، وإنما كذلك الحيوان، غنيمته، فيسمن ويتضخم على نحو أعظم. إنه مكسبٌ شخصي ومباشر للغاية استولى عليه من العدو. وهكذا يتجه فكر الشاب مبكرًا نحو الحرب. لكن لما كانت هذا العمل يتم سرًا وليلاً فإن ذلك

ارتبط بتصوراتٍ عن البطل كما وصلت إلينا على نحوٍ نادر، فالبطل، كما نعرفه، الذى يمضى وحده تمامًا من دون خوفٍ ليلقى بنفسه وسط أعدائه نصادفه فى جزر "فيجى"⁽⁸⁹⁾.

وهناك أسطورةٌ تُروى عن صبيٍّ كان قد كبر لدى أمه من دون أن يعرف أبوه بأمره، فلما هددها أرغمت على البوح باسم أبيه، وما إن عرف أنه ملك السماء حتى شق طريقه إليه، فكان أن صُدم الأب برؤيته لأنه كان صغيرًا للغاية فقد كان بحاجةٍ إلى رجالٍ وليس صبية، ففى هذه الأثناء كان يخوض حربًا. وكان أن ضحك الرجال حول الملك من الصبى، وهنا شق الصبى بمقمعته رأس أحد الساخرين منه فغمرت السعادة الملك وطلب منه البقاء.

فى صباح اليوم التالى، فى وقتٍ باكرٍ للغاية، صعد الأعداء بصيحات الحرب إلى المدينة هاتفين: "اخرج إلينا يا ملك السماء، إننا جوعى، فاخرج إلينا حتى نأكل". هنا نهض الصبى وقال: "لا يتبعنى أحدٌ، فلتبقوا جميعًا بالمدينة!" وأخذ بيده مقمعه التى صنعها بنفسه وألقى بنفسه وسط الأعداء وهو يطيح ذات اليمين وذات اليسار، وبكل ضربةٍ كان يقتل واحدًا حتى فروا فى النهاية من أمامه، أما هو فجلس فوق كومٍ من الجثث وصاح بأهله بالمدينة: "اخرجوا وجروا القتلى". فخرجوا وهم ينشدون أغنية الموت وجروا الاثنين وأربعين جثةً بينما كانت الطبول تدوى فى المدينة. وكان أن ضرب الصبى أعداء أبيه أربع مراتٍ أخرى حتى دب اليأس فى قلوبهم فجاءوا ملك السماء طالبين السلام: "فلترحمنا أيها السيد ولتُبْق على حياتنا". هكذا صار هذا بلا أعداءٍ، وقد فرض سيادته على السماء كافةً.

هنا يأخذ الصبى الأمر على كاهله وحده فى حرب الأعداء ولم تذهب أى من ضرباته سدى. وفى نهاية المطاف يُرى جالسًا فوق كومٍ من الجثث، وكل ممن جلس فوقهم كان قد قتله بنفسه، ولكن علينا ألا نعتقد أن الأمر قد انتهى على هذا النحو فى الأسطورة، فهناك أربعة أسماء مختلفة لبطل "فيجى"، فمن قتل واحدًا كان يدعى "كوروى"، و"كوالى" كان من قتل عشرةً، وقتل "فيسا" عشرين، وكان "وانجكا" هو الذى قتل ثلاثين، فكان الزعيم الشهير الذى كان إنجازاه أعظم يدعى "كولى - فيسا- وانجكا" فكان هو من قتل "10+20+30" أى ستين إنسانًا. وقد تكون إنجازات مثل هؤلاء الأبطال تثير إعجابًا أعظم من إنجازات أبطالنا.

فبعد أن قتلوا أعداءهم قاموا بالتهامهم أيضًا. وإذا ما كان هناك زعيمٌ كان يضر كراهيةً شديدة نحو شخصٍ ما فإنه يحتفظ لنفسه به ليأكله كله وحده، ولا يعطى بالفعل أحدًا أية قطعة منه. لكن قد يحتج البعض بأن البطل لا يحارب الأعداء فحسب، بل إن أعداءه الرئيسيين في الأسطورة هم الأشباح الذين يحرر شعبه منهم. فالشبح يلتهم شيئًا فشيئًا شعبًا كاملاً فلا يقوى أحدٌ على درء خطره عن نفسه. وفي أفضل الأحوال ينتهى الأمر إلى وضع نظامٍ للرعب، فهؤلاء وأولئك من الناس يقدمون إليه سنويًا ليلتهمهم، وهنا يرحم البطل شعبه ويخرج وحيدًا ليقول الشبح المتوحش بيديه، فيحمد الشعب له ذلك ويظل وفيًا لذكراه. وهو يظهر كقوامٍ نوراني من خلال حصانته التى أنقذ بها الآخرين جميعًا. إلا أنه توجد أساطير تقر بوضوح بعلاقة هذا القوام النوراني بكوم الجثث التى لا تكون من الأعداء فقط. وأكثر هذه الأساطير تركيزًا تُنسب إلى شعب "أويتوتو" بجنوب أمريكا⁽⁹⁰⁾. وقد وردت هذه الأساطير بمجموعة "K.th. Preuss" المهمة والتى لم تلق الاهتمام الواجب. ونحن نعرضها كالتالى فى صيغةٍ موجزة ما دامت تتسق مع مادة موضوعنا:

على ضفة نهر ما كانت فتاتان تعيشان مع أبيهما، وذات يوم شاهدتا فى الماء ثعبانًا صغيرًا جميلًا للغاية فحاولتا الإمساك به، إلا أنه أفلت منهما عدة مرات. حتى قام أبوهما بجدل مصفاة دقيقة بناءً على طلبهما، وبها اصطادتا الثعبان الصغير وعادتا به إلى البيت وقامتا بوضعه فى إناءٍ به ماء، وقدمتا له كل أنواع الغذاء إلا أنه رفض كل شيء، اللهم إلا عندما واثت الأب فكرةً فى منامه بأن يطعم الثعبان نوعًا خاصًا من النشاء، فبدأ يلتهمها بنهم. فصار الثعبان فى حجم خيط، ثم مثل حجم أُملة، لتضعه الفتاتان فى إناءٍ أكبر. واستمر الثعبان فى التهام النشاء ليصير فى سُمك الذراع، فوضعتاه حينئذٍ فى بحيرةٍ صغيرة فظل يلتهم النشاء بنهمٍ أعظم، وكان فى أثناء تقديم الغذاء قد شعر بالجوع، حتى إنه قبض بضمه على يد وذراع الفتاة التى تقدم له الطعام. وسرعان ما نما فصار فى حجم شجرةٍ سقطت فى الماء، وبدأ يقترب من البر ليلتهم الذرة البيضاء وحيواناتٍ أخرى، إلا أنه كان دائمًا ما يعود ملبئياً نداء الإغراء ليزدرد كمياتٍ هائلة من النشاء التى كانت الأختان تقدمانها له. وقد حفر لنفسه كهفًا أسفل القرى وجذوع الأشجار وبدأ فى التهام أجداد البشر، أى أول أناسٍ على وجه الأرض. "أيها الحبيب تعال لتأكل!" هكذا هتفت الفتاتان ليتقرب الثعبان وأمسك وعاء النشاء الذى

حملته إحدى الأختين فوق ذراعها وحتى رأسها فابتلع الفتاة ومضى بها بعيداً، فركضت الأخت الأخرى لتروى ذلك لأبيها الذى قرر الثأر، فلعلق تبغاً، كعادة هؤلاء الناس، عندما يقررون قتل كائن ما، ووافته في منامه فكرة وسيلة تمكنه من الانتقام فجهز نشاء ليقدمها كغذاءٍ للثعبان وناداه هذا الذى ازدرد ابنته وقال له: "ابتلعنى". وقد كان على استعداد لتحمل كل شيء، وشرب من إناء التبغ المعلق برقبته، ولبى الثعبان ندائه وأمسك هو بصحيفة النشاء التى كان يرفعها عاليًا، وهنا وثب إلى داخل حلقومه وقبع هناك. "قد قتلتها" هكذا فكر الثعبان وجرد الأب ومضى به بعيداً. وبعد ذلك التهم قبيلةً كاملة. وتعفن الناس فوق جسد الأب، ثم مضى الثعبان ليزدرد قبيلةً أخرى، ويتعفن الناس فوق جسد الأب، فبينما كان هو يقف هناك كان الناس يتحللون فوقه، وكان عليه تحمل الرائحة الكريهة. وقد ازدرد الثعبان كل القبائل على النهر فأجهز عليهم إلى حد أنه لم يبق منهم أحد. وكان الرجل قد أخذ معه محارةً من البيت ليشق بها بطن الثعبان إلا أنه لم يكن يقطع ويشق إلا بالقدر القليل ليشعر الثعبان بالألم من جراء ذلك. ثم التهم الثعبان قبائل على نهرٍ آخر فخاف الناس فلم يخرجوا إلى المزارع بل بقوا في ديارهم دائماً. أما التجوال فلم يكن ممكناً على الإطلاق لأن في وسط الطريق كان كهف الثعبان، فإذا ما رجع أحدهم من الحقل أمسك به وجره بعيداً، فكان أن بكى الناس وخافوا أن يلتهم الثعبان أحدهم ولم يعودوا يخطون خطوةً واحدةً إلى الخارج. وعندما كانوا ينزلون من محفاتهم المعلقة كانوا يخشون وجود كهف الثعبان هناك فيمسك بهم ويجرهم بعيداً. وعلى جسد الرجل كان الناس يتعفنون ويتحللون فصار يشرب عصير التبغ من الإناء ويقوم بقطع مواضع داخل جسد الثعبان حتى صار هذا يتألم ألماً عظيماً "ماذا جرى لى؟ لقد ابتلعت دايوهما المقطّع وأشعر بالألم!". هكذا قال الثعبان وهو يصرخ. ثم كان أن مضى إلى قبيلةٍ أخرى فخرج من الأرض وانقض على الناس جميعاً فلم يستطيعوا الذهاب إلى أى مكانٍ آخر ولم يوجدوا على النهر، فإذا ما جلبوا ماء من الميناء أمسك بهم الثعبان وجرهم بعيداً، وإذا ما مست أقدامهم الأرض صباحاً كان يمسك بهم ويأخذهم معه. أما الرجل فقد مزق بطن الثعبان بالمحارة ليصرخ هذا: "ماذا جرى؟ إننى أعانى من الآلام وقد ابتلعت دايوهما (الممزق)". وهنا حذرته أرواحه الحامية: "دايوهما، إن هذا ليس الميناء على النهر حيث تقيم، فلتأخذ حذرك وأنت تمزق، فميناؤك ما زال بعيداً للغاية". وبعد

هذه الكلمات توقف عن تمزيق بطن الثعبان. أما الثعبان فمضى ليلتهم بقية الناس الذين التهم بعضًا منهم قبل ذلك وأمسك بهم في الحال. "إنه لم يتوقف بعد؟ لقد استأصل أهلنا" هكذا تكلم أهل القرى وكانوا قد ذبلوا. فلم يكن لديهم ما يأكلونه. وكان الناس يُقضى عليهم ويتحللون فوق جسده، وفي أثناء ذلك كان هو يشرب من علبة التبغ ويقطع في جسد الثعبان. هكذا قبع دايهوما دائمًا هناك في داخله ومنذ زمنٍ لم يعرف قدره كان الشقى لم يأكل شيئًا ولم يشرب سوى عصير التبغ، فماذا كان سياًكل؟ فشرب عصيراً وبقي هادئاً رغم كل روائح التحلل الكريهة. أما القبائل فقد قُضى عليها بعد أن التهم الثعبان أجساد الجميع من النهر حتى سفح السماء، فلم يعد هناك وجودٌ للبشر. فكان أن قالت له أرواحه المعاونة: "دايهوما هذا ليس ميناؤك على النهر حيث تسكن، فاستأنف الآن القطع بقوة، فبعد منعطفين للنهر ستكون بدارك". فلما قطع دايهوما، قالت له: "مزق دايهوما، مزق بقوة". وهنا مزق دايهوما فشق وبقر فروة البطن في الميناء، وقفز من خلال فتحةٍ إلى الخارج. وما إن صار بالخارج حتى جلس وهناك حلق رأسه تمامًا حتى صار أصلع. وصار الثعبان يتقلب هنا وهناك. هكذا رجع الرجل في حالةٍ بائسة بعد ما قضى داخل الثعبان زمناً لا يقدّر، فكان أن اغتسل جيداً ووصل إلى كوخه فرأى ثانيةً ابنته التى فرحت بأبيها.

طبقاً للنص الكامل لهذه الأسطورة الذى قدمنا له ملخصاً موجزًا للغاية، فإن هناك ما لا يقل عن خمسة عشر موضعاً مستقلاً وصفت كيف تعفن الناس فوق البطل داخل الثعبان، فكانت هذه الصورة الملحة للغاية المنطوية على شيء قاهر هى التى تتكرر غالباً في الأسطورة، إلى جانب صورة الالتهام. وبفضل احتساء عصير التبغ كان دايهوما يحفظ حياته. وما ميز البطل كان هذا الهدوء والثبات وسط عفنٍ شامل. فقد تحلل فوقه كل البشر إلا أنه كان دائماً هناك، وحده في قلب العفن الشامل، صلب العود لا يحيد عن هدفه. فإذا شئنا قلنا إنه البطل البريء فلا ذنب له فيما أصاب الآخرين من عفنٍ، لكنه تحمل العفن وهو في قلب العفن فلم يكسره ذلك، بل كان هذا - إن جاز لنا قول ذلك - هو ما أبقى عليه. إن تكثيف أحداث هذه الأسطورة، حيث جرت كل أحداثها المهمة داخل الثعبان بالفعل، هو أمرٌ غير قابل للجدل، فهو الحقيقة ذاتها، فالبطل هو من يبقى على قيد الحياة دائماً وأبداً وسط ظروف خطيرة، ولكن ليس البطل وحده هو من يبقى حيًا، فهناك حدثٌ بنفس القيمة يجرى على كتلة ذويه، أى

تحديدًا عندما يُقضى عليهم جميعًا، فكيف يتسنى لأحدهم إنقاذ نفسه في حربٍ ما إذا مات كل ذويه؟ وكيف يكون شعوره؟

هذا ما يفسره لنا موضعُ بأسطورةٍ خاصة بالهنود الحمر سجلها "Koch-Gru-enberg" عن قبائل الـ"تاولييانج" بجنوب أمريكا.⁽⁹¹⁾

لقد وصل الأعداء وهاجموهم. جاءوا إلى القرية المكونة من خمسة بيوتٍ فأحرقوا منها موضعين ليلاً حتى تضاء فلا يتسنى لأهل القرية الفرار في جنح الظلام، فقتلوا الكثيرين بالمقامع في أثناء فرارهم من ديارهم. وكان هناك رجلٌ يدعى "ميتشاول" قد رقد سالماً بين كومٍ من الأموات، ولطخ وجهه وجسده بالدماء كي يخادع الأعداء الذين ظنوا أن الجميع قد ماتوا، فمضوا إلى حال سبيلهم ليبقى الرجل وحيداً. ثم مضى فاغتسل وذهب إلى دارٍ أخرى لم تكن بعيدةً معتقداً بوجود أناسٍ هناك، لكنه لم يجد أحداً بعد أن هرب الجميع، ولم يعثر إلا على أرغفة نبات المنيهوت وقديدٍ قديم، فأكل، ثم خطر بباله مغادرة الدار ليذهب إلى مكانٍ بعيد فجلس وأخذ يتدبر الأمر، فتذكر أباه وأمه اللذين قُتلا على يد الأعداء فلم يعد له أحدٌ. ثم قال: "أريد أن أرقد إلى جوار رفاقي الموتى"، فعاد إلى القرية المحترقة تتملكه الرهبة. وهناك كان الكثير من الصقور، وكان ميتشاول طبيباً ساحراً، وكان قد حلم بفتاةٍ جميلة، فطرد الصقور ورقد بجوار رفاقه الموتى ولطخ نفسه ثانيةً بالدم ووضع يديه على رأسه حتى يتسنى له المبادأة في الحال. ثم جاءت الصقور مرةً أخرى لتتنازع الجثث، وهنا جاءت ابنة ملك الصقور، فماذا فعلت ابنة ملك الصقور؟ لقد وقفت فوق صدر ميتشاول، فلما شئت شق بطنه أمسك هو بها ففرت الصقور، فقال لابنة ملك الصقور: "فلتتحولي امرأةً، فأنا هنا وحيدٌ للغاية، وليس عندي من يساعدني". ثم أخذها معه إلى الدار المهجورة وهناك احتفظ بها طائراً أليفاً. وكان أن قال لها: "سوف أمضى الآن لصيد السمك فلما أعود أجذك قد صرتِ امرأةً!".

هكذا نجده في مبدأ الأمر قد رقد بين الأموات حتى ينجو بنفسه، فتظاهر بأنه واحدٌ منهم حتى لا يعثر الأعداء عليه، ثم اكتشف أنه الوحيد الباقي، فشعر بالحزن والخوف، فقرر أن يرقد ثانيةً بين رفاقه الموتى، وربما خطر بباله في البداية أن يشاطرهم مصيرهم، لكنه لم يأخذ الفكرة بكثيرٍ من الجدية بعد أن حلم بفتاةٍ جميلة، فلما لم ير حوله سوى الصقور، فأمسك بإحداها ليتخذها

زوجةً. وقد نضيف إلى ذلك أن الطائر قد تحول حسب رغبته إلى امرأة. ومن المثير للانتباه هذا العدد الكبير من القبائل - على وجه الأرض كافة - التي نشأت من زوجين بقيا وحدهما على قيد الحياة. وهى الحالة الشهيرة للغاية المعروفة بالطوفان الواردة بالإنجيل، وقد خفت وطأة حكمها بمنح نوح الحق في اصطحاب أسرته كلها، فقد سُمِح له باصطحاب قبيلته في السفينة وزوجًا من كل كائن حي، لكنه كان هو فقط من نظر إليه الرب بعين الرحمة، أى ميزة البقاء على قيد الحياة، وهى هنا حالة دينية، فمن أجله فقط سُمِح للآخرين بالصعود إلى السفينة.

وهناك مثال أكثر تجريدًا من الأسطورة ذاتها، وهى حكايات يُقَصَّى فيها على كل البشر الآخرين فيما عدا الزوجين والدى القبيلة. وهذه الحكايات لا ترتبط دائماً بفكرة الطوفان. فهى فى الغالب حالات وباء، يموت فيها الجميع فيما عدا رجلاً واحداً فقط، يظل يبحث فى كل مكان حتى يلقى امرأةً واحدةً فقط أو ربما اثنتين فيتزوجهما ليغرس بذرة نسل جديد. وما يُضاف إلى قوة ومجد هذا الجد هو أنه كان ذات مرةً الوحيد الباقي. فهذا نوعٌ من الفضل يُنسب إليه وإن لم يُذكر ذلك صراحةً، فهو لم يُقَصَّ عليه مع الآخرين من أقرانه. وإضافةً إلى مكانته التى يتمتع بها كجدٍ لكل نسله يكون الاحترام للقوة الطيبة التى ساعدته على البقاء حيًا. وقد لا يكون هناك ما يميزه عن كثيرين من رفاقه فى أثناء حياته بينهم، فقد كان إنسانًا كالآخرين جميعًا، إلا أنه يصير فجأةً وحيدًا تمامًا. ليلي ذلك استعراضٌ لتفاصيل رحلته، ويحتل القسم الأكبر من ذلك بحثه عن الأحياء الذين يجد بدلاً منهم جثثًا فى كل مكان. لكن يقينه المتنامى بعدم وجود أحدٍ غيره بالفعل يغمره بالقنوط. وهناك ملاحظةٌ أخرى أيضًا لا يمكن تجاهلها وهى أن البشرية التى تبدأ به ثانيةً، والتى تدين له وحده بالفضل، والتى من دونه ومن دون شجاعته ما كانت لتبدأ مرةً أخرى ولم تكن لتوجد على الإطلاق. ومن بين أبسط ما وصلنا من تراثٍ من هذا النوع واحدةٌ عن أصل الـ"كوتناي"، ونصها كالتالى⁽⁹²⁾:

عاش الناس هناك. وفجأةً ظهر وباءٌ فماتوا. مات الجميع وكانوا قد طافوا بكل مكانٍ يخبر بعضهم البعض بالنبأ. وقد تفشى المرض بين جميع أفراد الـ"كوتناي"، فمضوا إلى موضعٍ ما، وروى ذلك بعضهم لبعض، وهو ما حدث فى

كل مكان. وفي موضع ما لم يجدوا أحدًا، فقد مات الجميع، فقط كان هناك شخص قد تبقى. وذات يوم شفى "هذا الباقي"، وقد كان رجلًا، وكان وحيدًا، ففكر: "سوف أطوف أرجاء العالم وأرى إن كان هناك أحدٌ بمكان ما، فإذا لم يكن هناك أحدٌ فإننى لن أعود لأنه لا يوجد أحدٌ هنا، ولن يأتى أحدٌ أبدًا لزيارتي". فكان أن رحل في زورقه ليصل إلى آخر مخيم للـ"كوتناى". وعندما جاء إلى حيث كان عادةً ما يوجد بشر على الضفة، لم يجد هناك أحدًا. وعندما طاف بأرجاء المكان لم ير سوى موتى، ولم يوجد بأى مكانٍ ما يشير إلى وجود أحياء، وهنا أدرك أنه لم يبق أحد بالمكان، فواصل ترحاله في زورقه. فلما وصل موضعًا آخر نزل، ومرةً أخرى لم يجد سوى موتى. وفي المكان كله لم يجد أحدًا. فشق طريق العودة ووصل المستوطنة الأخيرة حيث كان يعيش أفراد الـ"كوتناى". وكان أن دخل المكان ولم يكن بالخيام سوى جثثٍ مكدسة. وهكذا صار يطوف في كل مكانٍ ليرى أن الجميع قد ذهبوا. وكان في أثناء سيره يبكى وهو يقول لنفسه: "إننى الوحيد الذى تبقى، حتى الكلاب نفقت". وعندما وصل القرية الأخيرة رأى آثار أقدم بشرية، وهناك كانت خيمة، ولم يكن بها جثث، وكانت القرية على الجانب الآخر فأدرك حينئذٍ أن هناك اثنين أو ثلاثة من البشر ما زالوا أحياءً بعد أن رأى آثارًا كبيرة وأخرى صغيرة، ولكنه لم يستطع الجزم بأنها لثلاثتهم، لكن كان هناك شخصٌ قد نجا، فواصل الترحال وهو يفكر: "سوف أجدف في هذا الاتجاه، فمن كانوا يعيشون هناك سابقًا كانوا يجدفون في هذا الاتجاه. فإن كان هناك رجلٌ فرمًا كان قد ارتحل". وفي أثناء جلوسه على هذه الحال بزورقه رأى على مسافةٍ ما دبين أسودين، ورأى كيف يأكل الدبان ففكر: "سوف أمضى لأقتلهم، فإن قتلتهما فإنى سوف أكلهما وسوف أجفف اللحم ثم أبحث عما إذا كان هناك أحد الناجين، فلقد رأيت آثار بشر، وقد يكونون رجالاً أو نساءً جائعين فيجب أن أوفر لهم أيضًا ما يأكلونه". فمضى في اتجاه الدبين حتى وصل إلى مقربةٍ منهما ورأى أنهما لم يكونا دبين بل امرأتين، كانت إحداهما أكبر سنًا وكانت الأخرى فتاةً شابة، ففكر: "إنى فرحٌ لرؤيتى بشرًا وسوف أتخذ هذه المرأة زوجةً". فمضى إلى هناك وأمسك بالفتاة، فقالت الفتاة لأمها: "أمى إنى أرى رجلًا". فطلعت الأم ورأت أن ابنتها تقول الحق، ورأت كيف أخذ الرجل ابنتها. هنا بكى المرأة والفتاة والشاب، فقد كان كل أفراد الـ"كوتناى" قد ماتوا، فلما نظر كلٌ منهم إلى الآخر بكوا جميعًا معًا. أما المرأة فقالت: "لا تأخذ ابنتى فهى ما زالت صغيرة

ولتأخذنى أنا فتصير زوجى وفيما بعد عندما تكبر ابنتى سوف تصبح لك زوجة، ثم يصير لك أبناء". فتزوج الشاب المرأة الأكبر سنًا ولم يمض وقتٌ طويل حتى قالت المرأة: "الآن قد كبرت ابنتى، الآن يمكنها أن تصير زوجتك. فمن الخير أن يكون لكما أبناء فجسدها صار الآن قويًا". وهنا اتخذ الشاب الفتاة زوجةً له. ومنذ تلك اللحظة تكاثرت الـ"كوتناى".

أما النوع الثالث من الكوارث فيكون أحيانًا بمثابة إحدى تبعات وباءٍ أو حرب، وهو الانتحار الجماعى وهو ما يتخلف عنه كذلك "باقون على قيد الحياة". وهنا تحل إحدى الأساطير مكانها المناسب وهى أسطورة الـ"با - إيل"، وهو أحد شعوب الـ"بانتو" فى روديسيا⁽⁹³⁾. فقد كانت هناك أسرتان من الـ"با إيل" اتخذت إحداهما اسمها من الأغنام والأخرى من الدبابير، وقد نشب بينهما نزاعٌ كان يدور حول من من الأسرتين لها الحق فى الحصول على شرف الزعامة. فأما أسرة الأغنام والتي كان لها السبق فى ذلك، فكانت قد خسرت هذا المنصب، فقرر أفراد الأسرة بدافع كرامتهم المجروحة أن يغرقوا أنفسهم جميعًا فى البحيرة. فكان أن جدلوا جلدًا طويلًا للغاية رجالًا ونساءً وأطفالًا. ثم تجمعوا عند ضفة النهر وربطوا الحبل حول أعناقهم الواحد تلو الآخر وألقوا بأنفسهم فى الماء. وكان رجلٌ من أسرةٍ ثالثة تدعى عائلة الأسد متزوجًا بامرأةٍ من أسرة الأغنام، فحاول منعها من الانتحار، فلما لم يفلح فى ذلك قرر الموت مع زوجته. وقد شاءت الصدفة أن يكون هذان هما آخر من ربطا نفسيهما بالحبل، فخاضا الماء مع الآخرين وأوشكا على الغرق، فلما أحس الرجل بألم ما قطع الحبل وخلص نفسه وزوجته، فحاولت هى الإفلات منه وصاحت: "دعنى وشأنى! دعنى وشأنى!" إلا أنه لم يتراجع وحملها إلى البر. ولذلك يقول أفراد الأغنام: "كنا من أنقذكم من الانقراض. لقد كنا نحن أولئك!".

وفى نهاية المطاف كانت هناك فكرةٌ لاستخدام وإعٍ للبقاء على قيد الحياة وهى تنتسب للعصور التاريخية، كما أنها موثقة. ففى صراع تطهيرٍ عرقى بين اثنتين من قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبية كان رجلٌ وحيد من جانب الأعداء المدحورين قد تُرك على قيد الحياة ليُرسل إلى قبيلته. وكان عليه إبلاغهم بما رآه، فكان عليه أن يثبُط أية عزيمةٍ لديهم فى استمرار القتال. ولنقرأ ما دونه "Humboldt" فى تقريره حول رسول الفزع هذا⁽⁹⁴⁾:

كانت المقاومة العنيدة التي أبدتها قبيلة الـ"كابري" المتحدة بقيادة زعيمٍ باسل ضد قبائل الـ"كاراين" كفيلةً بالقضاء على هؤلاء بعد عام 1720، فقد دحروا أعداءهم عند مصب النهر وقَتَلَ جمعٌ غفير من الـ"كارين" في أثناء فرارهم بين شلالات الماء وإحدى الجزر. أما الأسرى فقد تم أكلهم على أقصى نحوٍ من القسوة والوحشية، وهو أمرٌ اعتادته شعوب جنوب وشمال أمريكا. وهكذا تركوا أحد أفراد الـ"كارين" ليكون شاهداً على الفعل الوحشي، فجعلوه يصعد شجرةً ليلبغ على الفور المدحورين بما جرى. إلا أن نشوة زعيم الـ"كابري" بالنصر لم تدم طويلاً، فقد هجم الـ"كاراين" بكتلٍ غفيرة حتى أنه لم يتبق من الـ"كابري"، أكلى لحوم البشر، إلا عددًا بئسًا.

وقد كان هذا الذي تركوه حيًا بغرض الإهانة، قد رأى من موقعه على الشجرة كيف يؤكل أهله، فكل المحاربين الذين خرج معهم سقطوا في أثناء القتال أو انتقلوا إلى معدة الأعداء، وهو من أرغم على البقاء حيًا وتم إرساله إلى أهله، وكانت مشاهد الفزع ما زالت ماثلةً أمام عينيه. وكان مغزى الرسالة كما ظن الأعداء هو: "واحدٌ منكم تبقى، هكذا نحن أقوىاء فلا تجرؤوا ثانيةً على قتالنا". لكن هول ما رآه وبقائه وحيداً، وهو ما أرغم عليه، كان له أثرٌ كبير جعله يأقٍ بالنقيض فيحرض أهله على الثأر ليتدفق الـ"كاراين" من كل مكانٍ بجموعٍ غفيرة ليضعوا للأبد نهاية للـ"كابري".

هذه الوثيقة، وهي ليست فريدةً من نوعها، تظهر مدى الوضوح الذي يرى به شعوب الطبيعة هذا الباقي على قيد الحياة. وهم يدركون حقيقةً موقفه الخاص تمامًا. وهم يعتمدون على ذلك ويحاولون استخدامه لخدمة أغراضهم الخاصة. ويعتبر الطرفان، الأصدقاء والأعداء، أن هذا الكاريبي الذي كان على الشجرة قد أدى دوره على خير وجه. فإذا تأملنا هذا الدور المزدوج بشيءٍ من الجرأة فإننا سنتعلم منه الكثير.

الأموات كالأحياء

ما من أحد اهتم بوثائق أصلية عن الحياة الدينية إلا وأصابته سلطة الموتى بالدهشة. فوجود قبائل كثيرة اعتمد أساسًا على شعائر مرتبطة بالموتى. أما أول ما يلفت الانتباه، وهو منتشرٌ بكل مكان، فهو خشية الموتى، غير الراضين والمترعين بحسد أقاربهم الذين تركوهم ومضوا، وأحيانًا ما يسعون للانتقام منهم من جراء إهاناتٍ لحقت بهم في أثناء حياتهم، وغالبًا ما يسعون لذلك فقط لأنهم لم يصبحوا على قيد الحياة. وحسد الموتى هو أكثر ما يخشاه الأحياء الذين يحاولون تهدئة روع هؤلاء بتملقهم مقدمين لهم الغذاء، فيعطونهم كل ما يحتاجونه زائدًا لطريقهم إلى أرض الموتى فقط حتى يظلوا بعيدًا ولا يعودوا ثانيةً ليلحقوا بهم أذى ويعذبوا الباقين على قيد الحياة. وأرواح الموتى يرسلون الأمراض أو يجيئون هم بها، كما أن لهم تأثيرًا على نمو الحيوانات البرية والمحاصيل، وهم يتدخلون في شؤون الأحياء بمئة طريقة. أما شغفهم الحقيقي الذى يتبدى من حينٍ لآخر، فهو استدعاء الأحياء إليهم. ولما كانوا يحسدون كل أدوات تُستخدم في الحياة اليومية، وهى ما اضطروا لتركها، فقد جرت العادة في البداية ألا يُحفظ بأي من هذه الأدوات أو أقل ما يمكن منها. فكان كل شيء مهم يُحمل معهم إلى القبر أو يتم حرقه معهم، والناس يغادرون الكوخ الذى سكنه هؤلاء ولا يعودون إليه أبدًا، وغالبًا ما كانوا يُدفنون في ديارهم مع كل ما يملكونه ليبرهنوا على أن أحدًا لم

يحتفظ بشيء من هذا لنفسه. إلا أن ذلك أيضًا لم يكن كافيًا للخلاص التام من سخطهم، فحسد الموتى الأعظم لم يكن موجّهًا لأدوات كانوا يأمرّون بإعادة صنعها أو الحصول عليها إنما كان حسدهم موجّهًا للحياة نفسها. وقد صار الآن يقينًا لافتًا للانتباه أن هذا الشعور نفسه يُنسب للموتى في كل مكان وفي كل الظروف، مهما كان اختلافها. والإحساس نفسه - كما يبدو- يسود موتى كل الشعوب، فدائمًا ما كانوا يتمنون البقاء على قيد الحياة. أما الذين ما زالوا هنا فهم يرون أن كل من لم يعد هنا قد لقي هزيمة ما، تأسيسًا على أن غيره بقى على قيد الحياة، لذا لا يرتضى أولئك ذلك، فكان من طبائع الأمور أن يذيقوا الآخرين هذا الألم الأعظم الذى قاسوا منه. هكذا يكون كل ميت هو من ترك خلفه أحياء، إلا في تلك الكوارث الكبيرة النادرة نسبيًا التى يموت فيها الجميع معًا، فهنا تكون العلاقة مختلفة. أما الموت الفردى، وهو ما يهمنا هنا، فهو أمرٌ يتعلق بإنسانٍ ما قد انتزع من أسرته، من أهله فتكون هناك جماعة كاملة من الباقين على قيد الحياة ما زالت موجودة. والجميع من أهل الميت يشكلون حزمة مناحة تبكيه، فيضاف إلى الشعور بالانكسار، الناشئ عن موته، شعورٌ بالحب الذى يضمّره هؤلاء له. وغالبًا ما يصعب فصل هذا الشعور عن ذاك، والمناحة عليه تكون على النحو الأكثر حرقةً، وهى يقينًا شعورٌ حقيقى فى جوهرها. فإذا جنح غرباء لإثارة الشك فى هذه المناحة فإن هذا يرجع إلى الطبيعة المعقدة لتأويل هذه الحالة، متعددة الوجوه، كحالة مناحة، هؤلاء أنفسهم المشاركون فى المناحة هم أيضًا من الباقين على قيد الحياة، فهم ينوحون لأن المصاب مصابهم وهم يشعرون بنوع من الرضا لأنهم باقون على قيد الحياة، وهم عادة لا يقرون بهذا الشعور الغريب غير اللائق، لكنهم يكونون دائمًا على معرفة دقيقة بمدى شعور الميت بذلك، فهو لا بد له من أن يمقتهم لأن الحياة التى فقدوها ما زالوا هم يحتفظون بها. وهم يستدعون روحه لإقناعه بأنهم لم ييغوا موته، فيذكرونهم بمشاعرهم الطيبة نحوه عندما كان يعيش بينهم ويعددون براهين عملية على أنهم سيفعلون كل ما يشاء وأنهم سوف يخلصون فى تحقيق آخر ما أعرب عنه من أمنيات. وإرادته الأخيرة لها قوة القانون بكل مجال وكل ما يفعلونه ينطوى على دافعٍ راسخ، هو سخطه على حقيقة أنهم ما زالوا على قيد الحياة.

وقد كان أحد أطفال الهنود الحمر فى "ديميريرا"⁽⁹⁵⁾ قد اعتاد أكل الرمال فمات من جراء ذلك. وها هو يرقد فى تابوتٍ مفتوح اقتناه أبوه من نجار مجاور له.

قبل الجنازة كانت جدته قد وقفت حيال التابوت وقالت وهى تنوح: "بنى قد قلت دائماً لا ينبغى أن تأكل الرمل. إني لم أعطك رملًا قط، فقد كنت أعرف أن ليس فيه خير لك، فكنّت تبحث عنه دائماً بنفسك. وقد قلت لك إنه ضار بك. والآن ها أنت ترى أنه قتلك فلا تفعل بي شيئاً، فقد آذيت نفسك بنفسك. أما ما أوحى إليك بأكل الرمال فهو شيء شرير. انظر ها أنا أضع بجوارك سهماً وقوساً لتستمتع بهما. قد كنت دائماً طيبةً نحوك، فلتكن أنت طيباً نحوى ولا تفعل بي شيئاً". ثم تقدمت الأم إلى هناك باكيةً وحادثته بأسلوب ما من الغناء: "بنى، أنا من جئت بك إلى الدنيا حتى ترى كل الأشياء الطيبة وتفرح بها، وهذا الثدى كان غذاءك متى طلبته. وقد صنعت لك أشياء وقمصاناً جميلة، وقمت على رعايتك وطعامك ولعبت معك ولم أضربك قط، فينبغى أن تكون طيباً ولا تلحق بي أى شر". واقترب كذلك والد الطفل الميت وقال: "بنى عندما قلت لك إن الرمل سيقتلك لم تشأ الإنصات إلي، والآن ها أنت ترى، لقد مت. ولقد مضيت واشتريت لك تابوتاً جميلاً ولسوف أضطر إلى العمل حتى أسد ثمنه. ولقد شيدت لك قبراً بموضع جميل حيث كنت تفضل اللعب. وإننى سوف أضعك بالمقام الصحيح وأضع معك رملًا لتأكله، فهو لا يستطيع الآن إلحاق الضرر بك. فلا ينبغى أن تصيبنى بالشقاء. فمن الأفضل أن تبحث عمن جعلك تأكل الرمل".

لقد أحب كل من الجدة والأم والأب هذا الطفل. ورغم أنه كان صغيراً للغاية إلا أنهم خشوا سخطه لأنهم ظلوا على قيد الحياة. وقد شددوا على أنهم لا يد لهم في موته. وقد أعطته جدته سهماً وقوساً، واشترى له الأب تابوتاً غالى الثمن ووضع له رملًا بالقبر ليأكله لأنه يعرف مبلغ حبه له. إن الحنان البسيط الذى أظهره نحو الطفل كان ملموساً إلا أنه انطوى على شيء غريب لأنه كان مرتبطاً بالخشية.

وقد نشأ لدى بعض الشعوب ما يعرف بعقيدة الأسلاف الناشئة عن الإيمان باستمرار الموتي أحياء. ومهما كانت الأشكال الثابتة التى اتخذتها هذه العقيدة فإن أثرها يتبدى في ترويض الأحياء لموتاهم من خلال تلبية أمانى هؤلاء، بأن منحوهم ما يتمنونه بانتظام، فيحافظون على رضاهم بالتكريم والغذاء. فكما كانوا في هذه الحياة، فإنهم يظلون كذلك فيما بعد فيحتلون موقعهم السابق. فمن كان زعيماً قوياً على ظهر الأرض فإنه يكون كذلك في باطنها. وعند التضحية

والدعاء يُذكر اسمه بالمقام الأول فيتم إرضاء حساسيته عن وعى، فإذا ما أوديت فإن خطراً داهماً قد يتبع ذلك. فالمتوفى يحرص على نمو نسله، كما أنه يتحكم في من الأمور، ولذا فلا بد من العمل على إرضاء مزاجه. وهو يحب الإقامة على مقربة من نسله فلا يجوز إتيان ما يطرده من هناك. وهذه الحياة المشتركة مع السلف تتخذ شكلاً حميماً خاصاً لدى الـ"زولو" بجنوب إفريقيا وكانت تقارير الإرسالي الإنجليزى "Callaway" التى جمعها ونشرها هناك هى أكثر الوثائق مصداقية التى توافرت عن عقيدة السلف⁽⁹⁶⁾. فقد ترك الرجال المكلفين بحراسته يتحدثون بأنفسهم ليدون هو ذلك بلغتهم. وكتابه "النظام الدينى للأمازولو" هو كتاب غير متوافر تقريباً، لهذا لم يحظ بالشهرة المناسبة، فهو يُعد من الوثائق الأساسية للبشرية. وأسلاف الـ"زولو" يصيرون ثعابين ويمضون إلى باطن الأرض إلا أنهم ليسوا، كما نظن، ثعابين أسطورية، فهى من النوع المألوف تماماً وهى تجوس بالقرب من الأكواخ التى كانوا هم أيضاً غالباً ما يدخلونها. وبعض من هذه الثعابين تُذكر من خلال سماتها الجسدية، بأسلاف بعينهم يتعرف عليها الأحياء كأجدادهم. لكنها لا تكون ثعابين فحسب فهى تظهر فى الأحلام للأحياء بهيئتها الإنسانية وتتحدث إليهم. وينتظر الناس هذه الأحلام، فمن دونها تكون الحياة غير مريحة، فهم يريدون الحديث مع موتاهم الحريصين على الظهور بأحلامهم بوضوح لا لبس فيه. وأحياناً ما تغيم صورة السلف وتصير معتمة فيعمل الناس على جلائها ثانية من خلال طقوس بعينها. ومن حين لآخر يتم تقديم الأضحيات لهم، خاصة فى المناسبات المهمة، فتُدبَح لهم الأغنام والثيران ثم يُدعون بحفاوة لتناول ذلك، فيناديهم المرء بلقبهم الفخرى الذى يعطونه أهمية عظيمة، فهم يحبون التكریم للغاية، فإذا نُسيت هذه الأسماء الفخرية أو لم تُذكر، اعتبروا ذلك إهانة. أما الحيوان الذى يُضَحى به فلا بد من أن يصرخ عالياً حتى يسمعونه، فالأجداد يحبون هذا الصراخ، أما الأغنام التى تموت فى صمتٍ فلا تُستخدَم كأضحيات لهذا السبب. فالأضحية ليست سوى وجبة يتقاسمها الموتى والأحياء معاً، إنه نوع من "تناول" الأحياء مع الموتى، فهؤلاء يشعرون بالرضا ويطلبون الخير لنسلهم إذا عاش الأحياء على النحو الذى اعتاده الأجداد محافظين على العادات والتقاليد لا يغيرون منها شيئاً مقدمين لهم الأضحيات بانتظام. فإذا ما أصيب فردٌ ما بعلّة فإنه يدرك أنه أثار غضب أحد الأجداد، فيفعل كل شئ من أجل معرفة سر هذا الغضب، فالموتى لا يتوخون

العدل أحياناً فقد كانوا بشرًا يأتون بما يتسق مع شخصيتهم. ومما يستحق الجهد أن نذكر حالةً من تلك التى عاجها "Callaway" بشيءٍ من الإسهاب. وهذه الحالة توضح أن مثل هؤلاء الموقى المكرمين قد لقوا عناية ذويهم الأحياء بسبب أن هؤلاء ظلوا على قيد الحياة. وقصة واحدة من صور هذا السخط، كما نستعرضها الآن، تتسق مع مسار مرضٍ خطير كما نفهمه نحن الآن. فقد مات أخٌ أكبر. فأما ممتلكاته، وعلى نحوٍ خاصٍ للغاية الماشية التى اعتبرت من ممتلكاته، فقد انتقلت إلى أخيه الأصغر. وتبعة هذا الإرث هى أمرٌ مألوف، فالأخ الأصغر الذى انتقل إليه الميراث وقدم كل الأضحيات كما ينبغى لم يعلم بأى خطأ ارتكبه ضد المتوفى. إلا أنه أصيب فجأةً بمرضٍ شديد، ووافاه أخوه الأكبر فى منامه:

(لقد حلمت أنه يضربنى ويقول لى: "كيف يتأتى أنك لم تعد تعرف أنه هو أنا؟"، فأجبت: "فماذا أستطيع فعله حتى ترى أننى أعرفك؟ فأنا أعرف أنك أختى!"، فسألنى: "إن أنت ضحيت بشورٍ فلماذا لا تدعونى؟" فأجبت: "لكننى دعوتك، بل إنى دعوتك باسمك الفخرى. فلتذكر لى هذا الثور الذى ذبحته دون أن أدعوك"، فرد هو: "إنى أريد لحمًا"، فرفضت ذلك وقلت: "لا يا أختى فليس لدى الثور. فهل رأيت ثورًا بحظيرة المواشى؟"، فقال: "لو أنه لم يوجد إلا واحد، فإننى أطلبه". فلما استيقظت شعرت بألمٍ بجانبى فحاولت التنفس ولم أستطع فقد تقطعت أنفاسى).

لقد كان الرجل عنيذًا فلم يشأ التضحية بشورٍ. وقد قال: "إننى حقًا مريض، وإنى أعرف المرض الذى أصابنى". فقال له الناس: "إن كنت تعرفه فلماذا لم تشف منه؟ فهل بوسع رجل أن يتسبب فى إصابة نفسه بالمرض؟ فإذا ما عرف المرض فهل يسعى للموت؟ لأنه إذا غضبت الروح على رجل، فإنه يُقضى عليه". فرد هو: "كلا يا سادق! لقد أصابنى رجلٌ بالمرض وأنا أراه بمنامى إذا أويت إلى الفراش لأنه يشتهى اللحم فهو يجيئنى مراوغًا ويقول إننى لم أدعه عندما ذبحت الماشية وهو ما يدهشنى للغاية لأننى ذبحت كثيرًا من الماشية ولم أذبح إحداها إلا ودعوته. فإن كان يشتهى اللحم فبوسعه أن يقول لى ببساطة: أختى، إنى أشتهى اللحم. لكنه يقول لى إننى لا أكرمه، إننى حانقٌ عليه. وأظنه لا يريد إلا قتلى". فقال الناس: "أعتقد أن الروح يمكن أن تفهم الكلام؟ فأين هو، حتى نخبره برأينا؟ لقد كنا دائمًا موجودين عندما ذبحت الماشية ولقد امتدحته ودعوته بألقابه

الفخرية التى نالها لبسالته. ولقد سمعنا ذلك فإن كان ممكنًا أن هذا الأخ أو أى رجل آخر مات وبُعِث فإنه بوسعنا استجوابه ونسأله: لماذا تتفوه بمثل هذه الأمور؟". فأجاب الرجل المريض: "آخ، إن أخى يسلك هذا المسلك المتغطرس لأنه الأكبر. فأنا أصغر منه، وإنى لأعجب عندما يطلب منى أن أقضى على كل الماشية فهل ترك هو أية ماشية عند موته؟". فقال الناس: "لقد مات الرجل إلا أننا ما زلنا نتكلم معك أنت، وما زالت عيناك تنظران إلينا بالفعل، هذا ما نقوله لك، وفيما يخص الآخر فلنتحاور معه بهدوء، وحتى لو لم يكن لديك سوى شاة فقدمها له، وإنه لعارٌ لو جاء هنا وقتلك. فلماذا ترى أخاك دومًا بالمنام وتصير مريضًا؟ فمن المفترض أن الرجل يحلم بأخيه فيستيقظ معافي". فقال: "حسنًا، سادق، إنى أريد منحه اللحم الذى يشتهيهِ. إنه يطلب اللحم. إنه سيقتلنى. إنه يظلمنى. فأنا أحلم به كل يوم لأستيقظ بعدها متألمًا. إنه ليس رجلًا. فقد كان دائمًا شخصًا بائسًا ينزع للعنف لأنه كان هكذا دائمًا، يقابل الكلمة بالكلمة. فإن حادثه أحدٌ هاجمه فى الحال ليقع شجارٌ ينقلب عراكًا كان هو السبب فيه. إنه لم يفهم قط ولم يعترف فيقول: لقد ارتكبت خطأ كان على ألا أتشاجر مع هؤلاء الناس. أما روحه فهى مثله. إنه سيئٌ. وهو حانقٌ دائمًا، لكنى أريد منحه اللحم الذى يشتهيهِ. فإن رأيت أنه تركنى وشأنى وصرت معافي، فإننى سأذبح ماشيةً من أجله غدًا، وعليه أن يدعنى معافي وأستطيع التنفس، إذا كان هو ذلك فلا ينبغى أن تختنق أنفاسى مثل ما يحدث الآن". فوافقه الناس قائلين: "أجل إذا صرت غدًا معافي فلسوف نعلم أنها كانت روح أخيك. لكن إن أصبحت مريضًا فلن نقول إنه هو أخوك ليكون ذلك مرضًا مألوفًا". وعندما غربت الشمس كان لا يزال يشكو من الألم. لكن عندما حان وقت حلب البقر طلب الطعام واشتهى طعامًا مهروسًا واستطاع ابتلاع شيء من هذا، ثم قال: "أعطونى قليلًا من البيرة فىنى عطشان". فأعطته نساؤه بيرة، وشعر باطمئنان قلوبهن، فلقد سعدن لأن الخوف كان تملكهن وسألن أنفسهن: "أىكون الممرض سيئًا إلى حد أنه لا يأكل شيئًا؟" وقد سعدن فى صمتٍ ولم يبحن بسعادتهن، لكنهن تبادلن النظرات فقط. أما هو فشرب البيرة وقال: "أعطونى قليلًا من تبغ السعوط، دعونى أتناول منه شيئًا قليلًا للغاية". فأعطينه منه فأخذه واستلقى، ثم غلبه النعاس ثانيةً، وفى الليل جاءه أخوه وقال: "حسنًا هل عينت الماشية من أجلى؟ هل تذبحها غدًا؟". فقال النائم: "سوف أذبح إحدى الماشية من أجلك. لماذا تقول لى يا أخى إنى

لا أدعوك أبدًا، وأنا أكرمك بألقاب فخرك عندما أذبح الماشية، لأنك كنت باسلاً ومقاتلاً جيداً؟"، فرد هو: "إن قولي ذلك له ما يبرره، فأنا أشتهى اللحم ولقد متُ بالفعل وتركت لك قريةً، فلديك قريةٌ كبيرة".

- "حسنا، حسناً يا أخى لقد تركت لي قريةً. لكن عندما تركت لي القرية ومت، كنت ذبحت هنا كل ماشيتك".

- "لا إني لم أذبحها كلها".

- "حسناً إذن يا ابن أبي، أطلب مني أن أقضى على كل شيء؟"

- "كلا، إنني لا أطلب منك أن تدمر كل شيء، لكني أقول لك اذبح كي تصبح قريتك كبيرة!"

وكان أن استيقظ وشعر أنه بحالة طيبة، وقد برئ من الألم بجانبه. فجلس ولكز زوجته: "استيقظي وأشعلي ناراً". فاستيقظت زوجته ونفخت في النار وسألته عن حاله فقال: "فلتهدي، فعندما استقيظت كنت معافي". فأخذ شيئاً من تبغ السعوط وحادث أخى. وعندما استقيظت كنت معافي: "أترى أننى قد شفيتك الآن؟ ونعس ثانيةً، فجاءته روح أخيه ثانيةً وقالت: "أترى أننى قد شفيتك الآن؟ فلتذبح الماشية غداً!". وفي الصباح نهض ومضى إلى حظيرة الماشية. ولقد كان له إخوةٌ صغار فدعاهم فمضوا معه: "إني أدعوكم، إننى الآن معافي وأخى يقول إنه قد شفاني". ثم دعاهم أن يحضروا ثوراً، فأحضروه. "أحضروا تلك البقرة العاقر"، فأحضروا الاثنين. وقد جاءوا إلى الطابق الأعلى من الحظيرة فدعاهم بالكلمات التالية: "والآن إذن فلتأكلوا يا أهل بيتنا. إن روحاً طيبة حلت بيننا ليكبر الأطفال ويبقى الناس أصحاء، وإني أسألك يا من هو أخى: لماذا تأتينى ثانيةً ومرة أخرى بمنامى؟ لماذا أحلم بك ثم أصير بعدها مريضاً؟ إن الروح الطيبة تجيء حاملاً أخباراً طيبة، وإني لأشكو المرض طوال الوقت، وما هذه الماشية التى يجب أن يزدريها صاحبها ليصير كل مرة بعدها مريضاً؟ وإني أقول لك توقف عن إصابتي بالمرض، وإني أقول لك فلتزرنى بالمنام وخاطبنى بهدوءٍ وقل لي ماذا تبغى، إلا أنك تأتينى لتقتلنى، فمن الواضح أنك كنت شخصاً سيئاً في أثناء حياتك، فهل ما زلت شخصاً سيئاً بباطن الأرض؟ وإننى لم أتوقع حقاً على الإطلاق أن تكون زيارتك زيارة ودٍ وأن تحمل لي أخباراً طيبة. فلماذا تأتي إلى بالسوء يا أخى الأكبر الذى كان عليه أن يأتى بالخير إلى القرية فلا يجرى عليها شيء شرير؟ فأنت حقاً مالك القرية". ثم ألقى بالكلمات التالية على الماشية وصلى شكرًا: "ها

هى الماشية التى سأضحى لك بها. فهذا ثورٌ أحمر، وهذه بقرةٌ عاقر حمراء وبيضاء اللون، فلتذبحها! وإنى أقول: فلتحادثنى بودٍ حتى أستيقظ بلا ألم، وإنى أقول: فلتدع كل أرواح بيتنا لتجتمع هنا حولك يا من تشتهى اللحم". ثم أمر: "انحروها". فأخذ أحد إخوته رمحًا وطعن البقرة العاقر فهوت وطعن الثور فتهاوى وعلا شخيرهما، فقد قتلهما ونفقًا. فأمرهم بسلخهما، فتم سلخهما، فنزع الجلد عنهما وأكلوهما فى حظيرة الماشية. وقد اجتمع كل الرجال ودعوا إلى الطعام وقد أخذوا منه قطعةً فقطعة، فأكلوا وصاروا راضين وصلّوا شكرًا وقالوا: "نحن نشكر يا ابن فلان وفلان. فإذا ما أصابتك روحٌ بمرض، فلسوف نعرف أنه أخوك الشقى، ولم نكن نعرف خلال مرضك الشديد أننا سنأكل لحمًا معك، وها نحن نرى الآن أن الشقى يبغى قتلك ونحن فرحون بأنك استعدت صحتك".

"إننى قد متُّ" كان هذا هو ما قاله الأخ الأكبر. وفى هذه العبارة نكون قد أدركنا جوهر نزاعهما وسبب المرض الخطير وأساس هذا التقرير، وكيف كان سلوك المييت. ومهما كان مطلبه فهو قد مات بالفعل ولديه ما يكفى من أسباب المرارة. وقد قال: "تركْتُ لك قريةً" ثم يضيف بعد ذلك مباشرة "لديك قريةٌ كبيرة". إن حياة الآخر هى هذه القرية، وكان بوسعه أن يقول أيضًا: "إننى ميتٌ وأنت ما زلت حيًا"، إنه هذا الاتهام الذى يخشاه الباقى على قيد الحياة. ولما كان يعايش هذا الاتهام فى منامه فإنه يعطى للميت الحق، فقد ظل بعده على قيد الحياة. إن عظم هذا الظلم الذى يتضاءل كل ظلمٍ بجواره هو ما يعطى المييت سلطةً لتحويل الاتهام والمرارة إلى مرضٍ شديد. "إنه يبغى قتلى" هكذا يقول الأخ الأصغر، لأنه قد خطر بباله أنه قد مات بالفعل. وهكذا يكون قد أدرك تمامًا سر خوفه منه. ولكى يصلحه فإنه يرتضى فى النهاية بالتضحية. إن البقاء على قيد الحياة بعد وفاة الموتي، كما رأينا، كان يرتبط بشعور الأحياء بضيقٍ عظيم. وحتى عندما تكون هناك صورةٌ ما من التكريم المنتظم فإن المرء لا يستطيع الاطمئنان تمامًا للموتي. وكلما كان أحدهم أعظم شأنًا هنا، كان سخطه أعظم وأخطر فى العالم الآخر. وفى مملكة أوغندا وجد المرء سبيلاً للاحتفاظ بروح الملك المتوفى بين رعاياه الخانعين، فلم يستطيع مفارقتهم ولم تتعد بعد أن تعين عليها البقاء فى هذه الدنيا⁽⁹⁷⁾. فبعد وفاته كان هناك "ماندوا"، أى وسيط، اتخذت منه روح الملك مقامًا لها. أما الوسيط الذى كان كاهنًا فكان لا بد من أن يشبه الملك ويسلك سلوكه نفسه، فكان يحاكي كل خصائص لغته. فإذا ما

تعلق الأمر بملكٍ من عصورٍ قديمةٍ فإن الوسيط كان يستخدم اللغة القديمة المستخدمة من قبل ثلاثئة عامٍ. وهو ما أثبتته إحدى الوثائق لأنه إذا ما مات الوسيط فإن روح الملك تنتقل إلى أحد أفراد أسرته الملكية. وهكذا يتسلم أحد الـ"ماندوا" المنصب من الآخر ليكون لروح الملك سكنٌ دائماً. وهكذا فقد يحدث أن يستخدم الوسيط كلماتٍ لا يفهمها أحدٌ آخر ولا حتى زملاؤه. فمن حينٍ لآخر يسيطر الملك عليه لينزلق إلى حالةٍ من المس، فيجسد الميت بكل التفاصيل. والأسر التي كانت مسئولةً عن تقديم الوسطاء كانت تقوم بتدوين سمات الملك الشخصية عند وفاته بالكلمة والمحاكاة. وكان الملك "كيجالا" قد مات في سنٍ متقدمة وكان وسيطه شاباً صغيراً للغاية. إلا أنه عندما سيطر عليه الملك كان يتحول إلى رجلٍ عجوز، فتغمر وجهه التجاعيد ويسيل اللعاب من فمه ويعرج. وكان يُنظر إلى هذه الأعراض برهبةٍ. فقد كان ذلك يعتبر شرفاً لمن يشاهد ذلك فهو يكون بحضرة الملك ويتعرف عليه. أما هذا الذي استطاع، طبقاً لما طُلب منه، أن يظهر في جسد إنسان، كان هذا هو منصبه، ولم يؤد سوى هذا الدور، فإنه لا يمكنه الشعور بسخط المتوفي بنفس قدر شعور هؤلاء من ماتوا بالفعل. أما الأكثر ثراءً بالتبعات فهو عقيدة السلف لدى الصينيين⁽⁹⁸⁾. ولمعرفة مفهوم الجد لديهم فإنه لا بد من إلقاء نظرةٍ على تصوراتهم عن الروح. فقد اعتقدوا أن لكل إنسان روحين إحداهما هي "بو" الناشئة عن السائل المنوى، وهى بذلك قد وُجدت منذ لحظة التلقيح. أما الروح الأخرى فهي "هون" وتنشأ عن الهواء الذى يتنفسه الإنسان بعد مولده، ثم تتكون بعد ذلك شيئاً فشيئاً متخذةً هيئة الجسد الذى أحيته، إلا أنها تظل غير مرئية. أما الذكاء الذى هو من خصائصها فإنه ينمو معها، فقد كانت هذه هى الروح المتفوقة. وبعد الموت تصعد روح الهواء هذه إلى السماء بينما تبقى روح السائل المنوى مع الجثة فى القبر فقد كانت هذه هى الروح الأدنى التى يخشاها المرء على نحوٍ أعظم فقد كانت شريرةً وحاقدة وتحاول جر الأحياء معها إلى الموت. وفى أثناء تحليل الجسد تأخذ روح السائل المنوى فى التحلل التدريجى كذلك لتفقد فى الختام قدرتها على إلحاق الأذى. وعلى النقيض من ذلك تظل روح النفس الأعلى باقيةً فى الوجود، وهى تحتاج إلى الغذاء، فسيبيلها إلى عالم الموتى كان طويلاً فإذا لم يقدم لها الخلف أى غذاء فإنها تعاني معاناة شديدة وتصير تعسّة عندما لا تفلح فى العثور على السبيل لتصبح بعد ذلك خطيرةً مثل روح السائل المنوى. أما طقوس الجنازة

فكان لها هدفٌ مزدوج، فهي تهدف إلى حماية الأحياء من أفعال الموتى، وتؤمن في الوقت نفسه بقاء أرواح الموتى حيةً، فالعلاقة بعالم الموتى تكون خطيرةً إذا تركت له المبادرة. وهذه العلاقة تكون طيبةً عندما تتجلى في عقيدة السلف ملتزمةً بتعاليم التقاليد وتنفيذها في أوقاتها المحددة. وبقاء الروح حيةً يرتبط بالقوة الجسدية التي اكتسبتها خلال الحياة، وقد اكتسبتها بالغذاء والتعلم. وقد كان هناك فرق بالغ الأهمية، وهو الفرق بين روح لأحد "السادة"، كان "آكلًا للحوم" وتغذى غذاءً جيدًا طوال حياته، وبين "فلاح" كان غذاؤه بسيطاً ورخيصاً وردئياً. ويقول "Granet" إن الأسياد فقط هم من لهم روحٌ بمعنى الكلمة، حتى طول العمر لا يستهلك هذه الروح إنما يثريها، فالسيد يجهز نفسه للموت بأن يتخّم بطعامٍ فاخر ومشروباتٍ مغذية. وعلى مدار حياته يكون قد ضم إليه عددًا لا حصر له من الأرواح. وبذلك يتسع مدى نفوذه ويزداد قوةً، فهو كان قد ضاعف مادة أجداده الغنية الذين كانوا هم أنفسهم قد اتخموا باللحم. فإذا مات لا تتبدد روحه مثل الروح الوضيعة لأنها تفارق الجثة مفعمَةً بالقوة. فإذا عاش السيد حياته طبقًا لقواعد مستواه فإن روحه (بعد موته) المكرمة والمطهرة تمتلك قوةً سامية ووضاءة من خلال الطقوس الجنائزية، فهي تملك قوة الروح الحامية الخيرة وتحفظ في الوقت نفسه بكل ملامح شخصٍ خالد مقدس، فلقد أصبحت هي روح السلف. وحينئذٍ تُكرّس عبادتها الخاصة في هيكلٍ خاص. وهي تشارك في طقوس فصول السنة وفي حياة الطبيعة وفي حياة البلاد. فإذا كان الصيد وفيرًا حصلت على طعامٍ جيد. وهي تصوم إن كان المحصول سيئًا. وتقرب روح السلف من الغلال ومن اللحم ومن لحم الصيد في مراعى الأسياد التي تُعتبر وطنًا لها. لكن بقدر ثراء شخصية روح السلف هذه يكون قدر استمرار قواها المكتسبة، فهناك لحظةٌ تتبعثر فيها هذه القوى وتتلاشى. وبعد أربعة أو خمسة أجيالٍ تفقد مائدة السلف حقها في هيكلٍ خاص بها، وهو ما ظل مرتبطًا بها بفضل شعائر بعينها، فتوضع في صندوقٍ حجري بجوار موائد كل الأسلاف السابقين الذين فقدوا ذكراهم الشخصية. فالجد الذي تصوره وحملوا اسمه لم يعد مكرّمًا كسيدٍ، ويتضاءل تفرد القوي ويتلاشى تدريجيًا حتى ينتهى وجوده ودوره الذي لعبه كسيد. وخلال تكريمه الذي امتد لفترةٍ طويلة يكون قد لقي مصير ميتٍ بسيط في أثناء السنوات الطوال ليعود حينئذٍ إلى كتلة جميع الموتى الآخرين ويكتنفه الغموض مثلها. وليس كل السلف يتجاوز

أربعة أو خمسة أجيال، فهذا يرتبط بمكانتهم الخاصة ويمدى الحفاظ على وجود موائدهم واستدعاء الروح ومناشدتها لتناول الغذاء، فقد تُرْفَع بعض هذه الموائد بعد جيل واحد فقط، لكن مهما طال بها الأمد فإن الحقيقة التي كانت سبب وجودها تغير أحياناً شخصية البقاء على قيد الحياة، فلا يكون حينئذ فوزاً خفياً للابن بأنه ما زال حياً بعد موت أبيه الذي يظل موجوداً كسلف، ويدين الابن له بفضل كل ما لديه. ويتحتم عليه الحفاظ على روحه الطيبة، وعليه كذلك أن يقدم الغذاء لأبيه كميت، ويحرص كل الحرص على ألا يظهر تعالياً عليه. وما دام الابن حياً تكون روح سلف الأب موجودةً على أية حال. وكما رأينا فإنها تحتفظ بكل ملامح شخصية معينة معروفة، إلا أن اهتمام الأب يكون منصباً على تغذيته وتكريمه. أما وجوده كسلف فيشترط عنصرًا ذا أهمية أساسية، وهو أن يكون ابنه حياً، فإن لم يكن له خلف فلن يكون هناك من يحرص على تكريمه، وهو يتمنى بقاء ابنه وأجيال أخرى أحياء بعده ويتمنى أن يكونوا بحالة طيبة، فوجوده الشخصي كسلف يرتبط بإزدهار حالتهم، فهو ينشد الحياة للآخرين ما داموا على استعداد لإحياء ذكراه. وهكذا ينشأ ارتباط حميم هائئ بين الصورة المناسبة لاستمرار الحياة التي يكتسبها السلف وبين فخار الخلف الذين ظلوا هنا لكي يفعلوا ذلك من أجل سلفهم. ومن المهم أيضاً أن يبقى الأجداد كفرادى عبر بعض الأجيال، فهم مشهورون فرادى، ولهذا يتم تكريمهم، وهم لا يندمجون في كتلة إلا بعد ماضٍ بعيد. ويكون نسلهم الذي يكون حياً حينئذٍ منفصلاً عن كتلة سلفه، تحديداً من خلال كل من الأب والأجداد الذين يوجدون بينه وبين الكتلة فرادى منفصلين عن بعضهم البعض. وما دام هناك رضا ببقاء النسل حياً فإن تكريم النسل للسلف يجعل هذا الرضا أكثر اعتدالاً. إلا أن الرضا لا يستطيع - طبقاً لطبيعة العلاقة - أن يغرى النسل بزيادة عدد الموتى. وعلى هذا النحو يكون البقاء على قيد الحياة قد تجرد من كل ملامحه العديدة. فإذا ما صار ولعاً أصبح أمراً غير معقول وغير مفهوم وزالت عنه كل ملامح القتلة. فقد تحالفت الأفكار والمشاعر الشخصية وصبغ كل منها الآخر بلونه، إلا أن أفضلها هو الذي سيبقى. ومن يتأمل الصور المثالية لصاحب السلطة كما تكونت في تاريخ وفكر الصينيين فسوف يدهش لإنسانيتها. وقد نفترض أن عدم وجود ممارسات عنيفة في هذه الصور يرجع بالفضل إلى هذا النوع من تكريم السلف.

الأوبئة

كان ثيوكديدس هو أفضل من وصف الطاعون، لأنه أصيب به شخصيًا وشفى منه. فقد انطوى وصفه الموجز الدقيق على كل ملامح هذا المرض الرئيسة، ومن المفيد أن نقتبس هنا أهمها⁽⁹⁹⁾:

الناس يموتون كالذباب، وكل أجساد المحتضرين تُكدّس فوق بعضها. وقد رأينا بشرًا شبه موتى يتخبطون في الطرقات أو يتجمعون أفواجًا حول الآبار طلبًا للماء. أما المعابد التي اتخذوها أماكن للإقامة فكانت غاصةً بجثث الناس الذين ماتوا هناك. وفي بعض الأحيان كانت الحالة الكارثية قد غلبت على الناس حتى إنهم تغاضوا عن إقامة المناحات الجنازية. وقد اختلطت كل الشعائر الجنائزية ببعضها البعض، وكان يتم دفن الموتى كيفما اتفق. أما بعض الناس الذين عانت أسرهم من حالات موتٍ كثيرة فعجزوا عن سداد تكاليف الجنازة فقد أتوا أكثر الحيل خزيًا فصاروا أول من يجيء إلى كوم حطبٍ أقامه آخرون، ليضعوا مصابهم فوقه ثم يشعلون النار في الحطب. فإذا ما كانت النار مشتعلةً بالفعل فإنهم يلقون الجثة التي حملوها فوق الجثث الأخرى ويمضون إلى حال سبيلهم. ولم يكن الخوف من القانون الديوى أو الدينى ليمنعهم عن ذلك. فقد كانوا يعتبرون النتيجة واحدةً سواء أبدوا إجلالاً تجاه الأرباب أم لا، بعد أن رأوا أن الخبيث

والطبيب يلقي المصير نفسه. وكان عدم خوفهم من المساءلة عن انتهاك القانون الدنيوى يرجع إلى أنهم لم يتوقعوا أن يعيشوا إلى ذاك الحين. فكان كلٌ منهم يشعر أنه عوقب بالفعل بحكم أشد قسوة. وقبل حدوث ذلك كانوا يسعون للحصول على شيء من متع الحياة. وكان الذين أصيبوا بالطاعون وتم شفاؤهم منه هم أكثر الناس تعاطفًا مع المرضى والمحتضرين. وإن لم تكن لهؤلاء خبرة بهذا الأمر إلا أنهم كانوا يشعرون بالأمان لأن من يصاب بالمرض لا يصاب به مرةً أخرى. وإذا أصيب مرةً أخرى فإن ذلك لم يكن ليهدد حياته. وكان الناس يقبلون على مثل أولئك من كل حدبٍ وصوب فيقدمون لهم التهنئة، أما هم أنفسهم فكانوا يشعرون بالتسامى بشفائهم إلى حد أنهم ظنوا أنهم لن يموتوا في المستقبل جراء مرضٍ ما. ومن بين الحالات الكارثية التى نكبت البشرية منذ القدم، الأوبئة ذات الانتشار الواسع هى تلك التى تركت خلفها أكثر الذكريات حيويةً. وهى تبدأ مثل الكوارث الطبيعية فجأةً. لكن بينما كان الزلزال ينتهى فى الغالب بعد هزاتٍ قليلة قصيرة فإن الوباء يستمر لزمانٍ قد يمتد لشهور أو حتى عام. فأما الزلزال فإنه يسبب أقسى الفظائع دفعةً واحدة، فيقضى على ضحاياه كلهم فى وقتٍ واحد. وعلى النقيض من ذلك يكون لوباء الطاعون أثرٌ جماعى، ففى البداية يصاب به نفرٌ قليل فقط، ثم تتكاثر الحالات فيظهر الموتى فى كل مكان، وسرعان ما يرى المرء جموع موتى أكثر من الأحياء. وقد تكون نتيجة الوباء كمثيلتها الناشئة عن زلزال. لكن الناس يكونون شهوداً على الموت الكبير، وتدور أحداثه المتصاعدة أمام أعينهم فيكونون كمن شارك فى معركةٍ تستمر لفترةٍ أطول من كل المعارك المعروفة، إلا أن العدو يكون مستترًا، فهو لا يُرى فى أى مكان، حيث لا يستطيع الإنسان مواجهته، بل ينتظر فقط أن يصاب به. وهو يضرب حيثما يشاء ويصيب الكثيرين إلى حدٍ يخشى معه الناس أن يصابوا جميعًا. وما إن يُعترف بانتشار الوباء فإنه لا يكون هناك تصورٌ إلا بأنه لن ينتهى إلا بالقتل الجماعى للكل. ولما لم تكن هناك وسيلةٌ لمواجهته فإن المصابين به ينتظرون تنفيذ الحكم الصادر ضدهم.

والمصابون بالوباء هم فقط الكتلة. فهم متساوون فى المصير الذى ينتظرهم. ويزداد عددهم لينتهوا إلى الكثافة الكبرى التى يمكن لأجسادٍ بشرية أن تصلها، أى تجمعهم فوق كوم جثث. وجمهور الموتى المتعطلة تكون ميتةً مؤقتًا حسب تصورات بعض الأديان، وهى ستُبْعَث فى لحظةٍ واحدة وتلتئم جماعتها معًا أمام

الله يوم الحساب، حتى ولو لم نُعمل تفكيرنا في مصير الموتى فيما بعد، ونظرا للاختلاف التصور العقائدى عن ذلك من مكان لآخر، فإنه يبقى هناك أمر لا يحتمل الشك، وهو أن الوباء ينتهى إلى من جمهور المحتضرين والموتى. "لتغص بهم الطرق والمعابد." وفي الغالب لا يتسنى دفن الضحايا فرادى كما جرت العادة فيتم وضعهم فوق بعضهم البعض في مقابر جماعية ضخمة، أى آلاف منهم في مقبرة واحدة معًا. وهناك ثلاث ظواهر مهمة اعتادتها البشرية يكون هدفها هو جموع من الجثث، وهى قريبة من بعضها البعض، ولذلك كان من المهم أن توضع حدود بينها. وهذه الثلاث هى المعركة والانتحار الجماعى والوباء. ففى المعركة يكون المستهدف هو جموع جثث الأعداء، فالخصم يريد خفض عدد الأعداء الأحياء ليتمكن مقارنة ذلك بالعدد الأكبر لرجاله هو. وموت رجال هذا الطرف في أثناء ذلك أمر لا يمكن تفاديه، وإن كان غير مرغوب فيه، إلا أن الهدف هو حصد جموع موتى الأعداء التى يسعى الخصم من أجلها، أى من خلال عمله الشخصى، أى الاعتماد على قوته الشخصية. وفي الانتحار الجماعى فإن العمل يكون موجهاً ضد من ينتمى المرء لهم، فيقتل الرجل والمرأة والطفل بعضهم البعض حتى لا يكون هناك شيء آخر سوى كوم موتى منتمين لبعضهم البعض، وحتى لا يسقط أحدهم في يد العدو فإن الموت يكون شاملاً، وهكذا تظهر النار كعامل مساعد على ذلك. وفي حالة الوباء تكون النتيجة هى نفسها نتيجة الانتحار الجماعى، إلا أنها حالة لا يفرضها أحدٌ على الآخر، بل يبدو أن قوةً مجهولةً فرضته من الخارج، وهى حالة تستمر لفترة أطول حتى تصل لهدفها ليتساوى الناس في حالة تقرب وفزع لا تدانيها أية علاقة معروفة تربط بين البشر. أما عنصر العدوى الذى يمثل هذه الأهمية في حالة الوباء فيكون له أثره في اعتزال الناس لبعضهم البعض. فتوخى الأمان يتطلب ألا يقترب البعض من الآخر لأنه قد يكون حاملاً للعدوى، فيفر البعض من المدينة ويتفرقون في مزارعهم أو يجلسون أنفسهم بمنزلهم ولا يسمحون لأحد بالدخول فكل منهم يتجنب الآخر فيكون الحفاظ على وجود مسافة هو آخر أمل. فالفرصة في الحياة تكون هى الحياة التى تتجلى على نحو ما في الابتعاد عن المرض. فالموبوءون يتحولون تدريجياً إلى كتلة ميتة، فيبتعد غير المصابين عن كل شخص، وغالباً كذلك عن أقرب أفراد الأسرة، والوالدين والزوج والأبناء. ومن الغريب هنا أن يحول أمل البقاء حياً الإنسان إلى فرد تقف في مواجهته كتلة مكونة من كل الضحايا. لكن في حالة هذه اللعنة العامة

التي يُعتبر كل مصابٍ بها مفقودًا يحدث أمر هو الأكثر عجبًا، أي شفاء بعض المعدودين من الطاعون. ومما يدعو للتأمل أن يسعدهم الحظ من بين الآخرين فقد ظلوا على قيد الحياة ليشعروا بأنهم محصنون. هكذا يصير بوسعهم إظهار تعاطفهم مع المرضى والمحتضرين المحيطين بهم. ويقول ثيوكديس: "مثل هؤلاء الناس يشعرون بالتسامي بشفائهم إلى حد أنهم يرون أنهم لن يموتوا في المستقبل من جراء مرض ما".

عن شعور المقابر

للمقابر جاذبية شديدة، فالإنسان يسعى لزيارتها حتى لو لم يكن يرقد هناك أحد من أقاربه، كما يحرص على تخصيص وقت لها. وهناك يشعر كأنها شُيِّدت من أجله. وليس مستغرباً أن ثمة مقبرة رجلٍ مكرم لها سحرها دائماً في نفسه ما يجذب الإنسان. وإن كان مثل هذا الرجل هو هدف الزيارة، فإن الأمر دائماً ما يتسع لما هو أكثر من ذلك، فسرعان ما يجد المرء نفسه في أثناء زيارة المقابر في أجواءٍ خاصة للغاية. ومن العادات الحميدة أننا نُخدع بطبيعة مثل هذه الأجواء. فالجدية التي يشعر بها الزائر للمقابر ويظهرها تنطوي على رضا خفي. فماذا يفعل الزائر حقاً في أثناء وجوده بالمقابر؟ كيف يتحرك وبماذا ينشغل؟ فهو يمضي بين المقابر رواحاً وغدوّاً، متأملاً شاهد قبر هذا أو ذا، قارئاً الأسماء، شاعراً بالانجذاب نحو بعضها، ثم يبدأ في الاهتمام بما نُقش أسفلها. فها هما زوجان عاشا معاً طويلاً وها هما يرقدان بجوار بعضهما كما جرت العادة. وهنا طفلاً مات صغيراً للغاية. وهذه فتاة شابة بلغت لتوها عامها الثامن عشر. وأكثر فأكثر تزداد مسارات الزمن التي تأسر الزائر، وشيئاً فشيئاً تتباعد هذه المسارات عن التفاصيل الخاصة المؤثرة لتصير مسارات زمن ليس أكثر. فها هو أحدهم قد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره، وعلى الناحية الأخرى كان أحدهم قد بلغ الخامسة والأربعين. أما الزائر فهو أكبر عمراً حينئذٍ، بينما خرج أولئك من مضمار السباق

على نحوٍ ما، وهو يجد كثيرين لم يبلغوا مثل عمره، (وحتى لو أنهم) وإن لم يموتوا في عمر الشباب فإن مصيرهم لا يبعث أى إحساسٍ بالأسى على الإطلاق. إلا أن هناك أيضًا كثيرين ممن يتجاوزون عمره، فهناك رجالٌ بلغوا السبعين، ومن حينٍ لآخر يرى من هو تجاوز الثمانين. وهو بوسعه أن يلحق بهؤلاء، فهم يجذبونه إلى أن يفعل مثلهم. فما زالت كل الفرص سانحةً أمامه فامتداد حدود حياته المتوقعة هو فائدةٌ جمة مقارنةً بهم، فبوسعه بشيءٍ من العزيمة أن يتفوق عليهم، ففرصة التنافس معهم كبيرة. فما زال حظه أوفر منهم، فلقد بلغوا هم غايتهم فلم يصبحوا أحياء. ومهما كان هذا الذى سينافسه منهم فإن كل القوة تكون على جانبه هو. وعلى الجانب الآخر لا توجد أية قوة، فهناك الهدف المعلن فحسب بعد أن قُضى على المتفوقين، وها هم الآن لم يعد بوسعهم النظر في عين أحدٍ نظرة رجلٍ لرجل، وهم يمنحون الآخرين القوة ليصيروا أكثر قوةً منهم على نحوٍ دائم. أما البالغ التاسعة والثمانين، الراقِد هناك، فيعتبر حافزاً أسمى. فما الذى يحول بين أحدهم وبين بلوغ التسعين؟ لكن هذه ليست الطريقة الوحيدة للحساب التى تخطر على بال أحدٍ فى خضم هذا الكم من المقابر. فالإنسان يبدأ فى الانتباه إلى المدة التى قضاها بعض الناس راقدين هنا. فالزمن الذى يفصل بين زائرٍ ما وبين وفاتهم ينطوى على ما يبعث على الاطمئنان، فبهذا القدر من الزمن يكون الزائر قد عاش فى دنياء هذه فترةً أطول.

وهناك مقابر تحمل سمة الرفعة، فأحجارها ترجع إلى القرن الثامن عشر أو السابع عشر. فالزائر يثابر فى الوقوف أمام النقش المتآكل فلا يغادر الموضع حتى يحل شفرتة. أما حساب السنين الذى لا يستخدمه الإنسان عادةً إلا فى الأغراض العملية فيصبح فجأةً منطويًا على حياةٍ ذات مغزى عميقٍ قوى. فكل مئات السنين التى يعرفها (المراء) قد دخلت إلى حساب زائرٍ ما. أما الراقِد هنا فى باطن الأرض فلا يدرك شيئاً عن هذا الذى يقف هناك متأملًا مدة حياته، وقد انتهى حساب السنين بالنسبة له بتاريخ سنة وفاته، لكنه تواصل بالنسبة للمتأمل، حتى وصلت إليه. فكم كان سيدفع من توفى من زمنٍ بعيد حتى يتسنى له الوقوف بجوار المتأمل. فقد مضت مئة عام على وفاة ذاك، فعلى نحوٍ ما يكون المتأمل قد حصل على مئتي عام أكثر من ذاك. فكثيرٌ من أحداث الزمن، الذى انقضى منذ ذلك التاريخ، يدركها آخرٌ حتى بكل ما فيها، من خلال ما وصله من موروث. فهو قد قرأ عن ذلك أو سمع روايةً عن ذلك، بل وعاش بعضها

بنفسه. وهنا يكون عدم الشعور بالتفوق أمرًا صعبًا. فالإنسان البسيط يشعر بذلك في هذا المكان، فهو لا يشعر فقط أنه يتجول هنا وحيدًا، فتحت أقدامه يرقد كثيرون مجهولون، جميعهم معًا، وعددهم غير محدد لكنه يقينًا كبير، ولسوف يزداد عددهم دائمًا. وهؤلاء لا يستطيعون فراق بعضهم البعض فهم يبقون كأنهم مكدسون في جموع فوق بعضهم البعض، وهو وحده يروح ويجيء كما يهوى، وهو وحده، بين الراقدين الذي يقف منتصبًا.

عن الخلود

إذا دار حديثٌ عن الخلود الشخصى أو الأدبى فإنه من الأفضل أن تكون نقطة انطلاقنا من "ستندهال". إذ إن من الصعب العثور على مثل هذا الرجل الذى نأى بنفسه عن تصورات العقائد المألوفة، فهو متحرراً تماماً من التزامات وعود دين ما. فمشاعره وأفكاره موجهة نحو هذه الحياة الدنيا فقط. فقد شعر وتمتّع - على أدق وأعمق نحوٍ - بكل ما يمكن أن يمنحه السعادة. ولذلك لم يكن تافهاً لأنه استكان للعزلة. وهو لم يهتم بالوحدات محل الشك، فقد كان شكه يتناول كل ما لم يستطع الإحساس به. ورغم أفكاره الكثيرة فإنه لم يكن بينها فكرة غير حية، فكل ما دوّنه وكل ما صوّره ظل قريباً من جذوته المتقدمة. وقد أحب الكثير، وآمن بالكثير، إلا أن هذا وذاك ظلا نصب عينيه على نحوٍ مدهش. ومهما كان من أمرٍ فإنه عثر على ذلك فى نفسه على نحوٍ مباشر من دون الحاجة إلى خدع أية منظومة.

هذا الرجل الذى لا يشترط شيئاً، والذى ابتغى إدراك كل شىء بنفسه، والذى كان هو نفسه الحياة ما دام هناك شعورٌ وروح، والذى حضر فى كل المعطيات مما ييسر له تأملها من الخارج، والذى تساوت لديه الكلمة وفحواها على النحو الأكثر طبيعيةً كأنه قرر تطهير اللغة بنفسه، هذا الرجل النادر والحر حقاً لديه بالفعل عقيدةٌ يتحدث عنها بيسرٍ وبداهة كما يتحدث عن محبوبته. لقد اكتفى

- من دون إحساسٍ بمرارة- بالكتابة لقليلين، إلا أنه كان على يقين تام بأنه سيقراءه - خلال مئة عام - الكثيرون للغاية. وهكذا فإنه لا يمكن إدراك الإيمان بالخلود الأدبي في العصور الحديثة على نحو أكثر وضوحًا وتحديدًا من ذلك ومن دون أية غطرسة.

ماذا يعنى هذا الإيمان؟ وما فحواه؟ إنه يعنى أن الإنسان ينشد الوجود عندما يكون كل الآخرين الذين عاشوا الوقت نفسه غير موجودين هنا. وهذا لا يعنى أن هذا كان يقصد بهؤلاء الأحياء شرًا كهذا. فهو لا يزيحهم من طريقه ولا يفعل شيئًا ضدهم، أو حتى ينوى الصراع معهم. وهو يحتقر هؤلاء الذين وصلوا إلى مجد زائف، لكنه يحتقر أيضًا محاربتهم بأسلحتهم، كما أنه غير ساخط عليهم لأنه يعرف مدى ضلالهم. والإنسان يختار مجتمع هؤلاء الذين سينضم إليهم ذات يوم: كل أولئك من عصور ماضية، إن أعمالهم ما زالت تحيا حتى اليوم، وهم يتحدثون إلى من يقترب منهم. والعرفان الذى يشعر به المرء نحوهم هو عرفانٌ للحياة نفسها. أما القتل من أجل البقاء على قيد الحياة فلا يمكن أن يشغل هذه العقلية، حيث إنها لا تهدف إلى البقاء على قيد الحياة الآن. فهؤلاء لا يتجاوزون الحواجز إلا بعد مئة عام عندما لا يكونون أحياءً فلا يستطيعون القتل. فالمنافسة التى يهتم بها هؤلاء تبدأ حينما يكون الخصوم قد ماتوا، بل إنهم لا يستطيعون رؤية الصراع الذى تخوضه أعمالهم. لكن يجب أن يكون هذا العمل موجودًا، وحتى يوجد فعليه أن يحتوى أعظم وأنقى معيار من الحياة. فهؤلاء لا يستنكفون أن يقتلوا فحسب، بل هم يأخذون كل من كانوا معهم إلى ذلك الخلود، حيث يكون كل شيء فعالًا، الأقل والأعظم حجمًا.

إنهم على النقيض التام من أصحاب السلطة، أولئك الذين يموت ما يحيط بهم بموتهم حتى يجدوا في ذلك الوجود الآخر للموتى كل شيء كانوا قد اعتادوه. ولا يمكن لأى شيء أن يصف غيبوبتهم العميقة على نحو أكثر رهبة من ذلك، فهم يقتلون في الحياة ويقتلون في الممات، ويصحبهم أتباع من القتلى إلى العالم الآخر. ومن يطلع على عمل ستند هال سوف يجده هو نفسه، وكل ما كان حوله ثانيةً، أى سوف يجد ذلك هنا في هذه الحياة. وهكذا يقدم الموتى للأحياء أعظم الغذاء نبلاً. فخلودهم يعود بالنفع على الأحياء، ففى عودة هؤلاء الموتى يكمن الخير للجميع. ليفقد الباقون على قيد الحياة غصتهم ولتذهب مملكة العداة إلى الجحيم.

عناصر السُلطة

العنف والسلطة

يرتبط معنى "القوة" بتصورٍ عن شيء قريبٍ وحاضر. وهى أكثر قهراً ومباشرةً من "السلطة". والمقصود بذلك بالأحرى هو القوة الفيزيكية. فمن الأفضل وصف "القوة" بأنها الدرجة الأدنى من السلطة والأكثر منها حيوانيةً، ففنص الفريسة يكون بالقوة، لتُلْقَى بالقوة إلى الفم، فإذا ما أُتيح للقوة مزيد من الوقت فإنها تصبح سلطةً. إلا أنه في اللحظة الحاسمة التى لا بد من عودتها ثانيةً، أى لحظة البت والحسم، فإنها تعود قوةً خالصةً مرةً أخرى. فالسلطة أكثر شموليةً واتساعاً من القوة، وهى تنطوى على أكثر منها بكثير، بعد أن تخلت عن هذا النحو من الديناميكية. وهى أكثر تعقيداً، وتنطوى على قدرٍ بعينه من المثابرة. فالكلمة نفسها مشتقةٌ من الجذر الغوطى القديم "magan" أى يستطيع، "vermögen" أى يقدر. وليس لها أدنى علاقة بالجذر "machen" أى يعمل ويفعل. أما الفارق بين القوة والسلطة فيتجلى فى صورةٍ بسيطةٍ للغاية، وهى تحديداً صورة العلاقة بين القط والفأر، فإذا قبض القط على الفأر فإنه يكون أسيراً لقوة القط، إلا أنه حالما يبدأ هذا فى التلاعب به يكون قد أضيف إلى هذا الأمر شيء جديد، فهو يدعه حراً ويسمح له بالابتعاد لمسافةٍ ما، فيدير القط ظهره ليجرى الفأر منه

وهنا لا يكون أسيرًا "للقوة"، إلا أنه يكون من "سلطة" القط استعادة الفأر. فإذا أطلق سراحه تمامًا يكون قد أخرجته من إطار "سلطته".

أما إذا ظل الفأر داخل الحدود الممكنة للوصول إليه، فإنه يبقى تحت سلطة القط. فالمجال الذى يحدده القط، أى لحظات الأمل الذى يمنحه للفأر، يظل تحت الرقابة الشديدة للقط، الذى لا يفقد اهتمامه به وبالقضاء عليه. وكل هذا معًا، أى المجال والأمل والاهتمام هو ما يمكن أن نطلق عليه القوام الشخصى للسلطة أو هو السلطة نفسها. هكذا إذن تكون من سمات السلطة -على النقيض من القوة- المدى المتسع لحدّ ما والمجال الأكثر رحابةً، وكذلك فسحة من الوقت أكبر. وقد تم التعبير عن هذه الفكرة بأن السجن قد أخذ عن فم الحيوان. والمقارنة بين كليهما تعبر عن مقارنة السلطة بالقوة. ففى فم الحيوان لا يكون هناك أى أمل ولا فسحة من وقت ولا مجال لهذا الذى أطبق عليه الفم، ففى كل هذه المفاهيم يكون السجن صورةً مكبرة لفم الحيوان، فبوسع المرء قطع بضع خطوات هنا وهناك، مثل الفأر تحت أعين القط، وأحيانًا ما تكون نظرات أعين الحارس ملتصقة بظهر السجين الذى تكون أمامه فسحة من الوقت والأمل فى الإفلات فى أثناء هذا الوقت، كما يشعر دائمًا برغبة المؤسسة فى القضاء عليه بزناقتها الموجود فيها حتى لو بدت هذه الرغبة مرجئةً. ويبدو الفرق واضحًا بين السلطة والقوة فى موضع مختلف عن ذلك تمامًا حيث يتنوع التسليم بتعاليم الدين، فكل مؤمن بالله يقع دائمًا تحت سلطة الإله، وقد ارتضى ذلك بطريقته، إلا أن البعض لا يكتفى بذلك، فهم ينتظرون تدخله الحاسم أى العمل المباشر للقوة الإلهية، التى يقرون ويشعرون بها. فهؤلاء يجدون أنفسهم فى حالة "انتظار الأمر"، فالله يمثل لديهم الملامح الأكثر وضوحًا للحاكم، فجوهر الإيمان يتجلى لهم فى إرادة الإله الفعالة وخضوعهم الفعال فى كل حالة على حدة وفى كل تعبير. والأديان التى على هذه الشاكلة تنزع إلى التشديد على حاكمية الإله. وهو ما يتيح الفرصة لأتباعها لأن يشعروا بأن كل ما يحدث لهم هو تعبير مباشر عن إرادة الإله، فيخضعوا أكثر وللنهاية، ويكون الحال كأنهم يعيشون داخل فم الإله الذى سيصحنهم فى اللحظة التالية. إلا أنه يكون عليهم مواصلة الحياة بلا فزع فى هذا الحاضر الرهيب وأن يؤتوا العمل الصالح. والإسلام ومذهب فلسفة "الكلفينية" لهما النصيب الأعظم من الشهرة فى هذا التوجه. وأنصار هذا التوجه يأملون قوة الإله، فسلطته وحدها لا تكفيهم، فهى تظل مفرطةً فى العمومية

والبعد، وتترك لهم ما فوق طاقتهم لفعله. وهذا الانتظار الدائم لأمر الله يكون أثره دائماً أثراً حاسماً على البشر المستسلمين له، ويكون له أقسى التبعات على سلوكهم تجاه الآخرين، وهو ما يخلق من المؤمن نمط الجندي الذي يعتبر "المعركة" هي التعبير الأدق عن "حياته"، تلك المعركة - الحياة التي لا يشعر برهبةٍ تجاهها لأنه يشعر دائماً أنه موجودٌ داخلها، وهو ما سنتناوله على نحو أكثر إسهاباً في سياق حديثنا عن مسألة "الأمر".

السلطة والسرعة

إن كل أنواع السرعة، ما دامت في إطار السلطة، هي بمثابة الملاحقة أو الانقضاض. وقد كانت الحيوانات هي الصورة النموذجية عن الانقضاض والملاحقة. فالملاحقة تعلمها الإنسان من الحيوانات الكاسرة وتحديداً من الذئب، أما الانقضاض، من خلال وثبة مفاجئة، فكانت القطط قد مارستها أمامه، أما معلموها التي حسدتها وأعجبت بها فكانت الأسود والفهود والنمور. وأما الطيور الجارحة فقد وجدت بين الفعلين، الملاحقة والانقضاض. وتتبدى هذه الأحداث تماماً في الطيور الجارحة التي تطير وحيدةً وعلى نحوٍ مرئى ثم تهجم من مسافة بعيدة، وهو ما أوحى للإنسان بفكرة سلاح السهام التي سخر سرعتها القصوى لخدمته لفترةٍ طويلة، فصار الإنسان يقتنص الإنسان - فريسته بسهامه هذه. وقد اتخذت هذه الحيوانات في وقتٍ باكرٍ أيضاً كرموزٍ للسلطة. فكانت تمثل كلاً من الأرباب وأجداد صاحب السلطة. فقد كان الذئب هو جد جنكيز خان⁽¹⁰⁰⁾، والصقر "حورس" هو رب الملك المصري القديم. وفي الممالك الإفريقية كانت الأسود والفهود هي الحيوانات المقدسة لدى قبائل الملوك. ومن شغل النيران التي كانت روح قيصر روما تحرق فيها، كانت روحه تخرج منها على هيئة نسر لتطير نحو السماء⁽¹⁰¹⁾. أما الأسرع فهو الذي كان أسرع دائماً، أى البرق، فقد انتشر

على مدى واسع هذا الخوف الخرافي من البرق الذي لا يمكن درء خطره، فيقول مبعوث الفرنسيين سكان "روبرك" الذي أرسله لويس المقدس إلى المغول بأن المغول يخشون الرعد والبرق بالمقام الأول، فكانوا يطردون كل الأغراب من مخيماتهم ويتدنثرون هم في ملابسهم الصوفية ويختبئون فيها حتى ينتهى كل شيء⁽¹⁰²⁾. وقد أخبرنا المؤرخ الفارسي "رشيد" الذي عمل لديهم بأنهم كانوا يحرصون على عدم تناول لحم حيوان أصابه برق، بل إنهم كانوا لا يجروون حتى على الاقتراب منه. وكانت كل المحرمات الممكنة يستخدمها المغول في تهدئة غضب البرق فكان عليهم تجنب كل ما يمكن أن يثيره. فالبرق هو السلاح الرئيس للإله القوى. وكان لظهوره المفاجئ من الظلام يعتبر وحياً. فالبرق يلاحق ويكشف. وفي مسلكه الخاص يتوخى الناس مفاتيح إرادة الآلهة. ففي أية هيئة سوف يتبدى؟ وفي أى ناحية من السماء سوف يظهر؟ ومن أين يأتي؟ وإلى أين يذهب؟ وكان حل لغزه هو مهمة طبقة معينة من الكهنة لدى الأرتوريين⁽¹⁰³⁾ أخذها الرومان واستمرت لديهم كطبقة كهان. وقد جاء في مثل صيني قديم أن "سلطة الحاكم تشبه شعاع البرق والأثر القوى يأتي بعده". ويعتبر عدد أصحاب السلطة الذين أصابهم البرق من الأمور العجيبة، إلا أن الروايات عن ذلك لا تستند دائماً إلى حقيقة واقعة. إلا أن نسج هذا الارتباط له دلالة. والأخبار عن هذا النوع عديدة لدى الرومان والمغول، فكلا الشعبين يؤمن برق سماوى أعلى، ولدى كليهما فكرة متطورة للغاية عن السلطة. وقد فهموا البرق في هذا الشأن على أنه أمر خارق للطبيعة، فإذا ما صدر فإنه لا بد من أن يصيب. فإذا ما أصاب قوياً فإن من أرسله يكون هو الأقوى، فهو يُستخدم كعقاب هو الأكثر سرعة وفجائية⁽¹⁰⁴⁾. وهو كذلك الأكثر جلاءً. وقد حاكاه البشر فطوروا منه سلاحاً، أى السلاح الناري. وقد أثار بريق ورعد طلقة البندقية، أو المدفع تحديداً، فزع الشعوب، التى لم تكن امتلكت هذا السلاح، بعد أن اعتقدت أنه البرق. لكن قبل ذلك كان الإنسان قد اجتهد لجعل من نفسه طائراً سريعاً. فكان إخضاع الخيل وتكوين جيش من الفرسان على أفضل وجه، هو ما أدى إلى الانطلاقات التاريخية من الشرق. وفي كل الوثائق المعاصرة عن المغول كان يتم التأكيد على مدى السرعة التى تمتعوا بها في هذا المجال. فكانوا دائماً ما يظهرهم فجأةً، هكذا كما يختفون فجأةً. وحتى سرعة اختفائهم كانوا يستغلونها للهجوم. فما إن يظن المرء أنهم هربوا حتى يجد نفسه محاصراً بهم. إن السرعة الفيزيقية، كسمة للسلطة، قد تنامت في هذا الحين على

كل وجه. ولا يبقى لنا إلا أن نلقى نظرةً على أثرها في عصرنا التكنولوجي. ففي مجال الانقضا لا بد من أن يتوافر نوعٌ من السرعة، أى سرعة هتك القناع، فإذا وقف كائنٌ برىء مستسلم أمام أحدهم، فنُزع هذا القناع عنه، فإنه سيجد عدوًا قد استتر خلفه. وحتى يظهر هذا الأثر فلا بد من إماطة اللثام فجأةً. وهذا النوع من السرعة يمكن وصفه بالسرعة الدرامية. فالملاحقة هنا تقتصر على مكان ضيق للغاية، لذا تكون الملاحقة مكثفةً. واستخدام القناع وسيلةً للتكر مسألهً موعلةً في القدم. أما قطبه السالب فهو إماطة القناع. ومن قناعٍ إلى قناع يمكن الوصول إلى تغير في علاقات السلطة. فمكافحة تنكر العدو تكون بتنكر الشخص نفسه، فحاكمٌ ما يستدعى الطبقة العليا العسكرية أو المدنية إلى وليمةٍ وفجأةً يتم القضاء عليهم جميعًا في أثناء ما يكون هؤلاء لا يتوقعون أدنى عملٍ عدوانى. فالتبدل بين مسلكٍ وآخر يتسق تمامًا مع استخدام القناع، ويجب أن تصل سرعة الحدث إلى أوجها، فعليها يتوقف تحقيق النية المبيتة. فصاحب السلطة المدرك لاستمرار تنكره الشخصى هو من يستطيع توقع الشئ نفسه من الطرف الآخر. وكل سرعةٍ يستطيع مواجهته بها يراها مشروعةً ومسموحًا بها، ولن يمسه إلا القليل إذا ما أنقض خطأً على برىء. ففي عمق الأقنعة المعقد يمكن أن يضل المرء السبيل، وسوف يتأثر بشدة إذا أفلت منه عدوٌ ما من جراء الافتقار إلى السرعة.

سؤال وجواب

تعتبر كل الأسئلة بمثابة اقتحام. فإذا ما اتخذتها السلطة وسيلةً كانت كالسكين الذى يقطع جسد من يُسأل، فيتعرف المرء على ما هو يعرفه بالفعل، إلا أنه يريد العثور عليه وجعله ملموسًا. وبيقين الجراح يشق هذا طريقه إلى أجهزة الجسد الداخلية. والجراح يبقى ضحيته على قيد الحياة كي يعرف ما هو أكثر دقةً عنه. وهناك نوعٌ خاص من الجراحين يتعاملون بوعيٍّ مع الإثارة الموضعية للألم. فهو يثير مواضع بعينها من الضحية لكي يعرف ما هو أكثر يقينًا عن مواضع أخرى. والأسئلة تتطلب إجابةً، أما تلك التى لا يعقبها إجابةً فتكون كسهام طائشة في الهواء. أما السؤال البريء فهو يظل سؤالاً محدودًا ولا يستدعى أسئلةً أخرى. فالمرء يستعلم من شخصٍ آخر غريب عنه عن مبنى ما فيشير الآخر بالإجابة فيكتفى المرء بهذه الإجابة ويمضى إلى حال سبيله. وما حدث هو أن هذا قد استوقف ذاك الغريب للحظةٍ مجبراً إياه على التفكير وكلما كانت إجابته أكثر وضوحًا ودلالةً كان بوسعه الخلاص ممن سألته على نحوٍ أسرع، فهو أعطى ما كان المرء ينتظره، وبعدها لا يُضطر إلى رؤيته مرةً أخرى. وقد لا يرتضى السائل ذلك فيطرح أسئلةً أخرى، فإن تراكمت فإنها سرعان ما تثير استياء من سئل، وهذا لا يكون قد وضع في احتجازٍ ظاهريٍّ فحسب، فهو مع كل إجابةٍ

يكشف جزءاً أكثر من ذاته، وقد يكون ذلك أمراً غير مهم وسطحي لكنه طُولِب به من قِبَل شخصٍ يجهله. ويرتبط الأمر هنا بأمرٍ آخر، أى ما يكون كامناً على نحوٍ أعمق وهو ما يكون على قدرٍ أعظم من الأهمية. أما الاستياء الذى يشعر به فإنه سرعان ما يتحول إلى رغبةٍ، فتأثير الأسئلة على السائل تزيد من شعوره بالسلطة فتمنحه رغبةً فى مواصلة طرح الكثير منها، أما المجيب فيزداد خضوعاً كلما زاد استسلامه للأسئلة. فقسمٌ كبيرٌ من حرية الشخص يكمن فى حمايته من السؤال. فالطغيان الأقوى هو هذا الذى يسمح لنفسه بالأسئلة الأقوى. أما الإجابة الذكية فهى التى تضع نهايةً للأسئلة، ومن يستطيع المواجهة فإنه يرد بأسئلةٍ مضادة، وهذه وسيلةٌ مجربة للدفاع عن النفس بين طرفين متساويين. أما من لا تسمح حالته بالمواجهة فعليه أن يعطى إجابةً مضنية فيستنتج ما يهدف إليه الطرف الآخر، أو يكون عليه أن يُفسد رغبة الآخر فى مواصلة الاقتحام من خلال استخدام الحيلة، فهو بوسعه تملق السائل بالاعتراف بتفوقه فى هذه اللحظة حتى لا يُضطر هذا إلى استعراض هذا التفوق بنفسه، وبوسعه المناورة بالإيحاء بسؤالٍ آخر يكون أكثر أهميةً أو أعظم جدوى. فإذا ما كان يتقن التنكر فإنه يستطيع التمويه على هويته ليصير السؤال موجهاً لشخصٍ آخر أما هو فلا يكون له شأن بالإجابة على أية حال. أما السؤال الذى ينتهى به المطاف إلى التفكيك فهو الذى يبدأ بـ "التماس"، فهو يمس مواضع مختلفة على نحوٍ مطرد، وحيثما يجد مقاومةً أضعف فإنه ينفذ من هناك، وما يحصل عليه فإنه يضعه جانباً ليُستَخدم فيما بعد، فالإفادة منه غير آنية. وعلى السؤال أن يعثر أولاً على ما حدده بالضبط كهدفٍ له، ف وراء السؤال يكمن هدفٌ محدد بدقة، أما الأسئلة غير المحددة التى يطرحها أطفالٌ أو حمقى فلا تنطوى على قوةٍ ما فيمكن الرد عليها بسهولة. أما إذا كان المطلوب هو إجاباتٌ قصيرة موجزة كان الموقف هنا أكثر خطورة. فالتنكر المقنع أو "تحول الفرار" يكون أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً. أما النوع الأكثر فجاجةً للدفاع عن النفس فهو اصطناع الصمم أو عدم الفهم، لكن هذا لا يجدى إلا بين طرفين متساويين، وفيما عدا ذلك، أى عندما يكون السؤال موجهاً من الأقوى للأضعف، فإن السؤال يُطرح مكتوباً أو مترجماً فتكون الإجابة هنا هى الأكثر إلزاماً، فهى يمكن إثباتها ويستطيع الخصم الرجوع إليها. ومن يكون فى ظاهره أعزل فإنه يلجأ إلى تسليح نفسه داخلياً، وهذا التسليح الداخلى فى مواجهة السؤال هو "السِر". فهو يستتر كجسد ثانٍ أكثر

حمايةً داخل الجسد الأول. ومن يبالغ في الاقتراب منه فإنه يواجه بمفاجآتٍ غير سارة. وينفصل السر كشيءٍ مكثفٍ عن محيطه ليغمره الظلام فلا يستطيع سبر غوره إلا القليلون. أما خطر السر فيرتبط دائماً بما ينطوى عليه بالفعل. والأهم أو بالأحرى "الأكثر كثافة" في السر هو الدفاع الفعال ضد السؤال. فالامتناع عن إجابة سؤال يكون بمثابة دوى سلاح اصطدم بدرعٍ أو بسلاحٍ آخر. فالتزام الصمت هو صورةً متطرفة للدفاع حيث يتساوى النفع مع الضرر. فرغم عدم إفصاح الصامت عن نفسه إلا أنه يبدو أكثر خطراً مما هو عليه فيظن به أكثر مما هو يصمت عنه. فهو يلوذ بالصمت فقط لأنه يكتم الكثير فتزداد أهمية احتجازه. والسكوت العنيد يفضي إلى استجوابٍ مربكٍ ومعذب. لكن دائماً ما يضع أحدهم الإجابة في إطار ظروفٍ عادية، فلا يمكن أن تمر مرور الكرام، فهي ترغم المرء على الوجود بموضعٍ محدد، ويبقى هنالك بينما يستطيع السائل استهدافه من كل مكان، فهو يلف ويدور، على نحوٍ ما، ليختار موضعه الشخصى الذى يناسبه فهو يستطيع أن يحوم حول الآخر ويفاجئه ويربكه، فتبدل الموضع يمنحه نوعاً من الحرية لا يستطيع الآخر الحصول عليها، فهو يهاجمه بالأسئلة، فإذا أفلح في التأثير عليه، أى إرغامه على الإجابة، فإنه يكون قد شد وثاقه إلى موضعٍ ما: "من أنت؟"، "أنا فلان"، فهو ليس بوسعه أن يكون شخصاً آخر وإلا جلب عليه كذبه المشكلات. وهكذا يكون قد حُرِم من فرصة الإفلات من خلال التحول. ويمكن اعتبار هذا الحدث نوعاً من القيد حتى لو تحرك هذا للحظة، فالسؤال الأول يكون عن الهوية والثانى عن محل الإقامة. ولما كان كلا السؤالين يتطلب "لغة" فإن المرء يسعى لمعرفة الحالة السابقة على السؤال والمتسقة معه، فمحل الإقامة والهوية لا بد من أن يجتمعا فيه، فأحدهما من دون الآخر سيكون بلا معنى. لقد تم العثور على هذه الحالة القديمة: إنها اللمس المرتاب للفريسة، من أنت؟ هل يمكن أن أكلك؟ فالحيوان الدائم البحث عن طعامٍ يلمس ويتشمم كل ما يجده فهو يدس فمه في كل شيء: هل أستطيع أن أكلك؟ كيف سيكون مذاقك؟ أما الإجابة فتكون رائحةً، أو ضغطاً مضاداً، أو جموداً لا حياة فيه. فالجسد الغريب هنا هو محل إقامة الشخصى ومن خلال الشم واللمس يصير معروفاً. وترجمة ذلك في عاداتنا الإنسانية هو ما نطلق عليه: الاسم.

في أثناء التربية المبكرة للطفل يتبدى حدثان متقاطعان يتصاعدان بلا حدود ويعطيان الانطباع بالتنافر، إلا أنهما ينتميان إلى بعضهما البعض، وتسير الحال

على هذا النحو: الوالدان يطلقان باستمرار أوامر من نوع أقوى وأكثر إصراراً، أما الابن فيوجه عددًا هائلاً من الأسئلة. وهذه الأسئلة المبكرة للطفل، التي تماثل صراخه طلباً للطعام، تكون هنا قد دخلت مرحلة ثانية أكثر تقدماً⁽¹⁰⁵⁾. وهى بريئة لأنها لا تعد الابن بالمعرفة الكاملة عن الأبوين بأية حال لأن تفوقهما يظل هائلاً. فما هى تلك الأسئلة التى يبدأ بها الطفل؟ من بين الأسئلة المبكرة تكون تلك المتعلقة بالمكان: "أين يكون...؟" ومن الأسئلة المبكرة الأخرى: "ما هذا؟" و"من؟" هكذا نرى الدور الذى يلعبه المكان والهوية، فهما حقاً أول ما يستعلم الطفل عنه. وفيما بعد فى نهاية عامه الثالث تبدأ الأسئلة بـ"لماذا؟" وبعد ذلك بكثير بـ"متى؟" و"كم يستغرق؟" أى الأسئلة عن الزمن، ويستمر ذلك لفترة طويلة حتى يكون الطفل لنفسه تصوراً عن الزمن. أما السؤال الذى يبدأ بلمسٍ مرتاب فهو يسعى - كما تقدم- للنفاذ إلى مدى أعماق، فهو ينطو على شيء ذى حدٍّ فاصل له أثر السكين، والمرء يدرك ذلك فى المقاومة التى يواجه بها الأطفال الأسئلة المزدوجة: "ماذا تفضل: التفاحة أم الكمثرى؟" فهنا سيلوذ الطفل بالصمت أو أنه سيقول "كمثرى" لأنها كانت الكلمة الأخيرة، أما القرار الحقيقى الفاصل بين التفاحة والكمثرى فيكون صعباً. وفى حقيقة الأمر أنه كان يريد كليهما. ويبلغ الفصل أوجه بالفعل فى حالة تكون فيها إجابة السؤالين البسيطين ممكنة، أى بنعم أو لا، فلما كان الاثنان متساويين تماماً دونما فرق بينهما فإن حسم أحدهما يؤدى إلى الالتزام بالتنتائج وتحمل التبعات. وقبل طرح السؤال على أحدهم فإن المرء لا يكون فى الغالب على معرفة بما يفكر الآخر، فالسؤال يرغم هذا على الاختيار بين القبول والرفض. وما دام السؤال مهذباً وغير ملح فإنه يترك للمسئول حرية القرار. وقد تم تتويج سقراط ملكاً للسؤال فى الحوارات الأفلاطونية، لأنه كان ينأى بنفسه عن كل أشكال السلطة ويتفادى كل ما يمكن أن يذگر بذلك. أما الحكمة التى كانت تميزه فقد كان بوسع من يشاء أن ينهل منها، وهو لا يفصح عنها غالباً فى خطبه ذات الصلة وإنما كان يطرح أسئلته. وعلى الجانب الآخر فإنه كان حريصاً فى الحوارات على أن يطرح أغلب أسئلته وأهمها، وعلى هذا النحو كان يحتجز مستمعيه، فيرغمهم على انفصال متعدد. هكذا كان يسيطر عليهم من خلال الأسئلة فقط. أما المهم فكان صيغ التأدب التى تحدد السؤال. وكان لا يجوز أن يُسأل الغريب عن أمورٍ بعينها. فإن فعل أحدهم ذلك فإنه يكون قد التحم به واقتحمه فيعطى الآخر المبرر بالشعور بالاعتداء عليه.

أما إبداء التحفظ نحوه فإنه يقنعه باحترامه البالغ. فتكون معاملة الغريب على أنه الأقوى، وهذا هو إحدى صور التملق الذى يلزمه باتخاذ المسلك نفسه. فما يجعل الناس يشعرون بالأمان وينشدون السلام هو الحفاظ على مسافة محددة بين الطرفين وعدم الإحساس بالخطر من جراء الأسئلة، كأن الطرفين يتمتعان بالقوة، وبالمساواة فى هذه القوة. أما السؤال الغريب فيكون عن المستقبل، وقد نعتبره أعظم الأسئلة، وهو أيضاً أكثرها كثافةً. فأما الآلهة التى يتوجه المرء إليها بمثل هذا السؤال فليسوا ملزمين بالإجابة. إن هذا السؤال الموجه للأقوى هو سؤال يائس، فالآلهة لا يمكن إلزامها ولا يستطيع المرء اقتحامها، وأقوالها تفسر على وجهين ولا يمكن تفكيكها. فكل الأسئلة الموجهة إليهم تظل أسئلة أولية لا تتطلب سوى الإجابة عليها، وتتكون الإجابة غالباً من مجرد إشارات، وهذه تُجمَع فى أنظمة كبيرة بواسطة كهنة بعض الشعوب. وقد وصلنا عن البابليين آلاف من هذه الإشارات. وما يلفت الانتباه أن هذه الإشارات تصطف بجوار بعضها البعض، كل منها على حدة، وهى غير متوالية، ولا يجمعها صلة داخلية. إنها ليست سوى قوائم من إشارات فحسب، وحتى من يعرفها جميعاً فإنه لا يمكنه فى المستقبل إلا الربط بين إحداها منفصلة وبين شىء مستقل بذاته. أما الاستجواب فهو على النقيض من ذلك تماماً، فهو يعيد إنتاج الماضى، وتحديدًا فى مساره الكامل. والاستجواب يكون موجهاً إلى الأضعف. لكن قبل أن نتوجه لتفسير الاستجواب فإنه من المفيد أن نتناول بإيجاز المنظومة الراسخة اليوم فى معظم البلاد، أى المفهوم البوليسى العام عن البشر. فهناك مجموعة محددة من الأسئلة كانت قد تكونت وانتشرت فى كل مكان، وهى تخدم أساساً حفظ الأمن والنظام. فالمرء يريد معرفة مدى خطورة شخص ما، فإذا ما بلغ هذا الحد يتم إلقاء القبض عليه فى الحال. أما السؤال الأول الذى يُوجّه رسمياً إلى أى إنسان فيكون عن اسمه والثانى عن محل إقامته، أى عنوانه، وهما السؤالان - كما نعرف الآن - اللذان يعتبران أقدم الأسئلة، أى الأسئلة عن الهوية والمكان. أما السؤال الثالث: عن المهنة. فهو سؤال يوضح النشاط، ومن خلاله وخلال معرفة العمر يمكن استنتاج الأثر والمكانة، أى القدرة على تكوين صورة عنه. أما حالته الاجتماعية فتخبر عن دائرة الناس الأكثر قرباً منه سواء كانوا رجالاً أو نساءً أو أطفالاً. أما المنشأ والجنسية فيعطيان إشارة عن فكره المحتمل. وفى عهد النازية المتطرفة كان ذلك يشير إلى العقيدة التى فقدت أهميتها اليوم.

بكل ذلك - إضافةً إلى الصورة والتوقيع- يكون قد تم إثبات الكثير. والإجابات على تلك الأسئلة يتم قبولها ولا تكون موضع شبهةٍ مؤقتًا. فالاستجواب الموجه إلى هدفٍ محدد هو فقط الذى ينطوى على أسئلةٍ مفعمة بالريبة. وفي هذا ينشأ نظامٌ من الأسئلة يخدم السيطرة على الإجابات التى يمكن أن يكون كلٌ منها زائفًا. والعلاقة بين المستجوب والمستجوب علاقةٌ عدائية وهو، أى المستجوب، كطرفٍ أضعف بكثير، لا يفلت إلا إذا أقام الدليل على أنه ليس عدوًا. وفي التحقيقات القضائية تكون نتيجة الأسئلة هى المعرفة التامة عن الماضى، وهى التى حصل عليها السائل بوصفه الطرف الأقوى. فالطرق التى مضى المستجوب بها والأماكن التى حضر فيها والساعات التى عاشها، والتى بدت حينذاك حرّةً وغير مراقبة، تصير فجأةً تحت المراقبة، فيكون عليه المضى ثانيةً فى كل الطرق والدخول إلى كل الأماكن وحتى أدنى ما تمتع به من حريةٍ تصرفٍ فى الماضى، فعلى القاضى معرفة الكثير قبل إصدار حكمه. فسلطته تحديدًا قائمةً على المعرفة التامة. وفي سبيل الحصول على ذلك يكون له الحق فى أى سؤال: "أين كنت؟ ومتى كنت هناك؟ وماذا فعلت؟". أما الإجابة التى تخدم مبرر التبرئة فإنها تفضى إلى مقارنة المكان بالمكان والهوية بالهوية: "قد كنت فى ذلك الوقت بمكانٍ آخر، وأنا لست من فعل هذا".

وقد رُوى فى أسطورةٍ من غرب سلافيا أنه ذات يوم بالقرب من "هسا" رقدت فتاةٌ فلاحه صغيرة فى أثناء الظهيرة على العشب ونامت. وجلس عريسها إلى جوارها وأخذ يفكر فى طريقةٍ تخلصه من عروسه. هنا جاءته سيدة الظهيرة وطرحت عليه أسئلةً، وعلى قدر إجاباته كانت دائماً تطرح عليه أسئلةً جديدة. وعندما دق الجرس معلناً تمام الواحدة كان قلبه قد توقف بعد أن قتلتها سيدة الظهيرة بالأسئلة⁽¹⁰⁶⁾.

السر

يكمن السر في أعماق أعماق قلب السلطة. ففعل التربص هو فعلٌ سرى طبقاً لطبيعته. فالمرء يختبئ في محيطه أو يتوأم معه، فلا يصدر أية حركةٍ تفصح عنه. فال مخلوق المتربص يختفى تماماً متدثرًا بالسرية كأنها جلده الثاني، ويثابر طويلاً تحت حمايته. إن سمة ارتباط الصبر بنفاده هي ما يتسم بها مخلوقٌ في هذه الحال، وكلما طالت مدة بقائه بها زادت قوة أمله في النجاح المفاجئ. وحتى يوفق في نهاية المطاف إلى شيء ما، فإن عليه مد حبال الصبر إلى ما لا نهاية. فإذا ما نفذ صبره في لحظةٍ قبل الأوان راح كل شيء سدى، وعليه أن يبدأ من جديد مُثَقَّلاً بخيبة الأمل. وهو يعلن عن نفسه بوضوح في أثناء الانقضاء لأنه يريد مضاعفة أثره من خلال الفزع، ليدور كل شيء بعد ذلك في الظلام بدءاً من الالتهام. فالتم مظلماً والمعدة والأمعاء مظلمة، فلا أحد يدري ولا أحد يدرك الحدث المتواصل داخله. ومنذ هذا الحدث الأول للالتهام يظل الجزء الأعظم سرّاً على أوسع مدى، فبالسر الذي يخلقه المرء بنفسه يبدأ الأمر فعلاً بحدث التربص لينتهي مجهولاً وسلباً في ظلام الجسد السرى. إنها لحظة الانقضاء وحدها هي التي تلقى في أثناء ذلك ضوءها بقوة، كالبرق، على لحظته الخاصة الخاطفة لتكشف عنه، فالسر الأكثر خصوصيةً هو ما يكمن داخل الجسد. فـ"رجل الطب"، الذي مارس

عمله من خلال معرفته بأحوال الجسد، كان عليه قبول إجراء عمليات خاصة جدًا على جسده. فقد كان هناك رجلٌ من قبائل "أراندا" الأسترالية⁽¹⁰⁷⁾ قد شاء أن يكرس نفسه رجلًا للطب، فمضى إلى أمام كهفٍ تسكنه الأشباح وهناك بدء بثقب لسانه، وكان وحده تمامًا. وكان من شروط تكريسه هو أن يشعر برهبة عظيمة من الأشباح. فشجاعته بأن يكون وحده، تحديدًا بمكان يكون فيه الخطر عظيمًا للغاية، كان يبدو شرطًا للتأهل لهذه المهنة. وفيما بعد كان يخترق رأسه - كما اعتقد - رمحٌ من الأذن إلى الأذن ليقنتله، فينتقل من خلال ذلك إلى الأشباح داخل كهفهم حيث يسكنون معًا في نوعٍ ما من العالم الآخر، وهو ما نعتبره نحن فقدانًا للوعي. وفي العالم الآخر تُستخرج جميع أحشائه ليحصل بدلاً منها على أحشاء جديدة. ولا بد من أن يفترض أن هذه الأحشاء أفضل من المألوفة، فربما تكون محصنة أو يكون تعرضها لأعمال السحر أقل وطأة. وعلى هذا النحو يكون قد مُدَّ بالقوة من أجل ممارسة مهنته، وهكذا تكون سلطته الجديدة قد بدأت من أحشائه، لقد مات قبل السماح له ببدء عمله. لكن موته كان بغرض النفاذ التام إلى داخل جسده. وهكذا لا يعرف سره سواء وسوى الأشباح، فسره يكمن داخل جسده. وهناك صورة غريبة وهى تجهيز الساحر ببلورات ذهب، ففى أثناء كل عملية يعالج بها المرض ينشأ عن هذه الأحجار دافعٌ نشط. وذات مرة قام الساحر بنفسه بتوزيع هذه الأحجار ليستردها مرة أخرى من الأعضاء العليله للمريض، فقد كانت هناك موادٌ غريبة صلبة هى التى سببت الألم لجسد المريض، إنها تشبه تكاليف العلاج الخاصة التى لا يعرف قيمتها إلا السحرة. وبغض النظر عن هذا العلاج الحميمى للغاية للمرضى فإن السحر لا يتم إلا عن بعد، حيث يقوم المرء سرًا بأعداد كل أنواع العصى السحرية الحادة، ثم يوجهها من مسافة بعيدة صوب الضحية الذى يصاب دون أن يدري بأثر السحر الرهيب. وبوسع كل فردٍ من قبائل "أراندا" ممارسة الشر من خلال السحر فى حالات فردية، أما درء الشر فلا يستطيع القيام به إلا رجال الطب. فمن خلال التكريس والتمرين يتم حماية هؤلاء على نحوٍ مختلف. وبعض رجال الطب ممن تقدم بهم العمر يستطيعون إنزال الشر بجماعةٍ كاملة من البشر. وهكذا فإنه يوجد شئ يماثل الثلاث درجات للصعود فى سلم السلطة، فمن يستطيع إصابة كثيرين فى وقتٍ واحد يكون هو الأقوى. أما ما يخشاه المرء على نحوٍ أعظم فهى قوة سحر الغرباء الذين يقطنون مكانًا بعيدًا، وربما تكون الخشية من هؤلاء أعظم

لأن المرء لا يعرف وسيلةً مضادةً لسحرهم على قدر معرفته بسحرة بلاده، إضافةً إلى انعدام المسؤولية هنا عما يرتكب من آثامٍ يُعاقب عليها داخل الجماعة نفسها. وفي درء الشر ومعالجة الأمراض تعتبر قوة رجل الطب قوة خيرٍ، لكنها تتماهى مع ممارسة الشر على المدى البعيد. وليس هناك أذى من دون مسبب له، بل إن كل ذلك يصدر عن البشر ذوى النوايا السيئة وعن الأشباح. وكل ما نسميه نحن "سببًا" يعرفونه هم بـ"الذنب"، فكل موتٍ هو قتلٌ. ولما كان ذلك قتلًا فإنه يستوجب القصاص. إن الاقتراب من عالم المصابين بالجنون بالعظمة على أى وجه هو أمرٌ يبعث على الدهشة. وسوف نتعرف على ذلك على نحو أكثر دقةً في كلا الفصلين عن حالة "شربل" بنهاية هذا الكتاب. فحتى الهجوم على الأحشاء تم سرده هناك بالتفاصيل. فبعد تدميرها تمامًا وبعد أيام طويلة المدى فإنها عادت إلى مكانها من جديد محصنة. أما ماهية السر المزدوجة فتظل ملازمةً له في كل المظاهر العليا للسلطة. والمسافة الفاصلة بين رجل الطب البدائي وبين المصاب بجنون العظمة هى أقل من خطوةٍ، وكلاهما ليسا بعيدًا عن صاحب السلطة، كما جاء عرض ذلك تاريخيًا في أمثلةٍ كثيرة شهيرة للغاية. فالسر هنا يجد مجاله النشط، فصاحب السلطة الذى يتقن الاستعانة بذلك يدرك ذلك جيدًا ويعرف قدر السر طبقًا لدرجة أهميته، فهو يعرف بما يترتب إذا ما شاء الوصول إلى شىء، وهو يعرف من هو الذى سيستخدمه من معاونيه من أجل التربص. وهو لديه كثيرٌ من الأسرار لأنه يطمح إلى الكثير، فيخضع أولئك لنظام يراقب فيه كلٌ منهم الآخر، فهو يسلم هذا لذلك ويسلم ذاك لهذا، ويحرص على ألا يكون هناك أبدًا ما يربط بينهما. فكل من يعرف شيئًا يقوم على رقابته آخر من دون أن يعرف ما هو بالفعل هذا الذى يراقبه فى الآخر، فعليه أن يسجل كل كلمةٍ وكل حركةٍ لمن كُلفَ برقابته فإذا استمر فى فعل ذلك يكون قد أبلغ الحاكم بصورةٍ عن أفكار المراقب. إلا أن المراقب نفسه يكون تحت الرقابة ويقوم تقريرٌ لمراقب آخر بتصحيح تقريره، وهكذا يصير صاحب السلطة على درايةٍ متجددة عن إخلاص الأوعية التى آمنها على أسرارهِ وعن ثقته بعملها، فيستطيع تقدير مدى امتلاء أى من تلك الأوعية عن آخرها حتى أنها يمكن الآن تطفح. ويكون بيده وحده النظام المتداخل المعقد للأسرار، فإن سلمه لآخر شعر بالخطر يتهدده. ومن سمات السلطة أن يكون هناك تقسيمٌ غير متساوٍ لسر الغور. فالقوى يسر الغور لكن لا يدع أحدًا يسر غوره، ويكون عليه هو التحلى

بأقصى درجات الكتمان، فأفكاره وكذلك نواياه لا ينبغي لأحد أن يعرفها. ومن الحالات الكلاسيكية لمثل هذا الكتمان الشديد كانت حالة "فليبو ماريا" آخر الـ "فيسكونتي" فقد كانت إمارته "ميلانو" قوةً عظمت في إيطاليا في القرن الخامس عشر⁽¹⁰⁸⁾، ولم يكن هناك من يضاهيه في إخفاء أعماقه، فهو لم يفصح قط عما يريد بل كان يعبر عن ذلك بعد أن يكون قد غلفه بطريقة خاصة به. فإن فقد وده نحو شخص ما فإنه يواصل مدحه، فإذا ما خلع على شخصٍ بالعطايا بألقاب التشريف فإنه يكون بهذا قد أدانه بالحقاقة أو استخدام العنف ويجعله يشعر بأنه غير جدير بما واثاه من حظ. فإذا ما شاء أن يقرب أحدًا إلى محيطه فإنه يجذبه إليه لفترة طويلة ويثبت فيه الآمال ثم يدعه يهوى، فإذا ما اعتقد المستهدف أنه صار نسيًا منسيًا فإنه يستدعيه إليه ثانيةً. فإذا ما أنعم على بعضهم بمكافأة لما قاموا به نحوه فإنه يتساءل على نحوٍ ماكر كأنه لا يعرف شيئًا عن العمل الطيب المضمون. وعادةً ما كان يعطى شيئًا آخر غير المرجو على نحوٍ مخالف لما كان مأمولًا. فإذا شاء منح أحد هدية أو الخلع عليه بتشريفٍ ما، كان اعتاد قبل ذلك بأيام كثيرة أن يسأله عن أمورٍ غير مهمة على الإطلاق حتى لا يكون بوسع الرجل تخمين ما ينوي. أجل، فحتى لا يبوح لأحدٍ بنيته الخفية فإنه كان يشكو من توزيع العطايا التي يكون هو نفسه الذي منحها، أو يشكو من تنفيذ حكم اعدام يكون هو نفسه قد أصدره. وفي هذه الحالة الأخيرة يبدو كأنه يحاول إخفاء أسرارهِ حتى عن نفسه، فهذه تفقد شخصيتها المعروفة والنشطة فتدفع بها إلى صورة السر السلبية الذي يحمله المرء في ظلام كهف جسده الشخصي، والذي يحتفظ به هناك حيث لا يمكن معرفته أبدًا، حتى إنه هو نفسه يكون قد نسيه. أما الملك الفارسي قورش الثاني المظفر فكان قد ابتكر وسائل خاصةً به تمامًا من أجل اختبار مدى كتمان الأشخاص الذين اختارهم لذلك⁽¹⁰⁹⁾. فإذا ما عرف أن هناك في محيطه شخصين ارتبطا بصداقة حميمة فتوافقا على الشيء نفسه أو ضد الشيء، نفسه فكان يضم أحد الاثنين إليه ويأمنه على سرٍ يخص صديقه، فيبلغه أنه قرر إعدام صديقه ويحظر عليه - مهددًا بالعقاب - إفشاء هذا السر لصديقه. ومن هذا الحين يراقب مسلك هذا المهدد في غدوه ورواحه بالقصر ولون وجهه ومسلكه إذا وقف بين يدي الملك، فإذا ما تبين له أن مسلكه لم يتغير في شيء فإنه يقرب صديقه ويمنحه ثقةً أعظم ويعامله بامتيازٍ خاص ويرفع من مرتبته ويجعله يتمتع بنعمته، وفيما

بعد عندما يختلى به يقول له: "قد كنت أنوى إعدام هذا الرجل بسبب أخبارٍ محددة وصلتنا عنه لكن اتضح زيف كل شيء طبقًا لمعلوماتٍ أكثر دقةً". لكنه إذا لاحظ أن الشخص المُهدّد قد اعتراه الفزع وآثر العزلة متحولاً بوجهه عنه فإنه يدرك أن سره تم إفشاؤه وهنا يصب قورش نغمته عليه فيخفض مرتبته ويعامله بقسوةٍ، ويخبر الآخر بأنه لم يشأ إلا وضع صديقه تحت الاختبار بأن أثمنه على سر ما. على هذا النحو كان لا يثق في كتمان أحد رجال بلاطه إلا عندما يرغمه على خيانة مميتة لأقرب أصدقائه. أما الكتمان الأعظم فكان لا يأتمن عليه أحدًا سوى نفسه، فكان يقول: "من لا يكون جديرًا بخدمة الملك فإنه لا يمثل قيمةً تجاه ذاته هو، ومن لا يمثل لنفسه قيمةً لا يجنى من ورائه فائدة".

إن سلطة الكتمان تتمتع بتقديرٍ كبير فهي تعنى أن المرء يستطيع مقاومة كل الإغراءات للإفصاح عن السر، وهى إغراءاتٌ بلا حصر. فلا يعطى إجابةً على أى شيء كأنه لم يُسأل قط. فهو لا تبدو عليه أمارة تثير إعجاب الآخر بهذا أو ذاك، فيخرس المرء من دون أن يكون أصيب بالخرس لكنه يكون قد سمع. وفضيلة المثابرة على رباطة الجأش لا بد من أن تفضى في حالتها القصوى إلى الكتمان. فالصمت يشترط المعرفة الدقيقة بما يتم السكوت عنه. ولما كان من طبائع الأمور ألا يصمت المرء للأبد فإنه يكون عليه الاختيار بين ما يمكن الإفصاح عنه وبين ما يجب كتمانته. والمسكوت عنه هو الأفضل بين كل ما يمكن معرفته، فهو الأكثر دقةً والأعظم قدرًا. والمسكوت عنه لا يحميه فحسب بل يجعله أكثر تركيزًا، فالرجل الذى يصمت كثيرًا يبدو أكثر تركيزًا في كل الأحوال. فالمرء يظن أن هذا يعرف الكثير للغاية عندما يصمت. ويظن أن هذا يفكر كثيرًا في أسراره، وهذا ما يحدث له كل مرةٍ عندما يكون لديه ما يخفيه. وهكذا فإنه لا ينبغي إغفال قيمة السر بالنسبة للصامت، فالمرء يحترمه لأنه يتحرق أكثر فأكثر ولأنه يتنامى داخله، ورغم ذلك فإنه لا يبوح به. إن الصمت يفرض العزلة، فمن يصمت يكون أكثر عزلةً من المتحدثين، ولهذا تنسب إليه قوة الانفرادية. إنه حارسٌ لكنزه، وكنزه داخله. والصمت يُعتبر صنوًا للتحويل. فمن يتمسك بموقفه الداخلى لا يستطيع الابتعاد عنه. فالصامت يستطيع التنكر لكن على نحوٍ جامد، وبوسعه ارتداء قناعٍ معين لكنه يتمسك به فمرونة التحويل تستحيل عليه، فأثرها غير محدد، ولا يمكن إدراك ما يمكن أن ينزلق إليه إذا ترك المرء نفسه لها، أى لهوى النفس. والمرء يصمت في كل حالةٍ حينما لا يريد التحويل. ففي الكتمان

تنتفى كل دواعى التحول. فمن خلال الكلام يتصل كل شيء بين الناس، وهو ما يتجمد في حالة الصمت. ومن ميزات الصامت أن الناس تنتظر إفصاحه مما يكسبه أهمية لدى هؤلاء. والإفصاح موجزٌ ومحدد وهو يقترب بذلك من "الأمر"، فعلاقة الاختلاف النوعي المصطنع بين الأمر وبين من يطيعه تعنى عدم وجود لغة مشتركة بينهما، فلا ينبغى أن يتحادثا معًا كأنهما لا يستطيعان ذلك. وافترض أنه لا يوجد تفاهمٌ بينهما خارج "الأمر" يظل قائمًا تحت كل الظروف، وعلى هذا يصير "الأمرون" في إطار مهنتهم "صامتين"، وعلى هذا النحو ينتظر المرء من الصامتين البوح بما يكتُمون، فإن هم فعلوا ذلك تلقى ما يقولونه كأنه "أوامر". أما شك المرء في أشكال الحكم الحرة واحتقاره لعدم جدية عملها فإنه يرتبط بافتقار هذه الحكومات إلى السرية. ففي البرلمان تدور مناقشاتٌ بين مئات الناس وتكمن أهميتها الخاصة في علانيتها. فالآراء المتعارضة تعلن عن نفسها وتتنافس، وحتى الجلسات السرية سرعان ما ينكشف أمرها، فالفضول المهني للصحافة والاهتمام بالمصالح المالية يؤديان إلى إفشاء السرية، فالبعض يرى أن الفرد أو مجموعة صغيرة حوله هم من يستطيعون الحفاظ على السر. وقد وُضعت عقوباتٌ قاسية للغاية على إفشاء السر. أما القرار فيفضل أن يكون بيد واحدٍ مفرد، وحتى هذا لا يستطيع معرفته قبل اتخاذه، فإذا ما ما اتخذه فإنه سرعان ما يجد السبيل لتنفيذه. إن قسمًا كبيرًا من المكانة التي يتمتع بها المستبدون قائمٌ على السماح لهم بتركيز قوة السر في أيديهم، السر الذي هو مقسمٌ ومشطى بين كثيرين في المجتمعات الديمقراطية. وهو ما يتندر عليه البعض بأن كل شيء يُقتل نقاشًا في هذه الديمقراطيات. فكلُّ يثرثر بلا معنى، وكلُّ يتدخل في كل شيء، فلا يحدث أى شيء، لأن كل شيء يكون قد عُرف قبلها. فيبدو الأمر مفتقرًا إلى الحسم، وفي الواقع فإن خيبة الأمل في الافتقار إلى السر.

فالمرء على استعداد لتحمل الكثير ما دام ذلك أمرًا عظيمًا وسريًا. فالحال يبدو دغدغةً عبودية من نوعٍ خاص للغاية بأن يكون المرء بحد ذاته بلا قيمة مستقرًا في وعاء قوى فلا يدرى ماذا يحدث حقًا، ولا يدرى متى يقدم الآخرون على الخطوة الأولى نحو المجهول. فينتظر المرء مستسلمًا متحرقًا أن يصير الضحية المختارة. ويمكن للمرء في هذه الحال أن يرى السر مقدسًا. ويغضى بريقه على أى شيء آخر. والمرء لا يتوقع الكثير إذا ما فاجئته حمم البركان على نحوٍ غير متوقع ولا يمكن مقاومته. فإن صارت كل الأسرار في ناحيةٍ واحدة وبيدٍ واحدة فلا بد من

أن تكون نهاية صاحبها وخيمة العواقب وهو ما لا يعتبر مهمًا بحد ذاته، لكنه يمثل أهمية هائلة لكل من يستهدفه هذا الأمر. فكل سر ذات طبيعة متفجرة ويتفاقم بفعل حرارته الداخلية. أما القسم الذي يعتبر صمام أمان للسِر فيكون هو نقطة انفجاره. ولكننا اليوم نستطيع كشف مدى خطورة السِر. ففي أجواء مختلفة تمامًا، تبدو منفصلةً ظاهرياً، يكون السِر قد شحن نفسه بسلطةٍ أعظم قدرًا. فما إن مات الديكتاتور الحقيقي الذي خاض العالم الحرب ضده متحدًا، حتى ظهر مجسدًا في القنبلة الذرية، الأكثر خطرًا من كل ما سبقها، بتوابعها الملتامية بسرعة.

إن "تركيز السِر" هو المسمى الذي يُطلق على العلاقة بين عدد هؤلاء من يستهدفهم وعدد هؤلاء الذين يحتفظون به. وطبقًا لهذا التحديد يكون من السهل إدراك أن التقنية الحديثة هي الأكثر تركيزًا والأكثر خطرًا مما سبقها على الإطلاق. وهي تستهدف الكل، لكن عددًا قليلًا هو من يعرفها، ويتوقف استخدامها على خمسة أو عشرة أشخاص.

الحكم والإدانة

قد يكون من المفيد هنا أن ننطلق من ظاهرة يلمسها الجميع، وهي ظاهرة التلذذ بالحكم سلبيًا، فعندما يقول أحدهم: "إن هذا كتابٌ سيئٌ" أو "إن هذه صورةٌ رديئةٌ" فإنه يكون قد اتخذ مظهر من له القدرة على قول شيء موضوعي، وإلى حدٍّ ما تشي ملامحه في أثناء ذلك بأنه يسعد بقول ذلك. فظاهر القول خادعٌ وهو سرعان ما يتحول إلى حكم شخصي: "إنه شاعرٌ رديءٌ" أو "إنه رسامٌ رديءٌ". وهو ما يبدو في نفس الوقت كأنه قيل "إنه إنسانٌ رديءٌ". ولذّة الحكم سلبيًا لا يمكن إخفاؤها إطلاقًا. إنها لذّة قاسية ومروعة لا يمكن إنكارها قطعًا. أما "الحكم" فلا يكون حكمًا إلا إذا انطوى على شيء كاليقين الجازم وهو لا يعرف الوسطية كما لا يعرف الحذر ويتوصل إليه بسرعة، وهو يتسق مع جوهره في الغالب إذا صدر من دون تردد. أما الشغف الذي يفصح عنه فيرتبط بسرعه. والحكم غير المشروط والحكم السريع تظهرهما اللذة المرتسمة على ملامح مصدر الحكم. فأين تنشأ هذه اللذة؟ إن المرء يزيح عن نفسه شيئًا، ليباعد عن جماعةٍ أقل قدرًا شريطة أن ينتمى هو إلى جماعةٍ أعلى قدرًا. فهو يرفع من قدر نفسه وهو يحط من قدر الآخرين. ووجود ثنائيةٍ مثل قيمتين متعارضتين يصير أمرًا مقبولًا كشيءٍ طبيعيٍّ وضروريٍّ. والمرء يختار "الأمر الطيب"

أينما كان حتى يرتفع بنفسه عن "الأمر السيئ"، فهو من يحدد بنفسه ما يكون على هذا الجانب وما يكون على الجانب الآخر. إنها هي سلطة القاضي التي يقرها لنفسه على هذا النحو، لأن القاضي فقط فيما يبدو هو من يقف بين كلا المعسكرين، على الحدود الفاصلة بين "الطيب" و"السيئ"، وهو ينسب نفسه إلى "الخير" على كل حال، فشرعية منصبه تتأسس في قسم كبير منها على انتمائه الراسخ إلى مملكة الخير كأنه وُلِدَ هناك، وهو يصدر حكمه على نحو ما في النهاية ويكون حكمه مُلْزِمًا، والأمور التي يفصل فيها هي أمورٌ محددة تمامًا. أما إدراكه للخير والشر فيرجع إلى خبرته الطويلة. أما غير القضاة، أى من لم يكلفهم أحدٌ بذلك، ولم يعينهم من هو متمتعٌ بقوى عقلية سليمة، فهم هؤلاء من يستنبطون أحكامًا في كل المجالات ولا يشترط في ذلك تمتعهم بالمعرفة المتخصصة، فمن يمتنعون عن إصدار أحكامٍ، لأنهم يستحون من ذلك، يُعَدُّون على أصابع اليد. فمرض إصدار أحكامٍ يُعَدُّ واحدًا من أكثر الأمراض انتشارًا التي عرفها البشر وأصابت الجميع عمليًا. فإذا ما حاولنا الكشف عن جذور ذلك، رأينا أن المرء يشعر من حينٍ لآخر بحاجةٍ عميقة إلى إعادة وضع كل من يستطيع تصورهم في إطار مجموعاتٍ. فهو يقسم عدد الموجودين المتغير وغير المحدد إلى مجموعتين ليضعهما على هذا النحو مقابل بعضهما البعض، فيمنحهما شيئًا من الكثافة، وهو يحشدهما، كأن عليهما قتال بعضهما البعض، ويشحنهما إلى حد الانفجار ويوغر صدورهما بالعداء. فكما تصورهما هو كما شاء، لا يكون بوسعهما سوى أن يصيرا ضد بعضهما البعض. إن الفصل بين الطيب والخبيث هو أقدم وسائل التصنيف الثنائي، الذي لم يكن مجردًا تمامًا ولم يكن قط مسالمًا تمامًا. والأمر على صلةٍ وثيقة بحالة التوتر بينهما. ومصدر الحكم يخلق هذا التوتر ويجدده. إنه الميل إلى تكوين حزمٍ معادية تكون أساسًا لهذا الحدث. على أن يفضى ذلك في نهاية المطاف إلى حزمٍ حربٍ. ولما كان ذلك ينسحب على كل مجالات الحياة وأنشطتها المحتملة فإنه يصبح أقل وطأةً، ولكن حتى لو لعب دورًا سلميًّا وحتى لو تبدى في حكمٍ لفظي، فإن النزوع إلى عداوةٍ دموية، يكمن في بذرته. وحتى من تشعبت وتنوعت علاقاته فإنه ينتمى على هذا النحو إلى مجموعات "الخير" التي بلا حصر ليواجه مجموعاتٍ على نفس القدر من الكثرة، أى مجموعات "الشر". والأمر يرتبط بحالاتٍ مجردة إن كانت هذه المجموعة أو غيرها قد تم تحريضها لتكون كتلةً لتهاجم الكتلة المعادية لها قبل أن تهاجمها

هذه الأخرى. وعن أحكام تبدو سلميةً تنشأ فيما بعد أحكاماً بالموت ضد العدو. فحدود الأخيار تكون محددةً بدقة، وويلٌ للشير إن تجاوزها، فهو لا علاقة له بالأخيار، فلا بد من القضاء عليه.

سلطة العفو. الغفران

إن سلطة العفو هي سلطة يحتفظ بها كل لنفسه، والكل يمتلكها. وسوف يكون الأمر مثيراً للعجب لو أن الحياة تأسست حسب أفعال العفو. فالإنسان المصاب بجنون العظمة هو الذي لا يستطيع العفو إلا بصعوبة بالغة أو أنه لا يفعل ذلك على الإطلاق، وهو الذي يتدبر طويلاً والذي لا ينسى أبداً شيئاً يمكنه العفو عنه، وهو الذي يخلق أفعالاً عداوية وهمية حتى لا يغفرها. والمقاومة الأساسية في حياة أناس - على هذه الشاكلة - تتوجه ضد كل صور الغفران. فإذا ما تعلق ذلك بوصولهم للسلطة ودعم نفوذهم واضطروا إلى إصدار حكم بالعفو فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لذر الرماد في العيون، فصاحب السلطة لا يغفر أبداً حقاً، فكل عملٍ عدائي يظل مُسجلاً ليتم حجبهِ أو يظل محتفظاً به لوقت حاجةٍ، وأحياناً ما يتم مبادلة ذلك مقابل خضوعٍ حقيقى. ويتخذ أصحاب السلطة إجراءاتٍ جريئة في هذا الشأن، فهم يتحرقون كثيراً إلى إخضاع كل من يعترض طريقهم إلى حد أنهم يبالغون في دفع ثمنٍ غالٍ لذلك. أما المغلوب على أمره، الذي تبدو له قوة صاحب السلطة بلا حدود، فإنه لا يرى مدى أهمية خضوع الجميع التام بالنسبة لصاحب السلطة. فالمغلوب على أمره لا يستطيع تقدير تنامي السلطة - إن كان يملك شعوراً بذلك على الإطلاق - إلا مقارنةً بثقله هو الحقيقى، وهو

لن يدرك أبدًا أن انحناء هذا الأخير، أى التابع المنسى البائس، هو ما يمنح للملك تألقه. واهتمام رب الإنجيل بكل فرد وإصراره وحرصه على ألا ينسى أى إنسان، هو بمثابة القدوة لكل صاحب سلطة. وهذا الرب هو أيضًا من أسس لمسلك الغفران الملتبس، فمن خضع له شمله مرةً أخرى بعفوه. لكنه على إثر ذلك يراقب مسلك من استعبده وييسر له إطلاعه على الخبايا معرفة مدى خداع عبيده له. وليس هناك شك على الإطلاق بأن المحظورات الكثيرة هى هنا فقط من أجل دعم سلطة هؤلاء الذين بوسعهم عقاب الآخرين وغفران أخطائهم. فالعفو هو عملٌ سلطوى علوى ومركزٌ للغاية لأنه يشترط الإدانة التى من دونها لا يمكن أن يوجد فعل العفو. وفى العفو يكمن كذلك الانتقاء فهو ليس تقليدًا أن يتم العفو عن أكثر من عددٍ معين محدود من المدانين. فالمعاقب يكون على حذرٍ تام من الإفراط فى التسامح، وحتى لو تظاهر بأن قسوة الحكم تخالف جوهر الطبيعة، فإنه سوف يبرر ذلك بالضرورة المقدسة للعقاب، وبذلك يجد مبررًا لكل شئ، إلا أنه دائمًا ما يدع سبيل العفو مفتوحًا سواء أنه قرر ذلك بنفسه فى حالاتٍ مختارة أو أنه ينصح سلطة عليا مكلفة بذلك بالعفو. وتبلغ السلطة أوجها حين تقرر العفو فى آخر لحظة ممكنة. فعندما تحين لحظة تنفيذ الحكم بالإعدام، الذى صدر به حكم بالمقصلة أو بدفعة رصاص من فرقة إعدام متأهبة لإطلاق النار، فيبدو هنا العفو كأنه حياةٌ جديدة. إنه حدود السلطة التى لا تستطيع إعادة الموتي إلى الحياة، لكن غالبًا ما يعتقد صاحب السلطة أنه اجتاز تلك الحدود بفعل العفو، الذى احتفظ به طويلاً.

الأمر

الأمر: فرازٌ وغصة

الأمر هو الأمر: يلتصق الأمر بطبيعة كل ما يمكن وصفه بالجزم والحسم وعدم النقاش، وهى طبيعة أحدثت آثاراً من المرجح أنها لم تنل حظها من التدبر بدرجة كافية. فنحن نتقبل "الأمر" على أنه شيء دائم الوجود، فهو يبدو طبيعياً مثل الأمور التى لا غنى عنها. وقد اعتاد المرء على "الأوامر" منذ الصغر، ومن هذه الأوامر تتألف إلى حد كبير ما نطلق عليه "التربية"، كما أن حياة البالغين بأسرها تتشرب من معينها وتتخللها تلك الأوامر، سواء تعلق ذلك بمجالات العمل أو الحرب أو العقيدة. قلما تساءلنا: ما هى حقيقة ماهية "أمر ما"؟ هل هى بالفعل سلسلة كما تبدو هكذا؟ هل يترك الأمر - رغم سرعة وسلاسة تليته - خلفه آثاراً أخرى أكثر عمقاً، وربما عدوانية (كذلك) داخل الإنسان الذى عليه إطاعة "الأمر"؟

إن الأمر أقدم من اللغة وإلا ما كانت قد فهمته الكلاب، فترويض الحيوانات يتأسس على أنها تتعلم فهم ما يُطلب منها من دون معرفةٍ باللغة. فالأوامر المقتضبة، التى لا تختلف فى شيء عن مثيلاتها لدى الإنسان، تنطوى على إعلان إرادة مروض الحيوانات، فينصاع الحيوان لها مثلما ينصاع للنواهى كذلك. وهنا

يجدر بنا البحث عن جذور "الأمر" العميقة للغاية. فوجوده واضحٌ على الأقل في شكلٍ ما أيضا خارج إطار المجتمع البشرى.

إن "الفرار" هو أقدم صيغة تنفيذية للأمر الصادر إلى حيوانٍ من كائنٍ أقوى منه. فالفرار يحدث - كما يبدو ظاهريا فقط - بشكل تلقائي، ودائماً ما يتخذ الخطر هيئةً ما، ومن دون تصور ذلك فإن أى حيوانٍ لن يقدم على الفرار. والأمر بالفرار يكون قوياً ومباشراً مثل النظرة. ومن البدء تتجلى سمات جوهر الفرار في اختلاف نوع كلا الكائنين اللذين تنشأ بينهما علاقةٌ على هذا النحو. فأحدهما يعلن عن رغبته في التهام الآخر، وهنا تظهر الخطورة القاتلة للفرار. والأمر يرغم الحيوان الأضعف على التحرك سواء كان قد أطاع ذلك حقاً أم لا. كما يتوقف الأمر على قوة التهديد: قوة النظرة والصوت والهيئة المروعة. وهكذا يشتق الأمر من "الأمر بالفرار"، وهو يظهر في هيئته الأولى بين حيوانين مختلفى النوع، فتباين القوة الكبير بين كلا هذين، وحقيقة أن أحدهما اعتاد أن يكون فريسةً للآخر، وثبات هذه العلاقة التى تبدو راسخةً منذ القدم، كل ذلك معاً ينطوى على شيءٍ مطلق غير قابل للجدل. إن الهرب هو الفرصة الوحيدة والأخيرة المرجوة ضد الحكم بالموت. فزئير أسدٍ خرج للافتراس هو في حقيقة أمره حكمٌ بالموت، فهو أحد أصوات لغته الذى يفهمه ضحاياه. وقد يكون هذا التهديد هو الوحيد الذى اجتمع عليه من اختلفوا عن بعضهم البعض. إنه "الأمر" الأقدم وهو الذى صدر في عصور أقدم سابقة على وجود الإنسان، وهو الذى يرغم الضحية على الفرار. وسيكون من المفيد إذا ما تأملنا الحديث عن "الأمر" بين البشر. فالحكم بالموت ورهبته القاسية يكون واضحاً في كل "أمر". وقد وُضِعَ نظام الأوامر بين الناس على نحوٍ يجعل الإفلات من الموت أمراً مألوفاً. لكن الفرع منه، أى خطره، يكمن فيه دائماً. والحفاظ على أحكام الموت الحقيقية وتنفيذها يحفظان استمرار الفرع من كل أمرٍ، ومن الأوامر على نحوٍ مطلق. فإذا ما غضضنا الطرف للحظةٍ عما توصلنا إليه عن أصل "الأمر"، ونظرنا إليه بحيادٍ كمادةٍ البحث للمرة الأولى، فإننا سوف نجد أن ما يلفت الانتباه إلى "الأمر" هو أنه مسبب فعلٍ، فإصبغٌ ممتد نحو اتجاهٍ ما يمكن أن يكون له أثر الأمر. فكل الأعين التى ترى الإصبغ معنياً بها تتحول إلى الاتجاه نفسه. فيبدو الحال كأن الفعل المنطلق، المجدد اتجاهه، لم يكن سوى ما أشار إليه "الأمر". فالامتداد إلى اتجاهٍ ما شيءٌ هام للغاية، والتراجع عنه أو تغييره لا يقابل بأدنى

عقوبة. ومن خصائص الأمر أنه لا يخضع للاعتراض، فلا جدال أو شك فيه أو تأويل له. فهو واضحٌ مباشر ولا بد من فهمه في الحال. والتردد في قبوله يضعف قوته وكل تكرارٍ لـ "أمر" لا يتبعه تنفيذ يخضم جزءاً من حيويته، فيرقد بعد زمنٍ منهكاً على الأرض، فاقد الوعي. وفي مثل هذه الأحوال يكون من الأفضل ألا يعاد إحياءه، فالفعل المنطلق عن أمرٍ مرتبطٌ بلحظة تنفيذه. وقد يمكن إقرار الفعل فيما بعد، على أن يكون محكماً، سواء كان صريحاً أو ناتجاً عن طبيعة "الأمر". والفعل الذي ينفذ بناءً على أمرٍ يكون مختلفاً عن كل الأفعال الأخرى، فيشعر به المرء كشيء غريب، وتذكره ينطوى على شيء عابر لا ينتمى إلى المرء، فيمر به بسرعةٍ كريخٍ غريبة. وسرعة التنفيذ التي يتطلبها "الأمر" قد تساهم في الغربة التي يتذكرها بها المرء، إلا أن ذلك لا يكفي لتفسير هذه المسألة فمن المهم بالنسبة لـ "الأمر" أنه يأتي من الخارج، فلا يمكن أن يتدبره المرء وحده، فهو أحد عناصر الحياة المفروضة علينا، فلا أحد يحدثها في نفسه حتى حينما يظهر آحاد الناس فجأةً حاملين أكداً هائلة من الأوامر محاولين تأسيس عقيدةٍ جديدة، أو تجديد أخرى قديمة، فإن ذلك يصحبه ظهور عبءٍ غريب مفروض. وهؤلاء لا يتحدثون بالأصالة عن أنفسهم فقد كلفهم آخرون بما يطلبونه، ومهما كذبوا في أحوالٍ أخرى يكونون في هذه الحال صادقين دائماً، فهم يؤمنون بأنهم مرسلون. ورغم أن مصدر "الأمر"، يكون مصدرًا غريبًا، إلا أنه لا بد من الإقرار أنه الأقوى، فعلى الطاعة لأننا لا نملك فرصة للفوز، فمن ينتصر هو من أصدر الأمر.

أما سلطة "الأمر" فيجب ألا تكون محل شك، وإذا تراجعت مرةً يكون عليها الاستعداد لإثبات جدارتها ثانيةً من خلال الصراع، لتظل لفترة طويلة معترفًا بها. أما المدهش فهو مدى ندرة طلب قرارات جديدة لاستمرار فعالية القرارات القديمة. والمعارك التي تنتهي بالنصر تستمر من خلال الأوامر. ففي كل "أمر" تم تنفيذه يتم تجديد نصر قديم، فيبدو أن سلطة "الأمر" تنمو بلا انقطاع، فأقل الأوامر شأنًا يحمل إضافةً جديدة. والأمر لا يصدر عادةً ليستفيد منه فقط من "أصدره"، بل إن هذا يكمن في طبيعة الأمر ذاتها وفي الإقرار به، وفي المجال الذي يستهدفه وفي ميعاده المناسب القاطع، ففي كل هذا ما يضمن للسلطة أمان مجالها ونموه. فالسلطة ترسل أوامرها كسحابة سهامٍ سحرية، فينصاع المصابون بذلك كضحايا لصاحب السلطة، بعد أن اقتادتهم السهام وأثرت فيهم. إلا أن مسألة بساطة ووحدانية الأمر التي تبدو للوهلة الأولى مطلقةً وغير قابلة للشك

فهو أمرٌ ظاهرى إن نحن دققنا النظر في هذه المسألة. و"الأمر" يسلم نفسه للتحلل فمن الضروري أن يتفكك وإلا ما تعلم المرء استيعابه أبداً.

وكل "أمر" يتكون من دافع ومن غصة. أما الدافع فيرغم متلقى الأمر على تنفيذه، على أن يكون ذلك مطابقاً لمضمون الأمر، وأما الغصة فتظل كامنة داخل من قام بتنفيذ الأمر، فإن تم تنفيذ الأمر كما يتوقع منه فإنه لا يمكن رؤية شيء من الغصة لأنها خفية لا يمكن سبر غورها. وربما تتجلى ملحوظة بالكاد في مقاومة متردة قبل إطاعة الأمر. إلا أن الغصة تنفذ بعمق داخل الإنسان الذى نفذ الأمر وتظل كامنة هناك على حالها. ولا يوجد بين الأشكال الحية ما هو أكثر رسوخاً من هذا. فمضمون "الأمر" يظل كامناً في الغصة، وقوته وخطورته ومعامله الواضحة، أى أن كل شيء قد تكوّن في اللحظة التى صدر فيها الأمر. وقد تستمر الحال لسنواتٍ أو عشرات السنين حتى يظهر ثانيةً هذا الجزء الغائر المخزون من "الأمر" في صورته المماثلة الدقيقة. ولكن من المهم معرفة أن أى أمر لا يذهب أدراج الرياح، فهو لا ينتهى حقاً بتنفيذه بل يظل مخزوناً دائماً. أما متلقو الأوامر الذين يتعرضون لذلك على نحو دائم فهم الأطفال. وعدم انهيارهم من جراء عبء الأوامر يعتبر من المعجزات، وأنهم يبقون على قيد الحياة بعد ممارسات القائمين على تربيتهم، وأنهم لن يكونوا أقل ضراوةً عندما ينقلون كل ذلك إلى أبنائهم فيما بعد، هو أمرٌ طبيعى مثل قضم الطعام والكلام. ولكن ما يثير الدهشة هى تلك الحصانة التى نالتها الأوامر منذ الطفولة المبكرة، فهى تكون جاهزة حاملةً يكون الجيل التالى قد انتهى من ضحاياه. فلم يختلف جيلٌ عن آخرٍ بسبب الأوامر التى قد تكون صدرت من ساعة واحدة، إلا أنها فى واقع الحال كانت صادرةً من عشرين أو ثلاثين عاماً أو أكثر من ذلك. فالقوة التى يتلقى بها الطفل الأوامر والصلابة والإخلاص اللذين يحافظ بهما على هذه القوة ليست إنجازاً فردياً، فليس للذكاء أو الموهبة الشخصية أدنى علاقةٍ بذلك. وكل، بل أى طفل، مهما كان مستواه، لا ينسى ولا يغفر أى أمرٍ أساء إليه، بل إنه يتحول بالأحرى إلى هذه الصورة البشرية التى نعرفه بها، فوضع الرأس وتعبيرات الفم ونوع النظرة تتحول لتمثيل هيئة غصة الأمر الذى غرس فيه وظل مخزوناً من دون تغيير، فإن أتيحت له الفرصة انطلق دون تغيير. فالحالة التى انطلق فيها لا بد من أن تكون مماثلةً لتغير الحالة القديمة عند تلقيه إياه. وإعادة إنتاج مثل هذه الحالات السابقة، كارتدادٍ، تُعتبر واحدةً من أعظم مصادر الطاقة

الروحية في حياة الإنسان. فالحافز على تحقيق هذا أو ذاك على نحو ما، هو الإلحاح الأعظم للخلاص من أوامر كان المرء تلقاها ذات مرة. فالأمر المنفَّذ وحده هو الذى يدع غصته ملازمة لمن إطاعه. أما من يتفادى الأوامر فلا يضطر إلى تخزينها كذلك. فالإنسان "الحر" هو وحده من عرف تجنب الأوامر، وليس هو هذا الذى يتخلص منها فيما بعد. أما من احتاج وقتًا أطول للتخلص منها أو لم يستطع التحرر منها مطلقًا فيكون هو الأقل تحررًا بلا شك. وليس هناك إنسانٌ نزيه لا يشعر بعدم الحرية إذا لم يستجب لدوافعه الشخصية. حتى وإن بلغت هذه الدوافع أقصى مداها، وأفضت تلبيتها إلى أخطر العواقب، فإن هذا يشعر بأنه يفعل ما تمليه عليه إرادته الداخلية. أما إذا تحول ما فى داخله ضد الصادر إليه من الخارج، وكان عليه تنفيذه، فهنا يتحدث الجميع عن عبء الضغط ويحتفظون لأنفسهم بحق الارتداد أو التمرد.

ترويض الأمر

إن أمر الفرار الذى ينطوى على تهديد بالموت يشترط اختلافًا كبيرًا فى السلطة بين الأطراف ذات الصلة، فمن يجبر الآخر على الفرار هو من يستطيع قتله. وقاعدة الطبيعة الأساسية تنتج عن حقيقة أن كثيرًا من أنواع الحيوانات تتغذى على الحيوانات. إنها هى الأنواع الأخرى تلك التى يعيشون عليها. وعلى هذا النحو يشعر أغلب الحيوانات بالتهديد من مثل هذه الأنواع حينما تتلقى أمر الفرار من الغرباء والأعداء. أما ما نسميه فى حياتنا العادية "أمرًا"، فهو ما يحدث بين الناس، فهناك السيد الذى يأمر عبده والأم التى تأمر ابنها. و"الأمر" الذى نعرفه كان قد تطور إلى حد كبير عن أصله البيولوجى، أى عن أمر الفرار، فقد تم ترويضه، لنستخدمه عمومًا فى العلاقات الاجتماعية وكذلك الحميمة فى سبيل التعايش الإنسانى المشترك. ودوره فى إطار الدولة لا يقل عن دوره داخل الأسرة وهو مختلف تمامًا عما عرضناه "كأمر فرار"، فالسيد ينادى عبده فىأتى رغم علمه بأنه سيتلقى أمرًا، والأم تنادى ابنها فلا يهرب منها دائمًا، فرغم أنها ستمطره بأوامر من كل نوع فإنه يحتفظ على أية حال باستثنائه، فهو يبقى بالقرب منها ويجرى نحوها، وهو الأمر نفسه الذى يسرى على الكلب، فهو يبقى لدى صاحبه ويركض إليه فور سماعه لصفيحه. فكيف تطورت حال "الأمر"

إلى هذا الترويض؟ ما الذى حول التهديد بالقتل إلى "أمر" برىء؟ إن تفسير هذا التطور يكمن فى أن رشوة من نوعٍ ما قُدمت فى كل واحدةٍ من هذه الحالات. فالسيد يعطى عبده أو كلبه شيئاً من طعام، والأم تغذى ابنها، فالكائن يخضع لتبعية تلقى طعامه من يدٍ وحيدة فقط، فالعبد والكلب يتلقيان الغذاء من سيدهما وحده، فليس هناك غيره من التزم بذلك. بل إنه فى حقيقة الأمر لا يجوز لأحدٍ آخر تقديم الطعام لهما، فعلاقة الملكية تنشأ على نحوٍ أو آخر فى كل ما يقدمه السيد من غذاء. أما الطفل فإنه لا يستطيع القيام بتغذية نفسه بنفسه على الإطلاق، فهو من بدايته الأولى يرتبط بشدى أمه. وقد خُلقت علاقة وثيقة بين توفير الطعام وبين الأمر. وتتجلى هذه الصفة خالصةً فى تدريبات مروض الحيوانات، فإن أدى الحيوان ما ينبغى عليه أداؤه، فإنه يحصل على الطعام الطيب من يد مروضه. إن ترويض الأمر يجعل منه وعداً بالغذاء، فبدلاً من التهديد بالموت فإن المرء يعد كل مخلوقٍ بما يعتبره أولى احتياجاته. وهو يحفظ وعده هذا بدقة متناهية، فبدلاً من أن يستخدمه سيده كغذاء، بدلاً من التهامه، فإن المخلوق الصادر إليه مثل هذه الأوامر يحصل هو نفسه على ما يأكله. وهذا الترويض لأمر الفرار البيولوجى يربى البشر والحيوانات على نوعٍ من الأمر التطوعى الذى ينطوى على كل الدرجات والتصنيف الممكنة. إلا أن هذا لا يغير جوهر الأمر تغييراً تاماً. أما التهديد فيظل كامناً فى كل أمرٍ، ورغم أنه صار أقل وطأةً، فإنه ظل هناك عقابٌ معلن على كل من لا يتبعه، وقد يكون ذلك عقاباً صارماً تماماً وهو الأقسى والأقدم، إنه الموت.

ارتداد الأثر ورهبة الأمر

الأمر يكون مثل السهم فإنه يُطْلَق ويصيب. ومُصدِر الأمر يحدد هدفه قبل أن يطلق الأمر. وهو سيصيب بأمره هذا شخصًا محددًا تمامًا. ودائمًا ما يكون للسهم اتجاهٌ تم اختياره وهو يظل منغمسًا في المصاب حتى ينتزعه ليطلقه مرةً أخرى فيتحرر من تهديده. وفي الواقع فإن مسألة إعادة إصدار الأمر تدور على نحوٍ كأن المتلقى ينزعه، ويشده إلى قوسه ثم يعيد إطلاق السهم نفسه. والجرح بجسده يتم الشفاء منه إلا أنه يترك خلفه ندبةً، ولكل ندبةٍ قصة فهي أثرٌ لهذا أو ذاك السهم بعينه. إلا أن مصدر الأمر، أي الذي أطلقه، فيشعر بارتداد أثر ذلك. فالارتداد الحقيقي - وهو ما يمكن اعتباره ارتدادًا نفسيًا - لا يشعر به المرء إلا إذا رأى أنه أصاب هدفه. وهنا يتوقف التطابق الفيزيقي مع السهم، إلا أن ما هو أكثر أهميةً فهو أن نتعرف على الآثار التي يخلفها التسديد الموفق. أما الرضا عن تنفيذ إيجابى للأمر فهو أمرٌ خادع ويصرف نظرنا عن أشياء أخرى، فهناك دائمًا شيءٌ كالشعور بالارتداد، فما فعله المرء فإنه يترك أثره في المرء نفسه وليس الضحية. وتتجمع حالات ارتدادٍ كثيرة لتتحول إلى خوف. إنه نوعٌ خاص من الخوف الناتج عن تكرار كثير للأوامر، لذلك أصفه أنا بـ"خوف الأمر" الذي يتضاءل عندما يقتصر على تبليغ الأمر، لكنه يتنامى كلما كان الأمر

أكثر قربًا من مصدر الأمر الحقيقي. وليس من الصعب أن نفهم كيفية نشوء أمر الخوف هذا، فالطلقة التي تقتل كائنًا منعزلًا تترك في أثرها خطرًا، فالقتيل لم يعد بإمكانه إلحاق ضرر بأحد. فأما الأمر المهدد بالموت ولا يقتل فإنه يترك في أثره الذكرى بالتهديد. وبعض التهديدات تخطيء هدفها وبعضها يصيبه، وهذه هي ما لا يمكن نسيانها أبدًا، فمن هرب من التهديد أو تراجع أمامه فإنه سوف يثأر يقينًا، فهو الذى قد اقتص لنفسه دائمًا عندما سنحت له فرصة ذلك. أما من صدر عنه التهديد فإنه يكون على وعي بذلك، فهو يراهن بكل شيء بأن يكون الارتداد أمرًا مستحيلًا. إن الشعور بالخطر هو أن كل من صدر إليه أمرٌ وكل من هُدد بالموت، يظل حيًا ويتذكر - أما الخطر فيكون عندما يتوحد كثيرون مهددون بالموت ضد واحد. إنه شعورٌ عميق الجذور، لكنه رغم ذلك يظل غير محدد لأن صاحب الشأن لن يعرف أبدًا متى سينتقل المهددون من مرحلة التذكر إلى مرحلة الفعل. وهذا الشعور المعذب الدائم وغير المحدود أسميه أنا بـ"خوف الأمر"، وهو يبلغ أقصى مداه ضد صاحب الدرجة الأعلى، أى مُصدر الأمر، حيث يكون هو من صدر الأمر عن ذاته، أى لم يكن تلقاه من غيره، أى يكون هو منتجه الشخصى على نحوٍ أو آخر. هنا يبلغ تركيز "خوف الأمر" مداه الأعظم وهو ما يمكن أن يبقى داخل صاحب السلطة مقيدًا وكامنًا لفترةٍ طويلة ويمكن أن ينمو في أثناء حياة حاكمٍ ما، ليظهر فيما يعرف بـ"وهم القياصرة".

الأمر الصادر إلى كثيرين

يجب التفرقة بين أمرٍ صادرٍ إلى فردٍ وبين أمرٍ صادرٍ إلى كثيرين في آنٍ واحد. وقد ظل هذا الفارق موجوداً في أصل الأمر البيولوجي. فهناك بعض الحيوانات تعيش منفردةً، فتتلقى تهديد أعدائها منفردةً وأخرى تعيش في قطعان وتتلقى تهديدًا كقطعان. ففي الحالة الأولى يهرب الحيوان أو يختفى وحيداً وفي الحالة الثانية يهرب القطيع كله. أما الحيوان الذي يعيش في قطيع ويفاجأ بعدوه صدفةً فإنه يحاول الفرار إلى قطيعه. فالهروب الفردي والهروب الجماعي مختلفان من الأساس. فأما الخوف الجماعي لقطيعٍ هارب فهو الأقدم - وهنا نقول- إنه الحالة الجماعية الأكثر حميميةً التي عرفناها على الإطلاق. ومن المرجح أن التضحية تعود إلى حالة الخوف الجماعي هذه، فالأسد الذي يطارد قطيعاً من الغزلان، فرت معاً خوفاً منه، يتوقف عن المطاردة بعد القبض على أحد هذه الحيوانات ليكون هذا الحيوان ضحيةً له بالمعنى الأشمل للكلمة، وهذا هو ما يمنح حالة أمانٍ لرفاقه الآخرين. فما إن يحصل الأسد على ما شاء ويلحظ القطيع ذلك فإن خوفه يزول. ثم يخرج القطيع من حالة الفرار الجماعي ليعود ثانيةً إلى حالته التي ألفها، فيرعى كل حيوانٍ حرّاً، ويفعل ما يهوى. ولو كان للغزلان عقيدةٌ لكان الأسد إلههم، وعلى هذا كان القطيع سيقدم غزلاً من بين صفوفه عن طيب

خاطرٍ من أجل إشباع نهم الأسد، وهذا هو ما يحدث بالضبط بين البشر، فمن فكرة خوفهم الجماعى خرجت فكرة التضحية الدينية فهذا هو ما يوقف مسار وجوع السلطة الخطرة. وفي حالة الخوف تبغى الكتلة البقاء معاً، فهي لا تشعر في حالة الخطر الجاد بالحماية إلا في قرب أفرادها من بعضهم البعض. وهي بمثابة الكتلة، خاصةً، خلال توجهها للفرار. فأما الحيوان الذى يخرج عن القطيع، ويشق وجهته الخاصة، فيكون معرضاً للخطر أكثر من الحيوانات الأخرى. إلا أنه، وعلى نحوٍ خاصٍ تماماً، يشعر أكثر بالخطر لأنه وحيدٌ فيكون خوفه أعظم. فالتوجه الجماعى لفرار الحيوانات الجماعى يمكن أن يوصف بعقيدتها التى تُبقى عليها متماسكةً وتدفعها بقوةٍ إلى الأمام، فلا يصيبها الذعر ما لم تكن منعزلةً وما دام كل حيوان أدى الشئ نفسه بجوار رفيقه، أى أداء الحركة ذاتها، وهذا الفرار الجماعى يماثل ما نعرفه لدى البشر بالكتلة الراقصة، أو الكتلة الإيقاعية، وذلك من خلال الحركة المتوازية للسيقان والرقاب والرأس. فما إن يُضرب الحصار حول الحيوانات فإن الصورة تختلف فلا يعود التوجه الجماعى للفرار ممكناً، فيتبدل حينئذٍ الفرار الجماعى إلى حالة ذعرٍ، فكل حيوانٍ يحاول النجاة بنفسه، بينما يعيق كل منها الآخر في ذلك، ويضيق الخناق حوله. وفي المذبحة التى تبدأ حينئذٍ يصير كل حيوان عدواً للآخر لأن كل منها يقف عثرةً في طريق نجاة الآخر. لكن لنعد الآن إلى "الأمر" نفسه. فالأمر الصادر لفردٍ يكون مختلفاً عن الأمر الصادر إلى كثيرين. وقبل أن نفسر هذه العبارة فإننا نشير إلى حالتها الاستثنائية ذات الأهمية القصوى، فأمامنا تجمعٌ مفتعل لكثيرين في الجيش الذى يلغى الاختلاف النوعى "للأمر"، وهذا هو أساس تكوينه. "فالأمر" هنا لا يعنى إلا الشئ نفسه دائماً سواء كان موجهاً إلى فردٍ أو أكثر أو كثيرين. فالجيش لا يكون له وجودٌ إلا إذا كان للأمر القيمة نفسها. ويكون له سمة الدوام. وهو يصدر من أعلى ويظل منعزلاً بشدة. وعلى هذا النحو فلا يمكن للجيش أن يصير أبداً كتلةً. فالأمر ينتشر في الكتلة أفقياً بين أعضائها، وقد يستهدف في البداية فرداً ممن هم أعلى لكن لوجود آخرين متساوين بالقرب منه فإنه يبلغه في الحال إلى هؤلاء، وبدافع خوفه فإنه يقترب منهم وفي لمح البصر يكون أصاب الآخرين بالعدوى. ففى البداية يشرع البعض في الحركة ثم يزداد عددهم، ثم يكون الجميع. ومن خلال الانتشار الفورى للأمر نفسه يكونون قد صاروا كتلةً، حينئذٍ يفرون جميعاً معاً. ولما كان الأمر يتشظى في الحال فإنه لا يكون غصةً فلم يكن قد توافر وقت

لذلك على الإطلاق، ويتلشى ما تبقى منه على الفور. فالأمر الصادر إلى كتلة لا يترك في أثره أية غصة. فأما التهديد المفضى إلى الفرار الجماعى فإنه تحلل ثانيةً كذلك، فلم يعد هناك سوى حالة الأمر المنعزلة فقط هى التى تفضى إلى غصة الأمر. والتهديد التالى للأمر ضد الفرد لا يستطيع أن يتحلل كله، فمن قام دائماً بتنفيذ الأمر وحيداً فإنه يحتفظ فى داخله بمقاومة ذلك على هيئة غصة، أى بلورة صلبة للاستياء، وهو لا يستطيع الخلاص منه إلا إذا أصدر هو الأمر نفسه، وغصته ليست سوى الصورة المماثلة للأمر الذى تلقاه ولم يستطع إبلاغه على الفور. ففى هذه الصورة المماثلة فقط يمكنه التحرر منها. وهكذا يكون للأمر الصادر إلى كثيرين ماهية خاصة به تماماً، فهو يهدف إلى جعل الكثيرين كتلة، وما دام قد وفق فى ذلك فإنه لا يبعث على الخوف. والشعار الحاسم الذى يستخدمه خطيب ما ليفرض به على المجتمعين اتجاهاً ما، يؤدى نفس المهمة بالضبط، وهو ما يعتبره الكثيرون مثل "الأمر". وانطلاقاً من موقف الكتلة التى تريد أن تنشأ بسرعة وتريد أن تحفظ نفسها كوحدة يكون مثل هذا الشعور مفيداً ولا غنى عنه. أما بلاغة الخطيب فتكمن فى بلورته لكل ما يهدف إليه فى شعاراتٍ ليطلقها قويةً فهى التى تساعد فى نشأة الكتلة وبقائها. فالأمر الفوقى هو ما يصنع الكتلة ويبقيها حيةً. فإذا ما انتهى من ذلك فلا يكون هناك أهمية لما يطلبه منها بعد ذلك، فبوسع الخطيب أن يوجه السباب والتهديد إلى تجمعٍ من فرادى، لكنهم سوف يحبونه عندما ينجح من خلال ذلك فى تكوين كتلةٍ منهم.

توقع الأمر

لا يتفاعل جنديٌّ في الخدمة إلا بناءً على أمر. وقد يشعر في هذا أو ذاك لذةً ما. لكن لكونه جنديًّا فإنه ينصاع لذلك، فهو ليس بوسعه الاختيار بين سبيلين، وحتى لو حدث ذلك فلن يكون هو من يحسم أمر أي السبيلين. فحياته النشطة محاصرةً من كل جانبٍ فهو يفعل ما يفعله كل الجنود الآخرين معًا. وهو ينفذ ما صدر إليه من أوامر. أما غياب كل الأفعال الأخرى فيجعله متشوقًا إلى الأفعال التي يجب عليه تنفيذها. وخدمة الحراسة التي تقف مكانها بلا حراك طوال ساعاتٍ هي أفضل تعبيرٍ عن الحالة النفسية للجندي، فهو ممنوعٌ من مغادرة المكان ومن النوم وممنوعٌ من الحركة إلا إذا كانت بالضبط حركةً محددةً مقررَةً عليه. أما إنجازُه الشخصى فيتبدى في مقاومته لكل إغراءٍ بمغادرة موقعه مهما كانت الصورة التي تداعب خياله. إن سلبية الجندي، إن جاز لنا هذا الوصف، تكون بمثابة العمود الفقري له، فهو يكبت داخل نفسه في كل الأحوال المتسعة لنشاطٍ ما، مثل الرغبة والرغبة والقلق التي تمثل أساس حياة الإنسان. أما أفضل سبلٍ لمقاومتها فهي عدم اعترافه بها. أما أي فعل يقوم به فلا بد له من عقابٍ من خلال "الأمر". ولما كان يصعب على أي إنسان ألا يفعل أي شيء فإنه يتجمع داخله الكثير من التوقع لما يجوز له فعله، وتتراكم

رغبة الفعل وتنمو بلا حدود، لكن لا بد من أن يسبق الفعل "أمر"، لذا يتجه التوقع نحو هذا الأمر. فالجندى الجيد يكون دائماً في حالة "توقع أمرٍ واعية" وهو ما يزرع وينمو فيه بكل السبل، وهو ما يتجلى بوضوح في السلوك والصيغ العسكرية. أما اللحظة الحيوية في حياة الجندى فهي لحظة "وضع الانتباه" أمام قائده، ففي حالة بالغه من التوتر والتأهب للتقبل يقف هو أمامه هناك. وتعتبر الصيغة التي ينطق بها الأمر تعبيراً دقيقاً للغاية عما سيعقب ذلك. وتبدأ تربية الجندى بمنعه من أمورٍ أكثر مما تحظر على غيره من البشر، فهناك عقابٌ شديد على أقل التجاوزات، وأجواء "ليس مسموحاً" التي اعتادها الجميع منذ طفولتهم تتسع حدودها بالنسبة للجندى لتأخذ بعداً هائلاً، فتُشَيِّد حوله جدرانٌ فوق جدرانٍ أُعِدَّت من أجله، وهو يراها ترتفع أمام عينيه، وارتفاعها وقسوتها يواكبان وضوحها، والحديث يدور عنها دائماً، وبذا لا يسعه القول بعدم وجودها. فإذا ما تحرك شعر بها حوله دائماً. فالتكوين الجامد للجندى يماثل رد فعل جسده نحو صلابتها وبرودها، فيحصل على جسدٍ نمطي. إنه الأسير الذي تكيف مع جدرانه. إنه أسيرٌ ارتضى ذلك، وهو من يدافع عن نفسه بالقدر الذي شكلته به الجدران. وبينما لا يخطر ببال الأسرى الآخرين إلا فكرة تسلق الجدران أو اختراقها، يكون هو قد أقر بها كطبيعةٍ جديدة، كمحيطٍ طبيعي يتكيف معه ويتماهى معه. فالندى الحق هو من يتقبل القدر الكامل للمحظور، ومن خلال أداء ممارساتٍ ليوم كامل، ويوماً بعد يوم، يكون بإمكانه تجنب المحظورات. ومثل هذا الجندى يعتبر "الأمر" هو القيمة الأعلى. إنه مثل السقوط من قلعةٍ يكون المرء قد قبع داخلها لفترةٍ تجاوزت كل احتمال، فهو يصيب كالبرق الذي أطاح بأحدهم خارج جدران المحظور، أى مثل البرق الذي يقتل أحياناً. وفي إطار هذا المحظور المقفّر الذي يحاصره من كل جانبٍ يأتيه "الأمر" كخلاص، فتدب الحياة في الشخص النمطي، فيتحرك طبقاً للأمر. ومن خصائص تربية الجندى أن يتلقى أوامر مزدوجةً وحيداً أو مع آخرين. وقد عوده التدريب على حركاتٍ ينفذها مع الآخرين، وهى ما يؤديها الجميع بنفس الطريقة بالضبط. والأمر هنا يرتبط بنوعٍ من الدقة يتعلمها المرء من خلال المحاكاة مع الآخرين على نحو أفضل ممن تعلمها وحيداً. ومن خلال ذلك يصير المرء مثلهم، لتنشأ مساواةً يمكن أحياناً استخدامها في تحويل فرقة الجيش إلى كتلةٍ، إلا أن العادة جرت على أن يهدف المرء إلى النقيض، وهو أن يتساوى الجنود جميعاً من دون أن تصير منهم

كتلةً، فإذا ما صاروا معًا وحدةً فإنهم يتفاعلون معًا مع كل الأوامر الصادرة إليهم، على أن تظل الفرقة بينهم ممكنةً في استدعاء النداء: واحد، اثنان، ثلاثة.. ثلاثة من الجنود أو نصف عددهم كما يشاء القائد، وأداؤهم الجماعي للخطوة المعتادة يبدو ظاهريًا لأن انقسامهم إلى فصائل هو ما يسهل أداءها. ولا بد من أن يكون بوسع "الأمر" استهداف مثل ذاك العدد، أي واحدٍ، أو عشرين، أو الفرقة كافة، فلا يجوز أن ترتبط فعاليته بالعدد الموجه إليه. فهو يكون الأمر نفسه سواء استقبله فردٌ واحد أو الجميع. إن هذه الطبيعة الدائمة الثابتة للأمر على أكبر قدر من الأهمية، فهي تبعد الأمر عن كل مؤثرات الكتلة. فمن يكون عليه إصدار الأوامر بالجيش لا بد من أن يكون قادرًا على التحرر من كل كتلةٍ خارجه وداخله، فقد تعلم ذلك عندما تربي على انتظار الأمر.

تطلع حجيج عرفات للأمر

إن أهم لحظة في الحج إلى مكة والأكثر تألقاً هي لحظة "الوقوف" بين يدي الله على بعد عدة ساعاتٍ من مكة. إنه تجمعٌ هائل من الحجيج يصل أحياناً إلى 600.000 أو 700.000 نسمة يتكدسون في حوض وادٍ محاطٍ بمرتفعاتٍ مقفرة، ويتدافعون نحو جبل الرحمة بوسط الوادي ليقف واعظاً في أعلى المكان الذي وقف فيه النبي ليلقى موعظةً احتفائية، فيرد عليه الجميع: "لبيك اللهم لبيك! لبيك اللهم لبيك" ويظل هذا الهتاف يتكرر بلا انقطاع طوال اليوم كله ويتصاعد إلى حد الذهول. ثم في نوعٍ من الخوف الجماعي المفاجئ يفرون جميعاً (الإفاضة)⁽¹¹⁰⁾ مثل الممسوسين إلى المكان التالي (المزدلفة)، حيث يقضون الليل هناك. وفي اليوم التالي يواصلون السعى من المزدلفة إلى منى. والكل يسعى هنا وهناك فيصطدم البعض ويدوس البعض على البعض، وعادةً ما يكلف هذا السعى بعض الحجيج حياتهم. وفي منى يتم ذبح أعداد هائلة من الحيوانات لتقدم أضحية ليأكلها الناس معاً على الفور وقد أغرقت الدماء الأرض وانتشرت فيها أشلاء الحيوانات. إن الوقوف على عرفات هو اللحظة التي يحصل فيها انتظار الكتل المؤمنة للأمر إلى ذروة كثافتها. أما العبارة المكررة ألف مرة من هذه الكثافة: "لبيك اللهم لبيك، لبيك اللهم لبيك" فهي تعبر عن ذلك صراحةً.

إن الإسلام يعنى ببساطة التسليم لله، وهو حالة لا يفكر فيها الناس إلا في أوامر المولى ويستدعونها بكل قوة. وهناك تفسير لا مناص منه للخوف المفاجئ الذى يشرع في الحركة بناءً على إشارة تقود إلى فرار جماعى لا مثيل له، وهو الماهية القديمة للأمر، الذى هو أمرٌ بالفرار، "فروا"، لكن من دون أن يتسنى للمؤمنين معرفة سبب ذلك، فقدرة توقعهم ككتلة يدفع بأثر الأمر الإلهى إلى قمته حتى يرتد إلى الأصل لكل أمرٍ، أى أمر الفرار. فأمر الإله يؤدى بالبشر إلى الفرار، أما مواصلة هذا الفرار في اليوم التالى بعد قضاء الحجيج ليلتهم في المزدلفة فيبرهن على أن أثر الأمر لم يكن قد تلاشى بعد. إنه، طبقاً للمفهوم الإسلامى، أمر الله المباشر الذى يقضى على البشر بالموت، فيحاولون الإفلات من هذا الموت، فيقومون بنقله إلى الحيوانات التى تُذبح في "منى"، محطة النهاية لفرارهم، فهنا تموت الحيوانات بدلاً من البشر، إنه التفافٌ اعتدناه من أديان كثيرة وهو ما يذكرنا بأضحية إبراهيم. على هذا النحو يفلت البشر من حمام الدم الذى كان الإله نفسه هو الذى دبره لهم. وقد استسلموا هم لأمره إلى حد أنهم فروا منه، إلا أنهم لم يقصروا في تقديم الأضحية له، فقد أغرقت الأرض بدماء الحيوانات التى دُبِحَت ذبحاً جماعياً. وليس هناك شعيرة دينية أخرى تظهر الطبيعة الخاصة بالأمر على هذا النحو الإجبارى مثل الوقوف على عرفات، والفرار الجماعى الذى يليه، المعروف بالإفاضة.

إن الإسلام الذى ينطوى على الوعد الدينى في كثيرٍ من الأمر المباشر نفسه وانتظار الأمر، والأمر على إطلاقه يتمثل في الوقوف والإفاضة في أنقى صورته.

غصة الأمر والنظام

يُعتَبَر النظام هو أساس الجيش، لكنه نظامٌ ذو شقين، أحدهما معلنٌ والآخر خفى. فأما النظام المعلن فهو نظام الأمر. وقد أوضحنا كيف أن تضيق مصدر الأمر يؤدي إلى تكوين مخلوقٍ غريبٍ للغاية، بالأحرى قوام غمطي كمخلوق، أى قوام الجندي الذي يميزه أنه يعيش دائماً في حالة انتظار الأمر. وهذه الحالة تتبدى في المسلك والقوام. فالجندي الذي يخرج من هذه الحالة لا يكون في الخدمة ويرتدى زيه فقط ظاهرياً. ومفهوم الجندي معروفٌ للجميع فلا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً من ذلك. إلا أن هذا النظام الظاهر ليس كل شيء، فبجواره يوجد نظام لا يذكره ولا ينبغي أن يذكره على الإطلاق وهو نظام خفى. وهو ما قد يدركه فقط بعض الناس من النماذج الأكثر تبلداً إلا أنه يكون نشطاً بهيئته الخفية في أغلب الجنود خاصة جنود عصرنا هذا، إنه نظام الترقى. وقد يجد البعض هذا أمراً غريباً أن نطلق صفة الخفاء على شيء معروف عامة مثل الترقى. إلا أن الترقى هو التعبير الظاهر عن شيء أعمق يظل خفياً لا يفهمه إلا أقل القليل من الناس لأنه يقتصر على الموظفين، فالترقى هو التعبير عن الفعالية الخفية لغصة الأمر. ومن الواضح أن هذه الغصات لا بد من أن تتجمع في الجندي على نحو يكاد يكون غريباً. فكل ما يفعله (الجندي) يحدث بالأمر

وهو لا يفعل شيئاً آخر، ولا ينبغى عليه أن يفعل شيئاً آخر، وهذا هو بالضبط الذى يطلبه منه النظام العلنى، فردود فعله التلقائية يتم كبتها، وهو يظل يبتلع الأوامر مهما كانت مشاعره نحو ذلك فلا يجوز له أن يتعب منها أبداً. ومقابل كل أمر ينفذه -وهو ينفذها كلها- تبقى داخله غصات، وغوها داخله هى عملية تتصاعد بسرعة. فإذا أدى خدمته كجندى بسيط فى الدرجة الأدنى من النظام الهرمى العسكرى فإنه يكون قد حُرِم من أية فرصة للخلاص من غصاته، لأنه لا يكون بوسعه هو إصدار الأوامر. فهو لا يمكن له أبداً إلا أن يفعل ما يُطلب منه، فهو يطيع وتزداد طاعته تشدداً. أما تغيير هذا الوضع الذى ينطوى على شيء من القسر فلا يكون متاحاً إلا من خلال الترقى، فما إن تتم ترقيته حتى يصير من حقه هو نفسه إصدار الأوامر، وفيما يفعل هو ذلك يبدأ فى التخلص من جزء من غصاته ويكون وضعه قد تحول إلى النقيض، حتى وإن كان فى إطار ضيق للغاية فعليه أن يطلب أشياء كانت تطلب منه هو نفسه فيما سبق. إن نموذج هذه الحالة يظل كما هو ولم يتغير فقط إلا وضعه هو فى إطار هذه الحالة وتتبدى حينئذ غصاته فى صورة أوامر. فمن كان اعتاد فى الماضى أن يتلقى أوامر قائده المباشر يقوم هو الآن بإصدار هذه الأوامر. أما تخلصه من غصاته فلا يتم وفق هواه فذلك يوضع فى حالته المناسبة لذلك تماماً، أى إصداره للأوامر، فيظل كل وضع على ما هو عليه وتظل كل كلمة كما هى، فهناك من يقف أمامه فى الوضع نفسه الذى وقف فيه هو نفسه فيما سبق، وهناك من يسمع منه بالضبط العبارة نفسها بالنبرة نفسها المشحونة بالطاقة نفسها. وهوية هذا الموقف تنطوى على شيء عجيب، إنه كأن هذه الهوية قد اخترعت تلبية لاحتياجات غصات الأوامر الصادرة إليه، وما أصابه هو فى الماضى يصيب هو به آخرين، لكن بينما يكون قد بلغ هذا المدى بأن تصير غصات الأوامر الصادرة إليه القديمة كلاماً أو على نحو ما، يُطلب منه أن ينطق به فإنه يستمر هو فى تلقى الأوامر من أعلى فيصير الحدث الآن مزدوجاً: فبينما يتخلص هو من الغصات القديمة تتجمع فيه أخرى جديدة. ويصير تحمله لها حينئذ أفضل لحد ما عن ذى قبل، لأن عملية الترقى التى بدأت تمنح الغصات أجنحة لتصير أملاً فى الخلاص منها. فإذا ما لخصنا هذا الحدث فإنه يمكننا أن نقول بأن النظام العلنى للجيش يتجلى فى إصدار الأوامر الآنية، أما النظام الخفى فيتأسس على استهلاك غصات الأمر المخزونة.

الأمر. الخيل. السهم

إن ما يلفت الانتباه في تاريخ المغول هو هذه الصلة الصارمة بين الأمر والخيل والسهم، ففي هذا الارتباط يمكن معرفة السبب الأساسي لاتساع نفوذهم المفاجئ السريع. وتأمل هذه العلاقة أمرًا لا بد منه، وهو ما يمكن تناوله هنا بكلمات قليلة. وكما نعرف فإن الأمر يشق بيولوجيًا من "أمر الفرار". وقد كان الجواد مثل جميع الحيوانات ذات الحوافر الشبيهة به قد خضع لهذا الفرار طوال تاريخه. وقد نقول إن ذلك كله مادته الخاصة به. وقد عاش دائمًا ضمن قطيع وكانت هذه القطعان قد اعتادت على الفرار معًا وكان الأمر بذلك صادرًا إليها من حيواناتٍ مفترسة خطيرة تستهدف حياتها.

إن الهروب الجماعي هو واحدٌ من أكثر التجارب المعاشة، وقد صار سمةً طبيعية للخيل، وما إن يزول الخطر، أو يُظن ذلك، فإنها تعود مرةً أخرى إلى الحالة المطمئنة لحياة القطيع حيث يفعل كل حيوانٍ ما يهوى. أما الإنسان الذي سيطر على الحصان وروضه فإنه يكون وحده معه. ويكون قد تعلم سلسلة من الممارسات نستطيع فهمها على أنها أوامر. وهي تتكون في قسمها الأصغر من أصواتٍ وفي قسمها الأكبر من ضغطٍ محدد تمامًا، أو من حركات قيادة تبلغ الحصان إرادة الخيال. والحصان يفهم إشارات الخيال ويطيعها. والشعوب

المستخدمة للخيول تعتبر الجواد ضروريًا وقريبًا من صاحبه إلى حد نشوء علاقة شخصية للغاية بينهما، أى علاقة تبعية لصيقة لا مثيل لها. أما المسافة الفيزيائية القائمة عادةً بين مصدر الأمر ومتلقيه، القائمة أيضًا بين الكلب وصاحبه على سبيل المثال، فإنها غير متوافرة هنا. فهنا يكون جسد الخيال هو الذى يصدر تعليماته إلى جسد الحصان ليتضاءل مجال الأمر إلى أدنى حدوده. ويختفى البعد والغربة والعلاقة العابرة، التى هى من سمات شخصية "الأمر" الأصيلة، فالأمر هنا يكون قد تم ترويضه لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ علاقات المخلوقات، أى الحيوان الخادم الذى يحمل سيده فوق ظهره، الخادم المعرض للثقل الفيزيقي لسيدة مُلبّيًا أى إشارة ضغطٍ من جسده. فما هو تأثير هذه العلاقة بالجواد على تكوين أمر الخيال؟ ففى البداية ثبت هنا أن لدى الخيال إمكانية إبلاغ جواده بأوامر تلقاها هو عن رئيس له، فالهدف الذى حُدّد له لا يصل إليه إذا ركض هو نفسه نحوه، فيعطى جواده التعليمات بالوصول إليه. ولما كان ذلك يحدث فى الحال فإن الخيال لا يحتفظ بأية غصةٍ من هذا الأمر، فقد تحاشاه بإبلاغه إلى الجواد. أما جزء القيد الشخصى الناتج عن هذا الأمر فيكون قد تخلص منه قبل أن يشعر به بالفعل. فكما كان تنفيذه لمهمته أسرع، وكلما أسرع بامتطاء الجواد وأسرع بالركوض فإن الغصة التى يحتفظ بها تتضاءل. إن فن هؤلاء الخيالة، حالما يتخذون شخصيةً عسكرية، يتأسس على قدرتهم فى ترويض كتلة أكبر من متلقى الأوامر بأن يبلغوا مباشرةً إلى هذه الكتلة ما تلقوه هم من أعلى. وتتسم منظومة الجيش المغولى بالنظام الصارم على نحو خاص. أما الشعوب التى هاجموها واضطرت إلى الخضوع لهم، وكانت لديها الفرصة لمراقبتهم عن قرب، فقد رأت هذا النظام هو الأعجب والأكثر صرامةً من كل ما صادفوه على الإطلاق. وسواء كان هؤلاء قُرسًا أو عربًا أو صينيين أو روسًا أو مجريين أو رسل البابا من الرهبان الفرنسيّسكان، فإن هؤلاء جميعًا على حدّ سواء لم يستوعبوا وجود بشرٍ على هذا النحو من الطاعة اللازمة للمغول. وكان هذا النظام لا يمثل للمغول، أو التتر كما يدعون غالبًا، سوى عبءٍ طفيف لأن العبء الأكبر كان يقع على الخيل. وكان المغول يضعون أطفالاً فى عمر السنتين أو الثلاثة فوق ظهر الخيول ليدرّبوهم على ركوب الخيل. وقد ذكرنا أن الطفل فى أثناء تربيته المبكرة يكون مترعًا بغصات الأوامر، فالأمر الأكثر قربًا من الابن، ثم يأتى الأب على مسافة أبعد، بل وكل من كُلف بتربية الطفل، أو أى بالغٍ، أو من هو أكبر منه

سنّا في محيطه، لا يكفون عن إصدار الأوامر والتعليمات إلى الطفل، لتتجمع كل أنواع الغصات في الطفل منذ عمره المبكر، وهى تلك التى تصبح حدوده الضيقة الملزمة لحياته فيما بعد. ثم يكون عليه البحث عن مخلوقاتٍ أخرى ليتخلص من غصاته من خلالهم، فلا تكون حياته سوى مغامرةٍ وحيدة للخلاص منها وضرورة للقضاء عليها، وهو لا يدري سبب قيامه بهذا الفعل أو ذلك الفعل غير المبرر وسبب إقامته لهذه العلاقة أو تلك التى تبدو بلا معنى. أما الطفل المغولى أو المقاتل الذى يتعلم مبكرًا ركوب الخيل فيتمتع بحريةٍ من نوعٍ خاص للغاية مقارنةً بأطفال حضاراتٍ أخرى أكثر استقرارًا ورقياً. فما إن يتقن ركوب الخيل فإنه يمكنه نقل ما يؤمر به إليها جميعًا. ومبكرًا جدًا يتخلص هو من الغصات التى تلازم تربيته في معيارٍ ضئيل للغاية، فالحصان يفعل ما يريده الطفل على نحوٍ أسرع مما يلبي به أى إنسانٍ رغبة الطفل. وهو يعتاد هذه الطاعة فيعيش على نحوٍ أقل وطأةً، إلا أنه فيما بعد يتوقع الشيء نفسه من البشر الخاضعين له خضوعًا جسديًا على نحوٍ مطلق. وإضافة إلى هذه العلاقة المهمة لمضمون "أمر" الإنسان للجواد، يجيء السهم في المقام التالى من الأهمية بالنسبة للمغول، وهو يمثل النسخة المطابقة لأصل الأمر غير المروض، فالسهم "عدائى" وينبغى أن يقتل، وهو يخترق في استقامةٍ مسافةً بعيدة، ويكون على المرء تفاديه ومن يفشل في ذلك يظل السهم منغرّسًا داخل جسده، وهو يمكن انتزاعه لكن حتى لو لم ينكسر فإنه يخلف جرحًا (توجد بعض الروايات عن جروح السهم في التاريخ السرى للمغول). وعدد السهام التى يمكن إطلاقها لا حدود لها، فالسهم هو السلاح الرئيسى للمغول فهم يقتلون عن بعدٍ لكنهم يقتلون أيضًا وهم يتحركون، أى من فوق ظهور خيولهم. وقد لوحظ أن كل "أمر"، انطلاقًا من أصله البيولوجى، يقترن بهامية الحكم بالاعدام. فمن لا يهرب يُعاجل ومن يُعاجل يتم تمزيقه. وقد احتفظ السهم لدى المغول بشخصية الحكم بالإعدام في أوسع نطاقٍ، فهم يقتلون البشر مثلما يقتلون الحيوانات فالقتل هو طبيعتهم الثالثة كما كان ركوب الخيل طبيعتهم الثانية. ومذابحهم البشرية تتطابق تمامًا مع مطارداتهم للفريسة في أثناء الصيد، أى مذابح الحيوانات. فإذا لم يخوضوا حروبًا قاموا بالصيد، ومناوراتهم هى عملية الصيد. ولا بد من أنهم أصيبوا بدهشةٍ عظيمة في أثناء غزواتهم واسعة المدى عندما التقوا بالبوذيين والمسيحيين الذين ذكر لهم كهنتهم القيمة الخاصة لكل حياةٍ. وهكذا لم يكن هناك تناقضٌ أعظم

من ذلك على الإطلاق، فأرباب "الأمر المجرد"، الذين يجسدونه على نحو غريزي،
قد التقوا بأولئك ممن شاءوا إضعاف "الأمر المجرد" من خلال عقيدتهم أو
تحويره ليفقد سمته العدوانية القاتلة ويصبح "إنسانياً".

الإخصاء الديني طائفة الخصيان

يروى عن بعض العقائد الدينية، المُحْتَفَى بها بكثافةٍ، أنها تحض على الإخصاء. كما اشتهر بذلك كهنة الأم العظيمة "كيبله" في العصور القديمة. فقد كان هناك آلاف ممن أدى هوسهم بتكريم إلهتهم إلى إخصاء أنفسهم بأنفسهم. وكان هناك عشرة آلاف من البشر من هذا النوع يقومون على خدمتها في "كومانا" على ضفة "بونتو" حيث كان معبدها الشهير. ولم يكن الرجال فقط هم من كرسوا أنفسهم لها على هذا النحو، بل كانت هناك نساء شئن الإعراب عن تقديسها، فقممن بقطع أثدائهن لينضممن بعد ذلك إلى بلاط الإلهة. وقد استعرض "Lukian" في تقريره عن الإلهة السورية⁽¹¹¹⁾ كيف استبد الهوس بالمؤمنين في أثناء اجتماعهم ليقوم واحدٌ منهم، كان قد حل دوره، بإخصاء نفسه. إنها تضحية تقدم إلى الإلهة ليبرهن لها للأبد عن مدى شغفه بها وأنه لا يوجد حبٌ يعنى شيئاً في الحياة سوى حبها. ويروى نفس الحدث عن الفرقة (المذهبية) الروسية "الأسكوبز"⁽¹¹²⁾، أى الحمايم البيضاء، الذى أثار مؤسسها "سليفانوف" الانتباه الأعظم إبان عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية من خلال نجاحات عظاته. وبتأثيرٍ منه قام مئاتٌ وربما آلافٌ من الرجال بإخصاء أنفسهم، كما قامت نساء بدافع إيمانهن ببت

أثدائهن. ولا يكاد يقوم افتراضُ بوجود صلةٍ تاريخية بين الجماعتين العقائديتين، فقد نشأت الفرقة الأخيرة عن المسيحية الروسية ربما بعد 1500 عام من نهاية شطط كهنة "الفريجية" السورية، ويتميز هؤلاء الـ"إسكوبز" بالتركيز على عددٍ من الوعود والنواهي وكذلك على مجموعاتٍ صغيرة من الأتباع الذين يعرف بعضهم البعض على نحوٍ دقيق. أما تركيزهم الأعظم فانصب على نظامهم والإقرار بعبادة مسيحهم الواحد الحى بينهم، وهم لا يكادون يخشون الفرقة من خلال الكتب والقراءة، فهم لا يهتمون إلا بمواضع قليلة للغاية في الإنجيل، والحياة بينهم مكثفةٌ للغاية وتتكفل التعاويذ المقدسة بحمايتها تمامًا. فهناك دورٌ غير مألوفٍ وحاسم يلعبه "السِر" بالنسبة لهم. أما حياتهم العبادية فتدور أساسًا بالليل الذى يعزلهم ويستترهم عن العالم الخارجى. ومركز حياتهم الذى يتحتم عليهم الاحتفاظ به سرًا هو تحديدًا الإخصاء الذى يسمونه الـ"تبييض"، فعليهم أن يصيروا من خلال العملية الخاصة أطهارًا وبيضًا، فيصيرون ملائكةً، وهم يعيشون الآن بالفعل فى السماء. والتكريم المبالغ فيه الذى يظهره بعضهم لبعض وانحناءاتهم وصلاتهم ووعودهم ومدائحهم تكون مماثلةً لما يؤديه الملائكة نحو بعضهم البعض. أما التشويه الذى يتحتم عليهم إجراؤه فيتخذ ماهية "الأمر" الحادة. إنه أمرٌ من أعلى، وهم ينقلون ذلك عن كلام المسيح بالإنجيل، ومن كلمة الله إلى يسوع. وهم يتلقون هذا الأمر بقوة هائلة، وبالقوة نفسها عليهم إبلاغه، وعلم الغصة ينطبق عليهم بالفعل، فالأمر يتم تنفيذه هنا على المتلقى نفسه، ومهما أتى المرء من أفعالٍ فإن العمل الحقيقى الذى ينبغى عليه إنجازهُ هو أن يقوم بإخصاء نفسه. ولتوضيح ذلك فلا بد من فحص سلسلة من الأوامر ذات النوع الخاص. فلما كانت هذه الحال تدور حول الأوامر الصادرة فى نطاق نظام صارم فإنها تُقَارَن بالأوامر العسكرية. فالجندى كذلك تتم تنشئته على التعرض للمخاطر، وكل تدريبٍ يهدف إلى أن يقف الجندى فى النهاية أمام العدو بناءً على الأمر رغم أن هذا يعرضه للموت. أما أنه يحاول هو نفسه قتل العدو فليس أهم من أنه يقف فى "الوضع انتباه" فمن دون ذلك لن يكون قادرًا مواجهة العدو. فالجندى مثل الـ"إسكوبز" يقدمان نفسيهما كأضحية، ويأمل كلاهما البقاء على قيد الحياة لكنهما يتوقعان الإصابة بجروح وآلام ودماء وتشويه. ومن خلال المعركة يأمل الجندى فى الفوز بالنصر ومن خلال الإخصاء يصير الـ"إسكوبز" ملاكًا وله حق فى السماء التى سوف يحيا فيها بالفعل. والمسألة تدور - داخل هذا

النظام- حول أمرٍ سرى، وعلى هذا النحو فقط تكون مقارنة الحالة التى يوجد فيها هذا الواقع تحت إجبار عسكري والمنوط به وحده تنفيذ أمرٍ سرى، من دون أن يعرف من حوله ذلك. وفي سبيل هذا الغرض فيضطر إلى التنكر حتى يتعرف عليه من خلال زيه. أما زى الـ"إسكوبز" الذى يساوى بينه وبين الآخرين، الذى ينتمى هو إليهم، فهو إخصاؤه. وهذا يبقى طبقاً لطبائع الأمور مخفياً دائماً فلا يجوز له البوح به أبداً. إذن فإنه يمكننا القول بأن الـ"إسكوبز" يتساوى مع عضو تلك الفرقة الرهيبة للحشاشين الذى يكلفه قائده مهمة قتل لا ينبغى أن يعرفها أى إنسان⁽¹¹³⁾. فإذا نجح فى تنفيذها فلا يجوز لأى إنسان معرفة كيف حدث ذلك، فإذا ما سقطت الضحية وتم اعتقال القاتل بعد فعلته فلا يكون على علمٍ بمسار الحدث الحقيقى. إن "الأمر" هنا هو حكمٌ بالإعدام ويكون قريباً للغاية من أصله البيولوجى، فالمرسل يكون قد بُعِثَ إلى موته الأكيد. إلا أن ذلك لا يُذكر على الإطلاق، لأن موته الذى أقدم عليه طواعيةً يُستَغَلَّ لاستهداف شخص آخر يُطلق عليه "ضحية". ويتسع "الأمر" ليصير حكماً بالإعدام مزدوجاً، يظل أولهما فى طى الكتمان رغم توقع المرء له، بينما يتم استهداف الآخر بوعي كامل وعلى نحوٍ هو الأكثر وضوحاً. أما الغصة التى سوف تنتهى بنهاية صاحبها فإنه يتم استغلالها قبل انتهائها. ولدى المغول تعبيرٌ واضح للغاية عن هذا القتل العاجل لشخصٍ آخر قبل أن يُقتل الفاعل نفسه. فالأبطال فى "تاريخهم السرى" يقولون عن العدو الذى ييغون قتله فى آخر لحظات حياتهم: "آخذه معى وسادةً لرأسى". لكننا عندما نقرب من حالة الـ"إسكوبز" مقارنةً بالحشاشين لا نكون قد توقعنا أنها على هذا النحو من الدقة، لأن فرد الـ"إسكوبز" كان عليه إصابة نفسه أو تشويه نفسه، فالأمر الذى كان قد قبله لا يستطيع إنفاذه إلا فى نفسه، فلا يكون عضواً حقيقياً فى جيشه السرى إلا بعد أن يكون قد نفذ، ولا ينبغى أن نُخدع بمعرفة أن عملية الإخصاء يقوم بها آخرون فى الغالب، لأن معناها أن الشخص نفسه هو الذى تقدم لذلك، فما أن يعلن استعدادده لذلك فلا يهم كيف تُجرى العملية حقاً، وتبقى غصته هنا فى إطارها النمطى، لأنه تلقى الأمر من الخارج وهو ما سوف ينقله إلى غيره فيما بعد على أية حال. وحتى إن كان ذلك كما يبدو، أنه كان هناك أول من أجرى ذلك على نفسه، فإنه يكون قد فعل ذلك بناءً على أمرٍ وهمى من السماء، وكان مؤمناً بذلك على وجه اليقين. فأيات الإنجيل التى دعا بها الآخرين للإيمان هى نفسها التى جعلته

يؤمن، فالذى تلقاه هو يقوم بإبلاغه للآخرين. وتتخذ الغصة هنا شكلاً واضحاً
لندبةٍ بالجسد، وهى أقل سريةً من غصة الأمر عادةً لكنها تظل سريةً لكل غير
المنتسبين للفرقة.

السلبية وانقسام الشخصية (الشيزوفرينيا)

يستطيع إنسانٌ ما التغاضى عن الأوامر بألا يسمعها، كما يستطيع إغفالها إذا لم ينفذها. أما الغصة - التى لا يمكننا التأكيد على معناها بما فيه الكفاية، فهى لا تنشأ إلا من خلال تنفيذ الأوامر. فالفعل نفسه الناتج عن ضغطٍ غريب خارجى هو الذى يفضى إلى تكوين الغصة. فالأمر الذى يتم دفعه حتى يصير حدثًا، يرسخ بشكله الدقيق فى ذاكرة المنفذ، وتحدد القوة التى دفعته وهيئته المختلفة وسيطرته وفحواه مدى العمق والصلابة التى رسخ بها فيظل دائمًا كشيءٍ منعزل. وعلى ذلك فإنه لا يمكن لأى إنسانٍ فى نهاية الأمر تفادى أن يتراكم داخله الغصات التى تكون أيضًا منعزلة مثلما كانت الأوامر. أما قدرتها على ملازمة الإنسان فهى مدهشة، فلا شيء آخر يمكن أن ينفذ فى داخله إلى هذا العمق ولا شيء لا يمكن إدراكه على مثل هذا النحو. وقد تأتى لحظةٌ يكون فيها واحدة من الغصات قد تحققت إلى حد أنه لا يكون هناك معنى لأى شيء آخر ولا يشعر بشيء غيره، أما رفضه لأوامر جديدة فيصير قضية حياته فيحاول عدم سماعها حتى لا يضطر لقبولها. فإن اضطر إلى سماعها لم يفهمها. وإن اضطر لفهمها فإنه يتهرب منها على نحوٍ عجيب، بأن يأتى بنقيض ما يُطلب منه، فإن قيل له تقدم فإنه يتأخر

وإذا قيل له تأخر فإنه يتقدم، وهو رد فعل غير مناسب بل هو بالأحرى رد فعل قوى لأنه هو الذى يحدد فحوى الأمر بطريقته، وهذا هو ما يسميه علم النفس بالسلبية التى تلعب دوراً هاماً للغاية لدى المصابين بانفصام الشخصية. أما ما يلفت الانتباه فى المصابين بانفصام الشخصية على الأغلب فهو الافتقار إلى التواصل، فهؤلاء هم الأكثر انعزالاً بين البشر الآخرين. وهم يبدون غالباً أنهم تجمدوا داخل أنفسهم كأنه لا توجد صلة بينهم وبين الناس الآخرين، كأنهم لا يفهمون شيئاً، كأنهم لا يريدون فهم أى شىء. أما عنادهم فيكون قاسياً كأنه قُذ من حجر. وليس هناك أى موقف لا يستطيعون اصطناع الجمود حياله. لكن هؤلاء الناس أنفسهم يسلكون فى فترة مرضهم فجأةً مسلماً على النقيض من ذلك تماماً، فهم يظهرون استعداداً للتأثر يتخذ بعداً خيالياً، فهم يقلدون ما يمثله البعض أمامهم أو ما يطالبهم به شخص آخر على نحوٍ من السرعة والكمال، كأن هذا الآخر قد تلبسهم، ويفعل ذلك لهم. إنها نوبات من المهانة التى تسيطر عليهم فجأةً، وهو ما أطلق عليه واحدٌ منهم: عبودية وهمية⁽¹¹⁴⁾. فهؤلاء يتحولون من تماثيل إلى عبيد مطيعين وهم يؤدون كل ما يطلب منهم على خير وجه، وعلى نحوٍ يبدو فى الغالب مثيراً للسخرية. إن التناقض بين هاتين الحالتين كبيرٌ إلى حدٍ يصعب فهمه. فإذا غضضنا الطرف مؤقتاً عما ترسمه هاتان الحالتان داخلهم وتأملنا ذلك على نحوٍ ما من الخارج فقط، فإنه لا يمكن إنكار أن كلتا الحالتين معروفتان جيداً فى حياة الناس العادية، إلا أنهما هنا تخدمان غرضاً محدداً، ويبدو أثرهما غير مبالغ فيه. فالجندى الذى لا يستجيب لأية إثارة خارجية، والذى يقف جامداً حيث أمر بالوقوف، والذى لا يغادر موقعه، والذى لا يستطيع شىء ما إغراءه بإتيان شىء كان عادةً سيسعد بفعله وغالباً ما فعله، فالجندى المدرب جيداً يكون وجوده وجوداً اصطناعياً فى حالة السلبية. والحق أنه يستطيع التفاعل أحياناً، تحديداً بناءً على أوامره قائده وليس فيما عدا ذلك أبداً، وحتى يكون قادراً على التفاعل بناءً على أوامره محددة فقط فإنه يتم تدريبه على حالة السلبية. إنها السلبية التى يمكن استغلالها، لأن السلطة والأمر يكونان بيد قائده الذى يستطيع وضعه فى حالة مناقضة تماماً. فما إن يتلقى الجندى أمراً من الجهة الصحيحة فإنه يسلك مسلماً متذللاً وحماسياً للخدمة مثل المصاب بالانفصام فى حالته المناقضة. ولا بد من أن نضيف أن الجندى يعلم سبب تفاعله بطريقته، فهو يطيع لأنه وُضع تحت تهديد بالقتل. وقد تناولنا فى

فصل سابق سر اعتياده هو تدريجيًا على هذه الحالة واتساقه معها من داخله في نهاية المطاف. إلا أن هناك شيئًا لا بد من إثباته وهو التشابه الخارجى، الذى لا يمكن إنكاره، أى التشابه القائم بين الجندي في الخدمة وبين المصاب بالفصام. لكن هناك فكرة أخرى ملحة تبدو على نفس القدر من الأهمية، فالمصاب بالفصام في حالة الإيهام الحادة يسلك سلوك العضو في الكتلة، فهو مثيرٌ للدهشة بنفس القدر وهو يستجيب بنفس القدر لكل إثارة خارجية. ولكن المرء لا يتبين أنه قد يكون في هذه الحالة، لأنه وحيد. فإذا لم ير المرء حوله كتلةً فإنه لا ينتبه بسهولة إلى افتراض أنه موجود في إحداها، أى أنه قطعة مجتزئة من الكتلة، وهذا الزعم لا يمكن إثباته إلا إذا ما سبرنا أغوار التصورات الداخلية للمرض. وهناك أمثلةٌ بلا حصر على ذلك، فقد قالت سيدةٌ إنها "تحمل كل البشر داخلها" وأخرى سمعت "البعوض يتكلم" ⁽¹¹⁵⁾ واستمع رجلٌ إلى 729.000 فتاةٍ وآخر سمع "أصوات هامسةً للبشرية كافة"، ففى ضوء تصورات المصابين بالفصام، في إطار العديد من صور التنكر، فإنه تظهر كل أنواع الكتل الموجودة، حتى إنه يمكن أن نبدأ من هناك دراسةً عن الكتل. وقد يُطرح تساؤلٌ عن سر ضرورة الحالتين -المذكورتين هنا- المتناقضتين بالنسبة لمصاب بالفصام، فمن أجل فهمهما علينا تذكر هذا الذى يحدث للفرد بمجرد انضمامه إلى الكتلة. وكنا قد تناولنا مسألة التحرر من أعباء المسافات الفاصلة واعتبارها فرزًا، وإتمام ذلك فلا بد من أن نضيف أن غصة الأمر تنتمى إلى المسافات الفاصلة التى تراكمت في كل فرد. ففى الكتلة يكون كل الأفراد متساويين، فليس لأحدهم الحق في إصدار أوامر للآخر. وقد نقول أيضًا إن الكل يأمر الكل فلا تنشأ غصاتٌ جديدة فحسب بل إن المرء يكون قد تخلص من كل القديمة مؤقتًا. فالمرء - على نحو ما - يكون قد فر من داره وترك الغصات قابعةً متراكمة هناك، في قبو الدار. إن خلاص المرء من كل قيوده وحدوده وأعبائه لهو السبب الحقيقى لهذا الشعور العالى الذى يحس به الإنسان في الكتلة، فهو لا يشعر في أى مكانٍ بحريةٍ أعظم حتى لو كان يائسًا للغاية، فإنه يجب أن يبقى في الكتلة لأنه يعرف ما ينتظره، فإذا ما رجع إلى نفسه، إلى "داره"، فإنه سيجد كل شيء هناك مرةً أخرى، حدودًا وأعباءً وغصات. إن المصاب بالفصام والمثقل بالغصات إلى حد أنه كان يتمسك بها أحيانًا أى يثابر على احتمال عذابه وعجزه هذا، فإنه يسقط في وهم الحال النقيضة، أى حالة الكتلة. وما دام موجودا في هذه الحال فإنه لا يشعر بالغصات، فهو يرى أنه خرج من

ذاته حتى لو حدث ذلك على نحوٍ غير حقيقى، ل يبدو أنه ينعم بارتياحٍ مؤقت على الأقل من عذاب الغصات، فبدا له أن يتعلق بغصات أخرى. فقد كانت قيمة هذا الخلاص فى الحقيقة وهماً، وتحديدًا هناك حيث يبدأ تحرره يكون بانتظاره قوى قهر أخرى جديدة وأكثر حدة. إن الجوهر الكامل للفصام ليس ما يشغلنا هنا فقد يكفى إثبات أنه ليس هناك من يحتاج الكتلة أكثر من المصاب بالفصام، المترع بغصات الأمر، المختنق بها. إنه من لا يستطيع العثور على كتلةٍ بالخارج فيدعها تنفذ إلى داخله.

الارتداد

"إن الطعام الذى يأكله الإنسان فى هذه الدنيا هو الذى سيأكل الإنسان فى العالم الآخر"، وردت هذه العبارة فى "شاتابا - براهمنا"، وهو كتاب "موجز الضحية" الهندى. وقد تفوق على هذه العبارة فى الغرابة قصة من الموجز نفسه، وهى قصة رحلة الرأى "بريغو" فى العالم الآخر⁽¹¹⁶⁾. أما بريغو المقدس فكان ابنًا للإله "فارونا" وكان اكتسب معرفة البراهمنا معرفة واسعة، ما أصابه بالغرور حتى إنه ترفع على أبيه الإله نفسه. فشاء هذا أن يريه ضحالة ما يعرفه فنصحته بالارتحال بين جهات السماء الأربع شرقًا وجنوبًا وغربًا وشمالًا، وكان عليه أن يراعى كل ما يمكن هناك ليرى له ما رآه بعد عودته. فى البدء، تحديدًا فى الشرق، رأى بريغو أناسًا يقومون بقطع أعضاء أناس آخرين، العضو تلو الآخر، ثم يوزعون أجزاءها على بعضهم البعض، وهم يقولون فى أثناء ذلك "هذا من نصيبك، هذا نصيبى". فلما رأى بريغو ذلك أصابه الذهول التام، فكان أن فسر له هؤلاء الذين يقومون بقطع أعضاء الآخرين هذا الأمر بأن هؤلاء قد فعلوا معهم ذلك فى العالم الآخر على نفس النحو وهم لا يفعلون الآن شيئًا آخر غير ما فعله هؤلاء بهم. بعد ذلك انتقل بريغو برحلته إلى الجنوب فرأى هناك أناسًا يقومون باجتزاء أعضاء أناس آخرين عضوًا تلو الآخر ثم يوزعونها بعضهم البعض قائلين: "هذا نصيبك،

هذا نصيبى" وقد تلقى بريغو على سؤاله الإجابة نفسها: "إن هؤلاء الذين تُقَطَّع أعضاؤهم الآن قد فعلوا الشيء نفسه بهؤلاء الذين يقطعون أعضاءهم الآن بالعالم الآخر". بعد ذلك رأى بريغو في الغرب أناساً يلتهمون آخريين وهم صامتون بينما يلوذ بالصمت هؤلاء الذين يتم التهامهم كذلك وهو بالتحديد الذى فعله هؤلاء بهؤلاء في العالم الآخر. إلا أنه رأى في الشمال أناساً يصرخون عاليًا وهم يلتهمون أناساً آخريين بينما يصرخ هؤلاء كذلك عاليًا وهو ما فعله هؤلاء بهؤلاء في العالم الآخر. وبعد عودته طالب الأب فارونا الابن بأن يلقى عليه درسه مثل التلميذ، إلا أن بريغو قال: "ماذا ينبغى عليه إعادة روايته فليس لدى شيء". فلما كان قد رأى بشاعة مفردة بدا له ذلك كالعدم، وهنا أدرك فارونا أن بريغو قد رأى هذه الأحوال فقال: "إن أناس الشرق الذين قاموا بقع أعضاء الآخرين كانوا هم الأشجار، أما أناس الجنوب الذين قطعوا أعضاء الآخرين فقد كانت هى الأبقار. وأما أناس الغرب الذين التهموا صامتين أناساً آخريين فقد كانت هى الأعشاب. وأما أناس الشمال الذين صرخوا عاليًا وهم يلتهمون أناساً آخريين يصرخون عاليًا فقد كانت هى المياه، وقد عرف لكل هذه الأحوال ما يقابلها. ومن خلال ضحايا بعينهم ذكرها لابنه استطاع معرفة تبعات أفعال المرء في العالم الآخر. وفي "موجز ضحايا" آخر خاص بالـ "جايمنيا - براهمنا" رويت قصة بريغو على نحو آخر فهو لم ينتقل بين جهات السماء المختلفة وإنما انتقل من عالم لآخر، وبدلاً من الصور الأربع التى عرفها صارت هذه الآن ثلاثاً فقط. فى البداية رأى بريغو هؤلاء الذين اتخذوا فى العالم الآخر هيئة البشر وصاروا يقطعون الآن أناساً إرباً ويلتهمونهم. وكانت الصورة الثانية مما رآه بريغو إنساناً يلتهم إنساناً يصرخ وقد علم أن ذلك هو ماشية تم ذبحها فى الدنيا والتهامها وقد اتخذت هيئة إنسانية وتفعل الآن بالإنسان ما فعله هو بها. وكان ثالث ما رآه رجلاً يأكل آخر لا يقول شيئاً كان ذلك أُرْزاً وشعيراً اتخذاً هيئة بشرية لينتقما لما عانيا منه. وهنا كذلك تم ذكر ضحايا بعينها، فمن يسلك السلوك القويم فإنه يأمن فى العالم الآخر مصير من يتم التهامهم من خلال الأشجار والماشية أو الأرز أو الشعير، إلا أن ما يهمننا هنا فليس وسيلة تلافى هذا المصير، وإنما الأمر الأكثر أهمية هو التصور الشعبى الذى يكمن تحت ملابس الكهنة التنكزية فمن فعل هنا شيئاً سوف يُفَعَّل به الأمر نفسه هناك، فإنه لن يتم تعيينهم خداماً للعدالة لينفذوا هذه العقوبة إنما يقوم كل بمعاذرة عدوه. والأمر لا يتعلق بسلوك ما وإنما يتعلق بما

التهمة المرء نفسه. وهو يحدث على نفس النهج، فكما التهم الناس الحيوانات في هذه الدنيا وأكلوها، فإنه على نفس النحو تلتهم الحيوانات البشر وتأكلمهم في العالم الآخر. إن هذه العبارة من (كتاب) براهمن آخر والتي تشبه تلك العبارة التي وضعناها نصب أعيننا في البداية تتفق مع شهادة غريبة في كتاب قانون "مانو" حيث يقرر أن أكل اللحم ليس ذنباً لأن ذلك هو طبيعة المخلوق. لكن من يمتنع عن اللحم فإنه يُوعَد بمكافأة خاصة. وكلمة اللحم في اللغة السنسكريتية هي "مامسا" تفسر من خلال فصل مقاطعها بـ "ماما" وتعني "أنا" ¹ و "سا" ² وتعني "هو" وتبعاً لذلك تكون "مامسا": "أنا هو" أي أن ما سياًكلني في العالم الآخر "هو" الذي أكلت لحمه هنا. وهنا تنشأ الطبيعة "للحمية" للحم وهو المعنى الحقيقي لكلمة "لحم"، وهنا يكون الارتداد قد وُضِعَ في أقصر الصيغ إيجازاً وفهماً في صورة اللحم. أنا آكله: هو أنا، فالمقطع الثاني هو تبعة ما أنا فعلته، وهو قريبٌ من معنى الكلمة التي تعني اللحم. فالحيوان الذي تم التهامه يلاحظ من فعل به ذلك. لكن الأمر لم ينته بموت هذا الحيوان فروحه تواصل الحياة وسوف يتحول إلى إنسانٍ في العالم الآخر. وهو ينتظر صابراً موت من أكله، فحالما يموت ويصل إلى العالم الآخر تتحول الحال الأولى إلى نقيضها. فالضحية تلقى آكلها، فتقبض عليه، فتقطع أوصاله وتأكله. إن الصلة بمفهومنا عن "الأمر" والغصة التي يتركها خلفه يمكن لمسها هنا بأيدينا، إلا أن كل شيء هنا تم المغالاة فيه حتى حده الأقصى، فصار واضحاً على نحوٍ يصيبنا بالفرع. فالارتداد يحدث في العالم الآخر بدلاً من حدوثه في حياتنا هذه. فبدلاً من الأمر الذي يهدد بمجرد الموت، فينتزع بذلك كل الإنجازات، فإن المسألة تدور بالفعل حول الموت في شكله الأقصى تطرفاً، وهو أن يتم التهام الميت المقتول. فحسب رؤيتنا التي لا تستطيع إدراك الوجود الأخرى تظل الغصة الناتجة عن التهديد بالموت موجودةً ما بقيت الضحية على قيد الحياة، أما نجاحها في الارتداد فهو أمرٌ مشكوكٌ فيه، لكن الأمل في ذلك يظل قائماً دائماً على كل حال. ففي نهاية الأمر تكون الغصات هي المتحكمة فيه تماماً محددةً لملامحه الداخلية. وتظل هي مصيره سواء نتج عن ذلك خلاصٌ أم لا. وطبقاً للمفهوم الهندي الموقن بحقيقة العالم الآخر فإن الغصة تبقى قائمةً كبذرةٍ للروح صلبةً كذلك بعد الموت، ليلى ذلك ارتدادٌ على

1 في حال المفعول به

2 في حالة الفاعل (المترجم)

كل حال، وتصير المسألة هي الفعل الحقيقي للوجود الأخرى ليفعل كل ما فعل به، ويقوم بأداء ذلك بنفسه. وفيما إذا كان تغير هيئة الارتداد لا يمكن إعاقته فإن ذلك يبدو هنا ذا دلالة خاصة، فلم تعد الأبقار التي أُلْهِمَتْ هي تلك التي أُمْسِكَ بها وقُطِّعَتْ في العالم الآخر، إنه الإنسان بروح تلك الأبقار، فقد غير المخلوق هيئته تمامًا وظلت الغصة هي نفسها من دون تغيير. وفي الصورة المروعة التي رآها بريغو في أثناء رحلته تبدو الغصة كهدف رئيس للروح، وقد نقول إنها نشأت منه هو فقط. إن الجوهر الحقيقي للغصة - التي تحدثنا عنها كثيرًا في إطار دراسة "الأمر" - وعدم تغيرها ودقة ارتدادها، يتبدى في اكتساب الغصة لطبيعة التصور الهندي عن المأكول الذي لا بد من أن يعود ليأكل.

تفكك الغصة

تنشأ الغصة في أثناء تنفيذ الأمر. وهى تنفك منه لتترسخ في المنفذ متخذةً الهيئة الدقيقة للأمر. والغصة صغيرةٌ وخفية ومجهولة. وسمتها الجوهريّة، التى تحدثنا عنها الآن، تكون غالبًا هى عدم تغييرها المطلق. وهى تبقى منعزلةً عن بقية الإنسان، جسدًا غريبًا في لحمه. وبقدر نفاذها إلى عمق الإنسان يكون قدر اختزال كيائها الذى يقودها بعد ذلك، وتظل دائمًا مزعجةً لصاحبها وتعلق داخله على نحوٍ غامض كأنها أسيرٌ لغريب. فهى نفسها تريد الفكك إلا أنها تتحرر بصعوبة. فالقوة التى تحرر نفسها من خلالها لا بد من أن تكون مساوية لتلك التى استقبلت بها عند دخولها، ومن "أمر" مختزل يصير عليها أن تتحول إلى أمرٍ كامل مرةً أخرى. وللوصول إلى هذه القوة فإنها تحتاج إلى ارتداد الحالة مثلما كانت في البداية. فلا مناص من إعادة إنتاجها بدقة وهو ما يبدو كأن الغصة تحمل ذاكرتها الشخصية داخلها، وكأن ذاكرتها تتكون من حدثٍ واحد وحيد، وكأن الغصة تربصت شهورًا، سنواتٍ، عشرات السنين حتى توجد الحالة القديمة وحتى يستطيع التعرف عليها، وفجأةً يكون كل شيء كما كان آنذاك على نحوٍ دقيق. إلا أن الأدوار تكون قد تبدلت تمامًا. وفي هذه اللحظة تنتهز الغصة الفرصة وتسرع بالهجوم على ضحيتها، لتحدث حالات الارتداد أخيرًا. إن هذه الحالة، التى

قد نعتبرها حالةً خاصة، ليست هى الوحيدة الممكنة، فالأمر يمكن تكراره كثيراً صادرًا عن صاحبه نفسه إلى الضحية نفسها على نحو يسمح بتكوين غصات من النوع نفسه من جديد. وهذه الغصات واضحة المعالم لا تبقى منعزلة، فعليها أن ترتبط ببعضها البعض. وهذا المكون الجديد ينمو بوضوح ولا يمكن أن ينساه صاحبه أبدًا. وهو لافِت للانتباه دائماً، شاقاً دائماً، ويطفو على نحوٍ ما فوق السطح. وقد يصدر الأمر نفسه ويتكرر عن مصادر مختلفة. فإذا ما حدث ذلك غالباً فيتابع ملحّ فإن الغصة تفقد هيئتها الخالصة وتتطور إلى مسخٍ خطيرٍ على الحياة. وهو يتخذ نسباً هائلة ويصير مكوناً أساسياً لصاحبه، يحمله معه أينما كان، محاولاً الخلاص منه في أية فرصة. ثم تتبدى له حالات بلا عددٍ كتلك الحالات الأصلية، وتبدو له متوحدةً مع الارتداد، إلا أنها لا تكون هى نفسها لأنه من خلال التكرار والتقاطع يفقد كل شيء الدقة، فهو قد فقد مفتاح الحال الأصلية بعد أن تراكمت ذاكرةً فوق الأخرى وكذلك غصةً فوق الأخرى. ولا يمكن تفكيك عبئه إلى أجزاء. ومهما حاول فإن كل شيء يبقى على حاله السابقة، فهو لا يستطيع وحده التحرر من عبئه. والتشديد هنا واقع على "وحده". فهناك فرصة التحرر من كل الغصات، حتى أشكالها الأكثر تشوهاً، وهذا التحرر لا يحدث إلا في إطار الكتلة. ليتكرر الحديث عن ارتداد الكتلة التى لم يكن توضيح جوهرها الخاص ممكناً قبل توضيح نوع أثر الأمر. فكتلة الارتداد تتكون من كثيرين سعوا لتحرر مشترك من غصات الأمر وهم من كانوا فريسة لليأس فرادى، فعددٌ كبير من الناس يتكتلون لمواجهة مجموعة من أناس آخرين يرون فيهم صناع الأوامر التى كان على أولئك تنفيذها لزمناً طويلاً. فإن كان أولئك - مثلاً - جنوداً فإنهم يواجهون كل الضباط الذين خضعوا بالفعل لأوامرهم، وإن كانوا عمالاً فإنهم يواجهون أرباب العمل الذين عملوا لديهم بالفعل. وتكون الطبقات والفئات فى هذه اللحظات حقيقة، وهى تسلك المسلك التى تظهر به كأنها متساوية. فالطبقة الأدنى التى ارتقت بنفسها تتشكل فى كل مكان كتلةً متضافرة، أما الطبقة الأعلى المهتدة والمحاصرة بعددٍ أكبر فتشكل جماعةً من حزمٍ خائفة تسعى للفرار. وكل غصة على حدة تجد فى من انضموا للكتلة كجماعةٍ اتفقت على أهدافٍ كثيرة مختلفة وكمجموعة من أصول مختلفة فى آن واحد. ويقف المهاجمون أمامهم فرادى أو متلاحمين، ويبدو أنهم يعرفون جيداً سبب إحساسهم بهذه الرهبة، وليس بالضرورة أن يكون هؤلاء صانعى هذه الغصة أو تلك، لكن إذا كانوا

هم كذلك أم لا، فإنهم مسئولون عن ذلك ويُعاملون صراحةً على أنهم هؤلاء. إن الارتداد الذى يتوجه ضد كثيرين فى آنٍ واحد يفكك أكثر الغصات صلابَةً. أما أكثر تلك الحالات تركيزاً فهي تلك التى تتجه ضد رئيسٍ وحيد - ملك مثلاً - فيكون ما أدركته الكتلة واضحاً للغاية. فالمصدر الأخير لكل الأوامر كان الملك ومن كان حوله من الأشراف والنبلاء كانوا مشاركين فى إبلاغ الأوامر وتنفيذها. أما الفرادى الذين تتكون منهم الكتلة المتمردة فكانوا لسنوات طويلة مستبَعدين من خلال التهديد وأبقى عليهم محاصرين مطيعين من خلال النواهى. وفى نوع من الحركة العكسية يتم إلغاء المسافات فيندفع هؤلاء إلى داخل القصر الذى كان ممنوعاً عليهم ويتأملون من أقرب موضع ما يحتويه من غرف وممتلكات وأثاث. أما الفرار الذى أضطروهم إليه أمر الملك فى الماضى فقد ارتد ليكون اطمئناناً حميماً. فإذا ما سبب ذلك حدوث هذا التقارب من خلال الرهبة فإنه قد تكون حالة مؤقتة لا تستمر لوقت طويل. وما إن تبدأ العملية العامة للتحرر من الغصات، فإنها تستمر بلا توقف. ولا بد من أن نأخذ فى اعتبارنا ما جرى من أحداث لحمل الناس على الطاعة وكم الغصات التى تجمعت داخلهم.

إن التهديد الحقيقى للرعايا، الذى لاحقهم دائماً، كان هو التهديد بالموت، وكان يجدد من حينٍ لآخر من خلال عمليات إعدام وأثبت فاعليته بوضوح، وكان هذا التهديد يلقي نجاحاً بأسلوبٍ وحيد: الملك الذى كان يقطع الرؤوس يتم قطع رأسه هو نفسه، وبذلك تكون الغصة الأشمل التى تبدو منطويةً على مفهوم كل الغصات الأخرى يكون قد استبعد من هؤلاء الذين كانوا عليهم حملة، وإدراك معنى الارتداد لا يكون دائماً على هذا النحو من الوضوح، كما لا يسلك الارتداد طريقه دائماً إلى القمة على هذا النحو من الكمال. أما إذا فشل التمرد ولم يتخلص الناس من غصاتهم فإنهم يحتفظون بذكرى الزمن الذى كانوا فيه كتلة. ففى هذه الحال كانوا قد صاروا متحررين من الغصات ويتذكرونها بلهفة.

الأمر والإعدام الجلاد المسرور

لقد أرجأت عمدًا تناول هذه الحالة في بحثنا هذا. وكنا قد فسرنا "الأمر" على أنه تهديدٌ بالقتل، فقلنا إنه اشتق من أمر الفرار. أما الأمر المروّض، كما تعرفنا عليه، فإنه يربط التهديد بالمكافأة، فتقديم الغذاء يدعم أثر التهديد إلا أنه لا يغير شيئًا من ماهيته. فالتهديد لا يُنسى أبدًا، فهو يظل باقياً في شكله الأول دائماً حتى تسنح الفرصة للخلاص منه عندما ينقله المرء إلى آخرين. ويمكن للأمر أن يكون تكليفاً بالقتل ليفضى بعدئذ للإعدام، وهنا يحدث بالفعل ما هو كان تهديداً. إلا أن الحدث يكون مقسماً على رجلين فأحدهما يتلقى الأمر والآخر يتم إعدامه. ويظل التهديد بالموت ملاحقاً للجلاد، مثله مثل كل من يخضع للأمر، لكنه يتحرر من هذا التهديد بأن يقوم هو نفسه بالقتل، فهو ينفذ في الآخرين ما كان سيحدث له، ويتخلص على هذا النحو من العقوبة القصوى، الذي كان هو نفسه خاضعاً لها، فقد قيل له: "عليك أن تقتل"، فقتل، فلم يكن بوسعه مقاومة مثل هذا الأمر الصادر إليه ممن يعترف لهم بتفوق سلطتهم. ولا بد من أن يحدث ذلك بسرعة وهو عادةً ما يحدث في الحال فلا يكون هناك وقت لتكوين غصة. لكن حتى مع توافر وقت فإنه لن يكون هناك

مناسبة لتكوين الغصة، فالجلاد ينقل بدقة ما كان قد تلقاه فليس هناك شيء يخشاه، فلا يبقى هناك في داخله شيء. وفي هذه الحالة، في هذه فقط، يتم تسوية حساب "الأمر" بسلاسة. فتتطابق طبيعته العميقة مع الفعل الذي يحدثه. وقد تم اتخاذ ما يلزم لتنفيذه ولا يمكن لشيء أن يعيق ذلك، وليس هناك احتمال أن تفلت الضحية. أما الجلاد فهو على وعيٍ بكل هذه الظروف منذ البداية فيكون بوسعه استقبال "الأمر" بهدوء، فهو يثق فيه وهو يدرك أنه لن يغير فيه شيئاً من خلال تنفيذه له، فهو يمر به على نحوٍ ما بسلام ليظل هو آمناً تماماً. فالجلاد هو الأكثر رضا بأنه هو الإنسان الخالي تماماً من الغصة. إنها حالة غريبة لم ننظر إليها قط بعين الجدية ولا يمكن إدراكها إلا إذا تأملنا الطبيعة الحقيقية "للأمر"، فمع التهديد ينهض "الأمر" ويسقط، فهو يستمد منه قوته كلها، ففائض هذه القوة التي لا يمكن تفاديها هو ما يفسر تكوين الغصة. لكن تلك الأوامر التي تعنى الموت حقاً والتي كانت تستهدفه والتي تقضى إليه بالفعل، هي التي لا تترك في المتلقى أي أثر. فالجلاد هو إنسانٌ يتم تهديده بالموت حتى يقتل وهو لا يُسمح له بقتل إلا من يجب عليه قتلهم فقط. فإذا ما التزم بدقة بالأوامر الصادرة إليه فإنه لا يحدث له مكروه. وتنفيذه للأوامر ينطوي يقيناً على شيء يكون بمثابة التهديد له في حالات تالية. ومن المحتمل أنه يعلق على تنفيذه للإعدام شيئاً ما يبقى على غصات ذات جذور مختلفة تماماً في داخله. لكن ما يبقى أساسياً هو آلية مهمته الخاصة، فإن قام بالقتل فإنه يحرر نفسه من الموت، فهو يعتبر ذلك عملاً خالصاً وغير غريب. أما الفرع الذي يبتشه في الآخرين فهو لا أثر له عنده. ومن المهم أن نوضح التالي، وهو أن القتلَ الرسميين هم الأكثر رضا في داخلهم كلما أفضت أوامره مباشرة إلى الموت، فحتى السَّجان يلاقى مشقةً أعظم من الجلاد. والحق أن المجتمع يقابل رضاه عن وظيفته بازدراءٍ ما، كنوعٍ من الانتقام، إلا أن ذلك أيضاً لا يعود عليه بالضرر، فهو، من دون أن يكون له يد في ذلك، يبقى حيّاً بعد كل ضحية من ضحاياه، لينال شيئاً من قيمة البقاء على قيد الحياة، وهو الذي لم يكن سوى أداةٍ ومثار الاحتقار التام. فهو يتزوج وينجب ويعيش حياةً أسرية.

الأمر والمسئولية

من المعروف أن البشر الذين يعملون طبقاً "للأمر" هم القادرون على الإتيان بالأفعال الأكثر ترويعاً. فإذا ما نصب مصدر الأمر وأرغم هؤلاء على النظر خلفهم، إلى أفعالهم، فإنهم لا يتعرفون على أنفسهم فيقولون "نحن لم نفعل هذا"، وهم لا يدركون على أية حال بأنهم كاذبون. فإذا ما عرضوا على شهود فاضطرب أمرهم أضافوا إلى ذلك: "لسنا هكذا، لا يمكن أن نكون من فعل هذا"، ويبحثون عن أثرٍ لأفعالهم داخلهم فلا يجدونه. وتنتاب المرء الدهشة من قدرتهم على بقائهم غير متأثرين بها. أما حياتهم فيما بعد فهي في الواقع حياةً أخرى لم تتأثر بالفعل على أى نحو. ولأنهم لا يشعرون بأنهم مذنبون فإنهم لا يندمون على شيء. فالفعل لم ينفذ إلى داخلهم. وهم عادةً أناسٌ قادرون للغاية على تقدير أفعالهم. أما تبعة أفعالهم فيكون لها الأثر المتوقع. وهم سوف يخلجون إن قتلوا مخلوقاً أعزل لا يعرفونه ولم يستفزههم. وقد يشعرون بالتقزز من تعذيب شخص ما، وهم ليس الأفضل، لكنهم أيضاً ليسوا أسوأ من آخرين يعيشون بينهم. وبعض من يعرفونهم، من خلال معايشة يومية حميمة، قد يبدون استعداداً للقسم بأن إدانتهم باطلة. فإذا ما استعرض صف الشهود الطويل، أى الضحايا الذين يعرفوا جيداً ما يقولون، وإذا ما تعرف كل منهم الواحد تلو الآخر على الجاني وأعاد تذكره بكل تفاصيل ما فعله، يصير هنا كل شكٍ أمراً غير مقبول، ليواجه المرء

لغزاً يستعصى على الحل. لكن هذا لم يعد يمثل لنا لغزاً لأننا نعرف طبيعة "الأمر". فكل أمر قام الجاني بتنفيذه ترك غصةً داخله، لكن هذه تكون غريبةً بقدر غرابة "الأمر" نفسه عند صدوره. ومهما طالت ملازمة الغصة للإنسان فإنها لا تندمج معه أبداً وتظل جسماً غريباً.

ورغم إمكانية توحيد غصاتٍ عديدة في شكلٍ جديد لتواصل النمو في المستهدف فإنها تبقى منفصلةً عن محيطها بوضوح. فالغصة هي مقتحمٌ دخیل لا يمكنها الاستقرار. وهي كيان غير مرغوبٍ فيه يسعى المرء للتحرر منه. إنها هو ما اقترفه المرء، وهي تتخذ، كما هو معروف، هيئة الأمر. وهي تواصل العيش كمرجعيةٍ غريبة داخل المتلقى وتنزع عنه كل شعورٍ بالذنب. فالجاني لا يتهم نفسه بنفسه، وإنما يتهم الغصة، أي المرجعية الغريبة، فهي الفاعل الحقيقي الذي يحمله داخله دوماً.

فكلما كان "الأمر" غريباً على شخصٍ ما، كان شعور هذا بالذنب تجاهه أقل، وكان انعزال "الأمر" كغصةٍ أكثر وضوحاً، فهي الشاهد الدائم بأن هذا الشخص لم يكن هو الذي أتى هذا الفعل أو ذاك. فيشعر المرء بأنه ضحيتها، ولذلك لا يملك نحو ضحيته الحقيقية أدنى شعور على الإطلاق. وفي الواقع فإن من ينفذون الأمر يعتبرون أنفسهم أبرياء تماماً. فإن استطاعوا رؤية حالتهم فقد يشعرون بالدهشة من أنهم كانوا ذات يوم تحت سطوة الأوامر على هذا النحو التام. لكن حتى هذا الإحساس الواعي يصبح بلا قيمةٍ لأنه ظهر بعد فوات الأوان. فما حدث، يمكن أن يحدث ثانيةً، فالحماية ضد الموقف الجديد، الذي يشبه القديم تماماً، لا تنمو داخلهم. فهم يظلون تحت سطوة الأمر بلا حماية ولا يرون من خطورته إلا شعاعاً خافتاً للغاية. وفي أوضح الحالات، وهو أمرٌ نادر لحسن الحظ، فإنهم يجعلون من "الأمر" قدراً مكتوباً، ويتفاخرون بأن ما ساقهم إلى ذلك كان هو قدر أعمى، كأنهم أسلموا قيادهم إلى هذا العمى. ومهما كان المنظور الذي نتأمل من خلاله "الأمر" في شكله المجرد النهائي، الذي هو عليه اليوم بعد تاريخ طويل، فسوف نراه قد صار أخطر عناصر التعايش الإنساني المشترك. فلا بد من أن يمتلك المرء الشجاعة للتصدي له ولزعزعة سيادته. ولا بد من وجود وسائل وسبل لتحرير الجزء الأكبر من البشر منه. فلا يجوز أن نسمح له بأكثر من خدش الجلد. ولا بد من جعل غصاته سلاسل يمكن التحرر منها بحركة بسيطة.

التحول

الحدس والتحول لدى رجال الأدغال

إن قدرة الإنسان على "التحول" التي منحتها سلطاناً كبيراً على المخلوقات كافة لم يمكننا فهمها أو تحديدها على نحوٍ ما، فهي إحدى الألغاز الكبرى، فكلُّ يمتلكها وكلُّ يعتبرها أمراً طبيعياً تماماً، لكن قليلين هم من يضعون في اعتبارهم أن لهذه القدرة الفضل في أفضل ما صاروا إليه. ولما كان من الصعوبة البالغة وضع قواعد لأسس التحول كان علينا الاقتراب منه من عدة جوانب مختلفة. فهناك كتابٌ عن "رجل الأدغال" اعتبره أثنى وثيقةً عن البشرية المبكرة ولم ينضب معينه بعد - رغم أن "بليك" دونه قبل مئة عام⁽¹¹⁷⁾ وصدر مطبوعاً من خمسين عاماً تقريباً - ويوجد به فصلٌ عن "الحدس" لدى رجال الأدغال. ومن هذا الفصل يمكن اكتساب دلالات مهمة. والأمر يدور - كما سيتضح - في إطار هذا الحدس حول مبادئ التحول على نحو بسيط للغاية. فرجال الأدغال يشعرون عن بعد بقدوم بشر لا يستطيعون رؤيتهم أو سماعهم. كما أن لديهم إحساساً بدنو الوحوش، ويقومون بوضع علامات على أجسادهم يدركون من خلالها اقتراب هذه الوحوش. ولنضرب أمثلة عن ذلك ننقلها عن نصها الأصلي حرفياً:

"رجلٌ يقول لأبنائه بأن عليهم ترقب وصول جدهم: انظروا حولكم فإنه يبدو لي أن جدكم يقترب لأنى أشعر بموضع الجرح القديم بجسده. فترقب الأطفال، فرأوا رجلاً من بعيد فقالوا لوالدهم: هناك رجلٌ قادم. فقال الأب لهم: إنه جدكم القادم هناك فلقد عرفت أنه يأتى وقد شعرت بقدومه بموضع جرحه القديم وأردت أن تروا ذلك بأنفسكم، إنه يأتى حقاً، أنتم لا تصدقون حدسى، إلا أنه يخبر بالحقيقة".

إن ما جرى هنا هو أمر على نحوٍ من البساطة الرائعة، فالرجل العجوز، جد هؤلاء الأبناء، كان فيما يبدو بعيداً عنهم وقد عانى من جرحٍ قديمٍ بموضع بعينه بجسده، وهذا الموضع معروفٌ جيداً لدى ابنه البالغ، والد الأطفال، وهو نوعٌ من تلك الجروح التى يتجدد ذكرها من حينٍ لآخر، وهو ما نسميه نحن مميزاً لشخصه. فإذا ما فكر الابن فى أبيه فكر فى هذا الجرح. إلا أن ذلك أعمق من كونه تفكيراً مجرداً، فالابن لا يتصور فقط الجرح أو موضع الجرح بدقة الذى أصيب فيه، بل إنه يحس الجرح فى المكان المقابل على بدنه هو نفسه. فما إن شعر به حتى افترض اقتراب الأب الذى لم يره من فترة. إنه يشعر باقترابه لأنه يشعر بجرحه. وهو ما يخبر به أبنائه ويبدو أنهم لم يصدقوه تماماً، فقد يكونون لم يختبروا بعد الإيمان بصدق مثل هذا الحدس، فلما حثهم على الترقب صح عندهم أن هناك رجلاً يقترب فقد كان الأب محقاً فلم يخدعه شعوره بجسده.

امرأةٌ تغادر البيت حاملةً ابنها معها فى نطاقٍ وضعته على كتفها. أما زوجها الذى بقى بالبيت فكان يجلس هناك هادئاً بعد أن ذهبت المرأة لإحضار شئ ما، وبقيت لفترةٍ طويلة بالخارج. فجأة يشعر الرجل بنطاقها فوق كتفه "فقد تولد لديه شعور فى هذا الموضع"، وكأنه هو الذى يحمل ابنه بنفسه. وما إن يشعر بالنطاق حتى يدرك أن المرأة تعود بالطفل. وهذا الحدس نفسه ينسحب على الحيوانات، وهى الحيوانات التى يعتبرها رجل الأدغال مهمةً كأقرب أهله، أى أقرب حيواناته على نحوٍ ما، تلك التى يقتنصها ويتغذى عليها.

طاووسٌ يمضى متنزهًا فى الشمس الدافئة فتعضه حشرةٌ سوداء يسميها رجال الأدغال "قملة الطاووس" فيحك الطاووس برجله أسفل قفاه فيشعر رجل الأدغال بشئٍ أسفل قفاه وهو بالموضع نفسه حيث يهرش الطاووس. وهو شعورٌ يشبه الخفقان، فيخبر هذا الشعور رجل الأدغال بأن هناك طاووسًا على مقربةٍ منه.

وهناك حيوانٌ يهيم رجل الأدغال على نحوٍ خاص وهو الوعل. وهنا نرى الكثير من مشاعر الحدس. وهى تنسحب على كل الحركات والسلمات الممكنة للوعل.

"لدينا شعورٌ بالأقدام فنحن نشعر بدبيب أقدامها في الدغل". إن هذا الشعور بالأقدام يعنى أن الوعل قادمة. وهذه حالةٌ مختلفة عن سماع ديببها، لأن أقدام رجال الأدغال هى التى تدب، فأقدام الوعل تدب عن بعد. إلا أن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد، فهناك ما هو أكثر من حركة الأقدام وهو ما ينتقل من الوعل إلى رجل الأدغال. "لدينا إحساسٌ بالوجه بسبب الشريط الأسود على وجه الوعل". هذا الشريط الأسود يبدأ من منتصف الجبهة ليمتد إلى نهاية الأنف، فيتولد الإحساس لدى رجل الأدغال كأن الشريط الأسود على وجهه هو نفسه. "لدينا إحساسٌ على العيون بسبب العلامة السوداء على عين الوعل". يشعر أحدهم بخفقان بين ضلوعه فيقول لأبنائه "يبدو أن الوعل قادمٌ فأنا أشعر بالشعر الأسود، فامضوا إلى التل بالناحية الأخرى وانظروا حولكم في كل الاتجاهات، فأنا لدى شعور - الوعل". وهذا الشعر الأسود هو لدى الوعل بين جانبيه، أما خفقان ضلوعه فهو يعنى لرجل الأدغال الشعر الأسود على جانبيه الحيوان. وكان هناك آخر حاضراً عندما ذُكرت هذه الظاهرة فوافقه على ذلك، وكان لديه شعورٌ حدسى يرتبط بالوعل، إلا أنه لم يكن هذا الشعور نفسه فهو يشعر بدم الحيوان الذبيح "لدى إحساس بباطن ساقى عندما يسيل دم الوعل، فإن جلست كان لدى شعورٌ بظهرى حيث يسيل الدم عندما أحمل الوعل، وأحس أن شعر الوعل يكون على ظهري". وقد روى ذات مرة: "نحن نشعر به في رؤوسنا في أثناء قيامنا بنزع قرون الوعل". وفي مرةٍ أخرى: "إن الأشياء العديدة تعتاد الظهور بدايةً عندما نكون راقيدين في ظل أكواخنا وهى تظن أننا نرتاح في أثناء القيلولة، لكننا لا ننام القيلولة عندما تأتى الأشياء وتحرك أقدامها فنشعر بشئٍ ما أسفل ركبتنا حيث يسيل الدم عندما نحمل الحيوان".

من خلال عبارات رجال الأدغال هذه نرى مدى الأهمية التى يعلقونها على مثل هذه المشاعر الحدسية والحسية. فهم يشعرون بها في أبدانهم عندما تطرأ أحداثٌ بعينها، كنوع من الخفقان في جسدكم يخاطبهم ويخبرهم عن ذلك. فحروف كلماتهم، على حد قولهم، تكون في جسدكم، هذه الحروف تنطق وتتحرك وتسبب حركتها هى نفسها. ويأمر الرجل الآخرين بالتزام الصمت التام

عندما يلحظ الخفقان في جسده فحدسه ينطق بالحقيقة. أما الحمقى فهم من لا يفهمون الإشارات وينزلقون إلى الشقاء فيقتلهم أسدٌ أو يقع لهم مكروهٌ، فإشارات الخفقان تشير لهؤلاء الذين يفهمونها بعدم شق طريق ما، وأية سهام لا ينبغي عليهم استعمالها، وهى تحذرهم عندما يقترب من البيت أناسٌ كثيرون على عربة. وعندما يمضى أحدهم للبحث عن شخصٍ ما فإن إشارات الخفقان تدله على الطريق التى عليه البحث فيها ليجده.

وليس لنا أن نختبر هنا مصداقية حدس رجال الأدغال أو خداعها فقد يكونون قد نمّوا قدراتٍ ومارسوها في حياتهم اليومية وهو ما افتقدناه نحن. وقد يكون لديهم مبررٌ لمواصلة إيمانهم بحدسهم حتى لو خدعهم أحيانًا. ومهما كان أمر ذلك فإن تعبيرهم عن كيفية ظهور الحدس لديهم يعتبر ضمن أثن الوثائق عن جوهر التحول ولا يوجد هناك ما يجعلهم ينحون ذلك جانبًا، فهناك دائمًا اعتراضٌ ينهض ضد كل ما يُسند إلى الأساطير والقصص الخرافية بأنه شيء مخترع، لكننا ندرك هنا مدى شعور رجل الأدغال بحياته الحقيقية عندما يفكر في طاووسٍ أو وعمل عن بعدٍ، وفيما يحدث له في أثناء ذلك وماذا يعنى هذا في كل الأحوال أن يفكر في مخلوقٍ لا يكون هو نفسه. إن الإشارات التى يدركون من خلالها اقتراب حيوانٍ أو إنسانٍ آخر هى إشاراتٌ في جسدهم ذاته، ومشاعر الحدس هذه تُعَبَّر على نحوٍ ما بؤادر التحولات. فإذا ما شئنا الإبقاء على قيمة الإشارات فإنه يجب توخى الحذر من إضافة شيء دخيل على عالم رجل الأدغال، فعلينا ترك هذه الإشارات ببساطةٍ ووضوح على ما هى في حقيقة أمرها، ولكننا ننزعها من سياق التعبيرات المقتبسة ونعددها بالترتيب:

ابنٌ يشعر بجرح أبيه القديم على الموضع نفسه بدقةٍ الذى جُرح فيه الأب.

رجلٌ يشعر بالنطاق الذى تحمل به الأم طفلها على كتفه هو شخصيًا.

طاووسٌ يهرش قفاه برجليه حيث عضته قملةٌ، فيشعر رجل الأدغال بالموضع نفسه في قفاه هو حيث هرش الطاووس.

رجلٌ يشعر في قدميه هو بديب الوعل. والشريط الأسود للوعل الذى ينحدر من جبهته حتى أنفه يشعر به على وجهه. وهو يشعر على عينيه بالعلامات السوداء على عيني الوعل. والشعر الأسود على جانبي الحيوان يشعر به بين ضلوعه.

رجل أدغالٍ يشعر بالدم في باطن ساقه وظهره، وهو دم الوعل الذبيح الذى سيحمله فوق ظهره وهو هنا يشعر كذلك بشعر الحيوان، ويشعر أحدهم فى رأسه بمكان انتزاع قرون الوعل، ويشعر أحدهم بالدم أسفل ركبته حيث اعتاد أن يسيل دم الحيوان الذبيح.

إن كل شىء تم إدراجه فى إطار البند الخامس يرتبط بالحيوان الميت. أما الرغبة فى دمه فهى التى ماهية التحول، وهى أقل بساطةً من الحالات الأربع السابقة، ولذلك نرى أنه من الأفضل أولاً أن نتأمل هذه الحالات. فالعنصر الغالب فى هذه الحالات هو أن جسداً يماثل جسداً آخر، فجسد الابن هو جسد الأب، وهكذا يوجد الجرح القديم فى الموضع نفسه. وجسد الرجل هو جسد زوجته، فالنطاق الذى تحمل به الطفل يضغط على الموضع نفسه من كتفه. وجسد رجل الأدغال هو جسد الطاووس، فالقملة تعضه فى الموضع نفسه من القفا وهو يهرش هناك.

فى هذه الحالات الثلاث يتبدى ملمحٌ منفردٌ لكلٍ منها، وهو الذى يظهر مساواة الأجساد، وهى ملامح من أنواع مختلفة، ففى حالة الجرح تبدو سمةٌ خاصة قديمة بالجسد، وهى تظهر من حينٍ لآخر. وفى حالة النطاق يطرأ ضغطٌ محدد مستمر عليه. أما حالة الهرش فهى حالةٌ منعزلة. أما الأكثر إثارةً فهى حالة الوعل، فهنا تجتمع أربعة أو خمسة ملامح لتمنح مساواة الجسد بجسدٍ آخر شيئاً كاملاً للغاية، فهنا الحركة فى الأقدام والشعر الأسود على الجانبين والشريط الأسود المنحدر من الجبهة إلى الأنف والعلامات السوداء على الأعين، وفى النهاية موضع الرأس حيث كانت القرون، كأن الرجل نفسه يحمل القرون. ومن أجل الحركة كانت القدم قد حلت محل الهرش، فيتبدى هنا شىء يماثل القناع تمامًا. أما ما كان أكثر إثارةً للانتباه فى رأس الحيوان فكانت القرون، ثم كل ما هو أسود للغاية، أى الشريط والعلامات على الأعين، فإنها اجتمعت لتصير قناعاً مختزلاً على أبسط وجه. أما الشعر الأسود على الجانبين فقد جعل الرجل كأنه تدثر بجلد الحيوان إلا أنه كان جلده هو نفسه. فأما الجسد وهو جسد رجل الأدغال ذاته فيصير جسد أبيه وزوجته والطاووس والوعل، ولما كان بوسعه أن يصير كل هؤلاء فى أحياء مختلفة، ويكون هو نفسه من حينٍ لآخر كان لذلك أهمية هائلة. وأما التحولات التى تتوالى فتتغير حسب الدواعى، كلٌ على حدة.

إنها حالات تحول خالصة، فكل مخلوق يشعر بمقدمه، يبقى على حالته. ويظل الفارق بينهما قائماً وإلا ما كان للتحولات أهمية، فالأب بجرحه ليس هو المرأة بالنطاق، والطاووس ليس الوعل. إن الهوية الشخصية التي يستطيع رجل الأدغال التخلي عنها تظل محفوظة في التحول، فبوسعه أن يصير هذا أو ذاك، إلا أن هذا أو ذاك يظل منفصلاً عن الآخر، وهو في في أثناء ذلك يعود ثانيةً هو نفسه. والسمات المنفردة، أي الملامح البسيطة للغاية التي تحدد التحول، قد نعتبرها نقاط التقاء، فجرح الأب القديم ونطاق كتف المرأة والشريط الأسود للوعل تمثل نقاط التقاء، فالملامح البارزة لمخلوق آخر هي ما تذكر به غالباً أو يحتفظ بها المرء دائماً، وهي الملامح التي ينتبه المرء إليها عندما يتوقع اقتراب هذا المخلوق. أما الحيوان الذي يقتنصه المرء فلا يكون إلا حالة خاصة، وما سعى إليه هو بالفعل كان لحم هذا ودمه. وأما الحالة التي يكون عليها المرء بعد قتله في أثناء حمله إلى البيت فتكون حالة من السعادة على نحو خاص. فجسد الحيوان الذبيح المتدلى كغنيمة على ظهر أحدهم يكون أكثر أهمية من جسده الحي، فيشعر هذا بدمه السائل إلى باطن ساقيه ويشعر به أسفل ركبته ويشعر بدمه على ظهره حيث أحس كذلك بشعره. إن الجسد الذي يحمله الرجل ليس جسده هو ولا يمكن أن يكون جسده لأنه يريد التهامه. أما مشاعر حدس رجل الأدغال المرتبطة بالوعل فإنها تنطوي على مراحل مختلفة، فهو على الصورة التي رأيناها، يشعر بالحيوان حياً ويصبح جسده هو جسد الحيوان الذي يتحرك ويجرى، لكنه يشعر أيضاً بالحيوان ميتاً كجسدٍ لغيره، جسد غريب متلاحماً مع جسده هو في حالة لم يعد بوسعه الانفصال عنها. وتبادل هاتين المرحلتين هو أمرٌ ممكن، فالرجل يمكنه الاعتقاد أولاً بوجوده في المرحلة الأولى والآخر في المرحلة الثانية اللاحقة، ويمكن أن تتعاقبا الواحدة تلو الأخرى، وظهورهما يكون متلاحماً على نحو مباشر، وهما تشملان علاقة الرجل الكاملة بالحيوان وتحملان عملية القنص الكاملة من الدبيب حتى الدم.

تحولات الفرار الهستيريا والهوس والملاخوليا

إن محاولات التحول سعيًا للفرار من أجل الإفلات من عدوٍ هي محاولات عامة ترويه الأساطير والقصص الخرافية المنتشرة بجميع أرجاء الأرض، وسوف نتناول فيما يلي أربعًا منها بالحديث، وهي التي تتضح فيها تمامًا تلك الأشكال المختلفة التي تتخدها تحولات الفرار. وأنا هنا أفرق بين الشكل المستقيم والشكل الدائري كشكلين رئيسيين من تحولات الفرار. فأما الشكل المستقيم فهو المعتاد للغاية في القنص، فهناك مخلوقٌ يلاحق الآخر وتضيق بينهما المسافة وفي اللحظة التي يُقبَض فيها على الأخير يتحول هذا إلى شيء آخر، ويفلت ويتواصل القنص، أو أنه في الحقيقة يبدأ من جديد. وترتفع حدة الخطر ثانيةً فالمهاجم يواصل الاقتراب وقد يفلح كذلك في القبض على فريسته، وهنا تتحول هي إلى شيء آخر وتهرب ثانيةً في اللحظة الأخيرة. ويمكن أن يتكرر الحدث ثانيةً مرات عديدة لا حصر لها. فالأمر يرتبط دائمًا بتجدد التحولات التي لا بد من أن تكون غير متوقّعة حتى تفاجئ المُطارِد. وهذا يستهدف فريسةً محددة تمامًا يعرفها جيدًا ويعرف أسلوب فرارها وكيف ومتى يستطيع القبض عليها. أما لحظة التحول فتوقعه في حيرة، مما يضطره إلى التفكير في طريقة أخرى جديدة للقنص.

فالفريسة المتحولة تتطلب قنصًا متحولاً، فيكون على الصياد أن يتحول هو نفسه. ونظرياً فإنه لا يمكن استشراف نهاية لمثل هذه السلسلة من التحولات. والقصص الخرافية تفضل مدّ أمد هذه التحولات التي يؤدي فيها الملاحق الدور الأكبر، لتكون النهاية السعيدة أيضاً من نصيبه، إما بهزيمة الملاحق وإما بالقضاء عليه. وأمامنا حالة، تبدو بسيطة، من حالات تحولات الفرار المستقيمة في الأسطورة الأسترالية لدى الـ"لوريتيا" فالـ"توكوليتاس"، أسلاف الطوطمات غير المخلوقة⁽¹¹⁸⁾، تصعد من الأرض في هيئة إنسانية وتظل في هيئتها البشرية حتى يظهر ذات يوم كلب هائل بلونه الأبيض والأسود، وقد كان يترقبها فأخذ يلاحقها لتفر الطوطمات إلا أنها تخشى ببطء حركتها، فمن أجل الفرار على نحو أفضل، فإنها تتحول إلى كل الحيوانات الممكنة مثل الكنجرو وحيوانات الـ"أمو" والنسور. والجدير بالملاحظة أن كلاً منها يتحول إلى حيوان بعينه ويحتفظ بهيئته ما دام في حالة الفرار. وفي هذه الحالة يظهر اثنان من الأسلاف يشبهان الطوطمات، لكنهما، فيما يبدو، أكثر قوةً وشجاعة، وهما يرغمان الكلب على الفرار ويقتلانه. وهنا يتخذ أغلب الـ"توكوليتاس" هيئتها البشرية ثانيةً بعد القضاء على الخطر، فلم يعد لديها ما تخشاه. إلا أنها تحتفظ بالقدرة على التحول حسب هواها إلى الحيوانات التي تحمل اسمها، وهى الحيوانات نفسها التي تحولت إليها في أثناء فرارها. والاقترار على تحول حيوانى وحيد هو ما يشكل جوهر طوطم الأسلاف هذا. وسوف نتحدث بإسهاب في سياق آخر عن هذه الأشكال المزدوجة، أما هنا فنكتفى بالتأكيد على أن التحول الذى جربه أولئك ومارسوه وظل ممكناً دائماً بعد أن نشأ من خلال الفرار.

وهناك حالة مستقيمة ثرية، هى رواية "جورجية" عن معلم وتلميذه⁽¹¹⁹⁾. فالمعلم الشرير، وهو الشيطان نفسه، استقبل الصبى لتعليمه، فعلمه كل فنون السحر، إلا أنه لم يشأ قط إطلاق سراحه ليجعله في خدمته دائماً. وكان أن أفلت الصبى، إلا أنه قبض عليه ثانيةً، فحبسه المعلم في إسطنبول معتم، وهناك أخذ الصبى يفكر في تحرير نفسه، إلا أنه لم يفلح في ذلك. وبمرور الوقت كان يزداد حزنه. وكان أن لاحظ ذات يوم شعاع شمس ينفذ إلى الإسطنبول فتحول بسرعة إلى فأر وتسلل من الشق إلى الخارج. فلما انتبه المعلم لهروبه تحول إلى قط ليطارده الفأر. وهنا تبدأ سلسلة من التحولات، فقد فغر القط فمه ليقتل الفأر ليتحول هذا إلى سمكة ويقفز في الماء، وفي لحظة يتحول المعلم إلى شبكة ويسبح خلف

السמكة وما كاد يمسك بها حتى تحولت السمكة إلى ديكٍ برى ليحاول المعلم اقتناصه كصقر، وما إن شعر الديك البرى بمخالب عدوه حتى سقط كتفاحة حمراء في حجر الملك ذاته، فيصير المعلم مديّةً أمسك بها الملك بيده في الحال، فلما شاء الإمساك بالتفاحة وقطعها إذا بالتفاحة تختفى من المكان لتحل محلها حفنة من الذرة البيضاء لتقف حيالها دجاجة وصغارها من كتاكت - أى المعلم - وصارت تلتقط الحبوب الواحدة تلو الأخرى حتى لم يتبق في النهاية سوى حبة صغيرة تحولت في اللحظة الأخيرة إلى إبرة، لتتحول الدجاجة وكتاكتها إلى خيط في سم الإبرة، وهنا اشتعلت الإبرة ليحترق الخيط ويموت المعلم، وتتحول الإبرة مرةً أخرى إلى صبيٍ ليعود إلى بيت أبيه.

كانت هنا سلسلة من التحولات هي: فأر وقط وسمكة وشبكة وديك برى وصقر وتفاحة ومديّة وذرة ودجاجة وكتاكت وإبرة وخيط. وقد كان كل من الطرفين مترقبًا للآخر سواء كان حيوانًا أم مادةً من المواد، ودائمًا ما كان الأول الذى يمثل المعلم ساعيًا وراء الآخر الذى هو الصبي ودائمًا ما ينقذ الأخير نفسه من خلال التحول في اللحظة الأخيرة. وهذه عملية قنصٍ رائعة وهى كذلك عبثية من خلال أساليب التحول، كما تتبدل الأماكن نفسها بتغير الأشكال. فإذا توجهنا إلى الشكل الدائرى فلسوف يخطر ببالنا الرواية الكلاسيكية عن "بروتايوس"⁽¹²⁰⁾ عجوز البحر الحكيم، وهو سيد كلاب البحر، وقد سعد مثلها ذات يوم إلى البر، وكان أن قام بحصر عدد قطيعه بدقة، ثم رقد وسطها لينام. أما "ميناوس" فقد أطاحت به الريح الرديئة في أثناء عودته من طروادة إلى الساحل المصرى، حيث يقيم بروتايوس ولم يغادر مكانه مع رفاقه. ولما مرت أعوامٌ استبد اليأس بميناوس فكان أن توسل إلى ابنة بروتايوس، فقالت له ما يجب عليه فعله من أجل القبض على أبيها الذى ينطق بالحكمة فيرغمه على الحديث. وجهزت ميناوس واثنين من رفاقه بفراء كلاب البحر، وحفر هو على الشاطئ مواضع ليرقد فيها الثلاثة متدثرين بفراء كلاب البحر. ورغم الرائحة الكريهة انتظروا هناك صابرين حتى يأتى قطيع كلاب البحر ليرقدوا بينهم براءة وهم متنكرون. وكان أن سعد بروتايوس من البحر وحصر عدد قطيعه، ثم رقد لينام بينها مطمئنًا. وجاءت اللحظة المواتية لميناوس ورفاقه فقبضوا على العجوز في أثناء نومه ولم يطلقوا سراحه. أما هو فحاول الفرار منهم بأن تحول إلى كل شئ ممكن بدايةً من أسدٍ بلبدة هائلة ثم إلى ثعبان لكنهم أحكموا قبضتهم عليه، وتحول إلى فهدٍ وإلى ذكر

خنزير عملاق لكنهم أحكموا قبضتهم عليه، وتحول إلى ماء ثم إلى شجرة غزيرة الأوراق إلا أن قبضتهم لم تتراخ. فكل التحولات التي جربها كانت تحت سيطرتهم، وفي النهاية أرهقه ذلك فاتخذ ثانية الهيئة التي هي لعجوز البحر بروتئوس، وسألهم عما يريدون واستسلم لما طلبوه. هكذا نفهم سر تسمية تحولات الفرار هذه بالدائرية، فكل شيء يحدث في بقعة واحدة وكل تحول هو محاولة للفرار في هيئة أخرى وفي اتجاه مغاير على نحو ما. لكنها كلها باءت بالفشل وحدثت تحت سيطرة منيلاوس وأصدقائه. فلم يعد الحديث عن الصيد ممكناً فقد انتهى أمره بعد أن تم القبض على الفريسة وباءت بالفشل سلسلة محاولات تحول الأسير للفرار، ولذا كان عليه في النهاية الرضا بمصيره وتنفيذ ما يطلب منه. وفي النهاية فإن أود هنا أن أسوق قصة بليوس وتيتس اللذين لم يحصلوا على أية شهرة إلا فيما بعد كوالدين لأخيل. أما بليوس فكان مخلوقاً فانيًا، وأما تيتس فكانت إلهة وكانت تأبى أن ترتبط به لأنه لم يبدُ جديرًا بها، وقد فاجأها وهي نائمة بكهف، فقبض عليها ولم يطلق سراحها، فحاولت الفرار، مثل بروتئوس، من خلال كل التحولات الممكنة، فقد تحولت إلى نار وإلى ماء وإلى أسد وإلى ثعبان إلا أنه لم يتركها، وتحولت إلى أخطبوط لجزع أغرقه بالحبر إلا أن شيئاً من هذا لم يعد عليها بالنفع، فصار عليها الاستسلام له. وبعد عدة محاولات فيما بعد، كانت قد تخلصت من نسله، لتصبح أمًا لأخيل. كان نوع المحاولات هنا مماثلاً تمامًا لمحاولات بروتئوس وكانت حالتها كأسيرة مثل حالته، فالمهاجم يحتفظ بها تحت سيطرته ولا يدعها. وكانت كل من تحولاتها عبارة عن محاولة للفرار في اتجاه جديد، فأخذت على نحو ما تدور في دائرة مفرغة لكي تعثر على مكان يمكن أن تتحرر فيه من الأسر، إلا أنها لم تفلح في أي مكان في تجاوز الدائرة فبقيت في الأسر. وفي النهاية استسلمت في مركز كل المحاولات مثل "تيتس" نفسها. وفي الواقع فإن قصة تيتس لم تضاف جديدًا لقصة بروتئوس وقد عرضناها من أجل صبغتها بالإثارة الأنثوية، وهي تذكر بنوبات أعراض مرض معروف في الغالب، أي: الهستيريا⁽¹²¹⁾. ونوبات هذا المرض العميقة ليست سوى سلسلة من التحولات العنيفة للفرار. فالمصابة تشعر بوقوعها في أسر قوة متفوقة عليها ولا تتركها، ويمكن أن يكون هذا رجلاً تريد الفرار منه، رجلاً أحبها وتملكها، أو رجلاً مثل بليوس الذي يريد امتلاكها أولاً، ويمكن أن يكون كاهنًا احتفظ بها أسيرة باسم الله، ويمكن أن يكون روحًا أو إله نفسه. وفي كل هذه الحالات تظهر أهمية شعور الضحية بالقرب

الفسولوجى للقوة المتفوقة وبقبضتها المباشرة عليها. وكل ما تقدم عليه الضحية من تحول، يكون بهدف الحد من إحكام القبضة. إن ثراء التحولات، التى تحدث فى أثناء ذلك ومنها الكثير الذى لا تظهر سوى بوادر منه فقط، هو أمرٌ مثير للدهشة. ومن أغلب حالات التحول هذه هو التظاهر بالموت، وهو ما أثبتت فعاليته، وهى ظاهرةٌ معروفة عن كثير من الحيوانات. فالمتظاهر بالموت يأمل أن يترك شأنه، فهو يبقى راقداً ليمضى العدو إلى حال سبيله. وهذا التحول هو الأكثر مركزيةً من الجميع. فالكائن يصير "مركزاً" إلى حد أنه لا تصدر عنه أية حركة كأنه ميتٌ فيبتعد الآخر عنه. ومن السهولة معرفة مدى الفائدة التى كانت ستعود تحديداً على تيتس وبروتيس لو أنهما افتعلا الموت، ولولا أن المرء كان يعرف أنهما إلهان لما اضطرت تيتس إلى أن تصير عشيقةً ولم يكن بروتيس ليضطر إلى أن يصبح عراقاً، لكن كلاهما كان إلهاً فكانا إذن خالدين، وقد كان بوسعهما أن يتنكرا بشكلٍ جيد إلا أنه لم يكن هناك من سيصدقهما.

فأما الشكل الدائرى لتحول الفرار فهو إذن ذلك الذى يعطى الهستيريا لونها المحدد لماهيتها وهو (الشكل) المفسر لثراء انتقال الأحداث ذات الطبيعة الجنسية إلى تلك ذات الطبيعة الدينية. وهو أمرٌ لافِت للغاية فى هذا المرض. وكل نوعٍ من حالات الوقوع فى الأسر يمكن أن يغرى بالفرار. ومن المحتمل دوماً أن تفشل محاولة الفرار فى الحال إذا كان قبضة الأسر محكمةً بقوة. وقد رأينا الصورة المناقضة لتحول الفرار فى نوبات الأطباء السحرة⁽¹²²⁾، وهم كذلك يقيمون بموضع ما فى أثناء المشهد كله، محاطين بحلقةٍ من الناس ليشاهدوهم. ومهما جرى داخل خيالهم فإن جسدَهم المرئى يبقى هناك حيثما كان. وأحياناً يقيدون أنفسهم خوفاً أن ينتقل جسدَهم مع روحهم. أما دائرية المشهد فإنها تبرز بوضوحٍ سواء من خلال اضطرابهم إلى التشبث بمركزهم الأرضى حيث يتفاعلون، أو من خلال وجود حلقةٍ من الأنصار. أما التحولات فإنها تتابع بسرعةٍ الواحد تلو الآخر وتحصل على كثافةٍ وتراكمٍ كبيرين على ألا يؤدى ذلك إلى الفرار، وهو الفارق الجوهرى عن الإصابة بالهستيريا المألوفة. فمن خلال التحول يستدعى الطبيب الساحر أرواحاً معونةً لتكون تحت إمرته، فهو نفسه يقبض عليها ويرغمها على معاونته فى أعماله. والكاهن نشط وتحولاته تخدم تنامى سلطته فلا يفر من الآخرين الذين هم أكثر منه قوةً. وفى أثناء الرحلات التى تقوم بها روحه ويبقى جسده هناك فاقدًا الوعى ظاهرياً، فإنه ينفذ إلى عوالم السماء

والعالم السفلى فهو يطير ويصعد للعلو الذى يتغيه وهو يضرب كالطائر بجناحيه، وهو يغوص وينفذ إلى العمق الذى يشاء حتى قاع البحر، ويُرغم نفسه على الدخول إلى بيت إلهة حاملاً مطلباً مهماً، ودائماً ما يعود إلى المركز حيث ينتظر أنصاره بشارته جَزَعِينَ. ومن الوارد أيضاً أن يفشل بموضع ما فى الفرار، أو يُرغم على الإفلات من خلال تحول ما. وفى الغالب ما يكون اتجاه فعله خطوةً وثقةً واسعة. أما صلتُه بحالتى بورتىوس وتيتس فهى تتأسس فقط على الطبيعة الدائرية لتحولاته المتراكمة. ويجدر بنا أن نعود من هنا إلى الشكل المستقيم كما تعرفنا عليه فى الرواية الجورجية عن المعلم وتلميذه الذى أفلت منه فى هيئة فأرٍ، وفيما بعد صار المعلم شبكة صيدٍ وصار صقراً ومدية ودجاجة مع صغارها، وكان كل نوعٍ من تحولاته يخدم نوعاً جديداً من القنص. ومن منظور المعلم دار الأمر حول سلسلةٍ سريعة من تحولاتٍ عدائية لم تكن تغييراً للنوع فحسب وإنما لتوسيع مجال القنص، فالسرعة الخاطفة والانتشار على مدى واسع للأحداث المرتبطة بالنية الخطرة التى نشأت عنها لهى على صلة واضحة بأحداث مرض نفسى آخر هو الهوس⁽¹²³⁾. فتحويلات المصاب بالهوس تتمتع بمرونة هائلة، فهى تملك استقامة وخفة حركة الصياد والسرعة الخاطفة لتغير أهدافه فى حالة عدم تحقيقها، لكنه لا يتوقف عن الملاحقة. والهوس يمتلك كبرياء الصياد وعزمته القوية ما دام يسعى خلف هدفه. فالتلميذ فى الأسطورة يماثل الفريسة المتغيرة التى بوسعها أن تكون كل شىء والتى تظل هى نفسها دائماً، أى تظل فى جوهرها مجرد فريسة. فالهوس هو ذروة صنع الفريسة. وما يهم الهوس هو الرؤية والاقتناص والانقضاض، أما الاتهام فلا يمثل له أهمية كبيرة. فقنص المعلم لم يكتسب ماهيته الكاملة إلا بعد فرار التلميذ من الإسطبل المعتم، وهو ما قد ينتهى وتنتهى معه حالة الهوس عندما يضعه المعلم ثانيةً تحت سيطرته. ففى البداية يفكر الأسير فى تحرير نفسه ولكنه لم يصل لشىء، وبمرور الوقت صار حزنه أعظم. وهنا نعيش بدء الحالة المناقضة للهوس، أى الملانخوليا، وقد يكون من المناسب بعد تناولنا للهوس أن نذكر شيئاً عن الملانخوليا، فهى حالة تبدأ بعد انتهاء تحولات الهرب ليشعر المرء بعدم جدوى أى منها. ففى حالة الملانخوليا يكون المرء قد عوجل وتم الانقضاض عليه بالفعل فلم يعد بوسع الفرار ولم يعد يتحول، فكأن كل محاولاته بلا جدوى فيستسلم لمصيره وينظر إلى نفسه كفريسةٍ، فيصبح فى حالةٍ متردية: فريسة، طعام ردىء، جيفة، روث. إن

عمليات خفض القيمة، التي تجعل من الشخص نفسه دائماً أقل قيمةً، تتبدى في شكل مجازي كالشعور بالذنب، والذنب يعنى أصلاً أن المرء كان تحت سيطرة آخر، فسواء شعر المرء أنه مذنب أو فريسة فإن ذلك يؤدي في حقيقة الأمر إلى النتيجة نفسها. فالمصاب بالملانخوليا يرفض الطعام وقد يسوق سبب اقتناعه عن ذلك بأنه لا يستحق ذلك. وفي حقيقة الأمر أنه يرفض الأكل لأنه يرى أنه هو نفسه قد تم أكله. فإذا ما أرغمه أحدهم على الأكل يكون قد ذكره بأن فمه يتجه نحوه. فيكون ذلك كأنه وُضع أمام مرآة وهو في ذلك يرى فمًا، ليرى هناك ما سوف يؤكل، إلا أن هذا الذي سيؤكل فيكون هو نفسه. فالعقاب الرهيب هنا يظهر فجأةً ولا يمكن تفاديه، وهو عقابٌ على أن المرء كان يأكل دائماً، وفي الواقع إن الأمر يدور هنا حول التحول النهائي الذي يوجد في نهاية كل محاولات الفرار، فيتحول إلى المأكول، ولتفادي هذا التحول فإن كل ما هو حي يلوذ بالفرار.

التكاثر الذاتى وأكل الذات الهيئة المزدوجة للطوطم

من بين الأساطير التى سجلها "Streblow" الصغير عن الـ"أراندا" الشماليين بوسط أستراليا⁽¹²⁴⁾ هناك قصتان حازتا اهتمامنا على نحو خاص، الأولى هى أسطورة (الحيوان الخارق)⁽¹²⁵⁾ وهو الحيوان المعروف باسم الـ"أبوسوم"، وترجمة نصها كالتالى:

فى البداية كان كل شىء راقداً فى الظلام وكان الليل ينوء على الأرض بثقله الوخيم. كان اسم الجد "كارورا"، وكان يرقد نائماً بالليل السرمدى أسفل حضيض أرض بركة الـ"بالتيتا" الصغيرة التى لم يكن بها ماء، فقد كان كل شىء أرضاً جافة. أما الأرض أعلاه فكانت حمراء من أثر الزهور وقد نمت فوقها أنواعٌ عديدة من العشب، وكان يلوح فوقه عمود خشبى كبير. وكان هذا العمود قد انبثق وسط حوض زهور ارجوانية كانت تنمو فى بركة الـ"الباليتيا". وكان رأس كارورا نفسه يرقد أسفلها. من هنا صعد العمود إلى السماء كأنه سيصطدم بقبتها، لقد كان مخلوقاً حياً مغطى ببشرة ناعمة كبشرة الرجل، وكان رأس كارورا قد رقد عند جذر العمود الكبير. هكذا كان قد رقد منذ البدء. وقد فكر كارورا ودارت برأسه الآمال، وفجأةً خرجت حيوانات الـ"أبوسوم" من سُرته ومن تحت إبطيه،

وخرجت من خلال القشرة فوقه وقفزت إلى الحياة. حينئذٍ بدأت السماء ترعد،
 ومن كل صوبٍ وحذب رأى الناس بدء ظهور نورٍ جديد، فالشمس نفسها بدأت
 في الارتفاع وغمرت كل شيء بنورها. فكان أن خطر ببال الجد أن ينهض بعد أن
 صارت الشمس أكثر علوًا، وخرج من قشرة الأرض التي كانت تغطيه، فصار
 الثقب الذى خلّفه ورائه بركة "البالينتيا" وقد امتلأ بالعصير الحلو لبراعم شجيرة
 "صريمة الجدى" ذى اللون الداكن، فنهض الجد وشعر بالجوع بعدما سالت القوة
 السحرية خارج جسده، إلا أنه أحس أنه فاقد الوعى، وشئياً فشيئاً بدأت رموش
 عينيه ترتعش فكان أن فتحها قليلاً وأخذ يتحسس ما حوله وهو فى حالة المخشى
 عليه. وشعر حوله فى كل مكان بكتلةٍ من الـ"أوبسوم" تتحرك، وحينئذ وقف على
 قدميه على نحوٍ أكثر ثباتاً، وتذكر أنه يشعر بالنهم، فدفعه جوعه العظيم إلى أن
 يمسك باثنين من صغار الـ"أوبسوم"، فقام بطهيهما قليلاً على بعدٍ ما قريباً من
 الموضع الذى سطعت فوقه الشمس فوق الأرض الملتهبة، بعد أن رفعت الشمس
 درجة حرارتها، فكانت أصابع الشمس هى التى أمدته بالنار والرماد الساخن.
 وما إن شبع حتى اتجهت أفكاره نحو رفيقٍ يستطيع مساعدته. إلا أن المساء صار
 يقترب واختفى وجه الشمس خلف حجابٍ من فتائل من شعرٍ وغطت جسدها
 بحجابٍ من فتائل من شعرٍ وغابت عن أعين البشر. وكان أن غرق كارورا فى
 النوم وبسط ذراعيه على كلا جانبيه. وفى أثناء نومه برز تحت إبطيه قوأمٌ من
 الخشب الرنان واتخذ هيئة إنسان ونما فى أثناء الليل فصار شاباً. كان هذا هو
 ابنه البكر. فى تلك الليلة استيقظ كارورا بعد أن شعر أن شيئاً ثقیلاً ينوء فوق
 ذراعه لينظر ابنه البكر بجواره وقد أراح رأسه على كتف الأب. فأرعدت السماء
 لينهض كارورا ويطلق صيحة نداءٍ عالية مدوية، ومن خلال ذلك دبت الحياة فى
 الابن، فنهض وأخذ يرقص رقصة شعائرياً حول أبيه الجالس هناك متحلياً بكل
 الأوسمة من دمٍ وريش. أما الابن فصار يهتز ويترنح فقد كان شبه مستيقظ،
 فهز الأب جذعه وصدره هزةً عنيفة ثم وضع الابن يديه عليه لينتهى الطقس
 الأول. وكان أن أرسل الأب ابنه ليقتل بعض حيوانات الـ"أوبسوم" التى كانت تلعب
 آمنَةً بالقرب منه فى الظل. وعاد الابن بها إلى الأب الذى قام بطهيها فوق الأرض
 الملتهبة كما فعل من قبل واقتسم اللحم المطهى مع ابنه. وما إن حل المساء
 حتى نام كلاهما. وكان أن وُلِدَ للأب فى هذه الليلة ابنان من تحت إبطيه، فبث
 هذا فيهما الحياة فى اليوم التالى من خلال صوت النداء المدوى مثلما فعل من

قبل. ثم تكرر هذا الحدث لأيام وليالٍ، وكان الأبناء يحضرون ما قاموا باقتناصه، وكان الأب ينجب عددًا مطردًا من الأبناء بلغ عددهم الخمسين في بعض الليالي. لكن النهاية لم تنتظر طويلًا فسرعان ما كان الأب والابناء قد التهموا كل حيوانات الـ"أوبسوم" تلك التي خرجت في الأصل من جسد كارورا. وبدافع الجوع أرسل الأب أبنائه إلى حملة صيدٍ لثلاثة أيامٍ، فاخترقوا السهل الكبير وظلوا لساعاتٍ طويلة يبحثون في العشب العالي الأبيض بالغابة شبه المعتمة والتي بدت بلا نهاية. لكن الدغل الشاسع لم يكن يحتوى على أية أوبسوم فصار عليهم العودة. وكان هذا هو اليوم الثالث حينما شق الأبناء طريقهم للعودة خلال السكون المخيم وهم جائعون متعبون. وفجأة تنامى إلى أسماعهم صوت قرقعة الخشب الرنان فأصاخوا السمع وبدأوا البحث عن الرجل الذى بدا أنه يترنح، وصاروا يبحثون ويبحثون ويبحثون وعرزوا بعيدانهم في كل أعشاش الـ"أوبسوم" وأماكن راحتها. فجأة قفز شيء ذاكن اللون ذو شعر كثيف وولى مبتعدًا ليرتفع هتاف: "هنا يركض والابى" من كثبان الرمل، فأطلقوا عيدانهم في هذا الاتجاه فكسروا أحد ساقيه. ثم سمعوا كلمات أغنية صادرةً عن الحيوان الجريح: "أنا تينتراما قد صرْتُ الآن مشلولًا، أجل مشلولًا، والتصق بى زهر الأرجوان على نحوٍ دائم. إننى رجلٌ مثلكم ولست أوبسوم". وبهذه الكلمات هرب تينتراما المشلول وهو يعرج. وكان أن واصل الإخوة المتعجبون طريقهم إلى أبيهم وسرعان ما رأوه يدنو، ليعود بهم إلى البركة ليجلسوا على حافتها في حلقاتٍ، حلقةً حول الأخرى مثل أمواج الماء التى أخذت في الحركة. ثم جاء الطوفان الكبير من العصير الحلو لشجيرة "صرمة الجدى" من الشرق وأغرقهم وحملهم إلى بركة الـ"باليتينا". وكان أن بقى كارورا العجوز هناك. أما الأبناء فقد حملهم الطوفان إلى باطن الأرض، إلى مكانٍ في الدغل. وهناك التقوا تينتراما الكبير الذى كانوا كسروا ساقه بعيدانهم عن غير علمٍ، وقد صار زعيمًا كبيرًا. إلا أن كارورا كان قد استعرض في نومه الأبدى أسفل بركة الـ"باليتينا".

أما القصة الثانية فهى أسطورة "لوكارا"⁽¹²⁶⁾:

فى لوكارا ذات الشهرة الواسعة، وعلى حافة ثقب الماء الكبير كان هناك رجلٌ عجوز يرقد فى نومٍ عميق أسفل شجيرة تتغذى عليها اليرقات. وكان قد مضى عليه زمنٌ كالأبد. كان قد رقد هناك فى سكونٍ كأنه راعٍ فى حالة تشبه النوم الدائم.

في البداية لم يكن يحرك ساكنًا ولم يؤت حركةً ما. وكان متوسدًا ذراعه الأيمن وقد مضى عليه زمنٌ كالأبد في نومه المتصل. وفي أثناء ما كان يغط في نعاسه الأبدي كانت اليرقات البيضاء تدب فوقه. وقد كانت دائمًا على جسده. ولكن الرجل العجوز لم يتحرك ولم يستيقظ كذلك، فكان غارقًا في حلمه العميق. أما اليرقات فكانت تتحرك فوق جسده مثل سرب النمل. وكان العجوز يزيح بعضها من حين لآخر من فوق جسده من دون أن يصحو من نومه، إلا أنها كانت تعود لتمضي فوق جسده وقد حفرت لنفسها في جسده رغم أنه لم يستيقظ ليمضي زمن أبدي. ثم حدث ذات ليلة، بينما كان الرجل قد نام راقدًا فوق ذراعه اليمنى، أن سقط من تحت إبطه الأيمن شيء اتخذ هيئةً تشبه "اليرقة آكلة الخشب" وسقطت على الأرض وقد أخذت هيئةً إنسانية نمت بسرعة، وعندما حل الصباح فتح الرجل العجوز عينيه ناظرًا بدهشة تامة إلى ابنه البكر.

وتواصل الأسطورة رواية كيف أن جماعةً كبيرة من الرجال قد وُلدوا على المنوال نفسه. إلا أن أباهم لم يحرك ساكنًا، ولم تكن هناك إشارة تدل على حياته إلا تلك التي أعطاها بأن فتح عينيه، حتى إنه رفض أي غذاء قدمه أبناؤه له. إلا أن الأبناء قد أبدوا حماسًا بأن يخرجوا "اليرقات آكلة الخشب" من جذور شجيرة كانت على مقربة منهم. فصاروا يشوونها ويأكلونها. وأحيانًا كانوا يشعرون بالرغبة في أن يعودوا ليكونوا يرقات. ثم ألقوا بتعويدة سحرية وتحولوا إلى يرقات ومضوا ثانيةً إلى داخل جذور الشجيرة. ومن هناك عادوا مرةً أخرى إلى السطح ليتخذوا ثانيةً هيئتهم الإنسانية.

"والآن جاء غريبٌ، كان رجلًا مثلهم، لكن من مبورنيجكا البعيدة. ورأى اليرقات السمينية الخاصة بالإخوة لوكارا. فكان أن اشتهاها فقدم لهم يرقاتٍ خاصة به كانت طويلةً وهزيلةً وبائسة، ليبادلها معهم إلا أن الإخوة لوكارا نحوا حزمته الحقيرة بعصيهم جانبًا ولم ينبسوا بكلمة، ما أثار غضب الغريب، فجرؤ أن يمسك بصرة الإخوة لوكارا وفر هاربًا قبل أن يتمكنوا من منعه عن ذلك. وعادوا جزعين إلى أبيهم الذي كان صبره قد نفذ قبل مجيئهم. فعندما قام اللص باختطاف اليرقات شعر هو بألم حاد بجسده، فنهض ببطءٍ ومضى بخطى متربصة متعقبًا اللص. إلا أنه لم يحصل على الصرة، فكان اللص قد مضى بها

إلى مبورينحكا البعيدة، فتهاوى الأب وتحول جسده إلى تيورونجا (شاهد جبرى مقدس) كما صار كل الأبناء أحجار تيورونجا".

تدور الروايتان حول جَدين مختلفين تمامًا، أحدهما هو والد الحيوان الخارق أو الأوبسوم والآخر هو أبُّ اليرقات وحتى يوم تدوين هاتين الأسطورتين كان هذان الطوطمان موجودين ويقام لهما احتفالٌ شعائرى خاص بهما. وهنا أود التأكيد على بعض الملامح الملفتة المشتركة بين الأسطورتين. فقد كان كارورا والد الـ"أوبسوم" وحيدًا لزمَنٍ طويل. وكان ينام في عتمةٍ أبدية راقدًا تحت قشرة أرض بركة. ولم يكن يتمالك نفسه ولم يكن يفعل شيئًا. وفجأة نشأت في جسده مجموعةٌ من حيوانات الـ"أوبسوم" وخرجت من سرتِه ومن تحت إبطيه وأشرقت الشمس فأخرجه نورها من تحت القشرة. وكان جائعًا لكنه كان يشعر أنه خائر القوة فصار يتحسس حوله في هذه الحالة المغيبة. فكان أول ما شعر به هو كتلة حية من الـ"أوبسوم" وقد أحاطت به من كل جانب. وفي الأسطورة الأخرى كان والد اليرقات، الذى لم يُذكر اسمه، راقدًا أسفل شجيرة مستغرقًا في نومٍ أبدى، فصارت يرقاتٌ بيضاء تدب فوق جسده وصارت في كل مكان مثل سرب النمل، ومن حينٍ لآخر كان يزيح بعضها برفقٍ إلا أنها كانت تعود لتدب فوقه وتحفر لنفسها في جسده، ليواصل هو نومه في الكوم المكتظ. وقد بدأت الأسطورتان بالنوم وفي كليهما بدت العلاقة الأولى بال مخلوقات الأخرى كشعور بالكتلة. إنه هو شعور الكتلة الأكثر كثافةً ومباشرة، أى الإحساس بالجلد نفسه، فقد شعر أحدهما بالفئران حينما تحسس ما حوله أول مرة في حالة تشبه الاستيقاظ. أما الآخر فقد أحس باليرقات على جلده وهو ما زال نائمًا فأزاحها عنه من دون أن يتخلص منها، وقد عادت وحفرت لنفسها في جلده. إن هذا الشعور بأن جسد المرء يغطيه أسرابٌ هائلة من حشراتٍ صغيرة، وهو ما يشعر به المرء على جسده كله، فهو شعورٌ طبيعى معروف على نحوٍ عام. إنه شعورٌ غير محبب وهو يظهر في حالات الهلوسة، على سبيل المثال. فإن لم تكن هذه حشراتٍ فإنها تكون فئرانًا أو ابن عرس. إن القشعريرة على البشرة أو القرص فيها أمرٌ يعود إلى نشاط الحشرات أو حيواناتٍ قارضة صغيرة وسوف نتحدث عن ذلك بإسهاب في الفصل التالى. أما تعبير "شعور كتلة الجلد" فسوف نتناوله هناك ونفسره. لكن الفارق المهم بين هذه الأحوال وتلك يظل ملحوظًا. وفي أساطير "أراندا" يبدو هذا الشعور لطيفًا، فما يشعر به الجد يكون شيئًا نشأ عنه هو نفسه

وليس شيئاً معادياً مهاجماً من الخارج. ففي الأسطورة الأولى يُروى كيف جاءت حيوانات الـ"أوبسوم" من سرة أو من تحت إبطى الجد. فهو نفسه الذى كان احتواها في جسده، فكان هذا الأب كائناً أعلى فريداً. وهو ما يمكن أن نطلق عليه: أم الكتلة. فأعدادُ بلا حصر تنبثق مباشرة من جسده من مواضع غير مواضع الولادة المألوفة. فهو يبدو لنا كملكة النمل الأبيض ولكنها مثل تلك التى تخرج بيضها من أجزاء مختلفة تماماً من جسدها. وفي الأسطورة الثانية يُروى أن يرقات كانت دائماً موجودةً هناك، إلا أنه لا يُذكر إلا عرضاً أنها خرجت من جسد الجد، فهى فوقه أو تحفر لنفسها فيه. لكن في الفصل الثانى من الأسطورة تظهر ملامح تجعلنا نظن أن اليرقات نشأت في الأصل منه. بل إنه لا يتكون إلا منها. فالميلاد المذكور هنا ليس غريباً فقط لوجود والد للوالدين، أو لأن الأمر يرتبط بكتل كثيرة، لكن لأن هذه تتطور ليُولد شيء آخر مختلف تماماً. فبعد أن شبع كارورا، والد الـ"أوبسوم"، يحل الليل ليواصل هو نعاسه ومن تحت إبطيه يخرج خشبٌ رنان متخذاً هيئة إنسان لينمو في ليلةٍ واحدة ويصير صبيّاً، ويشعر كارورا بشيءٍ ثقيل فوق ذراعه فيصحو وقد رقد بجواره ابنه البكر. وفي الليلة التالية يُولد له ابنان آخران من تحت إبطيه. واستمرت الحال على هذا المنوال ليالٍ كثيرة. وفي كل مرة يزداد عدد هؤلاء. فذات ليلة أنجب الأب خمسين ابناً. وهذا الحدث كله نستطيع - في أضيق حدود الكلمة- أن نطلق عليه تناسل كارورا الذاتى. كما يحدث شيء مماثل في الأسطورة الثانية. فكان الرجل العجوز لا يزال نائماً متوسداً ذراعه اليمنى، وذات ليلة يسقط فجأةً شيء من تحت إبطه الأيمن كان له هيئة اليرقات، وقد سقط على الأرض واتخذ هيئةً إنسانية ونما بسرعة، وعندما حل الصباح فتح الرجل العجوز عينيه ليدّش لرؤية ابنه البكر. وتكرر الحدث نفسه ليُولد كذلك عددٌ كبير من رجال اليرقات. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الرجال يتحولون حسب هواهم إلى نوعٍ بعينه من اليرقات، ثم يستطيعون العودة إلى هيئتهم البشرية مرةً أخرى.

هكذا يدور الأمر إذن في كلتا الأسطورتين حول التناسل الذاتى. وفي كليهما يرتبط الأمر بمولدٍ مزدوج فينشأ نوعان مختلفان من المخلوقات من جدٍ واحد، فوالد الـ"أوبسوم" ينجب في البداية عدداً كبيراً من الـ"أوبسوم"، ثم عدداً كبيراً من البشر، وهم ينشأون بطريقةٍ واحدة، ويكون عليهم أن يعتبروا بعضهم البعض أقرب الأقرباء، لأنهم من أبٍ واحد، وهم يطلقون على أنفسهم الاسم نفسه:

الخوارق، وهو يعنى - مثل اسم الطوطم - أن كل إنسان ينتمى لهؤلاء هو أخٌ أصغر لحيوانات الـ"أوبسوم" التى وُلدت أولاً. والأمر نفسه يسرى بدقة على جد اليرقات الذى يعتبر على كل حالٍ والد هذه اليرقات وكذلك أباً للبشر. والبشر هم الأخوة الأصغر لليرقات. وكلهم مجتمعون، هم التجسيد المرئى للخصوبة. إن "شترلو" الذى يجب أن نمتن له كثيراً على تدوينه هذه الأساطير كان قد عثر على تعبيرٍ موفق. فقال إن "الجد"، يمثل مجموع الروح الحية⁽¹²⁷⁾ ليرقات آكلة الخشب، الحيوانى منها والإنسانى على حدٍ سواء، باعتبارها كياناً واحداً. وإن جاز التعبير، فإن كل خليةٍ فى جسد الجد الأول تكون حيواناً حياً أو كائناً إنسانياً حياً. فإذا كان جد اليرقات رجلاً، كانت كل خليةٍ فى جسده يمكن أن تصير يرقةً حية قائمة بذاتها أو إنساناً حياً قائماً بذاته منتمياً لطوطم اليرقات.

إن عنصر الطوطم المزدوج هذا يتبدى واضحاً على نحوٍ خاص، حتى إن الأبناء الشرين يشعرون أحياناً بالرغبة فى العودة مرةً أخرى إلى يرقاتٍ فيلقون تعويذةً سحرية ويتحولون إلى يرقات، ومن هناك يستطيعون العودة للظهور ثانية ليتخذوا حسب رغبتهم هيئة البشر. وتبقى الهيئات المستقلة واضحة تماماً فهى أما يرقات أو بشر. إلا أن كلاهما يستطيع أن يتحول إلى الآخر. وطبيعة الطوطم هى التى جعلت هذا التحول المعين فى إطارها المحدود حتى لا يوجد غيرها فى النهاية. فالجد الذى أنتجهم ليس له علاقةٌ إلا بهذين النوعين من المخلوقات وليس غيرها، فهو يمثل صلة قرابتهم الموغلة فى القدم مستبعداً كل ما غيرها مما يمكن أن يكون موجوداً فى الدنيا. ويشعر أبنائهم برغبتهم فى اتخاذ هذه الهيئة تارةً أو تلك الهيئة تارةً أخرى. ومن خلال تعويذةٍ سحرية يكون بوسعهم تلبية هذه الرغبة، ويمارسون هذا التحول الذى ولدوا به. وليس بوسعنا التأكيد على أهمية معنى هذه الهيئة المزدوجة للطوطم بما يكفى. أما التحول نفسه، أى هذا التحول بعينه تحديداً فقد ترسخ فى هيئة الطوطم ليُورث إلى الجيل التالى، ويُقدّم الطوطم فى إطارٍ درامى فى أثناء أداء الشعائر المهمة التى تخدم تكاثر الطوطم. وهذا يعنى أيضاً دوام تمثيل التحول، الذى هو يجسد الطوطم. أما رغبة اليرقات فى التحول إلى بشرٍ ورغبة البشر فى التحول إلى يرقاتٍ فهى رغبةٌ ورثتها الأجداد لأبناء عائلة الطوطم الذين يعتبرون أن مهمتهم المقدسة قد أذعنّت لهذه الرغبة فى طقوسهم الدرامية. ونجاح طقس التكاثر يتطلب الالتزام بعرض هذا التحول المحدد بصورةٍ صحيحة وعلى المنوال نفسه دائماً. وكل مشاركٍ يعرف زميله أو

من يقوم بتمثيله عند تقديم أحداثٍ من حياة اليرقات وهو يتخذ أسماءهم كما يكون بوسعه التحول إلى واحدٍ منها. وما دام اتخذ أسماءهم فإنه سيمارس التحول الأقدم. فهؤلاء يمثلون له أهميةً هائلة فتكاثر اليرقات يتوقف على ذلك وكذلك تكاثره هو أيضًا لأنه لا يمكن فصل هذا عن ذلك. والتمسك بهذا التحول هو الذى يحدد مناخى حياة عائلته كافة. وتنطوى هذه الأساطير على عنصرٍ آخر مهم للغاية يرتبط بذلك، وهو ما أسميه "التهام الذات" فنجد والد الـ"أوبسوم" وأبناءه يتغذون على الـ"أوبسوم"، وأبناء جد اليرقات يتغذون على اليرقات، وهكذا يبدو الأمر كأنه لا يوجد غذاءً آخر أو على الأقل أنه ليس هناك ما يجذب اهتمامهم غير ذلك. وعملية تناول الغذاء يحددها التحول مسبقًا، ومسار كليهما واحدٌ، فهما ينهاران تمامًا. فمن منظور الجد يكون الأمر كأنه يتغذى على نفسه. ولنتأمل هذه العملية على نحوٍ أكثر دقة، فبعد أن أنجب كارورا الجد الـ"أوبسوم" وأشرق الشمس خرج من القشرة أعلاه ونهض، وشعر بالجوع ودفعه الجوع ليتحسس ما حوله وهو شبه غائبٍ عن الوعي، ولقد كانت هذه هى اللحظة التى شعر فيها بكتلة الـ"أوبسوم" الحية حوله فى كل مكانٍ، ليقف حينئذٍ على قدميه على نحوٍ أكثر ثباتًا، فيفكر أنه يشعر بالنهم ليدفعه جوعه العظيم إلى الإمساك باثنين من صغار الـ"أوبسوم" ويقوم بطهيهما على مسافةٍ بعيدةٍ بعض الشيء، حيث تسطع الشمس على الأرض التى رفعت الشمس حرارتها إلى حد التوهج. ثم بعد أن شبع، وليس قبل ذلك، تتجه أفكاره نحو رفيقٍ يمكن أن يساعده. أما حيوانات الـ"أوبسوم" التى شعر بها ككتلةٍ حوله فقد خرجت منه، أجزاء من جسده، لحمًا من لحمه، فيدفعه جوعه إلى أن يشعر بها كغذاءٍ له، فيمسك باثنين صغيرين منها، ويقوم بطهيهما ليكون الأمر كأنه تغذى على اثنين من صغار أبنائه. فى الليلة التالية ينجب ابنه (البشري) البكر. وفى الصباح ينفحه الحياة من خلال ذاك الهتاف العالى المدوى لينهضه على قدميه، ويؤديان معًا إحدى الشعائر التى ترسخ علاقتهما كأبٍ وابن. وبعد ذلك مباشرةً يرسله الأب ليقتل مزيدًا من حيوانات الـ"أوبسوم"، وهى ليست سوى أبنائه الذين يلعبون فى أمانٍ فى الظل على مقربةٍ منه. ليعيد الابن ما قتله إلى الأب ليقوم هذا بطهيها فى الشمس كما فعل فى اليوم السابق ويقتسم اللحم مع ابنه. ويكون ما يأكله الابن حينذاك هو لحم إخوته الذى هو فى الواقع لحم أبيه. وكان الأب هو نفسه الذى مرنه على قتلها وعلمه كيفية طهيها. إنه الغذاء الأول للابن كما كان أول

غذاءٍ للأب كذلك. كما لم يُذكَر في الأسطورة كلها أى غذاءٍ آخر. وفي الليل يُرزق كارورا بولدين بشريين جديدين. وفي الصباح يُمتَحَن الحياة ليرُسل الثلاثة جميعًا لصيد الـ"أوبسوم"، ليعودوا بالغنيمة ويقوم الأب بطهى اللحم ويقتسمه معهم. ويزداد عدد الأبناء فيولد كل ليلة عددٌ أكبر من الأبناء البشر وفي ليلةٍ واحدة وُلد خمسون دفعةً واحدة ليرُسلوا جميعًا إلى الصيد. إلا أنه في أثناء ازدياد عدد الأبناء البشريين باستمرار كان كارورا قد توقف عن إنجاب أى "أوبسوم". وكانت هذه قد نشأت فجأةً في البداية وفي النهاية كان قد تم التهامها جميعًا، فقد أكلها جميعًا الأب وأبناءؤه معًا، فصاروا بعد ذلك جوعى، ليرسل الأب الأبناء إلى حملة صيدٍ لثلاثة أيامٍ في مكانٍ بعيد، ويثابر هؤلاء في البحث عن الـ"أوبسوم" إلا أنهم لم يجدوا أيًا منها. وفي طريق عودتهم يصيرون كائنًا ما بجرحٍ في ساقه اعتقدوا أنه حيوانٌ، وفجأةً يسمعونهُ ينشد: "إني إنسانٌ مثلكم، إني لست أوبسوم"، ثم ابتعد وهو يعرج. أما الإخوة الذين ازداد عددهم حينذاك فيعودون إلى أبيهم لتنتهى مهمة الصيد. هكذا كان للأب إذن في البداية غذاءٌ محدد لنفسه ولأبنائه الذين ولدوا فيما بعد، أى الـ"أوبسوم". وقد كان ذلك فصلًا وحيدًا لم يتكرر في الأسطورة. ثم وُلد شيئًا فشيئًا كل الأبناء البشريين ليلتهموا مع أبيهم هذا الغذاء حتى لم يتبق منه شيء، وهو لم يعلمهم شيئًا آخر ولم يدلهم على شيء آخر، ليتولد الانطباع أنه شاء أن يتغذوا على جسده هو، أى تلك الحيوانات الخارقة التى انبثقت منه. وعلى النحو الذى تم به التغاضى عن كل شيءٍ عزل نفسه وأبنائه، وهو أمر بدا كالشعور بالغيرة. فلم يظهر أى كائنٍ آخر في الأسطورة، إلا هذا المخلوق الذى جُرحت ساقه، الذى ظهر في النهاية فقط، وهو إنسانٌ مثلهم لم يكن سوى جدٍ أكبر، وهو من اتجهوا إليه كذلك في نهاية الأسطورة.

في الأسطورة الأخرى التى تدور حول والد اليرقات كانت العلاقة بين الأبناء والغذاء متماثلةً إلا أنها لم تكن هى نفسها. فالابن البكر سقط كيرقةٍ من تجويف إبط الأب، وما إن لمس الأرض حتى اتخذ هيئةً بشرية ولم يحرك الأب ساكنًا فقد رقد بلا حراكٍ ولم يطلب شيئًا من الابن ولم يعلمه شيئًا. وقد وُلد كثيرًا من الأبناء على المنوال نفسه وكان كل ما فعله (الأب) هو أن فتح عينيه ليتأمل أبنائه وقد امتنع عن قبول أى غذاءٍ منهم، إلا أنهم انشغلوا بحماسٍ بالبحث عن يرقاتٍ في الجذور بجوار الدغل، ثم قاموا بشيئها ليأكلوا منها. لكن العجيب أنهم كانوا أحيانًا يشعرون بالرغبة في التحول إلى النوع نفسه من اليرقات،

وعندما حدث ذلك مضوا هم أنفسهم عائدين إلى الجذور بالأدغال ليعيشوا هناك كيرقات. وسرعان ما صاروا بشرًا لا يأكلون سوى اليرقات وليس أى غذاءٍ آخر. وهنا كان التهام الذات من جانب واحد فقط، أى من جانب من الأبناء، فقد امتنع الرجل العجوز عن أكل اليرقات فقد شعر أبوهم أنهم ليسوا سوى لحمه هو نفسه، إلا أن الأمر، أى أكل الذات، كان أكثر يسرًا للأبناء، فتولد لدينا الانطباع بأن التحول والغذاء يتلازمان على نحوٍ وثيق. فبدا كأن رغبتهم تدفعهم إلى أن يصيروا يرقات ليقبلوا على التهامها، فمضوا ينقبون عنها ويقومون بشيها ويلتهمونها ثم يصيرون هم أنفسهم يرقات. وبعد قليل من الوقت يدبون على السطح ليتخذوا ثانيةً هيئةً بشرية، فإذا ما قاموا الآن بالتهام يرقاتٍ، يكون ذلك كأنهم يلتهمون أنفسهم، وإضافة إلى حالتى التهام الفئران وأبناء اليرقات، تتضمن حالةً ثالثة تظهر فى أسطورةٍ ثالثة قام "شترلو" بتلخيصها تلخيصًا مقتضبًا للغاية، وهى قصة جدٍ آخر لليرقات وهو من "مبورينجكا"⁽¹²⁸⁾ الذى كان يخرج بانتظام لقتل رجال اليرقات الذين هم أبناؤه هو. وقد ذُكروا -حرفيًا- بأنهم على هيئةٍ إنسانية. وكان يقوم بشيهم ليأكلهم بشهية، وكان يجد للحمهم مذاقًا طيبًا. وذات يوم تحول لحمهم فى أحشائه إلى يرقاتٍ، فصار هؤلاء يأكلون أباهم من الداخل، وهكذا يتم التهامه فى النهاية من قبل أبنائه الذين ذبحهم هو بنفسه. إن هذه حالة من التهام الذات تفضى على هذا النحو إلى تصاعدٍ عجيب، فالمأكول يعود ليأكل، فالأب يأكل أبنائه وهؤلاء الأبناء يأكلونه فى أثناء ما يقوم هو بهضمهم. إنه "أكل لحوم البشر" مزدوجٌ ومتبادل. إلا أن العجيب أن يأتى الرد من الداخل، من أحشاء الأب. وبذلك يكون ممكنًا أن يصبح تحول الأبناء المأكولين ضروريًا فهو يأكلهم كبشر وهم يأكلونه كيرقات أو ديدان. وهذه حالة متطرفة وكاملة خاصة. وقد دخل أكل لحوم البشر مع التحول فى وحدةٍ وثيقة، ويظل الغذاء حيًا حتى النهاية ويسعد بأكل نفسه. إن تحول الأبناء إلى يرقاتٍ فى معدة الأب هو نوعٌ من إعادة الحياة، إلا أن ذلك يخدم اشتهاى لحم الأب. إن التحولات التى تربط الإنسان مع الحيوان التى تأكلها مثل سلسلة حلقة قوية فمن دون أن يتحول هو إلى حيوانٍ لم يكن ليتعلم أبدًا أكلها. إن كلاً من هذه الأساطير تنطوى على تجربةٍ أساسية، هى: الحصول على نوعٍ محدد من الحيوانات التى تستخدم كغذاء، لتؤكل، وما يتبقى منها يصير إلى حياة جديدة من خلال التحول.

فذكرى كيفية حصول المرء على غذائه، أى تحديداً من خلال التحول، احتفظ بها "التناول المقدس" فيما بعد. فاللحم الذى نأكله معاً ليس هذا الذى نتصوره، فهو موجودٌ من أجل لحمٍ آخر ويتحول إلى هذا اللحم ليتم التهامه. ومن المهم أن نلاحظ أن التهام الذات الذى نتحدث عنه هنا هو أمرٌ معتاد في أساطير الأولين وليس في حياتهم اليومية. أما علاقة أعضاء أسرة الطوطم الحقيقية فهى علاقةٌ مختلفةٌ تماماً، فأعضاء الأسرة تحديداً لا يتغذون على طوطمهم، فقد حُرِّم عليهم قتل أو أكل هذا الحيوان، ويكون عليهم اعتباره أخاً أكبر لهم. فقط في أثناء الشعائر التى تخدم تكاثر الطوطم ويظهر خلالها أفراد العائلة في هيئة الأجداد فإنه يوزع عليهم على نحوٍ احتفالى القليل جداً من لحم الطوطم، ويقال لهم إنه لا يجوز لهم تناول سوى القليل من ذلك. وهم يتناولون ذلك كغذاءٍ ثابت لكن إذا وقع بين أيديهم فإنه لا يجوز لهم سفح دمه، فيسلمونه إلى أعضاء أسرةٍ أو جماعةٍ ينتمون إلى طوطمٍ آخر. أما هم فلا يجوز لهم أكله. وفي عصر لاحق على عصر أسطورية الأجداد، اتخذت الـ"أراندا" موقفاً، يعتبرونه قائماً حتى اليوم، فقد استُبدل بـ"أكل الذات" مبدأً آخر وهو "إيثار السلامة"، صار الناس لا يأكلون من حيواناتهم المقربة إلا القليل بقدر ما يأكلونه من بشر: انقضاء مرحلة أكل لحم الطوطم. أما المنتمون لأسرةٍ أخرى فإن المرء يسمح لهم بأكل حيواناته المقربة. على أن يسمح هؤلاء كذلك بأكل أقرب حيواناتهم. وهذا الأمر يتجاوز مسألة السماح، فالمرء يقوم من خلال ذلك بتوفير المدد عندما يحرص على تكاثر حيوانات طوطمه. وهو قد ورث طقوس التكاثر هذه وأؤمن عليها فصار واجباً عليه أن يمارسها. أما تلك الحيوانات التى تجاوز قنصها الحد المعقول فكانت تميل إلى الهجرة أو تنقرض.

وإذا ما تأملنا تلك اللحظة في الأسطورة الأولى عندما اختفت الحيوانات الخارقة من كل مكان، وكان عددٌ لا حصر له من أبناء كارورا يجدون في أثرها، وتحمسوا لاصطيادها في مهمةٍ استغرقت ثلاثة أيامٍ لكنهم لم يعثروا على أى أوبسوم، وفي لحظة الجوع تلك نجد أنه كان ضرورياً إنجاب أوبسوم جدد، إلا أن التهام الذات كان قد تجاوز الحد بعد التهام كل الإخوة الأكبر الأبناء البكر لكارورا. وكان من المهم حينذاك أن ينقلب التهام الذات إلى تكاثرٍ ذاتى مرةً أخرى، وهو ما بدأ به كل شئ.

إن هذا الانقلاب تحديداً هو ما يراه المرء في الطقوس الحالية على أنه تكاثر حيوانات الطوطم. فهناك علاقة قربي وثيقة للمرء بحيوان الطوطم الخاص به حتى إنه لا يمكن بالفعل الفصل بين تكاثر الحيوان وتناسله الشخصى. وهناك جزء أساسي يتكرر دائماً في الطقوس، هو تمثيل الأجداد، الذين كانوا كليهما، أى إنساناً مرةً، ومرةً أخرى هذا الحيوان المحدد، فهم يتحولون كما يشاءون من أحدهم إلى الآخر ولا يمكن المرء تمثيلهم إلا إذا كان يتقن هذا التحول، فيظهر الأجداد كشخصٍ مزودجة كما ذُكر سابقاً. فالتحول هو الجزء الأساسي لهذا العرض الذى ما دام قُدم على نحوٍ سليم فإن صلة القرابة تظل قائمةً، فيستطيع المرء إرغام الحيوان، الذى هو الشخص نفسه، على التكاثر بهذا الأسلوب.

الكتلة والتحول في موسيقى المعادن لفرقة ديليريوم تريمنس

إن إمكانية دراسة الكتلة توفرها لنا هلاوس مدمنى الشراب كما تبدى في التصورات الفردية. ومن المؤكد أن الأمر هنا سيدور حول أعراض التسمم المعرض له الجميع. فالسمات العامة المميّزة لهذه الأعراض لا يمكن إنكارها، فمهما اختلفت أعراق الناس وطبائعهم فإنهم يشتركون في أثناء حالات الهلوسة في ملامح أساسية ومحددة، تصل في حالة الهلوسة الارتعاشية إلى أعلى درجات التراكم والكثافة. وتأمل هذه الحالة يكون مثمرًا في اتجاه من شقين، ففي حالة المهلوس تتداخل أحداث الكتلة و"التحول" على نحوٍ خاصٍ بها، وصعوبة الفصل بينهما في هذه الحالة تفوق صعوبة أية حالةٍ أخرى. فمن خلال المهلوس نستطيع التعرف على كلٍ من التحول والكتلة بنفس القدر. ويظل المرء، بعد محاولات تفكيرٍ عديدة، على اقتناعه بأنه كان من الأفضل ألا يفصل بينهما على الإطلاق أو بأقل قدرٍ ممكن. ومن أجل إعطاء مفهومٍ عن طبيعة هذه الهلاوس فإنه ينبغي أولاً استعراض وصف "كرابلين" ثم وصف "بلويلر"⁽¹²⁹⁾. فأسلوبهما في الاستقراء ليس واحدًا، لكن ما يتفق الاثنان عليه يمنح هدفنا قوة استدلالٍ أكبر. فأما كرابلين فيقول: "من بين ألوان خداع الهلاوس تكون الهلاوس البصرية هي

الغالبية عادةً. فصور الخداع تكون غالبًا على جانبٍ كبيرٍ من الوضوح الحى، ونادرًا ما يشوب فحواها الغموض وعدم التحديد والتشويش المتعدد وغير المريح. وينظر إليها المرضى تارةً على أنها حقيقةٌ وتارةً على أنها مصباحٌ سحرى تُسرّى عنهم أو تفرعهم. فهم يرون فى مراتٍ عديدة عددًا كبيرًا من موادٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ وغبارًا وشرائطٍ جليدٍ وقطعٍ نقودٍ وكؤوسٍ عرقى وزجاجاتٍ وعيدانًا. وغالبًا ما تُظهر الصور البصرية حركاتٍ حيويةٍ إلى حدٍّ ما... وقد لوحظ فى ذلك "الرؤية - المزدوجة". وقد يتضح من صور الخداع هذه التكرار الغالب لرؤية حيواناتٍ متسللةٍ تَمُرُّ بسرعة، وهى تنفذ ما بين الساقين وتُز في الهواء، وتغطى الطعام، ويزدحم كل شىء بعناكب "بأجنحةٍ ذهبية"، وصراصيرٍ وبقٍ وثعابينٍ وديدانٍ بأذنانٍ طويلةٍ وفئرانٍ كبيرةٍ وكلابٍ وحيواناتٍ مفترسة... ويهاجم المرضى جماعاتٌ كبيرةٌ من البشر، ومن الفرسان المعادين، أو رجالٍ شرطةٍ متغطرسين، أو تمر بهم قوافلٍ طويلةٍ مغامرة، أو أفرادًا من مخلوقاتٍ سحريةٍ تنذر بالخطر، وأجنّةٍ مشوهة، ورجالٍ صغارٍ وشياطينٍ ومشاعبينٍ وأشباحٍ تدس وجهها بين الأبواب وتتسلل بين قطع الأثاث وتصعد فوق السلام المتنقلة، أما الأكثر ندرّةً فهو الفتيات المزدنات الضاحكات، أو الأحداث الخليفة، ونوادير ليالى الصوم، والعروض المسرحية..."

ومن خلال أحاسيس غريبةٍ مختلفةٍ بالبشرة تنشأ لدى المريض فكرة أن هناك نملًا وسلاحفٍ وعناكبٍ تدب فوق البشرة كلها، ويشعر المريض أنه قُيدَ بخيوطٍ دقيقة، وأن ماءً يُصَبُّ فوقه، ويشعر بالعض والوخز... وأنه يُرمى بالرصاص. ويقوم بجمع أموالٍ يراها أحاطت به بكمياتٍ وفيرة، ويشعر بها بوضوح فى يده إلا أنها تتسرب كالزئبق. فما يلمسه يتلاشى أو ينكمش، أو ينمو على نحوٍ هائل، ليتفتت ثانيةً أو يتدحرج بعيدًا، أو يتسرب... أما عقد النسيج الصغيرة غير المنتظمة فتتبدى كبراغيث فى فراش السرير، كما تبدو خدوش سطح المائدة مثل الإبر، وتنتفح فى الجدران أبوابٌ سرية. ويفقد المريض السيطرة على نفسه، فلا يقوم بنشاطٍ منتظم، بعد أن سيطرت الصور الخادعة عليه سيطرةً تامةً مطردة. ونادرًا ما يدع مثل هذا يمر من دون أكتراث، فغالبًا ما يدفعه ذلك إلى تعليقاتٍ ساخنة، وهو لا يَمُكث فى الفراش فيقتحم الباب ليخرج لأن موعد إعدامه قد حان والجميع ينتظرونه بالفعل. كما يجفل من الحيوانات العجيبة، من الطيور التى تُز، محاولًا إبعاد الديدان وسحق الصراصير حتى الموت ويبحث بأصابعٍ منفرجة

عن البراغيث ويجمع الأموال المتناثرة حوله في كل مكان، محاولاً تمزيق الخيوط التي نُسجت حوله، ويقفز بجهد جهيد إلى موضع آخر.

يقول كرابلين في إيجاز: "من الجدير بالملاحظة على حالة المصاب بهذيان الشراب هو كثافة الرؤى الخادعة وحركتها الحيوية، وظهورها وتلاشيها وتسربها". واستعراض بلويلر للهذيان لا يقل إثارة: "في المقام الأول تتخذ الهلاوس صبغة شخصية مميزة تمامًا، وهي تتبدى في المقام الأول لحاستي البصر واللمس. والرؤى تكون متنوعة ومتحركة وغالبًا بلا لون وهي تنزع كلها إلى الحجم الصغير. ولكل من هلاوس اللمس والبصر غالبًا هيئة الأسلاك والخيوط وأشعة الماء وأشياء أخرى تتميز بامتداد الطول. أما الرؤى الأساسية مثل الومضات والظلال فكثيرة. وأما الموسيقى التي يسمعها المريض فتكون ذات إيقاع يغلب عليه الحدة، وهو ما يحدث نادرًا جدًا للمرضى النفسيين الآخرين. وفي أثناء مسار المرض كله يستطيع المصابون بالهذيان إقامة علاقة مع مئات من المهلوسين، المصابين جميعًا بالكم...".

"أما الأشياء الصغيرة المتحركة والمتضاعفة فيمثلها في الواقع عادةً حيوانات صغيرة مثل الفئران والحشرات. ومثل هذه تظهر في أغلب نوبات هلاوس مدمنى الشراب، لكن عادةً ما تكون رؤى الحيوانات المختلفة أمرًا غير نادر. فالخنازير والخيول والأسود والجمال يمكن أن تظهر مصغرةً أو بحجمها الطبيعي، وأحيانًا ما تظهر حيوانات لا وجود لها مطلقًا، بل تظهر في مزيج خيالي. وما لفت انتباهي غالبًا كان وصفًا لموكب حيواناتٍ مختلفة على شاشة وهمية مثبتة على الجدار، ومنها حيوانات بحجمها المعتاد، كما سمعت وصفًا لحيوانات مصغرة في حجم القطط تقريبًا، وهو ما يسرى عن المرضى تسريّة عظيمة للغاية. كما كان البشر يدون بأحجام مصغرة جدًا ويمكن أن يظهرُوا أيضًا في حجمهم الطبيعي".

"ومن اليسير أن تتداخل هلاوس الحواس المختلفة. فالفئران والحشرات لا يمكن رؤيتها فحسب بل ولمسها أيضًا عندما يمسك بها المريض أو يشعر بها تدب على بشرته. أما المال فيتم جمعه ليودع في (حقيبة هلاوس). والمريض يرى جنودًا مارين به ويسمع عزف المارش، وهو يرى ويسمع إطلاق النار عليه ويدخل في عراقٍ عنيف بالأيدي مع مهاجمي الهلوسة، فيسمعهم وهم يتحدثون - ونادرًا - ما يلمسهم".

فإذا ما هدا المصاب بالهذيان خفتت الهلاوس شيئاً فشيئاً وتضاءلت. إلا أنها غالباً ما تفقد أولاً قيمتها الواقعية، فالطيور لم تعد حية بل محنطة، وتدور المناظر على نحوٍ منفصل لتكون في النهاية بصريةً فقط كأنها تعرض على الحائط من خلال فانوس سحري، فالسينما معروفة لدى المصابين بالهذيان منذ القدم. "أما عن وضعهم الشخصي، فهم جميعاً، كمصابي هذيان مجردين، يدركون من هم وما هو الموقف الذي هم مقبلون عليه في الحياة، ويعرفون أسرهم التي ينتمون إليها، وأين يسكنون".

إن استعراض هذه الحالات هو ملخصٌ لحالاتٍ كثيرةٍ لمراقبين فرادى. أما النقطة الأولى التي نود إبرازها فهي الصلة بين الهلوسة الحركية والبصرية، فحكة وقشعريرة البشرة يشعر بهما المريض كأن مصدرهما هو كثيرٌ من المخلوقات الصغيرة معاً. والتفسير النفسي قد لا يهمنا هنا. فجوهر الأمر أن الشخص الثمل يفكر في الحشرات، كالنمل على سبيل المثال، ويتصور أن بشرته هوجمت بآلاف من هذه الحشرات الصغيرة التي تغطي بشرته بجيوش ضخمة. ولما كان يشعر بحركتها على جسده فإنه يميل إلى افتراض وجودها في كل مكان، فحيثما مد يده تكون هناك، فيشعر بها على الأرض عند قدميه، ويكون الهواء حوله كذلك مليئاً بها، وهي تبدو كثيرةً من خلال لمسه لها وشعور كتلة البشرة هذه - كما نود تسميتها - ليس معروفاً لدينا من خلال الهذيان فقط، فقد عايش كل منا بنفسه شعوراً مرتبطاً بالحشرات أو بالدغدغة. وهو ما يعتبر بمثابة عقوبة تقليدية لأنواعٍ بعينها من المجرمين لدى بعض الشعوب الإفريقية. فيتم دفن البشر أحياء عرايا في تلي من النمل ويتركون هناك حتى يموتوا، وكذلك في حالة الهذيان يمكن أن يتصاعد هذا الشعور إلى أحاسيس قوية، أقوى من مجرد القشعريرة. فإذا ما تفاقم أثر الهجوم على البشرة وامتد إلى مناطق متفرقة أكثر اتساعاً ونفذ إلى مدى أعماق فإن القشعريرة تتصاعد لتسير شعوراً بالقرص. ويبدو الأمر كأن أسناناً صغيرة قد نشبت في جلد أحدهم بعد أن صارت الحشرات حيواناتٍ قارضة. وليس من نافلة القول أن يذكر مدمنو الشراب دائماً الفئران والفئران البرية. فسرعة حركتها تتوحد مع النوع والنشاط المعروفين عن أسنانها، ويضاف خصوبتها إلى ذلك، فالناس يعرفون أعدادها الغفيرة التي تظهر بها. أما أكثر ما يصيب مهلوس الكوكايين فهي هلاوس الحركة التي تتركز في البشرة والتي يسعى المريض للخلاص منها. أما خداع الرؤية فيصير غالباً إلى صور مجهرية.

فهناك تفاصيل صغيرة بلا حصر يراها المهلوس كأنها حقيقة، كحيوانات صغيرة وثقوب في الجدار ونقاط صغيرة. وقد جاء في تقريرٍ عن مدمن للكوكايين أنه رأى "قططًا وفئران وفئرانًا برية كانت تتقافز في أنحاء الزنزانة وتقرض ساقيه، حتى إنه صار يقفز هنا وهناك صارخًا بأنه يشعر بأسنانها. لقد كان ذلك حالة روحانية فقد جاء خرجت من خلال الجدار بطريقة مغناطيسية". ويمكننا افتراض أن القطط في مثل هذه الحالات تشعر بأن الفئران أو الفئران البرية قد جذبتها لتستغلها في الاسراع بحركتها. هكذا يكون شعور البشرية الجماعى هو ما يحتل المقام الأول، الذى يبدو أنه المثير لبعض الهلوس البصرية. أما النقطة الثانية، التى ربما ترتبط بالنقطة الأولى، فهى الميل إلى الأحجام المصغرة. فالمرء لا يشعر، أو يدرك فقط ما هو صغير بالفعل، كما يسود فقط كل ما هو معروف بأنه صغير. بل إن الكبير يتصاغر كذلك حتى يجد لنفسه مكانًا في هذا العالم. فالمرء يرى الرجال أقزامًا والحيوانات الضخمة تتخذ حجم القطط، فيصير الكل "كثيرًا" ويصير الكل "صغيرًا". أما المصاب نفسه فيحتفظ بحجمه الطبيعى فهو يعرف، حتى وهو في خضم الهذيان، من وما هو على وجه الدقة. فهو نفسه بقى كما هو، ولم يتغير على نحو متطرف سوى العالم المحيط به. وأما الحركة الهائلة التى وجد نفسه فيها فجأةً فهى عبارة عن حركة جماعية مكثفة لكائنات صغيرة تبدو الأغلبية العظمى منها حية. فعلى كل وجهٍ يزداد نشاط الحياة حوله، لكنها تلامسه كأنه عملاق. وهذا على وجه الدقة هو أثر التقزم، لكن لم يكن هناك سوى استثناء واحد هو "جليفر"، الذى لم يكبر حجمه، قد وضع في عالمٍ أكثر كثافةً وأكثر امتلاءً، بل أيضًا أكثر مرونة. وهذه العلاقات المتغيرة ليست على هذا القدر من العجب كما تبدو لأول وهلة. ولنتذكر هذا الكم الكبير من خلايا صغيرة تكون جسد الإنسان. إنها خلايا كثيرةٌ بينها علاقة متصلة ويهاجمها جراثيم ومخلوقاتٌ أخرى صغيرة تستوطنها بكثافة. وهذه الجراثيم حية نشطة دائمًا على طريقتها. ولا يمكننا إغفال شبهة أن هناك شعورًا غامضًا نحو هذه الصلات البدائية بالجسد التى تتجلى في هلاوس مدمنى الشراب. وهى تنفصل في أثناء الهذيان عن محيطها إلى حدٍّ بعيد، مستقلةً بذاتها تمامًا، وتمتلئ بأكثر الحوادث المثيرة الخارقة. والمشاعر الجسدية المستقلة معروفة تمامًا عن أمراض أخرى. والتوجه الملحّ للهذيان نحو ما هو واضح وصغير (الذى يمكن أن يصغر إلى

الحجم المجهرى فى رؤى هذيان الكوكابين)، ينطوى على شىء من تفكك الجسد فى خلاياه. أما الطابع السينمائى للهلاوس فيتم إبرازه كما رأينا.

أما هذه العلاقات، فهى علاقات وأحداث خاصة بجسد المدمن التى انتقل إليها عالم الصور المعتاد، الذى يراه مدمنو الشراب هنا، ويغلب بينها كل هذه التى على علاقة بكثافة بنية جسده. إلا أن أمر هنا لا يتعدى الظن. ولكن يقينًا لا بد من التذكير بأنه هناك تحولات فى مراحل معينة لا يمكن تجاهلها، حيث تكون الحياة الكاملة للإنسان "العملاق" والحاملة لكل صفاته وموروثه فى خلاياه هى التى تظهر على نحو جماعى، أى الحيوانات المنوية الصغيرة. ومهما كانت مصداقية هذا التفسير، فالحالة الأساسية للهذيان، هى حالة الفرد الكبير الذى يرى أمامه عددًا لا حصر له من المهاجمين الصغار، هى حالة زادت حدتها عبر تاريخ الإنسانية على نحو عظيم وهى تبدأ بالشعور الخاص نحو الحشرة، كانت ابتلاءً لكل الحيوانات الثديية. وسواء كان ذلك بعوضًا أو قملًا، أو جرادًا أو غملاً، فإن خيال الإنسان كان منشغلًا بها منذ القدم. وخطورتها تكمن فى حقيقة ظهورها فجأةً بأعدادٍ كثيفة. وقد صارت أنواعٌ عديدة منها رموزًا للكتلة. وأغلب الظن أنها كانت هى وحدها التى ساعدت الإنسان فى تكوين تصور عن الكتل الكبيرة. فرمما كانت الحشرات هى أول ما عرفه عن عدد الملايين والالآف. أما سلطة الإنسان وتصوره عن نفسه فقد بلغت حد العملاقة عندما رأى الجراثيم. كما ضاعف هذا الاكتشاف من هوة التناقض على نحو لا مثيل له. إلا أن الإنسان آمن بنفسه على نحو أعظم، فرأى نفسه كفرد، منفصلًا عن المخلوقات التى تعيش معه. وأما الجراثيم، التى كان تكاثرها سريعًا، فكانت أقل حجمًا من الحشرات، ولم يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وإن كان تكاثرها على نحو أسرع. وهناك وجد الإنسان نفسه أكبر حجمًا وأكثر عزلةً فى مواجهة كتلةٍ أخرى من مخلوقاتٍ صغيرة سريعة الحركة. وقد كان من الصعب تقدير أهمية تصوره هذا. وكان تشكيل هذا التصور أحد الأساطير المركزية فى تاريخ الفكر الإنسانى. وقد كان هذا هو النموذج الحقيقى لدينامكية السلطة. فكل ما كان يعترض طريقه أثر الإنسان النظر إليه كحشرة. وهكذا نظر إلى كل الحيوانات وتعامل معها، تلك الحيوانات التى كانت غير مفيدة له. لكن صاحب السلطة، الذى رد البشر إلى درجة الحيوانات التى تعلم كيف يسيطر عليها، لأنه رآها نوعًا أدنى، فإنه نزل بكل ما لا يخضع لسيادته إلى درجة الحشرة، وقام فى النهاية بالقضاء

عليها بالملايين. أما النقطة الثالثة المهمة في حالة هلاوس مدمنى الشراب فتتعلق بطبيعة تحولاتها. فهي تدور دائماً خارج المريض عندما يعايشها في الحقيقة، لأنها لا تحوله هو نفسه. وهو يؤثر رؤيتها عن بعدٍ ما. فإن لم تهدده ولم يتخذ موقف مواجهتها فإنه يستمتع بمرونتها وخفتها. إلا أنها تصل إلى درجة تقضى على ما تبقى من القدرة على التوجه، فعندما يتأرجح كل شيء حوله ولا يستقر فإنه يشعر بالطبع بالتوتر. والمرء يلحظ نوعين من التحول يحملان ماهيةً مختلفة تماماً. فالكتل تتحول إلى كتل أخرى، فيستطيع النمل أن يصير صراصير، والصراصير أن تتحول إلى قطع نقود، وعند جمع هذه النقود فإنها تتلاشى كقطرات من الزئبق. وسوف نعرف المزيد فيما بعد عن هذا الحدث الذى يصير عنده التعدد إلى تعدد آخر.

إن هذا النوع من التحول هو الذى يؤدي إلى مكونات مخنثة رهيبة، فيجتمع مخلوق مفرد مع آخر مفرد، لينشأ عن ذلك شيء جديد، كأنهما صُورا فوق بعضهما البعض. ففي مواكب الحيوانات العابرة المذكورة سابقاً تظهر أحياناً كذلك حيوانات ليس لها وجود على الإطلاق، وهى تظهر في "مزيج رائع": أجنة مشوهة، ومشاعبين، وهو ما يُذكر بتجارب أنطونيوس المقدس في الغابة الخضراء، أو تذكر بالمخلوقات التى غصت بها لوحات هيرونيموس بوش.

ومن أجل الوصول إلى صورة أكثر دقة، كان من الضروري معالجة حالة أو حالتين من حالات الهلوسة ذات الصلة. وهنا سوف يرى المرء حقاً من يتحول إلى ماذا، وربما يمكن تخمين كيفية وسبب حدوث ذلك. وسوف يساعد المسار الكامل لمهلوس كذلك في الحصول على رؤية أكثر عمقاً عن طبيعة أحداث الكتلة، خاصة في الحالة الثانية. أما الحالة الأولى فهي خاصةً بصاحب مطعم، وهى حالة عالجه كرابلين⁽¹³⁰⁾. وفيما يلي نقدم ملخصاً مقتضباً عن فحوى هلوسته التى استمرت ستة أيام تقريباً:

"فقد شعر الرجل كأن الشيطان يخالطه. فاتجه برأسه فجأة نحو عمودٍ من المرمز، وقد حاول تجنبه إلا أن عموداً ضخماً من المرمز اعترض طريقه، وهو ما حدث أيضاً عندما شاء الارتداد للخلف. فكان أن سقط كلا العمودين نحوه. فقام اثنان من الأشخاص بنقله على عربة إلى غرفة الحفظ، ووضعاه على فراش الموت. وكان قائد الطقوس يرسل نحو فمه أشعة حارة متوهجة من خلال مقص متوهج

حتى تلاشت قواه شيئاً فشيئاً. وتلبيةً لرجائه حصل على كأس من النبيذ الأحمر، لكن الشيطان نفسه رفض طلبه لكأس ثانية وهو يتسم بشمات، ثم قال بكل صيغ التحذير للملتفين حوله: وداعاً. واحتضر. وفي الوقت نفسه قام بوضع جثث بناته الثلاث بجواره. وهو يعاقب الآن في العالم الآخر على ما اقترفه على الأرض. فصار يشعر دائماً بعطشٍ شديد، وكلما مد يده نحو إبريقٍ أو كوب كانا يختفي من بين يديه. في اليوم التالي كان يرقد حياً مرة أخرى على محفة الموتى، في غرفة الحفظ وكان الأبناء كذلك في هيئة أرانب بيضاء. ونُظِّم موكب الكاثوليك الذي كان عليه المشاركة فيه. وفي أثناء الغناء الرتيب بالغرفة الجانبية، المعروفة بالتاج، كان عليه أن يبطاً نظارات ملقاة على الأرض، وفي كل مرة كان يسمع طلقاً نارياً. أما المشاركون في المواكب فكانوا يتناقشون عما إذا كان يشبع ضرباً أو يضرب حتى الموت. وقد كان مضيف غرفة التاج مع الخيار الأول بشرط أن يسكن لديه دائماً. إلا أنه شاء الخروج لأنه لم يحصل على بيرة. ثم جاء حارسٌ ليحرره، لكن المضيف أطلق عليه النار ليساق إلى السجن. وذات مساءً آخر كانت معمودية البروتستانت قد اجتمعت كلها في حفل بالكنيسة. وفي المركز كان عضوٌ من جمعية الطلاب، وهو من قدم، قبل الصلاة، نوعاً من عروض السيرك مع خمسين من زملائه على خيولٍ صغيرة. وفيما بعد لاحظ المريض أن زوجته انسحبت مع أحد أقاربها إلى كرسى كنسى، وعقب ذلك اختبأ مع أختٍ رحيمة خلف آلة الأرغن ليراقبا هذين وهما يندسان حرمة القداس. بعد ذلك رأى نفسه محبوباً بالكنيسة ليقوم الزجّاج في النهاية بنشر ثقب في نافذة الكنيسة، حتى يمكن إدخال البيرة، على الأقل، إلى هناك. فلما شاء ارتداء ملابسه وجد كل الأكمام والعري قد رُنِّقَت، كما نزعَت جيوبها. وفي الحمام رأى المريض نفسه محاطاً بسبعة أرانب تحوم حوله تحت الماء وكانت تقوم بقرضه ورشه بالماء".

أما المحيط الجديد الواقعي، الذي لم يعرف شيئاً عنه في أثناء الهذيان والذي اصطدم فيه برأسه، فكان قد صار من المرمر. وفي عالم المهلوس كان يؤثر الوجود بين كثيرين على أنه ضحيّتهم المختارة والمهدّدة. وعلى سرير الموتى في غرفة الحفظ كانت قوة حياته تسلب منه شيئاً فشيئاً. وقد كان ذلك كأنه عملية إعدام ممتدة كان يستغلها لجمع مشاهدين حوله، وأخذ يوجه إليهم نصائح دينية من أجل المحافظة على تماسكهم. وكان متعطشاً لكل الشهوات الفردية فقد عايش في العالم الآخر عقاب الحرمان من ذلك. أما بناته الثلاث اللاتي وضعن بجواره

كجثث فقد وجدتهن في اليوم التالي وقد عادت إليهن الحياة مثله، لكنهن كن قد اتخذن هيئة أرناب بيضاء. وهو ما يعنى براءتهن، ويعنى كذلك وخز ضميره حيالهن وهو وخز شعر به في قلبه كمدمن للشراب. وقد كان موكب الكاثوليك هو أول أحداث الكتلة. وقد أرغم على المشاركة فيه، ولكن من دون أن يندمج في الجمع، بل شاهده من خلال غرفة جانبية كانت توجد على أرضها نظارات ذهبية بلا حصر خصصت للعدد الغفير من المشاركين في الموكب. وكلما وطئ إحداها سمع طلقاً نارياً، وقد يكون ذلك كطلقات مدافع صغيرة من أجل زيادة بهجة الاحتفال. لكن في حالة غضبه العنيدة سعد بإحساسه أنه يقتل الكاثوليك رمياً بالرصاص. أما المشاركون في الموكب، الذين كشفوا أمره، فقد اتخذوا شكلاً من أشكال الاجتماع الذى يناقش مسألة عقابه. وكان هذا بمثابة تواصل حالة فراش الموتى. ولكن هذه المرة كان عدد أكبر من الناس اجتمعوا حوله ليحاكموه. ومن المفترض أنه كان هناك من يضرر شيئاً نحو الكاثوليك. وهو يكاد يحتقر معمودية البروتستانت التى سرعان ما اجتمعت عقب ذلك من أجل احتفالٍ ما، فقد ربط بينها وبين تصورٍ ما عن السيرك. وهنا يطرأ مثالٌ لافت على انتقال الكتلة إلى كتلةٍ أخرى. فقد تحولت المعمودية إلى سيرك. أما الطالب (عضو الجمعية)، الذى مثل العنصر الثقافى، فإنه شارك ما لا يقل عن خمسين من الزملاء. كما اتخذت الخيول، كما هو متوقع، أحجاماً أصغر، ومن الممكن أن يكون المريض سمع بضرب حوافرها. كما تعد مشاهدته لفاحشة زوجته تعبيراً واضحاً عن نزوع إلى المهلوس للتحويل إلى موقف المشاهد.

وقد بدت علاقته بهلبسه أمراً غريباً، فقد تحولت هى أيضاً، فقد تم رتق الأكمام والعرى كافة، كما تم نزع الجيوب، فصارت أشكالاً مشوهة، وهكذا تم تعطيل وظائفها. فصور ثياب متحولة في حالة الهذيان هو أمر ممكن تماماً، وهى لا تختلف عن تحولات الحيوانات كثيراً. وفي النهاية فقد كان للسبع أرنبات معاً أسنانٌ كثيرة جيدة وكانت تعمل على إزعاج بشرته.

أما الحالة الثانية التى أود استعراضها في سياق أكثر رحابة: فكانت حالة قام بلويلر بعلاجها⁽¹³¹⁾. فقد وصف مريض مصاب بالفصام تجاربه في أثناء إصابته بنوبة هذيان في ست وثلاثين صفحة. وقد يعترض البعض على أن مثال هذا المصاب ليس نموذجاً لذلك. لكن النقيض من ذلك هو ما يبدو لى، لأننا نتعرف

هنا على كثير من تحولات الكتل في حالة الهذيان. فمجال الهلاوس أكثر اتساعاً، وقد صارت التحولات أكثر هدوءاً، وصار لكل هذا سمة التعبير الأكثر تكثيفاً، حتى في المقتطفات الموجزة التالية يمكننا إدراك شيء من هذا القبيل.

"ما كان عليّ مشاهدته حينذاك جعل شعر رأسي يطال الجبال... فقد كان هناك غاباتٌ وأنهارٌ وبحارٌ اتخذت كل أشكال البشر والحيوانات المريعة التي لم تقع عليها عين إنسان حتى الآن، فقد كانت تنز بلا انقطاع، وكانت تتغير إلى ورشات لكل الحرف التي يعمل بها أشكال أرواح مريعة... أما الجدران على كلتا الناحيتين فلم تكن سوى بحر تمخر فيه آلاف السفن الصغيرة، وكان ركابها جميعاً عرايا، رجالاً ونساءً، يمارسون شهواتهم على إيقاع الموسيقى، وبعد إرضاء شهواتهم كان يقوم شخص كل مرة بطعن كل زوج منهم بسيخ طويل في ظهريهما، حتى إن البحر صار بلون الدم... إلا أنه كانت تأتي دائماً جماعات جديدة... وكان هناك قطار ركاب غادره كثير من الناس. ومن بين هؤلاء سمعت أصوات أبي وأختي (K). اللذين جاءا من أجل تحريرى. وقد سمعت حوارهما بوضوح. ثم سمعت أختي مرةً أخرى وهى تهمس لامرأة عجوز، فهتفتُ بها بكل ما أملك من قوة أن تخلصنى. فصاحت بأنها سوف تفعل ذلك. إلا أن المرأة العجوز لم تدع أختي تمضى محذرةً إياها بأنها سوف تسبب بذلك نكبة للبيت كله، أما أنا فلم يحدث لى شيء هنا... فصرت أنتظر موتى باكياً. وكان أن ساد هدوءٌ قاتل وحاصرتنى جماعاتٌ فى أشكال أرواح... وفى النهاية جاءت إحدى الأرواح وجعلت أمامى ساعتها على بعد مسافة بعينها بحيث أشارت لى بأن الساعة لم تصل إلى الثالثة بعد، فإنه لا يجوز الكلام لأية روح...".

"ثم دارت مساوماتٌ طويلة بين بين أقارب المريض الذين كانوا يبغون افتدائه، بدأت أولاً بمبالغ ضئيلة، ارتفعت قيمتها فيما بعد. وكانت هناك أصواتٌ أخرى تتشاور حول كيفية قتل المريض. ثم أغرى الأقارب بالصعود فوق سلام متنقلة ليتم إلقاؤهم فى مقابر القلعة حيث سمع صراخهم وأنفاسهم المحشرجة. وجاءت زوجة حارس السجن وأخذت تمزق جسده إرباً، بدءاً من لحمه حتى صدره، ثم قامت بشيها وأكلها. وقامت بنثر الملح على جراحه. وأخذ بعضهم يجذب المريض على صقالات ضخمة متأرجحة إلى السموات المختلفة حتى وصل إلى السماء الثامنة، ماراً بجوقة كانت تهتف باسمه. وفى نهاية المطاف نُقل إلى الأرض

ثانيةً من جراء خطأ ما. وكان هناك أناس جالسون يأكلون ويشربون أشياء ذات نكهة طيبة. ولكن عندما كان يقدم أحدهم له كأسًا كانت تتلاشى، فصار يعاني من عطشٍ شديد. عقب ذلك يضطر هو إلى أن يقوم بالعد والحساب بصوت عال لساعاتٍ طويلة. فيقدم إليه أحدهم مشروبًا سماويًا في زجاجةٍ صغيرة، فإذا ما شاء تلقّيتها إذا بها تتحطم ويتسرب محتواها من بين أصابعه كخيوط غراء. وفي النهاية تنشب بين معذبيه وبين أقاربه معركةٌ حامية لم ير منها شيئًا لكنه سمع وقع الضربات والأنين".

إن الغابات والأنهار والبحار معروفة لدينا كرموز كتل. إلا أنها عندما بدت قادرةً على التحول إلى رموز فإنها لم تنفصل تمامًا عن الكتل التي تمثلها غالبًا. فقد كانت ممثلةً بأشكال حيوانية وإنسانية مريعة لم تقع عليها عين إنسان قط. أما نشأة مخلوقات جديدة كمزيجٍ من مخلوقات قديمة بعددٍ كبير فكان ناتجًا عن فعل التحول. وهنا لم يندمج مريض الهذيان مرةً أخرى في التحول مطلقًا، وفي المقابل صار العالم أكثر نشاطًا في التغير والامتزاج. إلا أن كل هذه المخلوقات الجديدة تبدت له في الحال على نحوٍ كثيف. ومن الغريب أن الوحدات المألوفة لديه من الغابة والنهر والبحر التي نشأت فيها هذه الحياة على نحو طبيعي أن تتحول إلى "ورشات لكل الحرف". وهكذا يتساوى الإنتاج مع التحول، وهو مفهوم يتقاسمه بعض البدائيين مع هذا المصاب بالهذيان. فالحرف منفصلة تمامًا مثل المخلوقات المختلفة، لكن الذي ينتجونه يفضى أولاً إلى الوفرة، ليتولد الشعور بأنها موجودة بهدف تحقيق أشياء على نحو سريع. فالأمر يدور حول أفعال (قضايا) العمل كأمر مجرد وحول نتائجها، وهذه يتم تنفيذها من خلال تلك الأشكال المعقدة للأرواح. ثم تأتي الجدران ثانية كبحر وحيد، ملئ هذه المرة بآلاف السفن الصغيرة بدلاً من الأشكال الحيوانية والإنسانية، وبها رجال ونساء عرايا، أي أنهم متساوون حتى فيما يفرق بين نوعهم الجنسي من خلال عريهم، وهم متساوون كذلك في تبعيتهم لإيقاع الموسيقى. أما التكثيف الذي يدور الأمر حوله فهو تكثيف الزوج والتزاوج، فكزوجين يتم قتلها طعناً وقد سالت دماؤهما إلى البحر وصبغته باللون الأحمر. لكن كان تأتي مجموعات جديدة من الأزواج.

أما "قطار الركاب" الذى غادره كثيرون، فهو يحتاج إلى تفسيرٍ أكثر وضوحًا. ففى القطار يتصور المرء أناسًا كثيرين معًا على سفرٍ لمسافةٍ طويلةٍ فى اتجاهٍ ما، ورغم فصل جدران الدواوين بينهم، فإنهم فى ظروفٍ مغايرةٍ لا يُنْعَوْنَ عن التجمع مثلما يحدث فيما بعد فى المحطات. فهناك، حيثما وصلوا، يكونون قد بلغوا هدفهم الذى كان يجمع بينهم وإن كانوا قد جاءوا من مواضع مختلفةٍ تمامًا. وقبل لحظاتٍ من وصولهم، عندما شعروا باقتراب المحطة النهائية، فإنهم ينهضون، ويتزاحمون على الممر ويقفون حيال النوافذ. وهنا نلاحظ انفعالهم الجماعى البسيط، فهم يذهبون معًا، على نحوٍ ما خلال الهدف. فالحركة التى أقدموا عليها، عندما يغادرون، ليقطعوا آخر مراحل رحلتهم إلى المحطة المحايدة، تتجلى فى هدوء هذه الكتلة، أى جزء من مارش جماعى على رصيف المحطة. أما تأثر المنتظر على المحطة فيختلف عن تأثر المسافر، فالمنتظر رأى أناسًا كثيرين، لا يعرفهم، يتزاحمون على النوافذ والأبواب. فهو يحاول العثور على واحد أو اثنين من ذويه من بين هذه الوجوه الغريبة، أى هؤلاء الذين كان هو بانتظارهم. فالقطار الذى يغادره كثيرون يناسب تمامًا استقراء حالات الهذيان التى نعالجها هنا. ويضاف إلى ذلك أن تصور المرء لهذا الحدث يكون فى محطة كبيرة تجتمع فيها مسارات كثيرة.

أما كلمة "الموت" فتفضى فيما بعد إلى "هدوء قاتل". لكن بينما نفهم نحن من هذا المعنى هدوءًا عميقًا، فإن المريض يتصور الموتى وقد تخلصوا من الكلمة ليحيطوا به فى جماعاتٍ على هيئة أرواح. وفى طريقه إلى السموات، التى يُرفع إليها، يمر بجوقة تنفخ فى أبواق وتلهج بذكر اسمه. وليس هناك أفضل من ذلك لوصف جوهر المجد. فمن يسع إلى المجد لا يطلب أكثر من هذا: جوقة من مخلوقات، والأفضل أن تكون من بشر، لا تفعل أى شئ سوى ترديد اسمه. وحتى هذا النوع من الكتل تتمتع بشئٍ من الرضا. فما إن تتكون الجوقة، مهما كان موضعها، ومهما كان مسلكها، فإنها لا تقترب لأحدنا إلى أقصى حد إلا عند ذكر الاسم. وخلال التقرير كله يستمر نزاعٌ بين مجموعتين معاديتين. فعلى ناحيةٍ كان أقاربه الذين يحرقونه ويفتدونه، وعلى الناحية الأخرى كان أعداؤه الذين شاءوا قتله. فهو مادة النزاع أو بالأحرى هو "جسده". وخلال مفاوضاتٍ طويلة، بدأ الأمر بمبالغٍ صغيرةٍ لتقفز إلى مبالغٍ أعلى، فقد صارت قيمته تزداد فى أعين أقاربه. وقد تم استدراج حظه إلى مقبرة القلعة حيث سمعهم يصرخون وتتقطع

أنفاسهم. وقد عالجننا كوم الموقى والمحتضرين بإسهاب فى الفصل الخاص بمسألة الحرب. وقد تم تعذيب المريض، كأسير، ثم التهامه على طريقة آكلى لحوم البشر. وقد أدى التناقض بين أعدائه وأقاربه إلى معركةٍ حامية، وقد سمعهم، كما سمع أنين الأقارب مرةً أخرى.

يحتوى هذا الهذيان إذن - إضافةً إلى كل شىء آخر - على الكتلة المزدوجة وفرزها فى أثناء الحرب. والمراحل الواضحة فى التطور إلى حد الحرب تذكر تفصيلاً بالأحداث المماثلة لمعارك البدائيين. وما نود الإشارة إليه هنا هو توافر كل ظواهر الكتلة تقريباً. وهى لا تتوافر غالباً معاً بمثل هذا التركيز والوضوح.

المحاكاة والتظاهر

غالبًا ما يتم استخدام مفهوم "المحاكاة" و"التحول" على نحوٍ عشوائيٍ من دون فصلٍ واضحٍ بين هذين الحدثين. إلا أنه من الحكمة أن نفصل بينهما، فهما لا يعنيان الشيء نفسه على الإطلاق. فالفصل الحذر بينهما يمكن أن يساهم بقدرٍ ما في إلقاء الضوء على حدث التحول الحقيقي. فالمحاكاة شيءٌ ظاهري، وهى تشترط أن نرى هذا الذى يقوم المرء بنسخ حركاته. فإذا ارتبط الأمر بالصوت فإن المحاكاة لا تعنى سوى إعادة إنتاج الصوت نفسه بدقة. ولا يكون هناك أثرٌ للصيغة الداخلية لدى من يقوم بالمحاكاة، فالقرود والبيغاوات تقوم بالتقليد، فمن المفترض أنها لا تتغير على أى نحوٍ فى أثناء هذا الحدث، ويمكن القول إنها لا تدرى بما تقوم هى بتقليده. فهى لم تعاشه من الداخل. وهى تستطيع أن تقفز من شيءٍ لآخر من دون أن يكون لتبعية ما حدث أدنى أهمية بالنسبة لها. والافتقار إلى العمق أمرٌ ييسر المحاكاة، فمن المعتاد أن ترتبط المحاكاة بلمحٍ وحيد فقط، فلما كان ملمحٌ واحدٌ هو الالفت للانتباه، حسب طبائع الأمور، فإن المحاكاة غالبًا ما تخدمنا بقدرتها على التشخيص، التى هى فى الواقع غير موجودة. فيمكن التعرف على شخصٍ ما من خلال صياغاتٍ يستخدمها غالبًا، أما الببغاء الذى يقلد الشخص فإنه يُذكّر ظاهريًا بهذا الشخص، إلا أن هذه

السياغات فلا تحدد بالضرورة ماهية هذا الشخص، فمن الممكن أن تكون هناك عباراتٌ بعينها اعتاد الشخص استعمالها مع البغاء فقط. وفي هذه الحال يقوم البغاء بتقليد شيءٍ غير مهم تمامًا، ومن يجهل الشخص فإنه لن يتعرف عليه من خلال ذلك. إن المحاكاة أو التقليد لا يكونان، على وجه اليقين، سوى البادرة الأولى للتحويل التي يتم العدول عنها على الفور مرةً أخرى. ومثل هذه البوادر تتم في تتابعٍ سريع، الواحدة تلو الأخرى وعلى وجوهٍ مختلفة للغاية. ويمكننا ملاحظة ذلك بسهولةٍ تامة لدى القروء. وسهولة التقليد تحديدًا هي التي تحول هنا دون تعميقه لأن التحويل نفسه هو أشبه بجسدٍ على علاقةٍ بمحاكاةٍ مزدوجة الأبعاد. وهناك شكلٌ انتقالي من المحاكاة إلى التحويل ألا وهو التنكر، الذي يظل موجودا عن وعى في منتصف الطريق. فالتقرب كصديق، بنوايا عدوانية، - وهو ما نفذ إلى كل الأشكال المتأخرة للسلطة - هو نوعٌ مبكر ومهم للتحويل. وهو سطحٌ ولا ينسحب إلا على المظهر الخارجى وحده: على الفرو، على القرون، على الصوت، على أسلوب حركة السير. وخلف ذلك يختبئ الصياد على نحوٍ غير ملموس وغير قابل للمس وبنيةٍ قاتلة لا تتأثر بشيء. إن هذا الفصل الحاد بين الباطن والظاهر، وهو الاختلاف الأعظم، يكون قد وصل في "القناع" إلى كماله. فالصياد يملك نفسه وسلاحه إلا أنه يمتلك أيضًا هيئة الحيوان الذي يقوم بتمثيله. ففي كل لحظة يمكنه السيطرة على كليهما ويمكن القول بأنه مخلوقان في آنٍ واحد، وهو يحتفظ بكليهما حتى يحقق هدفه. ويكون نبع التحولات القادر عليها قد نضب. فهو يقف في موضعين تجمعهما حدودٌ واضحة، الواحد في الآخر، وقد عزل أحدهما الآخر بوضوح. وحقيقة الأمر في ذلك هو أنه لا مناص من توارى الباطن خلف الظاهر على نحو صارم. فالودود البريء يكون ظاهرًا والمعادي القاتل يكون باطنًا، ولا يفصح الباطن القاتل عن نفسه إلا في الفعل النهائي. وهذه الازدواجية بشكلها المتطرف هو ما نطلق عليه عامةً "تنكرًا". فإن فهمنا التعبير بكامل معناه فإنه لا يمكن أن يكون أكثر وضوحًا مما هو عليه. وأنا أود أن أضعه داخل حدوده الضيقة وأسميه، كتتكّر، بالشكل الودود يكمن داخله آخر عدواني.

"كان مغسل يملك حمارًا بوسعه نقل أحمال غير عادية. وحتى يطعمه قام المغسل بتغطيته بفرو ثمر، وعندما خيم الظلام قاده إلى غلال أناس آخرين، فأطلق الحمار لنفسه العنان بالاستمتاع بطعم غلال الآخرين كما يهوى قلبه، فلم يكن هناك من يجروء على الاقتراب منه وطرده بعد أن ظن الجميع أنه

نمر. لكن ذات مرة تربص به أحد خفراء الحقول، فوضع على جسده معطفًا رماديًا بلونٍ ترابي، وأمسك بقوسه متأهبًا، لكي يقتل هذا الحيوان الكاسر. وعندما رآه الحمار من بعيد تحرك الحب في قلبه بعد أن ظن أن الرجل أتًا. ولذلك نهق وركض نحوه. فعرف الخفير من صوته أن الحيوان ليس سوى حمار وقتله" (131).

هذه القصة الهندية احتوت في عباراتٍ قليلة كتاب إرشاد صغيرًا في التنكر. فلم يفلح أحدٌ أن يعبر عن ذلك بهذا الزخم في هذه المساحة الموجزة. ولا بد من الإقرار بأن الأمر هنا يدور حول استخدام التنكر وليس حول نشأته. إلا أن مثل هذا الاستخدام ليس بعيدًا عن أصل التنكر.

أما البداية فكانت مع مهنة المغسل الذي يغسل الملابس وهي الجلد الثاني للبشر. وهو مغسلٌ نشط وقد عثر على حمارٍ يستطيع حمل الكثير. ومن المفترض أن الحمار كان يحمل ما يقوم صاحبه بغسله. ومن بين الجلود التي يتعامل معها المغسل كان جلد نمر. وهو ما تدور حوله القصة. وأما الحمار الذي يتقن عمله فكان جائعًا ويحتاج إلى غذاءٍ كثير فألبسه صاحبه جلد النمر وقاده إلى غلال أناسٍ آخرين. وهناك استطاع التهام طعامه كما يشتهي. وقد خاف منه الناس لظنهم أنه نمر. وكان هذا المخلوق البريء قد لبس هنا جلد حيوانٍ خطر للغاية وهو لا يدرى ما جرى له، كما لم يدرك مدى الفزع الذي بثه. فصار يأكل حسب هواه من دون إزعاج. أما الناس الذين لم يجرؤوا على الاقتراب منه فلم يكن لديهم أدنى معرفة بما يفعل هذا هناك. وكانت خشيتهم هي الرهبة من كائنٍ قوى، وهي رهبةٌ تنطوي على تقديسٍ ما. وقد حالت هذه الرهبة بينهم وبين إدراكهم أن النمر ليس سوى حمارٍ، فظلوا مبتعدين عنه. وما دام هو محتفظًا بصمته كان بوسعه مواصلة التهام الأكل. لكن ظهر حينذاك خفير حقولٍ لم يكن رجلًا عاديًا، فقد كان يمتلك شجاعة الصياد، فتجهز بقوسه لكي يقتل النمر. وقد شاء أن يغريه بالاقتراب منه كفريسةٍ فتدثر بمعطفٍ رمادي مترب، ربما كان جلد حمار. وعلى كل حال كان قد شاء إيهام الحيوان بأنه حمارٌ وهمي. وكان تنكره هو تنكر الخطر الذي يبدو كأنه بريء. وهذه الحيلة كان الصيادون يستخدمونها في عصورٍ باكرة للاقتراب من فريستهم. أما نكتة القصة فتكمن في أن الحمار الذي تغذى جيدًا قد شعر بالوحدة فما إن رأى عن بعد شيئًا ذكّره بحمارٍ حتى تمنى أن يكون هذا أتانًا، فنهق عاليًا وجرى مباشرة نحو

الأتان الوهمية. ومن خلال صوته كشف أنه حمارٌ ليُقتل على يد خفير الحقل. وبدلاً من الفريسة التى انتهى النمر التهامها بدا الحارس من دون وعي كأتان، وبدلاً من اللذة التى تمنها الحمار إذا به يلقي حتفه. وقد بُنيت القصة على سلسلة من الخداع، فمن خلال التنكر فى هيئة مخلوق غير ما يكونه المرء يحاول المرء خداع مخلوقاتٍ أخرى. وينتج عن الأحداث أنها سرعان ما جاءت بهدفٍ غير المنشود. والإنسان هو وحده الذى يستخدم التنكر عن وعيٍ وهو يستطيع التنكر بنفسه كما فعل خفير الحقل وبوسعه أن يضع قناعاً لمخلوق آخر كما فعل المغسل بالحمار. أما الحيوان فلا يسعه إلا أن يكون ضحيةً سلبية لعملية التنكر. والفصل بين الإنسان والحيوان فى هذه القصة هو فصلٌ تام، فقد انقضت العهود الأسطورية حينما لم يكن هناك فصلٌ بين الاثنين، حينما كان البشر يستطيعون التفاعل كحيواناتٍ حقيقية وكانت الحيوانات تستطيع الحديث كبشر. ومن خلال تجاربه الأسطورية كحيوانٍ كان الإنسان قد تعلم أن يستخدم كل الحيوانات كما يناسبه. وقد آلت تحولاته إلى تنكرٍ، وتحت الأقنعة والجلود التى يستخدمها يظل مدرّكاً تماماً لأهدافه ويبقى هو نفسه سيداً للحيوانات. وما لم يستطع وضعه تحت سيطرته فكان يقدسه، كالنمر مثلاً، لكن حتى هذا، حاول الاقتراب منه بعض من يتمتعون بشجاعةٍ خاصة من خلال التنكر. وربما أفلح خفير الحقل فى قتل نمرٍ حقيقى من خلال حيلته. ومن المدهش حقاً أن تستطيع قصة قصيرة التعبير عن علاقاتٍ أساسية كثيرة للغاية. والأمر لا يخلو من أهمية أن تبدأ القصة بالمغسل، فهو يتعامل مع ملابس وهى كما نقول البديل لجلدٍ بلا روح، ومن خلال مكانتها فى الأساطير فإنها تُستخدم غالباً فى إجراء التحول. أما جلد النمر الذى استخدمه فى حيلته فإنه يبت الحياة فى قطعة الملابس البريئة التى يستخدمها عادة. إن التنكر، هذا العنصر المحدود للتحول، هو أمرٌ مألوف لصاحب السلطة حتى يومنا هذا. وليس بوسع صاحب السلطة مواصلة تحوله هو نفسه على الإطلاق ما دام واعياً بفكرته المعادية، فهو مقتصرٌ على التحول الذى حافظ على سلامة هذه البذرة الباطنية، أى هيئته الحقيقية على نحوٍ دائمٍ وكامل. وقد يستطيع الانتباه، على نحوٍ يناسبه أحياناً، إلى إخفاء الفرع الذى تنشره هيئته الحقيقية. وبوسعه استخدام أقنعة مختلفة من أجل ذلك. وهو دائماً لا يستخدمها إلا لوقتٍ محدود، وهى لا تغير أقل قدر من هيئته الباطنية التى هى طبيعته.

الشخصية والقناع

إن الهيئة هي الحال النهائية للتحول، ومن سماتها أنها لا تسمح بمواصلة التحول. والهيئة تكون في كل ملامحها محدودةً وواضحة. وهي ليست طبيعية، فهي مخلوقٌ من صنع الإنسان، وهي بمثابة طوق النجاة من مرونة التحول الدائم. ولا ينبغي أن نخلط بينها وبين ما يسميه العلم الحديث بالنوع أو الشكل. وقد نقرب من جوهرها كثيرًا إذا تأملنا أشكال هيئات آلهة الديانات القديمة، ومن المفيد أن نتأمل عقب ذلك بعض آلهة المصريين، فالربة سخمت هي امرأة برأس لبؤة، وأنوبيس رجلٌ برأس ضبع، وتحوت رجلٌ برأس أبي منجل، أما الربة حتحور فلها رأس بقرة، وللب رب حورس رأس صقر. وهذه الهيئات في صورها المحددة الثابتة التي هي شكلٌ مزدوج "إنساني - حيواني" كانت قد سادت تصورات المصريين الدينية لآلاف السنين، وفي هذا الشكل تم تصويرها في كل مكان، وفي هذا الشكل عُبدت في كل مكان. أما استمرارها فهو أمرٌ يبعث على الدهشة. إلا أنه قبل تكوين أنظمة إلهية من هذا النوع المتزمت بزمانٍ طويل كانت الأشكال المزدوجة، الإنسانية الحيوانية، منتشرةً انتشارًا واسعًا لدى شعوبٍ لا حصر لها على وجه الأرض لم يكن بينها أية علاقة، فأجداد الأستراليين الأسطوريون هم إنسانٌ وحيوان في آنٍ واحد، وأحيانًا إنسانٌ ونبات. وكانت هذه الهيئات تعرف

بالطوطم. فقد كان هناك طوطم الكنغرو وطوطم الـ"أوبسوم"¹ وطوطم الـ"أمو"² وكان كلٌ منها يتميز بأنه إنسانٌ وحيوانٌ في الوقت نفسه. وهى تتعامل كإنسانٍ وكحيوانٍ تمامًا كما تعتبر أيضًا جدًّا لـكليهما. فكيف يمكن فهم هذه الهياآت الموغلة في القدم؟ وماذا تمثل هى حقًّا؟ ومن أجل أن نفهمها لا بد من أن نضع نصب أعيننا أنها تُعتبر كإنسان العصور الأولى الأسطورية، وهو الزمن الذى كان فيه التحول موهبةً عامةً لمخلوقاتٍ كانت موجودةً على نحوٍ دائم. وكانت حالة السيولة التى مر بها العالم حينذاك أمرًا مشهورًا، فقد كان بوسع المرء التحول إلى كل ما هو ممكن، بل كان يملك قدرةً على تحويل الآخرين. ومن خلال هذا التيار العام برزت هياآتٌ منفردة لم تكن سوى تأكيدٍ على تحولاتٍ بعينها. إن الهيئة التى يرتبط بها المرء على نحوٍ ما، والتى صارت تقليدًا مانحًا للحياة، والتى يمثلها المرء من حينٍ لآخر، ليست هى ما نسميها اليوم بالنوع الحيوانى، فهى ليست كنجرو وليست "أمو" إنما هى اثنان فى آنٍ واحد، فهى كنجرو ممتزجٌ بإنسان، وإنسانٌ يصبح -كما شاء- "أمو". وقد صارت عملية التحول على هذا النحو أقدم الهياآت. ومن تعدد التحولات غير المحدودة والمتواصلة لكل شىء ممكن خرجت واحدةً محددةً تمامًا ورسخت كهيئة. وعملية التحول هذه تم تحديدها وهى تكتسب قيمةً خاصةً من خلال ذلك، مقارنةً بكل ما تم استيعاده. وهذه الهيئة المزدوجة التى تنطوى على تحول الإنسان إلى كنجرو والكنجرو إلى إنسان، والتى تظل نفسها دائمًا، هى أول وأقدم هيئة، وتكون - إن شئنا الإضافة - هيئةً حرة، ولعنصرىها القيمة ذاتها فلا يسبق أحدهما الآخر ولا يأتى أحدهما بعد الآخر. وهى تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. إلا أن تأثيرها المعقول فىكون فى الحاضر دائمًا. وهناك مدخلٌ لها، أى من خلال تمثيل الأساطير المنتمية إليها، ويشارك المرء فيها. ومن المهم لنا نحن أيضًا أن نصل إلى رؤية واضحة عن هذا النوع الأقدم للهيئة، ومن المهم أن نعرف أن الهيئة تبدأ بشىء غير بسيطٍ على الإطلاق. وهو ما يبدو لنا معقدًا ويكون على نقيض ما نتصوره اليوم من هيئة، وهو الذى يعبر عن عملية تحولٍ مع نتيجته فى الوقت نفسه. أما القناع فيميزه جموده عن كل التحولات الأخرى. فالتعبير بالملامح، الذى لا يعرف الهدوء والمتحرك دائمًا يحل محله ما هو على النقيض التام منه، أى جمود

1 حيوان أسترالى يعرف باسم الكلب الأبيض (المترجم).

2 طائر أميركى ذو عنق وسيقان طويلة ويعرف بقدرته على تحمل الجوع والعطش (المترجم).

واستمرار تأمان، فمن خلال التعبير بالملامح خاصةً يتبدى استعداد التحول المتواصل للإنسان، فهو من بين كل المخلوقات الذى يمتلك التعبير بالملامح، وهو الأكثر ثراءً بكثير كما يمتلك أيضاً حياة التحول الأكثر ثراءً، فلا يمكن إدراك الذى يجرى على وجه الإنسان خلال ساعة واحدة. فإذا ما كان لأحدنا الوقت الكافى للملاحقة الدقيقة لكل الحركات والأحوال التى تجرى على وجه الإنسان فإننا نعجب لبوادر التحولات التى يمكن معرفتها وتمييزها. إن موقف التقاليد تجاه تعبيرات الوجه الحرة مختلفٌ فى بعض المجتمعات، فبعض المجتمعات تحد كثيراً من حرية التعبير بالوجه إلى حدٍّ بعيد، فهى تحظر الإظهار الفورى للألم أو الفرح، بل على المرء أن يضرر ذلك فى نفسه ليظل وجهه هادئاً. أما المبرر الأعظم لهذا الموقف فهو سعى الإنسان إلى استقلالٍ دائم بذاته، فلا يسمح لأحدٍ بالنفاذ إلى داخله، ولا يسمح لنفسه بالنفاذ إلى داخل أحدٍ، فعلى المرء أن يمتلك القوة لأن يكون هو نفسه، وعليه أن تكون لديه القوة لأن يبقى هو نفسه، وهذا يمشى مع ذاك على قدم المساواة، فتأثير إنسانٍ على آخر هو ما يستنفر التحولات المتواصلة العابرة التى تتبدى فى التعبير بالإشارة والتعبير بالملامح، فحظر كليهما يجعل أى تحولٍ صعباً، لينتهى بذلك إلى الحظر التام. والقليل من الخبرة بالكائن الجامد لهذه الطبيعة المصطنعة العتيقة سرعان ما يُقرب المرء من التعرف على معنى القناع بالفعل. فالقناع هو حالةٌ نهائية من ممارسةٍ مرنة لتحويلات غير واضحة وشبه مختصرة، والتى يتمثل تعبيرها الرائع فى كل وجهٍ إنسانى طبيعى تصب فى القناع وتنتهى إليه. فما إن يوجد القناع حتى يختفى كل ما بدا وكل بادرةٍ غير واعيةٍ لم تتشكل بعد. إن القناع واضحٌ فهو يعبر عن شئٍ محددٍ تماماً، لا أكثر ولا أقل من ذلك. إن القناع جامدٌ، أى أن هذا التعبير لا يتغير، وهو يمكن فى الحقيقة أن يكون قناعاً آخر خلف هذا القناع، فلا شئٍ يمنع الممثل من وضع قناعٍ خلف قناعٍ آخر. والمرء يعرف القناع المزدوج لدى شعوبٍ كثيرة. فإذا أماط المرء قناعاً ظهر خلفه آخر، وهذا يكون أيضاً قناعاً، أى هو الحالة النهائية الشخصية، إنه قفزةٌ تفضى من هذا إلى ذاك، أما ما بين هذا وذاك فهو دائماً ما يكون منتفياً، فليس هناك مرحلةٌ انتقاليةٌ وسطيةٌ مثل هذا الذى قد نراه على وجه إنسانٍ ما. أما ما استجد من أمرٍ فهو أن "الآخر" صار هنا "فجأةً"، وهو على نفس القدر من الوضوح ونفس القدر من الجمود مثله مثل سابقه. فمن قناعٍ إلى قناعٍ يكون كل شئٍ ممكناً، لكن فى إطار قفزة القناع بنفس الطريقة

المماثلة المركزة. وتأثير القناع يتجه أساسًا إلى الخارج فهو يصطنع الهيئة، فالقناع غير قابل للمس ويضع مسافةً بين المتطلع وبينه، وقد يحدث ذلك في أثناء أداء رقصةٍ ما حينما يكون المتطلع إليه قريبًا منه، لكن هذا يضطر - بإرادته - إلى البقاء حيث كان، فجمود الشكل يتحول إلى جمود المسافة أيضًا، فما يجعلها لا تتغير مطلقًا هو هذا الخطر الكامن بها، ف خلف القناع مباشرةً يبدأ السر. وفي الحالات التي أتمت تكوينها تكوينًا كاملاً وصارمًا، وهى موضوع حديثنا هنا، وحيث يؤخذ القناع على محمل الجد، فإنه لا يُسمح لأحدٍ بمعرفة بما يكمن خلفه، فإن أفصح عن كثيرٍ يكون قد تكتّم الأكثر، فهو بمثابة الحد الفاصل مشحونًا بمحتوى خطر لا يجوز لأحدٍ معرفته، ولا تنشأ بينهما علاقة ثقة. فإن تقدم نحو شخصٍ ما فإنه يحافظ على هذه المسافة القريبة منفصلًا تمامًا عن هذا الشخص، وهو يستخدم سره الكامن خلفه في التهديد، فالاستقراء الحر مثل استقراء وجهٍ ما يجعله القناع محالًا، فلا يسع المرء إلا أن يخمن وهو يخشى المجهول الكامن خلفه. فالتجربة التي اعتادها الجميع عن طريق السمع تماثل التجربة في مجال الرؤية. فقد يأتي أحدهم بلدًا يجهل لغتها تمامًا، فيحاط هناك بإناسٍ يتحدثون إليه، وكلما كان فهمه أقل زاد تخمينه، فالمجهول يحملنا على الكثير من الظن. فهناك يخشى المرء العدا، لكنه يتحرر من ذلك مستنكرًا ويصاب في نهاية المطاف بخيبة الأمل إلى حدٍّ ما عندما تترجم كلمات الغريب إلى لغةٍ مألوفةٍ لديه، ليدرك بعدها كانت هذه بريئةً وغير خطيرة. إن كل لغةٍ غريبةٍ تمامًا هى قناعٌ سمعى فما إن تُفهم حتى تصير وجهًا واضح الملامح، وسرعان ما تصير مألوفةً. هكذا يكون القناع إذن هو تحديدًا ما لا يتحول ولا يمكن الخلط في أمره، وهو دائمٌ. إنه "البقاء" في لعبةٍ تبدلٍ مستمرٍ للتحول. ومن بين مؤثراته الخالصة هو إخفاؤه كل شيء خلف ظاهره. ويتأسس كماله على وجوده في النهاية هنا، وأن كل شيء خلفه يظل غير معروفٍ، وكلما كان هو واضحًا بحد ذاته يكون ما هو خلفه أكثر غموضًا فلا يعرف أى إنسانٍ ما الذى يمكن أن ينطلق من خلف القناع. إن المسافة بين جمود الظاهر وبين السر خلفه تصل إلى بعدٍ هائل، وهذا هو السبب الحقيقى لِمَ يهدد به القناع، فيقول القناع: "إننى هذا ما تراه بالضبط، وكل ما تخشاه هو ما خلف ذلك". وهو يفتن، ويرغم في الوقت نفسه على وجود مسافةٍ فلا يجروُ أحدٌ على المساس به، فإذا أماطه أحدٌ فإنه يلقى عقوبة الإعدام، فهو - في أثناء فترة فعاليته - غير قابلٍ للمس وهو

محصنٌ مقدس، فالمعلوم من القناع ووضوحه يستمدان قوتهما مما هو غير معلوم. فقوته تتأسس على معرفة الناس به معرفةً دقيقةً من دون أدنى معرفة بما ينطوى عليه. فالمرء يعرفه من الخارج أو من "الأمام" على نحو ما. إلا أنه إذا ما التزم بسلوكه المعتاد والمتوقع منه - في أثناء طقوس بعينها - فإنه يعطى انطباعًا بالأمان، فهو قائمٌ بين الخطر الكامن خلفه وبين من يشاهده. وهكذا يمكن له أن يسلك المسلك الصحيح إن هو منه الحظر عن هذا، وهو يستطيع أن يجمع الخطر ويبقى عليه مجتمعا ولا يطلقه إلا مع ما يناسب هيئته. والمرء يستطيع أن يسلك نحوه مسلکًا صحيحًا بمجرد أن يقيم علاقة معه، فهو هيئة يتبع أساليب خاصة في مسلكه، وما إن يتعلمها المرء ويدركها، وما إن يدرك المرء مدى المسافة التي يطلبها منه، فإن هذا يحميه من الخطر الكامن داخله. وعن هذا الأثر للقناع الذي صار هيئة يمكن أن نقول الكثير، فمعه تبدأ وتتوقف وتسقط الدراما. إلا أن ما يهمنا هنا فهو القناع نفسه، فلا بد لنا من رؤية ما يكون على الجانب الآخر، لأنه ليس له تأثيرٌ على الخارج فقط، على الذين لا يعرفون ما كمن داخله، فهو يوضع على وجه من يريد الاختباء فيه، وهؤلاء يدركون جيدًا من يكونون هم، لكن واجبه هو أداء دور القناع والبقاء في أثناء هذا الدور داخل حدود بعينها، أي الحدود التي تناسب القناع، فيوضع القناع ومن الخارج، وهو كشكلٍ مادّي يكون قد عُزل بوضوح عن هذا الذي يحمله، فهذا يشعر به كجسدٍ غريب تمامًا، فهو يزعجه ويضيق عليه، وما دام يؤدي هذا الدور يظل في حالةٍ ازدواجية، أي هو نفسه والقناع. وكلما طالت فترة استخدامه له زادت معرفته به على نحوٍ أفضل وازداد - في أثناء أدائه الدور - تداخله مع هيئة القناع. لكن رغم ذلك يظل جزءٌ من شخصه منفصلًا عن القناع، إنه الجزء الذي يخشى كشفه، الجزء الذي يعرف أنه يبتئ الرهبة التي لن تصل إليه هو نفسه، فالسر الذي يقوم بتمثيله أمام أطرافٍ خارجية لا بد من أن يؤثر عليه هو أيضًا، وهو ما يشعر به داخله. ويكون الأمر، كما نتصور، ليس له الأثر نفسه، فهؤلاء يخشون ما لا يعرفونه، وهو يخشى الانكشاف. إن هذه الرهبة هي التي لا تسمح له بالاستسلام التام. وبوسع تحوله أن يقطع شوطًا بعيدًا لكنه لا يكون أبدًا كاملاً، فالقناع الذي يمكن إماتته هو الحد المعطل للتحويل، فيكون عليه أن يحرص على ألا يفقده، فلا يسمح له بالسقوط ولا يسمح له أن ينفتح، وعلى كل حالٍ يكون مهمومًا تمامًا بمصير القناع، وهكذا

يبقى القناع نفسه خارج إطار تحوله مثل سلاحٍ أو جهازٍ يكون عليه أن يستخدمه. أما شخصيته في الحياة اليومية فتتفاعل معه، بينما يتحول هو إلى القناع في نفس الوقت، هكذا يكون هو في حالة ازدواجية ويتحتم عليه البقاء مزدوجًا في أثناء فترة أدائه العرض كاملة.

التخلص من التحول

إن صاحب السلطة المدرك لنيته الباطنة العدوانية لا يستطيع خداع الجميع من خلال التنكر، فهناك آخرون مثله هدفهم هو السلطة، وهؤلاء لا يعترفون به ويدركون أنهم خصومه، وهو يأخذ حذره من هؤلاء، فبوسعهم أن يمثّلوا خطرًا عليه، فينتظر هو اللحظة المناسبة لينزع القناع عن وجوههم ليكشف بذلك ذلك أفكارهم الحقيقية، وهو الأمر الذي يعرفه جيدًا عن نفسه شخصيًا، فإذا ما كشفهم يكون قد تجنب ضررهم، وقد يتركهم على قيد الحياة أول مرة إن كان ذلك يخدم أغراضه، لكنه يأخذ حذره من نجاح هؤلاء في التنكر مرةً أخرى، فيحرص على رؤيتهم في هيئتهم الحقيقية. فالتحولات التي لا يفرضها هو نفسه على الآخرين يعتبرها مزعجةً، فهو يسعى إلى ترقية المفيد من له إلى مناصب أعلى، لكن التحول الاجتماعي الناشئ عن هذا الترقى لا بد من أن يضعه داخل حدود، فلا يتغير ويكون الأمر بيده شخصيًا. فهو من يحدد ذلك من خلال الترقية أو التجريد من الرتبة، فلا يسمح لأحد أن يغامر من تلقاء نفسه بالقفز على مكانة أعلى. ويخوض صاحب السلطة صراعًا بلا نهاية ضد تحولات تلقائية خارج السيطرة فيكون نزع القناع، أي وسيلته في أثناء الصراع، هو ما يواجه به عملية التحول بدقة وهو ما يسمى بإبطال التحول، ومثل هذا الحدث تعرف

عليه القارئ فيما فعله مينلاوس مع عجوز البحر بروتوريوس فأبطل تحوله عندما تفادى الفزع لفترة طويلة حتى عاد للظهور كـ"بروتوريوس". ومن خصائص جوهر إبطال التحول أن يعرف المرء جيدًا ما سوف يلقاه بعدها، فإذا كان المتوقع معروفًا منذ البداية فإن المرء ينطلق نحو ذلك بثقة هائلة محتقرًا كل التحولات التي مر بها على أنها خداع مكابر، ففي حالة وحيدة يمكن للمرء القيام بما فعله مينلاوس الذي صب اهتمامه على حكمة بروتوريوس. وبوسع المرء تكرار هذا حتى يمكن أن يمثل له ذلك في النهاية شغفًا. ويؤدي إبطال التحول المتراكم إلى اختزال للعالم. وتعدد أشكال ظهوره لا يُعتبر ذا قيمة بالنسبة له، فهو يرتاب في كل أشكاله المتعددة، فكل الأوراق متساوية وهى جافة ومغبرة، وكل الأشعة تتلاشى في ليل العدا. والمرض العقلي، الذي على صلة قرابة بالسلطة حتى يمكن اعتباره توأمًا لها، يحول إبطال التحول إلى طغيان، فجنون العظمة يتميز بصفتين، أما إحداهما فيصفها الطب النفسى بأنها "تغاير"، وهى ليست سوى التنكر بالمعنى الدقيق الذى عبر عنه المصطلح، فالمصابون بجنون العظمة يستطيعون التنكر على نحو جيد، حتى إننا لا نستطيع مطلقًا التعرف على كثير منهم ومدى إصابتهم بجنون العظمة. أما الصفة الأخرى فهى نزع قناع الأعداء على نحو متصل، فهؤلاء يظهرون فى كل مكان بملابس تنكرية هى الأكثر وداعة وبراءة، إلا أن المصاب بجنون العظمة، الذى يستطيع النفاذ إلى الداخل، فإنه يعرف تمامًا ما يكمن وراء ذلك، فينزع القناع عن وجوههم لينكشف أنهم العدو نفسه. إن المصاب بجنون العظمة مغرّم تمامًا بإبطال التحول ولا يضارعه أحدٌ فى هذا الشأن، ويبرهن من خلال ذلك أنه صاحب السلطة الأكثر صلابة. أما الموقف، الذى يعتقد أنه اتخذهُ والأهمية التى ظن أنه عليها، فيظهران فى عيني الآخر يقينًا، وهو رغم ذلك سوف يدافع عنهما من خلال الاستخدام الدائم لعملية التنكر المزدوجة. إن فحصًا دقيقًا وصحيحًا لإبطال التحول لن يكون ممكنًا إلا فى إطار حالة فردية واضحة من حالات جنون العظمة، وهو ما سوف نتناوله فى الفصول الأخيرة من هذا الكتاب بعنوان "حالة شريب".

محظورات التحول

يُعتبر "التحول المحظور" ظاهرةً اجتماعية ودينية ذات أهمية كبرى. وهو لا يكاد يكون قد طُرِحَ بجديّة، ناهيك بفهمه، حتى محاولة المقاربة التالية ليست سوى أولى محاولات تلمس هذا الطريق على الإطلاق. فطقوس طوطم الـ"أراندا" تقصر حق المشاركة فيها على المنتمى للطوطم. فالتحول إلى هيئة مزدوجة لأحد الأجداد من العصور البكرة الأسطورية هو أولوية من حق أناسٍ بعينهم، فلا يُسمَح لأحدٍ بالتحول المتوارث، كملكية أصيلة، من دون أن يكون له حق امتلاك ذلك، وهو حقٌ يتمتع بالحماية مثل كلمات وأصوات الأناشيد المقدسة الخاصة به، فالدقة المتناهية لهذه الهيئة المزدوجة وحدود ملامحها الواضحة هو ما يجعل من حمايتها أمرًا ميسورًا، أما حظر امتلاكها فيتم فرضه بصرامة، فهناك عقوبة دينية كاملة على ذلك. وبعد امتحانات تأهل طويلة ومعقدة يتم قبول شابٍ في المجموعة التي يُسمح لها بهذا التحول في أحوالٍ بعينها. ويفرض الحظر التام هذا على النساء والأطفال ويكون ملزمًا على نحوٍ دائم. ويتم رفع الحظر أحيانًا عن تابعين لطواطم أخرى كتعبيرٍ عن استثناءٍ شعائري خاص، إلا أن هذا يكون لحالاتٍ فردية فإذا ما انتهت فإن الحظر القديم الصارم يعاود سريانه كما كان في السابق. ولقد كان الانتقال من هذا الدين إلى الدين المسيحي يمثل قفزةً

هائلة، فالمسيحية تحظر التحول إلى هيئة الشيطان على الجميع على حدّ سواء، وقد أكدت على خطورته بكل وجه، وعلى مئة وجه من التحذير كان يُعلن عما حدث لأناس استجابوا له، وقد حذر من عذاب أرواحهم الأبدي في جهنم الذي صور بكل تفاصيله.

وقوة هذا الحظر هائلة، وهو ما يسترعى الانتباه خاصةً حينما يشعر الناس بالإكراه على مخالفته، فقصة الممسوسين الذين مارسوا عمل الشيطان أو عدة شياطين هي قصصٌ معروفة للغاية. وهناك رواياتٌ شخصية لهؤلاء ومن أشهرها قصة الراهبة "جين دي أنجيه" في دير "أورزلين" على مشارف "لودون"، وقصة الأب "سورين" الذي كان عليه مكافحة الشيطان حتى تلبسه. وعلى نحوٍ أعظم من الدنيويين البسطاء كان الشيطان يتلبس أناسًا وهبوا أنفسهم لخدمة الرب ممن حظر عليهم الاقتراب من الشيطان والتحول إليه، فيسيطر عليهم التحول المحظور تمامًا. ولا يجانبنا الصواب إذا أرجعنا قوة تأثير التحول إلى قوة الحظر الذي تخضع هي له.

أما العنصر الجنسي لحظر التحول، الذي ينزلق المرء هنا إليه، فيكون أكثر وضوحًا إذا ما رجعنا إلى قصص "الساحرات"، فقد كان الإثم الحقيقي للساحرات هو ارتباطهن بالشيطان، فمهما كانت ممارساتهن عادةً فإن حياتهن السرية كانت تنتهي إلى حفلات المجون التي يشارك فيها الشيطان. وهن ساحراتٌ لأنهن على علاقةٍ به. ويعتبر استسلامهن له جنسيًا هو الركن الأساسي لخصائص تحولهن. ويعتبر تصور "التحول" من خلال المضاجعة تصورًا موهلًا في القدم. ولما كان كل مخلوق ما قد عاش عادةً الجنس الآخر من نفس نوعه، فإنه من المحتمل أن يعتبر الانحراف عن هذا المسلك تحولًا. وفي هذه الحال فإنه يمكن اعتبار أقدم شرائع الزواج نوعًا من أنواع محظورات التحول، وهذا يعنى حظر كل الأشكال الأخرى فيما عدا تحولات محددة وراسخة. وقد يمكننا تتبع هذا الشكل الجنسي للتحول بالتفصيل. ويبدو لي أن هذا لا بد من أن يفضي إلى دلالاتٍ مهمة للغاية. وربما كانت أهم كل محظورات التحول هي المحظورات الاجتماعية. فكل نظام هرمي لا يهض إلا على مثل هذه المحظورات التي لا تسمح لأفراد طبقةٍ بالاقتراب من طبقةٍ أعلى أو شعورهم بالمساواة معها. ولدى الفئات العمرية لشعوب الطبيعة يشدد على مراعاة هذه المحظورات، فعمليات التمييز التي

تكونت يوماً ما يتم التأكيد على الالتزام بها دائماً. وقد وُضعت حدودٌ تجعل الصعود من طبقةٍ أدنى إلى أخرى أمراً صعباً على أية حال، فلا يمكن الانتقال من طبقةٍ لأخرى صعوداً إلا بواسطة اختبارات قبول خاصة. إلا أن هذه تُعتبر "تحولاتٍ" بمعنى الكلمة.

وغالباً ما كان البعض يتصور الانتقال إلى طبقةٍ أعلى، بأنه عليه أن يموت في الطبقة الأدنى قبل أن يبعث حياً في الطبقة الأعلى. فالموت نفسه يحول بين طبقةٍ وطبقة، أى أنه حدٌ بالغ الخطورة، فيصبح التحول سبيلاً طويلاً خطيراً، فعلى المرء تجاوز كل الاختبارات وحالات الفرع الممكنة، فلا شيء يمنح الطامح إلى هذا مجاناً. إلا أن كل ما عاناه المرء صغيراً فإنه يستطيع بعد انضمامه للطبقة الأعلى أن يلحقه بالمرشح الذى يختبره هو بعد ذلك. وقد حصلت فكرة الطبقة الأعلى على شيء مستقل صارم وهو ما يعتبر حياةً كاملة بحد ذاتها وترتبط بها معرفة الأناشيد المقدسة والأساطير ولغة خاصة بها أحياناً. أما أعضاء الطبقة الأدنى، كالنساء المنبوذات من كل الطبقات العليا، فإنه يتحتم عليهم البقاء في حالة فزعٍ وطاعة من خلال أقنعةٍ رهيبة وأصوات غريبة. أما القاعدة الأكثر جموداً فتتبدى في تطبيق فصل الطبقات في نظامٍ فئوى، ففى إطاره يحرم الانتماء الفئوى كل تحول اجتماعى. فالمرء يصنف نفسه إلى أسفل وإلى أعلى، على نحوٍ أكثر دقةً. وكل تماسٍ مع طبقةٍ أدنى يكون محظوراً بصرامة، فالزواج لا يتم إلا بين أفراد الفئة الواحدة على أن يكون للمرء الوظيفة نفسها. وهكذا لا يتمكن المرء من خلال نوع العمل أن يتحول إلى كائنٍ من مستوى آخر، وتبعات هذا النظام تثير الدهشة، فمحضه بدقة هو وحده ما ييسر لنا معرفة كل بوادر التحولات الاجتماعية. فلما كان من الضروري تفادى هذه التحولات جميعاً فإنه تم تسجيلها ووصفها وفحصها بعناية. ومن خلال نظامٍ كامل للمحظورات يمكن معرفة التوجه الصحيح والاستنتاج الدقيق لما يعتبر تحولاً من طبقةٍ إلى طبقةٍ أعلى. ومحاولة القفز فوق الطبقات من منظور التحول هو أمر لا غنى عنه، إلا أن مثل هذه المحاولة لم تسجل بعد. وهناك شكل محدود لمحظور التحول ارتبط بأحد الأفراد الذى تربع على قمة المجتمع، وهو ما عرف في الأشكال المبكرة للنظم الملكية. ومن الجدير بالملاحظة أن كلا الشكليين من خصائص صاحب السلطة، المعروفة في التاريخ الأقدم للبشرية، يختلفان عن بعضهما البعض من خلال موقفهما المتضادين تجاه التحول، فمن جهةٍ هناك خبير التحول، الذى

يستطيع اتخاذ كل شكل متى شاء، سواء اتصل الأمر بحيواناتٍ أو أرواح حيوانات أو بأرواح الموتى. أما صاحب الخدع الذى يخدع الجميع من خلال التحولات فهو شكلٌ محبب في أساطير الهندو الحمر بأمريكا الشمالية. وتعتمد قوته على الأشكال غير المحصورة التى يستطيع اتخاذها، فهو يظهر فجأةً مثلما يختفى أيضًا، وهو يقبض على نحوٍ غير متوقع ويدع آخرين يقبضون عليه هو نفسه، ليفر مرةً أخرى. وكان التحول هو الوسيلة الأساسية التى يسيطر بها على كل أعماله المدهشة مرارًا وتكرارًا. ويصل خبر التحول إلى القوة الحقيقية ككاهن. فمن خلال وجده الروحى يستدعى الأرواح التى يخضع لها وهو يتكلم لغتها ويصبح مماثلًا لها وبوسعه أن يسخرها على كل وجه، فهو يصير طائرًا إذا انطلق في رحلة إلى السماء، وكحيوان بحرى ليغوص إلى أعماق البحر، فكل شيء متاح له، فالحالة المحمومة التى يصل إليها تنتج عن التبعة المطردة والسريعة للتحولات التى تهزه حتى يبحث بينها عما يحتاجه بالفعل من أجل أغراضه الخاصة. إن الممارس للتحول هو خبير في التحول، وهو يُقَارَن بشخص الملك المقدس الخاضع لمئات المحاذير والذى عليه البقاء في المكان نفسه، ويتحتم عليه أن يبقى كما هو، ولا يُسَمَح لأحدٍ بالاقتراب منه ولا يمكن رؤيته غالبًا ولا مرةً واحدة - فهكذا لا نرى فرقًا بينهما حتى في أبسط الأمور، فيما عدا موقفهما المتناقض من التحول.

فبينما يتنامى التحول لدى أحدهما، أى الكاهن، حتى يبلغ ذروته ويتم استغلاله استغلالاً تامًا، أما الآخر، أى الملك، فيُمنَع من التحول ويُحرَم منه حتى يصير في حالة تجميد تام. فعلى هذا أن يبقى كما هو حتى إنه لا يُسَمَح له بالتقدم في العمر. فعندما يظل رجلٌ في سنى العمر نفسه ونضجه وقوته وصحته فإنه سيجتاز ذلك. وإذا ما ظهرت أول آثار تقدم العمر في هيئة شعرة بيضاء، أو تراجعت قواه الذكورية فإنه في الغالب ما يُقتَل. إن ثبات هذا النمط، الذى حُرِّم عليه تحوله الخاص، رغم صدور الأوامر عنه على نحوٍ دائم، التى تحول الآخرين باستمرار، هو جوهر السلطة، وهو ما حدد التصور عنها لدى الإنسان المعاصر. فغير المتحول يكون قد وُضِع على ارتفاعٍ بعينه وفي مكانٍ بعينه داخل حدودٍ واضحة وغير متغيرة، ولا يسمح له بالنزول من عليائه، ولا يُسَمَح له بقاء أحد، وهو لا يستحى من شيء، إلا إنه يستطيع الارتقاء بآخرين بأن يوكل إليهم هذا المنصب أو ذاك، وهو يستطيع تحويل آخرين بأن يرتقى بهم أو يذلهم، فما

لا يجوز أن يقع له يفعله هو بالآخرين، فهو غير المتحول يحول الأخير وفق مشيئته.

إن هذا العرض السريع والعابر لبعض أشكال محظورات التحول التي ما زال هناك ما يقال عنها على نحوٍ أكثر دقةً يطرح السؤال عما ينطوي عليه هذا الحظر بالفعل، ولماذا يتم تناوله من حينٍ لآخر، وما هي الضرورة البالغة التي تدفع الإنسان إلى أن يفرض ذلك على نفسه أو على من هم على شاكلته، وليس بوسعنا الاقتراب من هذا السؤال إلا بحرص. ويبدو أن موهبة الإنسان في التحول وتنامي مرونة طبيعته كان هو ما يزعجه ويدعه يلجأ إلى الحواجز الثابتة وغير المتغيرة، فهو يشعر بكثيرٍ من الأشياء الغريبة على جسده ذاته - وعلينا هنا تذكر حالة الخفقان الخاصة برجل الأدغال - وأن هذا الشعور قد غلبه فاستسلم له ليتحول إليه. فمن دون هذا التحول، ومن دون ذلك لم يكن بوسعهِ إشباع جوعه، ومع استمرار هذا التحول المفروض عليه فإنه لم يعد يشعر إلا بالحركة حوله. أما حالة سيولة مشاعره وهيئته فقد أيقظت فيه إلحاحًا نحو الدوام والصلابة لا يمكن إشباعه إلا من خلال محظورات التحول.

والمرء يميل في هذا السياق إلى تذكر الأهمية التي يعلقها سكان أستراليا الأصليون على الأحجار، فكل الأفعال والتجارب وكل التنقلات ومصائر الأجداد امتزجت بالطبيعة وصارت نصبًا راسخة وغير متغيرة، فلا تكاد تكون هناك صخرة لا تعنى مخلوقًا صاحب إنجازٍ عظيم عاش هناك ذات يوم. وإلى الملامح الخارجية والضمخة للطبيعة، التي تظل غير متحركة، تضاف أحجارٌ صغيرة يمتلكها الناس ويحتفظون بها في الأماكن المقدسة. وكل واحد من هذه الأحجار يسلمها جيلٌ إلى جيلٍ آخر، فهو يعنى شيئًا محددًا تمامًا، فمعناه أو أسطوره قد ارتبطا به، فهو التعبير المرئي لهذه الأسطورة. وما دام الحجر باقياً على ما هو عليه فإن الأسطورة لا تتغير. وهذا التركيز على استمرار الحجر لا يعتبر أمرًا غريبًا، فأنا أرى فيه تعبيرًا عن نفس الأمنية العميقة ونفس الضرورة، وهو أمر يفضى إلى محظورات التحول.

العبودية

إن العبد هو مملوكٌ مثله مثل ما يُمتَلَك من الماشية، وليس مثل الأشياء التى لا روح فيها، فحرية حركته تذكر بحركة هذا الحيوان الذى يرعى ويُسمَح له بتأسيس ما يشبه الأسرة. فماهية "الشئ" الخاصة هى عدم النفاذ إلى داخلها، فهى يمكن دفعها أو تحريكها لكنها لا يمكن أن تخزن أوامر، وعلى هذا يكون الوصف القانونى المُحدّد للعبد بأنه "شئٌ ومُمتَلَك" وصفًا مضللًا، فهو حيوانٌ وممتلك. ونستطيع مقارنة العبد المفرد على الأحرى بالكلب، فالكلب الأسير قد تحرر من ارتباطه بقطيعه وشرّد منفردًا، فهو يخضع لأوامر سيده متنازلًا عن فعله الشخصى ما دام متعارضًا مع هذه الأوامر ومقابل ذلك يقوم سيده بتغذيته. وهكذا يكون للغذاء والأمر مصدرٌ واحدٌ هو السيد. وفى إطار هذا السياق لا تتساوى هذه الحالة بحالة الأطفال، فما يميزها عن حالة هؤلاء هو جوهر التحول، فالطفل يتدرب على كل التحولات التى قد يحتاجها فيما بعد. وفى أثناء تدريباته يأخذ والداه بيده ويشجعانه على ذلك دائمًا ويمدانه بما يلزم لتطويع قدراتٍ جديدةٍ ذلك، فينمو الطفل منفتحًا على اتجاهاتٍ عديدة، فإذا ما أتقن تحولاته فإنه يتم الارتقاء به إلى مستوى أعلى. أما العبد فيحدث له النقيض من ذلك، فمثلما لا يسمح السيد لكلبه بصيد ما يبتغيه فيضيق عليه

مجال هذا الصيد بما تقتضيه مصالحه الخاصة، فهكذا أيضًا يمنع العبد أيضًا من التحول، فلا يجوز للعبد أن يفعل هذا أو ذاك، لكن عليه تكرار أداء واجبات بعينها، وكلما ازدادت رتبة هذه الواجبات كانت هي أفضل ما يأمره به سيده. إن أثر تقسيم العمل على تحول الإنسان لا يمثل خطرًا ما دامح سمح له بأداء الكثير من الواجبات. لكن ما إن يقتصر ذلك على واحد فقط إضافة إلى إنجازه الكثير من ذلك قدر الإمكان وفي أقصر وقت ممكن، أي يصير منتجًا، فإنه يصير إلى هذا الذي نعرفه حقًا بالعبد. ومنذ البداية كان لا بد من وجود نموذجين مختلفين تمامًا من العبيد أولهما "منفردًا" مثل الكلب الأليف المقيّد إلى صاحبه والثاني في جماعة مثل القطعان في المراعى، وبالطبع كان ينظر إلى هذه القطعان نفسها على أنها أقدم أنواع العبيد. أما أمنية جعل البشر حيوانات فكانت هي الدافع الأقوى لانتشار العبودية. وليس بوسعنا معرفة قدر هذه الأمنية إلا مقارنةً بنقيضها، أي تحويل الحيوان إلى إنسان. وهذه الأخيرة يدين وجودها بالفضل إلى تكوين عقلى رائع مثل علم التحول والداروينية أو الملاهى الجماهيرية مثل عروض الحيوان المروضة. فما إن أفلح الإنسان فى امتلاك الكثير من جموع العبيد مثل حيوانات القطيع، حتى كان قد وضع أساس الدولة وامتلاك السلطة، ولا يمكن أن نرتاب فى أن أمنية امتلاك شعب كله من العبيد أو الحيوانات قد ازداد قوة داخل الحاكم كلما ازداد عدد الناس الذين يكونون شعبًا.

مظاهر السلطة

عن أوضاع الإنسان وما تمثله من أشكال السلطة

إن الإنسان الذى يؤثر وضع الوقوف مستقيماً يستطيع، من دون أن يترك مكانه، أن يجلس أيضاً أو يرقد أو يقبع أو يركع. وكل هذه الأوضاع، وعلى نحو خاص الانتقال من وضع لآخر، تعبر عن شيء بعينه، فقد خلقت المكانة والسلطة أوضاعاً ثابتة تقليدية، ما ييسر التوصل إلى اختلاف مكانة هؤلاء الناس بسهولة من خلال أوضاع بعضهم تجاه البعض الآخر. فنعرف معنى أن يجلس أحدهم منتصب القامة بينما ينظر إليه كل من حوله، وإذا ما ظهر واحد فجأةً فينهض كل الآخرين ويلتفون حوله، وإذا ما خر أحدهم على ركبتيه، وإذا لم يأذن بالجلوس لمن دخل إليه. وتعداد عشوائى مثل الذى قدمناه يوضح توافر الكثير من الأوضاع الصامتة للسلطة. ولسوف يكون من الضرورى أن نلقى الضوء عليها لتحديد أهميتها على نحو أكثر دقة. إن كل وضع جديد يتخذه المرء ينسحب على ما سبقه فإذا ما عرف هذا الوضع يكون تفسير الوضع الآخر أمراً هيناً، فإذا ما وقف رجل ما فإنه يمكن أن يكون قد قفز للتو من مخيمه أو يكون قد نهض من جلوس، ففي الحالة الأولى قد يكون خشى خطراً ما، وفي الحالة الأخرى يمكن أن يكون قد قصد تقدير إنسانٍ ما آخر، فكل تغير للوضع ينطوى على

أمر مفاجئ، وقد يكون معتاداً ومتوقعاً ومتسقاً تماماً كذلك مع تقاليد جماعة بعينها. لكن هناك دائماً احتمال تغيير وضع غير متوقع فيكون بذلك أكثر مفاجأة وأقوى تعبيراً، ففي أثناء الصلاة بالكنيسة يكثر الركوع وهو أمر مألوف وحتى هؤلاء الذين يؤثرون فعل ذلك لا يعلقون أهمية كبيرة على ممارسة الركوع الغالبة، لكن إذا ما حدث ذلك في الطريق على مرأى من رجل كان هو نفسه قد ركع للتو في الكنيسة فإن أثر ذلك سيكون هائلاً. لكن رغم التأويل المتنوع فإنه لا يمكن تجاهل توجه محدد لتثبيت أوضاع منفردة للإنسان وتوقيتها، فالجالس أو الواقف يعطى انطباعاً بالتحرر من علاقته الزمنية والمكانية مع الآخرين، ومثل هذه الأوضاع للتماثيل صارت بلا معنى وبلا قيمة حتى لا نكاد نلاحظها. لكن هذه الأوضاع تكون أكثر تأثيراً وأكثر أهمية عندما تمس حياتنا اليومية.

الوقوف

يتباهى الإنسان بالوقوف لأنه يكون حراً غير مرتكز إلى شيء. فسواء كان الوقوف استدعاءً لذكرى المرة الأولى التي وقف فيها الإنسان على قدميه كطفل، أو كانت هي فكرة التفوق على الحيوانات التي لا يكاد يكون من بينها من يستطيع النهوض على قدميه والوقوف حراً، فداًماً ما يشعر الواقف بنفسه مستقلاً، فمن ينهض يكون قد بلغ منتهى مستوى معين أى أقصى حد يستطيع الوصول إليه على الإطلاق، أما من ظل واقفاً لفترة طويلة فإنه يعبر بذلك عن قوة مقاومة بعينها سواء كان لا يدع فرصة لزعزعته من مكانه أو ابتغى أن يراه الآخرون كاملاً من دون إحساس بالرهبة أو الاختباء. وكلما أبدى هدوءاً في أثناء وقوفه، وكلما قلت التفاتاته نحو اتجاهات مختلفة، فإنه يبدو أكثر اطمئناناً حتى إنه لا يخشى أى هجوم من خلفه حيث تكون نظرته في اتجاه مخالف. وتزداد أهمية الواقف حين يجعل مسافة محددة بينه وبين الآخرين المحيطين به، فإذا ما كان أحدهم وحيداً منفصلاً على مسافة ما وهو واقف في مواجهة آخرين كثيرين فإنه يبدو ضخماً على نحو خاص للغاية، كأنه يقف وحيداً من أجلهم جميعاً، فإذا ما دنا منهم أكثر فإنه سيكون قد حاول الوقوف على نحو أسمى، وإذا ما اختلط بهم تماماً فإنهم سيرفعونه على أعناقهم على وضعه السابق ويطوفون به في أرجاء المكان، ويكون هو بذلك قد فقد استقلاليته ويكون على نحو ما قد اعتلاهم

جميعًا. والوقوف يعطى انطباعًا بتوافر طاقة لم تنفذ بعد، وهو ما يتضح مع أول حركةٍ للأمام. فالمرء يقف عادةً قبل الإقدام على السير أو الركض، فهو وضعٌ مركزي يتيح للمرء الانطلاق منه من دون تمهيدٍ للتغيير سواء كان ذلك لاتخاذ وضعٍ آخر أو أى صورةٍ من صور الحركة. وهكذا ننزع إلى أن نفترض في الواقف مدى بعيدًا من الانتباه حتى في لحظات تكون فيها نواياه شيئًا آخر تمامًا، فرمًا كان عازمًا في اللحظة التالية على الذهاب إلى النوم. فدائمًا ما يبالغ المرء في تقدير الواقف. وهناك احتفاءً خاص دائمًا عندما يتعرف رجلٌ بآخر، فهما يتبادلان الأسماء وقوفًا ويمد كلٌ يده للآخر وقوفًا وبذلك يكرم كل منهما الآخر، لكنهما يتنافسان أيضًا. ومهما حدث بعد ذلك فإن اللمسة الأولى "بين رجلٍ ورجلٍ" كانت في أثناء الوقوف. وفي البلاد التى تبدو فيها أهمية استقلالية الفرد على نحو أن المرء يمارسها بكل السبل ويؤكددها فإن المرء هناك يكثر من الوقوف ويطيله. فالمحال التى يتناول فيها البعض مشروبه واقفًا هى مفضلةٌ للغاية في إنجلترا على سبيل المثال. فالمرء يستطيع في أى وقتٍ ومن دون تكلفٍ بالغ أن يغادر المحل في أى وقت، فحركةٌ بسيطة وغير لافتة تسمح له بالتححرر من الآخرين، وهو يشعر من خلال ذلك أنه بحريةٍ أكثر مما هى الحال مع اضطراره إلى النهوض أولاً عن المائدة. فالنهوض يعتبر إفصاحًا عن النية بالابتعاد وهو ما يقيد حريته. حتى في مجتمعاتهم الخاصة فإن الإنجليز يفضلون الوقوف، فهم يعربون عند وصولهم عن عدم بقائهم لفترةٍ طويلة ويكون بوسعهم التحرك بحريةٍ أو التخلص من أحدهم للالتفات لآخر، ولا يكون في ذلك لفثٌ للانتباه أو إهانةٌ لأحد. إن المساواة داخل جماعةٍ اجتماعية معينة، وهى واحدة من أهم قواعد الحياة الإنجليزية وأكثرها فائدة يتم التأكيد عليها بمنح الجميع حق الوقوف، فعلى هذا النحو لا يكون هناك "من يعلو الآخر"، ومن شاء منهم محادثة الآخر استطاع مواجهته.

عن الجلوس

يستعير المرء من أجل الجلوس سيقان غيره بدلاً من ساقيه اللتين تنازل عنهما من أجل الوقوف مستقيماً. وقد نُقل شكل المقعد الذى نعرفه به اليوم عن العرش. إلا أن هذا كان يتطلب حيواناتٍ أو بشرًا خاضعين يكون عليهم حمل الحاكم. والأربعة سيقان للمقعد هى بديلٌ عن سيقان الحيوان، حصانًا كان أو

بقرةً أو فيلاً. على أننا نفرق بين الجلوس أرضاً وبين هذا النوع من الجلوس على المقاعد العالية، فهذا النوع له معنى آخر تماماً. فقد اعتبر الجلوس على مقعدٍ امتيازًا، فمن جلس يكون قد احتل مكانًا أعلى من الآخرين الذين كانوا رعيته أو عبيده. فإذا ما جلس وجب عليهم هم الوقوف ولا يكون لتعبهم قيمةٌ ما دام هو مستريحًا. فقد كان هو الشيء الأهم، وبذلك كان توفير قواه المقدسة هي التي تحدد الخير لكل الآخرين. وكل جالسٍ يضغط على شيء ما مستسلم، ولا يكون بوسعه ممارسة ضغطٍ مضاد، وهذه هي سمات ركوب الخيل التي انتقلت إلى الجلوس. إلا أن حركة الخيال دائمًا ما تعطى الانطباع بأن الهدف من ذلك في حد ذاته أن المرء يريد الوصول للهدف راكبًا وأسرع مما هو ممكن. فعلاقة جمود امتطاء الخيل بالجلوس تجعل من علاقة الأعلى بالأدنى شيئًا مجردًا كأن الأمر ارتبط بالتعبير عن هذه العلاقة تحديدًا. فالأدنى الخالي من الحياة كان قد تم تحديده على هذا النحو للأبد، فهو لم يعد له إرادةٌ على الإطلاق وهو أقل قيمةً من العبد. إنها عبودية بأقصى تبعاتها. أما الأعلى فبوسعه التصرف بكل حرية واعتساف، فهو يستطيع أن يجيء ويجلس ويبقى طويلًا كيفما شاء ويستطيع أن يمضى لحال سبيله من دون أن يلقي بالاً لما تركه خلفه. وهناك نزعةٌ واضحة للتمسك بهذه الرمزية. فالإنسان يتمسك بالمقعد ذي الأربع سيقان، أما الأشكال الحديثة فتجد صعوبةً في منافسة ذلك. ومن المفترض أن ركوب الخيل سيختفى على نحوٍ أسرع من هذا الشكل من المقاعد الذي تجلى معناه بوضوح تام. إن شرف الجلوس ينطوى على مدى بقاء الجالس على نحوٍ خاص للغاية. فبينما نتوقع الكثير من الشخص الواقف، كما تسهم إمكاناته العديدة في احترامه وحركته وحيويته بالكثير، فإن المرء يتوقع من الجالس أنه سيبقى جالسًا، فالضغط الذي يمارسه يؤكد مكانته وكلما طالت فترة ممارسته له بدا من خلال ذلك أكثر ثقةً، ولا تكاد توجد مؤسسة إنسانية لا تستفيد من كيفية الجلوس فتستخدمها من أجل حمايتها وتوطيد أركانها. إنه الثقل الجسدي للإنسان الذي يعبر عنه الجلوس وهو ما يتطلب المقعد الأعلى ليجعل من نفسه ذا حيثية، فمعًا مع السيقان الدقيقة يبدو الجالس بالفعل أكثر ثقلًا. أما الجلوس مباشرةً على الأرض فيظهر الإنسان مختلفًا، فالأرض أكثر ثقلًا وكثافةً من أي مخلوق، أما الضغط عليها فلا يشكل أدنى أهمية، فليس هناك شكلٌ أساسي للسلطة أعظم من هذا الذي يمارسه جسد الإنسان، فهو بوسعه من خلال طول قامته أن يفوق الآخرين،

لكن ذلك يتطلب منه أن ينهض واقفًا، وبوسعه أن يكون مؤثرًا من خلال ثقله وفي سبيل ذلك يتحتم عليه ممارسة ضغطًا مرئيًا، ومن خلال نهوضه يضاف الوضع الأول إلى الثاني، فالقاضي الذي يكون جالسًا في أثناء نظر قضية ما يكون ملتزمًا بعدم الحركة قدر إمكانه، ثم بعد ذلك، عندما يقدم على إصدار الحكم فإنه ينهض واقفًا فجأةً فيعبر بذلك عن هذه العلاقة في أكثر وجوها نقاءً. إن المظاهر المتنوعة للجلوس هي في جوهرها مظاهر متنوعة للضغط، فالمقاعد المبطنة ليست مرنةً فحسب، فهي تمنح الجالس شعورًا خفيًا بأنه ينوء بثقله على شيء حى، فارتخاء البطانة ومقاومتها المرنة يشبهان مقاومة وارتخاء اللحم الحى. وقد يكون عزوف بعض الناس عن المقاعد المرنة للغاية مرتبطًا بمعرفة هذا الأمر. ومن المدهش أن نرى إلى أي مدى ذهبت راحة الجلوس حتى لدى الجماعات الإنسانية غير المرفهة عادةً، إلا أن الأمر هنا يرتبط بأناس صار الحكم طبيعة ثانية لهم وهم يؤثرون إبراز ذلك في شكل رمزٍ مبسط.

عن الرقود

إن الرقود يعنى نزع أسلحة الإنسان، فالعديد من التصرفات والسلوكيات التى تحدد وضع المرء فى وضع الاستقامة يتم التخلي عنها، كمن تحرر من ملابسه، كأنها لا تنتمى إليه إطلاقًا رغم اجتهاده كثيرًا فى سبيلها. وهذه العملية الظاهرية تسير متوازياً مع العملية الداخلية للنعاس حيث يتم التخلي عن الكثير ليطرح جانباً، ما كان يبدو أنه لا غنى عنه عادةً من سدود وموانع بعينها حامية للفكر، أى ملابس الروح. فالراقدينزع أسلحته إلى حد أنه لا يمكن فهم كيف استطاعت البشرية إنجاز البقاء على قيد الحياة بعد النوم، ففى الحالة الأكثر بدائية التى عاشها البشر فإنهم لم يسكنوا دائماً الكهوف، لأن حتى هذه لم تكن آمنة. أما الأبواب المصنوعة من الأغصان والأوراق التى كانت تحمى من الوحوش فى أثناء الليل فكانت لا تمثل حمايةً على الإطلاق. فمن المعجزات أنه ظل هناك بشرٌ، فمن المفترض أنهم قد انقرضوا من زمن بعيد عندما كان عددهم ضئيلاً قبل أمدٍ بعيد من انتظامهم صفوفًا مكثفة للقضاء على بعضهم البعض. أما حقيقة النوم واتسامه بالعجز وتكراره واستمراره فقد اتضح ضحالة كل نظريات التكيف التى لم تستطع تفسير كثير من الأمور وصارت تبحث مرارًا وتكرارًا عن تفسيراتٍ

وهمية، لكن الأمر هنا لا يدور حول هذه المسألة الأعمق والتي يصعب تفسيرها تفسيراً عميقاً، أى سر قدرة البشرية بإجمالها على أن تبقى على قيد الحياة بعد النوم، لأن الأمر هنا يرتبط بالرقود ومقدار سلطته مقارنةً بأوضاع أخرى للإنسان. فمن ناحيةٍ، وكما رأينا، يكون الواقف معبراً عن طول القامة والاستقلالية والجالس يعبر عن الثقل والفترة الزمنية، وعلى الناحية الأخرى فإن الراقد يعبر عن استسلام خاصةً عند النوم فيكون ذلك كاملاً، إلا أن ذلك ليس استسلاماً إيجابياً فهو غير مرئٍ ولا يبدو له أى أثر، فالراقد يتحرر أكثر فأكثر من محيطه، فهو يريد بل السبل أن يختفى داخل نفسه ويكون في حالةٍ خالية من الحدث، فعدم الانتباه قد يمثل له قدراً من الأمان، قدراً معيناً وإن كان ضئيلاً، وبقدر إمكانه فقط فإنه يحمل نفسه على لمس جسدٍ آخر فهو يرقد على امتداده كاملاً وفي كل مكان قدر المستطاع يلمس هو شيئاً ما لا يكون سوى نفسه. فأما الواقف فهو حرٌّ، ولا يركز على شيء، بينما يمارس الجالس ضغطاً ما، وأما الراقد فهو ليس حرّاً في أى شيء، فهو يركز على كل شيء يكون متاحاً كما يوزع ضغطه على نحوٍ لا يكاد يحس به. أما إمكانية أن ينهض فجأةً من رقادٍ عميق ليقفز عاليًا فإنها سوف تكون حالةً مدعاة للإعجاب والإثارة، فهي توضح قدرة الإنسان الكبيرة على الحياة، وقدرته على الإفاقة من النوم ومدى قدرته على ملاحظة كل شيء وسماعه حتى إنه لا يفاجأ به في الواقع. وقد أكد كثيرون من أصحاب السلطة على هذا الانتقال من الرقاد إلى وضع الانتصاب. وقد نشروا رواياتٍ عن ذلك وكيف حدث لهم ذلك التحول في سرعة البرق. ومن المؤكد أن أمنية مواصلة نمو الجسد تلعب دوراً هنا، فالنمو يتوقف لدينا عند سنٍ معينة، أما كل أصحاب السلطة فيبتغون أساساً أن ينمو جسدُهم على نحوٍ أكبر، بل إنهم يؤثرون أن يجعلوا القدرة على ذلك تحت سيطرتهم ليستخدموها حسب احتياجاتهم. فالنمو المفاجئ غير المتوقع يبعث الفزع في الآخرين الذين لا يملكون الشيء نفسه، وهم يتفوقون عليهم بذلك، وبعد ذلك عندما لا يراهم أحد يعودون ثانيةً إلى حجمهم الصغير، ليكبر حجمهم في أول فرصة في العلن. والإنسان الذى يستيقظ ويقفز من الفراش، وقد كان قبل لحظات قد نام متكوراً كالجنين في رحم أمه، يستعيد هذه الحركة المفاجئة ثانيةً لنموه كله، وحتى لو أنه، رغم إحساسه بالمرارة، لم يستطع أن ينمو لحجمٍ أكبر عما هو عليه فإنه سيكون على الأقل في حجمه الذى هو عليه. إلا أنه هناك بجانب هؤلاء ممن ينشدون الراحة آخرون يرقدون رغماً

عنهم من أصيبوا بجروح أو من لا يستطيعون الوقوف، رغم رغبتهم الشديدة في ذلك. أما الراقدون رغمًا عنهم فإن نكبتهم تذكر بالحيوانات المصابة المقتنصة. ويعتبرون ما أصابهم وخضعوا له بمثابة دفعة قوية إلى منحدر الموت. فالمصاب يصبح مقضيًا عليه تمامًا، فإن كان قبل ذلك خطرًا للغاية فإن موته يجعله مادةً للكرامية فيدهس بالأقدام لأنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ويلقى به جانبًا، ولسوف يلام على أنه ميت ويعترض الطريق أيضًا فلا ينبغي أن يصبح أى شيء حتى لو كان جثة هامة.

إن سقوط الإنسان الذى يهوى إلى الأعماق يبدو مدعاةً لاحتقارٍ ونفورٍ أعظم من سقوط الحيوان. ويمكن القول بأن مشهد المصاب بالنسبة للمنتصب يوحدهما معًا، فهو انتصار طبيعى مألوف على المصاب وانطباع عن سقوط مخزٍ للإنسان، والمقصود هنا هو ما يعتمل داخل المنتصب في "الواقع" وليس "المفترض" أن يدور داخله. وفي بعض الحالات يمكن أن يزداد هذا التوجه قوةً. وقد كان لكثيرين ممن سقطوا تأثيرٌ رهيب على من عايش ذلك، فقد بدا أنه وحده الذى أسقطهم فينمو شعوره بالسلطة بسرعة وفي طفرات، وهو ما لا يستطيع أحدٌ منعه من النمو، فهو يمتلك كوم الموتى أو المحتضرين كافةً، وهو الوحيد من بقى حيًا وكل شيء آخر صار غنيمَةً له، ولا يوجد شعورٌ بالنصر أخطر من ذلك، فمن سمح لنفسه بذلك مرةً سيشعر بذلك عند تكراره في المستقبل. وتُعلق على تباين العدد بين الراقدين والمنتصبين أهميةً كبيرة، كما تلعب الظروف أيضًا دورًا مهمًا، فللحرب والمعركة طقوسهما الخاصة وينظر إليهما كحدث "كتلى" منفصل. لذا كانت الممارسات حرةً تمامًا في مواجهة العدو الذى لا يُعاقب أحدٌ على سقوطه، فبوسع المرء أن يشعر تجاهه كما لو كان هذا من طبائع الأمور. أما في حالة السلم بالمدينة الكبيرة فإنه يكون للشخص المفرد الذى يسقط ولا يستطيع النهوض أثرٌ مختلف على كثيرين ممن رأوه ولسوف يضع كل من هؤلاء نفسه مكانه طبقًا لظروفه ومسلكه وطريقته بأبعادٍ مختلفة فيواصل أحدهم سيره بضميرٍ مؤنب، أو أنه سيبدل جهدًا في مساعدته. فإذا ما استطاع النهوض على قدميه ثانيةً فإن كل من رأوه سوف يشعرون بالرضا لعودة هذا الإنسان للحياة الذى هو ليس سواهم أنفسهم. فإن لم يستطع ذلك فإنه يُسلم إلى المؤسسة المعنية. ويتولد هناك دائمًا لدى البشر الأسوياء شعورٌ هش بالاحتقار نحو من صار على هذه الحال، فيمدون له يد المساعدة التى يحتاجها، لكنهم

بذلك يكونون قد طردوه من جماعة المنتصبين ولا يقبلونه بينهم ولو للحظة واحدة.

الجلوس أرضاً

يعبر الجلوس أرضاً عن عدم الاحتياج، أى الانكفاء على الذات. فالمرء يكور نفسه قدر الإمكان ولا ينتظر شيئاً من الآخرين، متنازلاً عن أى فعل قد يفضى إلى رد فعل. ويبدو الجالس أرضاً هادئاً راضياً ولا يتوقع المرء هجوماً منه، فهو راضٍ سواء كان لديه كل ما يحتاجه أو أنه لم يعد يطلب لنفسه شيئاً. فالشحاذ الجالس أرضاً يعبر عن أنه راضٍ وقانع بأى شيء يمنحه المرء له. أما الشكل الشرقى للجلوس أرضاً الذى اعتاده الأغنياء مع زائريهم فينطوى على شيء من موقفهم الشخصى نحو ما يمتلكونه، فيبدون كأنهم يحملون ما يملكون داخلهم مطمئنين إلى ذلك تماماً. وما داموا جالسين أرضاً فإنهم لا يظهرون أية مخاوف أو هموم من أن يسرق ذلك منهم أو يفقدوه على نحوٍ أو آخر. وهم يستعينون بالخدم على أنهم خدم لممتلكاتهم، فيتجنبون بذلك الجفاء الطبيعى لهذه العلاقة، فالمرء هنا لا يستعرض جلوسه على شيءٍ كما يفعل الجميع الجاثمون على المقاعد، فهو هنا يكون مثل وعاء اتخذ هيئةً حسنة وقد احتوى داخله كل ما يجب احتواؤه. ويأتى الخدم ليعتنوا بالوعاء. لكن الرضا بما يمكن حدوثه هى من خصائص هذا النوع من الجلوس أرضاً، والرجل نفسه كان سيجلس هكذا كشحاذ وسوف يعبر ذلك عن أنه ليس شخصاً آخر. فالجلوس أرضاً يمكن أن ينطوى على كليهما أى الثروة والفقر. وهو مشهدٌ مألوف لدى كل من يعرف الشرق، فالجالس أرضاً يكون راضياً متحرراً من الناس ولم يجثم على أحد.

الركوع

بجوار شكل الركود العاجز، الذى تعرفنا عليه، يوجد وضعٌ إيجابى يؤثر مباشرةً على صاحب القرار الذى يشعر تجاه هذا العجز بتعاظم سلطته، فيعتبر مسلك "الركوع" تفسيراً لتوسل العفو.

فالمحكوم عليه بالإعدام ينكس رأسه ليستسلم لاجتزازه، فهو لا يفعل شيئاً ضد ذلك. فمن خلال وضع جسده ييسر تنفيذ إرادة الآخر، لكنه في اللحظة الأخيرة يعقد يديه متوسلاً العفو من صاحب القدرة. والركوع هو دائماً خدعة اللحظة الأخيرة، وإن كانت في حقيقتها تدور حول شيء آخر تماماً فهي تملقُ مبالغ فيه ينطوى على لفت الانتباه، فهذا الذي بدا مستسلماً للموت ينسب إلى من ركع أمامه السلطة العظمى، أى سلطته على الحياة والموت. ولا بد من أن يتوافر لهذا القوى ضمان كل شيء آخر. فرحمته ينبغي أن تتساوى مع عجز الراكع، الذى يبالغ فى اتساع الهوة بينهما ليعتقد القادر أنه وحده الذى يستطيع اجتيازها، فإن لم يفعل شعر بضالة قدره فى اللحظة التى يركع فيها الآخر أمامه.

المايسترو

ليس هناك ما يعبر عن السلطة أكثر من عمل المايسترو، فكل تفاصيل مسلكه العلنى له دلالة، وكل ما يقوم به يلقي ضوءاً على طبيعة السلطة، ومن لا يدري عنها شيئاً يستطيع بعد مشاهدة منبهة للمايسترو أن يستنتج صفاتها الواحدة تلو الأخرى. ولما كان ذلك لم يحدث قط فإن لذلك مبرراً كاشف، فالموسيقى التى يستدعيها المايسترو تبدو للناس هى الأمر الرئيسى، ويعتبر كأنه أمر متفق عليه بأن يذهب المرء إلى حفل موسيقى ليستمع إلى سيمفونيات، ويكون المايسترو نفسه هو الأكثر اقتناعاً بذلك، فدافعه - كما يعتقد - هو خدمة الموسيقى، وهو ما عليه نقله وليس شيئاً آخر. فالمايسترو يعتبر نفسه الخادم الأول للموسيقى وهو مشبّع بها إلى حد أنه لا ينشغل بأية فكرة أخرى غير المعنى الموسيقى لعمله. وقد لا يُدهش أحدٌ غيره بالتفسير التالى. إن المايسترو واقف. فما زال انتصاب الإنسان، كذكرى قديمة، يمثل أهميةً في كثير من صور السلطة. فهو يقف وحيداً بينما يجلس حوله أفراد فرقة الموسيقى ويجلس خلفه المستمعون. ومما يسترعى الانتباه أنه الوحيد الواقف. وهو يقف مرتفع الهامة ويُرى من الأمام والخلف، فمن الأمام تؤثر حركته على الفرقة الموسيقية وعلى المستمعين من خلفه. أما نظامه الحقيقى فإنه يقوده بيده أو بالعصا،

وهو يبعث الحياة في هذا الصوت أو ذاك من خلال حركة بسيطة تمامًا، ويخرس كل ما يشاء دائمًا. وهكذا تكون له السلطة على حياة وموت الأصوات، فالصوت الذى يكون قد مات من زمن بعيد يستطيع العودة للحياة بأمره هو. واختلاف الآلات الموسيقية يماثل اختلاف البشر، فالفرقة الموسيقية تكون بمثابة جمع لكل نماذجهم المهمة. أما استعدادهم لطاعته فيتيح للمايسترو تحويلهم إلى وحدة يكون هو رمزًا علنيًا لها بوجه عام. فأما العمل الذى يؤديه، وهو فى كل الأحوال ذو طبيعة معقدة، فيتطلب منه الانتباه الشديد. فالحضور ذهنى والسرعة يعتبران من صفاته الأساسية، فعليه أن ينقض بسرعة البرق على من يخترق القانون، والقوانين توضع بين يديه كنوتة موسيقية، وهى متوافرة للآخرين كذلك فيمكنهم مراقبة تنفيذه لها، لكنه هو وحده الذى يحكم ذلك وهو وحده الذى يحكم فورًا على الأخطاء، ولما كان ذلك يحدث علنًا، وهو ما يراه الجميع، فإن ذلك يعطى المايسترو شعورًا من نوع خاص، فهو قد اعتاد أن يكون دائمًا مرئيًا ولا يستطيع الاستغناء عن ذلك إلا بصعوبة. وجلوس المستمعين فى سكون يخضع لأمر المايسترو بقدر طاعة الفرقة له، فهناك ممارسة إذعان على المستمعين بأن يلزموا عدم الحركة، فحركاتهم تتداخل قبل أن يظهر هو أمام الفرقة، أما وجود الموسيقيين فهو أمر لا يزعج أحدًا ولا يكاد يلتفت إليهم. فإذا ما ظهر المايسترو نهض واقفًا وهو يتنحى ويرفع عصاه فيصمت الجميع ويتجمدون بمكانهم فلا يجوز لهم الحركة ما دام هو يقود الفرقة، فإذا انتهى كان عليهم أن يصفقوا، بعد أن اضطروا إلى تخزين كل رغبتهم فى الحركة التى أيقظتها الموسيقى فيهم حتى النهاية لتتطلق بعد ذلك. وأمام الأيدى المصفقة ينحنى هو ومن أجلها يعود ثانية ما دامت الأيدى تريد ذلك فلها هى فقط يستسلم هو، ومن أجلها هى يعيش هو حقًا، فهى التراكم القديم للمنتصر الذى صار من حقه. أما حجم النصر فيعبر عنه حجم التصفيق. فالنصر والهزيمة يتخذان الشكل الذى يتسق مع كيانه الروحى ولا يعتد بشيء سوى ذلك. فكل ما يوجد من أمور أخرى فى الحياة يتحول هنا إلى نصر وهزيمة. وفى أثناء العزف يكون المايسترو بمثابة القائد للجمع بالقاعة، فهو يقف فى مقدمتهم وقد أدار لهم ظهره. إنه هو الذى يتبعه المرء، فهو من يقدم على الخطوة الأولى، وبدلاً من القدم يودى هو ذلك باليد. أما المسار الموسيقى الذى تحدده اليد فيكون رمزًا للطريق الذى كان يطرقه بخطاه. وهو يختطف الكوم بالقاعة، وفى أثناء العمل كله لا يرى أولئك وجهه

أبدًا، فهو صلبٌ لا يسمح لنفسه بالراحة، وهو يقف بظهره دائمًا أمامهم كأنه هو الهدف، فإذا ما استدار لمرةٍ واحدة انكسر المسار فيختفى الطريق الذي شقوه، فيجلسون مصدومين بلا حراكٍ بالقاعة. لكن بوسع المرء الاعتماد على أنه لن يستدير، فبينما هم يتابعونه يكون عليه هو قيادة جيش من العازفين المحترفين من خلال يده التي لا تشير إلى الطريق فحب بل بل تصدر الأوامر كذلك. وأما نظرته المركزة قدر الإمكان فهي تشمل الفرقة كافةً، وكل فردٍ فيها يشعر أنه يراه، بل بالأحرى أنه يسمعه، فأصوات الآلات هي آراءٌ ومعتقدات يمنحها هو أقصى انتباه، فهو العليم بكل شيء، فبينما يقدم الموسيقيون نغماتهم علنًا يكون لديه هو نوتة موسيقية كاملة برأسه أو على الحامل. فهو يعرف بدقةٍ بما هو مسموح لكل فردٍ في كل لحظة. ولما كان ينتبه للجميع معًا فإن ذلك يمنحه منزلة الهيمنة. فهو موجودٌ برأس كل فردٍ على نحوٍ ما. وهو يعرف ما على كل فردٍ فعله، فهو مجمع القوانين الحى القابض على طرفي العالم الأخلاقي، فهو يعلن عما يحدث من خلال أمرٍ بيده، كما يمنع ما لا يصح أن يحدث، وأذنه تلاحق في الأثير ما هو محظور. وبذلك يكون المايسترو هو من يجسد عمل الفرقة كله. ولما كان العالم في أثناء العرض لا يتكون من شيءٍ آخر غير هذا العمل، إضافةً إلى توافقه وتتابعه، فإن المايسترو يكون في أثناء ذلك كله هو حاكم العالم.

المجد

إن الساعى إلى التمجيد الحقيقى لا يهتم بلسان من يلهجون باسمه، فهو لا يعتبر بالفرق بين هذا وذاك، فجوهر الأمر أن يُذكر الاسم. وعدم مبالاة الساعى إلى المجد بالمرددين لاسمه، أو المساواة بينهم، هو ما يشى بأن نزوعه للشهرة قد نشأ عن أحداث الكتلة. فاسمه هو ما يجمع الكتلة. والاسم يعيش حياته الخاصة النهمة غير مرتبطٍ إلا بالقليل من شأن الإنسان في الواقع. أما كتلة الساعى إلى المجد فتتكون من ظلال، وكائنات لا يكون لهم وجود في الحياة ما استطاعوا ذكر اسمه ولو لمرة واحدة وحيدة، وما ينتظر منهم أن يرددوه غالبًا بين الكثيرين أى في إطار جماعة حتى يتعلمه كثيرون ويدعموه بنطقهم له.

إلا أن ما تهتم به هذه الظلال، فيما عدا ذلك من ناحية الحجم والمظهر والغذاء، فهو أمرٌ لا يهتم صاحب الصيت على الإطلاق. فإذا ما كان أحدهم لا يزال يهتم بهذه الأفواه المرددة للاسم، ويراهن على هؤلاء أو يجندهم فإنه يكون ما زال لم يحظ بالشهرة بعد، بل إنه يكون حينذاك في مرحلة تدريب قيادات جيشه الذى سيكونه من الظلال. وهو لا يكتسب المجد إلا عندما يكون بوسعه السماح بسقوط هؤلاء من دون أن يخسر هو شيئاً م نجراء ذلك. أما الفروق بين الثرى وصاحب السلطة والمشهور فيمكن تحديدها كالتالى: فالثرى يجمع أكوامًا وقطعانًا. أو المال الذى يستخدمه لاشتراء ذلك، وهو لا يهتم بالبشر.

أما صاحب السلطة فيقوم بجمع البشر، فالأكوام والقطعان لا تعنى له شيئاً إلا عندما يحتاجها في اكتساب الناس، فهو يريد أناساً أحياء ليرسلهم إلى الموت أو ليأخذهم معه إليه، أما الموتي السابقون والنسل الجديد فلا يهمهم أمرهم إلا على نحو غير مباشر. وأما المشهور فيجمع أصوات جماعية وهو لا يريد سوى سماع اسمه تردده أفواههم، وإن كان هؤلاء موتى أو أحياء، أم لم يولدوا بعد فإنه لا ينشغل بذلك، فما يهمه فقط أنهم كبار وتدريبوا على النطق باسمه.

نظام الزمن

يعتبر النظام أمرًا جوهريًا لكل الأنماط السياسية الأكبر حجمًا. فنظام الوقت ينظم كل أنشطة البشر المشتركة. فبوسعنا القول بأن نظام الوقت هو أرفع سمات كل أنواع الحكم. فالسلطة الناشئة حديثًا الساعية إلى ترسيخ وجودها لا بد من أن تتجه إلى نظام جديد للزمن، فيكون الحال كأن الزمن بدأ معها، والأهم من ذلك لكل سلطة جديدة ألا ينقضى الوقت. فمن حقوقها الزمنية هذه يُنتزع تصور تضخم السلطة. وهو ما لم يستطع هتلر فعله مع إمبراطورية يمتد تاريخها لألف سنة. ولقد استمر تقويم يوليوس قيصر لزمنٍ أطول، فقد استمر الشهر الذى يحمل اسمه بعده بكثير. ومن بين الشخصيات التاريخية كان أغسطس وحده هو الذى حقق اسم شهر مستمر، بينما كان هناك آخرون أطلقوا أسماءهم على الشهور على نحوٍ عابرٍ إلا أن أسماءهم سقطت مثلما سقطت تماثيلهم التذكارية. أما التأثير الأعظم على نظام الزمن فكان للمسيح، فقد تفوق فى هذا الشأن على الإله نفسه، هذا الإله الذى خلق العالم ما مكن اليهود من وضع بداية حساب الزمن. أما الرومان فقد حسبوا الزمن بدايةً من تأسيس مدينتهم وهى طريقة استعاروها من الـ"أرتوريين"، وهو ما حقق الكثير لمصير روما العظيم فى أعين العالم. كما اكتفى بعض الفاتحين بتسجيل أسمائهم فى

موضع ما بالتقويم. وقد تكون آمال نابليون قد عُلقت على يوم الخامس عشر من أغسطس، فربط اسم ما بتكرارٍ منتظم للزمن يولد جاذبية لا تقاوم. ولما كانت أغلبية البشر العظمى ليست على دراية بأصل التدوين الزمني فإن ذلك لم يثبط عزيمة أصحاب السلطة لتخليد أسمائهم بهذه الطريقة، إلا أن أحدًا لم يستطع إطلاق اسمه على فصلٍ كامل من السنة، رغم تسجيل حلقاتٍ كاملة من القرون باسم أسرةٍ حاكمة واحدة. فالتاريخ الصيني تم وضعه حسب عهود حكم هذه الأسرات، فهم يذكرون عصر "الهان" أو عصر "التانج". وقد استفادت من مجدهم أسراتٌ أخرى صغيرة بئس، وقد صار ذلك وسيلةً لحساب السنين في مجمله لدى الصينيين، أى تمجيد للأسرات أكثر منه للأفراد، إلا أن ربط تسجيل أصحاب السلطة بالزمن لم ينته عند إعجابهم بأسمائهم، فقد ارتبط الأمر لديهم بتنظيم حساب الزمن بحد ذاته وليس تغيير أسماء وحداتٍ زمنية كانت موجودةً بالفعل. وتاريخ الصينيين يبدأ بمثل هذه النظام فقد تأسست مكانة الحكام الأسطوريين في جانبها الأعظم على تقسيم الزمن الفعال الذى نسب إلى هؤلاء، وقد عُيّن موظفون خصوصًا للقيام على رعاية ذلك، وكان يتم عقابهم إن هم أهملوا ذلك. ولم يتوحد الصينيون إلا بعد وضعهم لزمانٍ مشترك، بل إن المدنيات لم تعرف حدودها إلا من خلال وضع نظام الزمن، وهو ما أثبت جدارةً في استمرار موروثهم المنتظم، وقد انهارت عندما توقفت عن الاستمرار في ذلك وانتهت عندما لم يعد يؤخذ تقويمها الزمني على محمل الجد. وفي هذه النقطة كان التطابق مع حياة الإنسان الفرد أمرًا ممكنًا، فالإنسان الذى لا يريد معرفة كم بلغ من العمر يكون قد طوى صفحة حياته وهو لا يستمر في الحياة إذا لم يستطع معرفة ذلك. وتعتبر حقب فقدان التوجه الزمني سواء على مستوى الفرد أو حضارات كاملة حقب خزى يحاول المرء استئصالها على أسرع وجه ممكن. أما الأسباب العملية لهذه الأهمية الغالبة التى اكتسبها تقسيم الزمن فهى واضحة جلية، فهو يضم وحدات كبيرة من البشر معًا عاشوا متفرقين عن بعضهم البعض ولم يروا بعضهم البعض، أما في جماعة صغيرة تتكون من خمسين فردًا فإنه دائمًا ما يعرف كل منهم بما يفعله الآخر وهم يلتقون بسهولة لأداء ممارساتهم الجماعية، فإيقاعهم يدور في إطار حالات حزم بعينها، وهم يرقصونها دائمًا كما يرقصون أشياءً أخرى كثيرة، فلم يعد الأمر لديهم يتوقف على تداول زمن حزمة إلى حزمة أخرى، فإن كان الأمر يتوقف على الزمن فإنه يمكن إبلاغه بسهولة لأنهم يعيشون بالقرب من بعضهم

البعض، ومع ذلك التوسع في العلاقة فإن الاهتمام بالوقت الصحيح يصير أكثر إلحاحًا وهنا تستخدم الطبول وإشارات النار لإبلاغ المعلومات إلى مدى واسع. ومن المعروف أن موجز الأزمنة الأولى للمجموعات الأكبر قد خدم حياة الفرد، فالملوك الذين امتدت حياتهم لمرحلة زمنية بعيدة كانوا جسدوا هذا الزمن للجميع. أما موتهم سواء كانت نتيجة لتدهور قواهم الكاملة أو جاء فيما بعد متسقًا مع مدة حياتهم الطبيعية فإنه كان يمثل فصلاً من الزمن، فقد كانوا هم الزمن، وبين أحدهم والآخر كان يتوقف الزمن. ومثل هذه الحقب الزمنية البينية يحاول المرء قصرها على فترة زمنية قليلة قدر الإمكان.

البلاط

تقوم فكرة البلاط بالمقام الأول على أنه مركز، أى نقطة التقاء يتوجه الناس إليها. فالنزوع إلى الحركة نحو نقطة مركزية هو أمرٌ قديم للغاية، وقد لوحظ ذلك لدى الشمبانزى. إلا أن النقطة المركزية هذه كانت قديمًا متحركةً، فقد تنشأ هنا أو هناك، وهى تنتقل مع هؤلاء الذين يتحركون حولها. ولا تترسخ النقطة المركزية إلا على نحوٍ تدريجى. وكانت الأحجار الكبيرة والأشجار هى المثل لكل ما هو ثابت بمكانه، فشيدت من الأحجار والأشجار فيما بعد أكثر مراكز الإقامة ثباتًا، وما تبقى منها كان يتكرر الإشادة به. فمشقة تشييد أحد هذه المراكز وجلب الأحجار من مسافاتٍ بعيدة وعدد البشر المشاركين فى هذا العمل وكذلك الفترة الزمنية ذاتها التى يتطلبها تشييد هذا المركز، كل هذا ساهم فى الارتقاء بمكانته كمركزٍ باقٍ. إلا أن هذه النقطة المركزية الدائمة لعالم صغير والتى صارت بمثابة النظام به لم تكن قد صارت "بلاطًا" بعد. فالبلاط يتطلب انتقاء وإع لمجموعةً أساسية من رجال بعدد مناسب ليكونوا جزءًا لا يتجزأ من المبنى. ويتنظمون كانتظام الأوراق نفسها فى درجاتٍ ومراتبٍ مختلفة. وتحدد مهماتهم على نحوٍ دقيق ومرهق. ولا يسمح لهم إلا بالعمل على نفس القدر من الدقة وألا يتجاوزوا ذلك. وفى أوقاتٍ محددة يتجمعون، من دون التنازل

عما هم عليه أو نسيان مكانهم وهم مدركون تمامًا لحدودهم، للإعراب عن ولائهم الحاكم، ويتبدى إعلان ولائهم له في وجودهم وفي توجههم إليه والتفافهم حوله على ألا يفرطوا في الاقتراب منه، وهم ينهرون به كما يرهبون جانبه وينتظرون منه كل شيء. وفي هذا المناخ المتميز بالبريق والفرع والإنعام بنفس القدر يقضى هؤلاء حياتهم. ولا يكاد يوجد ما يشغلهم عن ذلك، فقد استوطنوا هم الشمس ويبرهنون للآخرين بذلك عن أنها صالحة للسكنى. إن المسلك الباهر لرجال البلاط الذى تحتفظ به عينا الحاكم لهو الأمر الوحيد المشترك بين هؤلاء، فهم في ذلك متساوون من البداية إلى النهاية، ومن وجهة النظر الثابتة هذه يكون قد صار لديهم شيء من كيان الكتلة، لكنه شيء من مبادئ الكتلة فقط وليس غير ذلك، لأن هذه النظرة تحديداً هي التى تذكر كلاً منهم بواجبه الذى يختلف عن واجبات كل رجال البلاط الآخرين. ومسلك رجال البلاط ينبغى أن يصيب بقية الرعية بالعدوى، فما يفعله أولئك دائماً ينبغى على هؤلاء القيام به أحياناً. وفي أثناء بعض المناسبات، عندما يذهب الملك إلى المدينة على سبيل المثال، يكون على جميع سكانها انتظاره مثلما يفعل رجال البلاط بالقصر عادةً. أما المبايعة التى كانت في رقابهم لزمان طويل فيقدمونها دفعةً واحدة بحماس. والاقتراب من البلاط قد يغرى كل الرعايا بالذهاب إلى العاصمة حيث يتجمعون في دوائر كبيرة مكثفة حول دائرة رجال البلاط. فالعاصمة تنمو حول البلاط وتدين بيوتها له بمبايعة مستمرة. أما الملك الكريم، كما هو المنتظر منه، فإنه يقابل ذلك ببناء المباني الفخمة. إن البلاط يعتبر مثلاً جيداً على بلورة الكتلة، فالناس الذين يشكلونها لديهم وظائف مختلفة ويبدون مختلفين بين بعضهم البعض، وفي مواجهة الآخرين فإنهم، كحاشية، يكونون وحدةً واحدة تشع منها روح الولاء نفسها.

العرش المتنامي لقيصر بيزنطة

كان للنمو المفاجئ دائماً أثره الكبير على الإنسان. أما الدهشة الأعظم فتكون لتحول قوامٍ صغيرٍ أمام أعين المشاهدين إلى حجمٍ عملاق، وهي دهشةٌ أكبر من رؤية حجمٍ كبيرٍ باقٍ على حاله أو القفز من وضع الجلوس. ومثل هذه الشخص معروفة جيداً من خلال الأساطير والقصص الخرافية لكثير من الشعوب. وقد وصلنا من بيزنطة من القرن العاشر استخدامٌ متعمد لتحول هذه الأشكال من أجل خدمة أغراض السلطة، فقد خُلف لنا ليوبارد فون سيريمونا مبعوث أوتو الأول التقرير التالي عن استقبال الإمبراطور البيزنطي له ⁽¹³³⁾: "أمام عرش الإمبراطور كانت هناك شجرة من المعدن، لكنها كانت مذهبة وقد ملئت أغصانها بأنواع مختلفة من الطيور كانت كذلك من الفولاذ ومذهبة، وقد صدر عنها جميعاً غناء الطيور المختلفة كلٌ حسب نوعه. أما عرش الإمبراطور فقد شيد على نحو مصطنع ليبدو للناس في لحظة منخفضاً ليظهر بعد ذلك مباشرة وقد ارتفع لأعلى. وكانت هناك سباع بأحجام هائلة لم أعرف إن كانت من معدن أو خشب لكنها كانت مصفحة بالذهب، وقد وقفت كأنها حراس للعرش وصارت تدب بذيلها على الأرض ويرتفع زئيرها عن فم مفتوح ولسان متحرك. وقد تم اقتيادى إلى هذه القاعة في حراسة اثنين من الخصيان أمام وجه الإمبراطور.

وعند دخولي زأرت الأسود وزقزقت العصافير كل على طريقته، إلا أنني لم أصب بخوف أو رهبة لأنني كنت قد استعلت عن كل هذا من أناس كانوا يعرفون ذلك جيدًا. وبعد أن هويت على الأرض ثلاث مرات ونهضت رأيت هذا الذي كان للتو جالسًا على ارتفاع متوسط وقد ارتفع إلى سقف القاعة تقريبًا، وقد ارتدى ملابس أخرى غير التي كانت عليه، أما كيف حدث ذلك فلست أدري وهو ما حدث أيضًا على نفس المنوال فقد ارتفعت شجرة العنب. وفي أثناء هذا الحدث لم ينبس الإمبراطور بكلمة واحدة، فلو أنه شاء ذلك ما كان هذا لائقًا بسبب بعد المسافة، ومن خلال وسيط من مستشاريه استعلم عن حياة وصحة سيدي، وبعد إجابتى عن ذلك بكلمات لائقة تراجعت وفق إشارة المترجم مقتادًا إلى المقام المخصص لى".

في أثناء ما كان المبعوث يهوى ليضع رأسه على الأرض كان عرش الإمبراطور قد نما مرتفعًا، فقد استغل إذلال أحدهم من أجل الارتقاء بالآخر، أما المسافة بين الاثنين والتي تضاءلت إلى حد الإفراط فقد تم تحويلها إلى مسافة عمودية، وأما زقزقة العصافير وزئير السباع المصطنع فقد فاقهما العرش المتنامى. إن هذا النمو يعطى صورة معبرة عن نمو السلطة، فتهددها لمبعوث سلطة أجنبية لا يمكن إنكاره.

أفكار المصاب بالشلل

ماذا يفهم الإنسان حقًا من مدلول كلمة تضخم الحجم، فهذه الكلمة تُستخدم على نحوٍ يحمل معانٍ كثيرة حتى أن المرء يتشكك إن كان قد اختار المعنى الصحيح من تلك المعاني، فأى شيء لا نصفه بأنه "متضخم الحجم". أما الأكثر تناقضًا وإثارةً للسخرية فهو اقتران ذلك بالإنجازات التي من دونها لا يمكن تصور وجود حياة إنسانية كريمة، وتحديدًا في هذا الاضطراب التي تسببه، فإن كلمة تضخم الحجم تعبر عن شيء لا يستطيع الإنسان مواصلة حياته من دونه، وعلى المرء محاولة فهمها بمعانيها الكثيرة، وربما يكون من المفيد أن نقرب من مفهومه "ضخامة الحجم" لدى الإنسان البسيط حيث يظهر في أكثر أشكاله فهمًا وتجليًا، فهناك مرض منتشر تمت دراسته جيدًا تظهر لنا هنا من تلقاء نفسه وهو مرض الشلل الذي يتميز بتوليد أفكار "التضخم" الكثيرة المتنوعة وبالذات في حالته التقليدية، وهذه الأفكار تتبدل في تتابع هو الأكثر تنوعًا، ويمكن إثارته من الخارج بسهولة، وهى أعراض لا تظهر في كل حالات مرض الشلل، فهناك أعراض إحباط لهذا المرض تتميز بأفكارها عن ضالة الحجم. وفي بعض الحالات تتزامن هذه الأعراض مع أعراض التضخم، لكن الأمر هنا لا يدور حول تأمل هذا المرض على أنه مرض، فما يهمنا هو التجمع الواضح لأفكار التضخم في

حالاتٍ بعينها معروفة وموصوفة بدقة. فتراكم هذه الأفكار وبساطتها وسهولة استثارتها، وهو ما لا يمثل شيئاً للشخص غير المصاب بمرض الشلل، فهذه الأفكار تعطى دلالاتٍ مدهشة عن التضخم. ولا بد من المثابرة قليلاً إزاء كثافة عدد الأمثلة التالية، فالمرضان اللذان يدوران عنهما الحديث التالى ينتميان إلى عهد "فيلهلم" حاكم ألمانيا، وهى حالة يعتبر البعض تتبعها أمراً مهماً. فكان هناك تاجر، فى منتصف العمر، قد التحق بـ "مصححة كرايلين"⁽¹³⁴⁾، كتب عن نفسه التالى: "كان سيصاب بالجنون من خلال الإجهاد والملاحقة، وهو يتمتع الآن بكامل قواه العقلية ولم يعد يعانى سوى قليلٍ من العصبية، وقد نمت كثيراً قوته فى العمل بفضل العناية الطبية بالمصححة حتى صار بوسعه إنجاز الكثير، وبذلك أتيت أمامه فرص رائعة، فخطط لدن خروجه المتاح قريباً أن يؤسس مصنع ورقٍ كبيراً. وكان صديقٌ له يمتلك المال الضرورى لذلك، إضافة إلى أن كروب، أحد معارف هذا الصديق المقربين، قد وضع تحت تصرفه قطعة أرض على مشارف منطقة متس أراد إنشاء مشتل عليها، وكانت المنطقة مناسبة لزراعة عنب، إضافة إلى أنه سيشتري أربعة عشر حصاناً من أجل المنشأة الزراعية، وكذلك تأسيس تجارة أخشاب مربحة كانت ستدر دخلاً جيداً. فإذا ما اعترض أحدهم بأن كل هذه الأعمال لن تنجح بسهولة وأنها تتطلب مبالغ باهظة كان يرد بثقة بأنه سوف يتغلب على ذلك بقدرته الفائقة على العمل، وأنه لن يفتقر إلى المال بسبب فرص الربح الممتازة. وفى الوقت نفسه يوحى بأن القيصر يهتم بأمره وأنه سوف يسمح له باستعادة لقبه الشريف الذى فقده جده من جراء فقره، وهو يستطيع الآن بالفعل استعادته. وقد عبر المريض عن كل هذه الأخبار بصوت هادئ وعملى، وكان سلوكه فى أثناء ذلك طبيعياً، وقد كان من السهل دفعه للتوسع فى مشاريعه. فإذا ما أشار عليه أحدهم بأن تربية الدواجن يمكن أن تكون مفيدة فإنه كان يؤكد فى الحال أنه من البديهي أن يقوم بتربية الطيور الغينية والديوك الرومى والطواويس والحمام، وسيقوم بتسمين الإوز وبنشئ مزرعة ديوك برية. وقد لفت مرضه الانتباه فى البداية من خلال مشترياته ومشاريعه الكبيرة، وعندما التحق بالمصححة شعر باستثارة قريحته للإبداع ذهنياً وجسدياً كما لم يحدث قط، فشاء اختيار مجال يعجب به بأعظم قدر، أى أن يقرض الشعر وهو ما يجيده أفضل من جوته وشيلر وهابنه. كما شاء اختراع عدد لا يحصى من الماكينات وإعادة بناء المصححة وبناء كاتدرائية أعظم ارتفاعاً من كاتدرائية مدينة كولونيا، وإحاطة

المؤسسة بزجاج مدرع. وهو عبقرى فهو يتكلم كل لغات العالم ويستطيع تشييد كنيسة من الصلب الصلب، ويحصل من القيصر على أرفع الأوسمة ويخترع وسيلة لتقييد الحمقى، ويهدى مكتبة المؤسسة 1000 مجلد معظمها كتب فلسفية، كما أن لديه أفكاراً إلهية كثيرة. إن هذه الأفكار عن تضخم الحجم تتبدل دائماً، فما إن تنشأ في لحظة حتى تحل محلها بسرعة أفكار أخرى جديدة، فالمرضى يتكلم ويكتب ويرسم بلا انقطاع، ويطلب بلا تردد كل ما يُعرض بإعلانات الجرائد من مواد غذائية، فيلات، ملابس، أثاث منزلى وسرعان ما يصير دوقاً، وسرعان ما يصبح "جنرالاً" وسرعان ما يهدى القيصر كتيبة مدافع ميدانية كاملة، كما عرض نقل المصحّة إلى أعلى الجبل".

فإن حاولنا وضع سياق مؤقت لهذا الخليط المتعدد الألوان وجدنا أن هناك شيئاً مهماً، وهو ما يمكن وصفه بالاتجاه إلى الارتفاع، فهو يريد تشييد كاتدرائية يفوق ارتفاعها ارتفاع كاتدرائية كولونيا، ويريد نقل المصحّة إلى أعلى الجبل. إن هذا الارتفاع الذى يصنعه بنفسه ينعكس على ذاته.

فإذا ما انتقل إلى علاقته بالوضع الاجتماعى تباهى بأصل جده النبيل، وهو يريد أن يصبح "دوقاً". وفي النظام الهرمى العسكرى يريد أن يصير "جنرالاً"، والقيصر يهتم به وهو يستطيع دفعه لمنح الأوسمة كما يهديه كتيبة كاملة، وهو ما ينطوى على رغبته فى تجاوز مرتبة القيصر. والإلحاح نفسه يمتد كذلك إلى المجال الذهنى، فهو عبقرى يتكلم كل لغات العالم، كأن اللغات صارت مثل رعايا العبقرى. أما الشعراء الأشهر الذين يعرفهم مثل جوته وشيلر وهابنه فهو يريد أن يفوقهم. وهنا يتولد لدينا الشعور بأن هذا التوجه للارتفاع لا يدور حول البقاء أعلى بل الوصول إلى أعلى بسرعة، فمراًً وتكراراً يكون على المرء تسلق الارتفاع فجأةً بسرعة وكل الفرص لذلك متاحة، ويتضح هنا أن ما يُعتبر حتى الآن هو الأعلى فإنه يمكن التفوق عليه بسهولة بعد وضع معدلات ارتفاع جديدة، ولا يمكننا رفض احتمال أن معدلات الارتفاع هنا تدور حول "النمو" أما التوجه الثانى الذى لا يقل إثارة للاهتمام فهو التوجه للاكتساب فالحديث يدور حول مصنع ورق وتجارة أخشاب ومزرعة كبيرة ومزرعة عنب وخيول أما الحالة التى تلقى بها الحث على تربية الدواجن فإنها تشي بأن الاكتساب ينطوى أيضاً على ملامح عتيقة. إن الأمر يرتبط بالتكاثر فى كل شيء ممكن خاصة كل شيء حى

يسعى للتكاثر من ديوك رومى ودجاج وطواويس وحمام وإوز وديوك برية تم حصرها كل على حدة كأنواع، ولدى كل من هذا النوع يكون تصور بأنه من خلال تربيتها فإنها ستتكاثر بلا حد، والاكتساب هنا أيضًا كما كان في البدء وهو الدفع بالكتل الطبيعية إلى التكاثر لتعود على طرف ما بالنفع. أما التوجه الثالث فهو نحو التبذير فهو يطلب كل ما تعرضه إعلانات الجرائد من مواد غذائية وملابس وأثاث منزلي، فلو كان حرًا طليقًا وامتلك مالاً فلسوف يشتري كل هذه الأشياء، ولكننا لا نستطيع القول بأنه سوف يكدها، فمن المؤكد تمامًا بأنه لو كان حرًا في التعامل معها كنتعامله مع المال فإنه سوف يهديها إلى كل الناس أيًا كانوا، فالاحتفاظ بالشئ لا يمثل له الكثير مثله مثل التملك، فهو يرى بالفعل الأشياء التى يود اشتراكها مكدهة أمامه، لكنه يفعل ذلك ما دام لا يمتلكها، فالحياسة السائلة أهم من التملك في حد ذاته. أما إشارته التى تبدو ثنائية فهى في جوهرها واحدة، فالاستحواذ والتخلص بكتلتا يديه ليسا سوى إشارة إلى تضخم الحجم، وهى في حالة تاجر آخر في المرحلة العمرية نفسها كانت حالة مرضه بالشلل أكثر استثارة، وقد بدأ كل شئ لديه كذلك بالمشاريع الكبيرة، فقد اشترى فجأة من دون مال حملاً مقابل 35 ألف مارك، وطلب شامبانيا بأربعة عشر ألف مارك ونبيداً أبيض بستة عشر ألف مارك من أجل تأسيس معطم. وفي المصلحة كان يثرثر بلا انقطاع فهو يريد أن يزداد حجمه حتى يزن أربعة أعشار، فوضع قضباناً من الصلب حول ذراعية وصنع لنفسه خمسين امرأة زنجية بماكينه من الحديد. وقد ظل دائماً في سن الثانية والأربعين وتزوج دوقة عمرها ستة عشر عاماً وامتلك ثروة قدرها ستمئة مليون حصل عليها من البابا "وردة الفضيلة". وهو يملك خيولاً لا تأكل الشوفان إضافة إلى مئة قصر من الذهب بها البجع وسمك القرش من المادة التى يصنع منها مدرعات ضد الرصاص. وقد أنجز مئة اختراع ضخمة وشيد للقيصر قصرًا بمئة مليون. وقد رفع كلفة التخاطب بينهما فصار يناديه بـ "أنت" وحصل من الأرشيدوق على 124 وسامًا ومنح كل فقير شقى نصف مليون، إضافة إلى ذلك كان الرجل مصابًا بوساوس الملاحقة، فقد أراد أحدهم قتله خمس مرات ومص من دبره كل ليلة دولين كاملين من الدم، ولذلك فإنه سوف يجتز رءوس الحراس ويدع الكلاب تمزقهم، كما شيد لنفسه مقصلاً بخارية.⁽¹³⁵⁾ هنا كان كل شئ أكثر فجاجة ووضوحًا فالأمر يتعلق بتجرد النمو بحد ذاته ويمكن قياس ذلك بوزن الأربعة أعشار للمتناهى كما

ارتبط الأمر بالقوة، فقد ثبت في ذراعيه أربعة قضبان من الفولاذ، كما دار الأمر كذلك حول تقلد الأوسمة وهو الأكثر ثقلًا وخلودًا أوسمة حديدية تزن اثنين من الأعشار وهو يتمتع بقوة تكفى لحملها كما دار الأمر حول القوة الجنسية وعدم تقدم العمر، فمن أجل خليلاته الزنجيات الخمسين ظل في الثانية والأربعين من عمره، أما العروس الأعظم فضيلة وثناء، أى أصغرهن، فكانت تكفيه تمامًا. أما خيوله فكانت تجد الشوفان أقل قيمة. أما البجعات بقصوره المئة المذهبة فكانت أيضًا نساءً كن على أية حال النقيض من نساءه الزنجيات، كما امتلك سمك القرش كذلك كأكبر المخلوقات حجمًا. كما فكر أيضًا في مناعته ضد الجروح وهو ما ارتبط بسمك القرش - والدروع المضادة للرصاص. كما دار الحديث كثيرًا حول المعادن، وقد كلفه بناء قصر من أجل القيصر مئة مليون كان يمتلكها وقد رفعت كلفة الخطاب بينهما عبر هذه الملايين فصار يخاطب القيصر بـ"أنت". كما كان هناك فقراء أشقياء بالملايين، وكان كل منهم نصفًا، وقد يكون هذا ما دفعه إلى منح كل منهم نصف مليون. وفي حالة هوسه تعرض بالطبع للملاحقة، ومحاولة اغتيال واحدة لم تكن تكفى مثل هذه الشخصية المهمة فكان من حقه أن يجتز رءوس الحراس الذين يمحون دمه من دبره (تعبيرًا عن وضاعة مكانتهم) وذلك عقابًا على أفعالهم، ويدع الكلاب تمزقهم، ولكن كان هناك ما هو أسرع من حزمة الكلاب وهى آلة من عصر قديم، كانت مقصلة تدور بالبخار شيدها لنفسه من أجل الإعدام الجماعى. وكلما كان شئ ما غاليًا وكلما كان سعره المطروح مرتفعًا كان حديثه عن ذلك في إطار الآلاف، وهو ما كان يمثل إثارة أعظم، فقد استرد المال شخصيته الجماهيرية القديمة وقد تنامى بأقصى سرعة في طفرات، ففي الحال كان قد بلغ الرجل المليون وقد وصل إليه لتلعب الملايين الدور الحاسم، ولأهمية هذه الكلمة شئ من البريق وهى تنسحب بنفس القدر على الناس وعلى المال. فالصفة الأهم للكلية، أى إلحاحها في النمو، قد تقاسمتها مع المال، فالكبير يأمر أو يتحكم في الملايين. أما التكسب والتبذير، كما كانا في الماضى، فهما عنصرٌ مزدوج لحركة واحدة، أى الاشتراء والإهداء، مثل كل شئ آخر فهو وسيلة للتوسع وهو ما يمكن وصفه على خلاف التوجه للارتفاع بالنمو العرضى. وهو لا يرى فرقًا بين الاشتراء والإهداء، فبماله الوفير يحتوى المواد، حتى يشملها داخله، وبالمال والأشياء يحتوى الناس حتى يكسبهم إلى صفه. وعلى هذا النحو البسيط والمقنع تبدى مرة أخرى صفات الملوك التقليدية التى نعرفها

على نحو جيد من خلال الأساطير وكذلك من خلال التاريخ، أى صفة السخاء. فقد روى عن أحد الملوك الزنوج من غرب إفريقيا من القرن الرابع عشر أنه فى أثناء رحلته للحج إلى مكة كان قد اشترى كل ما كان بمدينة القاهرة وهو إنجاز لم ينس له قط. والتباهى بالاشتراء ما زال منتشرًا على نحو واسع حتى اليوم، ولا يقل عنه التباهى بالإسراف. أما ملوك مال عصرنا المرتاب فيهم فإنهم لا يُغبطون على شىء من كل مظاهر ضخامة حجمهم إلا على الحجم الهائل لهداياهم العلنية. أما مريضنا فكان يسرف على بناء القصور بالملايين وقد وجد متلقيًا لائقًا فى شخص القيصر. أما أفكاره عن تضخم الحجم فهى يقيًا ذات بعد متغير للغاية ولكنه لا يعطينا الانطباع أنه يتحول من خلالها، فهو يبقى دائمًا هو نفسه، حتى وإن صار وزنه أربعة أعشار أو تزوج الدوقة الفاضلة ابنة الستة عشر عامًا، أو خاطب القيصر بـ"أنت". لكن، على النقيض من كل ذلك، فإن ما كان يأتيه من الخارج كان يستخدمه من أجل نفسه فهو النقطة الراسخة والمركزية فى الكون، وهو يحتلها بأن يأكل وينمو لكنه لا يصير إلى شىء آخر. وما تتسم به أفكاره من طفرات هو ما يجلب إليه الغذاء، الذى يكون تبدله وتنوعه مهمًا له، لأنه يريد أن ينمو على النحو الأقصى، لكن لا يوجد أكثر من اختلاف الغذاء فألوانه خادعة، إنه تلون الشهية لا أكثر. أما كثرة أفكاره عن التضخم فهى ممكنة، فليس هناك ما يحول بينه وبينها، فما إن تبدى إحداها حتى يتم تحقيقها. ومن الطبيعى أن يغير أهدافه إذا كان يحققها بهذه السرعة. ولكن كيف يتأتى ألا يشعر المريض بأية مقاومة ضد أفكاره؟ فمهما تضمنت الكلمة من وعدٍ بسلطةٍ وثراء وتضخم، فإنه كان يصدق كل ما تنطوى عليه بل ويحققه. إن هذه السهولة تبدو مرتبطة بالشعور بأن الكتلة إلى جانبه. وفى كل صور تنكرها تكون الكتلة بين يديه، سواء كانت 600 مليون هدية زواج أو مئة قصر مذهب أو الزنجيات الخمسين التى صنعها بماكينه من حديد. حتى عندما سخط على أحد، كسخطه على الحراس مثلاً، صار تحت أمره فى الحال حزمة من الكلاب تهجم على هؤلاء لتمزقهم بناءً على أمره. إلا أنه عندما فكر فى جز الرءوس فإنه اخترع مقصلة بخارية تؤدى هذه المهمة على نحو جماعى. إن الكتلة دائمًا خلفه وليست ضده، فإذا صارت لمرة واحدة ضده، على سبيل الاستثناء، فإنها كانت من رءوس تم قطعها. وعن الحالة الأسبق نذكر كيف كانت كل مجالات النشاط على استعداد للازدهار من أجل المريض، خاصة النشاط الاقتصادى، فكل أنواع الدواجن كانت لا تنتظر إلا

التكاثر من أجله. فإذا ما استشعر رغبةً في عمل شيء من أجل مكتبة المصلحة كان يتوافر في الحال ألف مجلد بين يديه، ومن أجل الاشتراء والإهداء كان يتوافر من أجل الاثنين كل ما يخطر ببال بملايين وآلاف. ومن المهم أن نشير إلى هذا الموقف الإيجابي للكتلة في حالة المصاب بالشلل صاحب أفكار التضخم، وإلى روح الكتلة الملائمة، فهي لا تعترض طريقه، فهي المادة الخاصة المطيعة لمشاريعه وتحقق له كل ما يخطر بباله. وقد لا يستطيع أبدًا الإفراط في مطالبه لأن نموها بلا حدود مثل نمو وولاءها له بلا شروط، وهو ما لم يعهده حاكمٌ ما من رعاياه قط. ولسوف نرى الكتلة في المصاب بجنون العظمة، وهي تتطرق إلى أساليب مختلفة، تحديدًا أساليب عدائية، فأفكار تضخم الحجم لدى المصاب بجنون العظمة موضع خلاف كبير وهي تظهر النزوع إلى أن تصير أكثر صلابةً باستمرار فإن كان للكتلة المائلة للعدوان اليد العليا فإن هذه الأفكار تنقلب إلى أفكار ملاحقة. فإذا قمنا في النهاية بتلخيص مبسط لما يمكن تعلمه من أفكار تضخم الذات لدى المصاب بالبارانويا، فيكون بوسعنا القول إن ذلك يمضي في اتجاه ثنائي من أجل نمو مطرد ومتكرر دائمًا، التوجه الأول هو الشخص نفسه، فهو يريد أن يصبح أكبر حجمًا وأثقف وزنا ولا يقنع فلكل نوع من القوة شحن بها كجوهر منفرد أن تكبر معه. أما التوجه الثاني فهو اتجاه الملايين والتي يمكن أن تحتوى كل شيء له توجه، فإن عليها أن تتكاثر مثل الكتلة نفسها في طفرات. وهذه الملايين تطفح تلبية لأمانية من بين يديه في كل اتجاه ولا تطيع سواه. وفي تضخم الحجم الذي تحلم به البشرية فإن الشعور الفردي البيولوجي بالنمو يتحالف مع الشعور بالزيادة في طفرات، وهو ما يميز الكتلة، وتكون الكتلة في أثناء ذلك تابعًا مطيعًا، فالأمر لا يتوقف على نوعها فكل بدائلها يمكن أن تفي بالغرض نفسه.

الحكم وجنون العظمة

ملوك أفارقة

إن تأمل أحوال بعض ملوك إفريقيا سوف يظهر الصلة بين عناصر وأسس السلطة التي تمت دراسة كل منها على حدة. ولقد تبدى كل ما هو غريب وغير مألوف في مسلك هؤلاء الملوك⁽¹³⁶⁾. حتى إن المرء قد يشعر في البداية بأنها من النواذر العجيبة. وسوف يكون من اليسير للغاية أن يستبد بأوروبي ما شعورٌ بالتعالى إذا ما طالع هذه التقارير التالية. إلا أننا ننصح بالتحلى بالصبر والتواضع حتى نتعرف على المزيد من هذه الأحوال. فإنه لا يليق بأوروبي القرن العشرين أن يتصور أنه متسامٍ على البربرية، فقد تكون وسائل حكمه أفضل أثرًا، أما نواياهم فهي لا تختلف غالبًا عن نوايا هؤلاء الملوك الأفارقة. وقد استعرض "Du Chaillu" وفاة أحد الملوك ومبايعة آخر جديد في الجابون في أثناء إقامته بالجابون⁽¹³⁷⁾.

كان الملك "جلاس" قد مات بعد أن أرهق قبيلته، فقد كان يعتبر ساحرًا قويًا وشريرًا إلا أن أحدًا لم يذكر ذلك صراحةً. لكن نفرًا قليلًا كان قد جرؤ على الاقتراب من قصره ليلاً. ولكنه عندما مرض في نهاية المطاف بدا كل فرد مهمومًا، إلا أن أصدقاء عديدين أخبروني سرًا بأن المدينة كلها تتمنى موته. فكان أن مات أيضًا. فذات صباح صحت على نواح وعويلٍ صاخب وقد بدت المدينة كأنها انخرطت في البكاء. واستمر الحداد والنواح ستة أيام. وفي اليوم الثانى كان قد تم

دفن الملك سرًا. فقد مضى به بعض رجال قبيلته المخلصين إلى موضع لا يعرفه سواهم. وظل مجهولاً للآخرين كافةً. وفي أثناء أيام الحداد كان كبار رجال القرية منشغلين باختيار ملكٍ جديد. وقد تم ذلك الأمر سرًا أيضًا فلم يخبروا الشعب إلا في اليوم السابع بموعد تتويج الملك الجديد، الذى لم يكن هو نفسه يعلم من الأمر شيئًا حتى النهاية. وكانت الصدفة هى التى شاءت أن يقع الاختيار على "نيو جوني"، أحد أصدقائى، وهو ينتمى لعائلة طيبة وكان الشعب يحبه حتى إنه حصل على أغلب الأصوات. وأنا اعتقد أن نيو جوني لم يكن لديه أدنى علم باختياره للمنصب الرفيع. وعندما كان يتنزه على الشاطئ في اليوم السابع إذا بالشعب كله يهاجمه ليمارس ضده طقوسًا تسبق التتويج، يشارك الجميع فيها بالضرورة فيما عدا ذلك الرجل صاحب الطموح الشديد في اعتلاء العرش. فأحاطوا به في كتلة كثيفة ليمطروه بالشتائم التى يمكن أن يتلفظ بها أكثر العامة غضبًا. فبصق بعضهم في وجهه وسدد البعض إليه اللكمات وركله البعض بالأقدام ورماه آخرون بأكثر الأشياء قذارة. بينما كان أكثرهم أسفًا قد وقفوا على مسافة بعيدة ولم يصلوا إلى الشاب الشقى إلا بأصواتهم، فوجهوا السباب إلى أبيه وأمه وإخوته وأخواته وأجداده حتى آخر نسلهم. ولم يكن لأى أجنبى أن يراهن بمليم واحد على نجاة الرجل الذى توج ملكًا قبل قليل. ووسط كل هذا الصخب تلقفت أذنائى بعض كلمات ساعدتنى على فهم ما يجرى، فكل بضع دقائق كان يسدد أحدهم إليه لكمةً أو ركلة وهو يصيح: "لم تصبح بعد ملكنا، فالآن بوسعنا فعل كل ما نهوى معك، ليكون علينا بعد ذلك طاعتك" أما نيو جوني فقد سلك مسلك الرجل والملك القادم، فقد ظل هادئًا محتملًا كل سباب بوجهه الباسم. وبعد نصف ساعة تقريبًا مضى به البعض إلى منزل الملك السابق. فقد كان عليه البقاء هناك بعض الوقت ليستقبل سباب الشعب. ثم خيم السكون فنهض الكبار وتحدثوا بحفاوة ليردد الشعب كلماتهم: "نختارك الآن ملكًا علينا ونعاهدك بأن نستمع إليك وأن نطيعك، ليعقب ذلك الصمت. وقد جرى بقبعة مستديرة صلبة تعتبر هنا إشارة إلى شرف الملكية لتوضع على رأس نيو جوني الذى خلُع عليه رداء أحمر اللون، وصار في تلك اللحظة يتلقى أعظم آيات التبجيل من هؤلاء الذين كانوا يوجهون إليه السباب قبل قليل. ثم تلى ذلك حفلٌ استمر لسته أيام ليقوم الملك الذى تولى منصبه باسم الملك السابق باستقبال رعاياه بمنزله، وكان عليه ألا يغادره، فكانت ستة أيام لا مثيل لها مُدَّت في أثناءها الولائم

والشراب إلى حد الإفراط فكانت معمعة احتفالية صاخبة، فقد جاء عددٌ غفير من الغرباء من القرى المجاورة ليبداوا احترامهم، وقدم الجميع الكثير من العرقى ونبذ النخيل والطعام وأنفق كل ما ساهم في الارتقاء بجو الاحتفال. وكان يتم الترحيب بكل ضيف. فأما الملك السابق فقد نسيه الجميع، وأما الملك الجديد "جلاس المسكين" فقد أصابه المرض من جراء الإعياء، فقد كان عليه استقبال الناس ليلاً نهار وكان يتحلى بالأدب تجاه كل من جاءه. وأخيراً كان قد انتهى شراب الروم كله، كما انقضت المهلة المحددة ليحل الهدوء ثانيةً ليصير من حق صاحب الجلالة الجديد أن يخرج ليرى مملكته. إن تبعات الأحداث التي جرت في إطار كتلةٍ هي أحداثٌ مهمةٌ للغاية. فقد بدأ كل شيء بحزمةٍ مناحةٍ على الملك المتوفى واستمر ذلك ستة أيامٍ ثم على نحوٍ مفاجئٍ تمامًا، في اليوم السابع، يبدأ الهجوم على الملك المنتخب. فإذا بكل مشاعر العداء تجاه المتوفى تُصب على خليفته. أما كتلة التحريض التي تكونت حوله والتي هي في حقيقتها كتلة ارتداد فلم تكن موجهة نحوه بل نحو المتوفى. فقد تحرر الناس من كراهيتهم للمتوفى الذي تجاوز الحد في مدة حكمه، والذي كان مرهوب الجانب حتى النهاية. وقد واجهت الحكومة في بدايتها الموقف الذي هو أكثر ما يخشاه كل صاحب سلطة، أي الحصار من خلال الرعايا الجامحين الذين هاجموا الملك على نحوٍ خطير. إلا أنه حافظ على هدوء أعصابه لأنه كان يعرف أن هذا العداء كان مرجأً ولم يكن حقيقياً أو موجهاً ضد شخصه. لكن رغم ذلك كان لا بد من أن يظل كل ذلك ماثلاً في ذهنه كبدايةٍ حرجةٍ لحكمة، أي أن هذا التهديد يمكن أن يصير حقيقةً في أي وقتٍ، فكل ملكٍ يتولى منصبه هنا وسط ثورة، وهي الثورة المرئية ضد ملكٍ مات بالفعل، وهي تستهدف ظاهرياً الملك الجديد كممثلٍ مستقبليٍّ للمتوفى. أما الموقف الجوهرى الثالث فكان الحفل الذي دام ستة أيامٍ مثل ما سبقه من حداد. فكان تقديم الطعام والشراب والاستمتاع بهما بلا حرج ليس سوى التعبير عن التكاثر الذي ينتظره الشعب من صاحب السلطة الجديد. وعلى مثل هذا النحو الذى تولى به منصبه كان عليه أن يغمر مملكته فيما بعد بشراب الروم ونبذ النخيل، فيحصل الجميع على طعامٍ أكثر مما يحتاجونه، فاخترار الملك كان من أجل مثل هذا التكاثر. فجاءت كتلة الاحتفال كبدايةٍ حقيقية لحكمه لتكون ضامنةً للتكاثر في المستقبل. أما شهادة Du chaillu فقد دُونت من مئة عامٍ وهي تتميز برؤية الأحداث من ظاهرها فقط فلم تغرق في التفاصيل،

فنحن اليوم نعرف ما هو أكثر من ذلك عن الملوك الأفارقة. ومن المفيد هنا أن نطالع أحد التقارير الحديثة. فقد كان ملك الجوكون بنيجيريا⁽¹³⁸⁾ كائنًا مؤلَّهاً تدور حياته في إطار حدودٍ من الرقابة الصريحة. أما أسمى واجباته فلم يكن قيادة شعبه في الحروب أو رفع شأن بلاده من خلال حكمه الرشيد، كما لم يرتبط الأمر بشخصه العظيم، بل إنه كان يُعتَبَر الوعاء الحى الذى تنبثق منه القوى الضامنة لخصوبة الأرض ونمو الزرع، وبذلك يمنح الشعب الحياة والرخاء. أما ما يحفظ هذه القوى فهي الشعائر المحددة لمسار حياته يوميًا وسنويًا. وكان من النادر أن يظهر الملك في العلن ولا تَمَس قدمه الحافية الأرض لأن تبعة ذلك ستكون ذبول ثمار الحقول، كما لا يُسَمَح له برفع شيء عن الأرض. وفي العصور السابقة كان إذا وقع عن جواده كان يُقَتَّل. ولم يكن مسموحًا لأحد أن يذكر أنه مريض. فإذا أصابه مرضٌ خطير كان يتم خنقه بهدوء تام. فسماع أنين ملك مريض - كما قال أحدهم - قد يسبب اضطراب الشعب إلا أنه كان يجوز له أن يعطس فإذا عطس ملك الجونكن كان الرجال الحاضرون يضربون أفخاذهم وهو يتمتمون مستحسنين. ولم يكن من اللائق الحديث عن "جسده" أو إعطاء انطباع بأن له جسدًا إنسانيًا عاديًا، وبدلاً من ذلك كانت تُستخدم كلمة بعينها تخص شخصه، وكانت هذه الكلمة تعبر عن كل أفعاله وكذلك أيضاً الأوامر الذى يفوه بها فمه. فإذا ما كان على الملك تناول طعامه كان موظفون مختصون يطلقون صيحاتٍ مدوية بينما يضرب آخرون أفخاذهم عشرات المرات ليحل السكون على القصر والمدينة كافةً، ويمسك الجميع عن الكلام ويتوقفوا عن العمل. فطعام الملك كان يُعتبر مقدساً وكان يتم تقديمه إليه بطقوس احتفالية كإله. فإذا انتهى من طعامه استؤنفت صيحات وضربات موظفى البلاط الخارجى معلنةً الإذن بالعمل والكلام مرةً أخرى. فإذا ما شعر الملك بغضبٍ ما كان يشير بإصبعه نحو شخص ما ويركله بقدمه ساخطاً لتعم البلد كله من جراء ذلك تبعات هى الأكثر ترويعاً. فكان لا بد من تهدئة روعه في الحال بشتى السبل. فأما لعبه فكان مقدساً، وأما ما كان يُقص من شعره أو يُقْلَم من أظفاره فكان يحفظه بنفسه بجوال يُدفن معه عند وفاته. وفي الخطب الاحتفالية كان يتم التلميح إلى قوى خصوبته فيقال: "أنت لنا بذور غينيا أنت فولنا وبقولنا". كما كان يُنسب إليه الهيمنة على المطر والرياح. أما تبعات الجذب وسوء المحصول فكان يُنسب إلى تراجع قوته ليتم خنقه سرًا بالليل. وكان على الملك المنتخب الجديد أن يركض حول تل

ويلاحقه الكبار بالصياح وهم يضربون بقبضات أيديهم. وفي مناسبةٍ أخرى يقوم هو بقتل عبد ما أو يصيبه فقط بجرحٍ ليقتله آخر برمح ومديّة الملك. وفي أثناء التتويج يقول له زعيم قبيلة الملك: "قد أعطيناك اليوم دار أبيك، فالعالم كله ملك لك. إنك بذرتنا وبقولنا وأرواحنا وآلهتنا، فلم يعد لك من الآن أبٌ ولا أم، فقد صرت أب الجميع وأمهم، فعليك اقتفاء أثر سلفك فلا تسبب الأذى لأحد حتى يظل شعبك معك وتصل معافي إلى نهاية حكمك".

وكان الجميع يخرون أرضاً أمام الملك الجديد وهو يعفرون رأسهم بالتراب ويقولون: "يا غيثنا، يا حصاد محصولنا، يا ثراءنا، يا عافيتنا". فأما سلطة الملك فهي مطلقة على أن تظل في إطار الاحتمال. وكان يتأص مجلس النبلاء "آبو"، أو رئيس الوزراء المشارك في المسؤولية. فإذا ما هدد مزاج الملك بإلحاق ضرر ما بالبلاد أو الخراب أو أي نكبة قومية أخرى فإن المرء يلفت نظره إلى خطأ ما في التزاماته السحرية العديدة، فيهدئ بذلك من روعه. وكان يسمح للـ"آبو" ببقاء الملك دائماً، كما كان يحق له تحذيره، بل ويصيبه بالحيرة إذا طال غيابه عن البلاط. وعادةً ما كان الملك لا يشارك في الحملات الحربية إلا أن الغنائم كافة كانت تعتبر ملكاً له، لكنه كان يعيد ثلث أو نصف الغنيمة للمحارب الذي اقتنصها كإشارة إلى الاعتراف به، وتعبيراً عن انتصاره أن يرهن هذا على بسالته في المرة التالية. فإذا أثبت الملك جدارةً، فإنه يُقتل في وقتٍ لاحق أثناء عيد الحصاد، بعد مرور سبع سنوات من حكمه.

في كتابه "تاريخ إفريقيا"⁽¹³⁹⁾ الذي يُعد أول محاولةٍ جادة في هذا المجال يذكر "وسترمان" الانتظام المدهش في التطور والمؤسسات الخالصة بهذه الممالك. وقد رأى بنفسه عدداً من الشواهد التي تجمع بين هذه الممالك كافة. وهنا يجب علينا بذل الجهد لذكر أقل عددٍ منها وأن نحاول تفسير كلٍ منها في سياق رؤى اكتسبناها هنا: "فالملك يمتلك قوى تمنح الخصوبة للأرض ويتوقف عليه نماء ثمار الحقول وينسب إليه في الغالب انهيار المطر"، فالملك يبدو هنا مسبباً للتكاثر وهي صفته العليا. وما نود قوله هو أن الأمر هنا يدور حقاً حول صفة التكاثر هذه التي كان لها الفضل في منظومة الملكية، فكل أنواع الأوامر تصدر عنه هو، إلا أن أكثر الأوامر أصالةً التي تتوافر لديه فهي ضرورة الحث على النمو.

"أنت أب الجميع وأهمهم" هكذا جاء بالتقرير عن الجوكون، وهو ما لا يعنى توفير الغذاء للجميع فحسب بل هو أيضًا سبب تكاثر الجميع ونمو كل شيء. فسلطته في هذه الحال هي حزمة التكاثر وكل ما ينتج عنها، أى مادتها التامة التى يكون قد حملها هو وحده على كاهله. فمن خلال مسلكه يستطيع ضمان الاستمرار الذى لا يتوافر لحزمة التكاثر التى تتكون من الكثيرين الذين يتفرقون مرارًا، أما هو فيكون الوعاء بحدوده الخارجية الواضحة الذى يضم كل قوى التكاثر داخله. وواجبه المقدس أن يحفظها من التسرب.

"ومن أجل الحفاظ على قوة النمو الخاصة به، ومن أجل درء الأذى فإنه يتم إحاطة شخصه بعددٍ كبير من التعليمات والمحظورات التى تجعله غالبًا قادرًا على الفعل".

إن قيمة الملك النفيسة، أى القيمة النفيسة لما يحتويه هو بالفعل، هى ما تفضى إلى صلابته فهو الوعاء الممتلئ عن آخره فلا يسمح أن يطفح منه شيء، وهو لا يبدو للعيان إلا فيما ندر أو في موعد بعينه. ولا يجوز له مغادرة قصره على الإطلاق إلا ليلاً أو في مناسباتٍ خاصة، فلا يُسمح لأحد أن يراه وهو يأكل أو يشرب، فعزلته تحميه من أى شيء قد يلحق به الأذى. أما ندرة ظهوره فتعنى أنه يحيا فقط لتحقيق أغراضٍ خاصة تمامًا. فالطعام والشراب، كعامل تدهور، لا يليق به كمصدر للتكاثر. فوجوده يعود فقط إلى القوى التى يمتلئ بها. فاكتفاؤه بذاته هو سمة الملك الحاسمة. فإن كان للشعب أربابٌ عديدة فإنه ليس له سوى ملك واحد. لذلك كان مهمًا أن يحيا منعزلاً فيكون بينه وبين شعبه مسافة افتراضية يتم الحفاظ عليها بشتى السبل، فلا يظهر إلا نادرًا، أو لا يظهر مطلقًا، أو بلثام يخفى به ملامحه أو قسمًا كبيرًا منها. ويُشدد بكل وسيلة على قيمته النفيسة فيتلقد مثلًا أشياء نفيسة أو يحاط بها إضافة إلى ندرة ظهوره. وتتم حمايته بحراسة شخصية تطيعه طاعةً عمياء. والقاعات التى تتسع على نحو دائم وتوسيع بلاطه والبناء المستمر لقاعات أكثر اتساعًا ببلاطه يخدم كذلك اتساع المسافة الفاصلة والحراسة. فالاكْتفاء بالذات والانعزال والمسافة والقيمة النفيسة هى إذن مجموعة من الملامح تتبدى للعيان من الوهلة الأولى. أما التعبيرات الجسدية للملك مثل السعال والعطس والتمخط فإنها تتم محاكاتها أو استحسانها. فإذا ما ظهر على ملك "مونوموتابا" أعراض سمات جيدة أو سيئة، أى

ضعف جسدى أو خطأ ما، أو رذيلة أو فضيلة فإن رفاقه وخدمه يبذلون جهدهم لمحاكاته في ذلك⁽¹⁴⁰⁾. فإذا أصيب الملك بالشلل صار رفاقه كلهم يعرجون. وقد أخبرنا سترابون وديودور عن العصر القديم بأن ملك الحبشة قد كان يعاني من تشوه ما بجزء من جسده فصار على رجال بلاطه أن يعانوا من التشوه نفسه. وكان رحالة عربي قد زار في بداية القرن التاسع عشر بلاط دارفور، فروى عن واجبات رجال البلاط: إذا ما تنحج السلطان كأنه مقبل على الكلام كان الجميع يطلقون الصوت "تس، تس" فإذا عطس قام الجمع بمحاكاة نداء "الخيال" ليُسَمَّع صوت كأن شخصاً يقود جواده. وإذا سقط السلطان عن حصانه سقط كل رجال بلاطه عن جيادهم. فإذا ما فات أحدهم ذلك طُرح أرضاً ليضرب مهما كانت رتبته. وإذا ما ضحك ملك أو غندا ضحك الجميع وإذا عطس عطس الجميع، وإذا ما قص شعره قام كل واحد من هؤلاء بقص شعره. وعمومًا فإن محاكاة الملوك لا تقتصر فقط على إفريقيا ففى بلاط "بونى" بجزر "celebes" جرت العادة أن يفعل كل رجال البلاط ما يفعله الملك، فإذا نهض هو نهضوا كذلك فإذا جلس جلسوا أيضًا وإذا سقط عن حصانه سقطوا عن جيادهم، فإذا رغب في الاغتسال كانوا يغتسلون معه، وكان على المارة أن يلقوا بأنفسهم كما هم في الماء، سواء كان ما يرتدونه جيدًا أو رديئًا.

كما روى مبعوث فرنسى إلى الصين فقال: إذا ضحك إمبراطور الصين ضحك أيضًا مستشاروه وما أن يمسك عن الضحك أمسكوا هم كذلك. فإذا ما كان الملك مهمومًا أحبطت ملامحهم. وقد نذهب إلى الاعتقاد بأن أرواحهم شدت إلى زنبرك ليكون بوسع الإمبراطور لمس هذا الزنبرك فيحركهم. إن اتخاذ صورة الملك نموذجًا هو أمر عام وأحيانًا ما يكتفى المرء بالإعجاب والتقديس فلا شيء يصدر عنه يكون بلا قيمة. وأحيانًا ما يذهب الناس إلى ما هو أبعد من ذلك فيعتبرون أى تعبير صادر عنه بمثابة الأمر. فإذا ما تشاءب كان ذلك يعنى: "تشاءبوا!!" وإن سقط عن جواده، يعنى "اسقطوا" فهو مترع بقوة الأمر فلا يصدر عنه شيء يفهم على أنه "تقريبى".

في هذه الأحوال يكون الأمر قد انبثق من كلمة ليتخذ مظهر سلوك النموذج المحتذى. ويضاف إلى ذلك أن كامل وجوده يتأسس على التضاعف، أى التكاثر وعلى نحو ما يكون ذلك سبب وجوده وعلى هذا تكون لكل حركة ولكل تعبير

صادر عنه هدف استدعاء التضاعف منه. ويمكننا القول بأنه في هذه الأحوال يصير بلاطه إلى نوعٍ من حزمة التكاثر، وإن لم يكن ذلك محاكاةً لما يدور بداخله، فإنه يتبدى في سلوكه الخارجى. فالكل يأتى الفعل نفسه إلا أن الملك يكون هو البادئ بذلك. فالبلاط الذى صار بللورة كتلة يعود إلى أصله، أى حزمة تكاثر. كما يمكن اعتبار الاستحسان والتصفيق تعبيراً عن إرادة التكاثر، فهناك حركات وتعابير محددة تعتبر نموذجاً يحتذى، إذا دُعيت بالاستحسان تولد عنها التكرار. فالإرغام، الناتج عن تصفيق ألف يد، لا يقدر سوى القليلين على التنصل من ذلك، وهنا يتضاعف إنتاج المشجّع. فإذا ظهرت بوادر تقدم عمر الملك صارت قوته السحرية مهددةً، فيمكن أن تتلاشى أو تضعف ويمكن أن تنقلب إلى نقيضها بفعل القوى الشريرة، ولذلك تنشأ ضرورة إنهاء حياة الملك العجوز ونقل قوته السحرية إلى خليفته. فأهمية شخص الملك تكمن في سلامته، فهو كوعاء سليم يكون بوسعه الحفاظ على قوى التكاثر. فإن أبدى عيباً ما ارتاب رعاياه في أمره، فربما يكون قد فقد بعضاً من المادة التى أوكلت إليه، فيهدد سلامة شعبه. أما دستور هذه الممالك فهو الدستور الجسدى للملك نفسه فهو على نحو ما مرتبط بقوته وعافيته. فالملك الذى يشيب شعره وتدهور قوة نظره ويفقد أسنانه، أى الملك العاجز، فإنه يتم قتله أو ينتحر أو يُخنق. ويفضل أسلوب القتل هذا لأنه لا يجوز سفح دمه. وأحياناً تحدد مسبقاً مدة حكمه بعدد معين من السنين، فملك الجوكون، كما مر بنا، لم يحكم إلا سبع سنوات. وطبقاً لتقاليد الـ"بامبارا" فإن الملك نفسه هو من يحدد فترة حكمه⁽¹⁴¹⁾ فيُلف حول عنقه شريطٌ من القطن ليقوم رجلان بشد طرفيه كلٍ في الاتجاه المضاد بينما يقوم هو في أثناء ذلك، وقدر إمكانه، بالتقاط حبات حصى من قصعةٍ ليشير ذلك إلى عدد سنوات حكمه ليخنق بعد انقضاءها. إلا أن الأمر لا يقتصر على انقضاء مادة تكاثره النفيسة من خلال التحديد المصطنع لحياته فشغفه بالبقاء على قيد الحياة الذى يمكن أن يتخذ أبعاداً خطيرة في أثناء حكمه يتم تحجيمه ومنعه من البداية، فهو يعرف موعد موته قبل كثيرٍ من رعاياه ويضع دائماً لحظة موته نصب عينيه. وهنا يكون هو - مقارنةً بمن يحكمهم - قد أبدى خضوعاً تاماً، فما أن يتسلم السلطة يكون قد تنازل عن البقاء حياً تحت كل الظروف. إنه نوعٌ من العهد يرمه معهم، فالشرف الذى ناله يكون بمثابة عبء، فهو يعلن استعدادده للتضحية بحياته بعد انقضاء مدةٍ محددة. أما السباب والضرب الذى يخضع

لهما قبل توليه منصبه فهما بمثابة إعلان مسبق بما ينتظره في نهاية المطاف. وكما ارتضى كل شيء في تلك اللحظة فلا بد من أن يقنع بمصيره فيما بعد. فنهاية الملك تكون قد حُددت مسبقًا. وسواء هددته الناس بإمكانية مثل هذه النهاية، أو تم اعتبار ذلك نوعًا من الاحتفاء، فإن كتلة التحريض التي تكونت قبل توليه المنصب، ترغمه قسرًا على الإقرار بأنه لم يتقلد المنصب بإرادته الشخصية. ويروى عن ملك الـ"يوروبا"⁽¹⁴²⁾ أنه يُضرب في البداية ضربًا مبرحًا فإن لم يتحمل الألم بنفس راضية فيتم استبعاده ليقع الاختيار على أقل الأمراء حظًا، فيقبل مهمته في صمت فهو لم يكن لديه أدنى نية في ارتقاء العرش، ومثل هذا الرجل يتم استدعاؤه لثساء معاملته رغم دهشته لذلك. ففي سيراليون كان يتم في الماضي احضار الرجل مُثقلًا بالأغلال قبل إعلان توليه ليتم دهسه. ولنا أن نتأمل استعراض Du chaillu لاختيار ملك الجابون فبين موت ملك وتولية آخر جديد تسود حالة من انفلات القانون⁽¹⁴³⁾ فيتجلى سوء المعاملة للملك المختار بكل معنى الكلمة كما مر بنا سابقًا، وقد ينال سوء المعاملة من الضعفاء وممن بلا حماية. أما الـ"موسى" في "واجاد دوجو" فيقومون بإطلاق سراح كل المجرمين من السجون بعد وفاة الملك ليكون القتل والنهب أمرًا مباحًا، فيأتي كل ما شاء من أفعال. وكان أفراد العائلة ملك قبائل الأشانتي هم من يستفيدون من فترة الفوضى هذه، فكان يباح لهم قتل أي مواطن أو نهبه. وفي أوغندا يحاول الناس هناك في البداية الحفاظ على سرية موت الملك. ثم، ربما بعد يومين، يتم إخماد النار المقدسة الموقدة على مدخل البوابة الملكية ليبدأ نواح عظيم وتقرع الطبول بإيقاع الموت فيعرف أهل البلاد حينذاك ما حدث، إلا أنه لا يسمح لأحد بذكر الموت فيقال فقط: "أُخمدت النار المقدسة" لتتبع ذلك حالة عنيفة من الفوضى، فيحاول الناس نهب بعضهم البعض ولا يشعر بالأمان سوى الزعماء ممن لهم أتباع أشداء. أما الزعماء الأضعف فيواجهون خطر الموت على يد الزعماء الأقوى الذين يفعلون ما يشاءون في أثناء فترة الفوضى القصيرة. وهكذا يتضح أن من يعانون في مثل هذه الظروف هم الضعفاء والعاجزون. ويعود النظام مع الملك الجديد وهو يتصور كامنًا في شخصه عن حق. أما مسألة الخلافة فلم تكن منظمة دومًا بوضوح على الإطلاق، وحتى لو كانت هكذا فلم يكن أحد يلتزم بذلك إلا مُرغمًا. وهناك مفهومٌ عجيب عن الخلافة لدم ولايات "هيمبا"⁽¹⁴⁴⁾ وقد كان لـ"أوبرج" رؤية خاصة في تفسير ذلك في دراسته الممتازة عن مملكة "أنكوله"⁽¹⁴⁵⁾

فهناك أيضًا كان على الملك تجرع السم حاملًا لاحظ نساؤه والزعماء بؤادر ضعف طرأت عليه. فعلى قوته كان الناس يعلقون الأهمية العظمى وهى ما كانت أيضًا عاملاً حاسماً في اختيار الخليفة. وكان حاكم "هيما" يهتم بأن يتولى خلافته واحدٌ من أقوى أبناء الملك الكثيرين ولم يكن حسم ذلك ليتم إلا من خلال القتال. وفي أثناء حرب الخلافة هذه، التى لا يمكن تفاديها، لم تكن "أنكوله" تستطيع أن تبقى من دون ملكٍ بشكل رسمى. فبعد انتهاء شعائر الحداد على الملك الراحل كان ينشب في قريته قتالٌ بين رعاةٍ بسطاء ليستدعى المنتصر للولاية ليكون ملكاً هزلياً. أما الإخوة، أبناء الملك الشرعيون، فكانوا يشاهدون هذا الصراع، وبعد حسمه يقوم كل منهم بجمع أنصاره ليمضى في طريق البحث عن "طبول الملك" فإذا التقى بعضهم البعض بالطريق تنشب حربٌ بينهم فيقتل الأمير صاحب العدد الأقل من الأنصار أو يفر إلى بلدٍ آخر. وكان مسموحاً باستخدام كل خدع القتال. فالأخ يحاول التجسس لمعرفة مكان أخيه ليتسلل إليه في جنح الظلام ويهاجمه من حيث لا يحتسب، فيطعنه في أثناء نومه أو يدس له السم في طعامه، كما يُسخرُ لهذا الغرض وسائل السحر أو يستعين بمساعدةٍ خارجية. وكانت الأم والأخت يقومان بحماية كل ابن باستخدام السحر ضد خصومه في محاولة لحمايته من أرواح القتلى. أما الابن ذو الخطوة، الذى وقع اختيار الملك السابق عليه، فيظل مختبئاً في أثناء هذا الصراع. وقد تستمر حرب الخلافة لشهور، وفي أثناء هذه الفترة تسود البلاد حالةٌ من الفوضى، ويعتمد كل متنافس على حماية أهله له. في أثناء ذلك يُسرق الكثير من الماشية. وكان كل من يحمل ضغينة ضد آخر يستغل اضطراب أحوال البلاد لينتقم من عدوه اللهم إلا الزعماء الكبار الذين يقومون على حراسة حدود "أنكوله" فلا يشاركون في هذه الحرب ويحاولون في أثناء ذلك حماية البلاد من تسلل الأجانب إليها. وهكذا يقتل الأمير تلو الآخر أو يتم نفيه حتى لا يبقى سوى واحد فقط من بين المتحاربين. وهنا فقط يظهر الابن المقرب للملك السابق من مخبئه لينافس المنتصر من بين إخوته. أما الهدف الحقيقي للصراع فكان الحصول على طبول الملك وهى التى لا تكون دائماً من نصيب الابن المقرب، لكنه عادة ما يكون لديه أقوى السحرة ويقف أتباع كثيرون إلى جانبه، فإذا مات كل إخوته فإن الباقي على قيد الحياة ينسحب عائداً إلى البلاط ومعه طبول الملك وأمه وأخته. أما الملك الهزلى فيقتل ليتم إعلان المنتصر ملكاً. هكذا تكون شأفة المنافسين قد

استأصلت، أما الباقي على قيد الحياة، المنتصر، فيعتبر الأقوى، ليتوجه كل شيء نحوه. وفي ولايات "هيما" الأخرى يُفترض ألا يختلف الأمر عن ذلك، حيث تدور حروب الخلافة، ويسود المبدأ نفسه كقاعدة. فالناس لا يريدون سوى الباقي على قيد الحياة ملكًا، وكان قتله لعدد كبير من الأعداء هو ما منحه القوى التي ينشدها الناس فيه. لكن الحرب لم تكن الوسيلة الوحيدة لشحن الملك بهذه القوى. فكانت هناك سبل أخرى لدعم قوة الحاكم الجديد من خلال البقاء على قيد الحياة. ففي مملكة "كيتارا" الواقعة شمالي حدود "أنكوله" كانت الحرب، بعد حسمها، تخلص إلى شعيرة مذهشة في أثناء تتويج الملك الجديد، وهو ما عايشه البعض آخر مرة لدن تولى الملك "كاراباجا" في العام 1871 فكتبوا تقريرًا عن ذلك⁽¹⁴⁶⁾. فمن بين الأمراء كان هناك من لم يشارك في الصراع لحدثة سنهم. وقد كانوا أحياء حينما استأصل إخوتهم الكبار شأفة بعضهم البعض فلم يبق سوى المنتصر. وقد قام الزعيم الأكبر الذي مارس دورًا يشبه الوصي بإقناع أحد هؤلاء الأخوة الصغار بأنه هو الملك المختار وصدق على هذا كل الزعماء الحاضرين. لكن الصبي كان يعرف بما رُسم له فقال: "لا تخدعوني، فأنا لست الملك وأنتم لا تبغون إلا قتلي". إلا أنه لم يكن أمامه سوى الطاعة ليوضع على العرش. وجاءه الزعماء بالهدايا مظهرين نحوه كل آيات الإجلال وجاء معهم "كاراباجا" المنتصر صاحب التتويج الحقيقي مرتديًا ثوب أمير بسيط مصطحبًا بقرعة كعطية. وكان أن سأله الوصي: "أين بقرقي؟" فرد كاراباجا: "لقد جئت بها لمن يستحقها، أي الملك". فاعتبر الوصي هذا الرد إهانة له ف ضرب كاراباجا بطرة على ذراعه ليخرج كاراباجا مغاضبًا ويعود بمقاتليه فلما رآهم الوصي قادمين قال للصبي: "أتى كاراباجا، فلنحاربه" أما الصبي فشاء الفرار ليقبض عليه الوصي ويقوده إلى القسم الخلفى من قاعة العرش ليخنقه هناك ويدفنه بالمكان نفسه. فقد كان النزاع بين الوصي وبين الحاكم الجديد خدعة. وكان مصير الملك الصبي محددًا سلفًا، فهو من يتم اختياره وقتله دائمًا في أثناء طقس يسمونه "خدعة الموت". فالحرب كانت قد حُسمت ومات جميع الخصوم. لكن كان على الملك في أثناء التتويج أن يبقى على قيد الحياة بعد الصبي الذي لم يكن سوى أخيه، لتدفن الضحية في آخر قاعة هناك حيث كان العرش وطبول الملك الجديدة. كما كان للقوس أهمية رمزية بمملكة كيتارا. وكان لا بد للقوس من أوتار جديدة فكان يتم اختيار رجل يرى أنه شرف له أن تؤخذ أوتار القوس من جسده

نفسه، وهو من يشرف على عملية استخراج الأوتار من جانبه الأيمن. وسرعان ما يموت متأثرًا بتبعات ذلك ويذهب القوس مع أربعة سهام إلى الملك ليطلق كل منها في اتجاه الجهات الأربعة الأصلية، وهو يقول في أثناء ذلك: "إني أرمى الأمم بنبالى كي أقهرها"⁽¹⁴⁷⁾. ولدى كل رمية يذكر اسم إحدى الأمم التى تسكن جبهةً من الأربعة. ثم يُبحث عن السهام لتعاد ويُحتفظ بها. ويتكرر إطلاق السهام على الأمم من خلال الملك. أما المملكة الجارة الأقوى لكيتارا والتى كانت فى حرب متواصلة معها فكانت أوغندا. فإذا ما اعتلى الملك العرش كان يقال إنه: "أكل أوغندا" أو "إنه أكل الطبول"⁽¹⁴⁸⁾. وكان امتلاك الطبول رمزًا للسلطة والمنصب. وكان هناك طبولٌ للملك وطبولٌ للزعماء وكل منصب كان معروفًا بإيقاع طبول خاص به. وفى أثناء طقوس التتويج كان الملك يقول: "أنا ملك أوغندا ولسوف أحيأ عمرًا أطول من أجدادى لكى أحكم الأمم وأقضى على حركات العصيان"⁽¹⁴⁹⁾. أما أول واجبات الملك فكانت تتمثل فى إقامة الحداد على الملك الراحل. وفى نهاية فترة الحداد يأمر الملك بقرع الطبول. وفى يومٍ لاحق كان يمارس الصيد فيجئ إليه بغزال ثم يطلق سراحه ويكون على الملك اصطیاده، ثم يلقى القبض على رجلين كانا يعبران الطريق صدفةً ليُخنق الأول ويُمنح الآخر الحياة. وفى المساء نفسه يعتلى الملك عرش الملك السابق ويحلف اليمين بين يدي أحد الأشراف ليحمله رجلان قويان على الأكتاف ويطوفان به المخيم لكى يبايعه الشعب ثم يمثل أمام الملك رجلان شُدت عصابة على أعينهما فيحدث الملك بأحدهما جرحًا بسيطًا بسهمه ويرسله كبش فداء إلى البلاد المعادية لكيتارا، أما الثانى فيطلق سراحه⁽¹⁵⁰⁾ ليعين مشرفًا على شئون البلاط الداخلية للملك وحاجبًا لنسائه، ويقاد هذا المشرف الجديد مع ثمانية من الأسرى إلى موضع الأضاحى. وهناك تُعصب عيناه ليُقتل فى وجوده سبعة من الأسرى بالمقامع ويسمح له برؤية موت الأسير الثامن. ويقال إن عمليات القتل هذه تُمِد الملك بالقوة وتمنح المشرف القوة والإخلاص. وبعد مرور سنتين أو ثلاث على حكم الملك يُعرض عليه شخصان مرةً أخرى فيجرح الأول ويوهب الثانى الحياة. أما الأول فيُقتل خارج القفص عند المدخل الرئيسى. وأما الآخر فيعين مساعدًا للمشرف لتكون أول مهامه هى حمل جثة القتيل وإلقائها بالنهر. وهؤلاء أيضًا يُقتلون فى سبيل قوة الملك الذى يقتل ليبين أنه تولى الحكم. وهو يقتل من حين لآخر ليبقى على قيد الحياة، فهو يكتسب قوة من خلال بقائه على قيد الحياة. وهناك عادةٌ لافتة، قد تكون

خاصةً بأوغندا، تتمثل في عرض الضحايا زوجًا زوجًا فيموت الأول ويُعفى عن الثاني فيكون الملك هنا قد مارس حقًا مزدوجًا في آن واحد، وهو حقٌ خالص له فهو يستخلص القوة من أحدهما، إلا أن العفو عن الآخر فكان يعود عليه بالنفع أيضًا، فالأخير يكون قد رأى المصير الذي آل إليه الأول ليستمد هو نفسه القوة ببقائه على قيد الحياة. ولهذا يصير من عفى عنه خادمًا أكثر إخلاصًا للملك. ومما يثير الدهشة أن يموت ملكٌ في أوغندا بعد كل هذه الممارسات وهو من ضحى البعض بحياته في سبيله في مناسبات أخرى. أما اكتسابه للقوة ببقائه على قيد الحياة فقد صار منظومةً وطيدة من أجل التضحية بحياة البشر. إلا أنها منظومةٌ دينية تظل على حالها هذه مستقلة عن النزوات الشخصية لهذا الملك أو ذاك. وإضافةً إلى ذلك كانت هناك أهواء الملك الشخصية التلقائية التى يكون هو المسئول عن خطورتها. أما الهيمنة المطلقة على الحياة والموت فكانت من سمات الملك الأفريقى الرئيسة وهو ما كان يسبب ترويعًا هائلًا: "ها أنت (أتا)⁽¹⁵¹⁾، بين يديك سلطة الهيمنة على الحياة والموت فاقتل من يقول إنه لا يخشاك"، هذا هو نص صيغة توليه ملك "إيجارا" فهو يقتل من شاء من دون الإفصاح عن مبرر ذلك، فتكفى رغبته وهو ليس مسئولاً عن ذلك أمام أحدٍ ما، لكنه لا يسمح له في حالات كثيرة سفح الدم بنفسه. إلا أن الجلال الذى ينفذ أمره في ذلك، فكان منصبًا لا غنى عنه في البلاط. وسواء كان الرجل المكلف بمهمة الجلال قد صار رئيسًا للوزراء، كما حدث في داهومى، وسواء كان الملك قد عين مئات جلادين على أنهم فئة من الموظفين، كما حدث لدى الأشانتي أو قصر عملية الإعدام على حالات عشوائية، فإن إصدار أحكام بالموت ظل دائمًا حقًا للملك لا ينازعه فيه أحد، فإن لم يمارس هذا الحق لفترة طويلة أو لم يمارسه قط كان ذلك بمثابة التهديد للفرع الأساسى من سلطته فلا يخشاه أحد بعد ذلك، وينظر إليه الجميع باستهانة فقد كان يُنظر إلى الملك باعتباره أسدًا أو فهدًا، سواء اعتبر هو أحد هذه الحيوانات جدًا له أو شاركه صفاته من دون أن يكون من نسله المباشر. وطبيعته كأسد أو فهد كانت تعنى أن يمارس القتل مثل هذه الحيوانات، فممارسته للقتل كانت أمرًا صحيحًا ومناسبًا لأنه وُلد بإرادة القتل هذه وعليه أن يثير الفرع الذى تشيره هذه الحيوانات. وكان ملك أوغندا يأكل وحده فلم يسمح لأحد بأن يراه فى أثناء تناوله لطعامه وكان منوطًا بإحدى زوجاته إحضار الطعام له، وكان عليها أن تولى وجهها عنه فى أثناء تناوله الطعام "فالأسد يأكل

وحيثاً⁽¹⁵²⁾ هكذا قال الشعب. فإذا لم يستسغ الطعام أو أنه لم يحضر إليه بالسرعة الكافية كان يؤتى بالمخطئ ليمزقه برمحه، وإذا ما سعلت الخادمة فإنها كانت تعاقب بالموت. وهو يحتفظ بجواره دائماً برمحين فإن دخل أحدهم مفاجئاً الملك في أثناء تناول الطعام، فإنه يُقتل في الحال ليقول الشعب بعدها: "إن الأسد قتل هذا أو ذاك في أثناء تناوله الطعام". أما بقايا طعامه فلا يسمح لأحد بمسها فقد كانت تقدم لكلابه المدللة. وكان ملك كيتارا يأكل من يد الطاهي الخاص به⁽¹⁵³⁾، فكان هذا يأتي بالطعام ليضع الشوكة في اللحم ويخرج بقطعة منه ليضعها في فم الملك، ويكرر الطاهي ذلك أربع مرات، فإذا مست الشوكة ذات مرة أسنان الملك صدفةً فإنه يعاقب بالموت. وكان ملك كيرا كل صباح بعد حلب البقر يجلس على العرش ليعقد مجلس القضاء، وهو يطلب السكون ويغضب إذا تكلم أحد، وكان يقف بجواره خصي واضعاً على كتفه الأيمن فراء أسد يتدلى منه رأس الأسد ليخفى سيف الملك ذا النصلين الذي عُمد في الفراء. فإن شاء الملك تناول سيفه مد يده فيضعه الخصي بكفه ثم يردى الملك بهذا أحد رجال البلاط. وفيما عدا ذلك كان يطبق العدالة أمام باب قصره⁽¹⁵⁴⁾. فيمضي بأرجاء المكان بصحبة خصي فإذا لم يناسبه شيء ما مد يده ليوقع العقوبة بأحدهم. وإطاعة كل أوامره كان من الضرورة. والموت كان عقاب من لا يراعى ذلك. وهنا يتجلى الأمر في أكثر صورته نقاءً وقدماً مثله مثل حكم الأسد بالموت على كل الحيوانات الضعيفة التي تعيش في ظل تهديده الدائم. فأما الأعداء فلا سبيل أمامهم سوى توخي طريق الفرار من وجهه في الحال. كما أنه يرسل رجاله إلى أي مكان يريده وما داموا على طاعته وهبهم هو الحياة. وفي حقيقة الأمر كان يظل دائماً أسداً، فإذا ما واثته الفرصة أو الرغبة ضرب ضربته.

سلطان دلهي محمد طغلق

لقد عثرنا، لحسن الحظ، على وصف واضح المعالم لشخصية سلطان دلهي هذا، وهو وصفٌ أكثر دقةً مما اعتدنا عليه عن وصف لحكام الشرق، فقد عمل ببلاطه الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة طيلة سبع سنوات، وهو من زار في عصره العالم الإسلامي كله من المغرب إلى الصين⁽¹⁵⁵⁾. وقد خلّف وصفًا حيًّا عن السلطان وعن شخصيته وعن بلاطه وأعمال حكومته. وقد تمتع ابن بطوطة طويلاً بكرم السلطان، لكنه داهمه فزع قاتل حينما حلت به نقمته. فكان أن قام في البداية، كما جرى العرف، بمداهنته محاولاً النجاة من سخطه بسلوك مسلك الزاهد. "من بين الناس كافة كان أحب عمل لهذا الملك هو منح العطايا، وأحب عمل له هو سفح الدماء". وقد كان ابن بطوطة من القليلين الذين أدركوا بوضوح هذا الوجه المزدوج للسلطة، حسبما عايشه في هذا البلاط. ومن أجل إثبات دقة تقريره ظهر برهانٌ لا يمكن نقضه، فهناك تقرير آخر يمكن مقارنته به، وكان تدوينه لا علاقه به. فقد عاش موظفٌ كبير سبعة عشر عامًا ببلاط محمد، هو ضياء الدين براني، وبعد فترة ليست طويلة بعد وفاة الحاكم قدم تأريخًا لعهد بالغة الفارسية، فاعتُبر ذلك من أفضل الأعمال في هذا المجال⁽¹⁵⁶⁾. ومن بين الكثير وصلنا عن ذلك الأمر ثلاثة حوارات كان المؤرخ - فيما بعد - قد

أجراها مع السلطان نفسه. وهى تعبر على نحو دقيق للغاية عن رؤية هذا الحاكم تجاه رعاياه ونظام حكمه، والاستعراض التالى يتركز على هذين المصدرين وقد أفاد من كليهما إفادةً عظيمة. وقد بلغ محمد طغلق أرفع مستويات الثقافة فى عصره واعتُبرت رسائله بالفارسية والعربية نموذجًا لأناقة الأسلوب، وظلت موضع إعجاب لفترة طويلة بعد موته. ولم تكن بلاغته وأسلوبه يقلان عن أشهر أساتذة هذا الفن فقد كان يمتلك الخيال ويتقن استخدام الرمز، وكان على معرفة واسعة بالشعر الفارسى وامتلك ذاكرة استثنائية، وحفظ عن ظهر قلب كثيرًا من الأشعار كان غالبًا ما يقتبس منها متذوقًا إياها كما كان مطلعًا جيدًا على باقى فنون الأدب الفارسى التى أسرتَه على نفس قدر علوم الإغريق من رياضة وفيزياء ومنطق وفلسفة. "وقد كان لتعصب الفلاسفة وعدم المبالاة وقسوة القلب تأثير بالغ عليه". إلا أنه كان يتمتع أيضًا بنهم الطبيب إلى المعرفة، فقد كان يعالج بنفسه المرض إذا لفت نظره أعراض مرض غير مألوف، ولم يكن أى عالم أو أديب أو شاعر أو طبيب يستطيع الصمود أمامه فى جدل ما فى مجال تخصصه، كما كان يتسم بالورع فكان يتمسك بصرامة بتعاليم دينه فلم يذق طعم النيبذ وكان يلزم رجال بلاطه باحترام مواقيت الصلاة، فإن أغفل أحدهم ذلك أنزل به أقسى العقاب. وكان يهتم كثيرًا بالعدالة ولم يكن يهتم بالعبادات فحسب بل أيضًا بتعاليم الأخلاق الإسلامية وينتظر الشيء نفسه من الآخرين. وقد امتاز فى الحروب بالبسالة والمبادأة. وقد ذُكرت على نحو عام إنجازاته العسكرية فى أثناء حكم أبيه والسابقين على حكم أبيه. وقد كان أمرًا مهمًا أن نشير إلى طبيعته المتنوعة هذه، لأن كل ملامحه وأعماله التى وجدها معاصروه غريبة وغير مفهومة كانت على نقيض حاد من تلك السمات البراقة التى احتفظ بها دومًا، وكانت موضع الإعجاب الشديد. فكيف كان يبدو بلاط هذا الأمير العادل صاحب الثقافة الرفيعة؟ فمن أجل الوصول إلى داخل القصر كان على المرء اجتياز ثلاث بوابات، فأمام الأولى كان يقف الحراس بجوار ضاربي الدفوف وعازفي الناي، وعند وصول أمير أو شخصية مرموقة يقوم هؤلاء بالعزف على آلاتهم صائحين: "وصل فلان بن فلان، وصل فلان بن فلان". كما كانت هناك خارج البوابة الأولى أيضًا منصات يجلس عليها الكتاب. فإذا ما أصدر السلطان قرارًا بإعدام رجل ما فإنه كان يتم تنفيذ الحكم أمام بوابة القصر لتظل الجثث راقدة هناك ثلاثة أيام فإذا دنا أحدهم من القصر لقى دائمًا جثثًا أكوامًا جبالًا راقدة

هناك. وكان عمال نظافة الطرق والجلادون المنوط بهم جر الضحايا وقتلهم ينوءون بعملهم الشاق المتصل. وبين البوابة الثانية والثالثة كان هناك بهو لاستقبال عامة الشعب. وأمام البوابة الثالثة كان يجلس كتاب هذه البوابة ليحولوا دون مرور أحد لا يحمل إذنًا خاصًا من السلطان. فإذا ما ظهر شخص ما عند هذه البوابة يسجل الكاتب: "فلان بن فلان جاء في الساعة الأولى" أو "في الساعة الثانية" حسبما اتفق. وبعد صلاة العشاء يتم تقديم تقرير للسلطان عن ذلك. أما من كان يتغيب عن القصر لثلاثة أيام أو أكثر بعذر أو من دون عذر فكان يحرم من الدخول من دون إذن مسبق من السلطان. فإن كان مريضًا أو تغيب لعذر آخر جاء إلى السلطان بهدية تناسب مكانته. وخلف هذه البوابة كانت "قاعة النظارة" الخاصة بالملك أي "قاعة الألف سهم" وهى قاعة رحبة يعلوها سقف رائع من الخشب المحفور الملون. أما النظارة فكانت تقام عصرًا وأحيانًا في الصباح الباكر، فكان السلطان يجلس فوق عرشه أسفل مظلة مزينة فاردًا ساقيه واضعًا إحداها على الأخرى، وخلفه وسادة كبيرة واثنان أخريان يرتكز عليهما بذراعيه على الجانبين، وأمامه يقف الوزير وخلفه الحُجَاب ثم الحاشية طبقًا لرتبتهم بالبلاط. وفي أثناء جلوس السلطان يصيح الحُجَاب والحاشية عاليًا: "بسم الله!" ليقف مئة رجلٍ يمينًا ويسارًا مسلحين بدروعٍ وسيوفٍ وأقواس. أما باقى العاملين والأشراف فكانوا يصطفون على جانبي القاعة. ثم يجيء بستين جوادًا بزینتها الملكية لتصطف يمينًا ويسارًا حتى يتسنى للسلطان رؤيتها، ثم يلي ذلك دخول خمسين فيلاً مزدانة بغطاء حريري وقد اكتست أنيابها بالحديد، وهو ما يكون ذا أثرٍ قوى عند قتل المجرمين، ويجلس على عنق كل فيل قائدٌ حاملًا شيئًا كالبلطة الحديدية لردع الحيوان وقيادته. ويحمل كل فيل فوق ظهره هودجًا كبيرًا يتسع -حسب حجم الفيل- لعشرين أو أكثر من الجنود. وقد تم ترويض هذه الأفيال على تحية السلطان والركوع أمامه. وكل مرة تركع فيها الأفيال تصيح الحاشية بصوتٍ عالٍ: "بسم الله!" وهم يصطفون في مجموعتين يسارًا ويمينًا خلف الأشخاص الواقفين، وقد حُدد مكانٌ بعينه لكل من يدخل، فما إن يصل إلى الحاشية وينحنى حتى يصيح هؤلاء: "بسم الله!" ويرفعون قوة هتافهم حسب مكانة الشخص المقصود الذى يعود إلى مكانه فلا يتجاوزهُ أبدًا. فإذا جاء أحد الهندوس الكفار من أجل المباركة فإن الحاشية كانوا يقولون له: "غفر الله لك". وقد استعرض رحالةٌ عربي على نحوٍ واضح للغاية مشهد دخول

السلطان إلى عاصمته "فإذا ما عاد السلطان من إحدى رحلاته كانت الأفيال تتزين، وقد وضعت مظلات فوق ستة عشر منها وقد زُيّن بعضها بالديباج وبعضها بالجواهر وأُعدت سرادقات من الخشب ترتفع لعدة طوابق وعُلّق بها الحرير، وفي كل طابق حُشدت مغنيات وراقصات وقد ارتدين ثيابًا رائعة مزدانة بالحلّى. ووُضع بوسط كل سرادق وعاءٌ كبير من الجلد مليئًا بالعصائر. وكان يسمح لكل الأجنب وأهل البلاد باحتساء ذلك ويستقبلون في الوقت نفسه بسعف وأغصان النخيل. أما الأرض بين السراقات فكانت مغطاة بالحرير لتمر فوقها خيول السلطان. أما جدران الطرق فكانت مغطاة بقماشٍ من الحرير من بوابة المدينة حتى بوابة القصر. وكان يمضى أمامه الخدم والأقّ كثيرة من العبيد الذين يليهم العامة والجنود. وفي أثناء عودته ذات مرة إلى المدينة شاهدت فوق الأفيال مقاليح صغيرة تنثر قطع نقود من الذهب والفضة بين الناس منذ لحظة دخوله المدينة وحتى وصوله القصر. وكان محمد كريمًا على نحو خاص مع الأجنب. وكانت عيناه تخبرانه على الفور بكل من يصل حدود مدن مملكته. أما رسله فكانوا مُدربين على نحوٍ مثالي، فالطريق الذى يجتازه المسافرين في خمسين يومًا كان رسله يقطعونه في خمسة أيام. وكانوا يتبدلون كل ثلث ميل. ولم تكن رسائله فقط هى التى تنقل هكذا فكانت فواكه نادرة تصل طازجة من خراسان إلى مائدة طعامه. أما مجرمو الولايات فكانوا يوضعون مقيدين على محفات يحملها الرسل على رؤوسهم ليصلوا بنفس القدر من السرعة التى يصل بها إليه البريد والفاكهة. أما التقارير عن الأجنب على الحدود فكانت دقيقة للغاية. فكانت تسجل بعناية وتفصيلًا مظهرهم وملبسهم وعدد المرافقين والعبيد والخدم والحيوانات ومسلكهم فى أثناء الوقوف أو السير أو الجلوس وكل ما يفعلون. وكان السلطان يعتنى بهذه التقارير على نحو دقيق. إلا أنه يكون على الأجنبى الانتظار طويلًا على الحدود حتى يصل أمر السلطان بما إذا كان سيواصل السفر ومدى التشريف الذى سوف يلقاه. وفى النهاية فإن كل من هؤلاء يخضع للحكم عليه من خلال مسلكه الشخصى. فقد كان من الصعوبة بمكان معرفة شئ عن أصله أو عن أسرته فى بلاد الهند البعيدة. وقد كان محمد مهتمًا بالأجنب على نحوٍ خاص للغاية فجعلهم حكامًا للولايات وأشرافًا. وكان أغلب رجاله عاملين ووزراء وقضاة من الأجنب. وكانوا جميعًا يحصلون على لقب "شريف" بقرار منه. وكان يدفع لهم مبالغ ضخمة لمعيشتهم ويكافئهم بمكافآت متعددة. ومن خلالهم ذاع

صيت كرمه في سائر أنحاء العالم. إلا أن صرامته كانت أكثر شهرةً، فكان يعاقب على كل فعل صغير وكبير بغض النظر عن مكانة الشخص سواء كانت علمية أو دينية أو رتبةً عالية. فكان يؤق إلى كل يوم بمئات الناس وقد قيدت أيديهم وأرجلهم في الأغلال فيعدم بعضهم ويعذب الآخر ويضرب البعض الثالث. وكانت من عاداته الخاصة أن يُعرض عليه نزلاء السجن كلهم كل يوم فيما عدا يوم الجمعة فقد كان يوم راحتهم حيث اعتادوا الاغتسال والتمتع بالهدوء. وكانت أقسى شكوى ضد السلطان هي إرغامه سكان دلهي على مغادرة مدينتهم. فكان لديه، كما ظن هو، مبررٌ لعقابهم فقد اعتاد هؤلاء كتابة رسائل إليه بعنوان: "إلى سيد العالم" لا يقرأها سواه شخصيًا ثم يلقون بها ليلاً في قاعة النظارة. وعندما يكسر السلطان خاتم الرسائل لا يجد بها سوى سباب وإهانات. فقرر أن يجعل دلهي أطلالاً وبعد أن ابتاع كل مساكنهم ومنازلهم ودفع مقابل ذلك الثمن كاملاً أمرهم بالرحيل إلى "دولتباد" التي قرر تأسيسها عاصمةً له، فلما امتنعوا أعلن من خلال المنادى الخاص به بأنه لا يجوز لأي إنسان الوجود بالمدينة بعد انقضاء ثلاثة أيام، فأنصاع أغلب الناس للأمر إلا أن البعض اختبأوا بمنازلهم فأمر السلطان بالبحث في المدينة عمن بقى فيها، فعثر عبيده على رجلين بالطريق أحدهما صاحب عاهة والآخر أعمى، فقادوهما إليه، فأمر بإلقاء العاجز من خلال مقلع، أما الأعمى فأمر بسحله حتى "دولتباد" وكان ذلك رحلة تستغرق أربعين يومًا، وفي الطريق كانت أشلاؤه قد تناثرت ولم يصل منه إلى دولتباد سوى ساق واحدة. وعقب ذلك غادر الجميع المدينة تاركين خلفهم الأثاث وما يملكون لتصير المدينة مهجورة تمامًا. هكذا كان الدمار شاملاً حتى إنه لم يبق قطُّ أو كلب مهباني المدينة، في قصورها وضواحيها. وقد روى لي أحد الأشخاص الذين أثق بهم أن السلطان سعد ذات ليلةً أعلى سطح قصره ونظر عبر دلهي فلم ير هناك أثرًا لنار أو دخان أو ضوء فقال: "الآن اطمأن قلبي وسكن غضبي". وبعد ذلك كتب إلى أهل المدن الأخرى وأمرهم بالنزوح إلى دلهي ليعمروها ثانية. فكانت النتيجة هي دمار مدنها، إلا أن دلهي نفسها ظلت خاوية بسبب حجمها الهائل فهي واحدة من أكبر مدن العالم، وعلى هذه الحال وجدنا دلهي لدى وصولنا إليها خاويةً لا يسكنها إلا نفرٌ قليل. وكان إحساس السلطان بالمرارة تجاه رعاياه لم ينشأ مبدئيًا نتيجة طول فترة حكمه. فمنذ بداية حكمه ساد بينه وبين رعيته توترٌ ظل يتنامى على مر السنين، كما جاء قراره بإخلاء دلهي في السنة الثانية من حكمه.

أما عن الرسائل التي كانت تُلقى إلى قاعة النظارة فلا يبقى أمامنا سوى تخمين فحواها. إلا أن هناك ما يرجح أنها كانت تتعلق بأسلوب توليه الحكم. فقد لقي والد محمد طغلق شاه حتفه في حادثة بعد أربع سنوات فقط من حكمه. ولم يعرف إلا بعض الثقات سر ما حدث في الواقع. فقد كان السلطان السابق قد عاد من حملة فطلب من ابنه إعداد سرادق لاستقباله. وخلال ثلاثة أيام كان قد تم إنجاز ذلك -كالعادة- من الخشب إلا أنه شُيد على نحو يجعله ينهار إثر اصطدام بموضع بعينه. وعندما مضى السلطان مع ابنه الأصغر في سرادق استأذنه محمد في استعراض الأفيال فأذن له، فاقترنت الأفيال بأسلوب جعلها تصطدم بالموضع الأكثر هشاشة في المبنى الخشبي، فانهار السرادق ليدفن تحته السلطان وابنه المقرب. وقد أرجأ محمد أعمال النجدة لفترة طويلة حتى تجاوز الوقت المناسب. وفي النهاية عُثر على كليهما ميتين. وقد زعم البعض أن السلطان الذي انحنى على ابنه كان ما زال يتنفس وعلى نحو ما فإنه قُتل للمرة الثانية. فارتقى محمد العرش من دون أدنى مقاومة. إلا أنه لم يكن له سلطان على السنة الخبيثة فصار يُنظر إليه منذ البداية بعين الريبة على أنه قاتل أبيه. وقد بلغت سلطنة دلهي في عهد محمد طغلق أقصى مدى لها فظلت لما يربو على مئتي عام حتى تم توحيد أجزاء كبيرة من الهند تحت حكم سلطان واحد في عهد "أكبر". إلا أن محمد لم يقنع قط بالولايات التي كانت تحت يده وقد تجاوزت العشرين، فقد شاء وضع العالم المسكون كله تحت حكمه ودبر خططاً رائعة لخدمة أغراضه. ولم يأتمن أيًا من مستشاريه أو أصدقائه على هذه المشاريع بل إنه احتفظ بها لنفسه كما ابتدعها هو بنفسه. وكان يرى في كل ما يخطر بباله أمرًا حسنًا فلم يكن يشك في قدراته. وكانت أهدافه تبدو له أمرًا بديهيًا والوسائل التي يستخدمها في تحقيق ذلك كانت هي الوحيدة الصحيحة. وكانت أكثر مشاريع فتوحاته طموحًا هي الهجوم على خراسان والعراق والصين كذلك. ومن أجل الأولى كوّن جيشًا من 370.000 فارس وقام برشوة الممدن المهددة بمبالغ ضخمة، إلا أن الهجوم لم ينفذ ومات في مهده بعد أن تفرق الجيش وتبددت الأموال هباءً، تلك التي كانت بمعايير محمد هائلة. أما الخطة الأخرى، أي فتح الصين، فكان ينبغي تنفيذها بعبور جبال الهيمالايا. فأرسل 100.000 فارس إلى أعلى الجبال في سبيل إخضاع تلك الكتلة (الجماهير) الكثيفة مع شعبها العنيف، ولتأمين معابر إلى الصين. وقد قُضى على هذا الجيش فلم يبق منه سوى عشرة رجال عادوا إلى

دلهى فأمر السلطان الذى خاب رجاؤه بإعدامهم. وقد كان فتح العالم يحتاج إلى جيوش جرارة ويتطلب أموالاً أعظم، وقد كانت موارد محمد هائلة فكان يرد إليه من جميع الأنحاء خراج ملوك الهندوس الخاضعين له كما ورث عن أبيه من بين ما ورث مخزوناً من كتلة مصمتة من الذهب. إلا أنه سرعان ما وقع في ورطة مالية فبحث -على طريقته- عن وسيلة ناجحة للخروج منها دفعةً واحدة. وكان قد سمع عن أوراق الصين المالية فوضع خطةً تسمح له بشيء شبيه بذلك من النحاس. فأمر بسك كمية كبيرة من النقد النحاسى وحدد قيمتها بالفضة قسراً. وأمر باستخدامها بدلاً من الذهب والفضة. فصار الناس يبيعون ويشتررون حينئذٍ بالنحاس وكان نتيجة هذا القرار أن تحول بيت كل هندوسى إلى قطعة نقد. فقد قام هندوس الولايات المختلفة بأنفسهم بسك ملايين من قطع النقد النحاسية وبها صاروا يدفعون خراجهم وبها اشتروا خيولاً وشتى الأنواع من الأشياء الجميلة. فكان أن أثرى أمراء وعمد قرى وإقطاعيون من خلال هذه النقود النحاسية. وسرعان ما انخفضت قيمة النقد الجديد على نحوٍ حاد بينما ارتفعت قيمة النقد القديم إلى أربعة أو خمسة أضعاف قيمته السابقة. وهكذا لم يعد النحاس فى نهاية المطاف سوى حبات حصى وصار كلٌ يحتفظ ببضاعته حتى ركبت التجارة بكل مكان. فلما رأى السلطان أثر قراره قام بإلغائه وهو ساخط سخطاً عظيماً. وأعلن أن على كل من يحتفظ بنقود نحاسية أن يأتي بها ليستبدل بها العملة القديمة، فأخرج الناس نحاسهم من كل ركن كانوا ألغوه به بكل احتقار وجاءوا بالآلاف إلى الخزانة حيث حصلوا مقابل ذلك على ذهب وفضة. وكان أن تراكمت جبال من نقود النحاس فى طغلق آباد لتفقد الخزانة مبالغ ضخمة ليشدد الاحتياج إلى المال. فلما رأى السلطان ما فقده من ثروته من جراء سك النقود النحاسية زاد من اعتماده على ما فى يد رعيته، فكانت الوسيلة الأخرى للحصول على المال هى فرض الضرائب التى كانت ارتفعت للغاية بسبب أفعاله، فصار تحصيلها يتم بقسوة بلا اكتراث لأى اعتبار، فتحول الفلاحون إلى شحاذين، وصار من يملك شيئاً من بين الهندوس يغادر بلده ليشق طريقه إلى الأدغال لينضم إلى المتمردين الذين كانت قواتهم، كبيرةً وصغيرةً، منتشرةً فى كل مكان. كما صارت الأرض قفرًا وصار المحصول يتراجع باطراد ما أدى إلى مجاعة بالبلدان المنتجة للحبوب. فلما انقطع المطر لفترة طويلة عمت المجاعة البلاد واستمرت لعدة سنوات فتشتت شمل العائلات ولم يعد لدى مدن كاملة ما

تأكله وقضى على آلاف البشر. وقد كانت هذه المجاعة هي التي حسمت الوجهة الحقيقية لمصير المملكة فازدادت حركات التمرد لتنفصل الولاية تلو الأخرى عن دلهي. وصار محمد ينتقل من مكان إلى آخر ليخمد حركات العصيان. وازداد طغيانه فجرّف الارض تمامًا وقام بمحاصرة الأدغال التي هرب إليها المتمرّدون، وأخذ يقتل كل من يقبض عليه رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً. واتخذت الرهبة منه منحى متطرفاً إلى حد أن خضع له كل إنسان كان يراه في أي مكان، إن لم يكن قد هرب قبل ذلك. لكنه لا يكاد يحقق الأمن في مكان حتى ينفجر التمرد بطرف آخر من أطراف البلاد. أما الحكام الذين كانوا ينفصلون عنه فإنه كان يأمر بسلخ جلودهم وحشوهم بالتبن ويرسل بهذه الدُمى المريعة إلى أرجاء البلاد لينشر الفزع فيها. ولم يشعر محمد بتأنيب الضمير على ما ارتكبه فقد كان مؤمناً بصحة ما يفعله. وكانت الحوارات التي أجراها مع ضياء الدين البراني عن ذلك مسهبةً إلى حد يؤدي بنا إلى اقتباس بعض الشيء منها. فقد قال السلطان لبراني: ها أنت ترى كم الثورات التي تنشب وإني غير راضٍ عن ذلك رغم أن الناس سيقولون إن كل هذه ترجع إلى صرامتي المفرطة، لكنني لن أراجع عن أحكام الإعدام بسبب هذه الادعاءات أو تلك الثورات، ولقد قرأت أنت الكثير من المراجع التاريخية، فهل رأيت ملوكاً يصدرّون أحكاماً بالإعدام بالشبهة؟

وقد توصل براني إلى فتوى إسلامية عليا ترى عقوبة الموت واجبة في سبع حالات، أما يتجاوز ذلك فيؤدي إلى قلاقل وعصيان ويلحق الضرر بالبلاد. والسبع حالات هي: 1- الارتداد عن الدين 2- قتل النفس 3- زنا رجلٍ محصن بزوجة آخر 4- التآمر على الحاكم 5- قيادة ثورة 6- التحالف مع أعداء الحاكم ونقل الأخبار إليهم 7- شق عصا الطاعة بما يلحق الضرر بالدولة. وهي أحكام لا تسرى على غيرها من حالات عدم الطاعة. وكان الرسول قد ذكر بنفسه ثلاثاً من هذه الجرائم وهي: الارتداد عن الدين وقتل المسلم والزنا بامرأة متزوجة، أما عقوبة الأربع الأخرى فكانت بالأحرى أمراً سياسياً. إلا أن الفتوى كما يرى براني قد أكدت أيضاً على أن يقوم الملك بتعيين الوزراء الذين يرتقون بعدها مرتبة "الأشراف" العليا وتسلم إليهم مقاليد حكم المملكة، وتكون مهمة هؤلاء الوزراء هي مراعاة سلامة القوانين والحفاظ على البلاد في إطار نظام قويم، حتى ينأى الملك بنفسه عن أن تلتطخ يده بدماء أي إنسان. وكان أن عقب على ذلك فقال: إن العقوبات المتقرحة آنذاك كانت تسير أحوال الدنيا في الماضي. أما

اليوم فيوجد بشرٌ أكثر سوءًا وعنادًا وأنا أعقابهم بمجرد الشبهة أو الظن بنياتهم في التمرد أو الخيانة وإني أعاقب أدنى أفعال العصيان بالموت ولسوف أوصل ذلك حتى يفرغ أجلى أو يسلك الناس مسلك الأدب ويدعون التمرد والعصيان ولست أملك مثل هذا الوزير الذى يضع قواعد تحول بينى وبين سفح الدماء. وإني لأعاقب الناس لأنهم صاروا فجأة أعدائى وخصومى ورغم أنى وزعت عليهم ثرواتٍ عريضة لم يبدوا ودًا نحوى أو دانوا لى بالولاء، وإني عليمٌ بتوجهاتهم وأرى أنهم غير راضين ويناصبوننى العدا.

وفى حوار تالٍ لذلك يأسف السلطان أنه لم يقتل الجميع قبل ذلك، هؤلاء الذين تمردوا فأثاروا المتاعب. وذات مرةٍ أخرى، كان قد فقد للتو واحدة من أهم مدنه، التى كان قد هدد سكان دلهى بإرغامهم على الانتقال إليها، كان قد استدعى برانى وسأله عن العلاج الناجع الذى عالج به الملوك السابقون مثل هذه الأحوال، فمملكته عليلة ولم يجد معها أية وسيلة، فأجابه برانى بأن الملوك الذين أدركوا أنهم فقدوا ثقة شعوبهم وصاروا موضعًا للنفور العام، أقدموا على التنحى وتركوا الحكم لأحد أبنائهم الأكثر جدارةً، واتجه آخرون إلى الصيد والمتعة وتركوا إدارة شؤون البلاد للوزراء والعاملين. فإذا ارتضى الشعب ذلك ولم يكن الملك مريضًا بالانتقام صار فى الإمكان أن تتعافى الدولة من مرضها على هذا النحو. أما أعظم شُور السياسة وأعظمها وأكثرها خشية هى الشعور العام بالنفور واقتقاد الثقة بين طبقات الشعب. إلا أن السلطان لم يدع بالكاد فرصةً لبرانى ليغير وجهته بنصائحه الشجاعة التى تكاد تكون سافرة. فإذا ما أفلح فى تنظيم أمور دولته على النحو الذى يتمناه فى هذه الحالة فقط سوف يعهد بالحكم إلى ثلاثة رجالٍ بعينهم ليمضى إلى الحج بمكة: "لكننى الآن حانقٌ على رعيتى وهم غاضبون على، وهم يعرفون مشاعرى كما أعرف أنا مشاعرهم، وكل سبيل أحاول أن أسلكه يظل من دون أثر. أما دوائى للمتمردين والعصاة والغاضبين فهو السيف. فأنا أقرر عقوبة الإعدام وأستخدم السيف كى أداوى بالداء. فكلما اشتدت مقاومة الناس اشتد عقابى لهم".

وكانت كثرة حركات التمرد والقتال التى هزت مملكته قد أثرت على مشاعر السلطان فبدأ يؤنب نفسه، ليس لأكوام الجثث أمام قصره والمنتشرة فى كل الولايات والمدن التى زارها، وإنما بالأحرى لشرعية حكمه، فقد كان، كما اتضح

بشكل كافٍ، رجلاً ورعاً محباً للعدالة وقد شاء الوصول بمنصبه الملكي إلى أقصى درجات العقاب الدينية التي يسمح بها الإسلام. ففي القرون الماضية كان خلفاء بنى العباس، حكام بغداد، يُعتبرون المرجعية المختصة. إلا أن دولتهم دالت. ففي العام 1258 كان المغول قد استولوا على بغداد وقُتل آخر الخلفاء.

أما محمد طغلق الذي اعتلى العرش عام 1325 واستيقظ ضميره نحو العام 1340 عندما بدأت ولاياته تنفصل عنه الواحدة تلو الأخرى فقد صعبت عليه معرفة من هو صاحب الحق في تقلد الحكم. فتوخى البحث مخلصاً، فصار يسأل بدقة كل الرحالة القادمين إلى بلاطه من بلاد المسلمين الغربية حتى خلص في النهاية إلى نتيجة أن الخليفة المصرى هو "البابا" الذى ينشده. فبدأ مشاورات معه. فراح مبعثون وجاءوا. وفي رسائله إلى الخليفة سمح لنفسه بإطلاق مدهانات كانت متطرفة إلى حد لم يجرؤ معه المؤرخ برانى أن يكررها، وهو الذى كان مضطراً إلى اعتياد بعض مثل هذه الأمور. أما رسول الخليفة الذى كان يأتى إليه فكان محمد يخرج للقياء عند بوابة المدينة بصحبة كبار الأشراف وعلماء الدين، ليصحبه بعد ذلك لمسافة ما حافى القدمين. وقد قام بمحو اسمه من النقود ليضع مكانه اسم الخليفة، وفي أيام الجمعة وصلواتها كان يذكر اسم الخليفة. إلا أن محمد لم يكن راضياً عن ذلك فكل الملوك السابقين الذين لم يعترف بهم الخليفة كان يمنع ذكر أسمائهم من الصلاة ويعلن أن حكمهم باطل بأثر رجعى. وقد كتب هو اسم الخليفة فوق مبنى عالٍ ولم يسمح بوجود اسم آخر بجواره. وفي شهادة احتفائية وبعد توافد عدة بعثات من مصر لسنوات عديدة تم تعيين محمد نائباً للخليفة على الهند. وقد سبب هذا المرسوم لمحمد سعادة جعلته يأمر شعراء بلاطه أن يسجلوا ذلك شعراً، لكنه ظل على حالة تزداد حدة مع ازدياد إخفاقاته ولم يستطع الخلاص من شخصية القاتل. وبعد مرور ستة وعشرين عاماً على حكمه مات بحمى أصابته في أثناء حملة تأديبية. هكذا يعتبر محمد الصورة الأكثر نقاء لصاحب سلطة مصاب بجنون العظمة، وقد صارت حياته الغربية بمثابة مادة دراسة خاصة للأوروبيين. فقد كان كل شيء فيه لافتاً للانتباه. فالمرء يراه على نحو أفضل لوضوح سياق طبيعته الصارم. وهو الذى تأثر وجدانه بكتل عديدة: جيشه وأمواله وجثته والبلاط الذى ارتبطت عاصمته به. وقد تعامل معها بلا انقطاع. فكانت إحداها تكبر على حساب الأخرى. وبانهيار جيشه الضخم نضب معين ثروته وقد أرسل مدينة كاملة إلى

المنفى وبقي هو في هذه المدينة العالمية فجأة وحيداً قائماً. ومن أعلى سطح قصره شاهد المدينة الكبيرة خاويةً، ليستمتع تماماً بحظ الباقي على قيد الحياة. ومهما كانت أعماله إلا أنه عرف كيف يحتفظ بكتلة خاصة به، فلقد تمسك في كل الأحوال بالقتل وكان هناك مشهد من كوم الجثث ماثلة أمام قصره. أما استعراضه اليومي للسجناء بوصفهم مرشحين للإعدام فكان يرى في ذلك ثروته النفيسة التي تفوق قيمتها أى ثروة أخرى. وعبر ستة وعشرين عاماً من حكمه كانت أكوام الجثث قد انتشرت في كل ولايات مملكته. كما جاءه المدد من خلال الأوبئة والمجاعات. لكنه سخط لعجزه عن تفادي انقطاع الخراج، إلا أن اطراد عدد ضحايا المستمر كان يوطد رباطة جأشه. ومن أجل تأمين قوة أوامره في حالة من التركيز المطلق المتمثلة في أحكام الإعدام بحث لنفسه عن أعلى مرجعية. وقد دافع مؤرخون هنود محدثون عن محمد طغلق، فالسلطة لم تفتقر قط إلى مداحين، فالمؤرخون المهووسون مهنيًا بالسلطة اعتادوا كل شيء مع مرور الزمن الذي يستطيعون كخبراء الاختباء خلفه بسهولة، أو يتذرعون بـ"الضرورة" التي يشكلونها بأيديهم كيفما شاءوا⁽¹⁵⁷⁾. إن مثل هذه المعالجات نراها في حالات هى أقرب لنا من حالة محمد طغلق. وقد يفيدنا في اتقاء ذلك أن ننسب أفعال السلطة إلى شخص واحد فقط، لا يحمل هذه الأفعال نحو العالم، إلا في أوهامه، لحسن الحظ.

حالة شريبير الجزء الأول

تعتبر "خواطر" شريبير - رئيس مجلس شيوخ "درسدن" السابق - وثيقة لم نكن نطمح إلى أكثر منها ثراءً وعطاءً، فقد كان الرجل مثقفًا وعقلانيًا، كما علمته مهنته الصياغة الواضحة. وهو من أمضى سبع سنواتٍ بالمصححة كمريضٍ بجنون العظمة حين قرر تدوين كافة تفاصيل ما بدا للعالم نظامًا مجنونًا. فصارت "خواطر مريض أعصاب" كتابًا كاملاً⁽¹⁵⁸⁾. وقد آمن شريبير بصحة وأهمية دينه الذي أبدعه بنفسه حتى أنه أصدر كتابًا عنه بعد رفع الحجر عنه. أما الوسائط اللغوية التي استخدمها فكأنها خُلقت من أجل عرض أنماطٍ فكرية على هذا النحو الخاص للغاية. وقد عبر من خلال ذلك عن الكثير، إلى حد كشف كل العناصر الأساسية، فهو يحسن الحديث، ولأنه لم يكن، لحسن الحظ، شاعرًا فقد تسنى لنا متابعة كل معالجاته من دون الوقوع في أسره. وقد شئت إبراز بعض الفقرات اللافتة في طريقته ما دام ذلك ميسرًا. وقد بدا لي أن هذه المعالجة تحملنا إلى أقرب موضعٍ من طبيعة جنون العظمة. فإذا ما تناول آخرون الأمر نفسه بالبحث فتوصلوا إلى نتائج أخرى كان هذا برهانًا على ثراء هذه "الخواطر". أما بيانه الذي يطالعنا به شريبير فيتجلى على نحوٍ أكثر وضوحًا حين يقصره على

ما تبدى له فقط، فعند البداية تقريبًا قال: "إننى لست سوى إنسانٍ وبذلك أكون قد التزمت حدود المعرفة الإنسانية". ولم يتطرق إليه شك في أنه قد اقترب للغاية من الحقيقة أكثر من البشر الآخرين كافة. ثم ينتقل على الفور إلى الأبدية. وفكرة الأبدية تصبغ كتابه كله، فهي تعنى له أكثر مما تعنى للإنسان العادى. فهو خيرٌ بها ولا يعتبرها شيئًا مُنح له بل شيئًا يمتلكه. أما حساباته الزمنية فيضعها في إطار حقبةٍ مديدة. فتجاربته التى مر بها تمتد عبر قرون من الزمن، وهى تبدو له كأن كل ليلةٍ واحدة امتدت إلى مئات السنين إلى حدِّ يُمكن هذا الإطار الزمنى من احتواء أكثر التطورات عمقًا فى التجربة البشرية كلها والأرض والنظام. أما معرفته بالفضاء الخارجى فلم تكن أقل من معرفته بالأبدية. وقد تأثر على نحوٍ خاص ببعض الكواكب والنجوم مثل كاسيوييا وفيجا وكابيللا والثريا، وهو يذكرها كأنها محطات ترامٍ على الناصية التالية، بينما كان يعرف تمامًا بعدها الحقيقى عن الأرض، فهو مطلعٌ على علم الفلك، فهو لم يشأ رؤية العالم مصغرًا لكنه، على النقيض من ذلك، كان لقد انجذب إلى أجرام الفضاء لأنها بعيدةٌ إلى هذا الحد. ولقد أغراه حجم الفضاء الهائل فشاء أن يتخذ لنفسه هذا البعد، وأن يمتد هو فوقه كله. إلا أنه لم يتولد لدينا الانطباع بأن الأمر هنا يرتبط بعملية النمو بل هو تمددٌ أكثر منه نمو. فهو يسعى إلى البعد لكى يحقق فيه نفسه ويثبت جذراته. فالمهم هنا هو وضعه هذا الذى لا يكتفى بحجم أو أبدية. أما نظام الكون فهو يعتبره المبدأ الأسمى، فهو يرفعه فوق الإله، فإذا حاول الإله معارضة هذا النظام فإنه سيواجه صعابًا. وغالبًا ما يتحدث شريبر عن جسده الإنسانى كأنه جسد العالم. وهو ينشغل بنظام الكواكب كما ينشغل الآخرون بأفراد أسرهم. وهو يتمنى أن يحتويه هذا النظام، وأن يستقر فيه. أما ثبات واستمرار أوضاع النجوم على حالها التى عرفناها بها من آلاف السنين فقد يكون هو ما جذبه إليها على نحوٍ خاص، وأن موضعًا بينها سيكون كأنه موقعٌ للأبدية. وهذا الشعور بالموقع يمثل له أهميةً جوهرية. فالأمر يدور دائمًا حول الدفاع عن موقعٍ مصطنع وتأمينه. وهو الحال نفسه لدى صاحب السلطة، وهو ما تفرضه عليه طبيعة السلطة. فالشعور الذاتى الذى يحس به نحو موقعه لا يختلف عن موقع المصاب بالجنون بالعظمة. فمن يكون بوسعه ذلك فإنه يحيط نفسه بالجنود ويغلق على نفسه القلاع. أما شريبر الذى شعر بتهديدٍ متعدد فإنه تشبث بالنجوم لأن الأحداث فى كل الأحوال تجرى فى الكون، كما

سنرى. ومن أجل إدراك هذه المخاطر فلا بد من أن نذكر بعض أحوال ساكنى
عالمه، فشربر يرى أن الروح الإنسانية تسيطر عليها أعصاب الجسد، وما دام
الإنسان عاش يكون جسداً وروحاً في آنٍ واحد، إلا أنه إذا مات فإن الأعصاب
تبقى كروح، فالإله هو دائماً عصبٌ وليس جسداً، فهو إذن على صلة قربي
بالروح الإنسانية لكنه يفوقها إلى ما لا نهاية لأن أعصاب الإله أبدية وغير محدودة
العدد. وتتمتع أعصاب الإله بخاصية التحول إلى أشعة، أى أشعة الشمس والنجوم
على سبيل المثال. والإله سعيدٌ بالعالم الذى خلقه إلا أنه لا يتدخل فى مصيره على
نحوٍ مباشر، فبعد الخلق تراجع عنه، وظل بعد ذلك فى الغالب بعيداً، فإنه لا
يجوز للإله على الإطلاق أن يفرط فى الاقتراب من البشر لأن لأعصاب الأحياء قوة
جذب على نحو لا يكون بوسعه الخلاص منها، فيصير مُهدداً فى وجوده ذاته، لذا
يأخذ حذره دائماً من الأحياء. فإذا ما حدث ذات مرة أن سمح لنفسه بالاقتراب
بفعل صلاة متبلة أو من خلال شاعرٍ ما فإنه ينسحب على أسرع وجه قبل
فوات الأوان. إن علاقةً منتظمة بين الإله وأرواح البشر لا توجد إلا بعد الموت،
فالإله يستطيع الدنو من الجثث من دون مخاطرة، وذلك من أجل جذب
أعصابهم من أجسادهم إليه وبعثهم فى حياةٍ سماوية جديدة. ومن أجل هذا
الغرض فلا بد من تطهير أعصاب البشر أولاً، فالإله لا يحتاج إلا لأعصاب بشرية
نقية لأن مصيرها أن تنضم إليه بذاته لتصير فى النهاية أجزاءً من ذاته كـ"أفنية
سماوية أمامية". وقد كان لا بد من تفسيرٍ لذلك، وهو ما لم يستطع شربر كذلك
وصفه تفصيلاً. فإذا ما نفذت الأرواح من خلال هذه العملية لترتفع إلى السماء
فإنها تنسى تدريجياً كيف كانت هى على الأرض. وإن كانت لا تصل جميعها إلى
ذلك بنفس القدر من السرعة، فأناسٌ ذوو شأن، مثل جوته وبيسمارك، يحتفظون
بوعيهم الذاتى ربما لمئات السنين لكن لا أحداً، حتى الأعظم من بينهم، يستطيع
ذلك للأبد لأن مصير جميع الأرواح فى النهاية أن تندمج مع أرواح أخرى لتصعد فى
وحداتٍ أرقى وأن تشعر بأنها ليست سوى أجزاءٍ من الإله أى "أفنية أمامية
للسماء". إن اندماج الأرواح فى كتلةٍ يعتبر هنا أعظم النعم كافةً. ولنا أن نتأمل
بعض ملامح الفكر المسيحى، فالملائكة والقديسون كلهم متلاحمون معاً مثل
السحب، التى تكون أحياناً سحباً حقيقية نتعرف فيها على رءوس بجوار بعضها
البعض إذا ما دققنا النظر. إن هذا التصور مألوفٌ إلى حد أنه لا أحد ينكر معناه
على الإطلاق، وهو يعبر عن أن النعمة لا توجد بالقرب من الإله فحسب، إنما فى

تلاحم وجودٍ جمعى لأنداد. ومع الوصف: "أفنية السماء الأمامية"، يكون قد جرت المحاولة لتكوين تماسك كتلة الأرواح البارة هذه على نحوٍ أكثر تلاحماً، فهي قد صعدت حقاً في وحداتٍ أكثر سموًا، فالإله لا يدرك الكثير عن البشر الأحياء. ففي الفصول اللاحقة من "الخواطر" يتهم شريبر الإله مرارًا بعدم القدرة على فهم البشر الأحياء، وهذا بمثابة الحكم على فعاليته الفكرية على نحوٍ صحيح. فهو يتحدث عن العماء الإلهى الناتج عن عدم معرفة الإله بطبيعة البشر، فهو قد اعتاد على التعامل مع الجثث، ويحذر الأقتراب من الأحياء. إن الحب الإلهى الأبدى لا يكون إلا بمواجهة الخلق ككل. فالإله ليس هو هذا الكائن الكامل المطلق كما تصفه معظم الأديان، وإلا ما كان استسلم لإغراء المؤامرة ضد البشر الأبرياء، وكان هذا هو الأساس الحقيقى لمرض شريبر لأنه طرأ صدعٌ مفاجئ في "البيان الرائع" للعالم، على حد وصفه. فقد واجه ملكوت الإله أزمةً عسيرة ارتبطت بالمصير الشخصى لشريبر. ولم يكن الأمر بأقل من حالة "قتل الروح". وقد كان شريبر ذات يوم مريضاً ووُضع حينذاك تحت رعاية المعالج النفسى بروفيسور "فلكسيج" من ليينج. وبعد عامٍ كان المعالج قد سمح له بالخروج على أنه قد تعافى فاستطاع استئناف ممارسة عمله. وكان شريبر حينذاك ممتناً للغاية لصنيع المعالج النفسى وممتناً على نحوٍ أعظم لزوجته التى كانت تكاد مغرمةً بالبروفيسور فلكسيج الذى رد إليها زوجها ولهذا ظلت صورته على طاولة عملها لسنوات. وقد عاش شريبر حينذاك مع زوجته ثمانية أعوامٍ سعيدةً وثرية للغاية بالعمل. وقد كان لديه الفرصة طوال هذا الوقت أن يطالع مرارًا صورة فلكسيج الذى انشغل بها يقينًا للغاية من دون سببٍ واضح، لأنه عندما أصيب ثانيةً بالمرض وكان أمرًا طبيعياً أن يعود إلى فلكسيج، الذى أثبت جدارته قبل ذلك، اتضح له أن شخصية المعالج النفسى قد نمت في ذهن شريبر إلى أبعادٍ خطيرة تمامًا. وربما كان شريبر، الذى كان قاضيًا، قد امتلك شيئًا من التسلط فانتقل ذلك سرًا إلى المعالج حتى إنه صار رهن سلطته، فصار حينذاك يمقته لأنه أصبح رهن سلطته مرةً أخرى، ما ولد لديه عقيدة أن فلكسيج مارس عليه "عملية قتل الروح"، أو "سرقة الروح". أما تصور إمكانية السيطرة على روح آخر فهو تصورٌ موهلٌ في القدم ومنتشرٌ في كل مكان، فعلى هذا النحو يستولى المرء لنفسه على القوة الروحية للضحية، أو يجعل لنفسه حياةً أطول. وبدافع الطموح وحب السيطرة قام فلكسيج بتدبير مؤامرةٍ مع الإله الذى حاول فلكسيج إقناعه

بأن الأمر لن يمكن أن يتوقف على روح من يُدعى شريبر. وقد يرجع هذا إلى خصومة قديمة بين عائلتي فلكسيج وشريبر. فقد يكون قد تولد فجأة لدى أحد أفراد أسرة فلكسيج شعورٌ بأن أحد أفراد عائلة شريبر قد سبقه إلى تقلد منصبٍ رفيع، لذلك قام بتدبير مؤامرةٍ مع عناصر من ملكوت الإله من أجل قطع الطريق على تقلد أفراد عائلة شريبر المنصب الرفيع الذى يفضى إلى صلة أقرب مع الإله. وكان من هذه المهن مهنة "طبيب أعصاب". فمن خلال أهمية الأعصاب كمادةٍ خاصة يتكون الإله منها، ككل الأرواح الأخرى، اتضح مدى السلطة التى يحصل عليها طبيب الأعصاب، فكانت النتيجة أن لا أحد من عائلة شريبر صار طبيباً للأعصاب، وهى المهنة التى آلت إلى أفراد عائلة فلكسيج. فصار السبيل ممهداً أمام المتآمريين لسرقة الأرواح، وصار شريبر تحت سلطة قاتل روحه. وربما كان من المفيد هنا أن نشير إلى أهمية المؤامرات بالنسبة لمصاب بجنون العظمة، فالمكائد والمؤامرات على جدول حياته اليومية، فيكون على يقينٍ من اصطدامه بكل ما هو شبيه بذلك ولو من بعيد. فالمصاب بجنون العظمة يشعر أنه "محاصرٌ" ولن يكتفى عدوه الرئيسى بمهاجمته وحيداً، فهو دائماً ما يثير ضده حزمةً بغیضة ليطلقها عليه فى الوقت المناسب، ويظل أعضاء الحزمة فى مبدأ الأمر مختبئين، وهم بوسعهم أن يكونوا بكل مكان، وهم يتظاهرون بشيءٍ من البراءة وحسن الطوية، كأنهم لا يعرفون بمن هم يتربصون. إلا أن قوة الأرواح النافذة للمصاب بجنون العظمة تستطيع كشفهم، فحيثما يضع يده يستطيع التقاط واحدٍ من أولئك المتآمريين. فهذه الحزمة تكون هناك دائماً، حتى لو لم تعلن عن نيتها، فعقيدتها لا تتغير، فإن هزمها العدو مرةً فإنها تبقى على حالها كلاباً مستسلمةً له بإخلاص، فيستطيع هو العبث بها كيفما شاء. فهو يقبض على أفرادها بحيلٍ خبيثة على مسافةٍ بعيدة فيقودهم بما يوافق هواه. وهو يؤثر انتقاءهم بأن يكونوا متساوين فى كل النواحي وأن يمتلكوا قدرةً فائقة فى النفاذ إلى المستهدف. فإذا ما كانت هذه المكائد ضد شريبر قد تم تدبيرها، فكيف دارت الحرب ضده فى الواقع؟ وما هى الخطوات التى اتخذوها لتحقيق هدفهم؟ فقد كان هو أهم وأقرب هدفٍ، وإن لم يكن هدفهم الوحيد، الذى تمسكوا به لسنواتٍ طويلة، هو تدمير عقله بل كان لا بد من جعله أحمق على أن يُدفع بمرض أعصابه إلى حدٍّ يبدو معه أنه لن يتعافى أبداً. فما الذى يمكن أن يصيب رجلاً بهذه الروح إصابةً أكثر عمقاً؟ فقد بدأ مرضه بأرقٍ أليم وذهب كل

ما فعله ضد ذلك أدراج الرياح. وقد رأى شريبر أن النية قد توافرت منذ البداية لاعاقته عن النوم والوصول به إلى انهيار وعيه. أما الوسيلة المستخدمة في ذلك فكانت أن يُسلَّط عليه عددٌ لا حصر له من الأشعة التي صدرت في البداية عن بروفيسور فلكسيج. لتبدأ بعدها كذلك أرواح الموقى الذين لم يخضعوا لعملية التنقية، أي أنها كانت "أرواحًا تحت الاختبار" كما دعاها شريبر. فبدأ اهتمامها به يتزايد حتى نفذت كأشعةٍ إلى داخله. كما شارك الإله نفسه في هذا العمل. وقد أخذت كل هذه الأرواح في الحديث إليه، لكن على نحوٍ لا يسمعه الآخرون. فقد كان ذلك كصلاةٍ يتلوها المرء داخله صامتًا من دون أن ينطق بكلمات هذه الصلاة. أما الفارق الدقيق الوحيد فكان أن تلاوة مثل هذه الصلاة مرتبطة بالإرادة الشخصية، وأما الأشعة المفروضة عليه من الخارج فكانت تنطق بما شاءت. "بوسعى ذكر أسماء مئات بل آلافٍ من الأسماء التي تعاملت معي. كل هذه الأرواح كانت تحدثني كأصواتٍ، كلٌ منها على حدة، دون معرفةٍ بوجود الآخرين. أما الاضطراب المزمن الذي نشأ عن ذلك في رأسي فبوسع الجميع تصويره. وعقب ازدياد توترى ازدادت قوة الجذب، فشعرت بعددٍ كبير من أرواح الموقى تنجذب نحوي حتى تتساقط على رأسي أو داخل جسدي. وقد انتهى الحدث إلى عددٍ كبير من نوبات ظهور تلك الأرواح، وهى على نحوٍ ما رجالٌ صغار، أى شخصٍ ضئيلة صغيرة لا يتجاوز حجمها بضع مليمترات قضت وقتًا قصيرًا على رأسي لتختفى بعد ذلك تمامًا. وفي حالاتٍ كثيرة للغاية كان يُذكر لى نجومٌ أو كواكب كانت قد انطلقت منها أو علقَت بينها. وقد كانت هناك ليالٍ تتساقط فيها الأرواح فوق رأسي كرجالٍ صغار بالمئات، إن لم يكونوا بالآلاف. في أثناء ذلك كنت أحذر دائمًا من الاقتراب لأننى في كل مرةٍ بعد الأحداث السابقة، كنت أشعر بقوة جذب أعصابي المتنامية بلا حدٍّ، بينما كانت الأرواح تحتفظ بقوة جذبها الخطرة دائمًا على نحوٍ لا يصدق على الإطلاق. وفي لغة الأرواح كنت أدعى (المطلع على الأرواح) أى إنسان يستطيع رؤية الأرواح والتواصل مع الأرواح أو مع أرواح موقى. وفي الواقع فإنه منذ نشأة العالم لم يكن قد ظهرت بالفعل حالةٌ مثل حالتى بأن إنسانًا ما قد صار على صلةٍ مستمرة ليس فقط مع الأرواح أو أرواح الموقى، كلٍ على حدة، وإنما مع الأرواح كافةً، حتى مع الإله المهيمن".

إن غزارة هذه الأحداث واضحةٌ بالنسبة لشريبر، فالفضاء الخارجى مسكونٌ بأرواح موقى حتى أقصى النجوم، وهى لديها جميعًا أماكن خاصة بها، سكنوها

على سطح هذا أو ذاك النجم. وفجأةً يصير هو محورها من خلال مرضه. ورغم تحذيراته كانت تتقدم نحوه بعد أن صارت جاذبيته لا تقاوم. وقد نقول إنه قد جمعها ككتلةٍ حوله. ولما كان الأمر - كما يؤكد هو- يدور حول الأرواح كافةً فقد مثلت هي أكبر كتلةٍ ممكنة على الإطلاق. لكن الأمر لم يكن بسيطاً إلى حد أنها ظلت مجتمعةً حوله ككتلة، مثل "شعبٍ" حول "زعيمه"، بل كان على النقيض من ذلك فقد حدث لها "في الحال" ما تمر به الشعوب الملتفة حول زعيمها "تدريجياً" على مدار سنوات. فقد صار حجمها يتضاءل على نحوٍ دائمٍ فما كادت تصل إليه حتى تضاءلت على أسرع وجه، فصار حجمها إلى مليمتراتٍ قليلة. وقد برزت الصلة الحقيقية بينها وبينه في أكثر وجوها إقناعاً، فقد نفذت بالمعنى الحرفي هي إليه لتختفى هناك تماماً. فقد كان أثره عليها مدمراً. فقد جذبها وجعلها صغيرة ليلتهمها. وكل ما كانت هي عليه كان بمثابة الفائدة لجسده. إلا أنها لم تأت لفعل الخير من أجله، فقد كانت نواياها بالفعل عدوانية، فهي أرسلت مبدئياً من أجل اضطراب عقله لتقضى عليه بذلك، لكنه كان قادراً على مجابهة هذا الخطر تحديداً. والآن بعدما عرف كيف يقيدها لم يكن زهوهِ بجاذبيته بالقليل. وهو كان سيبدو للوهلة الأولى في إطار جنونه كشخصيةٍ من عصور غابرة سادها الإيمان بالأرواح حينما كانت أرواح الموتى تنز كالخفافيش حول آذان الأحياء. وقد بدا الأمر كأنه يمارس مهمة المطلع على عوالم الأرواح بدقةٍ متناهية، كما يعرف كيف يتواصل معها ويسخرها لخدمة كل الأغراض الإنسانية الممكنة. وقد أثر تعريف نفسه كذلك بـ "المطلع" على الأرواح. إلا أن سلطة الكاهن لم تصل قط إلى ما وصلت إليه سلطة شريبر، فالكاهن يحمل أحياناً الروح داخله إلا أنها لا تتحلل هناك، فهي تحتفظ دوماً بوجودها المستقل. وقد تم الاتفاق بأن عليه أن يطلقها ثانيةً يوماً ما، ولكنها في المقابل تنفذ إلى شريبر تماماً لتختفى كأنها لم يكن لها وجودٌ بذاتها. أما وهمه المتكرر في رداءٍ متقادم لمفهوم العالم، والذي يشترط وجود الأرواح، لهو في الواقع نموذجٌ دقيق للسلطة السياسية التي تقترب من الكتلة لتتكون فيها. وكل محاولةٍ لتحليل مفهومٍ للسلطة ستؤدي إلى خلل في وضوح نظرية شريبر، التي تضم كل عناصر العلاقات الواقعية، أي الجاذبية القوية والمتحفظة المؤثرة على الأفراد الذين يتجمعون في شكل كتلةٍ، وعقيدتهم المريية، وترويضهم باختزال حجمهم ليندمجوا في صاحب السلطة الذي يمثل السلطة السياسية في شخصه وجسده، وهو ما

يحتاجه لتجديد حجمه الضخم على هذا النحو بلا توقف. وتأتى في النهاية نقطة أخيرة ومهمة للغاية لم نذكرها حتى الآن وهى الشعور بالكارثية المرتبط بخطر تهديد نظام العالم المستمد من تلك الجاذبية الشخصية المطردة بسرعة وعلى نحو غير متوقع. وقد توافرت في "الخواطر" شهادات كافية عن هذا الشعور، ففى رأى شريبر عن زوال العالم شىء جدير بالملاحظة، وهنا ينبغي أن نقدم أولاً موضعاً ارتبط على نحو مباشر مع قوة جاذبيته للأرواح. فالأرواح المتساقطة عليه من النجوم بكثافة هى التى تضع أجساد العالم الناشئة عنها في مواجهة الخطر. فيبدو أن النجوم التى تنشأ على وجه خاص بكثافة عن هذه الأرواح عندما تتجو هذه بعدد كبير لتصل إلى شريبر تكون قد تحللت. "فتصل الأخبار السيئة من كل الأرجاء، بأن حتى هذا النجم أو ذاك أو هذا الكوكب أو ذاك يكون قد اضطر إلى الاستسلام، فقريباً سيعلن عن غرق كوكب الزهرة بالفيضان، وقريباً لا بد من أن يكون النظام الشمسى كله قد تم إخضاعه، وقريباً لا بد من أن الكاسيوبيا - أى النظام الشمسى- سينكمش كله إلى شمس واحدة، وقريباً لن يكون هناك سوى الثريا التى ربما يمكن إنقاذها". لم يكن قلق شريبر حول بقاء جسد العالم إلا أحد عناصر مزاجه الكارثي. أما الأمر الأكثر أهمية فكان حقيقة أخرى كان مرضه قد بدأ بها، وهى لا ترتبط بأرواح الموتى التى كان هو على اتصال دائم بها - كما نعرف الآن- وإنما ترتبط بالبشر حوله، فهؤلاء لم يعد لهم وجود على الإطلاق، بعد أن تم القضاء على البشرية كلها. وكان شريبر يعتقد أنه الإنسان الحقيقي الوحيد الباقي، أما الأشكال الإنسانية التى كان لا يزال يراها فهم طبيبه وحراس المصححة أو عدد من المرضى على سبيل المثال، فكان يعتبرهم مجرد هالات، فلقد كانوا رجالاً تم خلقهم بشكلٍ عابر من أجل تضليله فحسب حتى يصاب بالاضطراب، فكانوا يبدوون له ظلاً أو صوراً ليتلاشوا مرةً أخرى، فلم يأخذهم هو بالطبع على محمل الجد، فقد كان قد قضى على البشر الحقيقيين جميعاً، أما الوحيد الذى ظل حياً فكان هو، وهذه الحقيقة يُوحى بها إليه في رؤى منفردة، ولم تحل محل أراء مناقضة، بل إنه ظل لسنواتٍ طويلة مؤمناً بها إيماناً راسخاً وقد صبغ عقيدته الشخصية هذه بكل رؤاه عن زوال العالم. وكان يعتبر أنه من الممكن أن مصحة فلكسيج كلها، وربما معها مدينة ليبزج، قد تم رفعها من الأرض ونُقِلَت إلى مكانٍ آخر بجسد العالم، فكانت الأصوات التى تحدّثه تسأله أحياناً إن كانت ليبزج لا تزال موجودة. وقد قادته إحدى رؤاه إلى

مصعدٍ على عمقٍ بعيدٍ في الأرض، فعاش في أثناء ذلك كل العصور الجيولوجية، حتى وجد نفسه في غابةٍ فحمٍ جري. وبعد مغادرته المصعد لفترةٍ ما، صار يتجول فيما يشبه المدافن، فمر بالمواضح التي رقد بها سكان ليبزج وكذلك قبر زوجته نفسها، ويجب أن نشير هنا إلى أن زوجته كانت لا تزال على قيد الحياة وزارته مرارًا بالمصحة. وقد تخيل شريب صورًا مختلفة عما آلت إليه نهاية البشرية. فقد اعتقد بانخفاض حرارة الشمس بعد ابتعادها كثيرًا عن الأرض ما سبب ظهور جليدٍ شامل. واعتقد بحدوث زلازل، فقد بلغه أن زلزالًا قويًا في لشبونة كان ذا صلة بحالة أحد المطلعين على النجوم، كانت حالته مشابهة لحال شريب. أما خبر ظهور ساحرٍ في العالم الحديث، هو البروفيسور فلكسيج، واختفاء شريب المفاجئ وهو الشخصية الشهيرة فقد أشاع الرعب والفرع بين البشر وقوض قواعد الدين. وقد انتشرت حالةٌ عصبية وساد انحلالٌ أخلاقي عام وانتشرت أوبئةٌ مدمرة للبشرية. وقد ذكر منها الجُذام والطاعون اللذين لم يعد الناس يعرفونهما بالكاد. وقد لاحظ ظهور أعراض الطاعون على جسده نفسه وقد اتخذت أشكالًا مختلفة. فكان منها الطاعون الأزرق والبنى والأسود. لكن في أثناء ما كان قد قضى على البشر من جراء هذه الأوبئة كان شريب نفسه قد تعافى من خلال أشعةٍ خيرة. وهنا يكون علينا أن نميز بين نوعين مختلفين من الأشعة وهما الضارة والباردة. أما الأولى فقد سُحِنَت بِسُموم الجثث أو شيءٍ آخر من مادة عفنٍ، وهى تحمل بذرة أمراضٍ إلى داخل الجسد. أما الأشعة الباردة أو النقية فهى تعالج التلف الذى سببته الأخرى. ولم يتولد لدينا الانطباع بأن هذه الكوارث قد حلت بالبشر على غير إرادة شريب، بل على النقيض من ذلك، فقد أبدى ارتياحًا لإحساسه بأن الأعمال العدائية التى تعرض لها من قبل بروفيسور فلكسيج قد أدت إلى هذه التبعات الرهيبة، فقد عوقبت البشرية كلها واستؤصلت شأفتها لأنه كان هناك من سمح لنفسه بأن يقف ضده. وهو فقط من سوف تحميه الأشعة الباردة ضد آثار الأوبئة. فقد بقى شريب وحده على قيد الحياة لأنه هو نفسه شاء ذلك، فهو يريد أن يكون الوحيد في ساحة موتى شاسعة، وساحة الموتى هذه تضم كل البشر الآخرين. وفي هذا لا يثبت أنه مصابٌ بجنون العظمة فحسب بل إن ذلك هو التوجه الأعظم لكل صاحب سلطة (مثالي) فهو آخر من يبقى على قيد الحياة. فصاحب السلطة يرسل الآخرين إلى الموت لينقذ نفسه من الموت، فهو يبعده عن نفسه. وهو لا يبالي بموت الآخرين فقط، بل

إن كل شيء يدفعه إلى القتل الجماعى. وهو يلجأ إلى هذا الأسلوب المتطرف خاصةً إذا ما صارت سيادته على الأحياء محل نزاع. فما إن يشعر بالتهديد فإنه لا يمكن الحد من شغفه برؤية الجميع موتى أمام عينيه من خلال رؤية ذهنية. لكن ينهض هناك اعتراض على أن مفهوم شريبر السياسى هذا ليس في محله، فرؤاه المندرة بالموت هى ذات طبيعة دينية. فهو لا يتطلع إلى حق السيادة على الأحياء، لأن سلطة المطلق على الأحياء مختلفة في جوهرها. ولما كان وهمه يرتبط بتصور أن كل البشر موتى وقتلى فإنه ليس بوسع أحد أن ينسب إليه اهتماماً بسلطة دنيوية. لكن سرعان ما يثبت بطلان هذا الاعتراض، فلسوف نعثر لدى شريبر على نظام سياسى يبعث فينا الاعجاب الشديد. لكن قبل استعراض ذلك سيكون من المفيد أن نتناول شيئاً من مفهومه عن السيادة الإلهية. فكما يرى هو كان الإله هو من "حدد قاعدة التوجه كلها للسياسة المتبعة ضدى..."، "لقد كان بمقدور الإله طوال الوقت القضاء على إنسانٍ يزعجه بإرسال مرضٍ قاتلٍ أو صاعقة..."، وما إن ينشأ صدامٌ بين مصالح الإله وبين فرادى من البشر، أو مجموعات بشرية، ربما تصل إلى كل سكان كوكب ما، فلا بد من أن يتحرك دافع الحفاظ على النفس داخل الإله كما يحدث لأي كائنٍ حى، ولنتذكر "سدوم وعمورة..."، فمن المستبعد أن يحرم الإله أى إنسانٍ فرد من قدر البركة الذى يستحقه لأن كل تكاثر لـ"أفنية السماء الأمامية" لا يخدم إلا زيادة قوة الإله الخاصة ودعم قوى حمايته ضد الأخطار المتنامية الناشئة عن الاقتراب من البشرية. واصطدام مصالح الإله مع فرادى البشر لا يمكن أن يتحقق مطلقاً من جراء المسلك البشرى المطابق لنظام العالم. فإن كان قد حدث في حالته توافق مثل هذه المصالح فسيكون ذلك حالة فريدة في تاريخ العالم لن تتكرر أبداً، فهو يتحدث عن إعادة نشر السيادة المطلقة على السماء، عن "الرابطة المتوحدة لروح فلكسيج مع أجزاء الإله" التى ارتدت عليه حدتها العدوانية، والتى أحدثت تغييراً في العلاقات بين الأطراف، قد حافظت على وجودها حتى يومنا هذا. وهو يذكر "القوى العملاقة الخاصة بهيمنة الإله" والمقاومة المستحيلة من جانبه هو وعبر عن اعتقاده بأن "صلاحيات سلطة البروفيسور فلكسيج، كمدير لإحدى محافظات الإله، لا بد من أن تكون قد امتدت إلى أمريكا"، ويبدو أنها امتدت إلى إنجلترا كما ذكر طيب أعصاب بفيننا، كان فيما يبدو المدير المزعوم لمصالح الإله بإحدى محافظات الإله الأخرى،

وتدعى "أجزاء الإقليم السلوفاكى" بالنمسا. وقد نشب صراعٌ بينه وبين البروفيسور فلكسيج حول الهيمنة.

من هذه الاقتباسات المتناثرة التى اقتطفت من "الخواطر" تنتج صورة واضحة للغاية عن الإله، فيبدو أنه ليس صاحب سلطة، ومملكته تتكون من محافظاتٍ وأنصار. ومصالح الإله كما وُصفت بإيجازٍ وحسمٍ تتعلق بزيادة سلطته. وهذا وليس غيره هو السبب أنه لن يحرم أى إنسانٍ من نصيبه الذى يستحقه من نعمائه. أما البشر المزعجون فهو يقصهم عن طريقه. ولا يمكن إنكار أن هذا الإله يقبع كعنكبوتٍ فى عش سياسته. ومن هنا لا تكون هناك المسافة بعيدةً عن سياسة شريبر الخاصة، وقد ينبغى علينا أن نتكهن بأن نشأته كانت بمقاطعة ساكسن، حيث ساد التراث البروتستانتى القديم، فصار ينظر إلى كل الممارسات العقائدية الكاثوليكية بعين الريبة. وكانت أولى مقولاته عن الألمان قد ارتبطت بالحرب الظافرة بين عامى 1870 و1871. فقد تلقى إشاراتٍ أكيدة عن أن الشتاء القارس لفصل 1870 و1871 كان أمراً قرره الإله ليوجه الانتصار الحربى إلى الجانب الألمانى. والإله يشعر بضعفٍ ما نحو لغة الألمان، ففى أثناء مرحلة "التثبيت الإيمانى" تعلمت الأرواح اللغة الأساسية التى يتحدث الإله نفسه بها، وهى شئٌ من الألمانية القديمة الرصينة. إلا أن هذا لا يعنى أن النعمة كانت مقصورةً على الألمان فقط. لكن، على نحوٍ ما، كان الألمان فى عصرٍ أكثر حداثة، أى عصر الإصلاح أو منذ الهجرة الشعبية، قد صاروا شعب الله المختار الذى أثر الإله أن يستخدم لغتهم. وعبر التاريخ كان شعب الله المختار هى الشعوب البارة الملتزمة بالأخلاق، وهى حسب ترتيبها، بدايةً من اليهود القدامى ثم الفرس القدامى وفيما بعد اليونان - الرومان، وفى الختام الألمان. وقد تعرض هذا الشعب الألمانى بالطبع للمخاطر.

وكان أولها الأعمال غير المشروعة للكاثوليك، ولنتذكر المئات أو الآلاف، من الأسماء التى استطاع ذكرها، كلها كانت أرواحاً على اتصالٍ به كأشعة، وكانت كلها قد تحدثت إليه. وكان الكثيرون من حاملى هذه الأسماء يضعون المصلحة الدينية فى المقام الأول، فقد حمل كثيرون للغاية أسماء كاثوليكية ممن كانوا يتوقعون تفوقاً للكاثوليك، خاصة كثالكة ساكسن وليبزج، ومن بين هؤلاء القس (St.) من ليبزج، ورابطة "14 كاثوليك بليبزج" (ربما كانت رابطة كاثوليكية)،

والأب اليسوعى (S.) بمدينة درسدن، وكل من الكاردينال رامبولا وجاليمبرتى وكاساتى والبابا نفسه، وأخيراً عددٌ غفيرٌ من الرهبان والراهبات. وفى أثناء مناسبةٍ بعينها دخل مثنان وأربعون من الرهبان البنديكيت بقيادة أحد الأباء "كأرواح إلى رأسى ليلقوا نهايتهم هناك". وكان من بين الأرواح كذلك طبيب أعصابٍ من فيينا وقد عُمد كيهودى وسلوفاكى الأصل، وقد شاء أن يحول ألمانيا إلى سلوفاكيا من خلال شريبر، وفى الوقت نفسه يؤسس للسيادة اليهودية. والكاثوليكية، كما نرى هنا، قد تم عرضها على نحوٍ تامٍ للغاية. فلم يكن هناك فقط المؤمنون البسطاء الذين اجتمعوا فى رابطةٍ مربية، إنما كذلك، كانت كل الرتب الكنسية ممثلة. وقد ذكر أبٌ يسوعى وهو ما أدى إلى كل المخاطر المرتبطة باسم اليسوعيين. وكأصحاب أعلى سلطة بالكنيسة ظهر ثلاثةٌ من الكرادلة بأسماء ذات صبغةٍ إيطالية، والبابا نفسه. كما ظهرت أيضاً أفواجٌ من الرهبان والراهبات. حتى المبنى الذى عاش فيه شريبر كان غاصاً بهم مثل الحشرات. وفى رؤيةٍ، لم أتعرض لها، كان شريبر قد رأى كيف صار جناح النساء بمستشفى الأعصاب الجامعى إلى دير راهباتٍ، ومرةً أخرى كيف تم تأثيثه كمقصورة كاثوليكية. وفى الغرف تحت سقف المصحّة جلست أخواتٌ رحيمات. أما الأكثر إثارةً للعجب فكان موكب المئتين والأربعين بقيادة أحد الآباء، وليس هناك شكٌ للأستعراض يقارن بالموكب الكاثوليكي، فمجموعة الرهبان المغلقة تمثل بلورة الكتلة لجميع الكاثوليك المؤمنين. ومشهد الموكب يثير فى المشاهدين إيمانهم المستتر الخاص فيشعرون فجأةً بالرغبة فى الانضمام إلى مؤخرة الموكب. وهكذا يكون الموكب قد تكاثر بالجميع الذين مر بهم، فهو يجب ألا ينتهى. وقد قضى شريبر رمزياً على الكاثوليكية عندما ابتلع هذا الموكب. ومن الفترة المبكرة المثيرة لمرضه التى وصفها شريبر بالفترة المقدسة، برزت على نحوٍ خاص مرحلةٌ من أربعة عشر يومًا ذات أثر عميق، وهى مرحلة المحكمة الإلهية الأولى. ويدور أمر المحكمة الإلهية الأولى حول سلسلةٍ من الرؤى متعاقبةً ليل نهار، قائمةٌ على "فكرةٍ عامةٍ مشتركة". وقد تأسست هذه الفكرة فى جوهرها على السياسة والوعى بالرسالة التبشيرية، وإن تفاقمت على نحوٍ دعوى. ومن خلال الصراع بين بروفيسور فلكسيج وشريبر طرأت أزمةٌ خطيرة هددت وجود ممالك الإله. ولهذا كان لن يسمح للشعب الألماني، خاصةً ألمانيا الإنجيلية، بالزعامة كشعبٍ مختار. وكانت كواكب أخرى ستهدد لو لم يرتفع شعار "الكفاح" من أجل الشعب الألماني، والذى أثبت جدارته على الدوام. وشعار "الكفاح" هذا

كان ينبغي أن يجسده شريبر نفسه، أى شخصية أخرى دالةً عليه. وتحت ضغط الأصوات ذكر أسماء بعض الرجال الأفذاذ الذين بدوا مؤهلين بحمل شعار "الكفاح" لقيادة مثل هذه المعركة. وكان توغل الكاثوليكية واليهودية والسلافية أحد الأفكار الأساسية للمحكمة الإلهية الأولى. كما تأثر ببعض التصورات الناتجة عن هجرة الأرواح التى ستخرج منه فى المستقبل. "وقد خُطِّطَ أن يكون لى أدواراً متتالية... كدور ربيب يسوعى فى أوسج ودور عمدة فى كلاتاو، ودور فتاة من الإلzas كان عليها الدفاع عن شرفها ضد ضابط فرنسى منتصر، وفى الختام دور أميرٍ منغولى. وقد اعتقدت أن كل هذه النبوءات ترتبط بمعرفة الصورة الكاملة الناتجة عن بقية الرؤى. أما تقرير أننى سأصير فى المستقبل ربيباً يسوعياً وعمدةً لكاتالاو، وفتاةً من الإلzas على الحالة المذكورة سابقاً، فقد اعتبرته نبوءة بخضوع البروتستانتية والشعب الألمانى للكاثوليكية فى صراعهما مع الجيران الرومان والسلاف. أما الفرصة المتاحة أمامى فى أن أصير أميراً منغولياً فقد بدت لى كإشارة إلى حتمية اللجوء إلى الشعوب غير الآرية، بعد أن أثبتت كل الشعوب الآرية عدم جدارتها بأن تكون دعائم لممالك الإله". أما الحقبة المقدسة فقد حددها شريبر بالعام 1894. فقد كان ينزع إلى التحديد الدقيق للزمان والمكان. كما حدد تاريخاً دقيقاً لمرحلة المحكمة الإلهية الأولى. وبعد ست سنواتٍ، أى فى العام 1900، عندما كان هوسه قد اتسم بالحكمة والأتزان، اتجه إلى تأليف "خواطره"، وفى العام 1903 تم نشرها ككتاب. ولن يكون بوسعنا إنكار أن نظامه السياسى قد حقق نجاحاً ما بعد بضع عشراتٍ من السنين، بعد أن تمت صياغته، على نحوٍ أكثر فظاظَةً وأقل تحضراً، ليصبح عقيدة شعبٍ كبير. فقد أدى تحت قيادة أميرٍ منغولى إلى احتلال القارة الأوروبية، وكاد يفرض سيادته على العالم، فقد تم تحقيق مزاعم شريبر على يد تلاميذ جهلاء جاءوا بعده. لكن حقيقة تطابق النظامين الجليلة سوف تُستخدَم كمبررٍ لنشأة الكثير من الظواهر المماثلة لحالة جنون عظمة واحدة. فقد كان شريبر سابقاً على القرن الذى عاش فيه فى بعض الأمور، فلم تكن فكرة احتلال كواكب مأهولة فكرةً قائمةً حينذاك. ولم يكن قد خطر بباله فى أثناء ذلك فكرة الشعب المختار، لكنه أدرك - بطريقته الشخصية - أن الكاثوليك واليهود والسلاف كتلٌ معادية، وهو ما سيظهر فيما بعد، لكنه لم يرفع شعار "الكفاح" ولم يكره أولئك لمجرد وجودهم، فقد كان التوجه الملح للنمو قد ولد معهم ككتل. وليس هناك من يملك رؤيةً حادة لسِمات الكتلة أكثر من المصاب

بجنون العظمة أو صاحب السلطة. وهو ما ينتج عنه الشيء نفسه، كما يجب أن نقر بذلك الآن، لأن كلمة "هو" تعبر عن كلا الشخصين، فقد انشغل بالكتلة التي يريد إيجادها أو فرض سيادته عليها. وهاتان لهما في كل مكان الملامح البسيطة نفسها. ومن الجدير بالملاحظة هو كيفية تحديد شريبر لأشكال وجوده المستقبلي. فمن الخمسة، الذين عددهم، كان الشكل الأول فقط، الذي أهمل آنفاً، هو الشخصية غير السياسية. أما الثلاثة التالون فقد وضعوه في قلب المناصب الأكثر نزاعاً، فقد تسلسل إلى اليسوعيين كريبب لهم. وصار عمدة مدينة في بوهيمرفالد حيث دار صراع بين الألمان والسلاف، وكفتاة ألمانية حاول أن ينصر الإلزاس في مواجهة ضابط فرنسي منتصر، وكان شرف جسدها أقرب إلى الشرف العرقى لمن جاءوا بعده. أما النقطة الكاشفة فكانت تجسيده الخامس كأمر مغولي.

وقد بدا تفسيره لذلك مقترَباً للغاية من كونه اعتذاراً، فهو يخل على كل حال من الكيانات غير الآرية ويبرر ذلك بأن تلك الكيانات جرمت الشعوب الآرية. ولم يهيم في الواقع إلا بجنكيز خان كأمر مغولي. بعد أن تأثر بأهرامات الجماجم المغولية. أما حبه لساحات الجثث فلم يعد أمراً غريباً على القارئ. فقد كان يستحسن هذا النوع الواضح والمليوني في القضاء على الأعداء، فإذا اجتثهم جميعاً، فلم يعد يرى أحداً منهم، تمتع بمشهد كومهم العاجز.

وقد جسد شريبر في كل حالات هذه الكيانات الأربعة معاً، أو هكذا بدا الأمر. لكن نجاحه الأعظم كان كأمر مغولي. من خلال هذا التأمل الأدق لحالة هوس جنون العظمة يمكن استنتاج شيء واحد مؤكد، هو أن المسألة الدينية تختلط هنا بالشأن السياسي، فهما لا يفترقان، فهما المخلصان للعالم وهما يحكمان العالم، إنهما شخص واحد. فشهوة السلطة هي جوهر كل شيء. فجنون العظمة، بالمعنى الحرفي للكلمة هو مرض السلطة. ودراسة هذا المرض في كافة الجوانب تفضي إلى الكشف عن طبيعة السلطة، كما لا يمكن الوصول إليها في هذا الكمال والوضوح في حالة أخرى. ولكننا على يقين بأن مريضاً مثل شريبر لن يصل أبداً إلى الموقع المهم الذي كان يتحرق إليه. لكن آخرين وصلوا إليه، فقد نجح بعض من هؤلاء في محو آثار صعودهم ببراعة وحافظوا على نظامهم المحكم مخفياً إلى النهاية. ولم يكن لبعض آخر حظ وافر أو وقت كاف.

فالنجاح هنا مرتبطٌ في نهاية المطاف بالصدفة ارتباطاً وثيقاً. ويتم إعادته في إطار تقنين خادع يدعى تاريخاً. فمقابل كل اسم عظيمٍ في التاريخ كان هناك مئات آخرون يستحقون المكانة نفسها. والموهبة مثل الخبث منتشران انتشاراً واسعاً بين البشرية. فلكلٍ مطامحه، وكلٌ يقف كملكٍ فوق ساحاتٍ بلا نهاية من جثث الحيوانات. وعلى الدراسة الأمانة عن السلطة أن تتجاوز عن النجاح كمعيار. فيجب علينا البحث عن سمات السلطة ومثالبها في كل مكان وعقد المقارنة بينها. أما المريض النفسى المنبوذ والعاجز والمحتقر والذي يعيش أيامه الباهتة في مصحةٍ ما، فيمكن من خلال معرفته التى حصلها، أن يكون أكثر أهميةً من هتلر ونابليون، ويكشف للبشرية عن ساداتها واللعنة التى أصابتها.

حالة شريب الجزء الثاني

إن المؤامرة التي دُبرت ضد شريب لم تكن موجهةً فقط إلى قتل روحه وتدمير عقله، فقد انطوت النية ضده على شيءٍ آخر، كانت تقريبًا على نفس القدر من الإهانة، فكان ينبغي الاعتداء عليه كامرأةٍ ثم يُترك مكانه ببساطة، أى أنه أُعيد إلى حالة التعفن. ولقد انشغل هو دائمًا بتصوره عن تحوله إلى امرأةٍ طيلة سنوات مرضه. فقد شعر بالأعصاب الأنثوية وهي تُبث كأشعةٍ في جسده لتسيطر عليه شيئًا فشيئًا. وفي بداية إصابته بالمرض حاول الانتحار بكل السبل الممكنة حتى يتجنب بذلك مثل هذا الخزي المريع. وكانت كل مرةٍ يغتسل فيها قد ارتبطت بتصوره للموت غرقًا. وقد انتهى السم. لكن الأمر لم يتوقف عند يأس شريب من حالة تحوله المتعمد إلى امرأة. فشيئًا فشيئًا نشأت لديه عقيدةٌ بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لضمان استمرار وجود البشرية، بعد أن تم القضاء تمامًا على البشر من خلال كوارث رهيبة. أما هو، الوحيد الباقي، فبوسعه كامرأةٍ إنجاب جيلٍ جديد. ولم يتصور سوى الإله والدًا لأبنائه. فكان عليه اكتساب حب الإله، فعُدَّ التوحد مع الإله شرقًا عظيمًا، فلم يعد يبدو له مطلقًا عارًا أو إهدار كرامةٍ، وهو الملتحي والرئيس السابق لمجلس الشيوخ، أن يتقرب من الإله في

هيئةً أنثوية، وأن يتزين له من أجل إغرائه، وأن يجذب انتباهه بكل وسائل الأنثى. وعلى هذا النحو استطاع أيضًا مقاومة مؤامرة فلكسيج. فقد اكتسب رضا الإله المهيمن الذى يزداد انجذابه إلى شريبر، المرأة الجميلة، حتى انزلق إلى نوع من التبعية له. ومن خلال مثل هذه الوسائل، التى تبدو صادمةً للآخرين، وُقِّقَ شريبر بالفعل إلى أن يربط الإله بشخصه. إلا أن هذا الإله لم يستسلم بلا مقاومة لهذا المصير الشائن بعض الشيء. فكان يجفل عن شريبر من حينٍ لآخر. ولقد كانت أمنيته يقيِّنًا أن يتحرر منه تمامًا، إلا أن قوة جذب شريبر كانت قد تجاوزت قدرته. وخلال كتاب "الخواطر والعبر" كله تناثرت العبارات ذات الصلة بهذا الموضوع. وللوهلة الأولى، فقد يحاول البعض رد فكرة تحوله إلى امرأةٍ إلى الجنون القائم على أساسٍ أسطورى. وكانت هذه النقطة تحديدًا بالطبع هى التى حازت معظم الاهتمام. وقد حاول البعض أن يرجع هذه الحالة - بمفردها أو فى إطار جنون العظمة عمومًا - إلى حالةٍ طاغية من الشذوذ الجنسى. وليس هناك خطأً أعظم من هذا. "فكل شيءٍ يمكن أن يدفع إلى جنون العظمة"، لكن جوهر الأمر يكمن فى بنية المصابين بالجنون. ولأحداث السلطة دائمًا أهميةٌ حاسمة فى ذلك. حتى فى حالة شريبر، حيثما تتوافق بعض الأمور مع التأويل المذكور، فإن دراسةً أكثر دقةً، لم نخطط لها، قد تؤدى إلى شكوكٍ هينة. لكن مع افتراض ثبوت البرهان على نزوة شريبر الشاذة جنسيًا، فإن الأهم من ذلك يتبدى فى الاستغلال الخاص لذلك فى إطار نظام شريبر. فقد أدرك شريبر دائمًا أن الهجوم على عقله هو نقطة ارتكاز نظامه.

فكان كل ما اعتقده وفعله دائمًا يتمثل فى درء هذا الهجوم. فهو لم يرغب التحول إلى امرأةٍ إلا من أجل نزع سلاح الإله، فكان كيانه الأنثوى بمثابة تملق وتزلف للإله. فمثلما يركع آخرون أمامه عرض هو نفسه للمتعة. فأغراه بالاقتراب منه بخدعٍ زائفة من أجل اكتسابه إلى جانبه ومن أجل السيطرة عليه. ثم احتجزه حينذاك بكل السبل. "فالأمر يدور حول حالة معقدة لم تعرفها التجربة الإنسانية فحسب، بل إنها لم تحدث أيضًا فى نظام الكون قط. فمن هو ذا الذى يود مواجهة مثل هذا المسلك مستقبلاً من خلال ظنٍ واهٍ؟ وما أراه يقيِّنًا هو استحالة أن يفضى الأمر إلى تعمد الإله تدمير عقلى. وكانت هذه النقطة واضحةً لى تمامًا منذ سنوات. وبهذا يكون قد زال الخطر الرئيس الذى هددنى فى العام الأول من مرضى".

هذه الكلمات مدونة في الفصل الأخير من "الخواطر والعبر" التى أظهرت حالة الهدوء الكبير التى طرأت على شريب. فكان حفاظه على حالته هذه إلى النهاية وإطلاع آخرين على كتابه وإعجابهم به هو ما أعاد إليه ثقته بعقله بشكلٍ نهائى. ولم يبق أمامه فى سبيل اتخاذ خطوة الهجوم المضاد إلا أن يقوم بنشر كتابه "الخواطر والعبر" من أجل تيسير الاطلاع العام على نظامه، كما كان يأمل بلا ريب أن تقنع "خواتره" الناس بعقيدته. فأى سبيلٍ اتبعته الحرب ضد عقل شريب بالتفصيل؟ وقد عرفنا أنه هوجم من "أشعة" لا حصر لها، كانت جميعها تتحدث إليه. فما هو فحوى ما تحدثوا به؟ لقد كان الغرض هو تدمير قدراته الذهنية والروحية؟ فماذا قالت عندما كانت تتحدث إليه، وما هو الذى هاجمته بالفعل؟ إن هذه المسألة تستحق بذل بعض المجهود. فقد قام شريب بالدفاع عن نفسه ضد أعدائه بصلايةٍ شديدة. وكان وصفه لهم مسهبًا إلى الحد الذى يمكن أن نتمناه. وهذا الوهم، كما اعتدنا تسمية هذه الظاهرة، يجب نزعه من سياق عالمه المختلق لنقله إلى لغتنا الأكثر يسرًا. لكننا سوف نفقد شيئًا من تفردِه فى أثناء ذلك. وهنا تجب الإشارة إلى قهره الفكرى، على حد وصفه هو. فقد كان يمر بحالة هدوءٍ فقط عندما كان يتحدث بصوتٍ مرتفع. لأن كل شيء حوله كان صامتًا صمت القبور، فاعتبر نفسه يتحرك بين جثثٍ هائلة فقط. وقد بدا أن جميع الناس الآخرين، المرضى والمرضى، قد فقدوا قدرتهم تمامًا على النطق بكلمةٍ واحدة. فإذا انتقل من الكلام إلى السكوت ظهرت الأصوات داخله وأرغمته على نشاطٍ فكرى مضطرب. وكان هدفها من وراء ذلك هو إعاقته عن النوم والهدوء. فكانت تتحدث إليه بلا انقطاع، ولما كان من المحال تجاهلها أو عدم الإنصات لها، فإنه كان يستسلم لكل ما تقوله ويضطر إلى الانشغال به. وكان للأصوات وسائل مختلفة تستخدمها بالتبادل. وكانت أكثر الوسائل إثارةً هى السؤال المباشر له: "فيم تفكر الآن؟"، أما هو فلم تكن لديه أية رغبةٍ فى الإجابة على ذلك. فإذا لاذ بالصمت كانت هى ترد نيابةً عنه، فتقول على سبيل المثال "من المحتمل أنه يفكر فى نظام الكون". أما هو فكان يعتبر مثل هذه الردود أفكارًا زائفة. فقد كانت لا تسأله بأسلوب محاكم التفتيش فحسب، بل كانت تبغى إرغامه على مناهج فكريةٍ بعينها. حتى تلك الأسئلة التى كانت تحاول بها النفاذ إلى أسرارهِ كانت تثير اعتراضه بنفس قدر الإجابة التى كانت تملئ على أفكاره. فقد كان للسؤال والأمر أو التعليمات هدفٌ واحد هو التدخل فى حياته

الشخصية. وهما وسيلتان للسلطة معروفتان تمامًا، وكان هو نفسه استخدمهما كقاضٍ.

وقد سار الأمر في أثناء اختبارات شريب على نحوٍ ثرى بالتغيير والابتكار. فقد تم استجوابه وفرضت عليه أفكارٌ وصيغ من عباراته كتاب آخر لتعاليم الدين المسيحى وفُرضت الرقابة على كل أفكاره فلم تمر واحدةٌ منها من دون أن يشعر بها، وكانت كل كلمة تخضع عقب ذلك لاختبار أهميتها بالنسبة له. وكانت أسراره مكشوفةً تمامًا أمام الأصوات. فكل شيءٍ كان يتم فحصه وإلقاء الضوء عليه. فقد كان أداةً للسلطة التى تعتمد على معرفة كل شيء. ورغم أنه استكان للكثير فإنه فى الحقيقة لم يستسلم قط. وكان أحد أشكال دفاعه هو ممارسة معارفه الكاملة الشخصية. وقد أثبت مدى قوة ذاكرته. فقد حفظ أشعارًا عن ظهر قلب وكان يعدد الأرقام بالفرنسية بصوتٍ مرتفع، وعدد كل الحكومات والإدارات الروسية والفرنسية. وبالحفاظ على عقله كان يعبر عن عدم المساس برصيد ذاكرته.

وكان الأهم بالنسبة له هو سلامة الكلمات. فكان كل ما يسمعه هو أصوات: فالعالم يطفح بالكلمات. فالسكك الحديدية والطيور والعبارات تتحدث. فإذا لم ينبس هو بكلمة، والتزم الصمت، كان الكلام يصدر عن الآخرين. أما الهدوء الذى يقصده، والذى يشاق إلىه فلم يكن سوى تحرره من الكلمات. وهو ما لم يستطع تحقيقه فى أى مكان. فكل ما يحدث له يتم إبلاغه فى الوقت نفسه. فالأشعة الضارة والنافعة تمتلكان موهبة اللغة، وهى مرغمةٌ على استخدامها، مثله تمامًا. "لا تنس أن الأشعة مرغمة على الحديث!". وأهمية الكلمات بالنسبة للمصاب بجنون العظمة ليست محل جدل، فهى كالحشرات فى كل مكان. وهى تأخذ حذرهما دائمًا. وهى تنضم معًا إلى نظامٍ كوني، لا يدع شيئًا خارج إطاره. وربما يتطرف توجه مرض جنون العظمة فيصل حد الانقراض التام على العالم من خلال الكلمات، وكأن اللغة صارت قبضةً أحكمت على العالم. إنها قبضةٌ لا تنبسط ثانيةً أبدًا، ولكن كيف استطاعت إحكام قبضتها؟ هنا لا بد من الإشارة إلى النزوع إلى السببية التى تجعل من نفسها هدفًا والتى لا يجدها المرء على هذا القدر إلا لدى الفلاسفة. فلأنه لا يحدث شيءٌ من دون سبب، فإن كل مجهولٍ يمكن إحالته إلى معلوم. وكل أمر غريب يتم الكشف عنه. فخلف قناع جديد يختبئ آخرٌ قديم، فعلى المرء أن يسبر غوره من دون خشية، ثم ينتزعه، والتبرير

سيصير إلى ولعٍ يمارسه المرء في كل حال. وكان شريبر على علم تام بهذا التصور لقهره الفكري. وفي أثناء شكواه المريرة من الأحداث التي تم استعراضها سابقاً، رأى في هذا النزوع للتبرير "نوعاً من التعويض عن الأذى الذي لحق به". فالعبارات الأولى التي "بُثت" في أعصابه تنتمي غالباً إلى أدوات الوصل والعطف، أو كانت تعبيراً عن ظرف الزمان، والتعبير عن السببية: "لماذا إذن؟"، "لماذا، لأن"، "لأننى"، "قد يكون". فكان عليه إتهام هذه وكل ما عداها. وعلى هذا القدر تفرض هى كذلك القهر عليه. "لكنها تحتاجنى لأعمل فكرى فى أشياء كثيرة، التى اعتاد المرء أن يمر بها مرور الكرام، وقد ساهمت من خلال ذلك فى تعميق فكرى". وقد كان شريبر موافقاً تماماً على نزوعه إلى التبرير. فهو كان يسبب له سعادةً غامرة وكان يجد أسباباً معقولة لتبرير ذلك. ولم يدع للإله سوى الفعل الأول للخلق. أما كل ما تبقى فكان يجمعه فى سلسلةٍ من المبررات، صنعها بنفسه وتملكها. إلا أن نزعة التبرير لم تكن على هذا النحو المتعقل دائماً. فقد قابل شريبر إنساناً قد رآه غالباً، فيعرفه من النظرة الأولى على أنه "السيد شنايدر". وهو رجلٌ لم يتنكر وكان يظهر براءة كان معروفاً بها للجميع. وعملية التعرف البسيطة هذه لا تكفى شريبر. فهو يود أن يكون اختفى وراء ذلك أمورٌ أكثر، وكان من الصعب أن يهدئ روعه فى أثناء ذلك بأن وراء السيد شنايدر لا يختفى المزيد. فقد اعتاد شريبر على إماطة القناع، فإذا لم يكن هناك أحد أو شيء يميّط قناعه، شعر بالضياغ. فعملية إماطة القناع والكشف تمثّلان أهميةً أساسيةً للمصاب بجنون العظمة وغيره. وعن عملية إماطة القناع نشأت حالة النزوع إلى السببية، فكل المبررات يتم البحث عنها أساساً فى الأشخاص. أما التناول الدقيق لإماطة القناع، المذكورة فى بعض مواضع هذا البحث، فهو هنا بمكانه الصحيح. فالميل إلى اكتشاف شيء ما فجأةً بالطريق من بين وجوهٍ كثيرة غريبة، هو ما يبدو معروفاً للبعض، هو أمرٌ مألوف يقيناً لكل الناس. فكم مرة اتضح أنه كان اختلاطاً فى الأمر، فالصديق الوهمى يقترب منا أو نتجه نحن إليه، فيكون شخصاً لم يلقيه المرء طوال حياته. وبهذا الخلط لا ينشغل الناس كثيراً. فقد يكون هناك شيءٌ مشابه، مثل وضع الرأس أو طريقة السير، أو شكل الشعر، وهو ما يكون سبب الخلط والمفسر لذلك. ولكن تطرأ مرحلة يغلب فيها هذا الخلط. فيكون هناك شخص بعينه فقط يقابله المرء فى كل مكان. فهو يقف أمام محال يريد المرء دخولها أو يقف على ناصية طريق تضج بالحياة، وهو يظهر عدة مرات فى اليوم، ويكون طبيعياً

أن يكون هذا شخصًا ينشغل به المرء أو يحبه، بل ربما، في أغلب الأحوال، يكون كارهاً له. والمرء يعرف أنه قد انتقل إلى مدينة أخرى بعيداً على الناحية الأخرى من البحر، ورغم ذلك فإن المرء يعتقد أنه تعرف عليه هنا. ومن الواضح أن المرء يريد العثور على هذا الشخص وراء الوجوه الأخرى، فيعايش المرء هؤلاء الآخرين كخداع يخفى خلفه "الحقيقى". وبوسع الكثيرين أن يتواروا خلف هذا الخداع، الذى يخمن المرء خلفه واحداً بعينه. وهذا الأمر ينطوى على إلحاح لا يدع لنا فرصة للراحة، فهناك ينكشف مئة وجه بعدد الأقنعة حتى يظهر خلفها هذا الواحد المنشود. فإذا ما حدد المرء الفارق الرئيس بين هذا وبين المئة، يتعين عليه أن يقول: المئة "غرباء" وهذا الواحد هو "القريب"، فتكون الحال كأن المرء لا يعترف إلا بالقريب المختبئ، وعلى المرء أن يبحث عنه في الغربة. وهذا الحدث يتركز وتتزايد حدته لدى المصاب بجنون العظمة. فالمصاب بجنون العظمة يعانى الافتقار إلى التحول المنطلق من شخصه - وهو آخر من يقبل التحول - ومن هنا يظهر تأثيره على العالم حوله. حتى هذا المختلف بالفعل يبغي أن يراه هو الشيء نفسه. فهو يجد أعداءه في الأشكال المختلفة للغاية. فحيثما أماط قناعاً كان هناك عدوٌ خلفه. وبسبب السر الذى يخمنه وراء كل هؤلاء وبدافع إماطة القناع فإنه يعتبر كل شيء قناعاً بالنسبة له. وهو لا يستسلم للخداع فهو سابر الأغوار وليس الكثير سوى واحد. فمن خلال جمود نظامه يزداد فقر العالم في شخوصه المعروفين، فلا يبقى سوى ما هو يدور في هوسه. ويكون كل شيء على هذا النحو قابلاً للتبرير، ويتم تبريره إلى النهاية. وفي نهاية المطاف لا يكون هناك إلا ما هو يتحكم فيه. ويدور الأمر هنا حول النقيض التام من التحول. فعملية الكشف أو إماطة القناع تعتبر بالفعل عملية الخروج من التحول. وهناك ما هو يرغمه على العودة إلى ذاته، إلى وضع بعينه، بمسلك بعينه، يريده المرء أن يعتبره حقيقياً وخاصاً به. والمرء يبدأ كمشاهد وينطلق من منظور الآخرين الذين يتحولون إلى بعضهم البعض، وربما شاهد المرء للحظة في أثناء ممارست أولئك للتكرار خلف القناع، لكنه لا يستحسن ذلك ولا يستمتع به. وفجأة يقول المرء: "قف!" معطلاً الحدث القصير. ثم يهتف المرء: "إماطة القناع!" وهنا يقف كلُّ كأنه هو المقصود بالفعل. وهنا يكون قد وقع حظر الاستمرار في التحول، ويكون العرض قد انتهى. فقد تم سبر غور الأقنعة. وهذه العملية ذات الأثر الرجعى، أى الخروج من التحول، لا تظهر في صورتها الحقيقية إلا نادراً لأنها

تتخذ غالبًا صبغةً عدوانية. فالمصاب بجنون العظمة يفترض أن الأقنعة تريد خداعه. وكان تحولها يثير اهتمامه. أما هي فكانت لاتهتم سوى بالسرى. فتبدل أشكالها لم يكن سوى أمر ثانوى. فقد كان كل همها هو إخفاؤها لهويتها الحقيقية. أما رد فعل المهّدّد، أى نزعه الأقنعة، فيكون حادًا وبغيضًا، وفي حالة المصاب بجنون العظمة يصل عنفه إلى حد عدم إدراك التحول الذى أثار ذلك. وتقودنا "خواطر" شريبير هنا إلى أقرب نقطة من جوهر الأمر. فهو يتأمل الزمن فى البداية عندما كان كل شىء لديه فى مرحلة سيولة. ففى العام الأول من مرضه، أى "الزمن المقدس" كان يقضى من حين لآخر أسبوعًا أو اثنين بمصحّة خاصة صغيرة، عرّفَتها له الأصوات بأنها "مطبخ الشيطان"، ولقد كان ذلك على حد قوله "زمن العجائب الأعظم". وقبل أن يتلاشى هوسه ويسترد عقله، كان ما عايشه هناك من تحولات واكتشافات هو أفضل تصوير ممكن للأحداث المذكورة آنفًا: "كنت غالبًا ما أقضى طوال النهار بالغرفة المشتركة التى كانت تشهد باستمرار دخول وخروج آخرين من مرضى المصحّة المزعومين. وقد بدا أن هناك حارسًا خُصص لحراسته شخصيًا، وهو من عرف فيه ساعى المحكمة العليا المحلية، ربما بسبب شبه عابر بينهما، وهو من كان يأتى إلّى بالملفات إلى المنزل فى أثناء عملى بدرسدن. وكان قد اعتاد من حينٍ لآخر على ارتداء بعض ملابسى الشخصية. وكان هناك من يظهر، من حين لآخر، ككبير أطباءٍ مزعوم، فى الغالب فى أوقات المساء - وقد ذكرنى برجلٍ قمت باستشارته، هو الدكتور طيبب (O)... ولم تطأ قدمائى بستان المصحّة للتنزه إلا مرة واحدة. فرأيت حينذاك بعض السيدات، من بينهن السيدة الراهبة (W). من (Fr.)، وأمى نفسها، وكذلك بعض الرجال من بينهم مستشار المحكمة العليا المحلية (K). من درسدن، الذى كان رأسه متضخمًا غير متناسق. وقد وجدت ظهور هذا الشبه أمرًا معقولًا لحالتين أو ثلاث، لكننى لم أفهم حقيقة أن كل جمهور المصحّة، أى بضع عشرات من الناس يحملون السمات الخاصة لشخصيات كانوا قريبين منى فى الحياة...". وهو قد رأى نزلاء خرافيين، من بينهم أشخاص غطاهم الصدا متدثرين معاطف من الكتان. "وبعد دخولهم الغرفة المشتركة، الواحد تلو الآخر، لم يصدر عنهم أى صوت وعادوا أدراجهم على هذا النحو مرةً أخرى، وقد بدا أن بعضهم لم ينتبه لوجود البعض الآخر، فى أثناء ذلك رأيت مرارًا أن بعضًا منهم، فى أثناء وجودهم بالغرفة المشتركة، قد بدلوا رءوسهم فجأة برءوس أخرى من دون أن يغادروا الغرفة وصاروا يتحركون هنا وهناك فى

أثناء تأملهم لهم براءوس أخرى فجأة". وفي (الحظيرة) - هكذا وصف الفناء الذي يذهب إليه لاستنشاق الهواء - كان عدد هؤلاء النزلاء بغرفة المعيشة الذين رأيتهم تارةً معًا، وتارةً متتابعين، لا يتناسب على الإطلاق مع سعة غرف المصححة، فمن المحال، حسب اعتقادي، أنه يمكن أن يتوافر مخدع لأربعين أو خمسين شخصًا دفعوا إلى الحظيرة ليعودوا إلى باب المبنى ثانية بعد تلقي الإشارة. أما الطابق الأرضي فكان غالبًا ما يغص بشخوص آدمية، ومن بين الأشخاص في الحظيرة تذكّر والد زوجته الذي أطلق النار على نفسه عام 1877، والنائب العام (B) الذي كان يتخذ دائمًا وضع الخانع المنحني المماثل لوضع الصلاة، وهو وضع جامد ظل متمسكًا به. وقد تعرف على أناس آخرين يتسمون بالغموض مثل رئيس مجلس الشيوخ ومستشار محكمة عليا محلية آخر، ومحامٍ من ليبزج كان صديق صباه، وابن أخيه فريتس، وصحبة عابرة في أثناء المصيف في "فارينموند". وقد لاحظ وجود صهره من خلال النافذة على الطريق المؤدى إلى المصححة. "وقد حدث مرارًا أن رأيت عددًا كبيرًا من الأشخاص، كان من بينهم ذات مرة بعض النساء، بعد أن عبرن الغرفة المشتركة ليدخلن إلى غرفة جانبية كان عليهن أن يختفين بها. وفي أثناء ذلك سمعت مرارًا كذلك صوت الحشجة الغريب الذي كان مرتبطًا بتحليل الرجال الذين ظهروا على عجل. ولم يتوقف عجبى على رؤية شخوص آدمية بل أيضًا رأيت موادًا غير حية. فعلى قدر الارتياح الذي أحاول الالتزام به في اختبار ذكرياتي فإننى بنفس القدرة لا أستطيع أن أمحو انطباعات بعينها من ذاكرتي، مثل تحول الملابس على أجساد من رأيتهم من بشي، وتحول طعام في صحنى في أثناء تناولى له، على سبيل المثال تحول لحم خنزير مشوى إلى لحم عجل مشوى أو العكس".

في هذا الاستعراض بعض ما هو جديرٌ بالملاحظة، فقد رأى شريب إناسًا أكثر مما يمكن أن يوجدوا هناك، ويتم الدفع بهم جميعًا إلى حظيرة ما. وقد شعر بنفسه معهم، بنص التعبير: "قد هبط إلى منزلة الحيوان" وكان هذا هو أقرب شيء على الإطلاق مر به كتجربة جماعية. لكنه لم يندمج أيضًا مع بقية النزلاء في الحظيرة. فقد راقب عملية التحول بدقة، بشيءٍ من النقد، لكن بلا عداٍ شخصي. حتى الملابس والطعام كانت تتحول إلى بعضها البعض. أما ما كان يشغله في الغالب فهو تعرفه على الآخرين. فكل من ظهر كان شخصًا آخر في الحقيقة. لذا كان حريصًا على ألا يكون هناك من هو غريبٌ عنه. إلا أن عمليات الكشف

هذه كانت لها سماتٌ خيرةً نسبيًا، ولم يكن سوى رئيس الحراس الذى ذكَّره بروح عدائية، وإن لم يُذكر في الفقرة السابقة. وقد تعرف شريب على كثيرين، وأناس مختلفين، لكن علاقته بهم لم تكن قد توثقت أو تحددت. وبدلاً من إماطة أقتعتهم فإن هؤلاء كانوا يبذلون هياتهم إلى أطرف أشكال التحول التى يمكن تصورها، إلا أن تجارب شريب لم تكن تملك هذه الشخصية العابثة والمتحررة. وهناك نوعٌ آخر من الرؤى التى كانت توافيه كثيراً في أثناء "زمنه المقدس" فتؤدى مباشرةً إلى الحالة المبكرة لجنون العظمة، حسب اعتقاده. فالشعور بالحصار بحزمةٍ من الأعداء استهدفوا جميعاً فرداً واحداً، هو شعور أساسى لجنون العظمة الذى تتجلى أنقى صورهِ في رؤى العين، فالمرء يرى في كل مكانٍ وكل ناحيةٍ أعيناً لا تهتم إلا بشخصٍ واحد، واهتمامها هذا يمثل خطراً شديداً. أما المخلوقات صاحبة هذه الأعين فإنها تنوى الانتقام من شخصٍ ما بعد أن جعلهم يشعرون لفترةٍ طويلةٍ بسلطته غير المسئولة. فإن كانت هذه حيوانات فإنه يطاردها بإصرارٍ شديد، فإن شعرت بالتهديد بالإبادة، انقلبت فجأةً ضده. ويمكن العثور على هذه الحالة المبكرة لجنون العظمة واضحةً في كثيرٍ من أساطير الصيد لدى شعوبٍ كثيرة. وهذه الحيوانات لا تتخذ دائماً هيئة الفريسة بالنسبة للإنسان، لكنها تتخذ هيئة مخلوقات خطيرة كان الإنسان يخشاها دوماً، وكان خوفه يبلغ أوجهه باقترابها منه وحتلالها لغرفته وفراشه. وقد وجد شريب نفسه محاصراً بالدببة البيضاء ليلاً. فكان غالباً ما يغادر فراشه ليجلس بقميصه بممر غرفة نومه. أما الأيدي التى ثبتها على الأرض خلف ظهره فكانت لشخص تشبه الدببة - دببة سوداء - كان إحساسه بها من حين لآخر يصل إلى ذروته. وقد رأى دببة أخرى سوداء، أكبر وأصغر حجماً، رآها بعيون متقدة، جلست بالقرب منه محيطتهً به. أما فراش سريره فقد "صار دببة بيضاء". وفي المساء كان ما زال متيقظاً عندما ظهرت قطط بأعين متوهجة فوق أشجار بستان المصححة. ولم يتوقف الأمر على الحزم الحيوانية، فقد كان عدو شريب الرئيس، المعالج النفسى فلكسيج، يستخدم أسلوباً خبيثاً وخطراً للغاية في تكوين حزم سماوية ضده. وقد دار الأمر حول ظهور خاص وصفه بـ "تقسيم الأرواح". فقد انقسمت روح فلكسيج حتى يحتل قبة السماء كلها بأجزاء الروح، حتى تواجه الأشعة الإلهية بمقاومة في كل ناحية. وقد ظهرت قبة السماء في محيطها كله مغطاة بالأعصاب. التى كانت تواجه الأشعة الإلهية بإعاقة آلية. وقد كان من المحال تجاوز هذه الأعصاب،

فكانت مثل قلعة محاصرة تحميها خنادق وسدود ضد العدو المقتحم. وقد انقسمت روح فلكسيج من أجل هذا الغرض إلى عدد كبير من أجزاء الروح. وقد حضر منها لوقت طويل أربعون إلى خمسين جزءًا. ومن بينها كثير كانت صغيرة تمامًا. وقد بدا أن هناك كذلك "أرواح مجربة" أخرى بدأت في الانقسام، كما حدث في حالة فلكسيج، وقد صار عددها يتزايد دائمًا وعاشت كما تعيش الحزم، فقط من أجل التربص والسطو. ولم ينشغل جزء كبير منها إلا بحركات الحصار، أى بالمناورات التى كان غرضها يكمن فى مهاجمة الأشعة الإلهية المتسللة من الخلف وإرغامها على الاستسلام. وقد صار العدد الكبير من "أجزاء الروح المجربة" فى النهاية مزعجًا لهيمنة الإله. وبعد أن تحقق النجاح لشربير فى جذب قسم كبير منها، قام الإله المهيمن ذات يوم بتنظيم حملة تفتيش كبيرة من بينهم. وقد داعب خياله تكاثر الخلايا من خلال الانقسام، أى "انقسام الأرواح"، الذى كان معروفًا له بالفعل. فقد كانت السمة الغالبة لتطور هوسه هو استغلال الأكوام، الناشئة على هذا النحو، كحزم سماوية. أما أهمية الحزم المعادية لبنية جنون العظمة فلا يمكن إدراكها على نحو أوضح من هنا على الإطلاق. وأما علاقة شربير المركبة ومتعددة المعانى مع الإله، أى "سياسة الأرواح" الذى اعتقد أنه ضحية لها، فإنها لم تستطع منعه من معايشة الهيمنة، من الخارج، كوحدة رائعة. وفى كل سنوات مرضه لم يمر إلا بهذه التجربة الوحيدة التى تكررت خلال أيام وليالٍ قليلة متتابة، فقد كان على علم تام بندرة وقيمة هذا الحدث. فلم يظهر الإله إلا مرة واحدة بلبلة واحدة. ففى أثناء ما كان شربير يرقد بفراشه يقطًا، تبدت صورة أشعته المتألقة لعينه الروحية. وفى الوقت نفسه سمع حديثه الذى لم يكن همسًا خافتًا بل كان دويًا قويًا مباشرًا أمام نوافذ مخدعه. وفى اليوم التالى رأى الإله بعينه الطبيعية، فكان الشمس التى لم تظهر فى هيئتها المعهودة وإنما بدت سابعة فى بحر أشعة من فضة براقة، بحر كان يغطى سدس أو ثمن أجزاء السماء. وكان المشهد على نحو من الجلالة الطاغية حتى أن شربير خشى من مواصلة النظر إليه، محاولاً تحويل نظره عن تجليه. وقد "تحدثت" تلك الشمس الوامضة إليه. وهو لم يعايش مثل هذا البريق فى الإله وإنما فى نفسه، وهو أمر لم يكن ليثير العجب لأهميته وعلاقته الوثيقة بالإله. "بعد تدفق شديد للأشعة كان يغمر رأسى غالبًا شعاع الهالة المقدسة للمسيح المرسوم فى الصور، إلا أنها كانت أكثر ثراءً وبريقًا على نحوٍ ناد، وهو ما يسمى بتاج الأشعة" إلا أن

شريب عرض هذا العنصر "المقدس" للسلطة على نحوٍ أكثر تكتيقيًا، ففي مرحلة التزامه بعدم الحركة كانت خبرته به قد بلغت أقصى مدى لها. ففي أثناء هذه المرحلة كانت حياته الظاهرية ذات شكلٍ واحدٍ متطرف. فكان يمضى للنزهة بالبستان مرتين كل يوم. وفيما عدا ذلك كان يجلس طوال اليوم بلا حراك فوق مقعده أمام مكتبه ولم يتحرك حتى إلى النافذة. حتى في البستان كان يؤثر الجلوس بمكانٍ واحد. وقد اعتبر هذه السلبية المطلقة كأنها فرضٌ ديني. لقد كانت الأصوات التي تتحدث إليه هي التي غرست فيه هذا التصور. فقد كانت تكرر عليه: "لا أدنى حركة!" وقد فسر لنفسه هذا المطلب بأن الإله لا يعرف كيف يتعامل مع البشر الأحياء. فهو قد اعتاد الاتصال بالجنث فقط، ولهذا أمرته الأصوات بهذا الطلب الغريب، أى بأن يتخذ مسلك الجنث. وكان عدم الحركة هذا نوعًا من الحفاظ على النفس وكان في الوقت نفسه فريضةً تجاه الإله، فهو ما كان سينتشله من الموقف السيئ الذى سببته له "الأرواح المجربة". "وقد أدركت أن فقدان الأشعة يزداد مع ازدياد حركتى، حتى إن نتجت عن اختراق تيار هواء لحجرتي. وفي أثناء ما كنت أشعر بالخشية المقدسة من الأشعة الإلهية، ولشكى في وجود أبدية أو أنها ستكون نهايةً مفاجئة للأشعة، فكان علىّ بذل قصارى جهدى لمنع فقدان الأشعة". وكان من الأسهل هو جذب الأرواح المجربة ليدمجها في جسده تمامًا، إذا استطاع الحفاظ عليها في حالة هدوءٍ دائمة. فمن خلال ذلك فقط يمكن إعادة سيادة الإله المطلقة على السماء. وهكذا قررت الضحية غير المعقولة أن يحرم على نفسه أية حركة جسدية طوال أسابيع وشهور عديدة. ولما كان قد توقع أن دمج الأرواح المجربة يتم على الأحرى في أثناء النوم فإنه لم يجرؤ على تغيير وضعه بالفراش. وهكذا كان جمود حركة شريب لفترة أسابيع وشهور من أعجب ما سجله. وكان دافعه لذلك مزدوجًا. وكان لسلوكه، كجنثٍ هامدة في سبيل الله، وقعٌ غريب على آذان الأوربيين المحدثين، والسبب الرئيس في ذلك هو علاقتنا المتزمته بالجنث. فتقاليدنا تحرص على إقصاء الجنث بسرعة، بعد أن فقدت أهميتها، كما أن إدراكنا أنها سرعان ما تتعفن يرغمننا على اتخاذ شيء حيالها. فنحن نعتنى بها قليلًا، ولا نكاد نظهرها، ونسد أى منفذٍ إليها فيما بعد. ورغم كل الحفاوة التي يمكن أن تحيط بالجنث فإن الجنث نفسها لا تعاود الظهور مطلقًا، فالاحتفاء يهدف إلى إخفائها وإغفال ذكرها. ومن أجل فهم شريب فإننا لا بد من أن نتذكر موميאות المصريين الذين يحافظون على شخصية الجنث ويعتنون بها

ويقدرونها. فمن أجل الإله اتخذ شريبر لشهور طويلة هيئة المومياء وليس الحثة. أما تعبيره الشخصي عن ذلك الحال فلم يكن مصيباً على نحو كبير. أما الدافع الثانى لعدم حركته، فكان خوفه من فقدان الأشعة الإلهية، فهو يتقاسمها مع مجتمعات منتشرة بلا حصر على وجه الأرض كافة، تلك المجتمعات. التى كونت مفهومًا مقدسًا عن السلطة. فهو يشعر بنفسه كوعاءٍ يتجمع فيه تدريجيًا الجوهر الإلهي كله. ويمكن أن ينسكب شيءٌ من هذا من جراء أصغر حركة، ولذلك امتنع عن الحركة. فصاحب السلطة يحفظ نفسه من خلال القوة المشحون بها، سواء شعر بها كمادة غير خاصةٍ به يمكن أن تخرج منه، أو لأن المرجعية الأعلى تتوقع منه هذا السلوك الجامد كعملٍ من أعمال التقديس. وفي مسلكه، الذى اعتبره مناسبًا للحفاظ على مادته المقدسة، فإن حركته كانت تتجمد شيئًا فشيئًا، فكان أى انحراف عن ذلك يمثل خطرًا يهدده ويصيبه بالقلق. فكان حرصه الشديد على اتقاء الحركة هو ما يضمن له البقاء. وقد صارت بعض هذه السلوكيات مثلاً أعلى لسلوكيات اجتماعية خلال مئات السنين. فقد تأسست بنية كثيرٍ من المجتمعات على مسلك الفرد الجامد والخاضع تمامًا. وكان على شريبر أن يرى شعبًا لم يعتبره ملكًا وإنما "قديسًا قوميًا" فعلى نجم بعيد كانت جرت محاولة لخلق عالم إنسانى من روح شريبر. وكان هؤلاء البشر الجدد من نمطٍ واحد أصغر من ساكنى الأرض من البشر. كما بلغوا درجةً ما من الحضارة، وحافظوا كذلك على حجم أجسادهم الضئيل المتسق مع ذلك، كنوعٍ صغير من ماشية البقر. وكان على شريبر أن يصير مادةً للتقديس الإلهي بوصفه "قديسًا قوميًا"، حتى إن وضع جسده كان يمثل أهمية ما لعقيدتهم. وهنا تبدت بوضوح أهمية وضع جسدى بعينه. فلم يكن هؤلاء البشر المخلوقون من مادة شريبر هم فقط من يرتبطون بوضعه الجسدى، بل ارتبطت به العقيدة كذلك. هكذا كان على عقل شريبر، فى أثناء مرضه، أن يتحمل أكثر المخاطر خبثًا. كما كانت العمليات المستهدفة لجسده بلا نظير، فلم يكد هناك جزء من جسده قد نجا من ذلك. فالأشعة لم تنس شيئًا منه أو غضت الطرف عنه، فقد جاء الدور على كل جزءٍ بمعنى الكلمة. فكان أثرها يطرأ فجأة مما جعله يعتبر ذلك إعجازًا. فى هذا الإطار تبدت ظواهر تحوله المعتمد إلى امرأة. وهو الأمر الذى تقبله من دون أية مقاومة. وبصرف النظر عن ذلك فإنه لا يمكن تخيل ما حدث له. فقد أرسلت إلى رتيه دودة رئوية. وكانت عظام صدره قد تهشمت إلى حدٍّ ما. وبدلاً من

معدته السليمة كما قام طبيب الأعصاب من فيينا باستبدال معدته السليمة بمعدة ضعيفة. فأصبح مصير معدته معرضًا للخطر. فقد عاش غالبًا من دون معدة، فإذا ما تناول طعامًا رغم ذلك فإن الطعام يتدفق مباشرة إلى بطنه وفخذه. إلا أنه اعتاد هذه الحالة. فواصل تناوله للطعام من دون اهتمام ومن دون معدة. أما القناة الهضمية والأمعاء فكانت غالبًا ما تتهتك أو تختفى. وقد أكل أجزاء من حنجرته عدة مرات. ومن خلال "الرجال الصغار" الذين زُرِعوا في قدميه جرت محاولة لاستنزاف نخاع ظهره حتى إنه كان، في أثناء تنزهه بالبستان، يتبخر النخاع من فمه في صورة سحبٍ صغيرة. وغالبًا ما تولد لديه الشعور بأن سطح رأسه قد صار أقل سمكًا. وعندما كان يكتب أو يعزف البيانو كان هناك من يحاول شل أصابعه. وقد اتخذت بعض الأرواح هيئة شخص إنسانية صغيرة، لم يتجاوز حجمها بضعة مليمترات. وصارت تمارس حياتها على أجزاء جسده المختلفة، سواء في الداخل أو على السطح. وكان بعضها منشغلًا بفتح وإغلاق عينيه، فاتخذت مكانها فوق عينيه، في حاجبيه، وأخذت من هناك تجذب الجفون إلى أعلى وأسفل كما تشاء بخيوط دقيقة كخيوط نسج العنكبوت. وكان غالبًا ما يتجمع الرجال الصغار في أعدادٍ كبيرة على جسده. وكانوا يتنزهون على رأسه، يستطلعون أي مكان لحق به أي دمار جديد. وقد وصل بهم الحال إلى مقاسمته طعامه بأن كانوا يأخذون مما يتناوله أجزاء صغيرة لأنفسهم. ومن خلال نخر الليم في عظام منطقة الكعبين والعصص حاولوا جعل سيره ووقوفه محالًا. فلم يكن يطيق أي وضعٍ أو أية حركة، فإن شاء السير حاولوا إرغامه على الرقود، فإذا رقد كانوا يطاردونه في مخدعه. فإن اضطر إلى الوجود بمكانٍ ما "كانت الأشعة تبدى عدم موافقتها على ذلك". وهنا يجب أن نقف أمام واحدة من هذه الظواهر، وهى اختراق جسده، ما يعنى تعطل مبدأ الفيزيكا الذى يمنع اختراق الجسد. فمثلما كان يريد هو التمدد فى كل مكان فإن كل شئ يتمدد داخله أيضًا، ويفرض نفسه فيه وعليه. وكان هو غالبًا ما يتحدث عن نفسه على أنه جسد العالم، إلا أنه لم يكن على يقين بأنه يمتلك جسدًا إنسانيًا محصنًا. كما كان زمن تمدده الذى زعمه، هو أيضًا زمن اختراقه جسده هو. فالتمدد والملاحقة كانا مرتبطتين ببعضهما على أوثق نحو، وكل منهما تجلى فى جسده. فلما واصل الحياة، رغم كل الهجمات، تولد لديه إيمانٌ بأن الأشعة تشفيه أيضًا، فقد كانت تمتص كل المواد غير النقية من جسده، كما استطاع مواصلة تناوله للطعام بدون

معدة. فقد كانت الأشعة تزرع الجراثيم بجسده ثم تقضى عليها. وهكذا يساورنا الظن بأن كل الهجمات على جسده استهدفت الحصانة. فكان على جسده أن يثبت له قدرته على النجاة من ذلك. فكلما لحق به أذى أو وهنٌ كان يخرج في النهاية أكثر اطمئناناً وأماناً. وكان شريبر قد بدأ يشك أنه قابل للفناء.

إن أثر السموم لم يكن أعظم خطراً من الأضرار التى نجا منها. فإذا ما سقط في الماء وغرق، فقد يكون ذلك بعثاً، ربما من خلال إعادة تنشيط قلبه والدورة الدموية، وإذا ما أطلق رصاصة على رأسه فإن الأجهزة الداخلية وشظايا العظم يمكن أن تلتئم مرةً أخرى. ففي النهاية كان قد استطاع أن يعيش لفترةٍ طويلة من دون أجهزة جسده الضرورية للحياة. إلا أن كل شيء كان يتكون مرةً أخرى. ولم تعد الأمراض الطبيعية تمثل خطراً عليه. وبعد ضغوطٍ كثيرة، وحيرةٍ شديدة، أدرك أن الحصانة أمرٌ لا غنى عنه. ففي أثناء هذه المحاولة اتضح أن هذا الإلحاح على الحصانة والنزوع للبقاء حيّاً قد امتزجا معاً. والمصاب بجنون العظمة يثبت هنا أيضاً أنه نسخةٌ دقيقة من صاحب السلطة. أما الفارق بينهما فهو في اختلاف موقعهما بالعالم الخارجى. لكن بنيتهما الداخلية تظل واحدة. وقد نعجب أكثر لمريض جنون العظمة لأنه يكتفى بنفسه. ولم يضعفه فشل خارجى. فهو لا يعى أهميةً للعالم، بعد أن واجه وحده البشرية كافة. فقد قال شريبر: "كل ما يحدث يرتبط بى. فقد صرت، بالنسبة للإله، الإنسان الأوحده، أو أننى صرت الأوحده الذى يدور كل شيء فى فلكه، الذى لا بد من أن يرتبط به كل ما يحدث، وهو أيضاً من إليه تنجذب كل الأشياء".

وكما نعلم، كان قد غلب عليه لسنوات تصور أن كل البشر الآخرين قد قُضى عليهم وأنه صار الإنسان الوحيد. وقد تحول هذا التصور شيئاً فشيئاً إلى ادراكٍ هادئ. فمن كونه الوحيد الباقي حيّاً صار إلى الوحيد المعدود. ولا نستطيع إغفال الظن بأن خلف كل مصاب بجنون العظمة، مثل كل سلطة، يكمن النزوع العميق نفسه، أى أمنية الخلاص من كل من يعترض طريقه حتى يصير هو الوحيد، أو بشكل أكثر اعتدالاً ومعتزفاً به، يكون ذلك هو أمنية استغلال الآخرين حتى يصير هو "الوحيد" من خلال مساعدة أولئك له.

خاتمة الكتاب

تحلل الباقي على قيد الحياة

بعد هذا الاستعراض المسهب لهوس مريض بجنون العظمة، كان المريض هو صاحب الفضل في نشر تفاصيله، فقد يكون من المناسب أن نتأمل ما عرفناه عن السلطة. فكل حالةٍ بحد ذاتها، مهما كان عمق دلالتها، تترك داخلنا شكًا عميقًا. وكلما زادت معرفتنا بها على نحو أكثر دقةً ازداد إدراكنا لتفرداتها. فقد نضبط أنفسنا متلبسين فجأةً بأمل أن الحال كانت كذلك هذه المرة، ولكنها ستكون مختلفة في كل مرةٍ مقبلة. وهذا من سمات المرض العقلي بصورةٍ خاصة. فخطرة الإنسان المتأصلة (تجعله ينسب فشله لعوامل خارجية) تتشبت بفشلها الخارجى. فإذا ثبت أن كل فكرةٍ منفردة في رأسٍ ما، مثل رأس شريب، تطابق ما في رأس الحاكم الرهيب، فإننا رغم ذلك سوف نحفظ بأمل أن هذه الأفكار تختلف بقدرٍ ما اختلافًا جذريًا.

فاحترام "كبار" هذا العالم لن يتلاشى بسهولة، فقد كانت الحاجة إلى تقديس البشر بلا حدود. ولحسن الحظ أن بحثنا لم يقتصر على حالة شريب وحدها. فمهما بدا البحث مسهبًا لكثيرين، فإن بعض الأمور تمت معالجتها على نحوٍ عابر، كما أننا لم نتناول بعض الأمور الأخرى، التى قد تكون مهمة. لكننا، الآن في ختام هذا الكتاب، لن نستطيع أن نؤاخذ القارئ بأنه استطاع التوصل إلى ما هو

يقين. ولقد اتضح تمامًا أي من تلك الحزم الأربع ما زالت مؤثرة في عصرنا. فسلطة ديانات المناحة الكبيرة تشرف على نهايتها، بعد أن غلبتها سلطة ها التكاثر، فصارت تختنق شيئًا فشيئًا. فقد مرت قيم كتلة التكاثر في الانتاج الحديث بتجربة فو هائلة، تتضاءل بجوارها كل قيم أخرى لحياتنا. فالإنتاج يدور هنا في حياتنا الدنيا. وسرعته وتنوعه، الذى لا يمكن إدراك مداهما، لا يسمحان بلحظة راحة أو تدبر. كما لم تستطع الحروب الرهيبة قهر الإنتاج. فمهما كان الخلاف بين كل المعسكرات المتعددية، فإن الإنتاج يؤدي دوره فيها على نفس المنوال. وإذا كانت هناك عقيدة استسلمت لها أقوى شعوب الأرض فستكون هذه هى عقيدة الإنتاج، عقيدة الإنجاز الحديث للتكاثر. فقد أدت زيادة الإنتاج إلى أن تكاثر البشر صار هو الهدف المنشود. فكلما زاد الإنتاج باتت زيادة عدد المستهلكين أمرًا ضروريًا. فالرواج في حد ذاته، إذا ترك له الأمر، فإنه سوف يستهدف يومًا ما الوصول إلى كل الناس كقوة شرائية يمكن الوصول إليها. وفي هذه النقطة يتساوى الإنتاج مع كل الأديان الكونية التى تستهدف كل إنسان، حتى لو كان ذلك على نحو سطحي. وعلى كل الناس أن يصلوا إلى نوع ما من المساواة المثالية، أى كقوة شرائية وكمشتريين خائعين. لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فإذا ما تم الوصول إلى القوة الشرائية كافة، فإن الإنتاج ينشد الزيادة، لذا كان توجهه الثانى والأعمق نحو زيادة عدد الناس. فالإنتاج يحتاج مزيدًا من الناس، فتكاثر البضائع يقوده إلى الصورة الأولى لتكاثر الإنسان نفسه. وترجع مسالمة الإنتاج إلى أعماق طبيعته. فخفض العدد من خلال الحرب والدمار يضر به. ولا تختلف الرأسمالية عن الاشتراكية في ذلك، فهما خصمان توأم متنازعان يؤمنان بالعقيدة نفسها، فكلاهما يعتبر الانتاج حبة قلبه. فقد اكتسب الإنتاج لدهما نفس القدر من الأهمية، وساهمت الخصومة بينهما في نجاح التكاثر الطاغى. فصار التشابه بينهما إلى اطراد دائم. ولقد لفت الانتباه هذا الاحترام المتنامى تجاه بعضهما البعض. وقد نحاول أن نقول في نهاية الأمر إنه ينسحب على النجاح في إنتاجهما. وليس صحيحًا أن كلا منهما يبغي القضاء على الآخر، فهناك اليوم العديد من أكبر مراكز التكاثر مؤثرة تمامًا، وتنتشر بسرعة، وهى موزعة على كثير من اللغات والثقافات وليس من بينها من يمتلك القوة الكافية لاحتكار السيطرة، وليس بينها من يجبر أن يواجه الآخرين وحيدًا. أما النزوع لتكوين كتل مزدوجة كبيرة فهو أمر واضح للعيان. وهى تنتسب إلى مناطق عالمية بكاملها، شرقًا وغربًا. كما

ابتلعت هذه المراكز الكثير داخلها، حتى أخذ ما بقى خارجها يتضاءل على نحو دائم، وما بقى في الخارج بدا عاجزاً. إن جمود وضع هذه الكتل المزدوجة، وجاذبيتها لبعضها البعض، وتسليحها المستعر هو ما نشر خوف الفناء في العالم، فالحرب بينهما قد تؤدي إلى فناء البشرية. إلا أنه اتضح أن التوجه للتكاثر قد صار قوياً إلى حد أنه غطى على نزعة الحرب، بل جعل الحرب تبدو منعصاً مؤقتاً. فقد كانت الحرب، كوسيلة تكاثر سريع، قد انهكت نفسها بعد انفجارها الوحشي على يد ألمانيا النازية، وهو الأمر الذي انتهى للأبد، كما نتمنى. وتبدي كل البلاد اليوم ميلاً نحو حماية إنتاجها أكثر من حماية مواطنيها. وهو الأمر الذي صار مبرراً وأكيداً ويلقى الاستحسان العام. كما فاق إنتاج البضائع في عصرنا حاجة الناس. وقد حلت أنظمة كتل مزدوجة محل الحرب. فالتجربة البرلمانية أثبتت أنه من الممكن إقصاء الموت بعيداً عن الكتلتين، فهناك تداول سلمى ومنتظم للسلطة، وهو المبدأ الذي ترسخ بين الأمم. وكانت الرياضة، كحدث جماعي، قد عوضت في روما الحرب في جزءٍ جوهري منها، وهى في سبيلها اليوم للوصول إلى نفس الأهمية لكن على مستوى العالم. فالحرب مصيرها يقيناً إلى الانقراض، وباتت نهايتها وشيكة، إلا أننا لم نضع الباقي على قيد الحياة في حسابنا. فما هو الذي تبقى بعد هذا من ديانات المناحة؟ فبقدر حفاظ أديان المناحة على نفسها كمنظومة فإنها بدت عاجزة أمام هذا التطرف الأعمى المتهور لكل من التدمير والإنتاج اللذين كانا السمة الغالبة على النصف الأول من القرن العشرين، كما عجزت أمام هذا الغرور المزدوج العنيد الذي يؤثر في هذا وذاك. فهى تمنح البركة لكل ما يحدث تارةً على مضض وتارةً عن طيب خاطر، وإن استثنت البعض من ذلك. ورغم ذلك فإن ميراثها أكبر مما يعتقد البعض. ووقد رسخت في الوعي الإنساي صورة هذا "الواحد" الذي ينوح على موته المسيحيون من ألفى عام تقريباً. فهو المحتضر الذي لا ينبغي أن يموت. ومع غلبة العلمانية تراجعت أهميته. لكنه بقى، شئنا أم أبينا، هذا الإنسان المفرد المُعذَّب المحتضر. أما ألوهيته فيما قبل التاريخ فقد منحته نوعاً من الخلود بين أهل الأرض، فدعموا مكانته، ورأى كلٌ منهم نفسه فيه. فلم يعد هناك مضطهد لم ير جزءاً من روحه على أنه المسيح. فما إن تسوء حال الأعداء الألداء، حتى يشعر كلٌ منهم بالشئء نفسه، حتى لو كانوا يتحاربون في سبيل أمورٍ خبيثة غير إنسانية. وتنتقل صورة المُعذَّب الفاني، حسب مسار الأحداث، من واحدٍ إلى الآخر،

فيستطيع الضعيف أن يرى نفسه في النهاية أنه هو الأفضل. كما يشارك في هذه الصورة الضعيف، الذي لم يصل إلى حالة العداء الحاد. فقد لا يجذب الموت في سبيل شيء، لأن الموت نفسه يجعل له قيمةً ما، ليمنحه المسيح حزمة المناحة. ففى خضم هوس التكاثر، الذى هو من صنع الإنسان، لا تتراجع قيمة الإنسان بل تزداد. أما أحداث عصرنا فيبدو أنها تبوح بالنقيض، فهى أيضًا لم تغير من وعى الإنسان. فإيمانه بقيمة الروح ساعدته على ضمان قيمته الدنيوية. فالأمل في عدم الفناء يكون قد برر لديه. فكلُّ يعتبر نفسه في المناحة شيئاً كريماً، فالكل مؤمنٌ إيماناً لا يتزعزع بأنه لن يموت. في هذه النقطة يكون الموروث المسيحى غير قابل للفناء، مثله في ذلك مثل البوذية وإن كانت بشكل آخر. أما ما تغير جذرياً في هذا الزمن فهو موقف الباقي على قيد الحياة. وبقينا لم يشعر القليل من القراء بمقِّت عميق بعد مطالعة الفصل الخاص بالباقي على قيد الحياة، وإن كان الهدف هو سبر أغواره وتقديره كما هو، وكما كان دائماً. فقد كان يتم تمجيده كبطل، وكصاحب سلطة كانت تُقدَّم له فروض الطاعة، وفي الواقع كان هو واحداً دائماً. وقد عايش انتصاراته الهائلة في زماننا وبين بشر يعلقون أهمية كبيرة على مفهوم الإنسانية. فهو مفهوم لم ينقرض ولن ينقرض ما لم نمتلك القدرة على رؤيته بوضوح، في كل أشكال تنكره، التى يحيط بها البريق دائماً. فالباقي على قيد الحياة هو موروث الإنسانية، هو لغتها، وربما المدمر لها. فهل يمكن الإفلات منه في اللحظة الأخيرة؟ ولقد تطرفت ممارساته في عالمنا الحديث حتى صرنا نخشى رؤية ذلك. فالإنسان بمفرده يستطيع من دون مجهود أن يدمر جزءاً كبيراً من البشرية. فبوسعه أن يستخدم في سبيل ذلك عمليات تقنية لا يفهمها هو نفسه. وهو يستطيع فعل ذلك في أمان تام. فهو غير مضطر أن يعرض نفسه للخطر وهو يفعل ذلك. والتناقض بين فرديته وعدد هؤلاء الذين يدمرهم قد تفاقم إلى حد يصعب معه التعبير عن ذلك. فبوسع أحدهم اليوم أن يبقى حياً بعد تدمير آخرين دفعةً واحدة، أناس أكثر عدداً من أجيال كاملة سابقة. وقد عُرِفَت الخطط القديمة لأصحاب السلطة ولم تعد الاستفادة منها أمراً صعباً. كما جاءت نتيجة الاكتشافات الحديثة كافة لصالحهم، كأنها حدثت من أجلهم فقط، ما ضاعف من طاقة أدواتهم، كما ازداد عدد الناس واصبحوا أكثر قرباً من بعضهم البعض. فالوسائل تضاعفت آلاف المرات. وعجز الضحية في الدفاع عن نفسها، إن لم تكن استسلمت، قد ظل في جوهره واحداً. فكل اشكال الفرع من

قوة فوق طبيعية، يحل بالبشر عقابها ودمارها، تتجلى في تصورنا عن "القنبلة". لكن الفرد يستطيع احتكارها بعد أن صارت بين يديه. فبوسع صاحب السلطة أن يسبب دماراً يفوق كل ابتلاءات الله. فلقد سلب الإنسان إلهه الخاص. لقد قبض عليه ووضع يده على كل ما يملكه الإله، أى ما هو مثمر ومهلك. فصاحب السلطة، الذى صار البقاء على قيد الحياة يمثل له شغفاً وعبئاً، بدت أحلامه المبكرة المجازفة اليوم قليلة الشأن. وفجأةً اكتسب التاريخ، الذى نعرفه، وجهاً بريئاً مريحاً. فكم من الوقت استغرق كل هذا حينذاك وما مدى ضالة ما تم تدميره على أرضٍ نجهلها. أما اليوم فلا يفصل القرار عن الفعل سوى لحظة. وبالقياس على قدرتنا يبدو كل من جنكيز خان وتيمورلنك وهتلر الآن تلاميذ بائسين وعاجزين! أما السؤال الأهم، بل الوحيد، فهو عن إمكانية مواجهة الباقي على قيد الحياة الذى تكاثر حتى بلغ هذه النسب الرهيبة. إن تفتت وسيولة الحياة المعاصرة هو ما يعمينا عن البساطة والضرورة الملحة لهذه القضية الأساسية. لأن الحل الوحيد الذى يلبي حاجة البقاء على قيد الحياة كانت العزلة المبدعة للخلود، إلا أنه حلٌ يناسب القليلين فقط، طبقاً لطبيعته. ومقابل هذا الخطر المتنامى الذى يشعر به المرء فى أعماقه هناك حقيقةٌ جديدةٌ ثانية تؤخذ فى الحسبان، فالباقي على قيد الحياة يخاف، بل يخاف دائماً. لكن الخوف قد نما بلا حدود متجاوزاً قدرة الاحتمال مقارنةً بإمكانيات صاحب السلطة. فانتصاره يمكن أن يستمر لدقائق أو ساعاتٍ، إلا أنه هو أيضاً لم يعد يشعر بالأمان بأى مكان بالعالم، فالأسلحة الحديثة يصل مداها إلى كل مكان ويمكنها الوصول إليه هو أيضاً فى أى مكان. وقد صار كلٌ من تضخمه وحصانته يمثلان طرفي نزاع. ولقد تجاوز تضخمه الحد. فقد اختلف خوف أصحاب السلطة اليوم عن الماضى بعد أن تساوا مع كل الآخرين. أما ركيزة السلطة العتيقة، أى الحفاظ على صاحب السلطة على حساب جميع الآخرين، فقد فقدت مبررها وانهارت. فرغم أن أثر السلطة صار أعظم مما سبق، فإنها صارت محفوفة بالمخاطر أيضاً، وهو ما يعنى أن يبقى الجميع على قيد الحياة أو لا يبقى أحد. ومن أجل مواجهة صاحب السلطة فلا بد من كشف ممارساته لنظهر وجهه الحقيقى جلياً، وبذا يكون خطراً، وخطره هذا يكمن فى سلطة إصداره الأوامر. ولقد عرفنا أن "الأمر" فى شكله المروض والمألوف، لا يمثل سوى حكمٍ بالموت مع وقف التنفيذ. وقد ترسخت فى كل مكان هذه النظم الفعالة الصارمة لمثل هذه الأوامر. فمن يصل

بسرعة مفروطة إلى القمة، أو من ينجح عبر وسيلة أخرى في الوصول إلى قمة السيطرة على هذا النظام، فإنه يكون من خلال موقعه مشحونًا بـ"خوف الأمر"، ولا بد من أن يحاول التحرر منه. فالتهديد المستمر الذى يخدم أغراضه، والذى يمثل جوهر هذا النظام، يتوجه في النهاية ضده هو نفسه. فسواء كان مهددًا من الأعداء بالفعل أم لا فإنه سيشعر دائمًا بالتهديد. والتهديد الأخطر يأتيه من رجاله الذين يأمرهم هو دائمًا، وهم في أقرب موقع منه، وهم الذين يعرفونه جيدًا. أما الوسيلة، التى لا يتردد في اللجوء إليها لتحرير نفسه، والتى لا يريد التنازل عنها بأية حال، فهى إصداره لأمر مفاجئ بالقتل الجماعى. فيبدأ حربًا ويرسل رجاله إلى هناك حيث ينبغي أن يمارسوا القتل. فإن قضى في أثناء ذلك على كثير منهم، فلن يأسف عليهم. ومهما كان توجهه إلى الخارج، فإن احتياجًا عميقًا خفيًا يدفعه للقضاء أيضًا على رجاله. فالتحرر من خوف الأمر يشترط أن يموت كذلك كثير من هؤلاء الذين يحاربون من أجله. فإذا ما ازدادت مخاوفه فإنه يقضى عليها ليتنفس الصعداء. وإذا ما أفرط في التردد فإن رؤيته تصبح غير واضحة ويصبح وجوده مهددًا. فخوفه من الأمر يتخذ أبعادًا تفضى إلى كارثة. لكن قبل أن تلحق الكارثة به، أى بجسده، الذى يظنه هو تجسيدًا للعام، فإن الكارثة تقضى على آخرين لا حصر لهم. ونظام الأوامر معترف به في كل مكان. ويبلغ أقصى حدوده في الجيوش. لكن أثر الأمر لحق بكثير من مجالات الحياة المدنية الأخرى. أما التهديد بالموت فهو عملة السلطة. ومن اليسير هنا أن توضع العملة فوق العملة لجمع كثير من رهوس أموال ضخمة. ومن يريد إزاحة السلطة فعليه أن يضع "الأمر" نصب عينيه من دون خشية، وأن يجد وسيلة لاختلاس غصته من (الأمر).

هوامش

(1). استعراض الهاكا

J. S. Polack, New Zealand, A Narrative of Travels and Adventure, London, 1838, Vol. I, pp. 8

(2). هناك العديد من المراجع عن الوقوف على عرفات أكثرها إسهاباً هي:

M. Gaudetroy-Demombynes, Le Nlerinage a la Mekke, Paris, 1923, pp.

(3). Bechuana. S. S. Doman, Pygmies qrn1 Bushmen of the Kalahari, London, 1925, p. 291.

(4). Boloki Weeks, Among Congo Cannibals, London, 1913, p. 261.

(5). Pygmies in Gaboon.

أغنية عن كهف الموتى مصدرها:

The song about the cave of the dead is given in Trilles, Les Pygmees de fa Foret Equatoriale, Anthropos, Paris, 193 I.

(6). Auxiliary spirits of the Chukchee Shaman.

A. Ohlmarks, Studien zum Problem des Schamanismus, p. 176.

(7). Vision of the Eskimo Shaman. Rasmussen, ThuleJahrt, Frankfurt, 1926, pp. 448-9.

(8). TOTENHEERE DES SCHOTTICHEN HOCHLANDES:
CARMICHAEL. FRANKFURT 1926 P. 448 - 449

(9). DAS NORDLICHT BEI DEN LAPPEN: UND TLINIKT –
INDIANERN: HOEFLER Kultische Geheimbunde der Germanen,
Frankfurt, 1934, pp. 241-2.

(10). "The space between heaven and earth is not empty." M. J. bin Gorion, Die Sagen der Juden, Frankfurt, 1919, Vol. I, p. 348.

(11). The ancient Persians' host of demons. J. Darmesteter, The Zend-Avesta, Oxford, 1883, Vol. II, p. 49.

(12). Caesarius von Heisterbach, The Dialogue of Miracles, trans. Scott and Bland, Routledge, London, 1929, Vol. I, pp. 322-3. p. 3 28, Vol. II, pp. 294-5. 45

(13). God and his court. Ibid, Vol. II, p. 343. 46 Locusts.

(14). Heuschrecken: A. Waley, The Book of Songs, Allen and Unwin, London, 1937, p.173

(15). من مدام يولييان إلى ابنها رسالة بتاريخ 2 أغسطس 1791، ورسائل عن الثورة الفرنسية

Mme. Jullien to her son. Letter of 2nd August 1791. G. Landauer, Briefe aus der Franzoesischen Revolution, Frankfurt, 1919, Vol. I, p. 339.

(16). Camille Desmoulins to his father. Ibid., Vol. I, p. 144. 60f

(17). حجيج البعث Revivals تقارير مفيدة عن حجيج البعث، خاصة في أميركا، مصدرها كتاب 1905, New York, Primitive Traits in Religious Revivals, من تأليف Davenport

أحد الوعاظ المشهورين يحكى عن قصة حياته: The Backwoods Preacher. An Autobiography, by Peter Cartwright, London, 1858.

(18). Meeting at Cane Ridg: Davenport, p. 73 - 77

(19). عقاب الجحيم Hoellenstrafen, Davenport p. 67

(20). حالات تشنج، نباح، ضحك مقدس

Bellen, heiliges Lachen: Davenport, p.78 - 81, Zuckungen

(21). عرض حفل لدى الـ(بابوا) بكل مراحلہ، وهو مادة كتاب حى من تأليف:

Andre Dupeyrat, Jour de Fete chez les Papous, Paris, 1954

(22). حفل لدى الـ(توبينامبو)

A feast among the Tupinambu. Jean de Lery, Le Voyage au Bresil, new edition, Payot, Paris, 1927, pp. 223-4- 474

(23). رقص الحرب النسائية لدى "الكافير الهندوس"

War dance of the women among the Kafirs of the Hindu-kush. W. Crooke, Things Indian, London, 1906, p. 124.

(24). رقص النساء للحرب لدى الـ(جيفارو)

War dance of the Jivaro women. R. Karsten, Blood Revenge, War and Victory Feasts among the Jibaro Indians of Eastern Ecuador, Washington, 1922, p. 24. 66

(25). Mirary in Madagascar. R. Decary, Moeurs et Coutumes des Malgaches, Paris, 1951, pp. 178-9. 68

(26). Jeremiah, Ch. 25, v. 33.

(27). عظة محمد فى أعدائه الموتي / ترجمة "سيرة الرسول" لابن إسحق

Mohammed's sermon to his dead enemies. A. Guillaume, The Life of Muhammad. A Translation of Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah, Oxford, 1955, pp. 305-6. 69

(28). تقرير أوني

Une's report. A. Erman, Aegypten und Aegyptisches Leben im Altertum, Tiibingen, 1885, p. 689.

(29). في مديح رمسيس الثاني

Hymn to Rameses II. A. Erman, Die Literatur der Aegypter, Leipzig, 1923.
(Trans. Blackman, The Literature of the Ancient Egyptians, Methuen,
London, 1927, p. 259.)

(30). معركة قادش:

DIE SCHLACHT BEI KADISCH, ERMAN, DIE LITERATUR DER
AEGYPTER. P. 333

(31). انتصار مرنبتاح على الليبيين

Merenptah's victory over the Libyans. Erman, Aegypten. Aegyptisches
Leben im Altertum, pp. 710-1 1.

(32). رمسيس الثالث والليبيون

Rameses III and the Libyans. Ibid., p. 711.

(33). إحصاء الرؤوس لدى الآشوريين

The counting of heads among the Assyrians. The relief contemporary with
King Assurbanipal is schematically reproduced in G. Maspero, Au Temps
de Ramses et d'Assurbanipal, Paris, 1927, p. 370. 76

(34). النار في كتاب الفيدا

Fire in the Vedas. H. Oldenberg, Die Religion des Veda, Stuttgart, 1917,
p. 43 · 78

(35). رقص النار لدى القبائل

The Fire-dance of the Navajos. W. D. Hambly, Tribal Dancing and Social
Development, London, 1926, pp. 3 3 8-9. 79f

(36). مضرمة النار

Incendiarism. E. Krapelin, Einführung in die Psychiatrische Klinik, Leipzig, 1921, Vol. II, Case 62, pp. 23 5-40. 86

(37). آلهة العواصف في كتاب الفيدا

Storm Gods in the Vedas. A. A. Macdonnell, Hymns from the Rigveda, Calcutta, pp. 56-7. On Plutarch.

(38). بلوتارك / حياة بومباي

Leben des Pomejus / الفصل 11

(39). تقسيم غنائم القنص انظر:

E. Lot-Falck, Les Rites de Chasse chez les Peuples Sibbiens, Paris, Gallimard 1953, pp. 179-83. 99ff

(40). حملة التاولييانج على البيشاوكو

Expedition of the Taulipang against the Pishauko. T. Koch-Griinberg, Vom Roroima zum Orinoco, Ethnographic, Vol. III, Stuttgart, 1922, pp. 102-5. 103ff

(41). حزمة مناحة الوارامونجا

Lament of the Warramunga. B. Spencer and F. J. Gillen, Northern Tribes of Central Australia, Macmillan, London, 1904, pp. 5 16-22.

(42). طوطم الأستراليين
Totems of the Australian aborigines.

جزء من الأعمال القديمة لـ
Spencer and Gillen and of C. Strehlow,

وأهم ما نشر منها:

A. P. Elkin, The Australian Aborigines, 1943, and Studies in Australian Totemism, Oceania Monographs, 1933.

(43). رقص الجاموس لدى الماندا

Buffalo dance of the Mandan. George Catlin, The North American Indians, Edinburgh, 1926, Vol. I, pp. 143-4. II sf

(44). أونجوتينكا والكلاب المتوحشة

Ungutnika and the wild dogs. Spencer and Gillen, The Arunta, Macmillan, London, 1927, p. 169. I 19f

(45). حزمة القنص والكنجرو

Hunting pack and kangaroo. Ibid., pp. 170-1. 121ff

(46). الرقود على المرشح Arunta صفحة 192/193

Lying on top of the candidate. 192-3 ; single file. ibid., p. 160;

(47). Spencer and Gillen, The Arunta.

مارش الإوزة ص 160 الركض في دائرة، تكرر غالبًا على سبيل المثال في ص 273. الرقود في صف، ص 280. الهيشة ص 100 الأسطوانة الراقصة ص 261 - 262 صفان متواجهان ص 189. المربع؟. كوم على الأرض ص 286 وص 290 وص 292 تجارب النار ص 294. الرمي بأغصان حارقة ص 279 وص 289. الختان ص 219

(48). Mary Douglas, The Lele of Kasai, in African Worlds, edited by C. Daryll Forde, Oxford University Press, 1954, pp. 1-26. 129

(49). مكانة الغابة

Prestige of the forest. Ibid., p. 4. 130ff

M. Douglas in African Worlds, p. 4

(50). القنص الجماعي

The communal hunt. Ibid., pp. 15-16. 1 32ff

(51). R. Karsten, Blood Revenge, War and Victory Feasts among the Jibaro Indians of Eastern Ecuador, Washington: Daryll Forde > Oxford University Press 1954

The two conjurations quoted have been slightly abridged.

ودراسة حديثة لـ:

M. W. Stirling, Historical and Ethnographical Material on the Jivaro Indians, Washington, 1938. 135ff

(52). Ruth Benedict, Patterns of Culture, Houghton Mifflin, Boston, 1934, pp. 57-130. 139f

الترجمة الألمانية بعنوان *Urformen der Kultur*، موسوعة 1955 /Ruwohl
104 – 48

(53). استدعاء المطر: الأشكال القديمة للحضارة *Urformen der Kultur* انظر ص53

(54). Dahomey. A. Dalzel, The History of Dahomey, London, 1793. This old but invaluable book also contains the first full description of the "Annual Custom", pp. xx f. Other books on Dahomey are: R. Burton, A Mission to Gelele, King of Dahomey, London, 1864; A. B. Ellis, The Ewe-speaking Peoples of the Slave Coast of West Africa, London, 1890; A. Le Herisse, L'Ancien Royaume du Dahomey, Paris, 1911; M. J. Herskovits, Dahomey, an Ancient West African Kingdom, New York, 1938. 142

(55). الرحالة الإسباني ابن جبير

The Travels of Ibn Jubayr. Trans. R. J. C. Broadhurst, Cape, London, 1952. Mecca's faculty of expansion, p. 174.

(56). نبي الجهاد والحرب

The prophet of fighting and of war. I. Goldziher, Vorlesungen über den Islam, Heidelberg, 1910, pp. 22, 25. 143 "Slay the Idolaters." The Koran, Surah 9, verse 5.

(57). Cybele raving. Lucian, Dialogues of the Gods. VII.

(58). مناحة إيزيس

Lament of Isis. Erman, Religion der Agypter, Berlin, 1909, p. 39. 146ff

(59). إضافة إلى محاضرات جولدتسيهر استعنت في هذا الفصل بالكتب التالية:

Gobineau, Religions et Philosophies dans l'Asie Centrale, new edition, Paris, 1957 ; D. M. Donaldson, The Shiite Religion, Luzac, London, 1933 ; G. E. von Grunebaum, Muhammadan Festivals, Abelard-Schuman, London, 1958; C. Virolleaud, Le Theatre Persan, Paris, 1950. 146f

(60). ابتلاء الحسين

The Sufferings of Husain. Donaldson, op. cit., pp. 79-87. 147f

(61). ابتلاء نسل النبي

The Afflictions of the Family of the Prophet. Goldziher, op. cit., pp. 212-13.

(62). رثاء الحسين

To weep for Husain. goldziehr

انظر صفحة 142 / 213.

(63). قبر الحسين في كربلاء

Husain's grave in Kerbela. Donaldson, op. cit., pp. 88-100.

(64). احتفال الشيعة الكبير

The great festival of the Shiites. Von Grunebaum, op. cit., pp. 85-94.

(65). نوعان من الإخاء

Two kinds of fraternities. Gobineau, op. cit., pp. 334-8.

(66). المسرح مكتظ

"The theatre is brim-full". Gobineau, op. cit., pp. 3 53-6.

(67). "امض وانتقل من النار"

"Go thou and deliver from the flames". Grunebaum, op. cit., p. 94.

(68). اليوم الدامي

The Day of Blood. Titayna, La Caravane des Morts, Paris, 1930 (quoted in P. de Felice, Foules en Dilire, Paris, 1947, pp. 170-1).

(69). A. P. Stanley, Sinai and Palestine, London, 1864, pp. 3 54-8. R.

(70). Curzon, Visits to Monasteries in the Levant, London, 1850, pp. 230-50.

(71). لم أشأ تناول حركات الكتلة (الجماهير) هنا قبل أن يتوصل القارئ إلى استنتاجات معقولة عن السلطة من خلال فصل لاحق من هذا الكتاب. وهكذا يكون محققاً في الاعتراض بأن عنوان "الكتلة والتاريخ" هو عنوان فضفاض. ولقد احتفظت برؤيتي المكتسبة عن "الكتلة والحزمة في حقب تاريخية مبكرة" من أجل دراسة تالية.

(72). مصدر التقرير المبسط عن أحداث الـ"أكسوساس":

G. McCall Theal, History of South Africa from 1795-1872, Vol. III, Allen and Unwin, London, 1927.

وهناك كذلك مقال قصير مفيد للغاية (يصعب العثور عليه) كتبه الإرسالي الألماني

A. Kropf: Die Liigenpropheten des Kaffernlandes (Neue Missionsschriften, 2. Atif/age, Nr. 1 1, Berlin, 1891).

كما ألمحت Katesa Schlosser إلى ذلك في كتابها، - Braun, Propheten in Afrik4, schweig, 1949, pp. 3 5-41 وقد اقتبست الفقرات المهمة عن Kropf. أما الاستعراض الحديث المسهب فقد تضمنه كتاب لمؤلف جنوب إفريقي، ظل مجهولاً في أوروبا: - King Wil, Sparks from the Border Anvil, liams Town, 1950, pp. 1-102. S

(73). الحياة الاجتماعية للقردة

Zuckerman, The Social Life of Monkeys and Apes, Kegan Paul, London, 1932, pp. 57-58.

(74). Zuckerman

ص 268-269، وص -300 304

(75). حياة جنكيز خان

Genghis Khan. B. Vladimirov,

The Life of Chingis Khan, Routledge, London, 1930, p. 168.

(76). حياة قيصر

Caesar. Plutarch, op. cit., p. 230.

(77). وليمة جثث القيصر دوميتيان

The Funeral Banquet of Domitian. Dio Cassius, Roman History, VIII, trans. E. Cary, Loeb Classical Library, Epitome of Book LXVIII, ch. 9, pp. 334-9.

(78). حرب اليهود

Josephus, The Jewish War, III, 8.

(79). "وفي نهاية الأمر بقى يوسيفوس وحيداً مع رفيق له وذلك بفعل صفة مواتيّة أو بفضل نعمة إلهية". وفي النسخة السلافية عن حرب اليهود - التي يرى بعض العلماء أنها تستند إلى مرجع يوناني أقدم - تذكر هذه الواقعة على نحو مختلف وصريح: "وبعد أن قال (يوسيفوس) ذلك قام بعد الأرقام بخبث، وبذا خدع الجميع" وعن هذا السياق انظر:

the appendix on the Slavonic additions to the new English translation by G. A. Williamson (Penguin Classics), p. 403- 242

(80). الاستيلاء على مودكال - Sewell, الإمبراطورية المنسية

(81). محمد طغلق / انظر الفصل اللاحق بعنوان سلطان دلهي

Muhammad Tughlak. See also the later chapter on this ruler. 243

(82). الحاكم بأمر الله، الدروز والمبشرون بهم

Hakim. P. Wolff, Die Drusen und ihre Vorliiufer, Leipzig, 1 845, p. 286. 244f

(83). من أجل اكتساب فكرة موجزة عن تاريخ ملوك المغول انظر:

For a concise account of the Mogul Emperors see V. A. Smith, The Oxford History of India, 1923, pp. 321-468.

(84). تقرير اليسوعيين عن الأمير سالم / المصدر:

The Jesuits on Prince salim. Du Jarric, Akbar and the Jesuits, trans. C. H. Payne, Routledge, London, 1926, p. 182. 245f

(85). Shaka

إن أفضل استعراض معاصر لـ(شاكَا) هو ما قدمه الرحالة الإنجليزي Henry Fran- cis Fynn. ولقد نشرت مذكراته، بعد أكثر من مئة عام من استخدامها، في كتاب: the Diary of Henry Francis Fynn, ed. J. Stuart and D. M. Malcolm, Shuter and Shooter, Pietermaritzburg, 1950

أما السيرة الذاتية القيمة، إضافة إلى كل المصادر المكتوبة والمرتكزة كذلك على الروايات الشفوية فهي:

E. A. Ritter, Shaka Zulu, Longmans Green, London, 1955.

(86). قرن الـ"أرتورين"

The century of the Etruscans. A. Grenier, Les Religions EtTUsque et Romaine, Paris, 1948, p. 26. 251f

(87). الـ(مانا) في جزر الماركيزوز

Mana in the Marquesas. E. S. C. Handy, Polynesian Religion, Honolulu, 1927, p. 31. 252f

(88). قاتل المورنجين

The killer among the Murngin. F. Lloyd Warner, A Black Civilization, Harper and Brothers, New York, 1958, pp. 163-5. This work, first published in 1937, is the most important account there is of an Australian tribe. 254

(89). بطل جزر فيجي

The hero in the Fiji Islands. Lorimer Fison, Tales from Old Fiji, London, 1904, pp. 5 1-53 and p. xx. 255f

(90). الثعبان الرهيب وبطل الـ(أويتوتو)

The hero in the belly of the giant snake. K. T. Preuss, Religion und Mythologie deT Uitoto, Gottingen, 1921, Vol. J, pp. 220-9. 257f

(91). الباقي على قيد الحياة لدى قبائل الـ(تاولييانج)

A survivor among the Taulipang. T. Koch-GrUnberg, Indianermiirchen aus Sudamerika, Jena, 1921, pp. 109-10. 259f

(92). أصل الـ(كوتناي)

The origin of the Kutenai. F. Boas, Kutenai Tales, No. 74, Washington, 1918, The Great Epidemic, pp. 269-70. 260f

(93). الانتحار الجماعي لدى الـ(با-إيلا)

Mass suicide among the Ba-ila. E. W. Smith and A. M. Dale, The Ilaspeaking Peoples of Northern Rhodesia, Macmillan, London, 1920, Vol. I, p. 20. 261

(94). Cabres and Caraibs. A. von Humboldt, Reise in die Aquinoctial-Gegenden des neuen Continents, Stuttgart, 1 861, Vol. V, p. 63. 263f

(95). موت طفل هندي في الـ(ديميرارا)

Death of an Indian child in Demerara. W. E. Roth, An Enquiry into the Animism and Folklore of the Guiana Indians, Washington, 1915, p. 155. 264ff

(96). ثقافة الأجداد لدى الـ(زولو)

The ancestor cult of the Zulus: the dead man and his brother. H. Callaway, The Religious System of the Amazulu, Natal, 1870, pp. 146-59. 269f

(97). وسيط الملك في أوغندا

The King's medium in Uganda. N. K. Chadwick, Poetry and Prophecy, Cambridge, 1942, pp. 36-8. 478 CROWDS AND POWER 27of

(98). ثقافة الأجداد لدى الصينيين

The ancestor cult of the Chinese. M. Granet, La Civilisation Chinoise, Paris, 1929, pp. 300-2 ; Henri Maspero, La Chine Antique, new edition, Paris, 1955, pp. 146-55 ; Jeanne Cuisinier, Sumangat. L'ame et son mIté en Indochine et en Indonesie, Gallimard, Paris, 1951, pp. 74-85. 273

(99). الطاعون في أثينا

The plague in Athens. Thucydides, The Peloponnesian War, trans. Rex Warner, Penguin Classics, pp. 123-7. 283

(100). جنكيز خان الجد الأعلى كان ذئبًا رماديًا مختارًا من السماء

Genghis Khan. His descent from a heavenly wolf is proclaimed at the beginning of The Secret History of the Mongols (A. Haenisch, Die Geheime Geschichte der Mongolen, Leipzig, 1948).

(101). روح قيصر روما تطير كنسر إلى السماء / انظر الاستعراض الرائع لتأليه أحد القياصرة الرومان

The soul of the Roman Emperor as an eagle. There is a wonderful account of the apotheosis of Septimius Severus in Herodian, IV. 2.

(102). خوف المغول من الصواعق

The Mongols' fear of lightning. The Journal of Rubruck in Contemporaries of Marco Polo, edited by M. Komroff, London, 1928, p. 91.

(103). Fulguratores. A. Grenier, op. cit., pp. 1 8-19.

(104). السلطة وأشعة البرق

Power and lightning. F. Kuhn, Altchinesische Staatsweisheit, Zurich, 1954, p. 105. Disappearance of Romulus in a thunder-storm, Livy, I. 16; Tullus Hostilius killed by lightning, ibid., I. 3 I; Romulus Silvius, an earlier king of Alba Longa, killed by lightning, ibid., I. 3. 287

(105). أسئلة الطفل الأولى

Children's questions. O. Jespersen, Language, its Nature, Development and Origin, Allen and Unwin, London, 1949, p. 137. 289

(106). سيدة الظهيرة تسأل حتى الموت

The noon-woman. Wendische Sagen, edited by F. von Sieber, Jena, 1925, p. 17- 290f

(107). رجل الطب لدى الـ(أرانادا)

The medicine-man among the Aranda. Spencer and Gillen, The Amnta, Vol. II, pp. 391-420. 292f

(108). الفيسكونتي الأخير

The last Visconti. Pier Candido Decembrio, German translation by P. Funk, Leben des Filippo Maria Visconti, Jena, 1913, pp. 29-30. 293f

(109). تجربة قورش السرية

Chosroes II tests the discretion of his courtiers. French translation by C. Pellat, Le Livre de la Couronne, attribue a Gahiz, Paris, 1954, pp. U 8-20. 3 1 3f

(110). الوقوف والإفاضة

Wukuf and Ifadha. Gaudefroy-Demombynes, op. cit., pp. 23 5-303. 3 19

(111). عن الإلهات السورية

Lucian, On the Syrian Goddess.

وقام Wieland بترجمته / الجزء الرابع من الأعمال الكاملة / ميونيخ 1911، ص 376 - 377

(112). الإسكوبز أو الحمام البيضاء

The Skoptsy. K. Grass, Die Russischen Sekten, Vol. II, Die Weissen Tauben",. odprSkopzen Leipzig 1914

كما قام جراس بترجمة „كتاب الإسكوبز المقدسة السرية". 1904 - وهناك عمل جديد يحتوى على مادة مفيدة هو:

J. Rapaport's Introduction a la Psychopathologie Collective. La Secte mystique des Skoptzy, Paris, 1948. 321

(113). (113) الحشاشون:

The Assassins. M. G. S. Hodgson's definitive work, The Order of Assassins, Haag 1955.

وهو العمل النقدي الذي تجاوز الأدبيات القديمة عن الحشاشين

(114). العبودية الافتراضية 322 "Suggestion-slavery.

" Krapelin, Psychiatrie, III, p. 723. 323

(115). البعوض المتكلم: كل الاقتباسات مصدرها:

The mosquitoes talking", etc. Ibid., pp. 673-4. 324ff

(116). في تناول مهم نشر هرمان لومل بعنوان "رحلة بريجو في العالم الآخر" (1950) في الجزء الرابع من "بايدوما" نقلاً عن كتاب "شاباتا-براهمنا" وهو ما اقتبس منه. وكان قد جمع هنا كل ما له علاقة بهذه الحالات من الأدب الهندي القديم، وأتم ذلك في عمل لاحق نشر في الجزء الخامس من ال(بايدوما) ووضعه ضمن تصورات شعوب أخرى عن "العالم المقلوب". وإذ عجزت عن متابعة تفسيراته للنصوص الهندية والتوصل فإنني مدين بجزيل الشكر له. ولقد أهملت كل ما ليست له علاقة بهذا السياق.

Hermann Lommel published his paper Bhrigu im]enseitsin Paideuma, Vol. IV (1950), adding a supplement in Vol. V (1952).

(117). W. H. J. Bleek and L. C. Lloyd, Specimens of Bushman Folklore, Geo. Allen, London, 191 I. Bushman Presentiments, pp. 330-9. 343

(118). Loritja Myth. C. Strehlow, Die Aranda- und Loritja-Staemme in Zentral-Australien, Frankfurt, 1910, II, pp. 2-3. See also L. LevyBruhl, La Mythologie Primitive, Paris, 1955.

يتضمن هذا الكتاب الهم كثيراً من عناصر التحول. وهو يقتصر بشكل عام على العالم الأسطوري لدى الأستراليين والـ(بابوا) ويعرض اقتباسات مسهبة من أفضل المراجع عن هذه المنطقة ويترك مساحة لتصور القارئ. ويمكن اعتباره من أقل الأعمال صعوبة للمؤلف: Levy-Bruhl

(119). الأستاذ والتلميذ

The Master and his apprentice. A. Dirr, Kaukasische Miirchen, lena, 1922. 344

(120). Proteus. Odyssey, IV, 440-60. 345f

(121). Hysteria. Krapelin, Psychiatrie, IV, pp. 1 547-1606. E. Bleuler, Lehrbuch der Psychiatrie, pp. 392-401. (English translation by A. A. Brill, Textbook of Psychiatry, London, 1924.) Kretschmer, Uber Hysterie, Leipzig, 1927. 346

(122). الأطباء السحرة

Shamans. Czaplicka, Aboriginal Siberia, Oxford, 1914; Ohlmarks, op. cit. ; M. Eliade, Le Chamanisme, Paris, 1951 ; G. V. Ksenofontov, Schamanengeschichten aus Sibirien, Munich, 1955 ; H. Findeisen, Schamanentum, Stuttgart, 1957. 347f

(123). الهوس والملائخوليا

Mania and melancholia. Krapelin, Psychiatrie, III, Das manisch-depressive Irresein, pp. u83-1395. See also Bleuler, op. cit. 348ff

(124). T. G. H. Strehlow, Aranda Traditions, Melbourne University Press, 1947.

(125). Bandicoot myth. Ibid., pp. 7-10. 3 50f

(126). Lukara myth. Ibid., pp. 1 5-16. 353

(127). "الجد"

"The ancestor represents the sum total.... " Ibid., p. 17. 3 56

(128). "جد اليرقات في مبورينجا"

The ancestor from Mboringka. Ibid., p. 12. 358ff

(129). الهلوسة الارتعاشية

Delirium Tremens. Krapelin, Psychiatrie, II, pp. 132ff. Bleuler, op. cit., pp. 227-8 and 23 3. (English edition, pp. 328-30.) 364E

(130). "المضيف"

The innkeeper. Krapelin, Einfuehrung in die Psychiatrische Klinik, II, Case 43, pp. 157-61. 366f

(131). Schizophrenic patient suffering from an attack of Delirium Tremens. Bleuler, op. cit., pp. 234-5 (English edition, pp. 337-8.) 3 71

(132). الحمار في جلد ثور

The donkey in the lion's skin. l. Hertel, Indische Miirchen, Iena, 1921, pp. 61-2. 401 Liudprand of Cremona.

(133). The Works of Liudprand of Cremona, trans. F. A. Wright, Routledge, London, 1930.

(134). KLASSISCHE PARALYSE: KRAEPLIN, EINFUEHRUNG IN DIE PSYCHIATRISCHE KLINIK, BD. 2, FALL 26., 93-97 ص انظر.

(The story of the Rising Throne is in Antapodosis, VI, 5, pp. 207-8; 480

(135). General Paralysis. Krapelin, Einfuehrung in die Psychiatrische Klinik, II, Case 26, pp. 93-7. 404£ Second case of Paralysis. Ibid., Case 28, pp. 101-2. 411ff

(136). D. Westermann, *Geschichte Afrikas*, Cologne, 1952-a book which draws on a vast quantity of material-was consulted throughout this chapter.

(137). موت ملك الجابون العجوز وانتخاب خليفته

Death of an old king in Gaboon and the election of his successor. P. Du Chaillu, *Explorations and Adventures in Equatorial Africa*, London, 1861, pp. 18-20. 413ff

(138). ملك الجوكون

The King of Jukun. C. K. Meek, *A Sudanese Kingdom*, Kegan Paul, London, 1931, pp. 120-77 and 332-53. 41sf

(139). سمات ملوك أفارقة

Attributes of African kings. Westermann, op. cit., pp. 34-43. 416f

(140). محاكاة الملوك

The imitation of kings. Monomotapa: Westermann, op. cit., pp. 413-14; Ethiopia: Diodorus Siculus, III. 7 and Strabo, XVII. 2 and 3; Darfur: *Travels of an Arab Merchant in Soudan*, London, 1854, p. 78; Uganda, *Boni*, China: J. G. Frazer, *The Dying God*, London, 1913, pp. 39-40. 418

(141). الملك يقرر بنفسه مدة ولايته

The king himself determines the length of his reign. Monteil, *Les Bambara du Segou*, Paris, 1924, p. 305.

(142). انتخاب وإهانة الملك لدى الـ(يوروبا)

Beating of the prospective king among the Yoruba. Westermann, *ibid.*, p. 40 ; in *Sierra Leone*: *ibid.*, p. 41. 419

(143). الفوضى بعد وفاة الملك

Lawlessness after the death of a king. Among the Mosi of Wagadugu: Westermann, op. cit., p. 18S; in Ashanti: *ibid.*, p. 222 ; in Uganda: J. Roscoe, *The Baganda*, London, 1911, pp. 103-4.

(144). نشأت دول هيمما بعد الاستيلاء على المنطقة فيما يعرف اليوم بأوغندا وفي الجنوب منها، وكان حكام محاربون من أصل حامى، ويسمون أيضًا هيمما، قد هاجروا من الشمال وأخضعوا المواطنين الزوج المزارعين واستعبدوهم. ويعد تاريخ ممالكهم من أهم أحداث إفريقيا. وقد تميزت هذه الممالك بالفصل الحاد بين الطبقات فيما بين السادة والموالي.

The Hima states originated through the gradual conquest of what is now Uganda and the territory south of it. Warlike pastoralists of Hamitic origin, called Hima, migrated into the country from the north and made the native Bantu agriculturalists their serfs. These Hima kingdoms are among the most interesting in Africa. They are distinguished by a sharp caste-division between masters and serfs.

(145). الخلافة في أنكوله

Succession in Ankole. K. Oberg, The Kingdom of Ankole in Uganda, in African Political Systems, edited by M. Fortes and E. E. Evans-Pritchard, Oxford University Press 1954, p.121- 162.

والمقطع عن الخلافة ص 157 - 161 ، والكتاب الأقدم لـ Roscoe: The Ban-yankole, Cambridge, 1923. وهو اقل انتشارًا إلا أنه جدير بالقراءة. وعن رواندا دولة هيمما الجنوبية يتوافر عمل جديد متميز:

Maquet, The Kingdom of Ruanda, in African Worlds, pp. 1-26. 420£

(146). الأمير الشاب ضحية تتويج ملك كيتارا

Sacrifice of a young prince in Kitara. Roscoe, The Bakitara, Cambridge, 1923, pp. 129-30. 421

(147). قوس ملك كيتارا

The royal bow of Kitara. Ibid., pp. 133-4. "I shoot the nations". Ibid., p. 134. (إني اقتل الأمم)

(148). أوغندا، الطبول

Uganda: drums. Roscoe, The Baganda, London, 19II, p. 188. 422

(149). "سوف أعيش عمراً أطول من عمر أجدادي"

"I am the king to live longer than my ancestors". Ibid., p. 194. Two passers-by seized. Ibid., p. 197. Scapegoat and overseer. Ibid., p. 200.

(150). الضحية المزدوجة أحدهما يتم إعدامه والآخر يتم العفو عنه

Presentation of victims in pairs. Ibid., p. 210. 423

(151). "أنت الآن أتا"

"You are now Ata". Westermann, op. cit., p. 39.

(152). ملك أوغندا - كالأسد - يأكل وحده

"The Lion eats alone". Roscoe, The Baganda, p. 207.

(153). الطباخ يطعم ملك كيتارا

The king of Kitara fed by his cook. Roscoe, The Bakitara, p. 103.

(154). Summary justice. Roscoe, ibid., pp. 61, 63. 424ff Ibn Batuta.

(155). رحلات ابن بطوطة في الهند والصين

Travels in Asia and Africa, 1325-1354, translated and selected by H. A. R. Gibb, Routledge, London, 1929, ch. VI, pp. 183-213.

(156). قصة زين الدين براني منشورة كاملة بالجزء الثالث من

The History of India as told by its own Historians, H. M. Elliot and J. Dowson, 1867-1877. It has also been published separately as Later Kings of Delhi, by S. Gupta, Calcutta. The account of Muhammad Tughlak's reign is on pp. 159-192. 434

(157). اعتبر المؤرخ الهندي أشواری برازاد نفسه مدافعًا عصريًا عن السلطان:

A modern defender of the Sultan is the Indian historian Ishwari Prasad (L'Inde d'Il Vile au XVIe siecle, in the series Histoire du Monde, Paris, 1930, pp. 270-300). He calls him an "unfortunate idealist", "without doubt the most able man of the Middle Ages". 434ff

(158). Denkwuerdigkeiten eines Nervenkranken: Daniel Paul Schreber, Leipzig, I 903.

المراجع

قد لا يمكننى وضع قائمة وافية بالأعمال التى كان لها أثر على مؤلفى هذا، إلا أن اختيارات هذه القائمة خضعت لثلاثة مبادئ، هى: ذكر كل الأعمال التى أقتبس منها، وذكر الأعمال التى كان لها تأثير حاسم على فكرى ومن دونها لم يكن يتيسر لى التوصل إلى استنتاجات بعينها، والأمر يدور هنا فى الأغلب حول مصادر شديدة التنوع، وهى مصادر تحتوى على وثائق أصلية متنوعة للغاية تدور حول الأسطورة والدين والتاريخ والأنثروبولوجيا، والسيرة الذاتية والطب النفسى. ومنها كذلك مختلف الكتب التى تنتمى إلى المجموعة الأولى. وأخيرا كان هناك بعض الأعمال الحديثة التى تعطى فكرة طيبة عن حضارات غير معروفة، وهى أعمال قد تفيد قرائى كما استفدت أنا منها.

- Albert von Aachen. Geschichte des ersten Kreuzzugs. Übersetzt von H. Hefele. Iena, 1923.
- Ammianus Marcellinus. 3 vols. Loeb Classical Library. London, 1950. Appian. Roman History. 4 vols. Loeb Classical Library. London, 1933.
- Arabshah, Ahmed Ibn. Tamerlane, translated by Sanders. London, 1936.
- Baumann, H., Thumwald, R., and Westermann, D. Volkerkunde von Afrika. Essen, 1940.
- Benedict, Ruth. Patterns of Culture. Boston, 1934. Bernier, r. Travels in the Moghul Empire 1656-1668. London, 1914.
- Bezold, F. v. Zur Geschichte des Hussitentums. Munich, 1874. Bland, J. O. P., and Backhouse, E. China under the Empress Dowager. Boston, 1914.

- Bleek, W. H. J., and Lloyd, L. C. Bushman Folklore. London, 1911.
- Bleuler, E. Lehrbuch der Psychiatrie. Reprint, Berlin, 1930. (Textbook of Psychiatry. Translated by A. A. Brill. London, 1924.)
- Boas, F. Kutenai Tales. Washington, 1918. Bouvat, L. L'Empire Mongol (zeme phase). Paris, 1927.
- Brandt, O. H. Die Limburger Chronik. Iena, 1922. -- Der grosse Bauernkrieg. Iena, 1925.
- Browne, E. G. A Literary History of Persia. Vols. I-IV. Cambridge, 1951.
- Brunel, R. Essai sur la Confrérie Religieuse des Aïssoua au Maroc. Paris, 1926.
- Bryant, A. Olden Times in Zululand and Natal. London, 1929. Bücher, K. Arbeit und Rhythmus. Leipzig, 1909.
- Bühler, G. The Laws of Manu. Oxford, 1886.
- Burckhardt, Jacob. Griechische Kulturgeschichte, Vols. I-IV. -- The Civilization of the Renaissance in Italy. -- The Age of Constantine the Great. -- Reflections on History.
- Burton, A. W. Sparks from the Border Anvil. King William's Town, 1950.
- Burton, Richard. A Mission to Gelele, King of Dahomey. London, 1864. Bury, J. B. History of the Later Roman Empire. 2 vols. New edition. New York, 1958.
- Cabeza de Vaca. Naufragios Y Comentarios. Buenos Aires, 1945.
- Caesarius of Heisterbach. The Dialogue on Miracles. 2 vols. London, 1929.

- Callaway, H. The Religious System of the Amazulu. Natal, 1870.
- Calmeil, L. F. De la Folie. 2 vols. Paris, 1 845. Carcopino, J. Daily Life in Ancient Rome. London, 1941.
- Cartwright, Peter. The Backwoods Preacher. An Autobiography. London, 1858.
- Casalis, E. Les Bassoutos. Paris, 1 860.
- Catlin, George. The North American Indians. London, 1 841 ; reprint, Edinburgh, 1926.
- Chadwick, N. K. Poetry and Prophecy. Cambridge, 1942.
- Chantepie de la Saussaye. Lehrbuch der Religionsgeschichte.
- 4th ed. Tiibingen, 1925. Chamberlain, B. H. Things Japanese. London, 1902.
- Cieza de Leon, Pedro de. The Incas. Translated by Harriet de Onis. Oklahoma, 1959.
- Codrington, R. H. The Melanesians. Oxford, 1 891.
- Cohn, Norman. The Pursuit of the Millennium. London, 1957.
- Commynes, P. de. Memoires. Vols. I-III. Paris, 1925.
- Contenau, G. La Divination chez les Assyriens et les Babylonien. Paris, 1940.
- Gonstantin VII. Porphyrogenete, Le Livre des Ceremonies. Traduit par A. Vogt. Vols. I et II. Paris, 193 5-9.
- Cortes, Hernando. Five Letters 1519 to 1526. Translated by Morris. London, 1928.
- Coxwell C F. Siberian and Other Folk – Tales. London 1925
- Crooke, W. Things Indian. London, 19Q6.

- Cuisinier, Jeanne. Sumangat. CAME et son Culte en Indochine et Indonesie. Paris, 1951.
- Cunha, Euclides da. Rebellion in the Backlands. Translated by Putnam. Chicago, 1944.
- Cumont, Franz. The Mysteries of Mithra. Reprinted, New York, 1956.
--Oriental Religions in Roman Paganism. Reprinted, New York, 1956.
- Curzon, Robert. Visits to Monasteries in the Levant. London, 1850.
- Czaplicka, M. A. Aboriginal Siberia. Oxford, 1914.
- Dalzel, A. The History of Dahomey. London, 1793.
- Darmesteter, J. The Zend-Avesta. Part II. Oxford, 1883. Davenport, F. N. Primitive Traits in Religious Revivals. New York, 1905.
- R. Moeurs et Coutumes des Malgaches. Paris, 1951.
- Decembrio, Pier Candido. Leben des Filippo Maria Visconti. Übersetzt von Funk. Jena, 1913.
- Depont, O., et Coppolani, X. Les Confréries Religieuses Musulmanes. Alger, 1897.
- Dhorme, E. Les Religions de Babylonie et d'Assyrie. Paris, 1945.
- Diaz del Castillo, Bernal. The Discovery and Conquest of Mexico. Translated by A. P. Maudsley. Reprinted, New York, 1956.
- Dio Cassius. Roman History. Loeb Classical Library. 9 vols. London, 1955.
- Dirr, A. Kaukasische Marchen. Jena, 1922.
- Donaldson, D. M. The Shiite Religion. London, 1933.
- Dornan, S. S. Pygmies and Bushmen of the Kalahari. London, 1925.
- Douglas, Mary. The Lele of Kasai, in African Worlds. Edited by C.

Daryll Forde. Oxford, 1954.

- Dubois, Abbe. Hindu Manners, Customs and Ceremonies. Oxford, 1906.
- Du Chaillu, P. B. Explorations and Adventures in Equatorial Africa. London, 1 861.
- Du Jarric. Akbar and the Jesuits. Translated by Payne. London, 1926.
- Dumezil, Georges. Mitra-Varuna. Paris, 1948. --Mythes et Dieux des Germains. Paris, 1939.
- Dupeyrat, Andre. Jours de Fete chez Ies Papous. Paris, 1954.
- Eisler, R. Man into Wolf. London, 195 1. Eliade, M. Le Chamanisme. Paris, 195 1. -- Traite d'Histoire des Religions. Paris, 1953.
- Elkin, A. P. Studies in Australian Totemism. Oceania Monographs No. 2. Sydney, 1933. -- The Australian Aborigines. Sydney, 1943.
- Elliot H. M., and Dowson, J. The History of India as told by its own Historians. 8 vols. London, 1 867-77.
- Ellis, A. B. The Ewe-speaking Peoples of the Slave Coast of West Africa. London, 1 890•
- Erman, A. Agypten und agyptisches Leben im Altertum. Tiibingen, 1 885. --Die agyptische Religion. Berlin, 1909. --Die Literatur der Agypter. Leipzig, 1923. Translated into English by A. M. Blackman, The Literature of the Ancient Egyptians. London, 1927. Evans-Pritchard, E. E. Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande. Oxford, 1937.
- Felice, Philippe de. Foules en Delire. Extases Collectives. Paris, 1947.
- Findeisen, H. Schamanentum. Stuttgart, 1957.
- Fison, Lorimer. Tales from Old Fiji. London, 1904.

- Florenz, Karl. Geschichte der japanischen Literatur. Leipzig, 1909.
- Forde, C. Daryll. Habitat, Economy and Society. London, 1950.
--Editor: African Worlds. London, 1954.
- Fortes, M., and Evans-Pritchard, E. E. African Political Systems. Oxford, 1940.
- Fortune, R. G. Sorcerers of Dobu. London, 1932.
- Fox, George. The Journal. Cambridge, 1952.
- Franke, O. Studien zur Geschichte der konfuzianischen Dogmas lind der chinesischrn Staatsreligion. Hamburg, 1920. --Geschichte des chinesischen Reiches. 5 vols. Berlin, 1930-52.
- Frankfort, Henri. Kingship and the Gods. Chicago, 1948.
- Frazer, J. G. The Golden Bough. Vols. I-XI. London, 1913 ff. -- The Fear of the Dead in Primitive Religion. Vols. I-III. London, 193 3-6. -- The Belief in Immortality and the Worship of the Dead. Vols. I-III. London, 1913-24. Friedlander, L. Darstellungen aus der Sittengeschichte Roms. Vols. I-IV. Leipzig, 1922.
- Frobenius, Leo. Atlantis, Volksmiirchen und Volksdichtungen Afrikas. Vois. I-XII. Iena, 1921-8. --Kulturgeschichte Afrikas. Vienna, 1 933.
- Fung Yu-Lan. A History of Chinese Philosophy. Vols. I-II. Princeton, 1952-3.
- Fynn. The Diary of Henry Francis Fynn. Pietermaritzburg, 1950.
- Garcilasso de la Vega, Comentarios Reales. Buenos Aires, 1942.
- Gaudefroy-Demombynes, M. Le Nlerinage a la Mekke. Paris, 1923.
--Les Institutions Musulmanes. Paris, 1921.
- Gesell, A. Wolf Child and Human Child. London, 1 941.

- Gobineau, Religions et Philosophies dans l'Asie Centrale. 1865. New edition. Paris, 1957.
- Goeje, M. J. de. Memoire sur les Chirmathes du Bahrein. Leiden, 1886.
- Goldenweiser, A. Anthropology. New York, 1946. Goldziher, J. Vorlesungen uber den Islam. Heidelberg, 1910.
- Gorion, M. J. bin. Die Sagen der Juden: I Von der Urzeit. Frankfurt, 1919.
- Granet, M. La Civilisation Chinoise. Paris, 1929. --La Pensee Chinoise. Paris, 1934.
- Grass, K. Die TUssischen Sekten. 2 vols. Leipzig, 1907 and 1914. -- Die geheime heilige Schrift der Skopzen. Leipzig, 1904. Gregory of Tours. History of the Franks. Translated by o. M. Dalton, 2 vols. Oxford, 1927.
- Grenier, A. Les Religions Etrusque et Romaine P:1“;
- Grass, K. Die TUssischen Sekten. 2 vols. Leipzig, 1907 and 1914. –
- Die geheime heilige Schrift der Skopzen. Leipzig, 1904.
- Gregory of Tours. History of the Franks. Translated by o. M. Dalton, 2 vols. Oxford, 1927. Grenier, A. Les Religions Etrusque et Romaine P:1“;
- Grube, W. Religion und Kultus der Chinesen. Leipzig, 1910.
- Grunebaum, G. E. vou. Muhammadan Festivals. London, 1958.
- Guillaume, A. The Life of Muhammad. A translation of Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah. Oxford, 1955.
- Guyard, S. Un Grand Maître des Assassins au temps de Saladin. Paris, 1877.

- Haenisch, Erich. Die Geheime Geschichte der Mongolen. Leipzig, 1948.
- Hambly, W. D. Tribal Dancing and Social Development. London, 1946. Handy, E. S. C. Polynesian Religion. Honolulu, 1927. Harris, Sarah. The Incredible Father Divine. Londou, 1954.
- Hecker, J. C. F. The Epidemics of the Middle Ages. London, 1 859.
- Hepding, Hugo. Attis, seine My then und sein Kult. Giefesen, 1903.
- Herodian. History oj the Roman Empire. Translated by E. C. Echols. Cambridge, 1961.
- Herodotus. The Histories. Translated by Aubrey de Selincourt. Penguin Classics, 1954.
- Herskovits, M. J. Dahomey, an Ancient West African Kingdom. 2 voIs. New York, 193 8.
- Hertel, J. Indische Miirchen. Jena, 1921.
- Histoire Anonyme de la Premiere Croisade. Traduite par L. Brehier. Paris, 1924.
- Historiae Augustae Scriptores. 3 vols. Loeb Classical Library. London, 1930.
- Hitti, P. K. History of the Arabs. London, 195 1.
- Hodgson, M. G. S. The Order oJ'Assassins. The Hague, 1955.
- HOfler, O. Kultische Geheimbiinde der Germanen. Frankfurt, 1939.
- Hofmayr, W. Die Schilluk. Modling, 1925.
- Huizinga, J. The Waning oj the Middle Ages. Penguin, 1955. --Homo Ludens. London, 1949.
- Humboldt, A von. Reise in die Aquinoctial-Gegenden des neuen

Continents. Stuttgart, 1 861.

- Hutton, J. H. Caste in India. Cambridge, 1946.
- Ibn Batuta. Travels in Asia and Africa, 1325-1354. Translated and selected by Gibb. London, 1939.
- Ibn Ishaq. The Lifo of Muhammad. Translated by G. Guillaume. Oxford, 1955.
- Ibn Jubayr. The Travels. Translated by Broadhurst. London, 1952.
- !deler, K. W. Versuch einer Theorie des religiösen Wahnsinns. Halle, 1 848.
- James, William. The Varieties oj Religious Experience. London, 1911.
- Jeanmaire, H. Dionysos. Histoire du Culte de Bacchus. Paris, 195 1.
- Jeanne des Anges, Soeur. Autobiographie d'une Hystfrique Possidee. Paris, 1 886.
- Jensen, A. E. Hainuwele. Volkserzihlungen von der Molukken-Insel Ceram. Frankfurt, 1939. --My thus und Kult bei Naturvölkern. Wiesbaden, 195 1.
- Jespersen, O. Language, its Nature, Development and Origin. London, 1949.
- Jezower, J. Das Buch der Triiume. Berlin, 1928.
- Josephus. The Jewish War. Translated by G. A. Williamson. Penguin Classics. London, 1959.
- Joset, P. E. Les Societes Secretes des HommesUopards en Afrique Noire. Paris, 195 5.
- Junod, H. A. The Lifo of a South African Tribe. 2 vols. London, 1927.
- Juvaini. The History of the World Conqueror. Translated from the

- Persian by J. A. Boyle. 2 vols. Manchester, 1958. Kalevala. The Land of the Heroes. Translated by W. F. Kirby. 2 vols. Everyman. 1956.
- Karsten, R. Blood Revenge, War, and Victory Feasts among the Jibaro Indians of Eastern Ecuador. Washington, 1922. Kautilya. Arthashastra. Translated by R. Shamasastri. Mysore, 1929.
 - Koch-Grunberg, T. Vom Roroima zum Orinoco. Vols. I-V. Stuttgart, 1917-28. --Zwei Jahre unter den Indianern Nordwest-Brasiiliens. Stuttgart, 1923. --Indianermarchen aus Sudamerika. Jena, 1921.
 - Komroff, M. Contemporaries of Marco Polo. London, 1928.
 - Krapelin, E. Psychiatrie. 8th ed. Vols. I-IV. Leipzig, 1910-15. --Einführung in die psychiatrische Klinik. Vols. II-III. Leipzig, 1921. Kremer, A. V. Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. 2 vols. Vienna, 1875.
 - Kretschmer, E. Ober Hysterie. Leipzig, 1927. --Der sensitive Beziehungswahn. Berlin, 1918.
 - Krickeberg, W. Indianermarchen aus Nordamerika. Jena, 1924. --Marchen der Azteken und Inkaperuaner, Maya und Muisca. Jena, 1928.
 - Kropf, A. Das Volk der Xosa-Kaffern. Berlin, 1889. -- Die Lügenpropheten des Kaffernlandes. Neue Missionsschriften. 2nd ed. No. II. Berlin, 1891.
 - Kuhn, F. Altchinesische Staatsweisheit. Zurich, 1954. Landa, Fr. D. de. Relacion de las cosas de Yucatan. Paris, 1864.
 - Landauer, Gustav. Briefe aus der Französischen Revolution. 2 vols. Frankfurt, 1919.
 - Landtman, G. The Origins of the Inequality of the Social Classes.

London, 1938.

- Lane, E. W. Manners and Customs of the Modern Egyptians. London, 1895.
- Lane-Poole, S. A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
- O'Leary, De Lacy. A Short History of the Fatimid Khalifate. London, 1923.
- Leenhardt, M. Gens de la Grande Terre.-Nouvelle Calédonie, Paris, 1937.
- Lefebvre, G. La Grande Peur de 1789. Paris, 1932. --La Revolution Française. Paris, 1957. --Etudes sur la Revolution Française. Paris, 1954.
- Legge, J. The Sacred Books of China. Part I: The Shu-King. Oxford, 1899.
- Le Herisse, A. L'Ancien Royaume du Dahomey. Paris, 1911.
- Leiris, Michel. La Possession et ses Aspects Matériaux chez les Ethiopiens de Gondar. Paris, 1958.
- Lery, Jean de. Le voyage au Brésil 1556-1558. Paris, 1927.
- Levy-Bruhl, I. L'Âme Primitive. Paris, 1927. --La Mythologie Primitive, Paris, 1935.
- Lewis, B. The Origins of Islamism. Cambridge, 1940.
- Lindner, K. Die Jagd der Vorzeit. Berlin, 1937.
- Liudprand of Cremona. The Works of. Translated by F. A. Wright. London, 1930.
- Livy. The Early History of Rome. Translated by A. de Selincourt. Penguin Classics. 1960.
- Lomer, K. Die Wiedertaucher in Münster. Jena, 1923. Lommel, H. Bhargu

- im Jenseits. Paideuma 4. Bamberg, 1950. Paideuma 5. Bamberg, 1952.
- Lot-Falck, E. Les Rites de Chasse chez les Peuples Siblriens. Paris, 1953.
 - Lowie, R. H. Primitive Society. London, 1920. --Primitive Religion. London, 1924. Lucian. Works. 8 vols. Loeb Classical Library.
 - Ludwig II. von Bayern. Tagebuch-Aufzeichnungen. Liechtenstein, 1925.
 - Macdonnell, A. A. Hymns from the Rigveda. The Heritage of India Series. Calcutta.
 - Machiavelli, Niccolo. Gesamelte schriften. 5 bde. Muenchen 1915
 - Macdonell, A, A. hymns from the Rigveda. The Hetitage of India Series. Calkutta
 - Malinowski, B. Magic, Science and Religion. New York, 1955. Maquet, J.]. The Kingdom of Ruanda, in African Worlds. Edited by Daryll Forde. London, 1954.
 - Marco Polo. The Travels oj. London, 1939. Mason,]. A. The Ancient Civilisations of Peru. London, 1957. Maspero, Georges. Au Temps de Ramses et d'Assourbanipal. Paris, 1927.
 - Maspero, Henri. La Chine Antique. Paris, 1955. --Les Religions Chinoises. Paris, 1950.
 - Mas'udi. Les Prairies d'Or. Texte et traduction par Barbier de Meynard et Pavet de Courteille. 9 vols. Paris, 1 861-77. Mathieu, P. F. Histoire des Miracuies et Convulsionnaires de Saint-Medard. Paris, 1 864. Mathiez, A. La Revolution Franfaise. Vols. I-III. Paris, 1922-7. Meek, C. K. A Sudanese Kingdom. London, 193 I. Misson, Maximilien. Le Theatre Sacre des Cevennes. London, 1707. Mooney,]. The Ghost-Dance Religion. Washington, 1 896.

- Morley, S. G. The Ancient Maya. Stanford, 1946.
- Nadel, S. F. A Black Byzantium. The Kingdom of Nupe in Nigeria. London, 1946.
- Nihongi, Chronicles of Japan. Translated by W. G. Aston. London, 1956.
- Nizam AI-Mulk. The Book of Government, or Rules for Kings. Translated from the Persian by H. Drake. London, 1960.
- Oberg, K. The Kingdom of Ankole in Uganda, in African Political Systems, edited by Fortes and Evans-Pritchard. Oxford, 1940.
- Ohlmarks, A. Studien zum Problem des Schamanismus. Lund, 1939.
- D'Ohsson, C. Histoire des Mongols. 4 vols. The Hague, 1834-5.
- Oldenberg, H. Die Religion des Veda. Stuttgart, 1917.
- Olmstead, A. T. History of the Persian Empire. Chicago, 1948.
- Pailottino, M. The Etruscans. London, 1955.
- Pan-Ku. The History of the Former Han Dynasty. Translated by Homer H. Dubs. Vols. I-III. 193 8-55. Paris, Matthew. Chronicles. 5 vols. London, 1851.
- Pellat, C. Le Livre de la Couronne, attribue a Gahiz. Paris, 1954.
- Pelliot, P. Histoire Secrete des Mongols. Paris, 1949.
- Plutarch. The Parallel Lives. II vols. Loeb Classical Library. --Fall of the Roman Republic. Six Lives. Translated by Rex Warner. Penguin Classics, 1958.
- Polack, J. S. New Zealand, A Narrative of Travels and Adventure. 2 vols. London, 1838.
- Schreber, Daniel Paul. Denkwurdigkeiten eines Nervenkranken. Leipzig, 1903. --Memoirs of My Nervous Illness. Translated and edited, with Introduction, Notes and Discussion, by Ida Macalpine and Richard A. Hunter. London, 1955.

- Seligman, C. G., and B. C. The Veddas. Cambridge, 191 1.
- Senart, E. Caste in India. Translated by E. Denison Ross. London, 1930.
- Sewell. A Forgotten Empire (Vijayanagar). London, 1900.
- Shapera, J. The Khoisan Peoples of South Africa. London, 1930.
--Editor: The Bantu-Speaking Tribes of South Africa. London, 1937.
- Sighele, S. La Poule Criminelle. Paris, 1901. Singh, T. A. L., and Zingg, R. M. Wolf Children and Feral Man. Denver, 1943.
- Sjoestedt, M. L. Gods and Heroes of the Celts. Translated by Myles Dillon. London, 1 949.
- Smith, V. A. The Oxford History of India. Oxford, 1923.
- Smith, E. W., and Dale, A. M. The Ila-Speaking Peoples of Northern Rhodesia. 2 vols. London, 1920. Spencer, B., and Gillen, F. J. The Arunta. London, 1927. -- The Northern Tribes of Central Australia. London, 1904.
- Sprenger, Jacob. Malleus Maleficarum. English Translation by Montague Summers. London, 1928.
- Stahlin, K. Der Briefwechsel Iwans des Schrecklichen mit dem Fursten Kurbsky (1564-1579). Leipzig, 1921.
- Stanley, A. P. Sinai and Palestine. London, 1 864.
- Steinen, K. von den. Unter den Naturviilkem Zentral-Brasiliens. Berlin, 1 894.
- Stirling, M. W. Historical and Ethnographical Material on the Jivaro Indians. Washington, 193 8.
- Stoll, O. Suggestion and Hypnotismus in der Vijlkerpsychologie.

Leipzig, 1904.

- Strehlow, C. Die Aranda- und Loritja-Stämme in Zentral-Australien. Vols. I-III. Frankfurt, 1908-10.
- Strehlow, T. G. H. Aranda Traditions. Melbourne, 1947.
- Suetonius. The Twelve Caesars. Translated by Robert Graves. Penguin Classics. 1957.
- Tabari. ChTonique de Tabari, traduit par H. Zotenberg. 4 vols. Paris, 1867-79.
- Tacitus. The Annals of Imperial Rome. Translated by Michael Grant. Penguin Classics. 1956.
- Talbot, P. A. In the Shadow of the Bush. London, 1912.
- Tavernier, J. B. Travels in India. 2 vols. London, 1905.
- Te Rangi Hiroa (Peter H. Buck). The Coming of the Maori. Wellington, 1952.
- Tertullian. De Spectaculis. Loeb Classical Library. London, 1931.
- Titayna. La Caravane des MOTtS. Paris, 1930. Theal, G. McCall. History of South Africa from 1795-1872. Vol. III. London, 1927.
- Thucydides. History of the Peloponnesian War. Translated by Rex Warner. Penguin Classics. 1954.
- Thurnwald, R. Repräsentative Lebensbilder von Naturvölkern. Berlin, 1931.
- Tremearne, A. J. N. The Ban of the Bori. London, 1914.
- Trilles, R. P. Les Pygmies de la Forêt Equatoriale. Paris, 1931.
- Trotter, W. The Instincts of the Herd in Peace and War. London, 1919.
- Turi, Johan. The Book of the Lapp. London, 1931.

- Turner, G. Samoa. London, 1884. Tylor, E. B. Primitive Culture. London, 1924.
- Ungnad, A. Die Religionen der Babylonier und Assyrier. Jena, 1921.
- Vaillant, G. C. The Aztecs of Mexico. London, 1950.
- Vedder, H. Die Bergdama. 2 vols. Hamburg, 1923.
- Vendryes, J., Tonnelat, E., and Unbegaun, B. O. Les Religions des Celtes, des Germains et des Anciens Slaves. Paris, 1948.
- Virolleaud, C. Le Theatre Persan ou le Drame de Kermoussa. Paris, 1950.
- Volhardt, E. Kannibalismus. Stuttgart, 1939.
- Waley, Arthur. The Travels of an Alchemist. London, 1931. -- The Book of Songs. London, 1937. -- The Analects of Confucius. London, 1938. -- Three Ways of Thought in Ancient China. London, 1939. -- The Real Tripitaka. London, 1952. Waliszewski, K. Ivan the Terrible. Paris, 1904. -- Peter the Great. London, 1898.
- Warneck, J. Die Religion der Batak. Göttingen, 1909.
- Warner, F. L. A Black Civilization. New York, 1958.
- Weeks, J. H. Among Congo Cannibals. London, 1913.
- Weil, Gustav. Geschichte der Chaldeer. Vols. I-III. Mannheim, 1846-51. Wendische Sagen, herausgegeben von F. Sieber. Jena, 1925. Wesley, John. The Journal. London, 1836.
- Westermann, D. The Shilluk People. Berlin, 1912 - die Kapelle. Göttingen 1921 - Geschichte Afrikas. Cologne, 1952.
- Westermarck, Ritual and relief in Morocco 2 vols. London 1926
- Wilhelm, Richard. Li Gi. Das Buch der Sitte. 1958. -- Mong Dsi. Jena, 1921. -- Frühling und Herbst des La Bu We. Jena, 1928.

- Williams, F. E. Orokaiva Magic. London, 1928. -- The Vailala Madness and the Destruction of Ceremonies. Port Moresby, 1923 . -- The Vailala Madness in Retrospect, in: Essays Presented to C. G. Seligman. London, 1934. Winternitz, M. Geschichte der Indischen Literatur. 3 vols. Leipzig, 1909-22.
- Wirz, Paul. Die Marind-anim von Holländisch-Süd-Neu-Guinea. Vols. I and II. Hamburg, 1922 and 1925. Wladimirzov, B. The Life of Chingis-Khan. London, 1930.
- Wolff, O. Geschichte der Mongolen oder Tataren, besonders ihres Vordringens nach Europa. Breslau, 1872.
- Wolff, P. Die Drusen und ihre Vorläufer. Leipzig, 1845.
- Worsley, P. The Trumpet Shall Sound: A Study of „Cargo“ Cults in Melanesia. London, 1957.
- Zuckerman, S. The Social Life of Monkeys and Apes. London, 1932.

نبذة عن المؤلف

نبذة عن المترجم

إلياس كانتى (1905 - 1994)

محمد أبورحمة

مفكر وروائى وكاتب مسرحى، ولد بمدينة روستشوك الواقعة حاليًا بجمهورية بلغاريا، وتوفي في زيورخ، إلا أن أصوله ترجع إلى أسرة إسبانية تعتنق اليهودية. وقد استقر به المقام بمدينة فرانكفورت حيث أتم دراسته بالمرحلة الثانوية، لينتقل بعدها إلى النمسا ليدرس الكيمياء بجامعة فيينا فيما بين عامى 1924 و1929 ويحصل على درجة الدكتوراه عام 1929. وفي عام 1934 يتزوج ويرحل مع زوجته إلى لندن ليستقرا هناك. ثم هاجر إلى زيورخ عام 1938 وظل بها إلى نهاية الثمانينات، وقد ظهرت أولى رواياته بعنوان "الإعدام حرقًا" عام 1935 وتلتها مسرحيات "العرس" و"كوميديا الأباطيل" و"المستفيدون من التأجيل". ثم نشرت روايته "أصوات مراكش" عام 1968، أما دراسته المهمة "الجماهير والسلطة" فقد صدرت عام 1960. ومن أعماله: رواية "غشاوة الأبصار" (1935/1936)، وكتابات فلسفية (1960) كما كتب سيرته الذاتية في ثلاثة أجزاء. وقد حصل كانتى على عدة جوائز توجهها بحصوله على جائزة نوبل عام 1981.

حاصل على الإجازة الأكاديمية للترجمة وماجستير الترجمة الفورية من جامعة كارل فرانتس بالنمسا. صدرت له من أعمال الترجمة: "أسرار وراء الحجاب"، "أثرياء الشرق وقوة العرب الاقتصادية"، "سطوع نجم الشيعة"، "ضمير الرجال"، "حياتى فى مصر"، "اسمعى يا إسرائيل" (إريش فريد)، "الحب والجنس فى مصر القديمة" (ليز مانيكه) "المحاكمة والمسح" (فرانتس كافكا)، "آل بودنبروك" (توماس مان).

كما صدرت له أعمال مؤلفة، منها: "هارون الرشيد"، "الأمثال الشعبية: صور من الحياة اليومية فى مصر القديمة". "الأساطير المصرية"، "الإسلام والدين المصرى: دراسة مقارنة بين الدين المصرى القديم والأديان السماوية"، "السحر عند المصريين القدماء"، "فتنة الخلافة: تاريخ الصراع على السلطة".

المراجع فى سطور

د. عبدالحميد محمد مرزوق

من مواليد القاهرة عام 1957، مدرس الأدب والترجمة بقسم اللغة الألمانية -كلية الألسن/ جامعة عين شمس.

- له ترجمات تعريفية إلى اللغة الألمانية عن التراث العربى القديم، منها: "كتاب الصناعتين" لأبى هلال العسكرى، وكتاب "شرح نهج البلاغة" لابن أبى الحديد، وكتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه، وكتاب "الزيج الصابئ" للبتانى، و"شروح ابن رشد لأرسطو - ما بعد الطبيعة"، و"رحلة ابن بطوطة" - معرض فرانكفورت/ ماين 2004.

ترجم:

- كتاب هايكو فلوتاو "الشرق الأوسط والنظام العالمى الجديد - من النيل إلى تورا بورا"، مراجعة د. محمد سليمان، صدر فى دار نهضة مصر عام 2006.
- الكتاب التذكارى للمتحف المصرى بالقاهرة وبرلين عن مؤسس علم المصريات بالمانيا - ليبسيوس، وصدر فيهما عام 2007 تحت عنوان "ليبسيوس - البعثة الاستكشافية الألمانية على أرض النيل".
- مقال المستشرق الألمانى فولفديتريش فيشر "فى نشأة التدوين وضبط كتابة اللغة العربية" عام 2008 والمنشور فى الكتاب التذكارى "فى اللغة والأدب والحضارة" تكريماً للأستاذ الدكتور عونى عبدالرءوف.
- كتاب "مواطن الاقتصاد - مواطن الدولة - المواطن العالمى. الأخلاق السياسية فى عصر العولمة" تأليف أوتفريد هوفه (2009)، بتكليف من معهد جوته الألمانى بالقاهرة وإصدارات المركز القومى للترجمة.

وهذا النفور من التلامس يلزمنا حتى أثناء وجودنا بين الناس. فقد أملت علينا هذه الرهبة اسلوب حركتنا في الطريق بين كثير من الناس، وكذلك في المطاعم والقطارات والحافلات. حتى إذا اقتربنا كثيراً من آخرين، وكان بوسعنا تأملهم ومعاينتهم بدقة، فإننا نتفادي أي احتكاك بهم قدر الإمكان. فإذا ما فعلنا ذلك يكون هناك شيء ما قد أثار إعجابنا، فنبادر بالاقتراب منهم. أما الاعتذار السريع المعبر عن احتكاك غير متعمد، والقلق انتظاراً لذلك، ورد الفعل الحاد، الذي يكون جسدياً أحياناً -حتى لو لم يحدث ذلك- والنفور والكرهية تجاه من ارتكب ذلك، حتى مع الشك أنه ارتكب ذلك، فإن هذه السلسلة الكاملة من ردود الفعل النفسية تجاه ملامسة الغريب في حالاتها المتقلبة المتطرفة المستفزة تثبت أن الأمر هنا يدور حول شيء عميق للغاية ومتيقظ ومربك دائماً، إنه شيء يلزم المرء أبداً إذا ما أقام حدوداً حول نفسه. وهذا النوع من الرهبة يسبب الشعور بالاضطراب حتى أثناء النوم حينما يكون المرء غير قادر على الدفاع عن نفسه.

ISBN 978-977-313-725-0

